مرآة الزمان في تواريخ الأعيان

تصنيف

شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله

المعروف بسبط ابن الجوزي

٥٨١ - ٦٥٤ هـ

الجزء الأول

حققه هذا الجزء وعلق عليه

محمد بركات   كامل الخراط   عمار ريحاوي

الرسالة العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

مرآة الزمان في تواريخ الأعيان

١



بسم الله الرحمن الرحيم



دار الرسالة العالمية

شركة الرسالة العالمية م.م.

Al-Resalah Al-A'lamiah m.

Publishers

الطبعة الأولى

٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ

الإدارة العامة

Head Office

دمشق - الحجاز

شارع مسلم البارودي

بناء خولي وصلاحي

2625

(963)11-2212773

(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية

Syrian Arab Republic

info@resalahonline.com

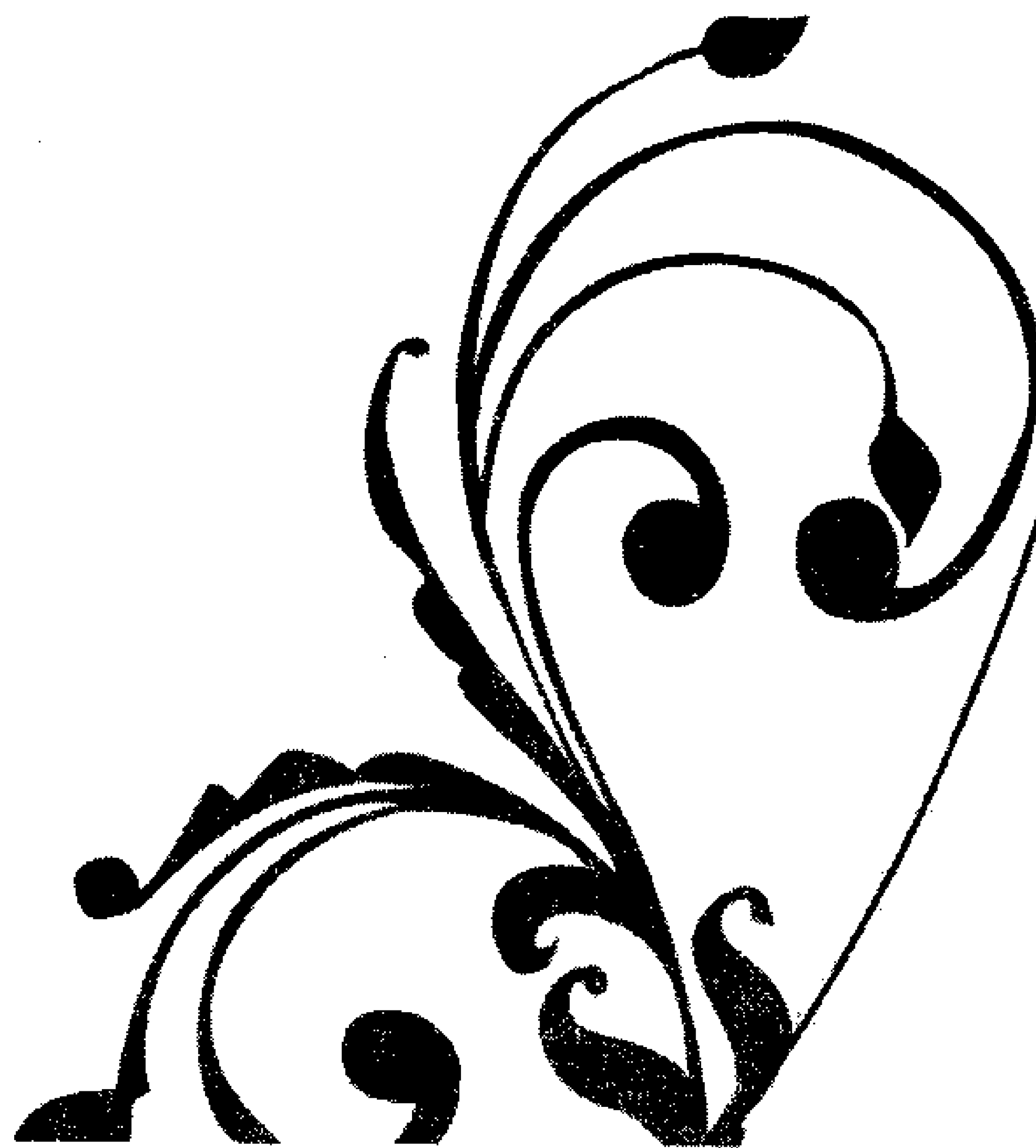
http://www.resalahonline.com

فرع بيروت

BEIRUT/LEBANON

TELEFAX: 815112- 319039- 818615

P.O. BOX:117460



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الواحد القديم المنَّان، الماجد العظيم الديَّان، الدائم لا إلى حدٍّ وأوان، القائم وكلُّ مَن عليها فان، الواجبِ الوجود وما سواه جائز الإمكان، كتب بأقلام الأحكام في ألواح الأرواح آياتِ التوحيد والإيمان، وأوقد قناديلَ القلوب بمصابيح التوفيق والامتنان، واختصَّ من شاء من خلقه بتكميل العقول وتصفية الأذهان، وبعث الرسل بالدلائل الواضحة والبرهان، لئلا يكون للناس على الله حجَّةٌ بعد النبيين المبعوثين في كل عصر وأوان، ووعد وأوعدَ ولا بدَّ من وفاء الضمان، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، أحمده إذ أنعم وصان، عددَ الأوراق والأغصان، وأُصَلِّي على رسوله محمد المبعوث إلى الإنس والجان، الذي ضُربت أطناب سُرادقات نصره في بيداء الدنيا، فانشقَّ من هيبته الإيوان، فصلَّى الله عليه صلاةً مقرونةً بالرضا والرضوان، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان، ما حدَّق إنسانُ إنسان، وسلم تسليماً كثيراً يدوم بدوام الأزمان.

فصل

وبعد فإن الفطر السليمة، والفكرَ المستقيمة، تستشرف إلى معرفة البدايات، وتشرئبُّ إلى إدراك المنشآت، ومَن تدبَّر مجاريَ الأقدار، ومبادي[1] الليل والنهار، صار كأنه عاصَر تلك العصور، وباشر تلك الأمور، وإليه وقعت الإشارة الإلهية، والأمارة الربَّانية، إلى مَن رَبَا نيَّةً[2] بقوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠].

---

(١) في (ط): «مساري».

(٢) رسمت في (ل): «ربى نيه»، وفي (ب) غير مقروءة، والذي في المطبوع: ربا نية، والعبارة غامضة، وقد نقل كلام السبط السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» ص٤٨ وكتب بدلها: «إلى سيد الأولين والآخرين».

وقال سبحانه في كتابه المجيد: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾[هود: ١٠٠]. في آيات كثيرة وإشارات[١] غزيرة. فالله تعالى مَنَّ على نبيِّه ﷺ بما قَصَّ عليه من أخبار الأمم في سالف الدهور والأعوام.

فصل

ومقاصد الناس في ذلك تختلف، على ما قد أُلِف، منهم مَن يؤثر مطالعةَ سِيرِ القدماء والحكماء، ومنهم من يميل إلى سماع أنباء الأنبياء والخلفاء والملوك والوزراء والأدباء والشعراء، ومنهم من يختار النظر في سير الفضلاء والزهاد والعبَّاد والصلحاء، ومنهم مَن مَقصودُه الوقوفُ على سيرة حازم ليستفيد منها حُسن التدبير، أو على آثار مُفَرِّط[٢] ليحذّر من مثلها كلُّ التحذير، وهذا حرف المسألة في معرفة السير، لمن فَهم المعنى وخَبَر الخبر.

ولما كان الغالب على التواريخ جمع الغث والسمين، والواهي والمتين، والتكرار الخالي عن الفوائد والفرائد التي يعجز عن جمعها ألفُ رائد، استخرت الله تعالى في تحرير هذا الكتاب، المشتمل على ما أشرتُ إليه من فصول الخطاب، وفنون العلوم والآداب، والسيرة والأنساب، ولو مددت فيه أطنابَ الإطناب، وأسباب الإسهاب، لانقطع سير السُّرى وكَلَّ كُلُّ الرِّكاب، وخيرُ الكلامِ ما قلَّ ودلَّ، ولم يَطُل فيُملَّ.

وشرطُه: أن أبتدئ بما ذكرت في تراجم الأبواب، من أن [في] خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لِأُولي الألباب. ثم أُتبع ذلك من سيرة نبينا ﷺ بالحوادث في كل عام، ومن توفي من الأعيان والأعلام، وبداية التاريخ بالسنين، من مولد سيد المرسلين، وقلدت مَن سَلَف مِن السَّلف في الجرح والتعديل، لأنه لا يتوقف على الدليل، وسميته: «**مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**»، ليكون اسماً يوافق مسمَّاه، ولفظاً يطابق معناه.

وقبل الشروع فيه لابد من ذكر فصول، تكون لتقرير قواعده كالأصول:

---

(١) في (ب): «وآيات».

(٢) في (ب): «مقصر».

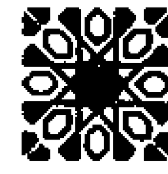
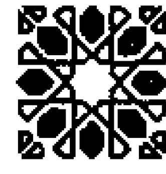
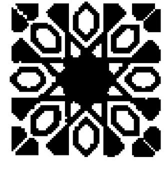
الفصل الأول: في معرفة التأريخ، وهل فرقت العرب بينه وبين التوريخ.

الفصل الثاني: في عيون التواريخ والآثار وأسانيد الأخبار.

الفصل الثالث: في انقضاء مدة العالم وما تقدم من السنين وتقادم.

الفصل الرابع: فيما ينبغي للمؤلف استعماله من الكلام المتسق النظام.

الفصل الخامس: في تراجم الأبواب[١].

---

(١) اقتصر مختصر الكتاب قطب الدين اليونيني على الفصل الأول والثالث، وحذف بقية الفصول.

الفصل الأول
في معرفة التاريخ

قرأت على شيخنا العلامة أبي اليُمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي اللغوي رحمه الله تعالى بدمشق في شهور سنة أربع وستمائة كتابَ «المعرَّب من الكلام الأعجمي» تأليف شيخه أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر المعروف بابن الجواليقي، وقرأت عليه الكتاب جميعه، وقرأه على مصنفه، قال: يقال: إن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربيٍّ محض، وإنَّ المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب، وتاريخ المسلمين أُرِّخَ من سنة الهجرة، كُتب في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، فصار تأريخاً إلى اليوم[١].

وقال أبو نصر الجوهري في «الصحاح»: التأريخ تعريف الوقت، والتوريخ[٢] مثله، وأرَّختُ الكتاب بيوم كذا، وورَّخته بمعنًى، قال: والإِراخُ بقر الوحش[٣]. رواه بالكسر.

قلت: وقد فرَّق الأصمعي بين اللغتين، فقال: بنو تميم يقولون: وَرَّختُ الكتابَ توريخاً، وقيس تقول: أرخته تأريخاً[٤].

وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتاب«الخراج» له: إنَّ تاريخَ كُلِّ شيء آخره، فيؤرخون بالوقت الذي فيه حوادث مشهورة[٥].

---

(١) «المعرب»: ص١٣٧. وقد اقتبس هذا الفصل الدواداري في «كنز الدرر»: ١/ ٩٢-٩٣.

(٢) في (ب) و(ل): والتعريف، والمثبت من مطبوعة الدكتور إحسان عباس وأشرنا إليها بـ (ط).

(٣) «الصحاح»: (أرخ).

(٤) انظر «الإعلان بالتوبيخ» ص١٧، و«أدب الكتاب» للصولي ص١٧٨.

(٥) هذا النص مما خرم من كتاب «الخراج». وقد نقله عن قدامة ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: ١/ ١٠ (مصورة دار البشير).

وقال ابن عباس: قد ذكر الله التاريخ في كتابه فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[البقرة: ١٨٩].حدثنا عبد الوهاب المقرئ بإسناده عن ابن عباس قال: سأل مُعاذُ بن جَبَلٍ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما بالُ الهلالِ يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقصُ ويدقُّ حتى يَعودَ كما كان على حال واحد؟ فنزل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: في دينهم وصومهم وفطرهم، وعِدَّة نسائهم، والشروط التي تنتهي إلى أجلٍ معلوم[١]. وقال قتادة في تفسير الآية: جعلها الله تعالى مواقيتَ لصوم المسلمين وإفطارهم وحجِّهم ومناسكهم وعِدَدِ نسائهم وغير ذلك، والله أعلم بما يصلح خلقه[٢].

وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، حدثنا نافع، عن ابن عمر قال: ذُكِرَ الهلالُ عند رسول الله ﷺ فقال: «لا تصوموا حتى تروه، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غُمَّ عليكم فأكملوا عِدَّةَ شعبانَ ثلاثين يوماً ثم صوموا»، أخرجاه في «الصحيحين»[٣].

واختلفوا في مبدأ التاريخ على أقوال:

أحدها: حدثنا جدِّي، حدثنا أبو غالب محمد بن الحسن الماوردي بإسناده إلى عبد العزيز بن عمران قال، قال عامر الشعبي: لما كثر بنو آدم عليه السلام في الأرض وانتشروا أَرَّخوا من هبوط آدم، فكان التاريخ إلى الطوفان، ثم إلى نار الخليل عليه السلام، ثم إلى زمان يوسف عليه السلام، ثم إلى خروج موسى عليه السلام من مصر ببني إسرائيل، ثم إلى زمان داود عليه السلام، ثم إلى زمان سليمان عليه السلام، ثم إلى زمان عيسى[٤]. وقد رواه محمد بن إسحاق عن ابن عباس.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١/ ١٠، وانظر «كنز الدرر»: ١/ ٩٣.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره»: ٢/ ١٨٥.

(٣) أحمد في «مسنده» (٤٤٨٨)، والبخاري (١٩٠٦)، ومسلم (١٠٨٠)، ولفظه عندهم بغير هذا السياق.

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ١/ ١٥، وانظر «عمدة القاري» ١٧/ ٦٦، و«الإعلان بالتوبيخ» ص١٣٦.

والثاني: أن التاريخ كان من آدم إلى الطوفان، ثم إلى نار الخليل عليه السلام، ثم أرَّخ بنو إسماعيل من بناء البيت، ثم إلى مَعَدِّ بن عدنان، ثم إلى كعب بن لؤي، ثم من كعب إلى عام الفيل؛ قاله الواقدي.

والقول الثالث: أن حِمْيَر تؤرخ بالتَّبابِعة، وغسانَ بالسُّد، وأهلَ صنعاء بظهور الحبشة على اليمن، ثم بغلبة الفرس؛ ثم أرَّخت العرب بالأيام المشهورة، كحرب البسوس وداحس والغبراء، وبيوم ذي قار، والفجارين[1] ونحوه، وبين حرب البسوس ومبعث نبيّنا ﷺ ستون سنة. حكاه محمد بن سعد عن ابن الكلبي.

والرابع[2]: أن الفرس أرَّخت بأربعِ طبقات من ملوكها، فالأول: بكيومرت وقيل: طَهْمُورُث بالطاء، ويقال له: «كِل شاه» ومعناه ملك الطين، ويعتقدون أنه آدم، والثاني: بيَزْدَجِرْد، والثالث: أَرْدَشير بن بَابَك، والرابع: بأَنُو شِروان العادل. حكاه هشام بن الكلبي عن أبيه.

قال: وأما الروم فأرَّخت بقتل دارا بن دارا إلى ظهور الفرس عليهم.

وأما القبط فأرَّخَتْ ببُخْتَنَصَّر إلى قلابطرة صاحبة مصر، وأما اليهود فأرَّخَت بخراب بيت المقدس.

وأما النصارى فبرفع المسيح عليه السلام.

وقال أبو معشر[3]: التواريخُ أكثرُها مَدْخول، والفسادُ يعتريها من أجل أنَّه يأتي

---

(١) في (ب) و(ط): «الفجار»

(٢) انظر «الإعلان بالتوبيخ»: ص١٣٧.

(٣) هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي، المنجم المشهور، كان إمام وقته، وكان من أصحاب الحديث، ثم تحول إلى علوم الحساب والهندسة، ثم عدل إلى علم أحكام النجوم، وكان عمره (٤٧) سنة، وتوفي وقد جاوز المئة، وكان فاضلاً حسن الإصابة، ضربه المستعين أسواطاً لأنه أصاب في شيء، فكان يقول: أصبت فعوقبت (ت٢٧٢هـ)، من تصانيفه: «الزيج» و«مواليد الرجال والنساء». انظر ترجمته في «الفهرست» ص٣٣٥، و«وفيات الأعيان» ١/ ٣٥٨.

على سني أمَّة من الأمم زمان من الأزمنة، وتطول أيامه، فإذا نقلوه من كتاب إلى كتاب أو من لسان إلى لسان يقع فيه الغلط، إما بالزيادة فيه أو النقصان منه، كالغلط الذي وقع بين آدم ونوح والأنبياء في السنين، فإن اليهود قد اختلفوا في ذلك اختلافاً متفاوتاً، وكذا ما وقع في تواريخ الفرس مع اتصال ملكهم إلى أن زال، في تخليط كثير.

والدَّليل على صحة ما ذَكَر أبو معشر قوله ﷺ: «لا تجاوزوا عدنان، كذب النَّسّابون»[١]. وسنذكر الحديث في سيرته ﷺ[٢].

قلت: وهذا الذي أشرنا إليه يتعلق بالجاهلية، فأما في الإسلام فقد اختلفت الروايات، فروى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر[٣] رحمه الله تعالى في «تاريخ دمشق» عن أنس بن مالك أنَّه قال: كان التاريخ من مَقْدَمِ رسول الله ﷺ المدينة، وكذا قال الزهرِي: قَدِم رسول الله ﷺ المدينة في ربيع الأول، فأرَّخوا.

قال الحافظ: المحفوظ أنَّ الأمر بالتاريخ من زمان عمر بن الخطاب ﷺ[٤].

قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة وليس لهم تاريخ، فكانوا يؤرخون بالشَّهر والشَّهرين من مَقْدمه، فأقاموا على ذلك إلى أن توفي رسول الله ﷺ وانقطع التاريخ، ومضت أيام أبي بكر ﷺ على هذا وأربع سنين من خلافة عمر، ثم وضع التاريخ[٥].

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٥٦، وابن عساكر في «تاريخه» ١/ ٣٩٥ عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معدَّ بن عدنان بن أدد، ثم يمسك ويقول: «كذب النسابون، قال الله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾».
وأخرجه ابن سعد ١/ ٥٦، والطبري في «تفسيره» ١٣/ ١٨٧ عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: ﴿وعاداً وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ ثم يقول: كذب النسابون. قال ابن كثير في «البداية والنهاية» ٢/ ١٩٤: والأصح عن ابن مسعود.

(٢) لم يرد الحديث في سيرته، ولعل المختصر قطب الدين اليونيني قد اختصره، أو سها عنه المؤلف.

(٣) «تاريخ دمشق» ١/ ١٥، ١٦.

(٤) «تاريخ دمشق»: ١/ ١٦.

(٥) انظر «عمدة القاري» ١٧/ ٦٦، و«الإعلان بالتوبيخ» ص١٣٤.

واختلفوا[١] في سببه: فروى ابن السمرقندي[٢] أنَّ أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر: إنَّه يأتينا منك كتبٌ ليس لها تاريخ، فأرِّخ لتستقيمَ الأحوالُ، فأرَّخ[٣].

وقال أبو اليقظان[٤]: رفع إلى عمر صكٌّ محلّه في شعبان فقال: أيما شعبان؛ هذا الذي نحن فيه أم الماضي أم الذي يأتي[٥]؟

وقال الهيثم بن عدي[٦]: أول من أرَّخ يعلى بن أمية، كتب إلى عمر من اليمن كتاباً مؤرخاً، فاستحسنه، وشرع في التاريخ[٧].

وقال ابن عباس[٨]: لما عزم عمر على التاريخ جمع الصحابة واستشارهم، فقال سعد بن أبي وقاص: أَرِّخْ لوفاة رسول الله ﷺ، وقال طلحة: أرّخ لمبعثه، وقال عليّ ابن أبي طالب: أرِّخ لهجرته، فإنها فرَّقت بين الحقّ والباطل، وقال آخرون: لمولده، وقال قوم: لنبوته. كان هذا في سنة سبع عشرة من الهجرة، وقيل: في سنة ست عشرة، فاتفقوا على هذا.

ثم اختلفوا في الشهور: فقال عبدالرحمن بن عوف: أرِّخْ لرجب، فإنه أول الأشهر الحرم، وقال طلحة: من رمضان لأنه شهر الأمَّة، وقال عليّ: من المحرّم لأنه أول السنة، وهو من الأشهر الحرم، وقيل: إنما أشار بالمحرم عثمان، والأولُ أصح.

---

(١) من هنا بدأ السقط في (ب) إلى قبيل فصل في الفرات ص١٢٠ من هذا الجزء

(٢) هو إسماعيل بن أحمد بن عمر، أبو القاسم، شيخ ابن عساكر وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٣٦هـ).

(٣) انظر «عمدة القاري» ١٧/ ٦٦، و«الإعلان بالتوبيخ» ص١٣١.

(٤) هو عامر بن حفص، ويلقب بسحيم، وكان عالماً بالأنساب والمآثر والمثالب، ثقة فيما يرويه (ت١٧٠هـ) له تصانيف منها: «أخبار تميم» و«النسب الكبير» انظر ترجمته في «الفهرست» ص١٠٦.

(٥) انظر «عمدة القاري» ١٧/٦٦.

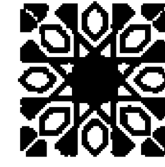
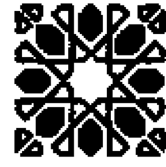
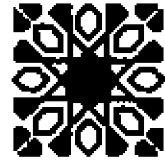
(٦) أبو عبد الرحمن الثُّعَلي المؤرخ، عالم بالشعر والأخبار والمثالب والمآثر والأنساب، توفي في «فم الصلح» قرب واسط سنة (٢٠٧هـ) من كتبه: «المعمرين» و«كتاب المثالب» انظر ترجمته في «الفهرست» ص١١٢، و«سير أعلام النبلاء» ١٠/ ١٠٣.

(٧) انظر «عمدة القاري» ١٧/ ٦٦، و«الإعلان بالتوبيخ» ص١٣٢.

(٨) الخبر بنحوه في «الإعلان بالتوبيخ» ص١٣٤ . وانظر «تاريخ دمشق» : ١/ ١٧-١٨.

قال ابن سيرين وابن المسيب: ثبت التاريخ بمشورة علي؛ وقال الأصمعيّ: إنما أرَّخوا من ربيع الأول شهر الهجرة، وهو وهم، والأول أصح: من المحرم.

وقال سفيان الثوري: بالتاريخ يتبين كذب الرواة من صدقهم؛ وقال حفص بن غياث: إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين، احسبوا سنَّه وسنَّ من كتب عنه؛ وقال حماد بن زيد: لم يُسْتَعَنْ على الكذابين بمثل التاريخ.

فصل
في انقضاء مدة العالم وابتدائه(١)

اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

أحدها: أن عُمْر الدنيا من هبوط آدم إلى الهجرة سبعة آلاف سنة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هي جمعةٌ من جُمَعِ الآخرة، قد مضى منها ستة آلاف سنة وبقي ألف سنة(٢).

والثاني: أن عمر الدنيا ستة آلاف سنة(٣) وسبع مئة سنة. قاله كعب الأحبار ووهب ابن منبه.

والثالث: أربعة آلاف سنة وست مئة سنة واثنتان وأربعون سنة وهو نص التوراة(٤).

والرابع: خمسة آلاف سنة وخمس مئة واثنتان وثلاثون سنة، وهذا قول النصارى(٥).

والخامس: أربعة آلاف سنة ومئة واثنتان وثمانون سنة. وهذا قول اليونان.

والسادس: حكاه أبو جعفر الطبري عن المجوس فقال: وأما المجوس فيزعمون أن قدر مدة الزمان من لدن «كيَوْمَرت» إلى وقت هجرة نبيّنا ﷺ ثلاثة آلاف سنة ومئة وتسع وثلاثون سنة، ولا يذكرون شيئاً فوق كيومرت، وهو آدم عندهم(٦).

قلت: وقد اختار الطبري القولَ الأول، وهو سبعة آلاف سنة، واحتجَّ بأخبار منها ما رواه في «تاريخه» فقال(٧):

حدثنا محمد بن بشار بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أجلكم من

---

(١) هذا الفصل الثالث من فصول المقدمة، وقد قفز إليه قطب الدين اليونيني متجاوزاً الفصل الثاني، انظر ص٧ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٠.

(٣) في (ط): «ألف سنة»، والمثبت من (ل)، وأخرج خبرهما الطبري في «تاريخه» ١/ ١٠.

(٤) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٧، و«الكامل» ١/ ١٤.

(٥) الذي في «تاريخ الطبري» ١/ ١٨، و«الكامل» ١/ ١٤: إن من خلق آدم إلى الهجرة خمسة آلاف سنة وتسعمائة واثنتين وتسعين سنة وشهوراً.

(٦) «تاريخ الطبري» ١/ ١٨.

(٧) «تاريخ الطبري» ١/ ١١.

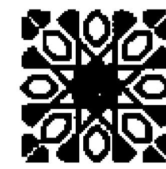
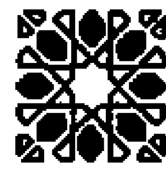
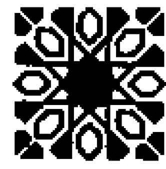
أجلِ مَنْ كان قبلكم، من صلاة العصر إلى مغرب الشمس» انفرد بإخراجه البخاري[(١)].

وقال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى، قلت: وهذا حديث متفق على صحته[(٢)].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[لقمان: ٣٤]، وكقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ﴾[الأعراف: ١٨٦-١٨٧] ونحو ذلك.

وروى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عمر الدنيا سبعة أيام من أيام الآخرة»[(٣)].

وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[(٤)].

(١) البخاري (٣٤٥٩).

(٢) البخاري (٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد ﷺ. وأخرجه ـ أيضاً ـ البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أورده الديلمي في «مسند الفردوس» (٤١٥١) عن أنس موقوفاً.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فصل
في حَدَثِ العالم[١] وإثبات الصانع بالدلائل القواطع[٢]

اختلف العلماء في مبلغ العالم على أقوال:

أحدها: أنهم ثمانون ألف عالم ـ قاله مقاتل ـ أربعون ألفاً في البر، وأربعون ألفاً في البحر، وحكاه عن عبيد بن عمير.

والثاني: أربعون ألف عالم، الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد، وما العمارة في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء، قاله وهب بن منبه.

والثالث: أنه ألف عالم، ست مئة في البحر وأربع مئة في البر، قاله سعيد بن المسيب.

والرابع: ثمانية عشر ألف عالم، قاله الحسن.

والخامس: أنه لا يقدر أحدٌ أن يحصيهم سوى الله تعالى، وهو الأصح، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر: ٣١].

فأما إثبات الصانع، فقال أحمد بن حنبل رحمه الله ـ وقد تقدم إسنادنا إليه[٣] ـ حدثنا أبو معاوية بإسناده عن عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ لبني تميم: «يا بني تميم اقبلوا البشرى» قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، فتغير وجهه وقال: «يا أهلَ اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم» فقالوا: يارسول الله قد بشرتنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان، فقال: «كان الله ولم يكن شيء ـ أو قبل كل شيء ـ وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في اللوح المحفوظ ـ أو في الذكر ـ كلَّ شيء». انفرد بإخراجه البخاري[٤].

---

(١) في هامش الأصل: قال أبو العباس أحمد البوني ﷺ: من قال بحدث العالم فقد قال بقدمه من حيث لايشعر. وهذا القول فيه انغلاق.

(٢) هذا الفصل اقتبس أكثره من «مرآة الزمان» الدواداري في «كنز الدرر» ١/ ١٤ وما بعدها.

(٣) هذا أحد الأدلة على أن الذي بين أيدينا هو مختصر قطب الدين اليونيني، فقد ساق الحديث من «مسند أحمد»، وحذف إسناد سبط ابن الجوزي إليه، انظر ص ١٠ من هذا الجزء.

(٤) أحمد في «مسنده» (١٩٨٧٦)، والبخاري (٣١٩١).

فصل

إذا ثبت هذا فنقول: مذهب جملة المسلمين أن الله تعالى كان ولم يكن معه شيء، وأنه أحدث العالم على غير مثال، ومذهب الأوائل: أنَّ العالم قديم، وأن الفلكَ لم يزل دائراً بشمسه وقمره.

وقال قومٌ من الفلاسفة بقدم العناصر والهيولى الذي هو أصل العالم؛ وقال أصحاب الرَّصَد بأنَّ الأفلاك والنجوم تدبِّر أمر العالم. ونحن نرى أثر العجز عليها ظاهراً: أما النجوم فبالخسوف والكسوف والانتقال، وأما الأفلاكُ فبالدوران، وهذا آية القهر، [فالصانع قاهر][(١)]، وصانع العالم واحد.

وقالت المجوس: هما اثنان النور والظلمة، فالنور يقال له: يَزْدان، والظلمة: أهْرِمَن. وهذا شيء اخترعوه من غير أصل، وبطلان قولهم ظاهر، إذ لو كانا اثنين لجاز أن يكون أحدهما مريداً لحركته والآخر مريداً لسكونه، فحصلا معاً متضادين ولا يجوز؛ وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢].

وروينا عن شقيق البلخيّ[(٢)] رحمه الله أنه قال: قرأت أربعة وعشرين كتاباً في التوحيد فوجدت معانيها كلها في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

فصل[(٣)]

ولا يجوز أن يكون له ولد لوجوه:

أحدها: أنه لو كان له ولد لاستأثر الأشياءَ كلَّها لولده فتتعطَّل مصالحُ عباده.

والثاني: أن الولدَ نتيجةُ الشهوة، والله تعالى منزَّهٌ عن ذلك.

والثالث: لأن الولد بعضُ الوالد، والله منزَّه عن البعضية.



(١) مابين حاصرتين زيادة من «كنز الدرر» ١/ ١٥.

(٢) هو شقيق بن إبراهيم، ستأتي ترجمته في وفيات سنة (١٩٤هـ).

(٣) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٦.

فصل[١]

ولا يجوز عليه نوم لوجوه:

أحدها: لئلا يرجعَ الداعي عن بابه خائباً.

والثاني: لأنَّ النوم غفلة والباري منزَّه عنها.

والثالث: لأن الله يمسك السماء بغير عمد ولا عِلاقة، فلو نام لوقعت على الأرض؛ وقال أبو إسحاق الثعلبي[٢] بإسناده عن عكرمة عن أبي هريرة قال: سمعت النبيّ ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال: «وقع في نفس موسى هل ينام الله تعالى؟ فأرسل إليه ملكاً فأَرَّقهُ ثلاثاً وأعطاه قارورتين، في كلِّ يدٍ قارورة، وأمره أن يتحفَّظ بهما، قال: وجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان فيحبس إحداهما على الأخرى، حتى نام نومةً فاصطكت يداه فانكسرت القارورتان؛ قال: فضرب الله مثلاً أنه لو نام لم تستمسك السماوات والأرض»[٣].

والرابع: لأن النوم آفة، ويزيل العقلَ والقوةَ ويقهرهما، والله تعالى لا يجوز عليه ذلك.

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٦.

(٢) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم، الثعلبي النيسابوري المفسر، من تصانيفه: «التفسير الكبير» و«عرائس المجالس» (ت٤٢٧هـ). انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» ١/ ٧٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٣/ ٨، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٦٦٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» ١/ ٢٦٨، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢٢، ٢٣) من طريق أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان عن عكرمة، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ. وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ٨٣ وقال: وفيه أمية بن شبل، ذكره الذهبي في «الميزان» ولم يذكر أن أحداً ضعفه، وإنما ذكر له هذا الحديث وضعفه به.

وقال ابن كثير في «تفسيره» ١/ ٣٠٨: وهذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع، والله أعلم.

وقال الخطيب: هكذا رواه أمية بن شبل عن الحكم بن أبان موصولاً لا مرفوعاً، وخالفه معمر بن راشد فرواه عن الحكم عن عكرمة قوله.

وأخرجه الخطيب ١/ ٢٦٨ من طريق عبدالرزاق، عن معمر، عن الحكم، عن عكرمة، موقوفاً عليه. وقال ابن الجوزي في «العلل» ١/ ٤١: ولا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وغلط من رفعه والظاهر أن عكرمة رأى هذا في كتب اليهود فرواه، فما يزال عكرمة يذكر عنهم أشياء.

والخامس: لأن النوم استراحة، والله تعالى لا يأخذه تعبٌ فيستريح؛ وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن سفيان الثوري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبدالله قال: سئل رسول الله ﷺ أينامُ أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت»[1].

وقال الله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة: ٢٥٥] السِّنَةُ: النوم الخفيف وهي النعاس؛ وقال الزجّاج[2]: هي ريح تجيء من قبل الرأس لينة فتغشي العين، والوسنان بين النائم واليقظان.

فإن قيل: فالملائكة لا تنام فقد شاركت الباري في هذه الحالة؟! فالجواب: أن الملائكة لا تنام ويجوز عليها النوم، والباري سبحانه وتعالى لا يجوز عليه ذلك.

فصل[3]

والباري سبحانه ليس بجسم، وقالت الكَرَّامية: هو جسم إلا أنه لا يشبه الأجسام. واحتجوا بما ورد من آيات الصفات كقوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[هود: ٣٧] وبأخبار الصفات ونحوها، ونحن نقول: الجسم محدود بالطول والعرض ونحوه، والباري ليس بمحدودٍ بالطُّول والعرض، وأمَّا الآيات والأخبار فمؤوَّلة بما يليق به سبحانه.



(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ٣٥١٧)، والعقيلي في «الضعفاء» ٢/ ٣٠٨، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٣، ٨٨١١)، وابن عدي في «الكامل» ٤/ ١٥٣٣، وأبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٩٠، وابن الجوزي في «العلل» (١٥٥٣، ١٥٥٤).
وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٤١٥ وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح.
وقال الرازي في «العلل» ٢/ ٢١٩: الصحيح عن ابن المنكدر عن النبي ﷺ، ليس فيه جابر.
وأخرجه العقيلي ٢/ ٣٠١ عن ابن المنكدر عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٢) هو إبراهيم بن السري، أبو إسحاق البغدادي، نحوي زمانه، من تصانيفه: «معاني القرآن» و«فعلت وأفعلت» (ت٣١٠هـ). انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» ١٤/ ٣٦٠.

(٣) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٦.

فصل(١)

وهو موصوف بما وصف به نفسه من العلمِ، والقدرة، والحياة، والإرادة، والسَّمع، والبصر، والكلام، ونحوِه في كتابه القديم وعلى لسان رسوله الكريم، وقد بسطنا القول في هذه الفصول في كتابنا المسمى بـ «النَّضيد في مسائل التَّوحيد».

فصل(٢)

واختلف العلماء في أول المخلوقات على أقوال:

أحدها: أن أول المخلوقات القلم، وقال أحمد بن حنبل بإسناده إلى عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اجرِ ـ أو اكتب ـ فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة»(٣). وهذا اختيار ابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وعامة العلماء.

وقال ابن عباس: لما خلق الله القلم وقال له: اجرِ بما هو كائن إلى يوم القيامة، جرى على اللوح المحفوظ بذلك؛ وفي رواية عن ابن عباس: فسبَّح الله ومجَّده ألف عام قبل أن يكتب المقدرات. قال: وهو في زمردة خضراء، طوله ألفُ عام، وهو مشقوقٌ بالنور، ولما نظر الله إليه انشقَّ نصفين(٤) من هيبة الله تعالى.

وأما النون، فقد اختلفوا فيه فقال قوم: هو الدَّواة، وهو اختيار الحسن وقتادة والضحاك، ورواية الثمالي عن ابن عباس.

وعامةُ المفسِّرين على أنَّ النون الحوت الذي يحمل الأرض، وسنذكره في بابه.



---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٨.

(٢) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٤.

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٢٧٠٧).

(٤) في (ل) و(ط): «بنصفين» والمثبت من «كنز الدرر».

فصل

وقد أكثر العلماء في وصف القلم، وروي عن ابن المقفع(١) أنه قال: الأقلامُ مطايا الفطن(٢) ورسل الكرام وبيان البنان. وقوام الأمور بشيئين بالقلم والسيف، والقلم فوق السيف(٣). وأنشد(٤): [من البسيط]

إنْ يخدمِ القلمُ السيفَ الذي خَضَعتْ ... له الرِّقابُ ودانت دونه الأُمَمُ
فالموتُ والموتُ لا شيءٌ يخالفه ... ما زال يتبعُ ما يجري به القلمُ
كذا قضى الله للأقلام مُذ بُرِيَت ... أنَّ السّيوف لها مذ أرْهِفَتْ خدم

وقال أبو إسحاق الثَّعلبي: أنشدنا أبو القاسم السدوسي، أنشدنا أبو السميع الهاشمي، أنشدنا ابن صغنون لأبي تمام الطَّائي(٥): [من الكامل]

ولَضربةٌ من كاتبٍ ببنانه ... أمضى وأبلغُ من دقيقِ حسامِ
قومٌ إذا عزموا عداوةَ حاسدٍ ... سفكوا الدما بأَسِنَّةِ الأَقلام

قلت وقد ناقض أبو تمام قوله: [من البسيط]

السيفُ أصدق إنباءً من الكُتُبِ(٦)

ومن أحسن ما قيل في هذا الباب قول البُحْتُري(٧): [من البسيط]

---

(١) هو عبدالله بن المقفع، ستأتي ترجمته في وفيات سنة (١٤٥هـ).

(٢) وردت هذه العبارة عن عدد من الأعيان منهم عمرو بن مسعدة والعتابي والبحتري، انظر «أدب الكتاب» ٦٧ و٦٨، و«صبح الأعشى» ٢/ ٤٤٧، وعبارة ابن المقفع في أدب الكتاب: القلم بريد القلب يخبر بالخير وينظر بلا نظر.

(٣) انظر «أدب الكتاب» ص٧٥.

(٤) في (ل) زيادة بعدها: لأبي الفتح البستي رضي الله عنه. ولم أقف على من نسب الأبيات الآتية له، وإنما نسبت إلى علي بن العباس النوبختي أو ابن الرومي، انظر زهر الآداب ٤٣١، وديوان المعاني ٧٧، والعمدة ٢/ ١٠٢، وديوان ابن الرومي ٦/ ٢٢٩٤.

(٥) هو حبيب بن أوس، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٢٨٣هـ)، والأبيات في «المحاسن والمساوئ» ص١٢، و«معجم الأدباء» ١٧/ ١٤١، ولم نقف عليهما في ديوانه.

(٦) البيت في ديوانه ١/ ٤٠، وتمامه: «في حده الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ».

(٧) هو الوليد بن عبيد، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٢٨٤هـ)، ولم نقف على البيتين في ديوانه، وأوردهما =

قومٌ إذا أخذوا الأقلامَ من غضب ثم استمدوا بها ماء المنيّاتِ
نالوا بها من أعاديهم وإن كثروا ما لا يُنالُ بحدِّ المشرفيّاتِ

و القول الثاني: إن أول ما خلق الله الماء. رواه الضحاك عن ابن عباس[1]، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود: ٧] قال: خلق الله جوهراً فصيَّره ماء.

والقول الثالث: النُّور والظُّلمة، قاله محمد بن إسحاق، قال: ثم مَيَّزَ[2] بينهما فجعل الظُّلمة ليلاً والنهار مضيئاً.

والرابع: العرش والكرسي، قاله وهب بن منبه.

والخامس: اللوح، قاله مقاتل.

والسادس: نقطة، فنظر إليها فمالت فصيرها ألِفاً فبدأ به المخلوقات.

والقول الأول أظهر.

فصل[3]

أول المخلوقات القلم.

أول جبل وضع في الأرض أبو قبيس، وقيل: قاف وسنذكره في الجبال.

أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام.

أول بيت وضع للعبادة الكعبة.

أول الأنبياء آدم عليه السلام.

أول قتيل في الأرض هابيل.

أول من خطَّ بالقلم وخاط الثياب إدريس، وكان الناس يلبسون الجلود.

أول من اختتن، وأضاف الضيف، واستحدَّ وجزَّ شاربه، وقصَّ أظفاره وَفَرَقَ رأسه،

= الصفدي في «الوافي بالوفيات» ٧/ ١١٦ عن المستظهر بالله لنفسه، والوطواط في «غرر الخصائص» ص١٥٠.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٣٥.

(٢) في (ل): «خير» والمثبت من (ط).

(٣) انظر «الأوائل» للطبراني (١، ٩، ١٠، ١٣، ٤١)، و«الأوائل» للعسكري ١/ ١٤٠، ٢/ ١٩٩، ٢٠١، =

ورأى الشَيبَ، ونصب أنصاب الحرم، وَيُكْسَى حُلَّةً يوم القيامة إبراهيم عليه السلام.

أول من تكلم بالعربية، وركب الخيل إسماعيل.

أول من عمل القراطيس يوسف.

أول من سرد الدروع وكانت صفائح، وقال: «أما بعد» داود.

أول من دخل الحمام وصنعت له النُّوْرَة وكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» وعمل له الصابون سليمان عليه السلام.

أول من سمي بيحيى: يحيى بن زكريا.

فصل(١)

أول من تجبَّر في الأرض وخُبِزَ له الرقاق نمرود.

أول من خضب بالسواد وقطعَ الأيدي والأرجل من خلاف وصلب فرعون.

أول من طبخ الآجرَّ هامان.

فصل(٢)

أول من سيَّبَ السوائبَ وبَحَرَ البحائر، وحمى الحامَ، ووصل الوصيلة في الجاهلية عمرو بن لحيّ.

أول من قطع في السرقة وقضى بالقسامة ودخل الكعبة حافياً الوليد بن المغيرة.

أول من قسم للذكر مثل حظ الأنثيين، وصبغ بالزعفران عامر بن جشم.

أول من قضى في الخنثى من حيث يبول عامر بن الظَّرِب.

أول من سبى السبايا سبأ بن يعرب بن قحطان فسمي به، واسمه عامر.

أول من حذا النعال جذيمة بن مالك.

= و«لطائف المعارف» ص٦-٧، و«المدهش» ص٥٢، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص١٥، ٢٠، ٦٦، ٨٦.

(١) انظر «الأوائل» للعسكري ٢/ ١١٩، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص٢١، ٦٣، ٩١.

(٢) انظر «المعارف» ص٦٢٦، و«الأوائل» للعسكري ١/ ٢٢، ٥٧، ٦٤، ٧٥، ٧٧، ٩٨، و«لطائف المعارف» ص١١، و«المدهش» ص٥٢.

أول من سنَّ الديةَ مئة من الإبل عبدالمطلب.

أول عربية كست الكعبةَ الديباجَ نُتَيْلَة بنت جَناب(١) أم العباس بن عبدالمطلب.

فصل(٢)

أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة.

أول ما نزل عليه من القرآن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[العلق: ١].

أول ما علمه جبريل الوضوء.

أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن الصبيان عليّ ومن النساء خديجة ومن الموالي زيد بن حارثة.

أول آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾[الحج: ٣٩].

أول من أسلم من الأنصار جابر بن عبد الله بن رئاب(٣).

أول من هاجر إلى الحبشة حاطب بن عمرو.

أول من بايع ليلةَ العقبة أسعد بن زرارة، وقيل: البراء بن معرور.

أول من هاجر إلى المدينة مصعب بن عمير، ومن النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

أول من استقبل القبلة قبل أن يُفرَض استقبالها البَراءُ بن معرور.

أولُ من جمَّع بالمدينة مصعب بن عُمير، وقيل: أسعد بن زرارة، وهي أول جمعة جمعت في الإسلام.

أول من بنى لله مسجداً عمار بن ياسر.

---

(١) في (ط): «نثيلة بنت حباب»، وانظر «جمهرة أنساب العرب» ص١٥، و«توضيح المشتبه» ٩/ ٣٠.

(٢) انظر: «المعارف» ص٤٣٣، و«لطائف المعارف» ص١٢، ١٥، ١٨، و«الأوائل» للعسكري ١/ ١١٠، ١٥٨، ٢٦٥، ٣٠١، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٧، ٣٣٢، ٢/ ٣٠، ٥٠، ٦٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١٢٧، و«الأوائل» للطبراني (٦٢)، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص٢٥، ٢٩، ٣٨، ٣٩، ٤٢، ٦٣، ٦٤، ٧٦، ٨٦، ٩٤، ١٠١.

(٣) في (ط) و(ل): «ريان» والمثبت من «الإصابة» ١/ ٢١٢، و«توضيح المشتبه» ٤/ ١٠٨، و«تاج العروس» (رأب).

أول شهيدة في الإسلام سمية أم عمار.

أول من أذَّن بلال.

أول من أوصى في الإسلام بثلث ماله البراء بن معرور.

أول من رمى بسهمٍ في سبيل الله سعد بن أبي وقاص.

أول من عدا به فرسه في سبيل الله المقداد بن الأسود.

أول من سنَّ الصلاة عند القتل خبيب بن عديّ.

أول من دُفِنَ بالبقيع عثمان بن مظعون.

أول من سُمّي في الإسلام بمحمد محمد بن حاطب.

أول مولود وُلِد في الإسلام بالمدينة من أولاد المهاجرين عبدالله بن الزبير، ومن الأنصار النعمان بن بشير، وبالبصرة عبدالرحمن[1] بن أبي بكرة.

أول ظِهارٍ كان في الإسلام ظهار أوس بن الصامت.

أول لعانٍ كان في الإسلام لعان هلال بن أمية.

أول خلعٍ كان في الإسلام خلع ثابت بن قيس بن شماس.

أول مرجوم في الإسلام[2] ماعز.

أول رايةٍ عقدت في الإسلام راية عبد الله بن جحش، وهو أول من تسمَّى بأمير المؤمنين[3].

أول امرأة ضرب على قبرها فسطاط زينب بنت جحش.

أول من حُملت في المدينة على نعش فاطمة عليها السلام.

أول من جمع القرآن أبو بكر رضي الله عنه.

---

(١) في (ط) و(ل): «عبد الله»، والمثبت من «المعارف» ص٢٨٩، و«سير أعلام النبلاء» ٤/ ٣١٩-٣٢٠.

(٢) من هنا فقدت أوراق من (ل) إلى فصل في ذكر الأقاليم.. الإقليم السابع وسنعتمد مطبوعة الدكتور إحسان عباس.

(٣) في «المدهش» ص٥٣: هو أول من دعا: يا أمير المؤمنين. وفي «الأوائل» للطبراني (٦٢) عن سعد بن أبي وقاص: أمر رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش بن رئاب على سرية، وكان أول أمير في الإسلام.

أول مَنْ مَصَّرَ الأمصارَ ودَوَّنَ الدواوين وفرض الأعطية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أول من قصَّ في المسجد تميم الداري بإذن عمر.

أول من زاد في الأذانِ يومَ الجمعة وجلس في الخطبة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أول من مات من الصحابة بالكوفة ودفن بظاهرها خباب بن الأرتّ.

أول من عمل المقصورة في الجامع معاوية بن أبي سفيان .

أول رأسٍ حمل في الإسلام رأس عمر بن الجون.

أول من قدَّم الخطبةَ يومَ العيدِ قبل الصلاة مروان بن الحكم.

أول من وُرِثَ في الإسلام ابن نضلة[١]، مات بالحبشة فورثه ابنه النعمان.

أول من لبس الطيلسان بالمدينة جبير بن مطعم.

أول من ركب ومشى بين يديه الناس الأشعث بن قيس.

أول من عمل المحامل[٢] الحجاج بن يوسف.

أول من سمي في الإسلام عبدالملك، عبدالملك بن مروان.

أول من نقَّط المصاحف يحيى بن يعمر.

أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي.

أول قاضٍ بالمدينة عبدالله بن نوفل بن الحارث، وبالكوفة أبو قُرَّةَ الكندي، وبالبصرة كعب بن سُور، وبالعراق سلمان بن ربيعة، وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه.

فصل[٣]

واختلفوا في أي شيء خلق الله بعد القلم، فقال قوم: اللوح المحفوظ؛ وروى مجاهد عن ابن عباس قال: اللوح من درة بيضاء، وطوله مثل مابين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه من الدر والياقوت، وقلمه نور، وهو متصل

(١) هو عدي بن نضلة. انظر «الإصابة» ٢/ ٤٧١، و«الوسائل إلى معرفة الأوائل» ص٦٣.

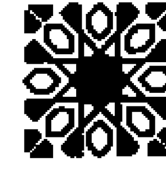
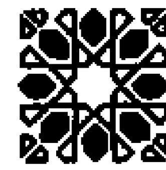
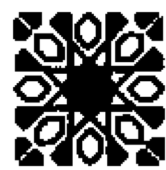
(٢) في (ط): «المحافل»، والمثبت من «الأوائل» للعسكري ٢/ ٦٠، و«تاج العروس» (حمل).

(٣) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٥.

بالعرش، ثم قرأ ابن عباس: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾الآية[١] [البروج: ٢٢]. وقد ذكر الثعلبي معناه.

وروي أيضاً عن أنس أن اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل[٢]. وقال مقاتل: هو عن يمين العرش.

وقال قومٌ: خلقَ بعد القلمِ الكرسيَّ ثم العرش، وسنذكره.

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ٥/ ١٣٥، والطبراني في «الكبير» (١٠٦٠٥)، والحاكم ٢/ ٤٧٤، ٥١٩ من طريق أبي حمزة الثمالي، وبكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لوددت أن عندي رجلاً من أهل القدر فوجأت رأسه، قالوا: ولم ذاك؟ قال: لأن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاث مئة نظرة، يخلق بكل نظرة ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء.

قال الحاكم أولاً: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: اسم أبي حمزة ثابت وهو واه بمرة. وقال ثانياً: هذا حديث صحيح الإسناد فإن أبا حمزة الثمالي لم ينقم عليه إلا الغلو في مذهبه فقط.

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ١٩١ وقال: رواه الطبراني من طريقين ورجال هذه ثقات.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٤/ ٢٨٧.

فصل
في حدّ الزمان والأيام وما نقل في ذلك عن العلماء والأعلام

الزمان: اسمٌ لقليلِ الوقتِ وكثيره، وطويلِهِ وقصيرِه، ويُجمع على أزمان وأزمِنة وأَزْمُن. وقد ذكره الجوهري[١]. ويقال: الزَّمَن أيضاً، وهو عبارة عن حركات الفلك، ويدخل فيه ساعات الليل والنهار، والساعات مقدَّرات بقطع الشمس والقمر درجات الفلك[٢].

فأما اليوم فقال الجوهري: أصله أَيْوَام، وجمعه أيام[٣]. ومعياره من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، فإن قيل: إنما يعرف اليوم بطلوع الشمس وغروبها ولم تكن الشمس يومئذ، فالجواب أن الباري سبحانه لا يحتاج إلى طلوع الشمس في مخلوقاته لأنه ليس عنده ليل ولا نهار، بذلك وردت الأخبار والآثار.

فالحاصل أنَّ الله خلق السماوات والأرضَ قبل خلقه الأيام والليالي والشمس والقمر، وقد رواه مجاهد عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت: ١١] فقال الله سبحانه وتعالى للسماوات: أطلعي شمسي وقمري ونجومي، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي ثمارك فأجابتا[٤].

واختلف العلماء في الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض والمخلوقات: هل هي مثل أيام الدنيا المعروفات أو مثل أيام الآخرة[٥]، كلُّ يوم[٦] ألفُ سنةٍ، على قولين: أحدهما: أنها مثل أيام الدنيا، قاله مجاهد والحسن البصري، لأنها هي المعهودة؛ والثاني: أنها مثل أيام الآخرة، وبه قال ابن عباس وعامة العلماء[٧]، قال

---

(١) «الصحاح»(زمن).
(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٢.
(٣) «الصحاح» (يوم).
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٤/ ٩٨.
(٥) في (ط): «الأخرى» والمثبت من «كنز الدرر» ١/ ٢٦.
(٦) في كنز الدرر ١/ ٢٦: كل يوم مقداره.
(٧) انظر «البدء والتاريخ» ٢/ ٥٢.

الله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[السجدة: ٥].

فإن قيل: فهلّا خلقها في لحظة واحدة وهو أهونُ عليه؟ فالجوابُ من وجوهٍ: أحدها: أنَّ التثبُّت أبلغُ في القدرة، والتعجيلُ لا تقتضيه الحكمة، قاله ابن عباس. والثاني: أن الله تعالى أراد أن يُظهر في كلِّ وقت أمراً تستعظمه الملائكة، قاله مجاهد. والثالث: أن الذي يتوهمه المتوهم من إبطاء الخلق في ستة آلاف سنة يتوهمه في ستة أيام عند قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. وقال سعيد بن جبير: إن الله تعالى كان قادراً أن يخلق المخلوقات في لمحة واحدة، وإنما خلقها في ستة أيام تعليماً لخلقه الرفقَ والتثبت في الأمور. وحكاه عن ابن عباس، وهو معنى القول الأول.

واختلفوا في أسماء الأيام: فقال الزجّاج والفرّاء وأبو عبيد، وقد رواه الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنبأنا بذلك جماعة عن أبي القاسم السمرقندي قالوا: كانت العرب العاربة تقول ليوم السبت: شيار، وليوم الأحد: أول، وليوم الاثنين: أهون، وللثلاثاء: جبار، وللأربعاء: دبار، وللخميس: مؤنس، وليوم الجمعة: العروبة؛ وأول من نقل العروبة إلى يوم الجمعة كعب بن لؤي[١].

وقد ذكر الجوهري هذه الأيام وقال: كانت العرب تسميها في أساميهم القديمة، أنشدني أبو سعيد السيرافي قال: أنشدني ابن دريد لبعض شعراء الجاهلية قال: [من الوافر]

أُؤمِّلُ أن أعيشَ وإنَّ يومي ... بأوَّلَ أو بأهونَ أو جُبارِ
أو التالي دبارٍ أم فَيَومي ... بمؤنسٍ او عَرُوبَةَ أو شِيارِ[٢]

والثاني: أنهم كانوا يسمون يوم السبت: أبا جاد، ويوم الأحد: هوّز، ويوم الاثنين: حطّي، والثلاثاء: كلمن، والأربعاء: سعفص، والخميس: قرشت، والجمعة: العروبة. حكاه الضحاك عن زيد بن أرقم[٣].

---

(١) «الأوائل» للعسكري ١/ ٤٧.

(٢) «الصحاح»: (هون).

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٢، وانظر «المنتظم» ١/ ١٢٣.

والثالث: ذكره أبو إسحاق الثعلبي عن ابن عباس قال: خلق الله يوماً واحداً فسمَّاه يومَ الأحد، وخلق يوماً وسماه: يوم الاثنين، وذكر باقي الأيام على هذا[(١)].

قلت: والتوفيق بين هذه الأقوال ممكنٌ، لأنه يحتمل أنها كانت قديمة ثم تغيرت ونقلت بطول الزمان كما فعلوا بالشهور، لما نذكر.

فأما السبت فجمعه: سبوت وأسبت، وقال الجوهري: سمِّي يوم السبت لانقطاع الأيام عنده، قال: والسبت: الراحة، والسبت: الدهر، والسبت: ضرب من سير الإبل وهو العَنَقُ، والسبت: قيام اليهود بأمر سبتها، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾[الأعراف:١٦٣] والمُسبِتُ الذي لا يتحرَّكُ، والسُّباتُ النوم، وأصله الراحة[(٢)].

وقد ذكر هذه الأسماءَ أبو عبيد فقال: أحد وآحاد واثنين وأثانين، وثلاثاء وثلاثاوات، وأربعاء وأربعاوات، وخميس وأخمسة، وجمعة وجمعات.

واختلفوا في أيّ يوم بدأ الله الخَلْقَ على أقوال:

أحدها: أنه بدأ بها يوم السبت وكان الفراغ منها يوم الجمعة، قال الإمام أحمد بن حنبل بإسناده عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي وقال: «خلق الله التربةَ يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدوابَّ يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر إلى الليل [في آخر] ساعة من ساعات الجمعة ما بين العصر إلى الليل». انفرد بإخراجه مسلم[(٣)].

وقد رواه [عكرمة] عن ابن عباس قال: جاءت اليهود فسألوا رسول الله ﷺ عن المخلوقات، فذكر الحديث ـ إلا أن الطبري ذكر أنه بدأ بالخلق في يوم الأحد لما نذكر ـ فلما قال: وخلق آدم يوم الجمعة في آخر ساعة، قالت: ثم ماذا؟ فقال: ثم استوى على العرش، فقالوا: لو أتممت: ثم استراح يوم السبت، فغضب رسول الله ﷺ غضباً

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٤٢، وانظر «المنتظم» ١/ ١٢٣.

(٢) «الصحاح»: (سبت).

(٣) أحمد في «مسنده» (٨٣٤١)، ومسلم (٢٧٨٩).

شديداً، ثم أنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾الآيات[١][ق: ٣٨ـ٣٩].

وقد ذكره أبو إسحاق الثعلبي في آخر سورة «ق»، وقال فيه: فقالت اليهود: صدقتَ إن تممت، قال: وما ذاك؟ قالوا: ثم استراح يومَ السبتِ واستلقى على العرش. فنزلت الآيات.

والثاني: أنه بدأ بالمخلوقات يوم الأحد. قاله كعب الأحبار ومجاهد والضحاك، وحكاه أبو جعفر الطبري عن اليهود[٢]، ورواه عن ابن عباس. وحكاه الثعلبي أيضاً أنه قال: خلق يوماً واحداً وسماه: يوم الأحد، وذكره، وكذا هو في التوراة. ولهذا قالوا: استراح يوم السبت، وبه قالت النصارى، لأن عيسى عليه السلام رفع فيه إلى السماء.

[والثالث: يوم الاثنين، قاله محمد بن إسحاق. والقول الأول أصح لوجهين، أحدهما: لأجل الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة وأن النبيّ ﷺ نصَّ عليه، وقد قال أبو هريرة: أخذ رسول الله بيدي، والثاني: لأن فيه مخالفة لليهود لأنهم أبطلوا الخلق يوم السبت وقالوا استراح، ومخالفة النصارى أيضاً][٣].

فصل[٤]

واختلفوا في خلق السماوات والأرض، أيهما أسبق؟ على قولين: أحدهما الأرض قاله ابن عباس، والثاني: السماوات، قاله مجاهد. وسنحقق القول فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فصل[٥]

واختلفوا في خلق الليل والنهار أيضاً على قولين: أحدهما: النهار خلق أولاً، قاله

(١) «تاريخ الطبري» ١/ ٤٥، والحاكم ٢/ ٥٤٣، وكنز الدرر ١/ ٢٨، وما بين معكوفات منها.
(٢) «تاريخ الطبري» ١/ ٤٤.
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من «كنز الدرر» ١/ ٢٩.
(٤) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٩.
(٥) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٩.

عكرمة ومجاهد، لأنه ضياء والنور مقدم على الظلام، والثاني: الليل، وبه قال ابن عباس وعامة العلماء، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾[يس: ٤٠] ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾[يس: ٣٧] فدلَّ على أن الليل مقدم عليه، ولأن الظلمة أصل والضوء عارض، وهو من إشراق نور الشمس فلا يكون أصلاً، وقد نصَّ عليه ابن عباس فقال: أرأيتم حين كانت السموات والأرض رَتْقاً، ما كان بينهما إلا ظلمة[1].

فصل

وأما السنة، فقال يعقوب بن السكيت: هي واحدة السنين، وأصلها: سَنْهَة وتصغيرها: سُنَيْهة وسُنيَّة، وجمعها: سنون، بكسر السين، وبعضهم يضمها.

فصل[2]

وأما الشهر، فذكر أبو منصور بن الجواليقي في «المعرب» أن أصله سهر بالسين المهملة، فعُرِّب، وقال الفراء: إنما سمي شهراً لشهرته وظهوره[3]، ويسمى الهلال شهراً لشهرته؛ وقال الفرّاء: أول شهور العرب العاربة: ناجر، وأول شهور المستعربة: المحرم.

وقال الجوهري: لما نقلت العربُ أسماءَ الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها.

قلت: لم يفسِّر الجوهري معنى هذا الكلام ويحتاج إلى بيان؛ قلت: أما قوله لما نقلتِ العرب: يريد المستعربة، ذلك لأن العرب قسمان، عاربة وهم الخلَّص الذين لم يخالطوا الحاضرة، ومستعربة وهم الذين خالطوا الحاضرة؛ قال أبو العلاء: العاربةُ مثلُ طسمٍ وجديس، ومن كان معاصراً لهم، وأما المستعربة فهم المتأخرون وهم الذين نقلوا أسماء الشهور، فقالوا: المحرّم وصفر إلى ذي الحجة.

فأما العرب الأوائل، فقرأت على شيخنا أبي اليُمن زيد بن الحسن الكندي رحمه

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٦١.

(٢) انظر «كنز الدرر» ١/ ٨٤ وما بعدها.

(٣) «المعرب» ص٢٥٥. وفيه: «وقال ثعلب» بدل: «الفراء».

الله قال: قرأت على شيخنا أبي منصور بن الجواليقي، عن الخطيب أبي زكريا التبريزي، عن أبي العلاء المعري قال: كانت العرب العاربة تسمي هذه الشهور بغير هذه الأسماء فتقول للمحرم: مؤتمِر، ولصفر: ناجِر، ولربيع الأول: خوَّان، ولربيع الآخر: وَبْصان، ولجمادى الأول: رُبَّى، ولجمادى الآخر: حَنين، ولرجب: الأصم، ولشعبان: عازل، ولرمضان: ناتق، ولشوّال: وَعْل، ولذي القعدة: وَرْنَة، ولذي الحجة: بُرَك.

تفسيرها: أما مؤتمر، فاشتقاقه من المؤامرة في ترك الحرب احتراماً له، وأما ناجر، فالنجر الأصل، جعلوه أصل الحرب؛ وأما خوَّان: فمن تخوينهم الحرب أي نقضهم، وأما وَبْصان: فمن الوَبْص وهو بريق السلاح، وكانت الغارات تشتد فيه، وأما رُبَّى: فمن قولهم شاة رُبَّى على وزن فُعلى أي كثيرةُ النِّتاج، وكانوا يجمعون فيه الأموال، وأما حنين: فلأن أسفارهم تطول فيحنُّون فيه إلى المنازل والأهل، وأما الأصم: فلأنهم ما كانوا يُغيرون فيه ولا يسمعون قعقعةَ السلاح فسمّي أصمَّ به، ومنهم من يقول: رجب مضر وسنذكره.

وأما قولهم ناتق؛ فمن قولهم: نتقت الشاة إذا كثر ولدها، وأما وَعْل: فالوعل الملجأ، كانوا يلجأون فيه إلى المنازل، وأما وَرْنة؛ فالأَرْن ـ بإسكان الراء ـ النشاط، كانوا ينشطون فيه للحج[1]، وأما بُرَك؛ فلأنَّ الإبل كانت تبرك فيه في الموسم حتى ينقضي، وقيل: هو من البركة.

وأما شهور المستعربة؛ فسمي المحرم لتحريم القتال فيه، كان الرجل يلقى قاتلَ أبيه أو ابنه أو أخيه فلا يعرض له، وكذا في الأشهر الحرم [كلها]، قال الجوهري[2]: إلا حيّان من العرب خَثعم وطيِّئ فإنهم كانوا يستحلون القتال فيه وفي الأشهر الحرم.

وأما صفرَ: فلأنَّ المنازل كانت تَصْفَر منهم، أي: تخلو، والصِّفْر الخالي، وقال الجوهري عن ابن دريد: والصَّفَرَان شهران من السنة أحدهما المحرم[3]. وقيل: لأنهم

(١) أورده الفيروزآبادي في «القاموس» في مادة (ورن)، وذكر معنى ما ذكره المصنف المرزوقي في «الأزمنة والأمكنة» ١/ ٢٧٩.

(٢) «الصحاح»: (حرم).

(٣) «الصحاح»: (صفر).

كانوا ينزلون بلاداً يقال لها: صفر، والأول أصح.

وأما شهرا ربيع: فلأنهم كانوا يرتبعون فيهما، وقال الجوهري: والربيع عند العرب ربيعان: ربيع الشهور وربيع الأزمنة، فربيع الشهور شهران بعد صفر، ولا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر، وأما ربيع الأزمنة فربيعان: الأول منهما: ربيع الكلأ، وهو الفصل الذي تأتي فيه الكمأة والنَّوْر ينضر، والربيع الثاني، وهو الفصل الذي تدرك فيه الثمار(١).

وأما جُماديان: فلأن الماء كان يجمد فيهما، وهو فُعَالى من الجَمْد.

وأما رجب: فمن الترجيب، وهو التعظيم، يقال: رجَّبته أي: عظَّمته، وقال الفراء: ومنه قولهم: نخلة مُرَجَّبة، إذا كثر حملها أقاموا لها دعائم لئلا تنكسر أغصانها، وفيه لغتان: رجب ورحم، لأن الرحمة تنصب فيه صباً، ويقال له: رجب مضر أيضاً لأَنَّ مضر كانت تعظمه أكثر من غيرها فنسب إليها، وجمعه: أرجاب؛ وقيل إنما سمي: الأصم، لأنه لا يشهد بالقبائح على هذه الأمة.

وأما شعبان: فلأن الشَّعْب هو الاجتماع، كانوا يتشعبون فيه بعد الفرقة، وقيل: إنما سمي شعبان، لأنه يتشعّب فيه خير كثير لرمضان [أي يتجمع].

وأما رمضان: فاشتقاقه من الرَّمَض، وهو وقع حرِّ الشمس على الرمل، ومنه: الرَّمْضاء، ورمضت الفِصال: إذا وجدت حرَّ الشمس.

وأما شوال: فمن الشَّوْل، وهو الارتفاع، لأن النوق تشولُ فيه، أي: ترفع أذنابَها للقاح، وقيل: لأنّ ألبانَ الإبل كانت تشول فيه، أي: تقل [وجمعه شوالات وشوائل] وهو أول أشهر الحج.

وأما ذو القعدة: فلأنهم كانوا يقعدون فيه عن القتال تعظيماً له [وجمعه ذوات القعدة].

وأما ذو الحجة: فلأنهم يتأهبون فيه للحج ويقصدون مكة من [سائر] الآفاق، [وجمعه ذوات الحجة](٢).

---

(١) «الصحاح»: (ربع).

(٢) مابين حاصرتين زيادة من «كنز الدرر» ١/ ٨٦.

فصل

والعرب تسمي كلَّ ثلاثِ ليالٍ من الشهرِ باسمٍ.

فصل(١)

والعرب تؤرخ بالليالي دون الأيام، لأن سنيَّهم قمرية، فالعمل فيها على القمر لأنه يرى في الليل عالياً، فيقال في أول ليلة من الشهر: استهل الهلال، ولا يقال ذلك في النهار، بخلاف سائر الأمم، فإن سنيهم على سير الشمس وهي نهارية؛ ثم العرب تعد السنة ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً وسدس يوم(٢)، لأن شهراً يكون تاماً وشهراً يكون ناقصاً غالباً.

فصل في شهور الروم(٣)

الروم تعد السنة ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، وشهورهم مختلفة العدد، وأولها:

نَيْسان، وهو ثلاثون يوماً.

وأيار أحد وثلاثون يوماً. ولثماني عشرة منه ترجع الشمس هابطة من الشمال.

وحَزِيران ثلاثون يوماً.

وتموز أحد وثلاثون يوماً، وكذا آب، فإذا انسلخ آب قلَّ الحر.

وأيلول ثلاثون يوماً، ولثلاث عشرة منه عيد الصليب، ولثماني عشرة منه يستوي الليل والنهار.

وتِشرين الأول أحد وثلاثون يوماً، وفيه يكون المهرجان، ومعناه: أنه كان في الفرس ملك ظالم جبار اسمه «مهر» فمات في نصف هذا الشهر، و«جان» هو الروح، أي: «مهر» ذهبت روحه. وبين المهرجان والنّيروز مئة وستون يوماً، والفرس تسمي هذا

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٨٧.

(٢) في «الفتاوى الكبرى» ٢٥/ ١٣٨: وبعض يوم خمس أو سدس. وانظر «التعريفات» ص١٦١.

(٣) انظر «كنز الدرر» ١/ ٨٧-٨٨.

اليوم أول الشتاء.

وتِشرين الآخر ثلاثون يوماً.

وكانون الأول أحد وثلاثون يوماً، ولسبع عشرة منه يكون النهار تسع ساعات[١]، ويكون الليل أربع عشرة ساعة، وذلك منتهى طوله؛ وفي الليلة الخامسة والعشرين منه ولد المسيح عليه السلام.

وكانون الآخر أحد وثلاثون يوماً، وفي أول ليلة منه توقد نار عظيمةٌ بأنطاكية، والنصارى تعظِّم تلك النار[٢] وتقولُ بأنَّ النصرانية ظهرت من أنطاكية في تلك الليلة بعدما دثرت، وتسميها مدينة الله.

وشباط ثمانية وعشرون يوماً وربع يوم في ثلاث سنين متواليات، والسنة الرابعة تسمى: كبيسة، فتكون تسعة وعشرين يوماً يقسم ذلك في أربع سنين، ولسبع ليال منه تسقط الجمرة الأولى، وهي الجَبْهة، ولأربع عشرة منه تسقط الثانية وهي الزُّبْرة، ولإحدى وعشرين منه تسقط الثالثة وهي الصَّرْفة، فينصرف البرد، وفيه يتكامل الجمار؛ واليوم الخامس والعشرون منه أول أيام العجوز[٣].

وآذار ثلاثون يوماً[٤]، وفي الرابع عشر منه فصل الربيع ونزول الشمس الحمل، ويعتدل الليل والنهار، وفي ذلك اليوم النَّيْروز. وقال ابن الجواليقي: ويقال: النَّوروز، وقد تكلمت به العرب[٥]، والله أعلم.

فصل في عدد الفرس

السنة عندهم ثلاث مئة وستون يوماً، كل شهر ثلاثون يوماً، وأول شهورهم: فَرْوَرْدين ماه، وأول يوم منه النيروز، والثاني[٦]: أُرْديبِهِشْت ماه، والثالث: خُرْداد

---

(١) في «كنز الدرر» زيادة: تسع ساعات ونصفاً وربعاً وهو منتهى قصره.

(٢) في «كنز الدرر» زيادة: والنصارى تعظم تلك الليلة وتلك النار.

(٣) في «عجائب المخلوقات» ص١١٧: في السادس والعشرين.

(٤) في عجائب المخلوقات ١١٧: آذار أحد وثلاثون يوماً.

(٥) «المعرب» ص٣٨٨.

(٦) أي من شهور الفرس.

ماه، والرابع: تِير ماه، والخامس: مُرْداد ماه ، والسادس: شهر ير ماه[(١)]، والسابع: مِهْرْ ماه، وفي الثامن عشر منه يكون المهرجان. والثامن: آبان ماه، والتاسع: آذَرماه، العاشر: دِي ماه، والحادي عشر: بَهْمن ماه، والثاني عشر: إسْفَنْدار مد ماه، وهذه أسامي ملوكهم.

فصل في عدد القبط

السنة عندهم ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً، كل شهر ثلاثون يوماً مثل شهور الفرس، إلا أنهم يجعلون بعدها خمسة أيام يسمونها: اللواحق، وتدعى «العمياء» أيضاً، فأول يوم من السنة عندهم هو التاسع والعشرون من آب عندنا، وأول شهورهم: توت، وهو أيلول بالسريانية. والثاني: بابه، وهو تشرين الأول. والثالث: هتور، وهو تشرين الثاني. والرابع: كيهك، وهو كانون الأول. والخامس: طوبه، وهو كانون الآخر. والسادس: أمشير، وهو شباط. والسابع: برمهات، وهو آذار. والثامن: برموده، وهو نيسان. والتاسع: بشنس، وهو أيار. والعاشر: بوونه، وهو حزيران. والحادي عشر: أبيب، وهو تموز. والثاني عشر: مسري، وهو آب، وفيه يتكامل النيل.



(١) كذا هو في «عجائب المخلوقات» ص١٢٢، وفي «الآثار الباقية» ص٤٢، و«المعجم الفارسي» (شهر): «شهريور».

فصل
في خلق الأرضين ومدة التصوير والتكوين[(١)]

قال علماء اللغة: إنما سميت الأرض أرضاً، لأنَّ الأقدام تدقّها وترضّها. وقال الجوهري: الأرض مؤنثة، وهي اسم جنس، وجمعها أَرَضون، وقد تجمع على أُرُوض، وأما قول ابن عباس: أَزُلْزِلَتِ الأرضُ أَم بيَ أَرْضٌ؟ فإنَّما أراد الرِّعْدَةَ والنَّفْضَة[(٢)].

وروى أبو إسحاق الثعلبي عن ابن عباس قال: أولُ ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم رفع بخار الماء فخلق منه السموات، ثم خلق النون وهو الحوت الذي يحمل الأرضَ، فبسطَ الأرض على ظهره، فتحرك النون فمادت الأرض، فأُثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرضِ، ثم قرأ ابن عباس ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾[القلم: ١][(٣)].

واختلفوا في اسم هذا الحوت؛ فقال الكلبي ومقاتل: بهموت[(٤)]. وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا، وروي عن علي ﷺ أنه بلهوت؛ قال الراجز:

مـالـي أراكـمْ كـلَّـكُـم سُـكـوتـا ... واللهُ ربِّـي خـلَـق الـبـلـهـوتـا[(٥)]

وقال الثعلبي أيضاً: قالت الرواة: لما خلق الله تعالى الأرض وفَتَقها بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع، فوضعها على عاتقه، إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب، باسطتين قابضتين على الأرضين السبع حتى ضبطها، فلم يكن لقدمه موضع قرار، فأهبط الله تعالى من الفردوس ثوراً وجعل قرارَ قدَمَي المَلَك على سنامه فلم تستقرَّا، فأَحدَرَ الله ياقوتةً حمراء من الفردوس غلظها مسيرة خمس مئة عام، فوضعها على سنام الثور فاستقرَّت عليها قدماه، وقرون ذلك الثور هي أربعون ألف قرن خارجةٌ من أقطار الأرض، ومنخراه في البحر، فهو يتنفس

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٨١.
(٢) «الصحاح» (أرض).
(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٥١.
(٤) ضبطه الألوسي في «روح المعاني» ٢٩/ ٢٣: بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الهاء.
(٥) أورده القرطبي في «تفسيره» ١٨/ ٢٢٤، وفيه: «البهموتا».

كلَّ يوم نفساً، فإذا تنفس مدَّ البحر، وإذا ردَّ نفَسَه جزر، فلم يكن لقوائمه موضع قرار، فخلق الله صخرةً خضراء كغلظ السموات والأرض، فاستقرت قوائم الثور عليها، وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾الآية[لقمان: ١٦] فلم يكن للصخرة مُستَقرٌّ، فخلقَ الله نوناً ـ وهو الحوت العظيم ـ، فوضع الصخرة على ظهرِهِ وسائرُ جسدِهِ خال، والحوتُ على البحر، والبحرُ على متنِ الريح، والريح على القدرة تقلُّ الدنيا كلها بما عليها، قال لها الجبَّار سبحانه: كوني، فكانت[1].

وقد روى أبو بكر الخطيب بمعناه عن ابن عباس، فقال بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس، وفيه: وكانت الأرضُ تمورُ موراً تتكفَّأ، كما تتكفأ السفينة، فبعث الله تعالى جبريل، فلم يقدر أن يسكِّنها، فقال: يا إلهي، قد علمتَ أنك لم تقدِّر ذلك على يدي، ولو بعثتَ بعوضةً لسكنتها، قال: فأرسل الله عز وجل ملكاً من تحت العرش، فدخل تحت الأرض وذكره.

وفيه: وقرونُ ذلك الثورِ خارجةٌ من أقطار الأرض قد اشتبكت بأقطار السموات إلى العرش، ومنخرا الثور في ثقبين من تلك الصخرة، فهو يتنفس كل يوم نفسين، فإذا تنفس مدَّ البحر وإذا ردَّ نَفَسه جزرت البحار.

وفيه: واسم الحوت بلهوت، فانتهى إبليس إلى الحوت فقال: ما خلق الله خلقاً أعظم منك، فَلِمَ تحملُ هذه الأَثقالَ؟ فهمَّ أن يلقي ما عليه، فبعث الله تعالى بَقَّةً فدخلت في عينه فشغلته عن ذلك، ثم أنبت الله جبل قاف من تلك الياقوتة الخضراء فأحاط بالدنيا، ثم أنبتَ منه الجبال وشبك بعضها ببعض بعروقه كالشجر في الأوتاد، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً أوحى إلى قاف فحرَّكَ ذلك العرق، وهو حديث طويل اختصرته. وقد أخرجه الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في كتابه المعروف بـ«كتاب الزلازل».

وحكى الثعلبي عن كعب الأحبار: أنَّ إبليسَ تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض كلها فوسوس إليه: أتدري ما على ظهركِ يا لوثيا من الأمم والدوابّ والشجر والجبال وغيرها؟ ولو نفضتهم لاسترحت، فهمَّ لوثيا أن يفعل ذلك فبعث الله إليه دابةً

(١) انظر «عرائس المجالس» ص٥-٦.

فدخلت في منخره ووصلت إلى دماغه، فضج الحوت منها إلى الله تعالى، فأَذِنَ لها فخرجت؛ قال كعب: فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن همَّ بشيء من ذلك عادت إليه كما كانت، فلا يزالُ كذلك إلى يوم القيامة[١].

وروى الحافظ أبو القاسم أيضاً في «كتاب الزلازل» عن أنس عن النبي ﷺ قال: «أُسِّست السمواتُ السبع والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝﴾»[٢].

قلت: ولا يصحُّ هذا عن رسول الله ﷺ إنما هو موقوف على أنس[٣].

وذكر ابن قتيبة في «المعارف» عن التوراة، وقال في السِفر الأول منها: خلق الله السمواتِ وآدمَ وحواء. وذكر ألفاظاً شنيعةً منها: أن الله تعالى يخلق بشراً على صورته وما أشبه هذا[٤]، والله تعالى منزَّه عن الصورة لأنَّه ليس بجسم، وإن صحَّ في الأخبار حديثُ الصور[٥] فَيُحْمَلُ على الصفة، وهو اللائق بالله سبحانه وتعالى.

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون بإسناده عن النبي ﷺ: «لما خلَق الله الأرضَ جَعَلَت تميلُ، فخلَق الجبالَ وألقاها عليها فاستقرَّت، فتعجبت الملائكةُ من خلْقِ الجبال، فقالت: يا رب، هل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الجبالِ؟ قال: نعم، الحديدُ، قالت: يارب، هل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الحديدِ؟ قال: نعم، النارُ، قالت: يارب، فهل من خلقك شيءٌ أشدُّ من النار؟ قال: نعم، الريحُ، قالت: يا رب،

---

(١) «عرائس المجالس» ص٦.

(٢) أورده السيوطي في «الجامع الصغير» (١٠٢٠) وعزاه لتمام في «فوائده» وفيه موسى بن محمد بن عطاء، وهو متَّهم بالكذب. انظر «الميزان» ٤/ ٢١٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٤/ ٧٣٨، وأبو الشيخ في «العظمة»(٨٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» ٥/ ٣٨٣ من حديث كعب الأحبار قولَه. قال الألوسي في تفسيره ٢٩/ ٢٤: وللقصاص في هذا الفصل روايات لايعوَّل عليها، ولا ينبغي الإصغاء إليها.

(٤) «المعارف» ص٩-١١.

(٥) أخرجه الحارث كما في (بغية الباحث ٨٧٢)، وابن أبي عاصم في «السنة»(٥١٨)، والطبراني في الكبير» (١٣٥٨٠) من حديث ابن عمر ﵄ عن النبي ﷺ قال: «لا تقبحوا الوجه، فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن».

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ١٠٦ وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إسماعيل الطالقاني، وهو ثقة وفيه ضعف. وانظر الكلام عليه في «فتح الباري» ٥/ ١٨٣.

فهل من خلقك شيءٌ أشدُّ من الريحِ؟ قال: نعم، ابنُ آدم، يتصدَّقَ صدقة بيمينه، ثم يخفيها عن شماله». وقد أخرجه الترمذي[١] في «جامعه» وذكره، وهذا الحديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.



(١) أحمد في «مسنده»(١٢٢٥٣)، والترمذي (٣٣٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو حديث ضعيف.

فصل
في ذكر البيت الحرام المخصوص بالإجلال والإعظام

ذكر الجوهري، وقال: الكعبة البيت الحرام، سمي بذلك لتربُّعه[١]. وقال الخليل ابن أحمد: إنما سميت الكعبة كعبةً لارتفاعها وعلوّها واستدارتها. وقال مجاهد: سميت كعبةً للتربيع[٢]. والعرب تسمي كلَّ بيت مربع كعبة؛ وقال مقاتل: لانفرادها عن البناء، وقال الفراء: سميت كعبة لبنائها مربعةً على موضع رفيع، وسمي: البيتَ الحرام لأن الله تعالى حرّمه وعظَّم حرمته.

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله بإسناده عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت الكعبة خَشَفَة على رأس الماء عليها ملكان يسبحان الليلَ والنهارَ قبل خلق الأرض بألفي عام[٣]».

قال أبو عمرو بن العلاء: الخَشَفَة: الأكمة الحمراء. وقال الجوهري: الخَشَفة: الحسُّ والحركة[٤]. ومعناه على هذا أنها كانت تضطرب وتتحرك على الماء.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: وضعت الكعبة على أربعة أركان ـ قبلَ أن يخلقَ الله الدنيا ـ على وجه الماء، ثم دحا الأرض من تحتها[٥].

وروى العوفي عنه أنه قال: أرسل الله تعالى الريح فمسحت الماء حتى حَوَتْ على خشفة، وهي التي تحت الكعبة، ثم إن الله مَدَّ الأرض من تلك الخشفة، حتى بلغت حيث أراد الله في الطول والعرض[٦].

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: وجد حجر في أسفل المقام من أيام جُرْهُم

---

(١) «الصحاح»: (كعب).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٧/ ٧٦.

(٣) لم نقف عليه في «مسند» أحمد ولا في غيره من مصادر التخريج، وذكره ابن الجوزي في المنتظم ١/ ١٢٩ من قول أبي هريرة دون إسناد ولا عزو. والخشفة: حجارة تنبت من الأرض نباتاً.

(٤) «الصحاح»: (خشف).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١/ ٥٤٨.

(٦) أخرجه الحاكم ٢/ ٥١٢ من طريق عطاء عن ابن عباس، وذكره ابن الجوزي في المنتظم ١/ ١٢٨.

مكتوب فيه: «إني أنا الله ذو بكَّةَ، حرَّمتها يومَ خلقتُ السموات والأرضَ، ويومَ وضعتُ هذين الجبلين، وحففتها بسبعة أملاكٍ حنفاءَ، مَن أَمَّ هذا البيتَ زائراً عارِفاً بحقِّي، مُقرًّا بالوحدانية، حَرَّمْتُ جَسدَهُ على النار»(١).

وقال أحمد بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كأنِّي أنظرُ إلى أسودَ أَفْحَجَ ينقضُها حجَراً حجَراً» يعني: الكعبةَ. انفرد بإخراجه البخاري(٢). والأفحج: المتباعد ما بين الفخذين.

وسنذكر ما يتعلق بالبيت الحرام في قصة الخليل عليه الصلاة والسلام.



(١) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه»(٩٢١٩) من حديث الزهري، قال: بلغني أنهم وجدوا.
وأخرجه ابن أبي شيبة (نشرة العمروي ٤/ ٢٨٦) من حديث مجاهد. وأخرجه الطبري في «تفسيره» ١/ ٥٤٨ من حديث عطاء بن أبي رباح.

(٢) أحمد في «مسنده»(٢٠١٠)، والبخاري (١٥٩٥).

فصل
في مساحة الأرض، ومقدار طولها والعرض

قد أشار جماعة من المهندسين العلماء إلى مثل ذلك:

المأمون في «كتاب الجغرافيا» وهو كتابٌ ألفه بطليموس، وابن خُرْداذبه في كتاب «المسالك والممالك»، وابن حَوقل، وأبو معشر، وقد أشار أبو الحسين ابن المنادي إلى طَرَفٍ من ذلك.

واختلفوا في مساحة الطول والعرض على أقوال:

أحدها: أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ، اثنا عشر ألفاً للسودان، وثمانية آلاف للروم، وثلاثة آلاف لفارس، وألف للعرب، حكاه جدّي رحمه الله في مصنفاته كالمنتخب وغيرِهِ عن قتادة[١].

والثاني: أنها مسيرة خمس مئة سنة منها ثلاث مئة عمران، ومئتان خراب، لا ساكنَ بها. قاله ابن مضرّب[٢].

والقول الثالث: أن طولها أربع مئة سنة وعرضها مئتان. قاله مجاهد.

والرابع: أن طولها وعرضها مسيرة ثلاث مئة سنة، العمران مئة سنة، والخراب مئة سنة، والبحار مئة سنة. قاله حسَّان بن عطية[٣].

والخامس: أنها ستة وثلاثون ألف فرسخ في مثلها، فالهند والسند اثنا عشر ألف فرسخ، وهم ولد حام بن نوح، والصين ثمانية آلاف فرسخ، وللروم عشرة آلاف، وللعرب أربعة آلاف، وفيما بين ذلك ألفان. قاله السدّي عن أشياخه.

والسادس: أنَّ مقدار الدنيا ألف فرسخ، ثلث هواء، وثلث بحار، وثلث للناس والدواب. قاله مغيث بن سُمَيٍّ[٤].

---

(١) انظر «المنتظم» ١/ ١٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ٣/ ١٧٣.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة»(٩٣٦).

(٤) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة»(٩٤٧) وفيه: الأرض ثلاثة أنواع: ثلث... وجاء في «كنز الدرر» ١/ ٩٦: =

وقال في «جغرافيا»: الهند والصين والمشرق خمسون ألف فرسخ، ومن حدود الهند إلى العراق أربع مئة فرسخ، وعمل رُومِيَة الروم ثلاثة آلاف فرسخ. وقد ذكره الفزاري.

وقال مقاتل: ما العمارة في الخراب إلَّا مثل الفسطاطِ في الصحراء[١].

وقال أبو الحسين ابن المنادي: لا خلافَ أن الأرض على هيئة الكرة، وهي موضوعة في جوف الفلك كالمُحَّة في البيضة، والنسيمُ محيط بها كالبياض من المُحَّة، وهو جاذبٌ لها من جميع جوانبها، والأرضُ جاذبةٌ لما في الأبدان من الثقل، بمنزلة المغناطيس الذي يجذب الحديد، والفَلَك محيط بالنسيم كإحاطة القشرِ بالبياض، وهي مقسومة بنصفين، وبينهما خطُّ الاستواء، وهو من المشرق إلى المغرب، وهو طول الأرض، وأما عرضها: فمن القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نعش، إلى القطب الجنوبي، وذلك ثلاث مئة وستون درجة، والدرجةُ خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخُ اثنا عشر ألف ذراع، وهو أربعة آلاف خطوة بخطوة البعير، وهو ثلاثةُ أَميال، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإِصبع ستُّ شَعِيرات، كلُّ شَعيرةٍ ستُّ شَعرات من شَعر البِرذَون، وهذا الذراع قدَّره المأمون بمحضر من المهندسين والحُسَّاب، وهو بين الطويل والقصير، دون ذراع البحار والذراع الهاشميّ، فعلى هذا التقدير يكون ما بين القطبين تسعة آلاف فرسخ.

وقد أشار إلى هذا ابن خرداذبه في كتاب «المسالك والممالك»[٢]. وأشار في «جعرافيا» إلى هذا.

وقال ابن حوقل: «كتاب جغرافيا» ذَكَر فيه بطليموس طولَ الأرضِ وعرضها، وجبالها وبحارها وأنهارها، ومدنها، وجميع ما فيها، فنقله المأمون إلى العربية.

قال كعب الأحبار: وجدت في التوراة أن الدنيا مثلُ نسر، فالشامُ رأسه، والروم صدره، والمشرق والمغرب جناحاه، واليمن ذنبه، ولا يزال الناس بخير ما لم يفرغ

= «ثلاثون» وفي «الدر المنثور» ٤/ ٤٣: ثلاثة أثلاث: ثلث...

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٤/ ٧٠ من حديث وهب بن منبه.

(٢) «انظر المسالك والممالك» ص٤.

الرأس، فإذا فرغ الرأس هلك الناس.

وقال ابن حوقل: ما بين يأجوج ومأجوج إلى ناحية البحر المحيط في الشمال براري وقفار، ليس فيها عمارة ولا نبات لشدة البرد بها، وسببه انحراف الشمس عن القطب الشمالي، وكذا ما بين المحيط والسودان براري لا شيء فيها لشدَّة الحرّ، وسببه ميل الشمس إلى ناحية الجنوب[١].



(١) «صورة الأرض» ص٢٢.

فصل
في ذكر الأقاليم الدالة على حكمة الحكيم

قال الجوهري: الإقليم واحدُ الأقاليم السبعة[١]. ولم يبين، قلت: والأصح في حدِّ الإقليم: أنه بُلدان وأماكن تقطعها الشمس في طلوعها وغروبها وارتفاع دَرَجِها.

وذكر في «جغرافيا» وقال: الدنيا سبعةُ أقاليم، كلُّ إقليم تسع مئة فرسخ في مثلها، والبحر الأعظم محيط بها، وجبل قاف وراء البحر، وأطراف السماء عليه كأطراف الخيمة على وجه الأرض، وأن خضرة السماء تلونه، ولبعد المسافة تبين أنها زرقاء.

ثم رتَّبَ الأقاليم فقال: أولها إقليم الهند، ثم الحجاز، ثم إقليم مصر والشام والمغرب، ثم إقليم بابل، ثم إقليم الروم، ثم إقليم الترك، ثم إقليم الصين[٢].

قلت: وما يُكتفى بهذا، ولابدَّ من البسط في حدِّ الأقاليم، وقد ذكر أبو معشر وابن حوقل وأبو الحسين بن المنادي طرفاً من ذلك، فنأتي على أقوالهم فنقول:

الإقليم الأول[٣]: إقليم الهند: ويبتدئ من المشرق من أقصى بلاد الصين، فيمرُّ على بلاد الهند، ثم على ساحل السِّنْد[٤] إلى ناحية الجنوب، فيمر على عُمَان، ثم على اليمن وظَفَار وحَضْرَمَوْت وعدَن وصنعاء وَتَبالة وجَرَش، وما إلى تلك البلاد حتى يقطع البحر إلى جزيرة العرب، فيأتي عليها، ثم يقطع بحر القُلْزُم ويمر على بلاد الحبشة، ويقطع نيل مصر ويمر على مدينة الحبشة، وتسمى جَرْمَى[٥]، وعلى مدينة النُّوبَة وتسمى دُمْقُلَة، ثم يمر في أرض المغرب على جنوب بلاد البَرْبَر، إلى أن ينتهي إلى بحر الغرب الكبير.

وهذا الإقليم صحيح الهواء يورث صحة الأجسام والحكمة. قال أبو معشر: وله من البروج الجدي، ومن النجوم زحل.

---

(١) «الصحاح»: (قلم).

(٢) انظر «المدهش» ص٦٤.

(٣) انظر الأقاليم السبعة في «معجم البلدان» ١/ ٢٨-٣٢، و«كنز الدرر» ١/ ٩٧-١٠١.

(٤) جاء في «كنز الدرر» ١/ ٩٨: «ساحل بحر السند».

(٥) في «معجم البلدان» ٢/ ١٢٩: «جَرْمَة».

قلت: ولما ذكرت في هذا الإقليم جزيرةَ العرب، ذكرتُ حدودها، وقد اختلفوا فيها:

فقال الجوهري: وأما جزيرة العرب هي ما بين حَفْر أبي موسى الأشعري إلى أقصى اليمن طولاً، وفي العرض ما بين رمل يَبْرِينَ إلى منقطع السَّماوة[١].

وقال الأصمعي: هي ما بين نَجْران والعُذَيْب، يعني نجران اليمن، قال: وإنما سميت جزيرة العرب لإحاطةِ البحرِ بها من كلِّ مكان، فجعل حدَّها من المغرب بحر القُلْزُم، ومن المشرق الفرات لأنَّها تمر على أرض الكوفة، وتصبُّ في البحر.

قلت: وجزيرة العرب هي أرض العرب وهي عُشْرِيَّة، وقد حدَّها أصحابنا فقالوا: هي ما بين العُذَيْبِ إلى أقصى حُجْر باليمن، ومَهْرَة إلى حدِّ الشآم.

الإقليم الثاني: وهو إقليم الحجاز، يبتدئ من المشرق فيمر على بلاد الصين، ثم يمرُّ على بلاد الهند، ثم على السِّند وفيه مدينة الكافور، ويقال لها: الفنصورة، ثم على الدَّيْبُل، ثم على البحر الأخضر، ويقطع جزيرة العرب في أرض نجد وتِهامَة، وفيه اليمامة والبحرين وهَجَرُ والمدينة ومكة والطائف وجُدَّة، ثم يقطع بحر القُلْزُم ويمر بصعيد مصر، فيقطع النيل ويمر على أُسْوَان وإخْمِيم، ثم يمتد في أرض المغرب على وسط بلاد أفريقية، ثم يمر على بلاد البربر، وينتهي إلى البحر المحيط.

وقال الجوهري: الحجاز بلاد، وسميت بذلك لأنها حجزت بين نجد والغور[٢].

وروي عن الأصمعي أنه قال: إنما سمي الحجاز لأنه احتُجز بالحِرار الخمس: حَرَّة بني سُلَيم، وحَرَّة واقمٍ، ولم يذكر الباقيات[٣].

وقال الجوهري: النجدُ ما ارتفعَ من الأرض، وقال: نجد من بلاد العرب، وهو خلاف الغور، والغور هو تهامة، وكل ما ارتفع من تهامة إلى أرض العراق فهو نجد[٤].

---

(١) «الصحاح»: (جزر).
(٢) «الصحاح»: (حجز).
(٣) وباقي الحرَّات الخمس: حرة شَوْران، وحرة ليلى، وحرة النار. «معجم البلدان» ٢/ ٢١٩.
(٤) «الصحاح»: (نجد).

وقال أبو معشر: ولإقليم الحجاز من البروج العقرب، ومن النجوم الزهرة.

الإقليم الثالث: وهو إقليم الشأم ومصر، يبتدئ من المشرق فيمرّ على بلاد الصين، ثم على بلاد الهند، ثم على شمالي بلاد السند، ثم على بلاد كابُل وسِجِسْتان، ثم على سواحل بحر البصرة، وفيه مدينة إصْطَخر ونَسا ونيسابور وشيراز وسيراف، ثم يمر على كُوَر الأهواز والبصرة وبغداد والكوفة والأنبار وهيت، ثم يمر على بلاد الشام: حمص ودمشق وصور وعكا وطبرية وعَسْقلان وغزة والقدس والرملة، ثم يقطع أسفلَ مصر ويمر على تِنِّيس ودمياط والفسطاط والفيوم والإسكندرية، ثم يمر على بلاد المغرب ويدخل سَبتة حتى ينتهي إلى البحر الكبير.

قال أبو معشر: وله من البروج الجوزاء ومن النجوم عطارد، وهواؤه غليظ يورث الصفار، ومرض من يسكنه من أهل المغرب الاستسقاء والبَطَن، والغالب على الشأم الدم. وقال الجوهري: الشام بلاد تذكَّر وتؤنَّث[1].

وحدُّه من العريش إلى الفرات، واختلفوا لِمَ سُمِّي الشام شاماً، قال ابن المقفَّع: سمي الشام بسام بن نوح، وسام اسمه بالسريانية «شام»، وبالعبرانية «شيم». وقال الكلبي: سمي الشام لشامات في جباله حمر وسود وبيض.

قلت: والأصح إنما سمي الشام لأنه عن يسار الكعبة، وقول ابن المقفع إنما سمي الشام بِسام، فاتفق الرواة على أنه ما نزله قط.

وقد أورد الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» أخباراً في فضائله فيها مقال:

منها ما رواه عن ابن حَوالَة عن النبي ﷺ أنه قال: «عَليكم بالشَّام فإنَّها صفوةُ الله من بلاده يَسكُنها خيرُ عبادِه، فمَن أبَى، فليَلْحق بالشام، فإنَّ الله قد تكفَّلَ لي بالشَّام وأهلِه»[2]. وذكر الحديث من حرف كثير، وروي فيه زيادات ونقص.

وقد ذكره جدي رحمه الله في كتاب «الأحاديث الواهية» وقال: هذا حديثٌ لا

(١) «الصحاح»: (شأم).

(٢) «تاريخ دمشق» ١/ ٢٤، وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد في «مسنده»(٢٠٣٥٦) وهو حديث صحيح. وفيه: «فليلحق بيمنه».

يصحّ، في إسناده محمد بن كثير خرَّقنا حديثه ولم نرضه، كذا قال أحمد بن حنبل[١].

وفي «الصحيحين» حديث أخرجاه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهم بارِكْ لنا في شامِنا، اللَّهم بارِكْ لنا في يمنِنا»، قالوا: يارسولَ الله، وفي نجدنا؟ قال في الثالثة: «هُنالِك الزَّلازِلُ والفِتَنُ». وهو حديث طويل أخرجه الحميدي في الفتن[٢].

الإقليم الرابع: وهو إقليم العراق، ويقال له: إقليم بابِل، يبتدئ من المشرق فيمرُّ على بلاد التُّبت، ثم على خُراسان وفَرْغانة وسَمَرقند وبَلْخ وبخارى وهَراة ومَرو وسْرخَسَ وطَبَرِستان وطوس وجُرجان وقُوْمِس وقَزوين والرِّي وأصبهان وقُمَّ وقاشان وهَمَذان ونَهاوَند والدِّينَوَر وحُلوان وشَهرزور وسُرَّ من رأى والموصل وحرَّان والرَّقة وقَرْقيسيا، ثم يمرّ على حلب وقِنَّسرين وأنطاكيةَ والمَصِّيصة وأَذَنَة وعَمُّوريَّة وطَرْسوس، ثم يمرُّ في البحر على جزيرة قُبرس، ثم يمر ببلاد المغرب على طَنجة وما والاها، ثم ينتهي إلى البحر الكبير.

قالوا: وله من البروج القوس، ومن النجوم المشتري.

وقال الخليل بن أحمد: إنما سميت بابل؛ لأن الألسن تبلبلت بها، ومدينتها بناها يَرْد بن مَهْلائيل، واختلفوا في حدّ أرض بابل على أقوال: أحدها: أنها الكوفة وسوادها، قاله ابن مسعود، والثاني: من نصيبين إلى رأس العين، قاله قتادة، والثالث: أنها أرض الحلّة، والأول أصحّ.

الإقليم الخامس: وهو إقليم الروم، ويبتدئ من المشرق من بلاد يأجوج ومأجوج ثم يمر على شمال حرَّان، وفيه من المدن: خوارزم[٣] والشاش وأَذْرَبيجان وإرْمينيَة، ثم يمر على بلاد الروم بأسرها، ويقطع البحر إلى روميَة الكبرى وجزيرة الأندلس، ثم

---

(١) «العلل المتناهية» ١/ ٣١١.

(٢) البخاري (١٠٣٧)، ولم نقف عليه عند مسلم بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم (٢٩٠٥) من حديث ابن عمر: أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «ألا إن الفتنة هاهنا، ألا إن الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان». وقد جعل الحميدي هذا الحديث من المتفق عليه عن ابن عمر كما في «الجمع بين الصحيحين» (١٢٧٠).

(٣) أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلسة ليست بألف صحيحة، هكذا يتلفظون بها. «معجم البلدان» ٢/ ٣٩٥.

ينتهي إلى بحر المغرب.

قالوا: وله من البروج الدلو، ومن النجوم القمر، وقيل زحل؛ والله سبحانه وتعالى أعلم.

الإقليم السادس: وهو إقليم الترك، يبتدئ من المشرق ويمرُّ على بلاد يأجوج ومأجوج، ثم على بلاد الخَزَر، ثم على القُسطنطينية، ثم ينتهي إلى بلاد المغرب.

وله من البروج السرطان، ومن النجوم المريخ، وقيل: القمر، والله أعلم.

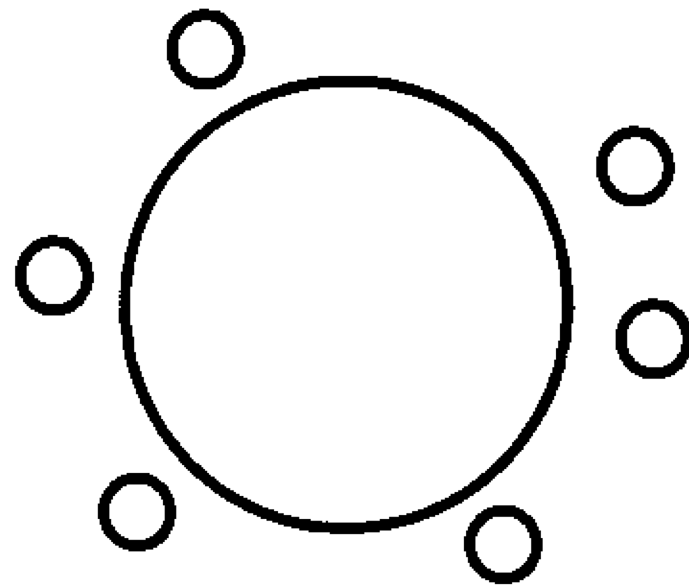
الإقليم السابع: إقليم الصين، يبتدئ من المشرق على شمال بلاد يأجوج ومأجوج، ثم على بلاد الترك، ثم على سواحل بحر جُرجان، ثم يقطع بحر الروم ويمرُّ على بلاد الصقالبة والقفجاق، ثم بلاد البُلغار وباشْقِرْد وما والاها.

وله من البروج الأسد، ومن النجوم الشمس.

وقال[١] أبو معشر: أعمر هذه الأقاليم وأكثرها خيراً وأحسنها استقامة وسياسة أربع:

إقليم بابل[٢]، ويقال له: مملكة إيران شَهْر، وكانت الفرس تقدمه على الأقاليم، ويسمى ملكه: شاهنشاه وإيران شاه، ومنزله من العالم منزلةُ القلبِ من الجسد، والواسطةِ من العقد، والقمر من الكواكب.

وقال بطليموس: إن الهندَ رسمت الأقاليم كأنها حلقة مستديرة تكتنفها ستُّ دوائر، فالدائرة الوسطى إقليم بابل والأقاليم حوله، وصورته:



(١) هنا تعود نسخة (ل) بعد فقدان أوراق منها.

(٢) في «كنز الدرر» ١/ ١٠١: «أربعة أقاليم وهم: بابل، والهند، والحجاز، ومصر، قال: فأما بابل».

قلت: وهذه الدائرة أخذها الخطيبُ من «جغرافيا» وزاد عليها، فقال: ذكر علماء الأوائل أن أقاليم الأرض سبعة، وأن الهند رسمتها فجعلت إقليمَ بابل وسطها على الصفة المحدقة بالدوائر قال: فالإقليم الأول: إقليم الهند، والثاني: إقليم الحجاز، والثالث: إقليم مصر، ولم يذكر الشام، والرابع: إقليم بابل، وقال: وهو أعمرها وأوسطها، وفيه جزيرة العرب، وفيه العراق الذي هو سرة الدنيا، قال: وحدُّ هذا الإقليم مما يلي أرضَ الحجاز وأرضَ نجد الثعلبية من طريقِ مكة، وحدّه مما يلي الشأم وراء مدينة نَصِيبين من ديار ربيعة بثلاثة عشر فرسخاً، وحدُّه مما يلي أرضَ خراسان وراء نهر بلخ، وحدُّه مما يلي الهند خلف الدَّيبُل بستة فراسخ. قال: وبغداد وسط هذا الإقليم؛ قال: والإقليم الخامس: بلاد الروم والشأم، فجعل الشأم من بلاد الروم. قال: والإقليم السادس: بلاد الترك، والسابع: بلاد الصين. وقال الخطيب أيضاً: وبغداد وسط هذا الإقليم وموضعها صفوة الأرض، ولذلك اعتدلت ألوانُ أهله وامتدت أجسامهم، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة، ومن سواد الحبش، وغلظ الترك، وجفاء أهلِ الجبال، ودمامةِ أهل الصين، وكلّما[1] اعتدلوا في الخلقة لطفوا في الفطنة.

ثم إقليم الروم ثم إقليم الهند و إقليم الصين، ومنهم من يفضِّل إقليم الصين على الكلِّ ويقول: هو أعدل الأقاليم وأصحها[2].

قال أبو معشر: ويأجوج ومأجوج في ناحية الشمال، لهم جبال منيعة يصعد الصاعدُ إلى رأس الجبل في عشرة أيام، وتُحمل غلالهم على المعز.



(١) في «تاريخ بغداد» ١/ ٢٣: «كما».
(٢) «تاريخ بغداد» ١/ ٢٢-٢٣.

فصل
في ذكر البلدان وما فيها من السكان

ذكر علماء الهيئة أن المسكون من الأرض، على تفاوت أخطاره وبعد أقطاره، مقسوم بين سبع أمم، وهم: أهل الصين، والهند، والسِّند، والروم، والفرس، والترك، والعرب.

وروي أن بطليموس أحصى مدنَ الدنيا في زمانه، فكانت أربعة آلاف مدينة ومئتي مدينة[١].

وذكر خالد بن عبد الله المَرْوَزي: أن مدنَ الدنيا ثمانية آلاف مدينة، ففي الصين ألف مدينة، وفي الهند ألف مدينة، وفي السِّند ألف مدينة، وفي الزنج والنُّوبة ألف مدينة، وباقي المدن مُفرَّقة في الأقاليم.

وقال الحسن البصري: الأمصار المعتبرة في الإسلام سبعة: مكة، والمدينة، والبصرة، والكوفة، والجزيرة، والشام، ومصر، وسواد البصرة، والأهواز، وفارس[٢]. ونحن نذكر المشهور من المدن:

فصل في الفنصورة، بالفاء

وهي من مدائن الصين، وإلى كافورها[٣] المنتهى، ويمتد رُسْداقها إلى البحر شهرين.

وقال الأصمعي: إنما سميت الصين بصين بن نعير، نزلها وكثر نسله بها، فسميت به. قال: وحدُّها من البحر إلى التُّبَّت، وجزائر الوَاق واق[٤] فيها.

وقال بطليموس: من دخل بلاد الصين لم يهنْ عليه الخروجُ منها، لاعتدال هوائها ورقة مائها وكثرة خيرها والذهب والفضة، ولا يزال الإنسان فيها مسروراً طَرِباً.

---

(١) انظر «المسالك والممالك» ص٥.

(٢) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ١٠٣: «داخل في الجملة».

(٣) الكافور: نوع من الطيب. انظر «المعتمد في الأدوية المفردة» ص٤٠٤.

(٤) كذا هي في (ل)، وفي «معجم البلدان» ٥/ ٣٨١: الوقواق.

وقال في «جغرافيا»: وفي بلاد الصين أنهار كبار مثل دجلة والفرات، تجري من بلاد التُّرك والتُّبَّت والصُّغْد، وفيها جبال النشاذر، يرتفع منها في الصيف نيران تُرى من مئة فرسخ في الليل، وفي النهار دخان لغلبة شعاع الشمس[١]، وأكثر سلوك الناس إلى الفنصورة والصين من ناحية خراسان في الشتاء لغلبة حرِّ النشادر في الصيف، قال: ومن خراسان إلى أول أعمال الصين نحو أربعين يوماً، وقيل: أربعة أشهر، وهناك جبال الصُّغْد.

فصل

ومنها مدينة تُبَّت. قال الأصمعي: أصلها ثَبَت بالثاء المنقوطة بثلاث، وكانت التابعة، وهم ملوك حمير واليمن، لما طافوا الدنيا وصلوا التُّبَّت ورتبوا على تلك الحدود رجالاً مخافة العدوّ، فثبتوا هناك، فقال الناس: ثبت، ثم طال العهد، فجعلوا موضع الثاء تاء، والذي فعل ذلك تُبَّع الأول، وسنذكره في التبابعة.

وكان ملوك التُّبَّت في قديم الزمان يسمَّون التبابعة، لأنَّ تُبَّعاً وصل إلى هناك، فلما طال الزمان وحال العهدُ وانقرضوا سَموا ملكهم: خاقان[٢].

والمسك التُّبَّتيّ يُنسب إلى هذه البلاد، وسنذكره في الطيب.

وقال بَطْلَيْموس: من خاصية بلاد التُّبَّت والصين: أن الإنسان لا يعرف فيها الهمَّ والغم، ولو مات جميعُ مَنْ للإنسان لم يحزن عليه، ولا يكاد يُرى فيها شيخ ولا عجوز، إلا الشباب والكهول.

فصل في مدائن الهند والشرق

قال في «جغرافيا»: ومن مدائن الهند: شامل، ومورين[٣]، وقالون، وقهنديار[٤] وقِشْمير، وأقربها إلى بلاد الإسلام غَزْنَة، وكان تحت يد ملكها ألف فيل، والهند مِلَلٌ

(١) انظر «عجائب المخلوقات» ص٢٠٢.
(٢) انظر «مروج الذهب» ١/ ٣٥١-٣٥٣.
(٣) في «المسالك والممالك»: هورين.
(٤) في «معجم البلدان» ٤/ ٤٠٢: قُنْدُهار.

كثيرة، وسنذكرهم في بابهم.

وبلاد الهند من جنس بلاد الصين في صحة الهواء ورقة الماء وعدم الهم والغم.

وقال الأصمعي: ألذُّ مدائن الشرق خُراسان نَيْسابور، وهَراة، وبَلْخ، وهي من بناء الإسكندر، وقال: ومعنى خُراسان: مطلع الشمس بالفارسية. وقيل: إن هَراة بناها الضَّحاك، ومدينة خُراسان مَرْو بناها لُهْرَاسب.

حدثنا زيد بن الحسن بإسناده عن عبد المحسن بن محمد بن علي، قال: أنشدنا منصور بن النعمان الصَّيْمَري، أنشدنا محمد بن أحمد الكاتب، قال: أنشدنا ابن دريد لنفسه، وكان قد اشتاق إلى خراسان فلما دخلها لم تعجبه فقال: [من الوافر]

تمنينا خراساناً زماناً فلم نعطَ المنى والصبر عنها
فلما أن حللناها سراعاً وجدناها بحذفِ النصفِ منها

وقال النضر بن شُميل: أول مدن خُراسان: الرَّيُّ، وهي آخر الجبال منها، وإليها ينسب الرازي. قال: ومدينة مَرْو دارُ خلافة المأمون، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة، والنسبة إليها مَرْوَزي. ومن وراء النهر كابُل: مدينة عظيمة، وفيها الإهْلِيلَج الكابُلي، وفَرْغانة مدينة الصُّغْد، وهم رماةُ الحدق، وإذا مات لهم كبير قطعوا آذانهم احتراماً له[1].

وقال أبو منصور ابن الجواليقي في «المعرب»: ومن مدائن العجم دَرابْجِرْد.

قال الأصمعي: إن الدَّراوَرْدي الفقيه منسوبٌ إليها، والباء فيها مكسورة[2]. ومن مدائن المشرق أَذْرَبيجان وأَرْمينِية.

وقال ابن الجواليقي في «المعرب»: ومن مدائن خُراسان سِجِسْتان[3]. وقال أيضاً: وهَراة كُورة من كُوَر العجم وقد تكلمت بها العرب[4].

---

(١) في (ل): لهم، والمثبت من المطبوع.

(٢) «المعرب» ص٢٠١، والدراوردي هو: عبدالعزيز بن محمد، أبو محمد (ت١٨٧هـ). وذكر السمعاني أن الباء فيه مفتوحة أو ساكنة. «الأنساب» ٥/ ٢٩٢.

(٣) «المعرب» ص٢٤٦.

(٤) «المعرب» ص٣٩٥.

ومن مدائن الشرق عُمان، وقد ذكرها النبي ﷺ، قال أحمد بإسناده عن الحسن بن هادية، قال: لقيتُ ابن عمر فقال لي: ممن أنت؟ فقلت: من أهل عُمان، فقال: من أهل عمان؟ قلت: نعم، قال: أفلا أُحدِّثك ما سمعتُ من رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم، قال: سمعته يقول: «إنّي لأَعلَم أرضاً يقال لها: عُمان يَنْضَحُ بجانبها البحرُ، الحَجَّةُ منها أفضلُ من حَجَّتين من غيرها». أخرجه أحمد في «المسند»[١].

وذكرها الجوهري فقال: وعُمانُ ـ بالتخفيف ـ بلد، وأما الذي بالشأم فهو عَمَّانُ ـ بالفتح والتشديد ـ بلد[٢].

وسنذكر المدائن التي بناها الإسكندر والفرس بخراسان وغيرها.

فصل في مدائن العراق

قال الجوهري: العِراق بلاد، يُذكَّر ويُؤنَّث، قال: ويقال هو فارسي مُعرَّب. والعراقان البصرة والكوفة[٣].

وقال الأصمعي: إنما سُمِّيَ عِراقاً لأنه سَفُل عن أرض العرب. قال: وقال أبو عمرو بن العلاء: سُمِّيَ عِراقاً لتواشُج عروق الشجر والنخل فيه[٤].

وقال الخطيبُ بإسناده عن ابن عائشة قال: كتب عمر بن الخطاب إلى كعب الأحبار، يقول: اختَرْ لي المنازلَ، فكتب إليه: يا أمير المؤمنين: بلغنا أن الأشياء اجتمعت، فقال السخاء: أريد اليمن، فقال حسن الخلق: وأنا معك، وقال الجفاء: أريد الحجاز، فقال الفقر: وأنا معك، وقال البأس: أريدُ الشام، فقال السيف: وأنا معك، وقال العلم: أريد العراق، فقال العقل: وأنا معك[٥]، وقال الغنى: أريد مصر، فقال الذلّ: وأنا معك. فاخترْ لنفسك. فلما وردَ الكتاب على عمر قال: فالعراق إذاً[٦].

---

(١) أحمد في «مسنده» (٤٨٥٣).

(٢) «الصحاح»: (عمن).

(٣) «الصحاح»: (عرق).

(٤) انظر «المعرب» ص٢٧٩.

(٥) من قوله: وقال العلم . . . إلى هنا ليست في (ل)، والمثبت من المطبوع وتاريخ بغداد ١/ ٢٥.

(٦) «تاريخ بغداد» ١/ ٢٥.

ومنها: حُلْوان، قال ابن الجواليقي: حلوان مدينة من مدن العجم. وقال ابن الكلبي: إنما سميت بذلك؛ لأنَّ بعضَ ملوكِ الأعاجم أقطعها حلوان بن الحاف بن قضاعة[1].

وروي عن معاذ بن جبل قال، قال رسول الله ﷺ «اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا، وفي شامنا ويمننا، وفي حجازنا» فقام إليه رجل فقال: يارسول الله، وفي عراقنا، فأمسك رسول الله ﷺ، فلما كان في اليوم الثاني، قال مثل ذلك، فقام إليه الرجل وقال: يا رسول الله، وفي عراقنا، فأمسك رسول الله ﷺ، فقام الرجل إليه في اليوم الثالث فقال مثل ذلك، فأمسك عنه، فولَّى وهو يبكي، فدعاه النبي ﷺ، فقال: «أمِنْ أهل العراقِ أنت؟» قال: نعم، قال: «إن أبي إبراهيم همَّ أنْ يدعوَ عليهم فأوحى الله تعالى إليه: لا تفعل، فإني جعلتُ خزائن علمي فيهم، وأسكنتُ الرحمةَ قلوبهم»[2].

فصل ومن مدن العراق مدينة بابل

بناها نُمْرود بن كنعان، ومكانها معروف، وقد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾الآية[البقرة: ١٠٢]. وقال الجوهري: بابِلُ اسم موضع بالعراق ينسب إليه السحر والخمر، ولا ينصرف لتأنيثه[3].

وقد أكثرت فيها الشعراء. وحكى لي جماعةٌ من مشايخنا: عن البلخي الواعظ أنه كان يعظُ بالنظامِيَّة، وبدت منه حركات أوجبت إخراجَهُ من بغداد، فجاءَ إليه بعضُ غلمان الديوان، وهو على المنبر فقال له: قد رُسِمَ بأن تخرجَ من البلد، فأنشد[4]: [من الطويل]

أبابلُ لا واديكِ بالجودِ مُفْعَمٌ لديّ ولا ناديكِ بالرفدِ آهلُ
لئن ضِقتِ عني فالبلادُ فسيحةٌ وحَسْبك عاراً أنَّني عنكِ راحلُ

(١) «المعرب» ص١٦٩-١٧٠. وفيه: «حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة». وانظر «جمهرة أنساب العرب» ص٤٥٠.

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» ١/ ٢٤-٢٥، وابن عساكر في «تاريخه» ١/ ٦٢.

(٣) «الصحاح»: (ببل).

(٤) الأبيات لمحمد بن أحمد الأبْيَوَردي في «ديوانه» ١/ ٣٧٧، وفيه:

أبابل لا واديك بالرفد منعم لدينا ولاناديك بالوفد آهل

وإن كنتِ بالسِّحرِ الحرام مُدِلَّةً   فعندي مِنَ السحرِ الحلالِ دلائلُ
قَوافٍ تُعيرُ الأعينَ النُّجْلَ حُسنَها   فأيُّ مكان خَيَّمَتْ فهو بابلُ

وكان ببابلَ عجائب نذكرها في عجائب الدنيا.

فصل

ومنها الأنبار، وهي مدينة قديمة ذكرها الجوهري، وقال: وأَنْبار اسم بلدٍ[١]. وسنذكرها فيما بعدُ.

فصل

ومن مدائن اليمن صَنْعاء، قال الجوهري: وصَنْعاء ـ ممدود ـ قَصَبةُ اليمن، والنسبة إليها صَنْعانيٌّ على غير قياس، كما قالوا في النسبة إلى حَرَّان: حَرْنانيٌّ[٢].

قال: وحَضْرَمَوْتُ: اسم بلد وقبيلة أيضاً، وهما اسمان جُعِلا اسماً واحداً، والنسبة إليه: حَضْرَمِيٌّ، وتصغيره حُضَيْرُمَوْتٍ، والجمعُ الحَضَارِمة[٣].

قال: وظَفارِ مثل قَطامِ مدينةٌ باليمن، وجَزْعٌ ظَفاريٌّ منسوب إليها، وكذا عودٌ ظَفاريٌّ، للذي يُتبخَّر به، وفي المثل: من دخلَ ظَفارِ حَمَّر[٤]. أي: تكلم بلغة حمير. وسنذكره في الأمثال إن شاء الله تعالى، ونذكر أيضاً عَدَن، ونذكر أيضاً مكة في قصةِ الخليل عليه السلام.

فصل

فأما مدينة النبي ﷺ، فقال الجوهري: وَيَثْرِبُ مدينة النبي ﷺ[٥].

وقال عكرمة: وقد سماها النبي ﷺ يَثْرب، ففي حديث الهجرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رَأيتُ في مَنامي أنّي أُهاجِر إلى أرضٍ بها نخلٌ فذهَبَ وَهَلي إلى أنَّها اليَمامةُ

---

(١) «الصحاح»: (نبر).
(٢) في (ل): حراني، والمثبت من «الصحاح»: (صنع).
(٣) «الصحاح»: (حضر).
(٤) «الصحاح»: (ظفر)، وانظر «مجمع الأمثال» ٢/ ٣٠٦.
(٥) «الصحاح»: (ثرب).

أو هَجَر، فإذا هيَ المدينةُ يثربُ». متفق عليه[١]. وسنذكره في الهجرة.

وسماها: طابَةَ وطَيْبَةَ، من الطِّيب، فأخرج مسلم عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى سمَّى المدينةَ طابَةَ»[٢].

وسنذكر قصَّتَها، ومن بناها في باب التَّبابِعة من ملوك اليمن، وفضلَها في سيرة النبي ﷺ.

وقال هشام بن الكلبي: لما أهلك الله قومَ عاد تفرقت القبائل، فنزل قوم بمكة، وقوم بالطائف، وسار يثربُ بن مَهْذيل بن إِرم بن عَبيل وقومُه فنزلوا موضع المدينة[٣]، فاستخرجوا العيون، وغرسوا النخيل، وأقاموا زماناً، فأفسدوا، فأهلكهم الله ويبست النخيل، وغارت العيون، حتى مرَّ بها تُبَّع، فبناها لِما نذكر.

فصل في مدائِن الجزيرة

قال الجوهري: والمَوْصِلُ بلد[٤]. واختلفوا في تسميتها بذلك على قولين، أحدهما: لأنها وصلت ما بين دِجلة والفرات، والثاني: لأنه كان في موضعها راهبٌ طليعةٌ للفرس، يوصل إليهم أخبار الروم.

ومن شرقيه المدينة العظمى، ويقال لها: نِينَوىَ، نذكرها في قصة يونس عليه السلام.

ومنها: نَصِيبين وهي قديمة، وذكرها الجوهري فقال: ونَصِيبِينُ بلد[٥].

ومَيَّافارِقِين أعجمي مُعرَّب، وقد نطقت به العرب[٦].

---

(١) البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، و«وهلي» الرواية بفتح الهاء، وكذلك ضبطها الإمام النووي وهو بمعنى الوهم، وأهل اللغة يسكنون الهاء، وبذلك جزم ابن الأثير في «النهاية» انظر «فتح الباري» ١٢/ ٤٢٢.

(٢) مسلم (١٣٨٥).

(٣) جاء في «معجم البلدان» ٥/ ٤٣٠: يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح. وانظر «نهاية الأرب» ص٣١٦-٣١٧.

(٤) «الصحاح»: (وصل).

(٥) «الصحاح»: (نصب).

(٦) انظر «المعرب» ص٣٧٠.

وآمِدُ من قديم المدن، ولم تتكلم بها العرب، وقيل: تكلمت بها.

ومنها حَرَّان، قال الجوهري: وحَرَّانُ اسمُ بلد[١]. وذكرها ابن الجوَالِيقي فقال: وَحَرَّان اسم البلدة مُعرَّبة، وهي مسماة بـ: هاران بن آزر أخي إبراهيم[٢].

وقال ابن الكلبي: لما خرج نوح من السفينة بناها، وقيل: إنما بناها هاران خال يعقوب عليه السلام، فأبدلت العربُ الهاءَ حاءً، وكان بها معبدٌ لليونان.

فصل في مدائن الشَّأم والسواحل

فمنها: حَلَب، وقد ذكرها الجوهري فقال: وحَلبُ مدينة بالشأم[٣].

وقال أبو الحسين ابن المنادي: الشامات خمس كُوَر:

الأولى: قِنَّسْرِين، ومدينتها العظمى حَلَب، وقِنَّسْرِين أقدم منها، وبينهما أربعة فراسخ، وفيها آثار الخليل عليه السلام ومقامه، وقد نزلها أكابر الملوك، كبني حمدان وغيرهم، قال: ومن رُسْداقِها مَنْبج وهي مدينة قديمة[٤]. وذكرها الجوهري فقال: وَمنْبِجُ اسم موضع[٥].

وفي ساحل حلب مدن منها: أَنْطاكِيَة، ذكرها ابن الجَواليقي في «المعرب»، وقد تكلمت بها العرب قديماً، وكانوا إذا أعجبهم شيء نسبوه إليها[٦]. واختلفوا في بانيها فقال قوم: بناها أَنْطُخُس أولُ ملوكِ اليونان، وصيَّرها دارَ ملكه، وحشد إليها الحكماءَ وأصحابَ الرَّصْدِ وأخذَ الطوالعَ بها، ومسافةُ سورها اثنا عشر ميلاً، وعدد أبراجها مئة وستة وثلاثون برجاً، وعدد شُرُفاته أربع وعشرون ألفاً، وهذا السور في السهل والجبل، وقال أبو معشر: بنيت بعد الإسكندر الثاني بمئة سنة، والنصارى تسميها دارَ الله؛ لأن النصرانية ظهرت منها بعدما دثرت.

---

(١) «الصحاح»: (حرن).

(٢) في (ل): «بهاران ابن أخي ازرع»، والمثبت من «المعرب» ص١٧١.

(٣) «الصحاح»: (حلب).

(٤) انظر «بغية الطلب» ١/ ٧٢.

(٥) «الصحاح»: (نبج).

(٦) «المعرب» ص٧٣.

وقال ابن المنادي: والشَّأم الثانية: حِمْصُ وأعمالها، وكانت مركز ملوك الروم، وكان زيتونها وقنواتها متصلة بتَدمُر وبَعْلَبك، ومن سواحلها طَرابُلُسُ وما والاها، وقد نزلها خَلْقٌ من الصحابة.

قال: والشَّأم الثالثة: وهي الغوطة، ومدينتها: دمشق، واختلفوا في الذي بناها على أقوال:

القول الأول: نوح عليه السلام، لما خرج من السفينة، أقام بثَمانِين[1] مدةً، ثم جاء إلى الشام، فأشرف من جبال الغوطة على الغوطة فأعجبته، فشرع في بنائها واتخذها داراً، وهي أولُ مدينةٍ خُطَّت بعد الطوفان. قاله النضر بن شميل.

والقول الثاني: بيوراسب، وبنى بعدها صُورَ بالساحل. قاله مجاهد.

والقول الثالث: عاد بن عوص، وأنها المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾[الفجر: ٧]. قاله كعب الأحبار.

والرابع: ذو القرنين الإسكندر الأول، لما عاد من المشرق صعد على عَقبة دُمَّر، ومعه غلام اسمه: دمشق، فرأى المياه ضائعةً، فقال له: يا دمشق، ابن هاهنا مدينة، ورسمها له فبناها. حكاه أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخ دمشق» وقال: كان الغلام يقال له: دمشقش بزيادة شين، قال: وكان وادي دمشق كله شجر الأرز، قال أبو القاسم: والأرزة التي وقعت في سنة ثلاث مئة وثلاث عشرة من ذلك الأرز، وبنى مكان الجامع معبداً يَعبد الله فيه[2].

والقول الخامس: غلام للخليل عليه السلام، يقال له: العازَر، وهبه له نمرود لما خرج من النار سالماً. حكاهُ وهب بن منبه[3].

والقول السادس: سليمان عليه السلام.

وبَرِيد وجَيْرون اللذان ينسب إليهما باب البَرِيد وباب جَيْرون، هما شيطانان في قول

(١) ثمانين: بليدة عند جبل الجودي، فوق الموصل. «معجم البلدان» ٢/ ٨٤.

(٢) «تاريخ ابن عساكر» ١/ ٦-٧.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١/ ٥.

أبي الحسن المدائني، كانا على عهد سليمان، وفي قول كعب الأحبار: هما أخوان، وأبوهما سعد بن لقمان بن عاد لما نذكر بعد هذا. وقيل: كان موضع جَيْرون وباب البَرِيد مدينة صغيرة، وهما من بعض أبوابها.

وإنما سُمي: البابَ الصَّغير، لأنَّه كان أصغَرَ أبوابها لما بنيت.

وباب كَيْسان: منسوب إلى كَيْسان مولى معاوية.

وباب تُوما: ينسب إلى عظيم من الروم يقال له: تُوما.

وباب الفَرادِيس: منسوب إلى محلة كانت في ظاهره يقال لها: الفَرادِيس.

وباب الفَرَج: فتحه نور الدين محمود ابن زَنْكي رحمه الله؛ تفاؤلاً باسمه وما فتح عليه من الفتوح ببلاد الفرنج.

وباب الجابيَة: منسوب إلى قرية الجابيَة، وكانت مدينة عظيمة في الجاهلية[١].

وفي السور أبوابٌ صغار تفتح عند الحاجة إليها[٢].

وذكر أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله بن خُرْداذْبه: أنَّ أصحابَ الرَّسِّ كانوا باليمن، فأرسل الله تعالى إليهم حنظلةَ بن صفوان نبياً فقتلوه، فسار عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده من الرَّسِّ، فنزل الأحقاف، وأهلك الله أصحابَ الرَّسِّ، وانتشر ولد عاد في بلاد اليمن، ثم خرجوا إلى الشام، فنزل جَيْرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح دمشق، وبنى مدينتها وسماها: جَيْرون، وهي إرَم ذاتُ العماد، فبعث الله هود بن عبدالله بن رياح بن خالد بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح نبياً إلى قوم عاد بالأحقاف، فكذبوه فأهلكهم الله. وسنذكر قصتهم في موضعها إن شاء الله تعالى.

وقال بعضُ الأوائل: إنها بنيت على الكواكبِ السبعة، وكان لها سبعة أبواب، على كُلِّ باب صورة[٣]، فالباب الشرقي للشمس، وباب توما للزُّهَرَةِ، وباب السَّلامة

---

(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ١١٢: وباب السلامة: سمته العرب، لأنه لم يكن من جهته قتال في وقت فتوحها في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر «تاريخ ابن عساكر» ١/ ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ١١٣: «الكوكب المختص به».

للقمر، وباب الفَراديس لعُطارِدِ، وباب الجابية للمِرِّيخ، والباب الصغير للمُشتَري، وباب كَيْسان لزُحَل.

وقال الجوهري: ويقال: إن صورة زُحَل باقية عليه إلى الآن[١].

ودمشق قَصَبَةُ الشَّام، قال: ودمشق من صفات النُّوق[٢].

واختلفوا في لفظة جِلِّق، فقال الجوهري: جِلِّقُ موضع بقرب دمشق[٣]. وقد جاء في الشعر الفصيح، قال حسان[٤] [من الكامل]:

لِلَّـهِ دَرُّ عِـصَـابَـةٍ نَـادمـتُـهـا ... يـومـاً بِـجِـلِّـقَ فـي الـزَّمـانِ الأولِ

قال: وقيل إنه صورة امرأة، كان الماء يجري من فيها في قرية من قرى دمشق[٥].

وقال الهيثم: بنيت دمشق في خمس مئة سنة، وأصل مياهها من عين في مرج الزَّبَدانيِّ عند قرية يقال لها: بَرَدى، ثم يجتمع من عين الفِيْجة وينقسم سبعةَ أنهار، وفي بَرَدى يقول بعض القدماء[٦] [من البسيط]:

ومـا ذَكَـرتـكُـمُ إلا وَضَـعـتُ يَـدِي ... عـلـى حَـرارةِ قَـلْـبٍ قـلَّ مـا بَـرِدا

ومـا تَـذكَّـرْتـكـم والـدمـعُ يَـشـرَقُ بـي ... إلّا تـحـدَّر مـن عـيـنـيَّ مـا بَـرَدى

فصل في فضل دمشق

روى وهب بن منبِّه أنه قال: بلغني عن ابن عباس أنه قال: أقدمُ حائط على وجه الأرض حائط قبلةِ دمشق، وفيه قبرُ هود عليه السلام. وفي روايةٍ عن كعب أنه قال: أول حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حَرَّان ودمشق وبابِل[٧].

---

(١) لم نقف على كلام الجوهري في «الصحاح».

(٢) «الصحاح»: (دمشق).

(٣) «الصحاح»: (جلق).

(٤) في «ديوانه» ص٣٦٤.

(٥) انظر «معجم البلدان» ٢/ ١٥٤.

(٦) وهو إبراهيم بن أبي بكر بن عبدالعزيز، أبو إسحاق الجزري الكتبي المعروف بـ «فاشوشة» وكان من المعمرين (٦٠٢-٧٠٠هـ) والبيتان له. انظر «عقد الجمان» ٤/ ١٥٠، و«شذرات الذهب» ٥/ ٤٥٦.

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١/ ٤.

وذكر مجاهد عن ابن عباس في تأويلِ قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[المؤمنون: ٥٠] قال: هي دمشق[١]، وكذا في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾[الفجر: ٧] إنها دمشق.

ورُوي عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً أنه قال: قد وكل الله بكلِّ بلد مَلَكاً يحرسه، إلَّا دمشق فإنه يتولاها بنفسه. والموقوف أصح[٢].

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عبد الرحمن بن جبيرِ بن نفير عن أبيه، قال: حدثنا أصحابُ محمد ﷺ أنه قال: «سَتُفتح عليكم الشَّام، فإذا تَخيَّرتُم المنازلَ فيها، فعليكم بمدينةٍ يُقال لها: دِمشقُ، فإنَّها مَعقِلُ المُسلمين مِنَ الملاحِم، وفُسْطاطُهم بأرضٍ يقال لها: الغوطة»[٣]، إلا أنَّ جَدي رحمه الله ضعَّف هذا الحديث وذكره في «الأحاديث الواهية» وقال: قال يحيى بن معين: في إسناده أبو بكر بن أبي مريم ليس بشيء[٤].

قلت: وقد أخرج مسلم عن النَّوَّاس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزِل عيسى بنُ مريمَ عندَ المَنارةِ البيضاءِ، شرقيَّ دِمشقَ بين مَهْرودَتَيْن، واضعاً كَفَّيه على أجنحَةِ مَلَكَين»[٥]. وهو حديث طويل. والمَهْرودَة: المصبوغة.

وروى وَهب بن منبِّه قال: كان الخضِر عليه السلام يطرقها، فأتاها مرةً فوجدها بحيرةً، فغاب عنها خمس مئة سنة، ثم أتاها فإذا هي عامرة، فغاب عنها خمس مئة سنة أخرى وأتاها، فإذا هي مقصبة، ثم عاد إليها فوجدها عامرة، فعل ذلك مراراً، وهذا يدل على أنها قديمة.

وحكى الحافظُ أبو القاسم في «تاريخه»: أنه كان بدمشق رجلٌ صالح، وكان يقصده الخضِر عليه السلام، وذلك في زمان معاوية بن أبي سفيان، فبلغ معاوية، فجاء إلى الرجل وقال له: اجمع بيني وبين الخَضِر عندك، قال: نعم، فجاء الخضر على

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١/ ٩١، من حديث عكرمة عن ابن عباس.
(٢) لم نقف عليه.
(٣) أحمد في «مسنده» (١٧٤٧٠).
(٤) «العلل المتناهية» ١/ ٣٠٧.
(٥) صحيح مسلم (٢٩٣٧). والمهرودتان: ثوبان مصبوغان بورس ثم بزعفران. انظر: شرح النووي ١٨/ ٦٧.

عادته، فأخبره بما قال معاوية، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل، فقال: فأخبر معاوية بما قال، فقال له معاوية: قل له: قد قعدنا مع من هو خير منك، وحدثناه وخاطبناه، وهو محمد ﷺ، ولكن اسأله عن ابتداء بناء دمشق، كيف كان، فقال: نعم، وذكر بمعناه[١].

وذكر الحافظ أيضاً عن أبي الحسين الرازي والد تَمَّام، ذكر في «تاريخه»: أن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس لما حاصر دمشق وهدم سورها، وقع منه حجر عليه منقوش باليوناني، فترجم بالعربية وكان: ويكِ إرم[٢] الجبابرة، من رامك بسوء قصمه الله، ويلك من خمسة أعين، ينقض سورك على يديه بعد أربعة آلاف سنة، فنظر فإذا هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ففعل بها ما فعل[٣].

وقد ورد في فضائل دمشق أخبار، للمحدثين فيها نظر، فلذلك عَدَّينا عنها. وقد ذكرها أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» وليس فيها ما يثبت إلا النادر.

وذكر الحافظ أبو القاسم أيضاً في أخبار دمشق: أن أبا الفتح المسلّم بن هبة الله، أَلَّفَ[٤] رسالةً في تفضيلِ دمشق على الدنيا، وكان فاضلاً، وهو القائل: [من الطويل]

وما ذقتُ طَعْمَ الماء إلا وَجدتُهُ ... كأن ليس بالماءِ الذي كنتُ أعرفُ
وما سرَّ صَدْري مذ تناءَتْ بيَ النوى ... أنيسٌ ولا مالٌ ولا مُتَصَرَّفُ
وما أحضرُ اللَّذَّاتِ إلَّا تكلُّفاً ... وأيُّ سُرورٍ يَقتضيهِ التَّكلُّفُ

وروي عن كعب الأحبار: أنه رأى رجلاً من أهل الشام، فقال: من أين أنت؟ فقال: من دمشق، فقال: أنت من الذين يُعرَفونَ في الجنَّةِ بالثيابِ الخضر[٥].

وحكى جماعة عن مشايخ دمشق: أنَّ بالغوطة مئة ألف ونيفاً وثلاثين ألف بستان،

(١) «تاريخ دمشق» ١/ ٥-٦.
(٢) في (ل): «أم» والمثبت من «تاريخ دمشق».
(٣) «تاريخ دمشق» ١/ ٧، والخمسة أعين، هي أول حرف من اسم هذا الرجل واسم آبائه، و«بن عبدالمطلب» مستدرك من «تاريخ دمشق».
(٤) في النسخ: «صنف ألف»، والمثبت من تاريخ دمشق ٦٧/ ٢٠٥.
(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١/ ١٢٣-١٢٤.

وسنذكر أنهارها فيما بعد.

وقد أكثرت الشعراء في وصف دمشق، فمنهم أحمد بن منير الطرابلسي.

أنبأنا أبو البركات الدمشقي عن جماعة من أشياخه، قالوا: أنبأنا ابن منير، قال: [من البسيط]

حَيِّ الدِّيارَ على عَلْياءِ جَيْرون ... مَهْوى الهوى ومغاني الخُرَّدِ العِينِ
مُرادَ لَهْويَ إذْ كَفِّي مُصَرِّفةٌ ... أَعِنَّةَ العيس في فِيْحِ المياديِنِ
فالنَّيْرَبَيْن فَمَقْرى فالرياض فَجَمْـ ... ـرايا فَجَوٌّ حواشيْ جسر جِسْرِينِ
فالقَصْر فالْمَرْج فالمَيْدان فالشَّرَف الـ ... أعلى فسَطْرا فَجَرْمانا فقُلْبِينِ
تلك المنازل لا وادي الأراكِ ولا ... رمْلُ المصلَّى ولا أَثْلاتُ يَبْرِينِ
واهاً لطيبِ غُديَّاتِ الرَّبيعِ بها ... وبردِ أنفاس آصالِ التشارينِ
وَطابَ تَغْرِيدُ قَيْناتِ الغُصون وأَغْـ ... ـنَتْها الحَنَاجِر عن شَدِّ الدَّساتِين(١)

وقد وازنها أبو عبدالله محمد بن محمد، الملقب بالعماد الكاتب الأصبهاني، ولي منه إجازة، قال(٢): [من البسيط]

أهدَى النَّسيمُ لنا ريَّا الرَّياحينِ ... أم طيبَ أخلاقِ جيراني بِجَيْرونِ
هَبَّت لنا نفحةٌ في جِلَّقٍ سَحَراً ... باحتْ بِسرٍّ من الفردوسِ مكنونِ

ومنها: [من البسيط]

دمشقُ عنديَ لا تُحْصَى فضائلُها ... عَدًّا وحَصْراً ويُحْصَى رملُ يَبْرينِ
وما أرى بلدةً أخرى تُماثِلُها ... في الحُسنِ من مِصرَ حتى مُنتهى الصِّينِ
وإنَّ من باع كلَّ العُمر مُقتنعاً ... بساعةٍ في ذُراها غيرُ مَغْبونِ
لما عَلَتْ هِمَّتي صَيَّرْتُها وطني ... وليس يَقنعُ غيرُ الدُّونِ بالدُّونِ
ترى جواسِقَها(٣) في الجوِّ شاهقةً ... كأنَّهنَّ قصورٌ للسلاطينِ

(١) هذا البيت زيادة من (ل)، والدساتين: هي الرِّباطات التي توضع الأصابع عليها في آلة العود. مفاتيح العلوم ١/ ٤٥.

(٢) الأبيات في «الخريدة» «قسم شعراء دمشق» ص٣٠-٣٤.

(٣) الجواسق: القصور.

دارُ النَّعيم ومِنْ أدنى محاسِنِها ... ثمارُ تمُّوزَ في أيامِ كانونِ
نَعيمُها غيرُ مَمنوعٍ لساكِنها ... كالخُلْدِ والمنُّ فيها غيرُ ممنونِ
أزهارُها أبداً في الرَّوض مونِقَةٌ ... فَحُسنُ نَيسانَ مَوصولٌ بتِشرينِ
وللحمائمِ في الأسحارِ أدعيةٌ ... مرفوعةٌ شُفِعَتْ منَّا بتأمينِ
خافتْ على الرَّوضِ من عينٍ مُطوَّقة ... أضحتْ تُعَوِّذُهُ منها بياسينِ
مِن كلِّ مُطْرِبِ صوتٍ غيرِ مُضطَربٍ ... وكلِّ مُعْربِ لفظٍ غيرِ ملحونِ
وللبساتينِ أنهارٌ جَداولُها ... تَسْتَنُّ في الجَرْيِ أمثالَ الثَّعابينِ
وقد تراءَتْ بها الأشجارُ تحسِبُها ... صفوفَ خَيلٍ صفونٍ[1] في الميادينِ
يا صاحبيَّ أفيقا فالزَّمانُ صحا ... ولانَ من بعد تشديدٍ وتخشينِ
دارُ المقامةِ قد أضحت مَحَلَّكما ... ونِلتُما العزَّ في أمنٍ من الهُونِ

وقال ابن منير أيضاً[2]: [من البسيط]

سَقى دمشقَ ومغنًى للهوى فيها ... حَيَاً تهزُّ له أعطافَها تِيها
لا زال للدَّوحِ عطَّاراً يُراوِحُها ... وللسَّحائب خمَّاراً يُغاديها
دارٌ هي الجنَّة المحبورُ ساكِنُها ... فإن تَكُنْها وإلَّا فَهْيَ تَحْكيها
تَبارَكَ الله كم مِن مَنظَرٍ بَهِجٍ ... يَستوقِفُ الطَّرْفَ في بطحاءِ واديها

من أبيات.

وقال محمد بن القَيْسَراني: [من البسيط]:

أرضٌ تحلُّ الأماني من محاسنها ... بحيث تَجتمعُ الدُّنيا وتَفترقُ
إذا شدا الطَّيرُ في أغصانِها وقَفَتْ ... على حدائقها الأسماعُ والحَدَقُ

وقال فيها أيضاً أشعاراً كثيرة.

وقال القاضي أحمد بن كامل: لما قدِمها البُحتري مع المتوكِّل، وشاهد أنهارها وأشجارها وأطيارها وقصورها وولدانها وحورها، قال: ارتفعت دمشق عن الوصف فهي كما قيل:

(١) في (ل): «صفوف» والمثبت من «الخريدة»، وصفن الفرس: قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة.
(٢) الأبيات في «ديوانه» ص٢٠٦.

في كلِّ ناحيةٍ من وجهها قمر[١]

ثم قال[٢]: [من البسيط]

العيشُ في ليلِ داريَّا إذا بَرَدا ... والرَّاحُ نَمزُجُها بالماء من بَرَدى
أمَّا دمشقُ فقد أبْدَتْ محاسِنها ... وقد وَفَى لك مُطريها بما وَعَدا

من أبيات.

وللعماد الكاتب في مدحها قصائد عديدة ذكرها في «الخريدة»[٣].

وقال ابن الكلبي: دمشق كورة من كُوَرِ الشام، ومن أعمالها:

البَلْقاء، منسوبة إلى بالق.

وعَمَّان ـ بالتشديد ـ سميت بذلك لأن عَمَّان بن لوط عمرها وأقام بها.

وزُغَر ومَآب باسم ابنتي لوطٍ عليه السلام، وقيل: مآب بن لوط والرية بنت لوط عليه السلام.

وقيل: وسميت صَيْدا بصَيْدون بن كنعان بن نوح عليه السلام.

وأَريحا: بأرِيحا بن مالك بن أَرْفَخشذ بن سام بن نوح.

وسميت: الكُسْوة، لأنَّ رسل ملك الروم باتوا بها، فسرقت ثيابهم، فأصبحوا عُراةً، وقيل: لأن غسان قتلتهم واقتسمت ثيابهم وكسوتهم.

والجابيَة: الحوض.

قال: وصُور وعَكَّة من أعمال دمشق، وقال الجوهري: عَكَّه ـ بالهاء ـ قال: وهي اسم بلد بالثُّغور[٤]. ويقال: عكَّا بالمَدّ، بدليل أنك إذا نسبت إليها قلتَ: رجل عَكَّاوي، وصُور من صار إذا مال، وهي مائلة في البحر.

---

(١) هذا عجز بيت لبشار بن برد وصدره: «كأنما أفرغت في جوف لؤلؤة» وعزاه إليه أسامة بن منقذ في «البديع في البديع»، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٢) البيتان في ديوانه ٢/ ٧٠٩ـ٧١٠.

(٣) «الخريدة» «شعراء دمشق» ص١٩-٣٤.

(٤) «الصحاح»: (عكك).

ومنها: الرَّبْوَة، كان عيسى عليه السلام وأمه يأويان إليها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[المؤمنون: ٥٠].

ومنها: قاسِيُون، وسنذكره في الجبال.

وبظاهر دمشق أماكن مباركة، منها: مقبرة باب الفَرادِيس، كان كعب الأحبار يقول: يبعث الله منها سبعين ألف شهيد، يشفعون في سبعين ألف إنسان[١].

وقال كعب: بِطَرَسُوس عشرة من قبور الأنبياء، وبالمَصِّيصَة خمسة، وبأَنْطاكِيَة قبر حبيب النجار، وبِحِمْصَ ثلاثون نبياً، وبدمشق خمس مئة، وبالسواحل ألف نبي، وببيت المقدس ألف نبي، وبالعَرِيش عَشرة.

وروى مكحول عن ابن عباس قال: من أراد أن ينظرَ إلى قبور الأنبياء فعليه بالشام[٢].

قلت: وقد ذكر أبو القاسم ابن عساكر آثاراً في أماكن بظاهر دمشق، منها:

قرية بَرْزَة، فروى بإسناده إلى ابن عباس: قال: ولد إبراهيم في غوطة دمشق، بقرية يقال لها: بَرْزَة، في جبل يقال له: قاسِيون[٣]. ثم ذكر بعده: أن إبراهيم قدم إلى الشام، وجاهدَ ملك النَّبَط، وجاءَ فصلَّى في المقام[٤].

قلت: لا خلاف بين علماء السير أن إبراهيم ولد بالعراق، ما اختلف فيه اثنان[٥]. ثم روى بعد هذا: أن جبل بَرْزَة هو الذي رأى منه إبراهيم الكواكب، وقال: هذا ربي وهذا تناقض، ثم قال: والشِّقُّ الذي في المسجد هو الذي اختبأ فيه إبراهيم من نُمرود[٦]، ثم روى بعد هذا حديثاً عن النبي ﷺ، أنه قال: «وبالغوطة جبلٌ يقال له:

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١/ ٣٦٦.
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١/ ٣٦٦.
(٣) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣١.
(٤) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣٢.
(٥) وسيذكر المصنف الاختلاف فيه عند مولده ﷺ، وقد نص ابن عساكر في «تاريخه» ٢/ ٣١٣ على ما اعتمده المصنف أنه ولد بالعراق.
(٦) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣٢.

قاسِيون، فيه قتل ابنُ آدَم أخاه»[١]. وهذا الحديثُ لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، ولا قتل قابيل أخاه بالشام، بل في الهند، وسنذكره فيما بعد. وذكر أيضاً أن الدم الذي على قاسِيون دمُ هابيل، وأن الملائكة نزلت عَزَّتْ آدمَ في الكهف الذي بقاسِيون، وحكاه عن كعب الأحبار وغيره[٢].

قلت: ما ورد عن كعب الأحبار في هذا الباب، فقد توقَّفَ الناسُ في رواية كعب، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضربه بالدِرَّة ويقول: دعنا من يهوديتك، ومع هذا أجاز روايته بعضُهم إذا لم يروِ عن النبي ﷺ؛ لأنه أسلم على يدِ عمر، فالرواية عن رسول الله ﷺ في هذا الباب فيها وهنٌ عظيم إذا لم توافق السننَ والأصول.

فروى أبو القاسم في فضل دمشق والغوطة حديثاً عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله عز وجل جمجمة جبريل على قدر الغوطة»[٣]. وهذا مما لا توافقه عليه قضايا العقول، لأنه قد ثبتَ في الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «خلق الله تعالى الملائكة من نور»[٤]. والنور روحاني فكيف يكون جسماً، وفي رواية: «من نور العرش»[٥] ولما سأله رسول الله ﷺ أن يظهر له في صورته، ظهر فسدَّ أحدُ جناحيه ما بين المشرق والمغرب[٦]، وسنذكره في ليلة المعراج.

عدنا إلى قول ابن المنادي:

والشام الرابعة: الأُردُنُّ ومدينةُ طبريَّة على ساحل البحيرة، ويقال: إنها من بناء سليمان عليه السلام، وإن قبره على شاطئ البحيرة.

---

(١) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣٣.

(٢) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣٤، دون قصة تعزية الملائكة لآدم.

(٣) «تاريخ دمشق» ١/ ٣٣٩.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أورده ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٣٩٢، وعزاه إلى ابن مردويه.

(٦) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ١/ ٣٥٨، والخطيب في «موضح أوهام الجمع» ١/ ٤٧١ من حديث ابن عباس رضي الله عنه وفيه إدريس بن سنان قال ابن عدي: أرجو أنه من الضعفاء الذين يكتب حديثهم. وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» ص٧٤ من حديث ابن شهاب عن النبي ﷺ مرسلاً، ورؤيته ﷺ لجبريل في الصحيحين البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال: والشام الخامسة: الرَّمْلَة، ومدينتها فلسطين والبيت المقدس وعَسْقَلان وغَزَّة والبلاد الساحلية.

قلت: وقد أشار الجوهري إلى ما ذكر ابن المنادي، فإنه قال: الشام خمسة أجناد: دمشق، وحِمْص، وقِنسْرين، والأُردن، وفلسطين، يقال: لكلٍّ مدينة جند(١).

وقال ابن الجَواليقي: وشَيْزَر اسم موضع لا أحسبه عربياً صحيحاً(٢). وقال في «الصحاح»: وشيزر بلدٌ(٣).

وقد ذكر امرؤ القيس حماة في شعره، فدلَّ على أنها قديمة، والشعر الذي ذكر حماة فيه(٤): [من البسيط]

تَقَطَّعُ أَسبابُ اللُّبانةِ والهوى ... عَشيَّةَ جاوزنا حماةَ وشَيْزَرا

وقال أبو عبيد: ومن الناس من يبتدئ بالرملة فيجعلها للشام الأعلى وبعدها فلسطين، ثم دمشق، ثم حمص، ثم حلب.

فصل في مدائن الروم

منها قَيْساريَّة: وهي من المدن القديمة، وقد مرَّ بها امرؤ القيس لما دخل الروم. ويقال: إن قبره على جبل قريب منها يقال له: عَسِيب. وسنذكره في ترجمته(٥).

عَمُّوريَّة: وكان ملكها يركب في مئة ألف فارس، وكان حولها ألف عمود ومئتا عمود، على كل عمود راهبٌ لا ينزل منه إلا بالموت، وكانت مركز قيصر، ومنها كان يستعدُّ للغارات على بلاد المسلمين: الشام والجزيرة وغيرهما، ففتحها المعتصم، لما نذكر.

ومنها القُسطنطينية: وهي المدينة العظمى، بناها قسطنطين الملك، وهو أول من

(١) «الصحاح»: (جند).

(٢) «المعرب» ص٢٥٤.

(٣) «الصحاح»: (شزر).

(٤) البيت في «ديوانه» ص٦٢.

(٥) سيذكره المصنف في الجبال والهضاب، عند وصفه لجبل عسيب، ولم يذكره في ترجمة امرئ القيس.

أظهر دينَ النصرانية، لما نذكر، قالوا: ولها سبعة أسوار، وسُمك سورها الكبير أحد وعشرون ذراعاً، وفيه مئة باب، وسمك فصيلها[١] الصغير عشرة أذرع، وهي على خليج يصبُّ في البحر الرومي، وهي متصلة ببلاد رُومِيَة والأندلس، لما نذكر في باب البحار.

وقد جاء في ذكرها[٢]، قال مسلم بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سمعتُم بمدينةٍ جانبٌ منها في البرِّ، وجانبٌ منها في البحر»؟ قالوا: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتى يَغزوها سبعونَ ألفاً من ولدِ إسحاقَ، فإذا جاؤوها نزلوا، لم يقاتِلوا بسلاحٍ، ولم يَرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبَيها، ثم يقولون: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط الجانب الآخر، فيقولون الثالثةَ كذلك، فيفرَّج لهم، فيدخلونها فيغنمون ما فيها، فبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخُ: أنَّ الدجّالَ قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون». وهذا حديث طويل وفيه أمارات الساعة، وانفرد بإخراجه مسلم[٣]. وقال ثور بن يزيد: هي القسطنطينية.

قال أحمد بإسناده إلى أبي قَبيل قال: كنا عند عمرو بن العاص وسئل: أيُّ المدينتَين تُفتح أولاً: قسطنطينية أو رومِيَة؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل» يعني القُسطنطينية[٤].

قال: ومنها مدينة رومِيَة: ذكر ابن خُرْداذْبُه في كتاب «المسالك والممالك»: أن طولها من الباب الغربي إلى الباب الشرقي ثمانية وعشرون ميلاً، ولها سوران من حجارة بينهما مقدار ستين ذراعاً فضاء، سمك السور الأول اثنان وسبعون ذراعاً، وسمك الثاني اثنان وأربعون ذراعاً، وبين السورين نهرٌ مُغطَّى ببلاطٍ من نحاس، طولُ كلِّ بلاطةٍ سبعة وأربعون ذراعاً.

---

(١) الفصيل: حائط قصير دون سور المدينة والحصن «الصحاح»: (فصل).

(٢) بعدها في «كنز الدرر» ١/ ١٢١: «حديث».

(٣) مسلم (٢٩٢٠).

(٤) أحمد في «مسنده» (٦٦٤٥).

قال: والنهر الذي يدخل فيها من البحر، تدخل فيه المراكب بقلوعها[١]، فتقف على حوانيتِ التجار تبيع وتشتري.

وفي داخلها كنيسةٌ بُنيت على اسم بطرسَ وبولصَ الحوارِيَّيْنِ، وهما فيها في جُرنٍ من الرخام مدفونين، وطولُ هذه الكنيسة ثلاثة آلاف ذراع، وعرضها ثلاث مئة ذراع، وقيل: ألف ذراع، وهي مبنية على قناطِرَ من صُفْرٍ ونحاس، وكذا أركانها وسقوفها وحيطانها، وهي من العجائب.

قالوا: وفيها كنيسة مثل البيت المقدَّس على عرضه وطوله، مُرصَّعةٌ باليواقيت والجواهر والزُّمرُّد، وطول مَذْبَحِها عشرون ذراعاً من الزمرد الأخضر، وعرضه ستة أذرع، يحملها اثنا عشر تمثالاً من الذهب الإبريز، طول كلِّ تمثالٍ ذراعان ونصف، ولكل تمثالٍ عينان من الياقوت الأحمر تضيء الكنيسة منهما، ولها ثمانيةٌ وعشرون باباً، وطولُ الكنيسة ميلٌ، وأبوابها من الذهب.

قالوا: ولرومِيَة ألفُ بابٍ من النحاس الأصفر، سوى العود والصنوبر والخشب والآبنوس المنقوش، الذي لا يُدْرَى ما قيمته، قالوا: وبها ألفٌ ومئتا كنيسة، وأربعون ألف حمام[٢].

وفيها طِلَّسْماتٌ للحيات، والعقارب لا تدخل إليها، وطِلَّسْمٌ يمنع الغريبَ من الدخول إليها، وملكها يقال له: «الباب»، وهو الحاكمُ على دين النصرانية[٣]، بمنزلةِ الخليفة في المسلمين، وفي وسطها سوق يباع فيه الطير مقدار فرسخ، وقد ذكرنا أن مملكتها مسيرة ثلاثة آلاف فرسخ، وبها عجائب نذكرها في فصل العجائب.

فصل في مدائن مصر وما والاها

أما الفُسْطَاط فسنذكره عند فتوح مصر وكذا القاهرة عند بنائها.

وذكر ابن حَوْقل في «كتاب الأقاليم» فقال: وأما مصر فلها حدٌّ يأخذ من بحر الروم

(١) القِلْع: الشراع.

(٢) «المسالك والممالك» ص١١٣-١١٥.

(٣) بعدها في «كنز الدرر» ١/ ١٢٣: «كلها برها وبحرها، ومنزلته».

من الإسكندرية، إلى بَرْقَة في البرية، ثم إلى ظهر الواحات، ويمتد إلى بلاد النُّوبَة، ثم يعطف على حدِّ أسوان إلى أرض البجاة وينتهي إلى بحر القُلْزُم إلى طور سَيْناء، ثم يعطف على تيه بني إسرائيل مارًّا في الجِفار إلى بحر الروم خلف العَريش إلى رَفَح، ثم يعود على ساحِل البحر الروميِّ إلى الإسكندرية[١].

ومن مدائنها القديمة: **مدينة فرعون**، واسمها مَنْفُ، وقيل: عين شمس، وكان قد بالغ في بنائها وجعل لها سبعين باباً، وبنى حيطانها بالصُّفر والنحاس، وزخرفها بالذهب والفضة، وأجرى الأنهار تحت قصورها، وأجرى الماء تحت سريره ونصبه على الماء، وافتخر وقال: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾[الزخرف: ٥١] وبالغ فيما فعل[٢]. وسنذكره في قصته مع موسى عليه السلام.

ومنها: **الإسكندريَّة**، واختلفوا في بانيها على أقوال:

أحدها: شدَّاد بن عاد. قاله وهب.

والثاني: الإِسكندر الأول ذو القرنين، وهو المقَدُوني. قال الهيثم بن عدي: ومَقَدُونية هي أرض مصر، وإنما سميت مصر بمصر بن حام بن نوح عليه السلام، وكان مصر بن حام لما انفصل عن بابل نزلها، فنسبت إليه، وقسمها بين أولاده الأربعة، وهم قفط وأشمون وأقرن وصا، وكان قفط هو الأكبر، وسمى كل مكان باسم ولد.

وقال الهيثم: مرَّ بها ذو القرنين فأعجبه مكانها وصحةُ هوائها، فأمر بعمارتها، فلما شرع وجد أثر البنيان، ومرمراً ورخاماً وعموداً عليه بالقلم المسند من أقلام حِمير، فحلَّه فإذا هو: أنا الملك شدَّادُ بن عاد، شددت بساعدي البلاد، وقطعت الأطواد، وبنيت إرم ذات العماد، التي لم يكن مثلها في البلاد، وأردت أن أبني هنا مثل إرم، وأنقل إليها كل ذي قدم، من جميع الأمم، لا خوف ولا هرم، ولا غم ولا سقم، فرماني الدهر بسهمه، فأصاب مقتلي، وأخرجني من داري ووطني، فمن رآني فلا يغترَّ بالدنيا بعدي.

---

(١) «صورة الأرض» ص١٢٦.

(٢) انظر «المسالك والممالك» ص١٦١.

فلما قرأ الإسكندر ما على اللوح، قوي عزمه على بنائها، فجمع الحكماء والمهندسين وأربابَ الرصد، وهيَّأ الأخشاب والحجارة، وقال للمنجمين: خذوا طالع الوقت، وهيَّأ على الأخشاب أجراساً عند الأساس، وقال للمنجمين: إذا أخذتم الطالع، فحرِّكوا الأجراس لتضعوا الأساس، وذلك برأي مني، واتفق أن الإسكندر نام في تلك الساعة والمنجمون يرصدون، فغفلوا فجاء غراب فقعد على الجرس الأكبر وحركه، فتحركت الأجراس دفعةً واحدةً، فوضع الصناع الأساس، وصاحوا صيحةً انتبه لها الإسكندر، فلما رأى الغراب قاعداً على الجرس فهم القصةَ، فقال: أردنا أمراً وأراد الله غيره، وأمر بإتمام البناء، فلما تمَّ السور خرجت في الليل من البحر دوابٌّ على صورة الشياطين فأخربته فأعاد البناء مراراً وهي تهدم السور، فجمع الحكماء والمهندسين حتى تُحَقِّقَ صورهم وإذا بهم شياطين، فعملوا طِلَّسماتٍ من نحاس على صورهم، وجعلوها على أعمدة من نحاس، فلما خرجت الجن ورأت صورها على الأعمدة ولَّت منهزمة ولم تعد. وبنى عليها سبعةَ أسوارٍ بين كلِّ سورين خندقٌ، فتم بناؤها في مئة سنة.

والثالث: أنَّ الذي بناها الملكة دلوكة لتجعلها مرقباً من ناحية الروم، لأنَّ الروم إنما ملكت مصرَ منها. قاله النُّوبَختي.

والرابع: أن الذي بنى الأهرام بناها، وإنما أُضيفتْ إلى الإسكندر لأنه سكنها. قال النُّوبَختي: مكث أهلها سبعين سنةً لا يمشون بالنهار إلا وعلى وجوههم خرقٌ سودٌ على عيونهم لشدة بياض حيطانها وصقالها.

ذكر منارتها: ذكر صاحب «المسالك والممالك»: أن المنارة على سرطان من زجاج في البحر صنعه الإسكندر[1]. قلت: وليس كما ذكر، وإنما هي على جبل في البحر قد أكل الماءُ معظمَهُ وقد شاهدته في سنة أربعين وست مئة وصعدتُ على رأسها، والمنارة على خطر.

وقيل: إن الإسكندر لما مات كسروا آنيةَ طعامِهِ وشرابه وجمعوا جواهره وذخائره

(١) «المسالك والممالك» ص١٦٠.

وجعلوا الجميع في سرطان من زجاج ودفنوه في أساس المنارة، وهذا أصح.

وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم»: أنه كان على رأس المنارة مرآة إذا نظر الناظر فيها قبل طلوع الشمس رأى مَنْ يَكونُ بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر[(١)].

قلت: وهذا إنما نقله من كتاب «المسالك والممالك»[(٢)] وليس كما ذكر صاحب المسالك، فإن مسافة مابين القسطنطينية والإسكندرية نيفاً وأربعين يوماً إذا طابت الريح، على ما حكاه لي مشايخ الإسكندرية، وإن ما بين الإسكندرية وقبرس إذا طاب الهواء مسيرة ثلاثة أيام، فكأن الناظر قبل طلوع الشمس ينظر فيها إلى المراكب وقد أقلعت من قبرس فيخبر أهل البلد فيستعدُّون للحرب، فتحَيَّلَ ملوكُ الفرنج حتى قلعوا المرآة من المنارة.

واختلفوا في أي زمانٍ قُلِعَتْ المرآة على قولين: أحدهما في زمان الوليد بن عبدالملك بن مروان، وكان الإسكندر صنع هذه المرآة حفظاً للبلد من العدوِّ، فكان في عزم ملوك الروم، قصد مصر فلم يتأتَّ لهم ذلك، وكان لهم ملكٌ داهية فأظهر الغضب على خادم له وكان خصيصاً به وكان الخادم باقعة[(٣)] ذا مكرٍ وخديعة، فأعطاه أموالاً عظيمة وجواهر، وأسرَّ إليه ما يصنع، فخرج إلى بلاد الإسلام ودفن تلكَ الأموالَ والجواهر في أماكنَ متفرقة، وجاء إلى الوليد فأسلم على يده، وقال: أنا خادم الملك الفلاني، وقد رغبت في الإسلام، وقد وقع لي كتابٌ فيه أسماء المطالب التي بالشام ومصر فساعدني بالمال والرجالِ لترى ما أصنع، وكان الوليد شَرِهاً فأمدَّه بما طلب، فصار يحفر تلك الأماكن التي أودع فيها الأموالَ والجواهر ويحملها إلى الوليد، فسرَّ به واستولى عليه وملك قلبه وأخذ منه من الأموال أضعاف ما كان يحمل إليه، وكان يبعث بها إلى ملك الروم أولاً فأولاً سرًّا، فقال الخادم للوليد: إن تحت منارة الإسكندرية دفائنَ الإسكندر وذخائره وذخائر شداد بن عاد وملوك مصر لا يعلمها إلا الله، فابعثْ معي رجلاً لنهدمَ المنارة، وكان طولها ألف ذراع، والمرآة على رأسها،

(١) «المنتظم» ١/ ١٦٤.

(٢) «المسالك والممالك» ص١١٥.

(٣) الباقعة: الرجل الداهية، والذكي العارف لا يفوته شيء ولا يدهى.

فبعث معه الرجال فهدم جانباً منها فثار المسلمون وأرادوا قتلَ الخادم وقالوا: تهدم هذه المنارة بقول علج؟! فأمهل الخادم إلى الليل وقد أعدَّ مركباً للهرب، وصعد إلى المرآة نصف الليل وحده فقلعها ورمى بها في البحر، وركبَ المركبَ الذي أَعَدَّهُ وتمَّتِ الحيلة، ذكره المسعودي[١].

والثاني: أن الواقعة كانت في زمان الحاكم، بعث بعض ملوك الروم راهباً فأظهر الإسلام وأقام يتعبد في المنارة حتى وجد فرصة فقلعها في الليل ورمى بها في البحر وهرب، ذكره أبو سعيد ابن يونس[٢] في «تاريخ مصر».

وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم» وقال: كان بالإسكندرية ست مئة ألف يهودي ونصراني خَوَلاً لأهلها[٣]. قلت: وهذا يحتمل أنه كان في قديم الزمان، أما اليوم فلا يبلغ أهلها هذا العدد المذكور.

وحكى ابن عساكر في «تاريخه» في حرف الهمزة في من اسمه أسامة بن زيد بن عدي أبو عيسى الكاتب التنوخي قال: كان بالإسكندرية صنم يقال له: شراحيل، على حَشَفَة من حَشَف البحر وهي في الجزيرة، وكان مستقبلاً بإصبعه القسطنطينية، لا يُدرى أكان مما عمله سليمان أو الإسكندر، فكانت الحيتان تجتمع عنده وتدور حوله فتصاد، فكتب أسامة إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يخبره بخبر الصنم ويقول: الفلوس عندنا قليلة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقلعَ الصنمَ ويضربَهُ فلوساً، فأرسل إليه الوليد رجالاً أمناء، فأنزلوا الصنم من الحشفة، فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة، فذهبت الحيتان فلم تعد إلى ذلك المكان، وضربه فلوساً[٤].

فصل في بلاد المغرب

وأشهرها: طُلَيْطُلَة مدينة الأندلس العظمى، وهي قصبة الأندلس، ودار مملكة

(١) «مروج الذهب» ٢/ ٤٣٤.

(٢) هو عبدالرحمن بن أحمد بن يونس، الصدفي (ت٣٤٧هـ).

(٣) «المنتظم» ١/ ١٣٥.

(٤) «تاريخ ابن عساكر» ٢/ ٦٩٩-٧٠، والحشفة: صخرة تكون في البحر.

الفِرَنج، وملكها يقال له: الفنش، كما يقال: كسرى وقيصر، ويشقها نهر عظيم يسمى باجه يخرج من بلاد الجلالقة، وهم أُمَّةٌ عظيمة يحاربون أهل الأندلس، وفي أرض طُليطلة قنطرة عظيمة على البحر يقال لها: قنطرة السيف[١]، من البنيان الموصوف، يقال: إن الإسكندر بناها، وقيل: سليمان عليه السلام.

وكانت طُليطلة قد افتتحت في أيام الوليد بن عبد الملك، ثم عصى أهلُها، فلما دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ويسمى: الداخل، افتتحها في سنة ست وثلاثين ومائة، فهدم بعضها، وجعل دار ملكه قُرطبة، وبنى بها جامعاً ضاهى به جامع دمشق. وكانت قرطبة في العلم واجتماع العلماء بها مثل دمشق وبغداد، وبين قرطبة وطُليطلة عشر مراحل، وبين قرطبة والبحر ثلاثة أيام.

وقال هشام بن الكلبي: في جزيرة الأندلس نحو من أربعين مدينة، منها: إفراغة وطرطوشة ولشبونة ولاردة وغيرها[٢].



(١) في (ل): «السلّيف»، والمثبت من «معجم البلدان» ٤/ ٤٠٦.
(٢) في النسخ: الإفرنجة وطرسوسة ولذبونية وغيرها، والمثبت من (ط).

فصل
في ذكر الجبال والهضاب والقلاع والرمال[١]

ذكر أبو الحسين ابن المنادي، وقدامة الكاتب، وأبو معشر: أن عدد الجبال المشهورة مئة وثمانية وأربعون جبلاً.

قال قدامة: ففي الإقليم الأول: تسعة عشر جبلاً، وفي الإقليم الثاني: سبعة وعشرون جبلاً، و في الثالث: أحد وثلاثون جبلاً، وفي الرابع: أربعة وعشرون جبلاً، وفي الخامس: تسعة وعشرون جبلاً، وفي السادس: ستة وثلاثون جبلاً، وفي السابع: اثنان وثلاثون جبلاً. ولم يذكر قدامة أسامي جبال كلِّ إقليم، وقد ذكرتُ المشاهير التي في الأقاليم، وبينتها على الحروف، ميلاً إلى الاصطلاح المعروف.

أَجَأ: جبل طَيِّىء، ذكره الجوهري في أول «الصحاح» فقال: أَجَأ ـ على وزن فَعَلَ بالتحريك ـ أحد جبلي طَيِّىء والآخر سَلْمَى، وينسب إليها الأَجَئيون، مثال: الأجعيون[٢]. ووقع في عامة النسخ: أجأ، مصروف، ووقع في نسخة بخط الجوهري غير مصروف.

أُحُد: وهو الذي كانت الوقعة عنده، من جبال المدينة، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحُد جبلٌ يُحبُّنا ونُحِبُّه». انفرد بإخراجه البخاري[٣]، وقد رواه أبو هريرة أيضاً[٤]، وقال الزُهْري: وإنما أراد أهلَ المدينة، وهم الأنصار، أي: أهلَ أُحد.

إِضَم: جبل بالحجاز. ذكره الجوهري[٥]. وقد ذكرته الشعراء في أشعارها.

تِعار ـ بكسر التاء ـ من جبال الحجاز مشهور، والعرب تقول: ما أفعلُ كذا ما قام تِعار.

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٢٩.

(٢) «الصحاح»: (أجأ).

(٣) أحمد (١٢٤٢١)، والبخاري (٤٠٨٣)، وأخرجه أيضاً مسلم (١٣٩٣).

(٤) أخرجه أحمد (٨٤٥٠).

(٥) «الصحاح»: (أضم).

ثَبِير: وهو بِمِنى، ويقال له: جبل الكَبْش، قال ابن عباس: فُدِيَ إسماعيل عنده، وفيه المَنْحَر، وكانت العرب تعظمه في الجاهلية، قال الجوهري: كانوا إذا انقضى الموسم، وقفوا عنده وقالوا: أَشْرِقْ ثَبِير كيما نُغير(١).

الثنين: من جبال أنطاكية، ويقال له الأقرع، لأنه لا ينبت إلا في أماكن، وعليه حيَّات كبار.

جبل الثَّلج: شامخ يُرى من مسيرة ثلاثة أيام في السَّهل، وهو من جبال الشام في أرض بانياس غربي دمشق، وعليه الثلج لا يذهب دائماً، وكان مسكوناً وعليه آثار عمارة، وكان في المدينة رجل كبير قد قرأ الكتب، فقال لأهله: متى أصبح هذا المكان وعليه نداوةٌ فارحلوا، ومات، فأصبحوا ذات يوم وعلى ظهور دوابِّهم الندى، فارتحلوا، فنزل عليه الثلج في اليوم الثاني، فطمَّهُ واستمر.

جبل ثَوْر: من جبال مكة، وفيه الغار الذي اختفى فيه رسول الله ﷺ، وقد ذكره الجوهري فقال: وثور جبل بمكة، وفيه الغار المذكور في القرآن، ويقال له: ثور أَطْحَل، قال: وقال بعضهم: اسم الجبل أَطْحَل، نسب إليه ثور بن عبدمناة لأنه نزله(٢). وسنذكره في سيرة النبي ﷺ.

ثَهْلان: من جبال الحجاز، وهو مشتق من الثَّهَل، وهو الانبساط على وجه الأرض، لأنه يمتد.

جُمْدان: ـ بجيم ـ بين قُدَيْد والجُحْفَة.

الجُوديُّ: وهو الذي رسَت عليه سفينة نوح عليه السلام، وذكره الجوهري فقال: والجودي جبل بأرض الجزيرة، استوت عليه السفينة(٣).

وقال: وموضعه ببلاد ماسورين، وتحته ضيعة يقال لها: ثمانين، نزل بها نوح ومن كان معه في السفينة، وهي أول ضيعة بنيت على وجه الأرض بعد الطوفان، وسنذكرها

(١) «الصحاح»: (ثبر).
(٢) «الصحاح»: (ثور).
(٣) إلى هنا انتهى كلام الجوهري في «الصحاح»: (جود).

في قصة نوح عليه السلام، وهي من أعمال الموصل، وبين هذا الجبل ودجلة ثماني فراسخ، وآثار السفينة عليه باقية، إلى هَلُمَّ جرًّا على ما قيل.

حُبْشي: قال الجوهري: وحُبْشي ـ بالضم ـ جبل بمكة أسفل منها، يقال: منه سمِّيَ أحابيش قريش، لأنهم اجتمعوا عنده، وتحالفوا في حِلْفِ الفُضول[(١)]. لما نذكر.

الحَجُون: وهو الجبل المشرف على مسجد البيعة عند العقبة، قال الجوهري: وهو مقبرة أهل مكة[(٢)].

حِراء ـ بالمد ـ قال الجوهري: يذكَّر ويؤنَّث[(٣)]. وكان ﷺ يتعبد في غار حراء ويخلو فيه[(٤)].

وقال مسلم: وهو الجبل الذي تحرَّك لما صعد رسول الله ﷺ وأصحابه عليه[(٥)].

وقال البخاري: إنما كان ذلك على جبل أُحُد[(٦)]، لما نذكر.

خَزازَى: من جبال الحجاز، وكانت عنده وقعة مشهورة بين نزار واليمن.

حَضَن: هو بأعلى نجد قال الجوهري: وفي المثل: «أَنجدَ من رأى حَضَناً»، قال ومعناه: من عاين هذا الجبلَ فقد دخل في ناحية نجد[(٧)]. أي: ارتفع، ومن عظم هذا الجبل ضرب به المثل، فقالوا: «لو ركن حضن لا يحتضن».

خِيَم: من جبال الحجاز، قال: جرير: [من الرجز]

أَقبلنَ من نَجْرانَ أَو جَنْبَيْ خِيَمْ[(٨)]

---

(١) «الصحاح»: (حبش).

(٢) «الصحاح»: (حجن).

(٣) «الصحاح»: (حري).

(٤) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة ﵂.

(٥) مسلم (٢٤١٧) من حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ كان على حراء، هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: «اهدأ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد».

(٦) البخاري (٣٦٧٥) من حديث أنس بن مالك ﵁ أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان».

(٧) «الصحاح»: (حضن).

(٨) أورد هذا البيت المبرد في «الكامل» ٢/ ٦٤٧ وروايته: «أقبَلْنَ من ثَهْلان أو وادي خِيَمْ» ورواية الديوان =

جبل دُنْباوَنْد: وهو بالمشرق ببلاد طبرستان، يُرى من مئة فرسخ، لارتفاعه وذهابه في الجوِّ، ويرتفع من أعاليه دخان، والثلوجُ تترادف عليه، ويخرج من أسفله نهر عظيم أصفر كبريتي ذهبي اللون، ومسافة صعود هذا الجبل ثلاثة أيام ولياليها، ورأسه مُدوَّر مقدار ألف ذراع، يُرى من أسفله مثل القبة المخروطة، وفي أعلاه رمل أحمر تغوص فيه الأقدام، ولا يصل إليه شيء من الوحوش والطيور، لشدة الرياح به والبرد، وفي أعاليه ثلاثون نَقْباً يخرج منها الدخان العظيم، يُسمع لخروجه دويٌّ شديد مثل الرعد، وذلك صوت تلهُّب النار في باطنه، وفي رأسه الكبريت الأحمر الذي يُعمل منه الكيمياء على ما قالوا، وبين هذا الجبل وَطَبرِسْتان عشرون فرسخاً، ويقال: إن الضحَّاك محبوسٌ فيه لما نذكر في سيرة الضحاك[١].

دمان ووَرِقان[٢]: جبلان مشهوران بالحجاز، وهما شامخان أسودان، وفيهما أنواع الثمر والسُّمَّاق والرُّمَّان والقَرَظ، وهما لمُزَيْنة، وهم قوم صدق.

رأس الجُمْجُمَة: وهو جبل عظيم، أوله باليمن من ناحية الشِّحْرِ والأحقاف، ويمتد في البحر إلى الهند، ومنه تطلق المراكب من بحر فارس، ويمتد إلى المشرق، ولا يُدرى أين غايته في البحر.

رَحْرَحان: قال الجوهري: هو قريب من عُكاظ[٣].

رَضْوَى: من جِبال تِهامَة، بينه وبين المدينة سبع مراحل، وهو من اليَنْبُع على يوم، قال الجوهري: وهو من جبال المدينة، والنسبة إليه رَضَوِي[٤].

وهذا الجبل تزعم الكَيْسانيَّة أن فيه محمد بن الحنفية، وأنه دخل في شِعب من شعابه ومعه أصحابه، وهم فيه أحياء يُرزقون. وسنذكره في ترجمة محمد بن الحنفية.

وقال قُدامة بن جعفر الكاتب: وبحذاء رَضْوَى جبل يقال له: عَزْوَر، يضاهي

= ١/ ٥١٢: «أقبَلْنَ من جنْبَي فِتاخ وإضَمْ».

(١) ستأتي قصته في الصفحة ٣٣٧.

(٢) في (ل): ودورقان، والمثبت من (ط) ومعجم البلدان.

(٣) في (ل): وحرجان، والمثبت من (ط) و«الصحاح»: (رحح). وجاء بعد هذا الكلام في «كنز الدرر» ١/ ١٣٣: «ومنه يوم حرب كان لبني عامر على بني تميم، وهو من أيام العرب المشهورة».

(٤) «الصحاح»: (رضي).

رَضْوَى في ارتفاعه ومياهه وشجره ومراعيه، ويسكن في الجبلين نَهْد وجُهَيْنَة، في الوَبَر دون المَدَر.

ساتي دَما: واختلفوا فيه: فقال قُدامة: هو من جبال تِهَامة، وقيل: من اليمن، وقيل: من الشام. وقال الجوهري: وساتي دَما اسم جبل سُمي بذلك، لأنه ليس من يوم إلا ويُسفك عليه دم، كأنهما اسمان جُعلا واحداً(١).

جبل السِّتار ـ بالسين المهملة المكسورة ـ: في الحجاز، وقد ذكره الجوهري في شعر امرئ القيس وقال: هما جبلان، قال امرؤ القيس(٢): [من الطويل]

علا قَطَناً بالشَّيْمِ أَيمنُ صَوْبِهِ وأيسرُهُ على السِّتارِ ويَذْبُلِ

قلت: فصاروا ثلاثة، قَطَناً والسِّتارَ ويَذْبُل.

سَلْع: جبل بالمدينة.

شَابَة ـ بالشين المعجمة ـ: جبل بنجد، ذكره الجوهري.

شعبان: جبل من جبال اليمن، ويقال له: شَعْب، وقال الجوهري: ويقال له: ذو شَعَبين؛ نزله حسان بن عمرو الحِمْيَرِي وولده فنسبوا إليه، فمن كان منهم بالكوفة يقال لهم: شَعْبِيُّون، منهم عامر بن شَراحيل الشعبيّ، وعداده في همدان، ومن كان منهم بالشام يقال لهم: الشعبانيون، ومن كان منهم باليمن يقال: هم آل ذي شَعَبين، ومن كان منهم بمصر والمغرب يقال لهم: الأُشْعُوب(٣) وهم جميعاً بنو حسان بن عمرو، وهذا لفظ الجوهري. والشين مفتوحة في الجميع، وكذا ذكر محمد بن سعد وابن الكلبي وقدامة وغيرهم.

قال ابن سعد بإسناده إلى أشياخ من شعبان منهم محمد بن أبي أمية: إن مَطراً أصابَ اليمنَ فاسترقَّ موضعاً فأبدى عن أَزَجٍ عليه بابٌ من الحجارة، فكسر الغلق، ودُخِلَ فإذا بهوٌ عظيم فيه سرير من ذهب عليه رجل مسجًّى، فشبرناه فإذا طوله اثنا عشر

(١) «الصحاح»: (دمي).

(٢) البيت من معلقته الشهيرة، وهو في ديوانه ص٢٦.

(٣) «الصحاح»: (شعب).

شبراً، وعليه جباب من وشيٍ منسوجة بالذهب، وإلى جنبه مِحْجَنٌ من ذهب، وعلى رأسه تاج من ذهب فيه ياقوتة حمراء وهو أبيض الرأس واللحية له ضفيرتان. وإلى جانبه لوح من ذهب مكتوبٌ فيه بالحميرية «باسمك اللهم، ربَّ حمير، أنا حسان بن عمرو القَيْل، إذ لا قيلَ إلا الله، عشت بأملٍ ومت بأجل هلك فيه اثنا عشر ألف قَيْل فكنت آخرهم، فأتيت جبل ذي شعبين ليجيرني من الموت فأخفرَني». قال: وإلى جانبه سيف عليه مكتوب بالحميرية: «أنا قُبار بي يُدْرَك الثار»[(١)].

شَامة: جبل قريب من مكة وكذا طَفِيل، وقد أشار إليهما بلال، قال:

وهـل يـبـدونْ لـي شـامـةٌ وطَـفـيـلُ[(٢)]

شَمَام: من جبال الحجاز.

شَعْران: ـ بفتح الشين ـ ذكره الجوهري، وقال: سمي بذلك لكثرة شجره[(٣)]. وهو من جبال الموصل.

ضَجَنان: قال الجوهري: هو جبل بناحية مكة[(٤)]. وهو الذي كان يرعى عنده عمر بن الخطاب غنم أبيه.

الظهران[(٥)]: وهو أقرب إلى مكة، وقد نزله رسول الله ﷺ عام الحديبية والفتح.

عاقِل: من جبال الحجاز بين بني جشم وجديلة، وقيل: بين جشم وبني حنظلة. ولهم عنده وقائع، وذكروه في أشعارهم.

جبل العَرْج ـ بإسكان الراء ـ: من جبال الحجاز بين مكة والمدينة، قال الجوهري: هو منزل، وإليه ينسب العرجيُّ الشاعر، واسمه عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه[(٦)].

---

(١) «طبقات ابن سعد» ٦/ ٢٤٦.

(٢) صدره: وهل أردَنْ يوماً مياه مَجَنَّةٍ، وهو ضمن حديث عائشة رضي الله عنها في حمى المدينة، أخرجه البخاري (١٨٨٩).

(٣) «الصحاح»: (شعر).

(٤) «الصحاح»: (ضجن).

(٥) جاء في «كنز الدرر» ١/ ١٣٦: «بفتح الظاء: جبل بين مكة والمدينة، وهو إلى مكة أقرب» والذي بقرب مكة، ونزله النبي ﷺ هو واد يقال له: مر الظهران. انظر «معجم البلدان» ٤/ ٦٣، ٥/ ١٠٤.

(٦) «الصحاح»: (عرج).

وقال قدامة الكاتب: وهذا الجبل يتصل بالشام، فبعضه يتصل بلبنان وبعضه بجبل الثلج من أرض دمشق ويمتدُّ إلى الروم.

وقال النَّضْر بن شُمَيل: يأتي إلى الشام من ناحية أَيْلة ثم إلى الطُّور ثم إلى بيت المقدس ثم إلى طبرية، ويمر بالبقاع وبَعْلَبَكَّ، ويمتد غربيَّ حمص وحلب حتى يتصلَ باللُّكَّام، ثم يمتد إلى مَلَطْيَة وإلى بحر الخزَر وفيه القلاع والحصون الكثيرة والمدن.

عَسِيب: من جبال الحجاز، قال الجوهري: هو جبل بني هذيل[١]. قلت: وقد رأيت ببلد الروم عند قيسارية جبلاً يقال له: عسيب، وعليه قبر يقال: إنه قبر امرئ القيس، وهو أقرب إلى الصحة لأنَّ امرأ القيس مات بالروم، لما نذكر في سيرته.

فأما عُشَيب ـ بضم العين والشين معجمة ـ فجبل بالحجاز لقريش.

عَيْر: جبل بالحجاز، والعين مفتوحة. وفي «الصحيحين» من حديث عليٍّ بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: حرَّم رسول الله ﷺ ما بين عَيْرٍ إلى ثور[٢]. وهذا يدلُّ على أن بالمدينة جبلاً اسمه ثور، وأرباب السير لا يعرفون ذلك، وإنما ثور جبل بمكة وفيه الغار، ولعله اشتبه على الكاتب أو على الراوي فجعل مكان أحد جبل ثور، وقد أشار بعضهم إلى هذا فقال: قال أبو عبيد: يرى أصل الحديث أنه حرم ما بين عَيْر إلى أُحُد[٣]. قال: وقال غيره: كأنه جعل المدينةَ مضافةً إلى مكة في التحريم. قلت: هذا القول ضعيفٌ لأنَّ حدودَ مكة لا تدخل في حدود المدينة، لما نذكر، فكأنَّ القول الأول أصحُّ[٤].

عَيْنَيْن[٥]: من جبال المدينة، بات به رسول الله ﷺ ليلة وقعة أُحُد لما نذكر، وسنذكر جبل عرفات.

غُرَّب ـ بغين معجمة ـ بين المدينة والشام في بلاد كلب، قال الجوهري: وعنده عينٌ

(١) «الصحاح»: (عسب)، ولم يذكر فيه: «بني هذيل».
(٢) البخاري (٦٧٥٥)، ومسلم (١٣٧٠).
(٣) «غريب الحديث» ١/ ٣١٥.
(٤) قلت: وقد تكلم الأستاذ فؤاد عبد الباقي في تعليقه على صحيح مسلم على هذا الحديث؛ فانظر كلامه.
(٥) ويقال له: «عينان» انظر «معجم البلدان» ٤/ ١٧٣، ١٨٠.

تسمى غُرَّبة(١).

غَزْوان: جبل بالطائف وعليه ديار بني سعد، وليس بالحجاز مكان يبرد فيه الماء ويجمد سواه.

جبل الفتح: وهو من أعظم جبال الدنيا، وفيه أمم كثيرة وممالك، وفيه اثنتان وسبعون أمة، كل أمة لها لسان وملك، وفيه شعاب وأودية، ومدينة باب الأبواب على أحد شعابه، بناها كسرى أنو شروان وجعلها حدًّا فاصلاً بينه وبين الخزر، وجعل حدَّ السور ومبدأه من البحر إلى أعالي الجبل وذلك نحواً من أربعين فرسخاً حتى ينتهي إلى طبرستان، وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا الجبل باباً من الحديد وعنده حَفَظَة، وأسكن هناك أمماً مختلفة ليحفظوا الحدَّ من العدو، مثل: الخزر والترك واللَّان وغيرهم، ومسافة هذا الجبل على البحر مدة شهرين، وفيه قلعة باب الأبواب، وبينها وبين بغداد أربع مئة فرسخ، وهذه القلعة على وادٍ عظيم من هذا الجبل لا سبيل لأحدٍ على العبور إلا من تحتها، وهي على جبل مدوَّر يخرج من وسطها عينُ ماء، وفي جبلها قرود يقفُ القرد على رأس الملك فإن كان الطعامُ مسموماً غمز القردُ الملكَ فامتنع منه، والذي بناها أنوشروان، وقيل: إِسفَنْديار من ولد لُهراسف من الفرس الأُول، ورتَّب فيها رجالاً.

ويقال: إنَّ هذه القلعة فتحت في أيام عبد الملك بن مروان، ورتَّب فيها رجالاً مسلمين من العرب، وهم إلى هلم جرا يتوارثونها، وينقل إليهم الموادَّ من تَفْليس ونواحيها، وبينها وبين تفليس عشرةُ أيام، وأهل تفليس يساعدونهم خوفاً من العدوِّ على بلادهم. ووراء هذا السور قومٌ من العرب يتكلمون بالقحطانية، وبينهم وبين هذه القلعة ثلاثة أيام، ثم يلي هذا السور من ناحية المشرق أممٌ كثيرة خزر وترك ولان، ولهم ملوك، منهم ملك السرير ويدعى «قيلان شاه» نصراني، وإنما سمي ملك السرير لأنَّ يَزْدَجِرد لما أحسَّ بزوال دولتهم في آخر أيام عمر بن الخطاب ﷺ بعث سريراً من الذهب وأموالاً عظيمة إلى تلك الناحية، وهلك يَزْدَجِرد في أيام عثمان ﷺ قبل أن

(١) «الصحاح»: (غرب).

يصل إلى تلك الناحية، فأخذ السرير رجل من نسل بهرام جور وملك تلك الناحية، وفيها اثنا عشر ألف قرية؛ ثم يلي هذه المملكة ممكلة اللَّان، ويقال لملكهم: «كرجناح» وله مدينة يقال لها: «ماعص» وعسكره ثلاثون ألفاً، ومما يلي هذه الممالك جبالٌ فيها قرود على صور بني آدم.

قاف: ذكر أبو إسحاق الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾[ق: ١] عن ابن عباس: أنه جبل من زمردةٍ خضراءَ محيطٌ بالدنيا، وخضرة السماء منه، وعليه كتف الدنيا، وما وجد الناسُ من الزمرد فهو مما يتساقط منه.

وقال وهب بن منبه: لما مرَّ عليه ذو القرنين رأى حوله جبالاً صغاراً فناداه يا قاف ما هذه الجبال التي حولك؟ فقال: عروقي، ليس في الدنيا مدينة إلا وفيها عرق منها، فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل أرضاً أمرني فحركت ذلك العرق فتتزلزل تلك الأرض، فقال له الإسكندر: فهل وراءك شيء؟ قال: نعم أرض طولها خمس مئة عام في خمس مئة عام، فيها جبال من ثلج تحطم بعضها بعضاً، ولولا ذلك الثلج لاحترقت من حرِّ جهنم(١).

وقد ذكره الجوهري فقال: قاف جبل محيط بالدنيا(٢).

قُدْس ـ بإسكان الدال ـ: جبل عظيم بأرض نجد، وقد ذكرته العرب.

قاسِيُون: جبل شمالي دمشق فيه أثارات كثيرة: مغارة الدم، ومغارة الجوع، ومسجد الكهف، وقبور الزهاد والعلماء، والنفس ترتاح إلى المقام به، ومَنْ سَكَنَهُ لا يطيبُ له سكنى غيرِهِ غالباً.

وجاءت فيه آثار: منها ما حدثني به الشيخ الصالح أبو عمر المقدسي رحمه الله قال: بلغني عن كعب الأحبار أنه قال: أوحى الله إلى قاسيون هَبْ ظِلَّكَ وبركتك لجبالِ بيت المقدس، ففعل، فأوحى الله إليه لن تذهَبَ الأيامُ والليالي حتى أردَّ عليك خيرك

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص٦. قال ابن كثير في تفسيره رداً على هذه الأخبار وأمثالها: وكأن هذا والله أعلم من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس . . . وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم. . .

(٢) «الصحاح»: (قوف)، وفيه: «بالأرض».

وظلَّك وبركتك، ويُبْنَى لي في كنفك بيتٌ أُعبَدُ فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة قال: فقاسيون من الله بمنزلة العبد الخاضع المتواضع المستكين.

وذكر أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» هذا الأثر عن القاسم بن عبد الرحمن ولم ينسبه، وذكر البيتَ وقال: هو جامع دمشق[١] وأن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ عن دمشق فقال: «بها جبل يقال له: قَاسِيُون فيه قَتلَ ابنُ آدمَ أخاه، وفي أسفله غارٌ من الغربِ فيه وُلد إبراهيم عليه السلام». وذكر حديثاً فيه أماكن[٢].

قلت: العجب من رواية مثل هذا الحديث الذي ألفاظه تنطق بوضعه على رسول الله ﷺ، فإن أحداً من العلماء لم يذهب إلى أن قابيل قتل هابيل بالشام، ولا أنَّ الخليلَ عليه السلام ولد بالشام، وإنما ولد ببابل، لما نذكر في بابه.

وإنما المنقول في هذا عن كعب الأحبار، فإن نوفاً البكالي روى أن كعباً قدم الشام ومعاوية بن أبي سفيان أمير بها من قبل عثمان رضي الله عنه، وكان معاوية لما بلغه قدومُ كعبٍ إلى القدس في سنة ثلاثين قال: يا ليت لنا من يخبرنا بفضائل دمشق، وبلغ كعباً، فلما نزل من عقبة شحورا نظر إلى قاسيون فقال: لا إله إلا الله، هذا مكان قتل فيه ابنُ آدمَ أخاه، كذا وجدته في التوراة، وهذا الكهف الذي عزَّتْ فيه الملائكة آدم، وهذا الغار الذي ولد فيه إبراهيم، وأشار إلى برزة، وهذا مكان كذا وكذا، وبلغ معاويةَ فبعث إليه بمالٍ كثير.

ومعلوم أنَّ عمر بن الخطاب كان يعلو كعباً بالدرة دائماً ويقول: دعنا من يهوديتك. وإنما تزار هذه الأماكن بحسن الظن، فإن الأعمال بالنيات، وقد طرقها خلقٌ كثير من السادات.

قَطَن: كانت عنده وقعة لعبس وذبيان بالحجاز، وقد ذكروه في أشعارهم.

جبل القَمَر: الذي يخرج منه نيل مصر، يبتدئ من الظلمات ويقطع البحر الحبشيَّ ولا يعلم أين منتهاه، وليس في الدنيا بعد قاف جبل أكبر منه، وسنذكر النيل فيما بعد إن شاء الله.

---

(١) «تاريخ ابن عساكر» ١/ ٣٠٠.

(٢) «تاريخ ابن عساكر» ١/ ٣٣٣.

جبل لُبْنان: وهو بالشام، من أعظم الجبال وأبركها، وأصله من الحجاز يأتي من العَرْج ويتصل بالجبال التي على ساحل البحر الشرقي على الطُّور وأَيْلة، ويتصل بجبال بيت المقدس، ثم يمتدُّ على البقاع وبلد حمص وحلب والثغور، ويمتدُّ إلى الروم واللُّكَّام، وفيه العيون الباردة، والأشجار المثمرة، والمباحات الكثيرة، والحشائش التي تدخل في الدِّرياق.

ويقال: إن فيه حشيشة الكيمياء، وفيه الصالحون والأبدال، وفيه جبل يقال له: جبل الدير مطلٌّ على ساحل بيروت، يقال: إنَّه الجبل الذي قال فيه كنعان بن نوح: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾[هود: ٤٣] وبسفحه قرية يقال لها: الكَرْك، فيها قبر يقال: إنه قبر نوح عليه السلام، وفي سفحه أيضاً قبر شيبان الراعي، وقصته مع ذي النون المصري معروفة، وسنذكرها.

وحكى ابن الكلبي عن كعب الأحبار قال: قدم الخليل عليه السلام الشام فاشتاق إلى بيت المقدس فقال: يا رب أرني الأرضَ المقدسة، فقيل له: اصعدْ على لبنان وانظرْ إلى أيِّ مكان انتهى بصرك فهو مقدَّس.

وروي عن شقيق البلخي أنه قال: ما اتخذ الله ولياً حتى يسحب ذيله على لبنان.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: بنى إبراهيم الكعبةَ من خمسة أجبل: أبي قبيس، وطور سِينا، وطور زَيْتا ـ وهو جبل ببيت المقدس ـ والجُودي، ولُبنان(١).

وقد روينا عن جماعة من المشايخ أنهم شاهدوا الأبدال فيه، وسنذكر حكاية ذي النون المصري مع شيبان الراعي في ترجمة ذي النون المصري. وذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر حكاية جرت فيه لبعض السياحين نذكرها في السنة الثامنة عشرة وثلاث مئة.

لَعْلَع: من جبال الحجاز، ذكره الجوهري وقال: كانت عنده وقعة مشهورة، وأنشد: [من الطويل]

لقد ذاقَ منَّا عامِرٌ يومَ لَعْلَعٍ حساماً إذا ما هُزَّ بالكفِّ صَمَّما(٢)

(١) أخرجه الطبري ١/ ١٢٤ من حديث عطاء.

(٢) «الصحاح»: (لعع)، والبيت لحميد بن ثور في ديوانه ص٣١.

اللُّكَّام: وقد ذكره ابن حوقل في كتاب «الأقاليم» فقال: جبل اللُّكَّام هو الفاصل بين الثغرين، يعني: الشام والجزيرة، لأنَّ كلَّ ما كان وراء الفرات من الشام، ومن مَلَطْيَة إلى مرعش جزيرة؛ قال: واللُّكَّام داخل في بلاد الروم، ويقال: إنه ينتهي إلى نحو من مئتي فرسخ ويمر على مَرْعش وعين زَرْبَة والهارُونيَّة وإلى ها هنا يسمى اللكام، إلى أن يجاوز اللاذقية، فيسمى جبل بهراء وتنوخ إلى حمص، ويتصل بلبنان ويمر على فلسطين حتى ينتهي إلى بحر القُلزم ويتصل بالمقطَّم جبل مصر، قال: وأوله بالمشرق في بلد الصين خارجاً من البحر المحيط، فيقطع بلاد التُّبَّت وفَرغانة، ثم يمرُّ بسمرقَنْد على شمال الصُّغْد ويقطع نهر جَيحون إلى الخَزَر، ويكون عن يمين القاصد من خراسان إلى العراق، ومنه تتشعب جبال جُرجان وطَبَرِستان والدَّيلم، ويتصل بجبال أَذْرَبيجان والرَّي ثم يعود إلى هَمَذان وحُلوان وشَهرَزور، ويقطع دجلة بنواحي تَكريت إلى حَديثة الموصل، ثم إلى الجُودي، ثم إلى آمد، ومنه تتشعب جبال أَرمينيَة، ثم يمرُّ إلى جبل الفتح[١] وباب الأبواب إلى بحر الخَزَر إلى بلاد يأجوج ومأجوج، ثم يتشعب منه جبل يأخذ إلى الفرات ويتصل بسُمَيساط إلى مَرْعش الذي ابتدأنا ذكره منها. قال: وإذا وصل إلى المقطَّم قطع النيل ثم مضى إلى بَرْقة وأقصى المغرب ثم البحر المحيط[٢].

فالحاصل: أن ابن حوقل قال: إنه يخرج من البحر المحيط بالصين وينتهي إلى البحر المحيط بالغرب، وهذا تخليط ظاهر لأنه جعله أولاً الفاصل بين الشام والجزيرة فينبغي أن ينقطع عند الفرات بأرض مَلَطْيَة، ثم خلطه بجبال طَبَرِستان والشرق ولبنان ومصر، وأين جبال مصر من جبال الشام وما وجه الاتصال بها وإنما كلُّ جبل على حدةٍ له حدٌّ.

وذكره غير ابن حوقل وقال: اللُّكَّام جبلٌ مبارك، فيه الأبدال والمباحات والعيون، وحدُّه: من مَرْعش إلى مَلَطْيَة عرضاً، ويمتدُّ في بلاد الروم طولاً إلى حيث يعلم الله عز وجل، وأما الجبل الذي يقطع دجلةَ بنواحي تكريت فهو جبل حُمْرين[٣] مشهور بالعراق.

---

(١) في «صورة الأرض» ص١٥٦: «قبق».

(٢) «صورة الأرض» ص١٥٤-١٥٧.

(٣) وهو الجبل الذي يقال له: «بارِمَّا» بين تكريت والموصل. انظر «معجم البلدان» ١/ ٣٢٠.

المُحَصَّب: هو من جبال مكة يشرف على ذي طُوَى؛ قال الجوهري: هو موضع الجمار بمنى[(١)]. ويقال له: قوس قزح، لأنه أول ما رؤي عليه قوس قزح، والعامة تقول: قوس قَدَح ـ بالدال ـ وهو خطأ، وذكره الجوهري فقال: قوس قُزَح التي في السماء غير مصروفة، قال: وقُزَح أيضاً جبل بالمزدلفة[(٢)].

مُخاشِن: جبل بالحجاز.

المُقَطَّم ـ بالميم ـ: جبل بأرض مصر، والقرافة تحته، وهو مطلٌّ عليها ويمتدُّ إلى النُّوبة.

جبلا نَعْمَان: ونَعْمان وادٍ في طريق الطائف يخرج إلى عرفات، ذكره الجوهري قال: يقال له: نَعْمان الأراك[(٣)]. وقال ابن قتيبة: ونَعْمان جبل بالقرب من عرفة ويتصل بوادي القرى ونواحيه، قال: وفي الحديث: «خُلِق آدمُ من دَحْنا، ومَسَح ظَهْره بنَعْمان السَّحاب»[(٤)] ونسبه إلى السحاب لأنه يشرف على جبلي نعمان ويعلوهما[(٥)].

وَاسِم: وهو جبل سَرَنْدِيب الذي أُهبط عليه آدم عليه السلام، ويقال له: برد، وعليه أثر قدم آدم، وشبيه البرق لا يذهبُ شتاء ولا صيفاً[(٦)]، ويرى في البحر من مسيرة ثلاثة أيام؛ ومسح موضع قدم آدم فكان سبعة أذرع، وقيل: سبعون ذراعاً، وحوله الياقوت المختلف الألوان، وفي واديه جميع الطيب من الورقة التي نزلت مع آدم، وفيه الطواويس ودابَّة الزباد، وسنذكره في سيرة آدم.

يَذْبُل: جبل بين اليمامة والبصرة، كذا ذكره الجوهري[(٧)].

---

(١) «الصحاح»: (حصب).

(٢) «الصحاح»: (قزح).

(٣) «الصحاح»: (نعم).

(٤) هما حديثان أما الأول: ـ وهو قوله: «خلق آدم من دحنا» ـ فأخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٢٥-٢٦، وابن عساكر في «تاريخه» ٢/ ٦١٧ من حديث سعيد بن جبير، ودحنا: بالقصر والمد. أما الثاني: فأخرجه الفاكهي في: «أخبار مكة» (٢٩١١) من حديث سعيد بن جبير أيضاً.

(٥) «غريب الحديث» ٢/ ٢٨٥.

(٦) في «معجم البلدان» ٣/ ٢١٦ في مادة: (سرنديب): «ويقال له: الرَّهون، ويرى على هذا الجبل في كل ليلة كهيئة البرق من غير سحاب ولا غيم».

(٧) «الصحاح»: (ذبل).

يَلَمْلَم: هو ميقات أهل اليمن في الإحرام.

أبو قُبَيس: جبل مشهور بمكة، ذكره في «الصحاح»[(١)]، وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: هو أول جبلٍ وضع في الأرض[(٢)]. وكان يقال له في الجاهلية: الأمين، لأن ركن البيت كان مستودعاً فيه أيام الطوفان[(٣)].

وهو أحد الأخشَبَين المطلَّين على مكة، هذا مشرفٌ على الصفا والآخر يقال له: الأحمر والأعرف[(٤)]. وفي الحديث: «لا تزول مكة حتى يزول أخشباها»[(٥)]، والأخشب الجبل العظيم.

قلت[(٦)]: وفي الأقاليم جبال شوامخ وعرة في ناحية الشمال، النهار عند أهلها ساعة ونصف، لأن الشمس منحرفة عندهم. وفي المغرب جبال وعرة يسكنها البربر ويعصون فلا يقدر أحد عليهم. وفي الأندلس جبال فيها حجارة تتقد في الليل ويظهر منها الدخان في النهار. وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم» وقال: وفي اليمن جبلان عظيمان بينهما في السهل مسيرة ثلاثة أيام، ورأساهما متقاربان بحيث يناول الرجلُ الرجلَ من رأس الجبل ما يريد لضيق ما بينهما[(٧)].



(١) «الصحاح»: (قبس).
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٢/ ٥١٢.
(٣) انظر «أخبار مكة» ٤/ ٤٧.
(٤) كان يعرف بهذا الاسم بالجاهلية. انظر «معجم البلدان» ١/ ١١٧.
(٥) أخرجه الأزرقي في «أخبار مكة» من حديث ابن عباس موقوفاً بلفظ: «وجد في حجر في الحجر كتاب من خلقة الحجر: أنا الله ذو بكة الحرام، وضعتها يوم صنعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى تزول أخشباها، مبارك لأهلها في اللحم والماء».
(٦) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٥٣.
(٧) «المنتظم» ١/ ١٣٩-١٤٠.

فصل
في الهضاب والقلاع والرمال[١]

حكى سيبويه عن الخليل بن أحمد أنه قال: الهَضْبَة اسم لما دون الجبل، وقال في «الصحاح»: هي الجبل المنبسط على وجه الأرض[٢]. وكذا التَّلْعَة، وذلك لا يحصى.

وأما **العِقاب**[٣] فكثيرة، منها: عَقَبَة سرنديب، والهند، والصين، وعقبة ساوة وهمذان وحُلوان، وفي خراسان عقاب كثيرة، وفي الرّي والجبال، وفي الحجاز عقبة هَرْشَى، ذكرها الجوهري فقال: وهَرْشَى ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر، ولها طريقان، فكلٌّ من سلكها كان مصيباً[٤].

وفي الشام عقبة فِيْق وابريق[٥]. وفي الحجاز أيضاً من ناحية مصر عقبة أَيْلَة. وفي اليمن عقاب كثيرة، وفي لبنان أيضاً.

وأما **الرمال** فكثيرة، ومنها الأحقاف، وهي ديار عاد وبها الرمل الكثير، قال الجوهري: الحِقْفُ: المعوجُّ من الرمل[٦].

ومنها رمل عالِج، موضع بالبادية، وقد ذكره ابن عباس في مسألة العولِ فقال: والذي أحصى عدد رملِ عالج[٧].

ومنها رمل زَرُود بين مكة والعراق.

ومنها **الرمال** التي بين مصر والشام وتنتهي إلى تِيه بني إسرائيل، وتتصل بالطُّور

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٥٣.
(٢) «الصحاح»: (هضب).
(٣) العقبة: مرق صعب من الجبال، أو الجبل الطويل يعرض للطريق، فيأخذ فيه، وهو طويل صعب شديد «تاج العروس»: (عقب).
(٤) «الصحاح»: (هرش).
(٥) لم نقف على موضعها، وفي «معجم ما استعجم» ١/ ٩٦: إبريق على وزن افعيل، موضع ذكره المطرِّز. ورسمت في (ل): «إبزيق».
(٦) «الصحاح»: (حقف).
(٧) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه»(٣٦)، والبيهقي ٦/ ٢٥٣.

والبحر والحجاز، وقد ذكرها ابن حَوقل فقال: والرمل المعروف بالهَبير هو الذي طوله من وراء جبلي طيّىء إلى أن يتصل بالجفار من أرض مصر، وعرضه من الشقوق إلى الأَجْفُر، ويقطع النيلَ إلى المغرب، ويمتد في أرض سِجِلْماسة إلى البحر المحيط، وله عرق يضرب إلى البحرين وعمان، ويقطع البحر الشرقي إلى جَيْحون وخُوارِزم وسَمَرقند، ويتصل بالعين فيه ألوان من الرمل مختلفة: أصفر وأحمر وأبيض وأسود. وقال قدامة: وفي وسط البحر الشرقي يعني الحبشي كثيبُ رملٍ أحمر بعيد المسافة وفيه أمَّة سود الألوان عظام الأجسام.

وأما **القلاع** فأبلغ من أن تحصى، فمن قلاع[١] المشرق قلعة سليمان عليه السلام باصطخر، وقلعة بفارس بناها زياد بن أبيه، وقُفُّ، وانطرور وديول[٢] وكردكوه.

وفي خراسان حصون كثيرة، وكذا في ما وراء النهر، ومن أحصَن قلاع خُراسان قلعة نيزك، وهي قلعة عظيمة فتحها يزيد بن المهلب بن أبي صُفْرة في سنة أربع وثمانين، وقد مدحها الشعراء. وليس في الشرق أحصَنَ من قلعة باب الأبواب، وقد ذكرناها في جبل الفتح، وفي بلاد أرمينية قلاع كثيرة.

ومن قلاع الجزيرة قلعة ماردين، ذكر جدي في «المنتظم» عن أبي الحسين المنادي أنه قال: أُسستْ قلعةُ ماردين على مصابرة العدو أربعين سنة، فلو نزل عليها ملك بجيشه لما افتتحها عَنوة، قال: وفيها من العيون العذبة عشرة أعين[٣].

قلت: وقد وهم ابن المنادي، فإن المعتضد افتتحها عَنوة في مدة يسيرة لما نذكر في أيامه[٤]، والعادل أبو بكر بن أيوب[٥] أقام عليها تسعة أشهر ولم يبقَ إلا أن يفتحها، فجاءه خبر وفاة ابن أخيه العزيز عثمان فرحل عنها[٦].

(١) «صورة الأرض» ص٤٢.

(٢) رسمت في (ل): «وانظر وزددبوك»، ولم نقف عليهما، والمثبت من «كنز الدرر» ١/ ١٥٦.

(٣) «المنتظم» ١/ ١٥١، وفيه: «عشرات كثيرة» بدل: «عشرة أعين».

(٤) في سنة (٢٨١هـ).

(٥) هو محمد بن أيوب، اشتهر بكنيته، وستأتي ترجمته في سنة وفاته (٦١٥هـ).

(٦) سيأتي الخبر في سنة (٥٩٤هـ)

وأما قوله: إن فيها عشرة أعين، فإن في القلعة عيناً واحدة وهي يسيرة فإني شاهدتها.

وقد ذكرها ابن حوقل فقال: وجبل ماردين من قرار الأرض إلى ذروته مسيرة فرسخين أو نحو فرسخين، وعليه قلعة لحمدان بن الحسن بن عبد الله بن حمدان تعرف بالبازي الأشهب لا يستطاع فتحها عنوة، وفي الجبل جوهر الزجاج وحيَّات عظام(١). وفي الجملة فهي أحصنُ قلاع الجزيرة وأمنعها وأعلاها وأرفعها.

وبالشام قلاع كثيرة: منها قلعة حلب، وتسمى: الشهباء، فإن ملك الروم نزل عليها، وفتح البلد، ولم يقدر على فتحها وقتل عليها ابن أخته لما نذكر في زمان سيف الدولة(٢)، وكان سيف الدولة يفتخر بها ويقول: معقلي حلب وشاعري المتنبِّي. وبقلعة حلب آثار الخليل عليه السلام، ويقال: إنه أوى إليها عند دخوله إلى الشام.

ومن قلاع الشام قلعة حمص وحماة وتدمر وبَعْلَبَك وصَرْخَد وعَجْلون والكَرْك والشَّوْبَك، وكان بالساحل قلاع أُخربت كالقدس وكَوْكَب والطُّور وتِبْنِين وهُوْنِين وبانيَاس وغير ذلك، لما نذكر إن شاء الله تعالى.



(١) «صورة الأرض» ص١٩٤.

(٢) سيأتي الخبر في سنة (٣٥١هـ).

فصل
في ذكر المعادن التي هي كالخزائن

قال الجوهري: سمي المعدِن مَعْدِناً ـ بكسر الدال ـ لأنَّ الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء، ومركز كلِّ شيء معدنه[١]. وقال الخليل بن أحمد: ومنه قوله تعالى: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ أي: مواضع إقامة[٢]. وقال الهيثم بن عدي: المعادن كثيرة غير أن المشهور منها سبع مئة منها: معادنُ الذهب والفضة، والنحاس والصُّفْر، والزِّئبَق والرَّصاص، والنِّفط والقارُ والزِّفت، والمُرْداسَنْج[٣] والزِّرْنيخ، والجصُّ والنُّورة والملح ونحوه، قال: ولا ينعقد الملح إلا في السَّبَخ، ولا الجصُّ إلا في الرمل، يعني في الغالب.

وهذه المعادن مفرقة في الأقاليم، والغالب على معادن الذهب والفضة أن يكونا بالمغرب وبجزائر الفرَنْج، والغالب على الياقوت والجوهر واللآلئ بالمشرق، والنحاس والصُّفر والزِّفت والقارُ بالجزيرة.

فصل في حكم المعدن

قال محمد رحمه الله: معدن ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص أو صفر وُجِد في أرض خَرَاجٍ أو عُشْر، ففيه الخُمُس[٤]. ولا بد من تفسير هذا فنقول:

المال الموجود في الأرض له ثلاثة أسامي: الكنزُ والمعدنُ والرِّكاز، فالكنز: اسمٌ لما دفنه بنو آدم، والمعدِن اسم لما خلقه الله تعالى في الأرض يومَ خلقَها، والرِّكاز اسمٌ لهما جميعاً.

فإن وجد معدِناً فلا يخلو إما أن يجده في دار الإسلام أو في دار الحرب، فإن وجد في دار الإسلام في أرض غير مملوكة فهو للواجد كائناً من كان، غيرَ الحربيِّ فإنه يُستردُّ منه إلا إذا كان الإمام قد قاطعه عليه، فإن كان الموجود مما يذاب بالإذابة وينطبع

(١) «الصحاح»: (عدن).
(٢) «كتاب العين» ٢/ ٤٢.
(٣) مردارسنج أو مرداسنج: فارسي معرب معناه: الحجر الميت. «تاج العروس»: (مردرسنج).
(٤) «الجامع الصغير» ص١٠٦، ومحمد هو ابن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه.

بالحيلة كالذهب والفضة والنحاس ونحوه ففيه الخُمُس، قليلاً كان أو كثيراً، لقوله عليه السلام: «وفي الرِّكازِ الخُمُسُ» متفقٌ عليه(١). وأراد به المعدن.

وإن كان مما لا يذوب بالإذابة كالفصوص والجواهر واليواقيت، فلا خُمُسَ فيه عندنا لأنه حجر، ولا خمس في حجر، بالحديث(٢).

وإن وجد المعدن في أرض مملوكة فهو لمالكِ الأرض لأنه جزء من أجزائها وقد ملكها بأجزائها. واختلفت الروايات في وجوب الخمس فيه: فروي عن أبي حنيفة أنه لا يُخَمَّس، سواء وجده في أرضٍ أو دار، وهي رواية كتاب الزكاة من «الأصل». وذكر في «الجامع الصغير» عنه: أنه إن وجده في الدار لا يُخَمّس وإن وجده في الأرض يخمّس، وعند أبي يوسف ومحمد يخمَّس في الأحوال كلها(٣). وهو قول باقي الفقهاء لقوله عليه السلام: «وفي الرِّكازِ الخُمُسُ» من غير فصل.

وجه رواية كتاب الزكاة: أن المعدن من تراب الأرض وجزء من أجزائها فلا يخمَّس، والحديث محمولٌ على ما إذا وجده في أرض غير مملوكة. ووجه الفرق بين الدار والأرض على رواية «الجامع»: أن الدار ملكها بشرط قطع الحقوق عنها، ولهذا لا يجب فيها عشر ولا خراج، والأرض لم تملك بشرط قطع الحقوق عنها، ولهذا يجب فيها العشر، فجاز أن يجب فيها الخمس، وعلى رواية كتاب الزكاة: لا فرق بين الأرض والدار عنده.



---

(١) البخاري (١٤٩٩)، ومسلم (١٧١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ٥/ ١٦٨١، والبيهقي ٤/ ١٤٦ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا زكاة في حجر».

(٣) «الجامع الصغير» ص١٠٦-١٠٧.

فصل
في ذكر البحار وما فيها من عجائب الآثار

قال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا العوَّام بن حَوْشَب، حدثنا شيخٌ كان مرابطاً بساحل البحر قال: لقيت أبا صالح مولى عمرَ بنِ الخطاب ﷺ فقال: حدثني عمرُ عن النبي ﷺ أنه قال: «ليسَ مِن ليلَةٍ إلَّا والبحرُ يُشرِفُ على الأرضِ، يَسْتأذِنُ رَبَّه ثلاثاً هل يَنْفَضِخُ على الأرضِ فيَكفُّه الله تعالى»[1]. قلت: وقد ذكر جدي رحمه الله هذا الحديث في «الواهية»، وقال: العوَّام بن حَوْشب ضعيف، والشيخ الذي في الحديث مجهول[2].

قلت: أما العوَّام بن حَوْشب فهو شيخ شيخ أحمد بن حنبل وقد أخرج عنه في «المسند» أحاديثَ، وأما الشيخ المجهول فلا يقدح في الحديث، فقد أخرج الحُميديُّ في آخر «الجمع بين الصحيحين» عن رجلٍ مجهول وغيره، وإنما الحديث الذي ضعَّفوه رواه أبو هريرة وغيره: «إنَّ الله تعالى كلَّمَ البحرَ الشاميَّ فقال: يا بَحرُ، ألم أخلقْكَ، وأكثرتُ ماءَكَ» وهو حديث طويل، قال جدي في «الواهية»: في طريقه عبد الرحمن العمري اتفقوا على تركه. وذكر غيره وقال: إنما هو من كلام كعب الأحبار[3].

فإن قيل: فلم سمي بحراً؟ قلنا: لعمقه وسعته، وقال الجوهري: البحر خلاف البر، قال: وكلُّ نهرٍ عظيم بحرٌ، ويسمَّى الفَرَسُ الواسعُ الجري بحراً بالحديث[4].

واختلفوا في عدد البحار على أقوال:

أحدها: أنها سبعة أبحر، منها ستة ظاهرة وواحد محيط بالدنيا مظلم ومنه تستمد، قاله ابن عباس.

---

(١) أحمد في «مسنده» (٣٠٣)، وينفضخ: ينفتح ويسيل.

(٢) «العلل المتناهية»(٣٧).

(٣) «العلل المتناهية» (٣٣).

(٤) وهو ما أخرجه البخاري (٢٦٢٧)، ومسلم (٢٣٠٧) من حديث أنس ﷺ قال: كان فزع بالمدينة، فاستعار النبي ﷺ فرساً من أبي طلحة ـ يقال له: المندوب، فركب فلما رجع قال: «ما رأينا من شيء، وإن وجدناه لبحراً». وانظر «الصحاح»: (بحر).

والثاني: أنها خمسة أبحر، قاله مقاتل.

والثالث: أربعة، قاله مجاهد.

والأول أصح لقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[لقمان: ٢٧] لأن السموات سبع، والأرضين سبع، والنجومَ السيارةَ سبعٌ، والأيام سبع، وخلق الإنسان من سبع لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾الآية[المؤمنون: ١٢] ورزق من سبع لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾الآية[عبس: ٢٤]، ومن قال بالأربع والخمس فهي داخلة في السبع.

وذكر في «جغرافيا»: أنها مختلفة المقادير، فمنها ما هو على صورة الطيلسان، ومنها ما هو على هيئة الشَّابورَة[1]، ومنها ما هو على صورة التدوير، والغالب عليها الاستدارة.

وقال ابن حوقل في «كتاب الأقاليم»: وأشهرها بحر فارس والروم، وهما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط، وأفسحهما طولاً وعرضاً بحر فارس، يعني الشرقي. قال: والمحيط يقال له: «قنطش» والبحار تستمد منه، وهي بالنسبة إليه كالخلجان، ولا يتأتَّى فيه الركوب، ولا يعيش فيه حيوان إما لشدة برد مائه أو لحرارته، ولا تجري فيه المراكب لما فيه من حجارة المغناطيس، ومن القلزم إلى الصين على خط مستقيم، يعني على وجه الأرض، نحو من مئتي مرحلة، وأما من أراد قطع هذه المسافة من القلزم إلى الصين في البحر طالت عليه المسافة لكثرة المعاطف في البحار والتواء الطرق[2].

فصل في البحر الشرقي

قال علماء الهندسة: إنه يأخذ من البحر المحيط الكبير المظلم بالمغرب وينتهي إلى أقصى الهند والصين، وذلك ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، وقد يختلف عرضه باختلاف الأماكن في الضيق والسعة.

---

(١) في تكملة المعاجم العربية لدوزي ٦/ ٢٣٤ أنها فيما يظهر مرادف الخليج الذي ينتهي بزاوية منحرفة، أو أراد تشبيهها بالسمك الجربيدي، فإن شكل الفم يشبه فم السمكة.

(٢) «صورة الأرض» ص٢٠-٢١.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: طول هذا البحر من القُلْزُم إلى الواق واق أربعة آلاف وخمس مئة فرسخ، وفيه خلجان عظيمة، منها خليجٌ يتصل بأرض الحبشة ويمتد إلى بلاد الزَّنج إلى مكان يقال له: بربرا، طوله خمس مئة ميل وعرضه مئة ميل، وليس هذا «بربرا» الموضع المعروف بالمغرب من أرض إفريقية، وإنما هو مكان آخر في أقصى الحبشة يسمى بهذا الاسم.

وقال أبو معشر: وليس في البحار أعظم من موجه، يرتفع مثل الجبال ثم ينخفض حتى يصير أوديةً عميقة.

وذكر أحمد بن محمد بن إسحاق في كتاب «البلدان» وقال: ليس في العالم أكبر من هذا البحر، يعني غير البحر المحيط، قال: فإنه يأخذ من المغرب وينتهي إلى الصين، فيمرُّ على النُّوبة والحَبَشة ثم على القُلْزُم ثم إلى وادي القرى وجُدَّة وزَبيد وعَدَن والشِّحْر وحَضْرَمَوت وعُمان والدَّيْبُل وفارس إلى المشرق(١). وجميع بلاد السند والهند عليه، صيفهم شتاؤنا وشتاؤنا صيفهم، فكانون وكانون وشباط مثل حَزِيران وتَمُّوز وآب عندنا، وعللوا ذلك بقرب الشمس من الأقاليم وبُعدها. قال: وذَكَر مَنْ له خبرة به أنَّ عمق الماء فيه في مواضع مئة باع وأكثر.

وقال أبو معشر: قد قسم أرباب الهيئة هذا البحر الشرقي في سبعة أقسام:

فالأول: بحر القلزم، ويمرُّ على النُّوبة والحبشة واليمن إلى عُمان، وطول هذا الخليج ألف وأربع مئة ميل، وعليه القُصَير وعَيْذاب، وبين مدينة القُلْزم والفُسطاط ثلاثة أيام.

والقسم الثاني: بحر فارس، وأوله من الأُبُلَّة والبَصرة والبَحرين عند الخشبات، وهي علامات منصوبة من خشب في البحر يستدل بها أهل المراكب، وطول هذا الخليج أربع مئة فرسخ حتى يتصل ببحر الهند عند جبل يقال له: رأس الجُمْجُمة، وأول هذا الجبل من اليمن من ناحية الشِّحْر الأحقاف وآخره في الهند، وقد ذكرناه في الجبال، ولا يدرى أين غايته في البحر، وعلى هذا الخليج الذي يسمى بحر فارس من

---

(١) «مختصر كتاب البلدان» ص١١.

البلاد: البَحرين وعُمان وسيراف وكرمان، ومن عُمان إلى سِيراف ستون ومئة فرسخ، ومن سِيراف إلى البصرة أربعون ومائة فرسخ، وفيه من الأمم والجزائر ما لا يحصى، وفيه مغاص اللؤلؤ في جزيرة كِيْش، ولا يكون ذلك في جميع السنة بل في أول يوم من نَيسان إلى آخر أيلول لا غير.

وقد اختلفوا في اللؤلؤ على قولين(١):

أحدهما : أنه من حيوان يقال له: البلبل وفيه لحم، ويخاف على ما فيه من الدّر من الغاصة كما تخاف المرأة على جنينها.

القول الثاني: أنه يتولَّد من الأمطار إذا وقع المطر في نَيسان ارتفع الصدف إلى وجه الماء فتفتح أفواهها فيقع فيها القطر، فمن الصدف ما يضمُّ على ما وقع فيه فيغوص ويقيم طول السنة يحفظ نفسه من استنشاق الهواء حتى يأتي نَيسان وقد انعقد اللؤلؤ في باطنه، ومن الصدف ما يشتاق إلى النسيم فيصعد على وجه الماء فيفتح فاه ويستنشق الهواء فيفسد ما فيه.

والأول أصحُّ، لأن الغواصين يستخرجون هذا الحيوان من البحر ويأكلون لحمه ويأخذون اللؤلؤ من جوفه، ويحتمل أن اللؤلؤ يتولَّد من هذا الحيوان والمطر جميعاً.

والقسم الثالث من هذا البحر يقال له: بلاذري، وليس في البحر الحبشي أعظم مجرًى للماء منه.

والرابع: كندرلاوي، وفيه العنبر، والخامس: كلاه بار. والسادس: كرديج، وهو بحر الصين، والسابع: مملكة المهراج.

وقال في «المسالك»: ووراء بحر الصين مفاوز ورمال تجري فيها السفن.

وقال النُّوبختي: إن بين الهند والصين على هذا البحر ثلاثين مَلِكاً، أصغر ملك منهم يملك مثل ملك العرب.

وفي هذا البحر الشرقي عجائب، منها: أن فيه سمكاً طول كل سمكة خمس مئة ذراع وأقل وأكثر، بذراع أهل البحر، ويقال له: العُمَري، وهو ذراع طويل، ترفع

(١) انظر «نخب الذخائر في أحوال الجواهر» ص٢٧-٢٨.

السمكة جناحها فيكون كالقلع العظيم، وتخرج رأسها من الماء ثم تنفخ فيذهب الماء في الهواء أكثر من السهم، وأهل المراكب يخافونها فيضربون الدبادبَ لتنفر، وتبلع السمك الصغار فيُسمع لها دويٌّ، ولهذه السمكة آفة وهي سمكة صغيرة مقدار الذراع يقال لها: الكشنك، فإذا أراد الله هلاك الكبيرة جاءت الصغيرة فالتصقت بأصل أذنها وعضَّتها، فتغوصُ الكبيرة في الماء من شدَّة العضة إلى قرار البحر، وتضربُ نفسها بالأرض حتى تموت، وتطفو على رأس الماء كالجبل العظيم[(١)].

ونظير هذه السمكة الصغيرة الدويبةُ التي تقتل التمساح، لما نذكره[(٢)].

ومنها: أنَّ في هذا البحر سمكاً يبلع المراكبَ، وفيه سمك طيار وسمك على صور الجمال وجوههم كأنها البوم، وسمكٌ على صُوَرِ البقر يعمل من جلودها الدَّرَق، وفيه سمك في بطن كلِّ سمكة مثلها وفي بطن الأخرى مثلها إلى عدة طبقات. وفيه سلاحف، استدارةُ ظهرِ السلحفاة عشرون ذراعاً وأكثر، وفي بطنها ألف بيضة، وفيه المعادن بأسرها.

قال ابن المنادي: وعليه مدينة في الهند يقال لها: مل، تنبت الفلفل، وعلى كل عنقود من عناقيد الفلفل ورقة تُكِنُّه من المطر، فإذا مضى زمان المطر ارتفعت الورقة وإذا عاد عادت.

فصل في البحر الرومي[(٣)]

ذكر ابن حوقل في كتاب «الأقاليم» قال: وأما بحر الروم فإنَّه يأخذ من البحر المحيط من المغرب في الخليج الذي بين المغرب والأندلس حتى ينتهي إلى الثغور الشامية، ومقداره في المسافة نحو من أربعة أشهر، وهو أحسن استقامةً واستواء من بحر فارس، وذلك لأنَّك إذا أخذت من فم هذا الخليج أَدَّتْكَ ريحٌ واحدةٌ إلى أكثر هذا البحر. قال: وبين القُلْزم الذي هو لسان بحر فارس وبين بحر الروم على سمت الفَرَمَا أربع مراحل[(٤)]. قال: ويزعم بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾

(١) انظر الخبر في «نزهة المشتاق» ١/ ٦٥، وفيه: «اللشنك»، ومروج الذهب ١/ ٢٣١ـ ٢٤٣.
(٢) سيذكره المصنف قريباً في عجائب نهر النيل.
(٣) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٦٧.
(٤) في «صورة الأرض»: «ثلاث مراحل».

[الرحمن: ٢٠] أنه هذا الموضع. والله أعلم[١].

وقال أبو معشر: بحر الرومي يأخذ من خليج يخرج من البحر المحيط، ويسمى ذلك البحر: قنطش، وأضيق مكان في الخليج من ساحل طَنْجَة ويعرف بالزُّقاق عند سَبْتة. قال: وبدايةُ البحر الرومي من مكان يقال له: أصنام النحاس، ليس وراءه شيء، وعرض الزُّقاق ستة أميال، وقيل: إنَّ هذا البحر مثل البِركة، ولهذا إن ما بين الأندلس وبين القُسطنطينية مئة ميل، وهذا البحر يمتدُّ إلى أقصى المغرب وبلاد الفِرَنج وعليه طَرابُلُس الغرب، ثم يمتدُّ إلى الإسكندريَّة، ودِمياط، والفَرَما، وغَزَّة، وعَسْقَلان، ويافا، وقَيْسَاريَّة، وحَيْفا، وعَكَّة، وصُور، وصَيدا، وبَيروت، وجبَيْل، وأطْرابُلُس الشام، وأَنْطَرطُوس، وأَذَنَة، والمَصِّيصة، وجَبَلة، واللَّاذِقيَّة، وبلد أنْطاكِيَّة، ثم يمرُّ على بلد الأرمن والروم إلى خليج القُسطنطينية. وقيل: طوله ستة آلاف ميل وعرضه من الست مئة إلى مئة بحسب اختلاف الأماكن في الضيق والسعة، وفيه جزائر نذكرها.

وقيل: إنَّ ذا القرنين هو الذي فتح هذا الزُّقاق عند سَبْتة لأنَّ مكان البحر كان وادياً عظيماً فيه أمم كثيرة، ومدن وحصون، ومزارع وقرى، وآثارها باقية فيه، وكان أهلها عصاةً على الإسكندر، فأقام ينذرهم أربعين سنة فلم يطيعوه فأرسل عليهم الماء من الزُّقاق فغرقوا.

ويتشعب منه خليج طوله خمس مئة ميل، ويتصل بمدينة روميَة، ويسمى: أروس.

وقد زعم قوم أن البحر الرومي متصل بالبحر الشرقي، واحتجوا بأنه وصل في الزمان القديم قوم إلى جزيرة الأندلس في مراكب، فأغاروا عليها ووجدوا في مراكبهم النَّارَجيل[٢]، وهو شجر لا يكون إلا في البحر الشرقي يشبه شجر المُقْل، وليفُه يعمل به مراكب البحر الشرقي، لأنَّ مراكب البحر الرومي مسمَّرة بالمسامير، والبحر الشرقي كثير جبال المغناطيس فيشدون المراكبَ بليف النَّارَجيل.

قلت: وهذا القول بعيد لما بين البحر الشرقي والغربي من المسافات والبحار والجبال وغير ذلك.

---

(١) «صورة الأرض» ص٢١.

(٢) النَّارَجيل: هو جوز الهند.

فصل في خليج القُسْطَنطِينيَّة

قد توهم قوم أنَّ خليج القُسطنطينية إنما يأخذ من البحر الرومي ويصبُّ في بحر باب الأبواب، والأمر بالعكس، لأنَّ علماء الهيئة ذكروا أنَّ في ناحية الشمال بحراً يقال له: نيطس[١]، طوله ألف ميل وعرضه ثلاث مئة ميل، وهو أحد البحور السبعة، ومصبه من ناحية الشمال من بحر آخر أكبر منه، وعلى سواحله خلق عظيم من ولد يافث بن نوح، يمتدُّ إلى خليج القُسطنطينية، وطول خليج القُسطنطينية ثلاث مئة ميل وعرضه عشرة أميال، والقسطنطينية على جانبه من ناحية الشمال، وهو خليج عسر كثير الأمواج سريع العَطَب.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: البحر المعروف بنيطس من وراء القُسطنطينية يجيء من بحر الخَزَر، وعرض فُوَّهته ستة أميال، يمرُّ على القُسطنطينية ثم يصبُّ في بحر الروم، ويمرُّ ببلاد الأندلس فإذا انتهى إليها صار بين جبلين، ويضيقُ حتى يصير عرضه مقدار السهم.

فصل في بحر باب الأبواب

قال علماء الهيئة: هذا البحر مستدير الشكل، إلا أنَّه إلى الطول أقرب. وطوله ثمان مئة ميل وعرضه ست مئة ميل، وعليه الخَزَر والدَّيْلَم وجُرْجان وطَبَرِسْتان والتُّرك وأمم كثيرة، وفيه التِّنِّين، واختلفوا فيه على قولين: أحدهما أنه دابة تكون في البحر فتعظم فتؤذي دوابَّ البحر، فيبعث الله عليها ريحاً فتخرجها إلى وجه الماء، فتتعلق بها السحب فتلقيها إلى الأرض. والثاني: أنها ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى ظاهر البحر ثم ترتفع إلى الجو وتلحق بالسحاب كالزوبعة إذا ثارت من الأرض واستدارت وثار معها الغبار، فيتوهم الناس أنها حيات سود خرجت من البحر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) جاء في «معجم البلدان» ١/ ٥٠٠: «بِنْطُس» بضم الطاء والسين المهملة. وضبطه القلقشندي في «صبح الأعشى» ٣/ ٣٥: بنون مكسورة وياء مثناة تحت ساكنة وطاء مهملة مكسورة وشين معجمة في الآخر، وهو المعروف ببحر القرم.

فصل في مبادي البحار[1]

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنها من الاستقصَّات[2] الأربع، خلقها الله تعالى يوم خلق السموات والأرض كما في جميع المياه.

والثاني: أنها بقية طوفان قوم نوح عليه السلام. قاله ابن عباس والمفسرون.

والثالث: أنها من عَرَقِ الأرض لما ينالها من حرارة الشمس.

والرابع: أنها من مياه الأرض، فالملح ينحدرُ إلى الأماكن المنخفضة فينعقد غليظاً كدراً وتختلط به الأجزاء النارية. فأما المياه العذبة فترتفع في أيام الشتاء إلى الجو فيحدثُ منها المطر بإذن الله تعالى، فلا تزال العينُ قائمة أبداً، وهذا قول علماء الهيئة.

وأما ابن عباس فقد روى عنه عكرمة أنه قال: البحر المظلم من ورائه بحر آخر يقال له: الباكي، وماؤه عذب، وإنما سمي الباكي، لأنه يبكي من خشية الله تعالى، وليس بعده شيء.

وقال علماء الهيئة: هذه البحار بأسرها داخلة في الفَلَك، لأنَّه محيط بالأرض كلها.

فصل

ثم هذه البحار ينتقل بعضها على ممر السنين والدهور، فيصير موضع البحر برًّا وعلى العكس، وعلَّةُ ذلك جريانُ الماءِ، فإنَّ لموضع جريانه شباباً وهرماً، وحياة وموتاً، ونشأة، كما يكون في الحيوان والنبات، وقد رأينا ذلك عِياناً في الأنهار العظام كالنِّيل والفُرات ودِجلةَ والنَّجَف بالكوفة، فإنَّه كان بحراً تأتي فيه السفن من الهند، فاستحال الماء عنه إلى موضع آخر، وكذا ببغداد في دجلة العَوْراء فإنها استحالت فراسخَ فأخربت قرًى كثيرة، وهي اليوم قد استحالت أيضاً، والله أعلم.

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٧٠.

(٢) لعلها الاسطِقِسَّات: وهو لفظ يوناني يعني: «الأصل» والاستقسات: الماء والأرض والهواء والنار وهي أصول المركبات. «التعريفات» ص٣٩.

فصل

في ذكر الجزائر وما فيها من الغرائب والجواهر[١]

فصل في جزائر البحر الشرقي: وهي أبلغ من أن تحصى، فنذكر الجزائر المشهورة فنقول:

ذكر العلماء بأخبار الأوائل أن جزائر الوقواق ستة آلاف، فيها جزيرة يستوي فيها الليل والنهار.

وجزيرة يقال لها: جزيرة الراهب يخصى بها الخدم، وملكتها امرأة تجلس على سرير من الذهب، وعلى رأسها تاج من ذهب مرصع بالجواهر، وهي عريانة، وعلى رأسها أربعة آلاف وصيفة كلهن عراة، وقد شاهدهنَّ التجارُ الذين يسلكون تلك البلاد.

ومنها: جزيرة قنبلو[٢]، يركب الناس منها إلى صُحار، وصُحار قصبة عمان، قال الجوهري: وصُحار ـ بالضم ـ قصبة عمان مما يلي الجبل، وتُؤَام قصبتها مما يلي الساحل[٣].

ومنها: جزيرة سَرَنْدِيب، وهي ثمانون فرسخاً في ثمانين، إذا مات لهم أحد أحرقوه بالنار، وإن كان ملكاً تهافت خواصُّهُ وأهله حتى يحرقوا نفوسهم معه، وفيها الياقوت والبِلَّور وسائر أنواع الطيب.

ومنها: جزيرة أهلها سود عراة حفاة، مأواهم رؤوس الشجر، لا يُفهم كلامهم، يهربون من الناس.

ومنها: جزيرة فيها أشجار يسيل منها الكافور مثل الصمغ، تُظل الشجرةُ منها مئةَ فارس.

ومنها: جزيرة لهم أليات كليّات[٤] الغنم، وهم سود يأكلون الرجال دون النساء،

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ١٧٢.

(٢) ويقال: قنبلة، وهي جزيرة للزنج في البحر الشرقي «صبح الأعشى» ٣/ ٢٤٤.

(٣) «الصحاح»: (صحر).

(٤) الألية: جمعها أليات وألايا، ولا تقل إلية ولا لية «القاموس المحيط»: (ألي).

وجزيرة يأكلون النساء دون الرجال.

ومنها: جزيرة الرَّامي[١]، وبها البَقَّم[٢] وعرقه ينفع من سمّ ساعة.

ومنها: جزيرة فيها الرصاص القَلْعي، وجزيرة فيها قرود مثل الجواميس، وسنانير لها أجنحة، وفي هذه الجزائر الكَرْكَدنّ، وهو دابة دون الفيل وفوق الجاموس، يأكل الحشيشَ، وله قرن واحد طوله ذراع وغلظه قبضتان، وفيه صورة من أول القرن إلى آخره، فإذا انشقَّ القرنُ ظهرت الصورة بيضاء في سواد كالشبح: صورة إنسان أو دابة أو طاووس أو طائر أو سمكة ونحو ذلك[٣]. يتخذ أهل الصين من ذلك القرن مناطق تبلغ المنطقة أربع مئة دينار، وملوك جزائر الكَرَكَدَّن مخرمو الآذان.

وقال في «جغرافيا»: وحصى هذه الجزائر الياقوت والمَرْجان وأصناف الجواهر، وبين الجزيرة والجزيرة ميل وأقل وأكثر، يعني: جزائر الوقواق، وعندهم النارَجيل، لا يفقد من النخل غير الثمر، وقيل: هو المقل، قالوا: والنارَجيل فيه خاصية، وذلك لأنَّ بيوت أموال ملكة جزائر الوقواق الوَدَع، فإذا قلَّ قطعوا من سعف النارَجيل بخُوصه فيطرحونه على وجه الماء فيخرج منه حيوان فيتراكب فيتولَّد منه الوَدَع، فيطرحونه على ساحل البحر ويلقون عليه الرمل فتحرق الشمسُ ما فيه من الحيوان، ويبقى الوَدَع وحده فيملؤون منه بيوتَ الأموال.

وقال النُّوبختي: وآخر هذه الجزائر جزيرة سَرَنْديب، و بين هذه الجزائر خليج فيه حيات تبلع المراكب، قال: وبعد سَرَنْديب مما يلي المشرق ألف جزيرة في ألف فرسخ فيها ممالك ومعادن، ثم يليها جزائر فَنْصورة، وهي مملكة المهراج، ولا تضبط جنوده لسعة مملكته، وفي مملكته خمسون ألف فيل يقاتل عليها، ومعنى المهراج: ملك الملوك، وعنده الكافور الفنصوري، وقيل: هو عيون في الجزيرة.

---

(١) وهي التي تسمى: «سَيَلان». انظر «معجم البلدان» ٣/ ٢٩٨، و«الروض المعطار» ص٢٦٤.

(٢) هو خشب شجر عظام، تنبت بأرض الهند والزنج، وورقه مثل ورق اللوز الأخضر، وساقه وأفنانه حمر. «المعتمد في الأدوية المفردة» ص٣١، وفيه أنه إذا شرب من أصله مسحوقاً قدرٌ ما، قتل صاحبه. وما في «الروض المعطار» ص٢٦٤ موافق لما عند المصنف.

(٣) انظر «الحيوان» للجاحظ ٧/ ١٢٩.

ومنها: جزيرة يسمع منها صوت الطبول والملاهي والرقص دائماً والتصفيق، واسم هذه الجزيرة: برطاييل، يقال: إنَّ الدَّجَّال فيها. وفي مملكة المهراج جزيرة دورها أربع مئة فرسخ، عمائر متصلة، وفيها البُزاة والصقور والشواهين.

قال: وفيها جزيرة فيها عين يقال لمائها: ماء العقل، من شرب منه ازداد عقله وفهمه.

وفيها: جزيرة يقال لها: سُقُطْرَى، لا يوجد الصَّبِر الأُسقطري إلّا فيها.

وذكر في «المسالك»: أنه ليس وراء الصين مسلك إلا رمال تجري فيها السفن، وبعدها مدينة قوم موسى الذين يقضون بالحقِّ وبه يعدلون.

وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي عن السُّدي قال: هم قوم بينك وبينهم نهر من شهد، وحكى أيضاً عن ابن جريج قال: لما قَتل بنو إسرائيل أنبياءهم وكفروا كانوا اثني عشر سِبطاً، تبرأ منهم سِبط مما صنعوا واعتذروا إلى الله تعالى وسألوه أن يفرق بينهم، ففتح لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا[1].

وحكى أيضاً عن الربيع والضحاك وعطاء فيما رواه عنهم الكلبي قال: هم قوم خلف الصين على نهر يجري الرمل فيه يسمى نهر: أوداف، وليس لأحدٍ منهم مال دون صاحبه، يُمْطَرون بالليل ويصحون بالنهار ويزرعون، لايصل إليهم منا أحد ولا منهم إلينا، وهم على الحق.

قال الكلبي: وذكر أنَّ جبريل عليه السلام مرَّ بالنبيِّ ﷺ عليهم ليلة الإسراء فسلَّم عليهم فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا، قال: هذا محمد ﷺ النبيّ الأمي، فآمنوا به وقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا وقال: من أدرك منكم أحمد فليقره مني السلام، ثم أمرهم بالصلاة والزكاة، وكانوا يسبتون فأمرهم بترك السبت وإقامة الجمعة، والله أعلم.

---

(١) أخرجهما الطبري في تفسيره ١٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤، وقال ابن كثير: خبر عجيب. ورد الألوسي هذين الخبرين وما بعدهما.

فصل

وفي بحر باب الأبواب جزائر كثيرة فيها بُزاة بيض وهي أفخر البُزاة، وهذه الجزيرة قريبة من جُرجان، والبُزاة الشهب هناك كثيرة لكثرة الثلج بها.

وأول من لعب بالبُزاة والشواهين والصقور من العرب، الحارث بن معاوية الكندي، ومن ملوك الروم قُسْطنطين الذي بنى القسطنطينية، ومن الفرس يَزْدَجِرد.

فصل في جزائر البحر الرومي

قال النُّوبختي: فيه جزائر كثيرة أعظمها جزيرة الأندلس، ولا يعلم مساحتها إلا الله تعالى، وهي مجاورة لأمم كثيرة من الفَرَنج والجلالقة وغيرهم.

وقد ذكرها الحكيم ابن زهر المغربي وقال: فيها معادن الذهب والفضة والزئبق والنحاس والصفر وجميع ما يوجد في المعادن، وفيها الكافور والمسك والعنبر ومعادن الياقوت والجوهر، وفي أرضها غابة تنبت الذهب، وفيها جميع ما يوجد في بلاد الهند والصين من الطيب ونحوه.

وذكرها ابن حوقل في «كتاب الأقاليم» وقال: وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر، وطولها دون الشهر وعرضها نيف وعشرون مرحلة، وفيها المياه الجارية والأشجار المثمرة، وتنتهي إلى الجلالقة، ومدينتهم يقال لها: سَمُّورَة، وتنتهي إلى البحر المحيط، وذكر ما فيها وما حولها من الأمم، قال: ومن أعظم مدائنها قرطبة وكانت مقرُّ الخلائف من بني مروان، وبها جامع مثل جامع دمشق، وبمثل بغداد ودمشق ومصر في اجتماع العلماء بها[١]. وقد ذكرناه.

ومنها: جزيرة صِقِلِّيَّة وكانت لبني عبَّاد، وبها الحصون والقلاع، وآثار الإسلام باقية فيها إلى هلمَّ جرًّا، وهي الآن بيد الأنبرور[٢]، وحاشيتُهُ كلُّهم مسلمون. وبين صِقِلِّيَّة والإسكندرية إذا طابت الريح ثمانية عشر يوماً.

---

(١) «صورة الأرض» ص١٠٤ وما بعدها بتصرف.

(٢) هو ملك الفرنج، دخل صقلية سنة ٦٢٠ هـ، انظر «التاريخ المنصوري» ص٩٩.

وقد ذكرها ابن حوقل فقال: وأما جزيرة صِقِلِّيَّة فطولها سبعة أيام وعرضها أربعة أيام، والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون، ومدينتها تسمى: بَلَرْم، وكان بها المسجد الأكبر وكان بيعة للروم، وفيها هيكل عظيم يزعم أرباب المنطق أن أرسطاطاليس حكيم اليونان معلق في خشبة في هذا الهيكل الذي اتخذه المسلمون مسجداً، وكانت النصارى تعظمه وتستسقي به لما رأوا عليه اليونان من تعظيمه[١].

ومنها جزيرة قُبْرس ودورها عشرة أيام في مثلها، وفيها المعادن المنبوعة واللَّاذَن والزَّاج وغيره، وبينها وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيام، وقيل: بينها وبين اللَّاذقية يوم وليلة، وثلاثة أيام بينها وبين الإسكندرية، وقد ذكرناه.

وفي جزائر البحر الرومي البُزاة والشواهين والصقور والعِقْبان.

وحكى النُّوبختي قال: أهدى ملك الروم إلى كسرى عُقاباً وقال: إنه يصيد أكثر من البازي، فاستشار كسرى وزراءه في قبوله فقالوا: لا حاجةَ لك به فإنَّ خيره لا يقوم بشرِّه، فخالفهم وأرسله على غزالٍ فأخذه فأعجب به وسفَّه آراء وزرائه، ثم جوَّعه أياماً ليصيد به فوثب على ابن صغير لكسرى فقتله، فقال كسرى: وَتَرَنا قيصر، لأنه كان قد غزا بلاده فقتل وسبى، وكتم كسرى أمر العقاب وأهدى لقيصر نمراً وقال: إنه يصيد السبع، فأقام عنده فوثب يوماً على ولد لقيصر فقتله، فقال قيصر: قد صدنا كسرى قبل أن يصيدنا.

وفي البحر الرومي جزائر كثيرة كإفريقيَّة وأقْرِيطِش والنوكبردية والجنوية والبيازية وغيرهم، وكلهم أجناسٌ في جزائر.

فصل
في ذكر المسك والعنبر، وهل هو حشيش أو مما يُدْسَر؟

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «المِسْكُ أَطيَبُ الطِّيبِ». انفرد بإخراجه مسلم[٢].

(١) «صورة الأرض» ص١١٣.

(٢) أحمد في «مسنده»(١١٢٦٩)، ومسلم (٢٢٥٢).

وثبت أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُحِبُّ الطِّيبَ(١).

وذكر العلماء بأخبار الهند والصين أنَّ المسك من غزلان الصين، وأن التُّبَّتي أذكى، لطيب مراعي غزلان التُّبَّت، وعلامة غزلان التُّبَّت الأنياب، فإن لكلِّ واحد نابين كنابيِّ الفيل خارجة من الفكين نحو شبر، فتنصبُ لها الأشراك وتُرمى بالسهام، فإذا صرعوها قطعوا عنها نوافجها والدمُ في سررها خام لم ينضج، فيكون له رائحة زَهِكةٌ(٢)، فيبقى زماناً حتى تذهب عنه تلك الرائحة بالهواء.

وأما المسك الخالص فيأتي الغزال وقد استحكم في سرَّته المسكُ ودفعت الطبيعة موادَّ إلى سرَّته وقد قلق من ذلك، فيحتكُّ بالصخر مع شدةِ حرارة الشمس فتنفجر وتسيل على الصخور كما ينفجر الدُّمَّل إذا نضج ما فيه، فيفرغ ما في نافِجته ـ والنافِجة بالفارسية هي السرَّة(٣)ـ فيخرج الصيادون وقد أعدوا له الأوعية، وتسمى: النوافج، فيأخذونه من الصخور، وهو أفضل المسك وأطيبه ولا يكون له زَهَكة.

وأما **العنبر**، فقد اختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه عين في البحر الشرقي، قاله مجاهد.

والثاني: أنه خِثْي دابةٍ من دواب البحر، قاله الهيثم بن عدي.

والثالث: أنه حشيش ينبت في جزائر البحر عند الواقواق فتبلعه دواب البحر ثم تلقيه.

والرابع: أن البحر يهيج فيقذف بالعنبر من قعره كأمثال الجبال، فيبلعه الحيوان المعروف بالأوال، فإذا حصل في جوفه قتله، فيموت ويطفو على الماء، فيجذبونه بالكلاليب فيأخذونه، فما لقي في ظهر الحوت منه كان جيِّداً، وما لقي في بطنه كان سهكاً فيبقى فيه أثره، قاله مقاتل.

واختلف الفقهاء في وجوب الخُمس في العنبر:

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»(٢٥٠٠٣) من حديث عائشة ﵂.

(٢) زهك وسهك: الريح الكريهة ممن عرق. «القاموس المحيط»: (زهك وسهك).

(٣) انظر «المعجم الذهبي»: (نافه).

قال علي وابن مسعود وابن عباس: لا خمس فيه. وبه أخذ أبو حنيفة ومحمد.

وقال عمر: فيه الخمس، وبه أخذ أبو يوسف ومالك والشافعي وأحمد، لما روي أن عمر سئل عنه فقال: فيه الخمس وفي كل ما يستخرج من البحر.

ولنا إجماع مَن سمَّينا من الصحابة، فإنهم قالوا: لا خمس فيه لأنه شيء دَسَرهُ البحر، وما روي عن عمر فقد خالفه فيه مَن سَمَّينا من الصحابة، ولو سلم كان محمولاً على ما وجد في خزائن البحر وبه نقول.

وقيل: إن أجود العنبر ما وقع ببحر فارس قريباً من رأس الجُمجمة عند بلاد الشِّحْر باليمن لخاصية في تلك البقعة، فإن هناك قوماً من قُضاعة يجعلون الشين المعجمة كافاً[1]، ولهم نُجُبٌ معدَّة على ساحل البحر لهذا، فإذا قذف البحر العنبرَ أخذوه.

وأما الكافور، فقد ذكرناه.

وأما **العود**، فقال الجوهري: عود قَماري منسوب إلى موضع ببلاد الهند[2]. قال جدي رحمه الله في كتاب له يسمى «تقويم اللسان»: قَماري منسوب إلى قَمار، مدينة باليمن.

فأمَّا **النَّدُّ**، فقال الجوهري: والنَّدُّ من الطيب ليس بعربي[3]. والله أعلم.

فصل في الجَزْر والمدِّ، وهل لهما أَمَد أو حدٌّ[4]

فأما المدُّ فمُضيُّ الماءِ بجريته، والجَزْرُ رجوعه عن ذلك، وقال علماء الهيئة: البحار ثلاثة أصناف:

منها: ما يكون فيه المدُّ والجزر ويظهر فيه ظهوراً بَيِّناً، كالبحر الحَبَشي عند البصرة، وهذا مشاهد محسوس.

والثاني: يظهر فيه في وقت دون وقت كما في البحر الأعظم، فإنه يمدُّ ستة أشهر

(١) النص في مروج الذهب ١/ ٣٣٣، وكنز الدرر ١/ ١٨٣ أوضح مما هنا فانظره.

(٢) «الصحاح»: (قمر).

(٣) «الصحاح»: (ندد).

(٤) انظر مروج الذهب ١/ ٢٤٤، وكنز الدرر ١/ ١٨٠.

فيقلُّ الماءُ في موضع ويكثر في موضع.

والصنف الثالث: لا يظهر فيه المدُّ أصلاً، كغير الحَبَشي.

واختلفوا في علَّة المدِّ والجزر: أما علماء الهيئة فقد اختلفوا فيه: قال بعضهم: علته القمر، لأنه مجانس لعلة الماء وهو يسخِّنه فينبسط، ومثَّلوه بِقِدْرٍ فيها ماءٌ مقدار نصفها، فإذا غلى على النار ارتفع الغليان حتى يفور ويصعد، فإذا برد الماء نقص، لأنَّ من شرط الحرارة أن تبسط الأجسام ومن شرط البرودة أن تضغطها، فإذا امتلأ القمر حميت أرض البحر فانبسط الماء وارتفع، وإذا نقص نقص الماء.

وقال بعضهم: علَّته الأبخرة المتولدة في باطن الأرض، فإنها لا تَزال تتولد حتى تكثر وتكثف فيرد[1] ماء البحر بكثافتها، فإذا انقطعت الموادُّ بقلة الكثافة عاد ماء البحر إلى قعره.

والمختار عندي: أنَّ المدَّ والجزر من آيات الله تعالى، وأنَّه من آثار قدرته في العالم، لأنَّ كلَّ ما لا يوجد له قياس في الوجود فهو فعل إلهي يستدلُّ به على عظمة الباري سبحانه وقدرتِه، وليس للمدِّ والجزر قياس في العالم.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده قال: سُئل ابن عباس عن المدِّ والجزر فقال: قد وكَّل الله بقاموس البحر ملكاً، فإذا وضع رجله فيه فاض البحر، وإذا رفعها غاض[2].

وقد ذكره الجوهري فقال: وقاموس البحر وسطه ومعظمه[3].

وروي عن مجاهد عن ابن عباس قال: الملك الموكل بالبحار يضع عقبه في بحر الصين فيكون منه المدُّ، ثم يرفع عقبه فيكون منه الجزر.

وقال مجاهد: وهذا ظاهر محسوس، فإن الإنسان لو وضع قدمه في إناء فيه ماء فإن الماء يرتفع إلى رأس الإناء، فإذا رفعها رجع الماء إلى حدِّه.

---

(١) في (ط): فبرد، والمثبت من (ل) وكنز الدرر ١/ ١٨٠، وفي مروج الذهب ١/ ٢٤٩ (وعنه ينقل): حتى تكثف وتكثر فتدفع حينئذ ماء هذا البحر لكثافتها . . .

(٢) أحمد في «مسنده»(٢٣٢٣٨).

(٣) «الصحاح»: (قمس).

فإن قيل: فيلزم على هذا أن يكون الجزر والمدّ في جميع البحار، قلنا: قد ذهب قومٌ إلى هذا، وإنما لم يظهر في غير بحر البصرة لوجهين: أحدهما: لبعد المسافة واتساع البحار، ومن لجَّجَ من المسافرين في البحار يذكر أنه شاهده، والثاني: فلأنَّ مكان المدّ والجزر في البصرة تحت خط الاستواء واعتدال الليل والنهار وعليه الكواكب الثابتة، وهذا المعنى لا يوجد في غيره.

وأما قول من علَّل بزيادة القمر ونقصانه، فغير صحيح، لأنه لو كان كذلك لتعلَّق بزمان مخصوص، فإن القمر يزيد في أول الشهر وينقص في آخره، والمدُّ والجزر يكون في كلِّ يوم وليلة فافترقا.

وأما من قال بأنه من الأبخرة في قلَّتها وكثرتها فباطلٌ، لأنه يحتاج إلى زمان طويل يجتمع فيه، وهذا يوجد في كل يوم وليلة.



فصل في ذكر العيون والأنهار
وما ورد فيها من فنون الأخبار والآثار

ذكر الجوهري أن العين على وجوه: أحدها: عين الماء، وعين الرُّكبة، والعين: حاسة الرؤية، والعين: عين الشمس، والعين: الدينار، والعين: المال النَّاضُّ، والعين: الدَّيدَبان[1] والجاسوس، وعين الشيء: خياره، وعين الشيء: نفسه، والعين: ما عن يمين قبلةِ العراق، والعين: مطرُ أيامٍ لا يُقلع، وأسود العين: جبل، وأنشد الجوهري[2]: [من الطويل]

إذا زالَ عنكم أسودُ العينِ كنتمُ كراماً وأنتم ما أقام أَلائمُ

ورأس عين: بلدة، وفي الميزان عين إذا لم يكن مستوياً، والعينُ: من حروف المعجم[3].

ذكر الجوهري هذه الوجوه وهي ستة عشر، وقد خرَّجت وجوهاً أُخَر حكاها الخليل بن أحمد وغيره تزيد على خمسين وجهاً، وذكرتها في التفسير.

وجمع العين أعين وعيون، قال الجوهري: وأعيان.

وأما **النهر** فيسمَّى نهراً لاتِّساعه. واختلفوا في بدوِّ الأنهار: فروى عطاء عن ابن عباس: أن جميع المياه من تحت صخرة بيت المقدس ومن هناك تتفرق في الدنيا.

وقد ذكر جدي رحمه الله حديثاً مرفوعاً في هذا المعنى في «فضائل القدس» فقال: حدثنا أبو المعمر الأنصاري بإسناده عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الأنهار والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس»[4].

قلت: والموقوف في هذا على ابن عباس أصح.

وروى مجاهد عن ابن عباس أن جميع الأنهار من البحر الذي خلف المحيط،

---

(١) الديدبان: هو الربيئة، وهو الطليعة قدام العسكر «تاج العروس»(ددب).

(٢) نسبه الجوهري إلى الفرزدق، ولم نجده في ديوانه المطبوع.

(٣) «الصحاح»: (عين).

(٤) «فضائل القدس» ص١٤١، و«الموضوعات» ٢/ ٣٠٩، وقال: هذا حديث لا أصل له.

وماؤه عذب، ويسمى: الباكي. وقد ذكرناه.

وروى العوفي عن ابن عباس: أنَّ العيون في الأرض كالعروق في البدن.

وذكر مقاتل: أنَّ العيون تتولد من الأبخرة وتجمع في الأماكن المنخفضة، فإذا انتشرت في أعماق الأرض طلبت التنفس، فتنشق الأرض فتتفجَّر العيون. قال: والأرض على الماء مثل الشباك، فإذا أراد الله أن يفجِّر بعضَ العيون في أماكن مخصوصة نظراً لعباده تنفست الأرضُ فانفجرت.

ومذهب الأوائل أن الماء من الاستقصات الأربع.

فنبتدئ بالأنهار الكبار، كالنيل، والفرات ودجلة، وجَيحون وسَيحون، ونحوها، ومطارحِها، ومقدار جريانها على الأرض:

وقد ذُكر النيل والفرات في الصحيح، فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس بن مالك بن صَعْصَعة، حدَّثه عن رسول الله ﷺ حديث المعراج، وفيه أنه ﷺ قال: «ثم رُفِعتُ إلى سِدرَة المُنْتَهى، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهرانِ باطِنانِ ونهرانِ ظاهِرانِ، فقلتُ ياجبريلُ، ما هذا؟ فقال: أما الباطِنانِ: فنهران في الجنَّةِ، وأما الظاهِرانِ: فالنِّيلُ والفراتُ». أخرجاه في «الصحيحين»[١].

وقد ذُكر سَيحان وجَيحان في الصحيح، أيضاً، فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحان وجَيْحان والنِّيلُ والفُراتُ كلٌّ من أنهارِ الجنَّة». انفرد بإخراجه مسلم[٢].

فصل في ذكر النِّيل

أصل النيل: الفيض، قال الجوهري: والنيل فيض مصر[٣].

واتفقوا على أن مبدأه من جبل القمر، فذكره في «جغرافيا» وصوَّره أنه ينبع من اثنتي عشرة عيناً، وأن العيون تصبُّ في بحيرة مثل البَطائح[٤] خلفَ خطِّ الاستواء يجتمع فيها

(١) أحمد في «مسنده»(١٧٨٣٣)، والبخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) أحمد في «مسنده»(٧٨٨٦)، ومسلم (٢٨٣٩).

(٣) «الصحاح»: (نيل).

(٤) البطائح: جمع أبطح، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى. «القاموس المحيط»: (بطح).

الماء ويجري على رمال هناك وبين جبال، ثم يخرق أرضَ السودان ثم يصبُّ في بحر الزَّنْج، وفي هذا البحر قنبلو وهي عامرة، وفيها قوم مسلمون لغتهم زَنْجية غلبوا على أهل الجزيرة عند انقراض مُلْك بني أمية وابتداء الدولةِ العباسية، ومن ذلك البحر الذي فيه قنبلو يصبُّ في بحرِ عُمان. ومن جبل القمر إلى هذه الجزيرة مسيرة خمس مئة فرسخ ويقوى جريانُ مصبِّه في هذا البحر أيامَ زيادةِ النيل، فيجري جرياناً عظيماً ويتكدَّر موضع العيون، حتى قيل: إن الماء يؤثِّر لونه في لون البحر ويكون ماؤه أحلى من العسل.

وقال كعب الأحبار: وجدت في التوراة أنَّ النيل نهر العسل من الجنَّة، وأنه يجري على بلاد الحبشة في قِفار ومَفاوِز ومهامه[1] ليس فيها مسلك.

وذكر أحمد بن بختيار وقال: العين التي هي أصلُ النيل هي أولُ العيون من جبل القمر، ثم ينبعث منها عشرةُ أنهار، نيل مصر أحدها، قال: والنيل يقطع الإقليمَ الأول ثم يجاوزه إلى الثاني، ومن ابتدائه من جبل القمر إلى انتهائه إلى البحر الرومي ثلاثة آلاف فرسخ يجري في عامر وغامر، فإذا تعدَّى الفسطاط انقسم قسمين: قسم يمر إلى دمياط وقسم يمر إلى رشيد، فيصبان في بحر الروم، وقيل: إنه لا يعلم مسافة جريانه إلا الله عز وجل.

ويبتدئ بالزيادة في نصف حَزيران وينتهي في أيلول، واختلفوا في سبب زيادته ونقصانه: فقال قوم: لا يعلم ذلك إلا الله تعالى، وقال آخرون: سببه زيادةُ عيونِهِ ونقصانها، وقال آخرون: الظاهر أن سبب زيادته كثرةُ المطر والسيولِ، تمطر بلاد الحبشة والنوبة فيزيد، وإنما يتأخر وصوله إلى الصيف لبعد المسافة، وقد ردَّ قوم هذا وقالوا بأنَّ عيونه التي تحت جبل القمر تتكدر في أيام زيادته، فدلَّ على أنه فعل الله تعالى من غير زيادة بالمطر.

وجميع المياه تجري إلى القبلة إلَّا هو؛ لأنه خارج عن خطِّ الاستواء، فيجري إلى ناحية الشمال، وكذا العاصي بالشام يجري إلى غير القبلة، قالوا: وفي الهند أنهار

(١) المهمهة: المفازة البعيدة والبلد المقفر. «القاموس المحيط»: (مهه).

كثيرة تجري إلى غير القبلة، لما نذكر.

ومتى بلغ ستة عشر ذراعاً استحق السلطانُ الخراجَ، وإذا بلغ ثمانيةَ عشر ذراعاً قالوا: يحدث بمصر وباء عظيم، وإذا بلغ عشرين ذراعاً مات ملك مصر، والله أعلم.

وبمصر تُرَع كثيرة منها ترعة سُنْباط، وترعة ذنب التمساح، وتُرَع في الصعيد، وخليج سردوس، وخليج ابن منجا، وخليج القاهرة، وخليج الفيوم، حفره يوسف عليه السلام زمان القحط، وإنما سمي الفيوم لأنَّ أصله ألف يوم، كانت كل قرية منه تقوم بأهل مصر يوماً، وذكر الجوهري الفيوم فقال: والفيوم من أرض مصر، قُتل بها مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية(١). قلت: والصحيح أن مروان قتل ببُوصِير ـ لما نذكر(٢). وفيه خليج الإسكندرية وغيره.

وفي النيل عجائب، منها التمساح، قالوا: ولا يوجد إلا فيه وله أسامي، في مصر التمساح، وفي بلاد النُّوبة الوَرَل، ووراء النُّوبة الشوشمار.

وقال الجوهري: والتمساح دابة من دوابّ الماء معروف(٣).

وقال الجاحظ في كتاب «عجائب البلدان»: إن مهران السند من نيل مصر، قال: لأن التمساح فيه.

قلت: وقد وهم الجاحظ، لأنَّ مهران السند يخرج من جبال المُوْلْتان، وهي في المشرق داخلة تحت خط الاستواء والاعتدال، والنيل يخرج من جبل القمر من ناحية الجنوب وهو خارج عن خط الاستواء، وبين مهران وبين الحبشة والنُّوبة البحر الشرقي، فكيف يكون منه؟! فإن وجد التمساح في مهران فقد وجد فيه كما يوجد في النيل.

قالوا: والتمساح لا دُبر له وما يأكله يتكوَّن في بطنه دوداً، فإذا آذاه ذلك خرج إلى البرية وفتح فاه فينقضُّ عليه طائر الماء كالطَّيْطَوي ونحوها من أنواع الطيور ممن اعتاد

(١) «الصحاح»: (فوم).
(٢) سيذكر الخبر المصنف في سنة (١٣٢هـ).
(٣) «الصحاح»: (مسح).

ذلك، فيأكل ما بين أسنانه وما يظهر من الدود، فإذا أكل أطبق عليه التمساح في بعض الأوقات فمه فيبلعه، فضربت العرب المثلَ به فقالت: مكافأة التمساح.

وآفة التمساح دُويبة تكون في سواحل النيل وجزائره تكمن له في الرمل، فإذا فتح فاه وثَبَت فدخلت فمه ونزلتْ إلى جوفه فيضرب الأرض بنفسه ويغوصُ في الماء فتخرق الدويبة بطنه فيموت، وربما قتل نفسه قبل أن تخرج منه فتخرج بعد موته، وهذه الدويبة نحو من ذراع على صورة ابن عِرْس ولها قوائم شتى ومخاليب، فهي آفة التمساح، كالسمكة الصغيرة التي تقتل[١] الكبيرة في البحر الشرقي، وقد ذكرناها.

وذكر ابن حوقل: أنَّ في نيل مصر أماكنَ لا يضرُّ التمساحُ فيها، كعدوة بوصير والفسطاط، قال: وفي نيل مصر السَّقَنْقُور يصلح للجماع، ويكون عند أسوان وفي حدودها.

وفي النيل السمك الرعَّاد إذا وقعتِ السمكةُ في شبكة الصياد لا تزال ترتعد يداه ورجلاه حتى يلقيها أو تموت، وهي نحو الذراع[٢].

وقال جالينوس: إذا وضع منها على رأس مَنْ به الصداع زال، وقيل: إنما الخاصية أنْ توضع على الرأس وهي في حالة الحياة[٣].

وفيه سمك على صورة الفرس، والمكان الذي تكون فيه لا يقربه التمساح، وتخرجُ من الماء ليلاً فترعى الزرعَ فتفسده، فيطرحون لها التُّرمُس فتأكله ثم تشرب الماء فيرِمُ جوفُها فتموت، وهي على صورة الفرس إلا أنه ليس لها حافرٌ ولا ذنب.

وفيه شيخ البحر، سمكة على صورة آدمي وله لحية طويلة، والغالب أنه يكون بنواحي دِمياط، وهو مشؤوم فإذا رُئي في مكان دلَّ على القحط والموت والفتن، ويقال: إنَّ دمياط ما تنكب حتى يظهر عندها.

وفيه المقياس يعرف به زيادة النيل ونقصانه، وأول من بناه يوسف عليه السلام

(١) هنا ينتهي السقط في (ب)، وانظر مروج الذهب ١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٢) «صورة الأرض» ص١٣٩-١٤١.
(٣) انظر «عجائب المخلوقات» ص١٨٧.

بمَنْف، وبنت دلوكة الملكة مقياساً بإخْمِيم، وفي أيامها عُملت الطِّلَّسْمات بمصر.

فأما المقاييس التي بنيت بمصر في الإسلام فأولُ من بنى مقياساً عبد العزيز بن مروان بن الحكم لما ولي مصر، بناه بحُلوان فوق الفسطاط، وهذا المقياس الظاهر بناه المأمون، وقيل: إنما بناه أسامة بن زيد التَّنوخي ودثر، فجدده المأمون، وأسامة بناه في أيام سليمان بن عبد الملك بن مروان، وبنى أحمد بن طولون مقياسين أحدهما بقُوص وهو قائم اليوم، والآخر بالجيزة وقد انهدم.

فصل في الفرات

وأصلها من الفَرْت وهو الشق، قال الجوهري: والفرات اسم نهر بالكوفة، والفراتان: الفرات ودُجَيل. والفرات: الماء العذب. يقال: ماء عذبٌ فرات[1].

واختلفوا في مخرجها على قولين: أحدهما: أنها من جبل ببلد الروم يقال له: افرذهخش، بينه وبين قاليقلا مسيرة يوم، والثاني: أنها تخرج من أطراف أرمينية ثم تجري إلى بلاد الروم.

ويجتمع إليها أعين كثيرة ويصبُّ إليها خليج من بحيرة المازريون، وليس ببلاد الروم بحيرة أكبر منها، دَوْرها أكثر من شهر، ثم يمرُّ الفراتُ بأرضِ مَلَطْيَة على مسيرة ميلين منها، ثم يمرُّ على صُمَيْصات[2] وقلعة الروم والبيرة وجسر مَنْبِج وبالِس وقلعة جَعبر والرَّقة والرَّحْبَة[3] وقَرْقيسِيا وعانَة والحَدِيثَة وهِيت والأنبار.

ومن تحت الأنبار يأخذ منها نهر عيسى، ونهر الملك، فيصبان في دجلة، ثم يمر الفرات بالطفوف، ثم بالحلة، ثم بالكوفة، وينتهي إلى البطائح، ويصب في البحر الشرقي.

قالوا: ومقدار جريانها على وجه الأرض أربع مئة فرسخ، وقد كانت تمر ببلاد الحِيرة، ونهرها بيِّن إلى هلمَّ جرًّا، ويعرف بالعتيق، وعنده كانت وقعة القادسية، وكان

(١) «الصحاح»: (فرت).

(٢) في «معجم البلدان»: «سُمَيْساط».

(٣) وهي رحبة مالك بن طوق. «معجم البلدان» ٣/ ٣٤.

البحر المعروف بالنَّجَف في ذلك الوقت جارياً، وكان مرسى السفن من الهند والصين إلى ذلك المكان، تحمل فيه الأمتعة إلى ملوك الحيرة لما كانت عامرة، ولما استحال الماء وانقطع عن مصبه في النجف صار ذلك البحرُ برًّا، وصار بين الحيرة والبحر مسافة.

والنَّجَفُ ـ بالتحريك ـ المكانُ الذي لا يعلوه الماء، ويقال: إن اسم هذا المكان نج وكان أهل الحيرة يستقون منه الماء، فأصبحت امرأة لتستسقي فرأته يابساً فقالت: نج جف، ثم خفَّفوه.

وقد روي في فضل الفرات حديث: حدثنا جدي رحمه الله قال حدثنا إسماعيل بن السمرقندي بإسناده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنَّه قال: «ما مِن يَومٍ إلَّا ويَنزِلُ مَثاقيلُ من بركاتِ الجنَّة في الفُراتِ». قال جدي[1] في «الأحاديث الواهية»: هذا الحديث لا يصحّ؛ في إسناده الربيع بن بدر، تركوا حديثه[2].

قلت: وقد ذكر الزهريُّ ما يدلُّ على صحته، لأنَّه قال: ومصداقُ هذا الحديث أنَّ الفراتَ مدَّتْ في بعض السنين فجاءت برمَّانٍ كلُّ رمّانةٍ مثلُ البعير، فكانوا يرون أنه من الجنة.

وقال البخاري بإسناده عن أبي هريرة: قال، قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ أنْ يَحسِر الفرات عن كنزٍ من ذَهب، فمَنْ حَضَره، فلا يأخُذ منه شيئاً»، وفي رواية: «عن جبل من ذهب». أخرجاه في الصحيحين[3].

ولمسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تَقومُ السَّاعةُ حتَّى يَحسِر الفُراتُ عن جبَلٍ مِن ذَهَبٍ، يَقتِتِلُ النَّاسُ عليه، فيُقتَلُ مِن كلِّ مئةٍ تِسعةٌ وتِسعُونَ، ويقولُ كلُّ رَجُلٍ منهم: لعلِّي أنْ أكونَ أنا الذِي أَنجُو»[4].

وروي أن دانيال حفرها مع دجلة، وسنذكره.

(١) في (ب): «قال حدثني جدي».
(٢) «العلل المتناهية» (٣٨).
(٣) البخاري (٧١١٩)، ومسلم (٢٨٩٤)(٣٠).
(٤) مسلم (٢٨٩٤).

فصل في دجلة

قال الجوهري: دِجلَةُ نهر بغداد[١]. وذكر أبو بكر الخطيب أن دانيال حفرها مع الفرات فقال: حدثنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد مولى بني هاشم بإسناده عن عثمان بن عطاء، عن أبيه قال: أوحى الله إلى دانيال أن احفرْ لي سَيْبَيْن بالعراق، فقال: يارب بأيِّ مكاتلَ وبأيِّ مساحيَّ وبأيِّ رجالٍ؟ فأوحى الله إليه أن أعدَّ سكة حديد وعرِّضها واجعلها في خشبة وأَلقِهَا خلفَ ظهرك فإني باعثٌ إليك ملائكة يعينونك على حفرهما، ففعل، فكان إذا انتهى إلى أرضِ أرملةٍ أو يتيمٍ حاد عنها حتى حفر دجلة والفرات.

وقال الخطيب بإسناده عن ابن عباس قال: أوحى الله تعالى إلى دانيال أنْ فجِّر لعبادي نهرين عظيمين، واجعلْ مفيضَهما إلى البحر، فقد أمرتُ الأرضَ أن تطيعك، فأخذ قناةً فجعل يخدُّ في الأرض، والماء يتبعه ـ وفي رواية: فأخذ قصبةً ـ وكان إذا وصل إلى أرض شيخ كبير أو يتيم ناشده الله فيحيد عن أرضه، فعواقيل دجلة والفرات من ذلك[٢].

قال الجوهري: العاقول من النهر والوادي: ما اعوَجَّ منه[٣].

وقال أرباب العلم بهذا الشأن: مبدأ دجلة من بلاد آمِد وديار بكر وميَّافارِقِين وأرمينيَة، تجتمع العيون ثم تمر ببلاد حِصن كَيْفا والجزيرة والموصل، وتستمد من الزابين الأعلى والأسفل، وهما من عيونٍ ببلاد أرمينية، ثم تمر ببلاد تَكْريت وبغداد وواسِط، وتنقسم عدة أودية، ثم تصب في البَطائح وتختلط بالفرات، ثم تصبُّ في البحر الشرقي.

قالوا: ومقدار جريانها على وجه الأرض ثلاث مئة فرسخ، وقيل: إن الذي

---

(١) «الصحاح»: (دجل).

(٢) «تاريخ بغداد» ١/ ٥٦، وهذان خبران منكران، في إسنادهما الهيثم بن عدي وأبو صالح والكلبي وعثمان بن عطاء.

(٣) «الصحاح»: (عقل)، وفيه: «المعوج منه».

حفرهما أفريدون الملك، وليس بصحيح، والله أعلم.

فصل في سَيْحون

وهو نهر الهند، ويقال: هو مِهْرَان السند، وقال الجوهري: وسَيحون نهر بالهند، وسَيحان نهر بالشام، وساحِين نهر بالبصرة، وانساح أي: اتسع[1]. ومخرج سيحون من جبال ماسَبَذَان وينتهي إلى بلاد المُولتان، وتفسيره: مرج الذهب، ثم ينتهي إلى الفنصورة، ثم يصبُّ في البحر الشرقي، ومقدار جريانه على وجه الأرض ست مئة فرسخ، والتماسيح في خلجانه على ما ذكر الجاحظ، ولا توجد في غيره وغير النيل، وقد ذكرناه.

فصل في جَيحون

وهو نهر بلخ، ومنبعه من عيونٍ ببلاد التُّبَّت، ويمر ببَلْخ والتِّرمِذ وأَسْفَرَايِيْن وخُوارِزم، ويمضي حتى يصبَّ في بحر جُرجان، ثم يمر على بلاد التُّرك.

قالوا: ومقدار جريانه على الأرض مقدار ثلاث مئة فرسخ، وقيل: إنه يصب في مِهْران، وليس كذلك، بينهما مسافة بعيدة، وقد سماه النبي ﷺ: «جَيحون» في الحديث الذي روينا.

فصل

وفي العالم أنهار كثيرة، ذكر أحمد بن بختيار أن بالصين جزيرة الفضة يخرج منها ثلاثة أنهار، مثل: جَيحون والنيل والفرات.

قلت: وقد وهم، لو جعل مكان النيل دجلة كان.

ومنها: نهر إِتِل يأتي من المشرق فيصب في بحر الخَزَر، ويقال: إنه يتشعب منه نيف وسبعون نهراً، وهو أكبر من جَيحون.

ومنها: نهر الهِنْدَمَنْد، ومخرجه من جبال خراسان ويصب في البحر الشرقي.

---

(١) «الصحاح»: (سيح).

وذكر في «جغرافيا»: أن العيون الكبار التي تنبع في الأرض مئتا عين وثلاثون عيناً دون الصغار، وعدد الأنهار الكبار الجارية في الأقاليم السبعة على الدوام مائتان وتسعون نهراً.

وقال ابن المنادي: في الإقليم الأول من الأنهار والعيون ثلاثة وعشرون عيناً ونهراً، وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون، وفي الإقليم الثالث أربعة وعشرون، وفي الإقليم الرابع ستون، منها دجلة والفرات، وفي الإقليم الخامس عشرون، وفي الإقليم السادس ستة وعشرون، وفي الإقليم السابع الباقي.

وجميع ما ذكرنا من العيون والأنهار داخل في الأقاليم السبعة إلا العيون التي في جبل القمر فإنها خارجةٌ عن ذلك، لأنها ليست في خط الاستواء. وقيل: إنها في أطراف إقليم الهند وهو الأول.

وذكر صاحب «المسالك»: أن ببلاد المشرق تَلًّا حوله ألف عين تجري إلى المشرق وتسمى بركون، أي: الماء المقلوب، وصيده ذَراريح سود[1].

قلت: وقد روى أبو بكر الخطيب في «تاريخه» حديثاً يأتي على سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل، فقال بإسناده عن ابن عباس: قال، قال رسول الله ﷺ: «أنزَلَ اللهُ إلى الأرضِ خمسةَ أنهارٍ: سَيْحُون وهو نهر الهندِ، وجَيْحُون وهو نهر بَلْخ، ودِجلةَ والفرات: وهما نهرانِ بالعراقِ، والنيل نهر بمصرَ، أنزلَها اللهُ من عينٍ واحدةٍ من عُيونِ الجنَّةِ من أسفلِ دَرَجاتِها على جَناحَي جبريلَ عليه السلام، واستودَعَها الجبالَ، وأجْراها في الأرضِ، وجَعَل فيها منافعَ للنَّاسِ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[المؤمنون:١٨] فإذا حَانَ خروجُ يأجُوجَ ومأجوجَ، أرسَلَ اللهُ جبريلَ عليه السلام فرفعَ من الأرضِ هذه الأنهار الخمسة والقرآن والعلم والحجر والركن والمقام وتابوت موسى عليه السلام بما فيه، يرفع الكلَّ إلى السماء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[المؤمنون:١٨] فإذا

(١) «المسالك والممالك» ص٢٨، وجاء فيه: «بر كو آب».

رُفِعَتْ هذه الأشياءُ مِنَ الأرضِ فُقِدَ خيرُ الدينِ والدُّنيا»(١). إلا أن هذا الحديث غريب، والأصحُّ أنه موقوف على ابن عباس رضي الله عنه.

فصل في سَيْحان وجَيْحان

قال النُّوبختي: هما في بلد الروم، فأما سَيْحان: فيخرج من عيون بينها وبين مَلَطْية ثلاثة أيام، ويمتد إلى ناحية الغرب، وعليه أَذَنة(٢)، فيصب في البحر الرومي. وأما جيحان: فيخرج من عيون بينها وبين مَرْعَش ثلاثة أيام وعليه المَصِّيصة، ويصب في البحر الرومي.

والنهر الأسود: الذي غرق فيه ملك الألمان قريبٌ من بلد الروم.

فصل في البحيرات

وهي كثيرة: منها بحيرة سَاوَه وسنذكرها في سيرة النبي ﷺ إن شاء الله تعالى. وبحيرة أرمينية، وبحيرة الروم، وقد ذكرناها، وأما الشام فبحيرة قدس بحمص، وبحيرة فامية وبحيرة دمشق.

وبحيرة طبرية ودَوْرها ثلاثة وثلاثون ميلاً ومصبُّ الماء إليها من حولةِ بانياس، ويخرج منها النهر المعروف بالأردنّ، ويمرُّ من الغَوْر إلى بحيرة زَغَر من أرض الكَرَك. وقال الجوهري: والأردنُّ اسم نهرٍ وكورة بأعلى الشام، قال: والأردن أيضاً ـ بالضم والتشديد ـ النعاس(٣).

وذكر جدي رحمه الله في «المنتظم»: أن بحيرة طبرية تصبُّ في نهر أنطاكية.

والظاهر أنه قلَّد من لا يعرف، وأين بحيرة طبرية وأنطاكية؟! بحيرة طبرية في الشام الأسفل، وأنطاكية في الشام الأعلى، وإنما يصبُّ نهر أنطاكية في بحيرة فامية.

(١) «تاريخ بغداد» ١/ ٥٧-٥٨، قال ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٦ بعد إخراجه مع حديث آخر: وهذان الحديثان جميعاً غير محفوظين بل هما منكرا المتن.

(٢) اسم بلدة.

(٣) «الصحاح»: (ردن).

ومنها بحيرة تِنِّيس عند دِمياط، وكانت قرًى ومزارعَ لم يكن بمصر مثلها، فغلب عليها ماءُ البحر.

فصل في أنهار الشام

أما دمشق فأصل مياها بردى وعين الفِيْجة، يجتمع بردى عند عين الفيجة ثم ينحدر إلى قرية يقال لها: الهامة، فينفصلُ منه نهر يزيد، ويمتد في قاسيون وينتهي إلى دُوْمَة، وقد كان يمتد في الزمان القديم إلى الماطِرون، وذَنَبَة والقناطر في لحفِ الجبل باقيةٌ إلى الآن وكذا الآثار، وهو منسوب إلى يزيد الرومي، فأما يزيد بن معاوية فإنه وسَّعه وعمَّقه فنسب إليه.

وأما ثَوْرا فيأخذ من فوق الرَّبوة ويمتد إلى قريب القُصَيْر، ويقال: إنَّ عليه ثلاث مئة وستين ماصية.

وباناس وهو نهر الجامع، والقنوات ونهر المِزَّة وقناتها، ويتفرع من هذه أنهار عدة.

وأما العاصي: فأصله من جبل لبنان، ومن قرية يقال لها: اللبوة، ثم ينزل الماء إلى بحيرة قَدَس، ويخرج العاصي منها فيمر بأرض حمص وحماة وشَيزَر وفامِيَة، ثم يصب في البحر الرومي قريباً من أنطاكية، وقيل: إنما سمي العاصي، لأنه يجري على غير القبلة، ومسافة جريانه ثلاثة أيام.

ومنها قُوَيْق: نهر حلب، يخرج من قرية يقال لها: سينات[1]، على سبعة أميال من حلب، ثم يمر على حلب وقِنَّسرين، وينتهي إلى المرج الأحمر، وماؤه موصوف بالرِّقة والخفة، وقيل: إن أوله وَخِم فإذا امتدَّ طاب.

فصل في أنهار الجزيرة

منها: البَلِيْخ بين حرَّان والرَّقة، ويقال: إن الخليل عليه السلام نزل بذلك المكان وقال له: أبلِخ، فتفجَّر، وعنده مقام إبراهيم، وكانت عليه منازل الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

(١) في «معجم البلدان» ٤/ ٤١٧: «سبتات»، وقال: سألت عنها بحلب، فقالوا: لا نعرف هذا الاسم إنما مخرجه من شناذر، قرية على ستة أميال من دابق، وفي الروض المعطار ٤٨٦، وبغية الطلب ١/ ٣٤٧: سنياب.

ومنها: الجُلَّاب نهر حرَّان، وماؤه خفيف، ويقال: إن أوله وَخِمٌ ثم يصحُّ، وأوله من عين ببلد الرُّها.

ومنها: الهِرْماس وهو نهر نَصيبين، ويقال: إنه يسقي ثلاثين ألف بستان، ومبدأه من جبل نصيبين.

ومنها: الخابُور، وهما خابوران: خابور رأس العين، ويمتد منها إلى الفرات فيصب فيها تحت قَرْقِيسِيا، وعليه المِجْدَل وقرى كثيرة غيرها، وأما الخابور الثاني: ففي ديار بكر عند قَرْدَى وبازَبْدَى، وهي ديار بني حمدان الذين ملكوا المَوصل والجزيرة، ومخرجه من بلاد أرمينيَة ويصب في دِجلة، وماؤه عذب، قال الشاعر [من الطويل]

بقَرْدَى وبازَبْدَى مَصِيفٌ ومَرْبَعٌ وعذب يُحاكي السَّلسبيلَ برودُ
وبغدادُ ما بغدادُ أمَّا تُرابُها فجمٌّ وأمَّا حرُّها فشديدُ

فصل في أنهار العراق

حكى الخطيب عن الأوائل أن ملوك الأردوان وهم النَّبَط، كانوا في السواد قَبْل فارس، وهم الذين استنبطوا المياه وحفروا الأنهار العِظام بالعراق وصرَّفوا دجلة والفرات بالسكور وقسموا المياه، ويقال لهم: ملوك الطوائف(١). وإنما سموا نَبَطاً، لأنهم أنبطوا المياه، أي: استخرجوها، وذكرهم الجوهري فقال: النَّبَط والنَّبيط قوم ينزلون بالبَطائح بين العراقين(٢).

وقال ابن قتيبة: ملكوا العراق ألف سنة.

وقال ابن المنادي: كان ملكهم من عانَات وكور دجلة والبصرة، وكانوا يصرِّفون الفرات ودجلة كيف ما شاؤوا، وما فضل يصرِّفونه إلى البحر الشرقي فلهذا سُمُّوا نبطاً.

وحكى الخطيب عن الهيثم بن عدي، عن عبد الله بن عياش المنتوف قال: كان حدُّ

(١) «تاريخ بغداد» ١/ ٥٦-٥٧.
(٢) «الصحاح»: (نبط).

مُلْكِ النَّبَط الأنبار إلى عاناتِ كَسْكَر إلى ما والاها من كُور دجلة إلى جوخى[(١)] والسواد، وكان في أيدي النَّبَط سُرَّة الدنيا، وكانت الفرات ودجلة لا ينتفع بهما حتى يأتيان بلادهم فيفجرونهما في كل موضع ويسوقونهما إلى البحر، وحفروا الصَّراة العظمى ونهر سُورا.

وقيل: إنما حفر الصَّراة ملوك فارس، ثم وليت الفرس فحفروا الأنهار، مثل نهر المَلِك، والخالِص، ودَيَالِي، وفمِ الصِّلح، والنيل.

وقيل: إنما حفر نهر المَلِك أقفورشة آخر ملوك النَّبَط، وملَكَ مئتي سنة[(٢)].

وقيل: إنما حفره سليمان عليه السلام.

وقيل: إنما حفر فَمَ الصِّلح خالد بن عبد الله القَسْري، وفم الصِّلْحِ أقطعه المأمون الحسنَ بن سهل.

وأما النيل الذي بأرض العراق، فيقال: إن الحجاج حفره، وهو قريب من واسط.

واختلفوا في الذي حفر نهر عيسى الذي يأخذ من الفرات ويصب ببغداد، وعليه المُحَوَّل وغيرها، على أقوال: أحدها سليمان عليه السلام، والثاني: أقفورشة آخر ملوك النَّبَط، والثالث: ملوك الفرس، وقيل: عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس، وليس كما قيل، وإنما بنى عليه قصراً فأضيف إليه.

فأما الصَّراة فقديمة أيضاً، وقال الجوهري: والصَّراة - بالفتح - نهر بالعراق وهي العظمى والصغرى، وصريَ الماء إذا طال مكثه وتغير[(٣)].

وأما دُجيل فاختلفوا فيه، قال الهيثم بن عدي: أمر سليمان الشياطين فحفرته وألقت ترابه بين قصر شيرين وخانِقِين، وقيل: إن بعض ملوك الفرس حفره.



(١) في (ب): «خوصا».
(٢) «تاريخ بغداد» ١/ ٥٧.
(٣) «الصحاح»: (صري).

فصل في ذكر ما في الدنيا من العجائب وما أودع فيها من الغرائب[١]

فصل في عجائب المشرق

ذكر العلماء بأخبار العالم أن بالهند عجائب:

منها: هيكل عظيم من أعظم الهياكل، يقال له: بلاذري، مستدير الشكل، له سبعة أبواب وفيه قبة شاهقة في الهواء على سبعة أعمدة، وفي رأسها جوهرة بمقدار رأس الفحل، تضيء منها جميع أقطار ذلك الهيكل، وأن جماعة من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فهلكوا، وكلُّ مَن دنا منها خرَّ ميتاً. وفي القبة صنم من ذهب وزنه مئة ألف مثقال تزعم الهند أنه نزل من السماء، يقصدونه من الآفاق، وكلُّ مَن تَعرَّضَ لهذا الهيكل مات. وأساسه من حجارة المغناطيس، وبني على سير الكواكب السبعة بالحركات السماوية. وفيه بئر عليها طوقٌ من الحديد الصيني، مكتوب عليه بالقلم المسند: «هذه البئر فيها علوم السماوات والأرض وما مضى وما يأتي، وفيها خزائن لا يصل إليها من العالم إلا من وازت قدرته قدرتنا واتصل علمه بعلمنا وساوت حكمته حكمتنا»، وكل من نظر في البئر وقع على أُمِّ رأسه ميتاً، وكلُّ من نظر إلى هذا الهيكل خاف وارتعد وضعف قلبه في أول وهلة، وعلى هذا الهيكل أوقاف كثيرة منها مدينةٌ برسداقها، وحول هذا الهيكل ألف مقصورةٍ فيها جواري لمن يقدم زائراً لهذا الهيكل يتمتع بهن.

ومنها: غدير عظيم في مملكة المهراج، عليه قصرٌ شاهقٌ في الهواء، ويتصل بخليج إلى البحر من خلجان الزَّابج، والغدير مملوءٌ لَبِناً من ذهب، وكلُّ ملكٍ يلي أمر المهراج يضرب كل يوم لبناً ويلقيه فيه، وهذا الخليج يمد ويجزر كلَّ يوم، فإذا جزر ظهر اللَّبِنُ يقابله شعاعُ الشمس يلمعُ الغدير لمعاناً تبرق منه الأبصار، فإذا مات الملك وقام بعده آخر جمع ما في الغدير من اللَّبِن وفرَّقه في أهل المملكة، في الخواص أولاً ثم في العوام، فإن فضل شيء فرَّقه في المساكين، ثم يكتب عددَ اللبن ووزنه في اللوح، وأن

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٠٩.

فلاناً عاش في الملك كذا وكذا سنة، وخلف في غدير الذهب كذا وكذا لبنة. وكانوا يتوارثون ذلك ويفتخرون بمن تطولُ أيامه ويكثر لبنه.

ومنها: أَطَمة[١] بساحل الهند بين مملكة شروان والمهراج، يخرج منها نفط أبيض وليس في العالم نفط أبيض سواه، وعندها نار لا تخمد ليلاً ولا نهاراً، وليس في آطام الأرضِ أعظم منها، وتضيء في الليل منها نارٌ تُرى في البحر الشرقي من مئة فرسخ، وتقذف بجمرٍ كالجبال وقطعٍ من الصخور في الهواء، ثم تنعكس سفلاً فتهوي في قعرها وهي سود وحمر لما نالها من الحرارة. وقال الجوهري: والأُطُم[٢] مثل الأُجُم - جمع أَجَمة.

ومنها: بطة من نحاس على عمود من نحاس بين الهند والصين في أرضٍ يقال لها: كثار. حكى جدي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إذا كان يوم عاشوراء مدَّت عنقها إلى نهر تحتها فتشرب منه ثم تعود إلى مكانها وتفتح منقارها فيفيض منه من الماء ما يكفي ساكني تلك البلاد وزروعهم ومواشيهم إلى مثل عاشوراء مثل ذلك اليوم في السنة القابلة[٣].

ومنها: قنطرة بين السوس وجندي سابور، ذكرها في «المسالك» وقال: هي على وادي منه أنهار جندي سابور والسوس، وطول القنطرة أربع مئة ذراع بناها سابور، وأساسها في الأرض ثلاثون ذراعاً، وارتفاعها في الهواء مئة ذراع، وبين صخورها الرصاص مصبوب، وفيها نيف وعشرون طاقاً، كلّ طاقٍ عشرة أذرع، يخرج من تحت القنطرة نيف وثلاثون نهراً تسقي رستاق السوس وجندي سابور ولا ينقص الماء[٤].

ومنها: ما ذكره ابن حوقل في «صفة الدنيا» فإنه قال: الخزر اسم إقليم، وقصبته تسمى: إتل، وإتل أيضاً اسم النهر الذي يجري إليها من الروس وبلغار ويصبّ في بحر الخزر، وقد ذكرناه، واسم ملكهم أيضاً إتل، وقصره مبني بالجصّ والآجر، ولا يسمح

---

(١) الأطمة مثل الأجمة: الحصن. «تاج العروس»(أطم).

(٢) في (ب) و(ل): والأطمة، والمثبت من (ط) و«الصحاح»: (أطم).

(٣) «المنتظم» ١/ ١٦٤-١٦٥، و«التبصرة» ٢/ ١٨٩.

(٤) «المسالك والممالك» ص٤٣.

لأحدٍ من رعيته في البناء بهما، وهو يهودي وعسكره اثنا عشر ألفاً كلهم يهود، وحاشيته أربعة آلاف، وفي بلاده مسلمون ويهود ونصارى ومجوس وعبدة الأوثان، وللملك سبعة من الحكام من هذه الأصناف التي ذكرنا يقضون بين الناس ولا يصل أحدٌ إلى الملك إلّا في النادر.

وذكر ابن حوقل حكايةً طويلة اختصرتها، حاصلها: أن رجلاً وُلِدَ له ولد، وكان له غلامٌ يتّجر بماله، فمات الرجل وتنازع الولد والغلام في المال، فالولد يقول: هو مال أبي، والغلام يقولُ: بل المال لي والرجلُ أبي، وأقاما يتحاكمان عند الحكام سنةً، وأقام كلٌّ واحدٍ منهما البينة، ومن عادتهم إذا امتدت الحكومةُ سنةً ولم تنفصل حالٌ تولّى الملكُ الأمر بنفسه، فأحضرهما الملك وأعيدت عليه الدعاوى، فلم يجدْ ما يقتضي الترجيحَ بين البيِّنتين فأفكر ساعةً وقال للابن: أتعرف قبر أبيك؟ فقال: كنت غائباً لما مات، ولما قدمتُ قالوا: هذا قبر أبيك، فقال للغلام المدَّعي البنوَّة: أتعرف قبر أبيك؟ قال نعم: أنا توليتُ دفنه، فقال عليَّ برِمَّةٍ منه ـ رمة بكسر الراء: عظم بالٍ ـ فأحضرَت، فقال: افصدوا الغلامَ على هذه الرمة ففصدوه فكان الدم يحيد عنها يميناً وشمالاً لا يعلَق بها منه شيء، ثم قال: افصدوا الابنَ عليها، ففصدوه فعلق الدم بالرِّمة وشربته جميعه، فسلَّم المال إلى الابن وأَدَّبَ الغلامَ ونكَّلَ به[(١)].

فصل في عجائب العراق

حكى جدي رحمه الله عن حميد الدِّهْقان، دهقان[(٢)] الفلوجة السفلى، قال: كان ببابل سبع مدائن، في كلِّ مدينة أعجوبة ليست في الأخرى.

فكان في المدينة الأولى هيئة مثال الأرض كلها وفيها صورة أنهارها، فإذا التوى بعضُ أهل المملكة خرق أنهارها فغرق أهلها فلا يستطيعون سدَّها حتى يطيعونه وينقادون إليه.

---

(١) «صورة الأرض» ص٣٣٠-٣٣٢.

(٢) الدهقان: ـ بالكسر والضم ـ رئيس الإقليم، ومقدم قرية وصاحبها في خراسان والعراق. «تاج العروس»(دهقن).

وكان في المدينة الثانية حوضٌ من رخام، فإذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه يأتي منهم من أراد بما يحب من الأشربة فيصبونه في الحوض فيختلط الجميع، ثم يقوم السقاة فيصبونه في الأواني، فمن صُبَّ في إنائه شراب كان شرابه الذي أتى به.

وكان في المدينة الثالثة طبل إذا غاب أحدٌ من أهلها غيبةً منقطعة وأرادوا أن يعلموا أحيٌّ هو أو ميت ضربوا الطبلَ، فإن صَوَّتَ فهو حيّ، وإن لم يصوِّت فهو ميت.

وكان في المدينة الرابعة مرآة من حديد إذا غاب رجل وأراد أهله أن يعلموا الحالة التي هو عليها نظروا في المرآة فأبصروه على ما هو عليه.

وكان في المدينة الخامسة إوزَّة من نحاس على بابها، فإذا دخل المدينةَ غريبٌ صَوَّتَتْ صوتاً يسمعه أهل البلد فيعلمون أن قد دخلها غريب.

وكان في المدينة السادسة قاضيان جالسان على الماء، فإذا تقدم إليهما خصمان يمشي المحقُّ على الماء ويغوص المبطل.

المدينة السابعة كان فيها شجرة عظيمة، فإن جلس تحتها ألفُ رجلٍ أظلتهم، وإن زادوا واحداً جلسوا كلّهم في الشمس[١].

ومن عجائب العراق إيوان كسرى، وسنذكره في سير الأكاسرة.

فصل في عجائب المَوصل

في أرض الموصل جبل قريب منها من ناحية المشرق عليه ديرٌ يقال له: دير الخَنافس، للنصارى فيه عيد في ليلة من السنة، حكى لي جماعة من أهل الموصل قالوا: تصعد إليه جميع الخنافس التي في الدنيا، ويبيت فيه ألوفٌ من الناس يمشون عليها طول الليل[٢]، وكذا الدواب، فإذا طلع الصباح لم يوجد للخنافس أثر، وبأرض الغرب مثله.

---

(١) «المنتظم» ١/١٦٧.

(٢) في (ب): «الليل كله».

فصل في عجائب اليمن

ذكر النُّوبختي قال: ما بين الشِّحْر وحَضْرَموت رجلٌ من نحاس على عمود من نحاس مادًّا يده إلى وراء كأنه يشير إلى أنه ليس وراءه مسلك. وهي أرض رجراجة لا تستقيم عليها الأقدام، يقال: إن ذا القرنين وصل إليها فخرج عليهم نملٌ كالبَخاتيِّ فكانت النملةُ تصرع الفارسَ، فرجع، وقد حكاه جدي عن عبدالله بن عمرو بن العاص(١).

ومنها: وادي بَرَهُوت بحضرموت، وفيه جُبٌّ فيه أرواحُ الفجَّار، وفي هذا الوادي أَطَمَةٌ تقذفُ بالجمر، كالتي في الهند.

وحكى جدي رحمه الله تعالى في مجالس وعظه، وقد سمعته، وذكرها في بعض مصنفاته وقال: قدم بغدادَ رجلٌ من خراسان حاجًّا وكان معه مالٌ، فأودع بعضَه عند بعض الزهاد ومضى إلى الحج، فلما عاد وجد الزاهدَ قد مات، فسأل أهلَهُ هل أوصى بمالٍ؟ قالوا: لا، فاهتمَّ فسأل بعض العلماء عن الطريق إلى كشف الحال، فقال له: ما ثَمَّ إلا أنْ ترجعَ إلى مكة وتقفَ على زمزم وتنادي باسمه يافلان، فإن أجابك، وإلا فاذهب إلى بَرَهوت، فيه بئر فيها أرواحُ الفجّار، وفي زمزم أرواح المؤمنين. فرجع الرجل إلى مكة ووقف على زمزم ونادى يا فلان، فلم يجبه، فخرج إلى اليمن ووقف على وادي بَرَهوت وناداه، وإذا هو جُبٌّ عميق مظلم يطلع منه الدخان واللهب، فأجابه وقال: لبيك. فقال: وأين مالي؟ قال: تحت الدرجة الفلانية، اذهب إلى أولادي وعرِّفْهُمْ فهم يعطونك إياه، فقال: ألستَ الزاهدَ العابدَ، فما الذي أوقعك ها هنا؟ فقال: كانت أعمالي لغير الله تعالى. وعاد الرجل إلى بغداد، وعرَّف أهله، فحفروا المكان وأعطوه إياه.

فصل في عجائب الشام ومصر والمغرب

حكي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: من عجائب الدنيا حمَّام طبرية

(١) حكاه ابن الجوزي في «التبصرة» ٢/ ١٨٩، وانظر «المنتظم» ١/ ١٦٤.

ومنارة الإسكندرية.

وقال آخر: نهر الذهب وجبُّ الكلب وقلعة حلب، فأما جب الكلب فيقال: إنه في الروم، وماؤه يبرئ من الكَلَب، وأما نهر الذهب فيقال: هو نهر بُزاعة فإنه يسقي البساتين والأراضي وما يفضل منه يصير في البرية ملحاً.

ومنها: بمصر بئر البلسم التي تسقي شجر دهن البَلَسان.

ومنها: الهَرَمان، وسُمْكُ كلٍّ واحد منهما خمس مئة ذراع في ارتفاع مثلها، وكلما ارتفع البناء، دقَّ رأسها حتى يصيرَ مثل مفرش حصير، وهما من المرمر، وعليهما جميع الأقلام اليونانية والعبرانية والسُّريانية والمسندية والحميرية والرومية والفارسية.

وحكى بعض علماء مصر قال: إنهم حلوا بعض الأقلام فوجدوه: «إني بنيتها بملكي، فمن ادَّعى قوةً فليهدمها، فإن الهدْم أيسرُ من البناء».

وحكى جدي عن ابن المنادي في «المنتظم» أنه قال: فحسبوا خراجَ الدنيا مراراً فلم يفِ بهدمها[١].

قلت: وقد وهم ابن المنادي، فإن صلاح الدين رحمه الله أمر أن تؤخذ منها حجارةٌ يبنوا بها قنطرة، فهدموا منها شيئاً كثيراً فبنوا جسراً قريباً منها يُمْشَى عليه في زمان زيادة النيل إلى الإسكندرية، وهو جسرٌ عظيم تولَّى عمارته قَراقُوش الخادم.

وإنما في هدمها كلفةٌ لكونِ الحجارةِ ذَكَراً في أنثى، وقد شاهدتُ الهرمين مراراً، وأحدهما مسدودٌ والآخرُ فيه بابٌ تدخلُ الناسُ فيه، وحكى لي مَن دخله أنه وجد فيه قبراً وأن فيه مهالك، وربما خرج منه الإنسان في سراديب إلى الفيوم، والظاهر أنها قبور الملوك الأوائلِ وعليها أساميهم وأسرارُ الفلك والسحرِ وغير ذلك.

واختلفوا في مَن بنى الأهرام، قال بعضهم: يوسف الصدِّيق، وقال آخرون: بناها نمرود، وقيل: دلوكة الملكة، وقال قوم: إنما بناها القبط قبل الطوفان، وكانوا يرون أنه كائن، فبنوها ونقلوا ذخائرهم إليها، وجاء الطوفان فما أغنى ذلك عنهم شيئاً، وقيل: إنه لا يُعْرَفُ من بناها، وهو الظاهر.

---

(١) «المنتظم» ١/ ١٦٦.

وحكى بعض شيوخ مصر: أنَّ بعضَ من يعرفُ لسانَ اليونان حلَّ بعضَ الأقلامِ التي عليها ونقلها إلى العربية فإذا هي: «بناء هذان الهرمان، والنسرُ الواقع في السرطان» قال: ومن ذلك الوقت إلى زمان نبيِّنا محمد ﷺ ستة وثلاثون ألف سنة، وقيل: اثنان وسبعون ألفاً.

وقيل: إن القلم الذي عليهما تاريخه قبل بناء مصر بأربعة آلاف سنة، ولا يعرفه أحد.

وحكي لي أنه قِيْسَ عرضُ الهرمِ الشرقي فكان خمس مئة ذراع، وسطحه تسعة أذرع، وطوله في الهواء ستة وخمسون ذراعاً، وهو مئة وثمانون صفاً، كلُّ حجرٍ عرضه ثلاثة أذرع، وعرض الهرم الغربي أربع مئة وستون ذراعاً، وبالقرب منهما صخرةٌ عظيمة قد صوروا منها رأس آدمي سموه: أبا الهول، وحولها أهرام صغار.

ويقال: إن ملك اليونان واسمه: سوريد بن سهلوف رأى في منامه كأنَّ الأرض انقلبت والكواكبَ تتساقط، ولها أصوات منكَرة، فهاله ذلك، فجمع حكماءه وأخبرهم، فقال واحدٌ: لابدَّ من هولين عظيمين يحزن منهما العالم، أحدهما ناري والثاني مائي، فأمر ببناء الأهرام ونقل إليها علومهم وكنوزهم، وجعل عمقها في الأرض كارتفاعها في الهواء، فإن كانت الآفةُ مائيةً صعدوا إلى أعلاها، وإن كانت ناريةً نزلوا إلى أسفلها إلى السراديب. وصوَّر فيها الكواكبَ والبحورات والروحانيات والأقلامَ وصُوَرَ العقاقير وغيرها.

وكان كلَّما مات حكيم جعلوا كتبه عند رأسه، وكانوا يقولون بالرجعة.

وجعلوا بابَ الهرمِ الشرقيِّ من ناحية الجنوب في الأرض بأزج معقودٍ طوله مئة وخمسون ذراعاً، وبابَ الغربيِّ من الشمال كذلك.

وقيل: ابتداء بنائها والنسرُ الطائرُ في الحَمَل.

ولما تمَّ بناؤها ذبحوا لها الذبائحَ وكسوها الديباج، وكتبوا على ظاهرها: «نحن بنيناها في ست سنين فاهدموها في ستين سنة». ووجدوا فيها دنانير وزن كل دينار أوقية[١].

(١) في (ب): «دنانير وزن أوقية».

وقيل: إن روحانيّ الهرم الشرقي في صورة امرأة عريانة لها ذوائب، فإذا أرادت أن تستهوي أحداً ضحكتْ ودعته إلى نفسها، فيدنو منها فيهيم على وجهه فيهلك، وقد رآها جماعة تدور حول الهرم وقت القائلة.

قالوا: وروحانيُّ الهرمِ الغربيِّ غلام أمرد عريان أصفر اللون، وقد رؤي وقت المغرب وهو يدور حول الهرم. وهناك هرم مُلَوَّن وروحانيّه شيخٌ نوبي عليه بُرْطُل[1] وبيده مبخرة، وقد رُؤي ليلاً حول الهرم.

ولما ملك ابن طولون[2] مصرَ حفر على أبواب الأهرام فلم تعرف، فوجدوا في الحفر قطعةَ مرجان مكتوب عليها سطور باليوناني، فأحضر من يعرف ذلك القلم، وإذا هي أبيات شعر فترجمت فكان فيها:

أنا بانيُ الأهرامِ في مصرَ كلها ... ومالكها قدماً بها والمقدَّمُ
تركتُ بها آثارَ علمي وحكمتي ... على الدهرِ لا تبلى ولا تتثلَّمُ
وفيها كنوزٌ جمَّةٌ وعجائبٌ ... وللدّهرِ لينٌ مرةً وتهجُّمُ
وفيها علُومي كلُّها غيرَ أنَّني ... أرى قبلَ هذا أن أموتَ فتعلمُ
سَتُفْتَحُ أقفالي وتبدو عجائبي ... وفي ليلةٍ في آخرِ الدهرِ تنجم
ثمانٍ وتسعٌ واثنتانِ وأربعٌ ... وتسعون من بعد المئين تسلم
ومن بعد هذا جزء تسعين برهة ... وتلقى البرابي تستحرّ وتهدم
تدبَّرْ مقالي في صخورٍ قطعتها ... بسيفي وأَفْنَى قبلها ثم تُعْدَم

فجمع ابن طولون الحكماءَ وأمرهم بحساب هذه المدة فلم يقدروا على تحقيق ذلك فيئس وزال الطمع.

ومنها: المطالب، وهي كثيرة بمصر، إلّا أنَّ الغالبَ عليها أنَّ لها طِلسماتٍ تمنعُ من الوصول إليها.

وحكى الهيثم بن عدي وغيره، أنَّ رجلاً جاء إلى عبد العزيز بن مروان وهو على

(١) البُرطل: القلنسوة. «القاموس المحيط»: (برطل).
(٢) كان تملك أحمد بن طولون مصر سنة (٢٥٤)هـ كما سيذكر ذلك المصنف.

مصر من قبل أبيه مروان بن الحكم، فقال له: أيها الأمير إني قد وجدتُ كتاباً قديماً يشير إلى بعض الأماكن، أنَّ فيه كنزاً فيه أموالٌ وجواهر لا تحصى، فخرج معه إلى ظاهر مصر على أميال، وجاء به إلى تلٍّ عظيم فقال: تحت هذا التلّ، فقال: ومن أين لك هذا؟ فقال: إذا كشفنا هذه التلَّ ظهر لنا بلاطٌ مختلفُ الألوان، ثم نحفر فيظهر لنا بابٌ من الصُّفْرِ ففيه المطلب، فأزالوا بعضَ التلِّ فظهر البلاط والباب، فأزالوا عنه التراب وإذا عليه أقفالٌ عجيبةٌ، فعالجوها حتى فتحوها، فإذا بدرجٍ يأخذ إلى بهوٍ عظيم فيه قناطر ومجالس عليها أبواب الذهب مرصعة بالجواهر، وفيها من الأموال والياقوت والجوهر ما لا يحصى، وإذا بالدَّرج من نحاس مشبك، وفي أول درجةٍ عمودٌ من ذهب، وفي أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان خراجَ الدنيا، وجناحاه من زمرد، فضرب بعضهم رأس الديك فلمع شيء كالبرق الخاطف، وهو ما في عيني الديك من الياقوت فبانت الدرج بأسرها والبهو، فبادر واحدٌ فوضع قدمه على أول درجة، فلما استقرتْ قدماه عليها ظهر سيفان عظيمان عاديان من عن يمين الدرجة وشمالها، فالتقيا على الرجل فقدَّاه نصفين، فأهوى جسمه على الدرج، فلما استقرَّ على بعضها اهتزَّ العمود وصَفَر الديك صفرةً عظيمةً أسمعت من كان بعيداً، وحَرَّكَ جناحيه، وظهرتْ أصواتٌ مزعجة قد عملت على الكواكب بالحركات ينزعج لها السامع، وتقدم آخر فالتقت عليه السيفان فقدَّته نصفين، ثم آخر وآخر حتى قتلت ألف رجل، فقال عبدالعزيز: حسبنا، هذا أمرٌ لا يُدْرَكُ ولا يوصلُ إليه، ثم أمر بردِّ الترابِ على الموتى فكانت الحفيرةُ قبورهم.

ومنها: جبل الطير بصعيد مصر، فيه شقٌّ، فإذا كان يومٌ مُعيَّن من السنة جمع عنده زرازير الدنيا، فيأتي كلُّ زَرزور فيدخل منقاره في الشقِّ ثم يخرجه ويطير، ويأتي آخر فيفعل كذلك، طولَ النهار يأتي زَرزور ويذهب زَرزور إلى وقت الغروب، فيأتي آخر الزرازير فيدخل منقاره في الشقِّ فينضمُّ عليه ويبقى معلَّقاً طول العام إلى ذلك اليوم، فينفتح الشقّ ويسقط ذلك الزرزور ويأتي غيره.

ومنها: عمود السواري بالإسكندرية، وليس في الدنيا مثله، وقد شاهدته، ويقال: إن أخاه بأسوان.

ومن عجائب المغرب: نار في جزيرة صقلية تشتعلُ فيها حجارةٌ ولا تمكن أحداً من الوقود منها، قالوا: وليس بصقلية نملة.

ومنها حجارة بالقيروان تقذفها النيران بالليل، وفي النهار دخان، وهي في جبل يقال له: البركان.

ومنها: بيتان بالأندلس يعرفان بالملوك، فلما فتحت الأندلس في زمان الوليد بن عبدالملك بن مروان وجدوا هذين البيتين، ففتحوا أحدهما فإذا فيه أربعة وعشرون تاجاً، على كل تاج اسم صاحبه مكتوبٌ عليه ومبلغُ سنِّهِ، وما ملك من السنين، ووجدوا فيه مائدة سليمان عليه السلام وهي من الذهب، وقيل من الياقوت، وعليه أطواق الجوهر الثمين، فحملت إلى الوليد، ووجدوا على باب البيت الآخر أربعة وعشرين قفلاً، كان كلَّما ملكَ واحدٌ منهم تلك البلاد زاد قفلاً، ولا يعلمون ما في البيت، فقال لهم بعض الرهبان: إنّ آخر ملوك الأندلس يُفْتَحُ على يديه، قالوا: لا بد من فتحه، فنهاه الحكماء فخالفهم وفتحه، فإذا رجال من العرب قد صُوّروا على خيولهم، وعليهم العمائم والأسلحة، فدخلت العربُ جزيرةَ الأندلس في السنة التي فتح فيها الباب.

ومنها: ما حكاه جدي عن عبدالله بن عمرو بن العاص في «كتاب التبصرة» قال: ومن العجائب سوداني من نحاس على قضيب من نحاس على الباب الشرقي برومية، فإذا كان أوانُ الزيتون صفَّر ذلك السوداني فلا تبقى سودانية تطير إلا جاءت بثلاث زيتونات: زيتونةً في منقارها وزيتونتان في رجليها، فألقته على ذلك السوداني، فيحمله أهلُ رومية فيعصرون منه ما يكفيهم لِسُرُجِهِمْ وإدامهم إلى العام المقبل[١].



(١) «التبصرة» ٢/ ١٨٨-١٨٩.

فصل في الطبائع

قال علماء الأوائل: العالم وما فيه أربعة أجزاء:

فالربع الأول: المشرق، وجميع ما فيه حارّ رطبٌ، وله الهواء والدم، وله ريح الجنوب، وزمانه ربيعٌ، ويختصُّ من الكواكب بالقمرِ والزهرة، وله من البروج الحمل والثور والجوزاء.

والربع الثاني: المغرب، وجميع ما فيه رطب، وله الماء والبلغم، وله من الريح الدَّبور، وله الشتاء، ومن الكواكب عطارد والمشتري، ومن البروج الجدي والدلو والحوت.

والربع الثالث: اليمن، وجميع ما فيه حارٌّ يابس، وريحه الصَّبا، وله المِرَّة الصفراء والصيف، ومن الكواكب الشمس، ومن البروج الأسد والسرطان والسنبلة.

والربع الرابع: شمالي[1] له ريح الشمال، وله الخريف، ومن الكواكب زحل والمِريخ، ومن البروج الميزان والعقرب والقوس.

قلت: وهذا تقسيمُ بعضِ الأوائل، والأصحُّ أنَّ الشمس تختصُّ بالمشرق، وكذا المريخ يختص بالترك، وأن العقرب يختص بأرض الحجاز.

قالوا: والطبائع أربع: فالأولى: طبيعة النار، وهي حارة يابسة، والثانية: طبيعة الهواء، وهي حارة رطبة، والثالثة: طبيعة الماء، وهي باردة رطبة، والرابعة: طبيعة الأرض، وهي باردة يابسة، فاثنتان منها يذهبان الصعداء وهما النار والهواء، واثنتان يرسبان سفلاً وهما الأرض والماء.



(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ٢٢٩: «وجميع ما فيه يابس، وله التراب وله المرة السوداء».

فصل
في ذكر سكانها وما ورد في قطانها[١]

روى مجاهد عن ابن عباس قال: كان في الأرض أمم قبل آدم أيضاً[٢].

وقال الجوهري: الحنُّ حيٌّ من الجن، قال: ويقال الحنّ خلق بين الإنس والجن[٣].

وروى مقاتل عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: أولُ من سكن الأرضَ أمةٌ يقال لهم: الحنّ والبن، ثم سكنها الجنّ، فأقاموا يعبدون الله تعالى زماناً، فطال عليهم الأمد فأفسدوا، فأرسل الله إليهم نبياً منهم يقال له: يوسف، فلم يطيعوه وقاتلوه، فأرسل الله الملائكة فأجلتهم إلى البحار، وكان مدة إقامتهم في الأرض ألفَ عام[٤].

قلت: وقد ضعَّف العلماءُ رواياتِ مقاتل، فإن الله تعالى لم يبعث نبياً قبل آدم، وإنما قيل: بأنَّ يوسفَ كان ملكاً لهم فعصوه.

حدثنا عبد القادر الرُّهاوي بإسناده عن وهب بن منبه عن سعيد بن المسيب عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ بالمَغْربِ أَرضاً بيضاءَ تَسيرُ الشَّمسُ فيها أربعِين سنةً، بها أمَّةٌ منَ النَّاس لم يَعْصوا الله طَرْفَةَ عَيْنٍ» قالوا: يا رسول الله، فأينَ الشيطانُ منهم؟ قال: «ما يَدرُون هل خُلِقَ الشَّيطانُ أم لا» قالوا: فمن بني آدم هم؟ قال: «ما يَدْرُون خُلِقَ آدمُ أم لا»[٥].

قلت: والأصحُّ أنه موقوف على ابن بريدة عن أبيه.



---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٣٠.

(٢) في «كنز الدرر»: «كان في الأرض أمم قبل الحن والبن فانقرضوا، وقبل آدم أيضاً».

(٣) «الصحاح»: (حنن).

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٥٨، عن ابن عباس، ولم يذكر فيه: الحن والبن، وانظر «المنتظم» ١/ ١٦٩.

(٥) وأخرجه ـ أيضاً ـ أبو الشيخ في «العظمة» (٩٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فصل
في ذكر من ملكها، وقطع سبلها وسلكها

حدثنا عبد العزيز بن محمود البزار بإسناده عن سعيد بن المسيب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ملك الأرضَ أربعةٌ: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان، والكافران نمرود وبختنصر، وسيملكها خامسٌ من أهل بيتي»[(١)]. وقيل: إنه موقوف على ابن عباس، والمراد به العمران من الأرض، فإن الخراب مفاوز ومهالك وقفار وبحار.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: ملك الأرض من الجنّ والإنس ثمانية: ثلاثة من الجن وخمسة من الإنس، فمن الجن طَهْمُورُث وكَيَوْمَرث وأوشنج، ومن الإنس جمشاد من ولد قابيل، كان يقطع الدنيا في يوم كما تقطعها الشمس، ونمرود وبيوراسب، وهو الضحاك، والإسكندر وسليمان.

قلت: وقد وهم ابنُ المنادي فإن كَيَوْمَرث وطَهْمُورُث وأوشنج من ولد آدم، حتى إن طائفة تزعم أن كَيَوْمَرث هو آدم. ولم يوافق ابن المنادي أحدٌ على أن هؤلاء الثلاثة من الجنّ.

وأما ما ذكره عن جمشاد ففي غاية البعد، والعقولُ السليمةُ تأباه، ولا خلاف بين علماء السير أن الله طرد ولدَ قابيل إلى جبال الهند ولعنهم، ولم يكن في نسل قابيل ملكٌ ولا رئيس، وأنهم هلكوا في زمان الطوفان، لما نذكر، والاعتماد في هذا الباب على ما روينا عن ابن عباس.



(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٨٩ موقوفاً على معاوية. ولم أقف عليه من حديث ابن عباس ﷺ. وانظر المنتظم ١/ ١٧١، وكنز الدرر ١/ ٢٣١.

فصل
في ذكر من تحتها من السكان، وهل هو ريح أو جماد أو حيوان[١]

روى السُّدي عن أشياخه: أنَّ لكلِّ أرض سكاناً، فسكان الأرض الثانية: الريح العقيم، وهي التي أهلكت قوم عاد، وسكان الثالثة: حجارةُ جهنَّم التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[البقرة: ٢٤]، وفي الرابعة: كبريت جهنَّم، وفي الخامسة: حيَّات جهنم، وفي السادسة: عقاربها، كالبغال الدُّهم وأذنابها مثل الرماح، وسكان السابعة: إبليسُ وجنوده.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: في كلِّ أرض آدم كآدمكم[٢].

وهذا القول بعيد[٣] لم يرد به خبر ولا أثر، وإنما هو آدم واحد، وهو أبو البشر، وقد أخذ على أبي العلاء المعري قوله[٤]: [الطويل]

وما آدمٌ في مَذهَبِ العَقْلِ واحدٌ ... ولكنَّه عندَ القِياسِ أَوادِمُ

ومذهبُ الأوائل أن الأرض على صفةٍ واحدة كالمُحَّة في البيضة، وإنما تختلف أجناسها، وليس تحتها سوى الماء.



(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٦٨.
(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٩٣، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وقال البيهقي (كما في فتح الباري ٩/ ٤٧٦): إسناده صحيح، إلا أنه شاذ بمرة.
(٣) في (ب): «ضعيف».
(٤) البيت في «لزوم ما لا يلزم» ٣/ ١٣٨٨.

فصل
في ذكر النار، التي أعدّها الله للفجار[١]

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: كنَّا جلوساً عند النبي ﷺ فسمعنا وَجْبَة، فقال رسول الله ﷺ: ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حَجَرٌ أُرسِل في جهنَّم سبعينَ خريفاً والآن انتهى إلى قَعْرِها». انفرد بإخراجه مسلم[٢].

الوَجْبَة: السقطة مع هَدَّةٍ. وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ النارَ في الأرض، وقد نص عليه ابن سلام، وقال: كذا هو في التوراة، فإن قيل: ففي حديثِ المعراج أن النبي ﷺ رآها تلك الليلة في السماء[٣]، فالجواب أنه ﷺ قال: ورأيت الجنةَ والنار، ولم يقل: رأيتُ النار في السماء.

وأنبأنا جدي بإسناده عن قتادة ـ وفي رواية ابن أبي الدنيا: عن شعبة ـ قال: أخبرني من رأى عبادةَ بن الصامت على حائط بيت المقدس الشرقيِّ يبكي ويقول: من ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّه رأى جهنَّم ليلةَ المعراج، قال: ولذلك سمي وادي جهنم[٤].

ويحتمل أن الله تعالى أراه إياها في تلك الليلة كما جلَّى له بيتَ المقدس، وذلك أبلغُ في إظهار القدرة، ولأنَّ النارَ حبس، والحبسُ يكون في جهة السفل، بخلافِ الجنة لأنها بستان، والبستان يكون في جهة العلوِّ.

روى مجاهد عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾[الحجر: ٤٤] قال: هي دركاتٌ بعضها فوق بعض، فأولها جهنم، ثم لظى، ثم الحُطَمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية[٥].

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٦٥.

(٢) أحمد في «مسنده» (٨٨٣٩)، ومسلم (٢٨٤٤).

(٣) الحديث أخرجه أحمد في «مسنده»(٢٣٢٨٥) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ، وانظر تفصيل الكلام على مكان جهنم في كتاب «التخويف من النار» لابن رجب، باب في ذكر مكان جهنم ص٦٢-٦٨، وانظر المنتظم ١/ ١٨١.

(٤) «فضائل بيت المقدس» ص١٢٠-١٢١.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٤/ ٣٥ من حديث ابن جريج.

قلت: قرأت على شيخنا أبي اليُمن زيد بن الحسن الكندي رحمه الله تعالى: قال قرأت على شيخنا أبي منصور بن الجواليقي قال: اشتقاق جهنم من قول العرب: ركيَّةٌ جِهنَّام ـ بكسر الجيم ـ إذا كانت بعيدةَ القعر[(١)]. وكذا قال في «الصحاح»: جهنم اسمٌ من أسماء النار التي يعذب الله تعالى بها عباده.

وأما لظى، فقال الجوهري: هي اسم من أسماء النار، وأصلها من التلهب.

وأما الحُطَمَة، فمن الحَطْم، وهو الكسر، لأنها تحطِمُ ما يُلْقَى فيها.

وأما السعير، فمن التسعُّر، وهو التوقد.

وأما سقر، فمن البعد، ومُصْمَقِرّ[(٢)]: شديد الحر.

وأما الجحيم، فقال الجوهري: كلُّ نارٍ عظيمة في مهواةٍ فهي جحيم، من قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧﴾[الصافات: ٩٧]، والجاحم: المكانُ الشديدُ الحرِّ.

قال الجوهري: وأما الهاوية، فإنما يقال: هاوية بغير ألف ولام، قال الله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[القارعة: ٩] أي: مستقرَّةٌ في النار، قال: والنار تجمع الكل[(٣)].

وقد جاءت في ذكر النار أحاديث:

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نارُكُم هذه ما يُوقِدُ بَنو آدَمَ جُزءٌ واحدٌ من سبعينَ جُزءاً مِن حرِّ جَهَنَّم» قالوا: يا رسول الله، والله إنَّها لكافية، فقال: «إنَّها فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وسِتينَ جُزءاً كُلُّهنَّ مِثلُ حرِّها». أخرجاه في الصحيحين أيضاً بهذا الإسناد[(٤)].

---

(١) «المعرب» ص١٥٥.

(٢) في (ل): ومصقر، وجاء في (ب) مكانها بياض، والمثبت من الصحاح (سقر).

(٣) «الصحاح»: (جهنم، لظى، حطم، جحم، هوي).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨١٢٦)، ومسلم (٢٨٤٣) من طريق عبد الرزاق، عن معمر عن همام بن منبه، عن أبي هريرة.

وأخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)، وأحمد (٧٣٢٧) من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، ولفظ أحمد: «إن ناركم هي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد».

[وفي الصحيحين أيضاً]عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «اشتكَت النَّارُ إلى ربِّها فقالت: يارِبِّ، أكلَ بعضي بَعْضاً فَنَفِّسني، فأَذِنَ لها أن تَتنفَّس نَفَسين: نَفَساً في الشِّتاءِ ونَفَساً في الصَّيفِ، فأشدُّ ما تَجدُون من الحرِّ فمن حرِّ جَهَنَّم، وأشدُّ ما تجدونَ من البَرْد فمن زَمْهَرِيرِها[1]». في أخبار كثيرة.

قال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو اليمان بإسناده عن أنس عن النبيِّ ﷺ أنه قال لجبريل: «مَالي لم أَرَ مِيكَائيلَ ضَاحِكاً قطُّ، فقال: مُنذ خَلَق الله النَّارَ لم يَضْحكْ»، أخرجه أحمد في «المسند»[2].

وقال أحمد: حدثنا أبو عبدالرحمن بإسناده عن عبدالله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال عند ذكر النار: «أهلُ النَّارِ كلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُستَكبِرٍ جَمَّاع مَنَّاع[3]».

الجَعْظَري: الفظُّ الغليظ، ذكره الجوهري، وقال: قال ابن السكيت: يقال للرجل إذا كان قصيراً غليظاً: جِعْظارة، بكسر الجيم[4]. والجوَّاظ: الجَمُوع المَنُوع، وقال الجوهري: الجظ: الرجل الضخم، قال: وفي الحديث: «أهل النارِ كلّ جظٍّ مستكبر» قال: وكذا الجعظ[5].

فصل

ومذهب أهل الحقّ أن النار مخلوقة، وقالت المعتزلة والجهمية: لم تُخلق بعدُ، لأنها دارُ تعذيبٍ وجزاء، وليس هذا وقته. ولنا قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤] والمُعَدُّ ما يكونُ موجوداً، وما ذكره فنقول: جهنم حبسُ العصاةِ، فوجودها أبلغُ في الزجر من عدمها، وعلى هذا الخلاف الجنة، لما نذكر.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧). وما بين معقوفين زيادة من «كنز الدرر» ١/ ٢٦٧.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٣٤٣).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٥٨٠).

(٤) «الصحاح»: (جعظر).

(٥) «الصحاح»: (جظظ) و(جعظ).

فصل
في خلق الجن والشياطين وأصلهم إبليس اللعين

قال علماء اللغة: أصل الجن من الاستتار، ومنه: الجنين، لأنه مستتر في بطن أمه.

وقال الجوهري: إنما سموا بذلك لأنهم لا يُرون[١]. قال الجوهري[٢] أيضاً: الشيطان كلُّ عاتٍ متجبر من الجنِّ والإنس والدواب، ومَن بَعُدَ غَورُهُ في الشرِّ.

واختلفوا في اشتقاقه على قولين، أحدهما: مِنْ شَطَنَ، أي: بَعُدَ عن الخير. والقول الثاني: أنه من شاط يشيط إذا احترق، ومنه شاطت القِدر.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِق الجانُّ من مارجٍ من نار»[٣].

وقد فسَّره ابن عباس فقال: المارجُ هو لسانُ النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت[٤].

وقال الجوهري: المارجُ نارٌ لا دخانَ لها خُلِقَ منها الشيطان[٥].

واختلفت الرواية عن ابن عباس: هل الجانُّ إبليس أم غيره؟

فروى عنه عكرمة أنه قال: إبليس أصل الجانِّ والشياطين، وهو أبو الكلِّ.

وروى مجاهد عنه أنه قال: الجانُّ اسمه سُومان، وهو أبو الجنِّ كلِّهم كما أن آدم أبو البشر.

وروى سعيد بن جبير عنه أنه قال: هذا الفن خمسة أنواع: جانٌّ، وجنٌّ، وشيطان، وعفريت، ومارد، وأضعفها الجانُّ وهو مسيخ الجنِّ، كما أن القردة والخنازير مسيخ الإنس، وأقواها المارد[٦].

---

(١) «الصحاح»: (جنن).

(٢) في (ل): وأما الشيطان فقال الجوهري. وانظر «الصحاح»: (شطن).

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٥١٩٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٧/ ١٢٦.

(٥) «الصحاح»: (مرج).

(٦) جاء بعدها في (ب): «وأضعفها الجن».

وقال الحسن البصريّ: الشياطين أولاد إبليس، لا يموتون إلا معه، والجنّ يموتون قبله.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: خلق الله الجانَّ قبل آدم بألفي سنة. وقد روي مرفوعاً والموقوف أصح.

وحكى السدي عن أشياخه قالوا: في الجنِّ: المؤمن والكافرُ والقدريةُ والمعتزلة والجهمية والشيعة وجميع الفرق.

وحكى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: هم على أصناف، على صور الحياتِ والعقارب والأُسد والذئاب والثعالب ونحوها.

وقال الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتلوا الأسودين ولو كنتم في الصلاة: الحيةَ والعقرب». ورواه أبو داود، وفيه: أمر رسول الله ﷺ بقتلهما[١].

قلت: وعامة العلماء على جواز قتل الحية والعقرب في الصلاة، وكرهه إبراهيم النخعي لأنه عمل كثير، وقد روي أن النبي ﷺ أمر بأن يُؤْذَنوا قبل قتلهم، فقال عبدالله ابن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن جرير بن عبدالله قال: أمر رسول الله ﷺ أصحابه إذا ظهروا في مكان أن يُؤذَنوا بالانصراف قبل قتلهم[٢]. يقال: خلِّ الطريق ومرَّ بإذن الله، يعني إذا تصور الجنُّ في صورة الحيّات والعقارب.

وقال ابن أبي ليلى: الحية البيضاء التي تمشي مستويةً هي الجانُّ، فتلك التي تُنذر قبل قتلها، أما غيرها فلا تنذر بل تقتل.

قال أبو جعفر الطحاوي: والمختار عند أصحابنا: قتل الجميع بغير إنذار، لحديث أبي هريرة الذي روينا، فإنه مطلق في حقِّ الكلّ، قال: لأنه بلغنا أنَّ النبي ﷺ عهد ليلةَ

(١) الترمذي (٣٩٠)، وأبو داود (٩٢١)، وهو عند أحمد في «مسنده» (٧١٧٨).

(٢) حديث إيذان حيات البيوت قبل قتلهن ليس هو من حديث جرير بن عبدالله، ولم نقف عليه في «مسند أحمد»، والحديث مروي عن أبي سعيد الخدري عند مسلم (٢٢٣٦) مطولاً وفيه قصة، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن بالمدينة جناً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان». وأخرجه أيضاً أحمد في «مسنده»(١١٣٦٩).

الجنّ وأكد عليهم العهودَ والمواثيقَ أنهم لا يدخلون بيوتَ أمَّته ولا يظهرون، فإن ظهروا قُتلوا، فإذا ظهروا فقد نقضوا العهدَ فيجب قتلهم. ولكن الأولى هو الإنذار عملاً بالروايات كلها، فإن لم يرجع قتله.

وروى عروة أن عائشة ﵂ قتلت حيّةً فأُتيتْ في منامها فقيل لها: أقتلتِ مسلماً؟ فقالت: لو كان مسلماً لما دخل بيوتَ أزواج رسول الله ﷺ، فقيل لها: هل كان يدخلُ عليكِ إلّا وعليكِ ثيابك؟ فأصبحتْ فزعة، فتصدقت باثني عشر ألفاً[1].

وروى مجاهد عن ابن عباس: أن الكلابَ من ضعفاء الجن، وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»، انفرد بإخراجه مسلم[2]، وفيه: الكلب الأسود البهيم.

وبهذا الحديث يحتجُّ أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه: أنّ الكلبَ الأسود البهيم يقطعُ الصلاة، وهو قول أهل الظاهر.

وروي عن أحمد أنه قال: الذي لا أشك فيه أن الكلب البهيم يقطعُ الصلاة، ويروى عن معاذ وطاووس ومجاهد، قال أحمد: وفي نفسي من المرأة والحمار شيء.

وعند أهل الظاهر يقطع الصلاةَ مرورُ الكل.

قلت: ومذهب أصحابنا ومالك والشافعي وعامة الفقهاء أنه لا يقطع الصلاةَ مرورُ شيء من ذلك، لقوله عليه السلام: «لا يقطعُ الصلاةَ مرورُ شيء»[3]، وحديث أبي ذرّ لا حجَّة فيه وقد بيَّنا هذا في «شرح البداية».

وقال الحسن البصري: الجن ثلاثة أصناف: صنف في البرِّ، وصنف في البحر، وصنف في الهواء.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: هم أربعون جيلاً، كلُّ جيل ست مئة ألف، وهم مأمورون ومنهيون.

---

(١) أورده ابن عبد البر في «الاستذكار» ٨/ ٥٢٦، وأبو الشيخ في العظمة (١٠٦٦).

(٢) أحمد «مسنده» (٢١٣٢٣)، ومسلم (٥١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٧١٩) من حديث أبي سعيد ﵁.

واختلفوا هل بعث فيهم نبيٌّ أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه بعث إليهم نبي اسمه يوسف، لقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[الأنعام:١٣٠] وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾[مريم:٦٨] فعلى هذا هم يُحشرون ويحاسبون.

والقول الثاني: أنه لم يبعثْ فيهم نبيٌّ وإنما كان فيهم النذر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[الأحقاف:٢٩]، قاله مجاهد. وقال الضحاك والكلبي: كانت الرسل قبل محمد ﷺ يبعثون إلى الإنس والجنِّ جميعاً.



فصل

في ذكر إبليس وجنوده، وأولاده وحشوده[(١)]

اختلفوا في اشتقاقه، قال علماء التفسير: اشتقاقه من الإبلاس وهو الإياس، وإبليس قد يئس من رحمة الله، قال الجوهري: يقال أَبْلَس فلان إذا سكت غمًّا.

واختلفوا في اسمه، فقال الجوهري: كان اسمه عزازيل[(٢)]. وهو قول ابن عباس، وروي عن ابن عباس أن اسمه: الحارث.

واختلفوا في كنيته على قولين: أحدهما: أبو مرة، والثاني: أبو الغمر.

واختلفوا هل كان من الملائكة أو من الجنِّ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان من الملائكة، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثاني: أنه كان من الشياطين، قاله الحسن البصري، قال: ولم يكن من الملائكة قط، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠].

الثالث: أنه لا من الملائكة ولا من الجن، بل هو خلقٌ مفردٌ خلقه الله تعالى من النارِ كما خلق آدمَ من الطين، قاله مقاتل[(٣)].

وقد رجَّحَ علماءُ التفسير قول ابنِ عباس أنه كان من الملائكة، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[البقرة: ٣٤ ، الكهف: ٥٠] وهذا استثناء متّصلٌ، فدلَّ على أنه منهم.

وأما قول الحسن: إنه كان من الجن، وما احتجَّ به من الآية فقد فسَّره ابن عباس وقال: أشرافُ الملائكةِ وأكرمهم يقال لهم: الجنُّ، لأنهم استتروا عن أعين الملائكة لشرفهم، وكان إبليس منهم، قال: وكان له سلطانُ السماءِ الدنيا وسلطانُ الأرض، وكان يسمَّى: طاووسَ الملائكةِ، وليس في سماء الدنيا مكانٌ إلا وقد سجد عليه، ولما عصتِ الجنُّ في الأرض بعثه الله في طائفةٍ من الملائكة فطردوهم إلى الجزائر وأطرافِ

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٢٤٤.

(٢) «الصحاح»: (بلس).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» ص٩٦. وانظر «تلبيس إبليس» ص٢٧.

الجبال فاغترَّ في نفسه، وقال: مَنْ مِثلي. ولم يسجد لآدم، فمسخه الله تعالى شيطاناً.

قلت: وظاهر الآيات يقتضي التعارض فينبغي التوقف، وقد قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢] وإذا كان مخلوقاً في الأصل من النار، فكيف يُخْلَقُ من النور، لأن الملائكة خُلِقوا من النور لما نذكر.

وذكر أبو جعفر الطبري(١): أن إبليس بُعِثَ حاكماً في الأرضِ، فقضى بين الجنِّ ألفَ سنة، ثم عرَج إلى السماء فأقام يتعبّد حتى خُلِقَ آدم.

وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجن الذين يعملون في الأرض بالفساد، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء.

وقال قتادة: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] خرج عن طاعته، والفسقُ الخروج، من قولهم: فسقتِ الرُّطَبة إذا خرجتْ من قشرها.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن ثابت البناني قال: بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى عليه السلام، فرأى عليه معاليقَ من كل شيء، فقال له: ويحكَ ما هذه المعاليق؟ فقال: الشهواتُ التي أُصيبُ بها بني آدم، قال: فهل لي فيها من شيء؟ قال: ربما شبعتَ فتثقلُ عن الصلاة وتُغْلَبُ على الذكر، فقال يحيى: فللّه عليَّ أن لا أملأَ بطني من طعام أبداً. فقال إبليس: ولله عليَّ أن لا أنصحَ مسلماً أبداً(٢).

وبه، قال ابن عباس: قال: كان إبليس يأتي يحيى بن زكريا طمعاً أن يفتنه، وعرف ذلك يحيى منه، وكان يأتيه في صور شتَّى، فقال له: أحبُّ أن تأتيني في صورتك التي أنت عليها، فأتاه عليها فإذا هو مشوَّه الخلق كريهُ المنظر، جسدُهُ جسدُ خنزير، ووجههُ وجهُ قرد، وعيناه مشقوقتان طولاً، وأسنانُه كلُّها عظمٌ واحد، وليس له لحية، ويداه في منكبيه، وله يدان أخريان في جانبيه، وأصابعه حلقة(٣) واحدة، وعليه لباس المجوسِ واليهود والنصارى، وفي وسطه مِنْطَقةٌ من جلودِ السباع فيها كيزان معلَّقة، وعليه جلاجل، وفي يده(٤) جرسٌ عظيم، وعلى رأسه بَيْضةٌ من حديد معوجة كالخُطَّاف،

---

(١) في تاريخه ١/ ٨٨، وانظر ١/ ٧٩ ـ٨٨، والمنتظم ١/ ١٧٦ ـ١٧٩، وكنز الدرر ١/ ٢٤٤ فما بعدها.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩، وانظر تلبيس إبليس ٢٧.

(٣) في (ل) و(ب): يدان أخراواتان . . . . خلقه، والمثبت من (ط).

(٤) في (ب): «وسطه».

فقال يحيى: ويحك ما الذي شوَّه خلقتك؟ فقال: كنتُ طاووس الملائكة فعصيتُ الله فمسخني في أخسِّ صورة، وهي ما ترى، قال: فما هذه الكيزان؟ فقال: شهوات بني آدم، قال: فما هذا الجرس؟ قال: صوت المعازف والنوح، قال: فما هذه الخطاطيف؟ قال: أخطف[١] بها عقولهم، قال: فأين تسكن؟ قال: في صدورهم وأجري في عروقهم[٢]، قال: فما الذي يعصمهم منك؟ قال: بغضُ الدنيا وحب الآخرة[٣].

وقال جدي رحمه الله بإسناده إلى عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءَ رجلٌ أقبحُ الناسِ وجهاً وثياباً وأنتنهم ريحاً، حافياً يتخطَّى رقابَ الناس، فجلس بين يدي النبي ﷺ فقال: مَنْ خلقك؟ قال: «اللهُ»، قال: فمن خلق السماء والأرض؟ قال: «اللهُ»، قال: فمن خلق الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا إبْليسُ جَاء يُشكككم في دينكم»[٤]، قال جدّي: هذا حديث لا أصلَ له، وفي إسناده عبدالله ابن جعفر، ضعيفٌ يتهم في الأحاديث.

وروي عن أبي الحسين ابن المنادي قال: يجيء الشيطان الذي يقال له: القَرْقَفَنَّة[٥] في صورة طائر، وفي رواية: يجيء الشيطان في صورة طائر يقال له: القَرْقَفَنَّة، فيخفق بجناحيه على عينِ الرجل الذي يقرّ أهله على الفاحشة فلا يُنكرها بعد ذلك.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن جابرِ بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «يَضعُ إبليسُ عَرشَهُ على الماءِ، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهُم عنده مَنزلةً أعظَمُهم فِتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعْتَ شيئاً، ويجيء أحدُهم فيقولُ: ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينَه وبينَ أهلِه، فيُدْنيه منه ويلتزمُه ويقول: نعمْ، أنْتَ أنْتَ» انفرد بإخراجه مسلم[٦].

وذكر عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه عن ابن مسعود: إن الشيطان إذا طاف بأهل

---

(١) في (ب): وأختطف.

(٢) في (ب): «عقولهم».

(٣) انظر «عمدة القاري» ١٥/ ١٦٨.

(٤) «العلل المتناهية» (١).

(٥) في (ل) و(ب): «القرقية»، والمثبت من «النهاية في غريب الحديث» ٢/ ٤٦٥ ومصادر اللغة.

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده»(١٤٣٧٧)، ومسلم (٢٨١٣)(٦٧).

مجلسِ ذِكرٍ ليفتِنَهم فلم يقدرْ على التفرقةِ بينهم، فأغرى بين مجلس آخر فاقتتلوا، فقام أهل الذكر فحجزوا بينهم حتى تفرقوا(١).

وذكر عبدالله أيضاً عن قتادة قال: إن لإبليس شيطاناً يقال له: قبقب، يجمّه أربعين سنة، فإذا دخل الغلامُ في هذه الطرق قال له: دونك وإيّاه، فإنما أجممتك لمثل هذا، أَجْلبْ عليه وافتنه(٢).

وقال أحمد بإسناده عن أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قال: أوّلُ من يُكْسَى حلةً من النَّار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويَسحبُها من خلفِه، وذريتُه من بَعدِه، وهو يُنادي يا ثُبُوراه، وينادون: يا ثُبورَهم، حتى يقفُوا على النَّارِ فيقول: يا ثُبُورَه، ويقولون: يا ثُبُورَهم، فيقالُ لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾[الفرقان: ١٤] أخرجه أحمد في «المسند»(٣)، والثُّبُور: الهلاك والخسران.

وقال أحمد بإسناده عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشَّيطانَ قد يَئِسَ أنْ يَعْبُدَه المُصَلُّونَ، ولكنْ في التَّحريشِ بَينَهم» انفرد بإخراجه مسلم(٤). ولمسلم، عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أَذَّنَ المؤذِّنُ هَرَبَ الشَّيطانُ حتى يكونَ بالرَّوْحاءِ» من المدينةِ ثلاثونَ ميلاً(٥).

فصل في ذكر أولاده

قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[الكهف: ٥٠].

وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: بلغنا أن لإبليسَ أولاداً كثيرين، واعتماده على خمسةٍ منهم: ثَبْر والأعور ومِسْوَط وداسم وزَلَنْبُور.

وقال مقاتل: لإبليس ألفُ ولدٍ، ينكح نفسه ويلدُ ويبيضُ كلَّ يوم ما أراد(٦).

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص١٩٦.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» ص١٧٦-١٧٧، و«تلبيس إبليس» ص٢٧ من طريق عبدالله بن أحمد.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٥٣٦).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٣٦٦)، ومسلم (٢٨١٢).

(٥) صحيح مسلم (٣٨٨).

(٦) قال ابن الجوزي في المنتظم ١/ ١٧٩: وهذا من أبعد الأقوال.

وقال كعب الأحبار: ومِن أولاده المُذْهَب وخَنْزَب وهفاف ومُرَّة والولهان والمتقاضي.

فأما ثَبْر: فصاحب المصائب، يأمر بلطم الخدود وشقِّ الجيوب ودعوى الجاهلية.

وأما الأعوَر: فصاحب الزنا يُزينه إلى الذكور والإناث.

وأما مِسْوَط: فصاحب الكذب والنميمة.

وأما داسِم: فيري الرجلَ عيوبَ أهله فيبغِّضهم إليه.

وأما زَلَنْبُور: فيركز رايته في الأسواق ويأمرهم بالتطفيف والخيانة.

وأما المُذْهَب: فموكل بالعلماء يردُّهم إلى البدع.

وخَنْزَب: موكَّلٌ بالمصلين يلقي عليهم النوم والسبات، وقد روي في خَنْزَب حديث فقال أحمد بإسناده إلى أبي العلاء بن الشخِّير، أن عثمان بن أبي العاصي الثقفي قال: يا رسولَ الله، حالَ الشَّيطانُ بَيْني وبينَ صَلاتي وبينَ قراءتي، قال: «ذاك الشَّيطانُ يقالُ له: خَنْزَب، فإذا أَحْسَسْته فتعوَّذْ بالله منه، واتفُلْ على يَسارِكَ ثلاثاً» قال: ففعلتُ ذلك فأذهبه الله عني. انفرد بإخراجه مسلم(١).

وهفاف: صاحب الخمرة.

ومُرَّةُ: صاحب اللواط.

والولهان: يوسوس في الوضوء، وقد ورد فيه حديث، قال الترمذي بإسناده عن أبيِّ بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ للوُضُوءِ شَيطاناً يُقال له: الوَلْهان، فهو وَسْواسُ الماءِ» إلا أن هذا الحديث فيه مقال، قال الترمذي: هذا الحديثُ ليس بالقويّ، لا نعلم أحداً أسنده غير خارجة بن مصعب، وخارجةُ ليس بالقويّ عند أصحابنا(٢).

وذكره جدي رحمه الله في «الواهية(٣)».

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٨٩٧)، ومسلم (٢٢٠٣).

(٢) الترمذي (٥٧)، وفيه: «فاتقوا وسواس الماء».

(٣) «العلل المتناهية» (٥٦٧).

وأما المتقاضي: فإن الإنسانَ إذا عمل عملاً في السرِّ تقاضاه حتى يتحدث به في العلانية.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: أول دينار وجد في الأرض أخذه إبليس وقبَّله ووضعه على عينيه، وقال: أنت قرة عيني وثمرة فؤادي، لا أبالي بابن آدم، إذا أحبَّك هو عبدي حقاً. وقد رواه عكرمة عن ابن عباس وقال فيه: فوضع الدينار في يده اليمنى والدرهمَ في اليسرى وقال: سمَّيتكما نَجيحاً ومُنْجِحاً.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن عبدالعزيز بن رفيع قال: بلغني أنه إذا عُرِجَ بروح المؤمن إلى السماء تقول الملائكة: سبحان الله مَن نجَّى هذا العبدَ من الشيطان؟ أو: يا ويحه كيف نجا[1]؟.

حدثنا أبو اليمن الكندي بإسناده عن الحسن قال: جاء إبليس إلى حكيم فقال له: ويحك لِمَ تُضِلُّ الناس؟ فقال له: إلى ها هنا انتهتْ حكمتك؟ وهل أقدرُ على إضلال من خلقه الله سعيداً؟ قال فبينما هو يحدثه إذ مرّت امرأة بيدها جرَّةُ عسل، فوقعت فانكسرت، فجلس الناسُ يلعقونَ العسلَ ويلعنون إبليس، فقال إبليس للحكيم: انظر إلى جهلهم يأكلون العسل ويلعنونني، فإن نسبوه إلى فعلي كفروا حيث جعلوا الحكم لي، وإن كان فعلَ الله فما ذنبي؟

وبه: قال الحسن: كان عابدٌ في بني إسرائيل جليل القدر في زمان عيسى عليه السلام، وكان مجتهداً في العبادة، فاجتهد إبليس أن يفتنهُ فلم يقدر عليه، فجاءه في ليلة كثيرةِ المطر والثلج، فوقف تحت صومعته وناداهُ يا راهبُ، فقال: من أنت؟ فقال: عيسى بن مريم، افتحْ لي، ما ترى هذا البرد؟! فقال: لا حاجةَ لي بلقائك، إنك أمرتنا أن نعبدَ الله وحده ونبالغَ في العبادة وإن موعدنا يوم القيامة، فاذهبْ فلا تشغلني عن العبادة، ولم يفتح له.

وسنذكر من أخبار إبليس طرفاً في قصة آدم عليه السلام، إن شاء الله تعالى.



(١) الزهد ص٢١٠.

فصل
في خلق السماوات والآثار العلويات(١)

أظهر الله سبحانه في السماء دلائل على ربوبيته ووسائل إلى قدرته:

منها: أنه جعلها سقفاً مرفوعاً لتكونَ ظلَّا.

ومنها: أنها بغير عمد تحتها ولا علاقة فوقها.

ومنها: سعتها والنفع بزيادة التصرف فيها وكونها زينةً للناظرين.

ومنها: استواؤها ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك ٣-٤] بالنظر والاستدلال، وقيل: بالنزهة والاعتبار.

ومنها: لونُها الذي لم يتغير على مرورِ الزمان وتقلُّبِ الحَدَثان، ثم هو أحسنُ الألوان، وأقوى للبصر، وأحدُّ للنظر، والأطباءُ إنما يأمرون بإدمان النظر إلى الخضرة ليقوى البصر. وقيل: هي بيضاء ولكنْ مِن بُعدِها تُرى خضراء.

ومنها: إمساكها بيد القدرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

ومنها: أنها ظلٌّ لبني آدم لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾[الطور: ٥].

ومنها: أن الخلقَ يضعونَ الأساسَ أوَّلاً ثم السقفَ بعد ذلك، والله تعالى أفعاله خلاف أفعالِ العباد.

ومنها: أن بناءَ أهلِ الدنيا تحته أوسعُ من الفوق، وبناءُ الله على ضدِّه.

ومنها: أن بناءَ الخلقِ ينهدمُ على طول الأيام، وبناءُ الله تعالى لا ينهدم ولا يتغير ولا يسقط منه شيء.

إذا عرفنا هذا قلنا: قال الجوهري: كل ما علاك فأظلَّك فهو سماء، ومنه قيل: لسقف البيت سماء، ويقال للسحاب: سماء، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾[ق: ٩] ويسمَّى المطرُ: سماء، قال الشاعر:

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٣٠.

إذا نـــزلَ الـــســـمـــاءُ بـــأرضِ قـــومٍ رَعَـيـنـاهُ وإنْ كـانُـوا غِـضَـابـا

هذا كلام الجوهري(١).

وقال الفراء والزجَّاج: لفظُ السماواتِ واحدٌ ومعناه الجمع، بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾(٢) [البقرة: ٢٩].

وقال أبو حنيفة أحمد بن داود الدِّينوري في «كتاب الأنواء» في السماوات: قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾[الذاريات: ٤٧] وقال في موضع آخر: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨] قلت: وما ذكروه من معنى السموّ والارتفاع والمطر وغيره فإنما هو مجاز، أما الحقيقة، فيرادُ به السماءُ المعروفة.

وقد ورد في السماء أخبارٌ وآثار:

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي ذرٍّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي أرى ما لا تَرَوْن، وأسمعُ ما لا تَسْمَعون: أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أنْ تَئِطَّ، ما فيها مَوضعُ أربعِ أصابعَ إلا وعليه مَلَكٌ ساجدٌ»(٣).

قال الجوهري: الأطيط: صوتُ الرَّحْلِ والإبل من ثِقَل أحمالها(٤).

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أراد الله خَلْقَ المخلوقات خلق الماء فثار منه دخانٌ، فارتفع فخَلَقَ منه السماء وجعلها سماءً واحدةً، ثم فتقها فجعلها سبعاً ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] أي ما قَدَّرَ أنْ يكونَ فيها من الملائكة والنجوم وغير ذلك.

وروى عنه عكرمة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] قال: الفروج: الشقوق وكذا الفطور، قال عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود(٥):

---

(١) «الصحاح»: (سما)، والبيت لمعاوية بن مالك، وانظر «المفضليات» ص٣٥٩.

(٢) انظر «معاني القرآن» للزجاج ١/ ١٠٧.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٥١٦).

(٤) «الصحاح»: (أطط).

(٥) البيت في «الأغاني» ٩/ ١٥١.

شَقَقْتِ القلبَ ثم ذَرَرْتِ فيه هواكِ فَلِيمَ فالْتَام الفطورُ

وقال الربيع بن أنس: السماءُ الأولى من مَوج مكفوف، والثانية من صخرة، والثالثة من حديد، والرابعةُ من صُفْر أو نحاس، والخامسةُ من ذهب، والسادسة من فضة، والسابعة من الياقوت الأحمر(١).

وروى الوالبيُّ عن ابن عباس قال: الأولى من زمردة خضراء، والثانية من فضة، والثالثة من ذهب، والرابعة من لؤلؤ، والخامسة من الياقوت، والسادسة من المرجان، والسابعة من النور. قال: وأما سماءُ الدنيا فهي الرقيع، وقال أبو حنيفة الدِّينَوري: الرقيعُ اسمُ علمٍ للسماء، وفي الحديث: «من سبعة أرقعة»(٢).

وقال مقاتل: والثانية ركماء، والثالثة جوفاء، والرابعة طرفة، والخامسة أدماء، والسادسة عروبين، والسابعة عروباً.

فصل في أبوابها

روي عن ابن عباس أنه قال: لها أبوابٌ كثيرةٌ منها بابُ المطر، ومن قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾[القمر: ١١]، وباب الرزق ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾[فاطر: ٢]، وباب النزول ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[فصلت: ٣٠] وباب الوحي ﴿بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾[النحل: ٢]، وباب صعود الأعمال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠].

وحكى جدّي في «كتاب التبصرة» وقال: قال أبو الحسين ابن المنادي: لا خلاف بين العلماء أن السماءَ على الأرض مثل القبة، وأن العالَمَ مثل الكرة، وأنها تدور بما فيه من الكواكب على قطبين ثابتين غير متحركين، أحدهما في ناحية الشمال، والآخر في ناحية الجنوب مطلعَ سهيل، وأن كرةَ الأرضِ مثبتةٌ وسط كرة السماء كالنقطة من

(١) انظر «المنتظم» ١/ ١٨٣، و«التبصرة» ٢/ ١٧٣.

(٢) هو قطعة من حديث حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٠ من حديث علقمة بن وقاص الليثي، وأصل القصة عند البخاري (٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨)، وانظر «مسند» أحمد (١١١٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري. وسيذكر المصنف الخبر في السنة الخامسة للهجرة.

الدائرة، إلى ها هنا ذكر جدي(١).

ورأيت في كتاب ابن المنادي تمامَ هذا الفصل قال: والأرضُ على نَمَطٍ واحدٍ من جميع الجهات، والأفلاكُ تدورُ على محورين وقطبين ثابتين، ومَن كان مسكنه وسط الأرض عند استواء ساعات الليل والنهار رأى المحورين والقطبين، ومَن كان في بلاد الشمال يرى القطبَ الشمالي، ومَن كان في بلاد الجنوب يرى القطبَ الجنوبيَّ(٢).

وقال جالينوس: العالم شبه البيضة، والسماءُ موضعُ القشر، والهواء موضع البياض، والأرض موضع المُحِّ.

فصل

واختلفوا هل الأفلاك هي السماوات أم هي غيرها؟ على قولين: أما مذهبُ الأوائل فإنها هي بعينها، وأما مذهب المتشرعين(٣) فهي غيرها، وقد رواه العوفي عن ابن عباس واحتج بقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال في آية أخرى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[الأنبياء: ٣٣].

وسمِّي الفلَكُ فَلَكاً لاستدارته، ومنه: فَلْكة المغزل، بفتح الفاء لاستدارتها، وأما الفُلْكُ ـ بالضم ـ فالسفينة، قال الله تعالى: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[الشعراء: ١١٩].

وقال قوم بأنَّ الفَلَكَ هو القطبُ، وليس بشيء، لأن القطبَ لا يزولُ ولا يتغير كما لا يزول قطب الرحى.

فصل

ومذهب جملة المسلمين أنَّ السمواتِ سبع، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[الطلاق: ١٢].

ومذهب الأوائل والمنجمين أنها تسعة أفلاك، فأولها أقربُها إلى الأرض وهو

---

(١) «التبصرة» ٢/ ١٧٣.

(٢) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ٣٣: «قال الجوهري: والمحور العود الذي تدور عليه البكرة، وربما كان من حديد، وسنذكر القطب والجدي في موضعه» وانظر «الصحاح»: (حور).

(٣) في (ل): «المشرعين».

أصغرها وهو فَلك القمر، ثم الذي يليه فلَك عُطارد، ثم فَلك الزُّهرة، ثم فلَك الشمس، ثم فَلك المِرِّيخ، ثم فلَك المُشْتَري، ثم فلَك زُحَل وهو السابع، والثامن فلك البروج وفيه سائر الكواكب الثابتة، والتاسع الفلك الأعظم الحاكم على جميع الأفلاك وله أسام منها: الأثير، لأنه يؤثِّر في غيره وغيرُهُ لا يؤثِّر فيه، ومنها: القسريُّ، لأنه يدير الأفلاك دورةً قسرية في كلِّ يوم وليلة دورةً واحدة، ومنها: فلك الاستواء، ومنها: المستقيم، ومنها: الأطلس، ويزعمون أنه ليس وراءَهُ شيءٌ ولا فيه كوكب ولا غيره، ويدير الأفلاك على القطبين الثابتين الذين ذكرناهما، قالوا: وبينه وبين الأرض خمسون ألف سنة، ويسمى المحيطَ أيضاً، لأنه يُحيط بكلِّ شيء ولا يحيط به شيء.

قال بَطْلَيْمُوس: وهو أخفُّ الأفلاكِ وأضوؤها، لأنه منها في جوهره كذلك، ولهذا ارتفع على الكل، قال: والذي من دونه يقال له: فلك البروج، وفلك الأفلاك، لأنه يدور بأفلاك الكواكب، ثم دونه أفلاكُ الكواكب السبعة.

ومنهم من يقول: هي أفلاكٌ كثيرة[1]، وهذه الأفلاك من طبيعةٍ أخرى بخلاف الطبائع الأربع التي بدون فلك القمر من النار والهواء والتراب والماء، لأنها لو كانت من هذه لزمها ما يلزم هذه من الكون والفساد والاستحالة والزيادة والنقصان، فالفلك وما فيه طبيعةٌ خامسة ولم يخبروا عن ماهيَّتها بأكثر من هذا.

وقال بَطْلَيْمُوس أيضاً: صورة الفلك وهيئات بروجه على مثال البطيخة المخططة، أعلاها وأسفلها كالنقطتين، وكلُّ بيتٍ بين خطين بمنزلة البرج، واتساقُ بروجه على مثال اتساقِ بيوتها وخطوطها.

وقال أفلاطن: الأفلاكُ كهيئة الأُكَرِ، بعضُها فوقَ بعض، والفلك التاسع محيطٌ بجميع الطبائع والمخلوقات، وليس فيه كوكب، وهو يدير الكلَّ من المشرق إلى المغرب كل يوم وليلة دورة واحدة، والأفلاكُ الثمانيةُ تدورُ من المغربِ إلى المشرقِ. وشبَّهوا ذلك بسفينةٍ تجري مع الماءِ وفيها رَجُلٌ يمشي مُصْعِداً. ولهم في هذا بحث طويل.

---

(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ٣٤: «ومنهم من قال: إن الفلك حي مميز بجميع ما فيه، ذو صورة وكذلك جميع ما فيه بهذه المنزلة».

واستدلوا أيضاً على ذلك بأنّ الشمسَ والقمر يدوران في اليوم والليلة دورةً واحدةً، قال: والبروجُ نصفُ سُدْسِ الفلك، وفلكُ البروج وما فيه من الكواكب يدور على القطبين اللذين ذكرنا غير قطبي الفلك الأعظم، وعرضُ الأرضِ من القطبِ الشمالي إلى القطبِ الجنوبي الذي هو مطلع سهيل في موضع خط الاستواء ثلاث مئة وستون درجة فيكون الجملة تسعة آلاف فرسخ.

قلت: وينبغي أن يكون هذا على وجه التقريب والظنِّ والتخمين لا على وجه القطع واليقين.

ونُقِلَ عن فيثاغورس أنه قال: العالم الأرضيُّ متصلٌ بالعالم السماوي، والفلكُ يتحرك حركةً مستديرة دائمة، فتتحرك الكواكبُ بتحريكه، وحركة الكواكب على هذا العالم تفعل فيه الاستحالة ويحدث فيه الكون والفساد، وفسادُ كلِّ شيء بكون شيء آخر، وأن حركات الكواكب الدائمة توجب الكونَ الطبيعي الدائم، وليس في الحركات حركةٌ تامة غير المستديرة، لأن المتحرك بها لا يسكن لأنه لا نهايةَ لحركتها، بخلاف الحركات المختلفات لأنها غير تامة[1]، ولهم في هذا اصطلاح عجيب. ويقال: إن هذا كلَّه كلامُ أفلاطن لأنه أقام يرصد الأفلاكَ سبعين سنة، وسنذكره في باب الحكمة إن شاء الله تعالى.



(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ٣٦: «ولها نهايات، فإذا انتهت سكنت وضربوا لها مثلاً فقالوا: وحركة النار إلى فوق وحركة الماء والتراب إلى أسفل».

فصل في البروج ومطالعها

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦﴾[الحجر: ١٦] وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[الفرقان: ٦١] وقال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾[البروج: ١]. وقال الجوهري: والبرج واحدُ بروجِ السماء، وبرجُ الحصنِ ركنه، قال: وربما سمي الحصن به، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨] هذا كلام الجوهري[(١)].

وقال الحسن البصري: البروجُ القصورُ، وفي السماء قصورٌ مثل قصور الأرض.

وقال أبو إسحاق الثعلبيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قال: يعني منازلَ الكواكبِ السبعة السيارة، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل والثور والجَوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجَدي والدلو[(٢)] والحوت.

فالحمل والعقرب: بيتا المِرِّيخ، والثور والميزان: بيتا الزُّهرة، والجوزاء[(٣)] والسنبلة: بيتا عُطارد، والسرطان: بيت القمر، والأسد: بيت الشمس، والقوس والحوت: بيتا المشتري، والجدي والدلو: بيتا زُحل.

قال: فهذه البروجُ مقسومةٌ على الطبائع الأربع، فيكون نصيبُ كلٍّ واحدٍ منها ثلاثة بروج، وتسمى المثلثات، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية.

قال: واختلف أهل التفسير في معنى البروج، فروي عن عطية العوفي في تفسير الآية قال: هي قصورٌ فيها الحرس[(٤)]، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾

---

(١) «الصحاح»: (برج).

(٢) في (ب): «والدالي».

(٣) في (ب): «الجوزة».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٧١٦.

وقال مجاهد وقتادة: هي النجوم[١]. وقال عطاء: هي السُّرُج، وهي أبواب السماء التي تسمى المجرة. هذا كلام الثعلبي.

قلت: وقد نصَّ ابنُ عباس في رواية الوالبي عنه أنها البروج المعروفة التي أشرنا إليها.

وقال أبو حنيفة الدِّينَوري: الناس مُجمِعونَ على أنها اثنا عشر برجاً لا يختلفون في ذلك، وأن الله تعالى قسمها ترابيع وتثاليث، وهي مقسومةٌ على الكواكب السبعة كما ذكرنا، قال الدِّينَوَري: وتسميها كلُّ أمةٍ بلسانها ويتفقون في المعنى، وكلهم يبتدئ بالحمل على الترتيب المذكور.

وقال أبو محمد عبد الجبار المعروف بالخَرَقي في «كتاب التبصرة»[٢] له: فالحَمَلُ ثلاثة عشر كوكباً، والخارج عن الصورة خمسة كواكب، وصورته صورة كبش مُقَدَّمُهُ إلى جهة المغرب ومؤخره إلى جهة المشرق، وهو ملتفتٌ إلى خلفه حتى صار خَطْمه[٣] على ظهره، ومن كواكبه الشَرَطَين من منازل القمر.

والبرج الثاني: الثور ثلاثة وثلاثون كوكباً، والخارج عن الصورة أحد عشر كوكباً، وهو على صورةِ النصفِ المقدَّم من الثور، قد نَكَّسَ رأسَهُ للنَّطْحِ، وقد قُطع بنصفين، على سرته، مقدَّمُه إلى المشرق ومؤخَرُه إلى المغرب، من كواكبه الثريا والدَّبَران وهما من منازل القمر.

والبرجُ الثالث: التوأمان، ويعرف بالجوزاء: ثمانية عشر كوكباً، والخارج عن الصورة سبعة كواكب، وصورته صورة صبيين قائمين واحدهما قد وضع يده على منكب الآخر، ورأسهما وسائر كواكبهما في الشمال والمشرق على طرف المجرة، وأرجلهما إلى المغرب.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» ٣/ ٧٠ عن قتادة.

(٢) وهم المصنف في نسبة الكتاب إلى عبد الجبار بن عبدالجبار، أبي محمد المتوفى (٥٥٣)هـ، وإنما هو لأبي بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن أبي بشر المروزي الخَرَقي ـ بفتح الخاء والراء ـ المتوفى سنة (٥٣٣)هـ واسم الكتاب: «التبصرة في الهيئة» وقد ذكر الزركلي له نسختين خطيتين ٥/ ٣١٧، وانظر كشف الظنون ١/ ٣٣٨.

(٣) الخطم في الدابة: مقدم أنفها وفمها.

والبرج الرابع: السَّرطان سبعة كواكب، والخارج عن الصورة أربعة كواكب، مقدَّمُه إلى ناحية المشرق، ومؤخره إلى المغرب والجنوب على أثر التوأمين فإنهما مائلان إلى الجنوب في نفس المجرة.

والبرج الخامس: الأسد سبعة وعشرون كوكباً، والخارجُ عن الصورة ثمانيةُ كواكب، وصورته تامة ومن كواكبه قلبُ الأسد كوكب نيِّر.

والبرج السادس: السُّنبُلة، ويعرف بالعذراء: ستة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ستة كواكب، وصورتها صورةُ جاريةٍ ذات جناحين قد أرسلت ذيلها، ورأسها على الصَّرْفة: وهي كوكب نيِّر، ومن كواكبها السِّماكُ الأعزل كوكب نيِّر على كتفها الأيسر.

والبرج السابع: الميزان ثمانية كواكب وصورته كاسمه، والخارج عن الصورة تسعة كواكب.

والبرج الثامن: العقرب أحد وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورتها تامة، ومن كواكبها قلب العقرب، كوكب نيِّر.

والبرج التاسع: القوس ويسمى الرامي، أحد وثلاثون كوكباً خلف كواكب العقرب، وصورته صورة حيوان تركَّبَ من إنسان وفرس كأنه جسد دابَّة إلى العنق، ثم يبرز من مغرز العنق نصفُ رجل قد وضع السهمَ في قوسه وأَغْرَقَ في النزع.

والبرج العاشر: الجدي ثمانية وعشرون كوكباً، وهو على النصف على صورة النصف المقدم من جدي، والثاني من مؤخر سمكة إلى ذنبها.

والبرج الحادي عشر: الدَّلو، يعرف بساكب الماء: اثنان وأربعون كوكباً، الخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورته صورة رجل قائم مادٍّ اليدين بأحدهما كوزٌ قد قلبه وانصبَّ الماء إلى مقام رجليه وجرى الماء من تحتها إلى الجنوب، ويسمى الدالي[1] أيضاً.

والبرج الثاني عشر: الحُوت أربعة وثلاثون كوكباً، والخارج عن الصورة أربعة

(١) في (ب): «الدالِي».

كواكب، وصورته صورة سمكتين قد وُصِلَ ذنبُ إحداهما بذنبِ الأخرى بخيط يسمى خيط الكَتَّان.

قال الخَرَقي: فجملةُ هذه الكواكب ثلاث مئة، وفي قول عنه: أنها ثلاث مئة وأربعون كوكباً.

قلت: وقد ذكر الجوهري هذه البروج وأخلَّ بالبعض، فقال: الحَمَلُ: أول البروج[١]. والثَّور: برج في السماء[٢]. والجوزاء: نجم يقال إنها تعترض في جوز السماء، أي: وسطها، وجوز كلِّ شيء وسطه[٣]. قال: والسَّرطان برج في السماء[٤]. ولم يذكر الأسد، قال: والسُّنبُلة برج في السماء[٥]. ولم يذكر الميزان. قال: والعقرب: برج في السماء[٦]. وكذا القوس[٧] والجدي والدلو[٨] والحوت[٩]، قال: والجدي نجم إلى جانب القطب تعرف به القبلة[١٠]. ولم يتعرض الجوهري لعدد الكواكب وصورها.

فصل
في ما لكلِّ برج من البلدان

قال علماء الهيئة: للحَمَل بابل وفارس وأَذْرَبِيجان، وللثَّور: هَمَذَان والأكراد، وللجوزاء: جُرجان وكِيْلان[١١] ومُوْقان، وللسرطان: الصين وشرقي خُراسان،

(١) «الصحاح»: (حمل).
(٢) «الصحاح»: (ثور).
(٣) «الصحاح»: (جوز).
(٤) «الصحاح»: (سرط).
(٥) «الصحاح»: (سبل).
(٦) «الصحاح»: (عقرب).
(٧) «الصحاح»: (قوس).
(٨) «الصحاح»: (دلو).
(٩) «الصحاح»: (حوت).
(١٠) «الصحاح»: (جدي).
(١١) كيلان ويقال لها: كِيل بلد وراء طبرستان، ثم عربت فصارت جيل. «اللباب» ١/ ٣٢٤. و«معجم البلدان» ٢/ ٢٠١.

وللأسد: التُّرك والصُّغْد وما والاها، وللسُّنبُلة الشام والجزيرة ودجلة والفرات، وللميزان: الروم إلى إفريقية وصعيد مصر والحبشة، وللعقرب: الحجاز واليمن وتِهامة، وللقوس: بغداد إلى أصبهان، وللجدي: نهر مُكْران وعُمان والبحرين والهند، وللدَّلو: الكوفة وبعض الحجاز، وللحوت: طبرستان وله شركة في الروم والجزيرة والشآم ومصر والإسكندرية، وقد ذكرنا طرفاً من هذا في الأقاليم.

فصل
في قسمة الزمان

وهو أربعة أقسام:

الأول: الربيع، وهو عند بعض الناس الخريف، وإنما سمته العرب: ربيعاً، لأن الربيع يكون فيه، وسماه بعضهم: خريفاً، لأنَّ الثمارَ تُخْتَرَفُ فيه، ودخوله عند حلول الشمس رأسَ الميزان.

ثم الشتاءُ: ودخوله عند حلول الشمس رأسَ الجدي.

ثم الصيفُ: ودخوله عند حلولِ الشمسِ رأسَ الحمل، وهو عند الناس الربيع.

ثم القيظ: وهو عند الناس الصيفُ، ودخوله عند حلولِ الشمس رأس السرطان.

فصل في الرياح

وأولها: ريح الشَّمال، قال الجوهري: والشَّمال الريح التي تهب من ناحية القطب[1].

وثانيها: الصَّبا، قال: ومهبها المستوي من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، ونَيِّحَتُها[2] الدَّبور، قال: وتزعم العربُ أنَّ الدَّبور تزعج السحاب وتُشْخِصُهُ في الهواء، ثم تسوقه، فإذا علا كشفت عنه واستقبلته الصَّبا فردَّت[3] بعضه فوق بعض حتى يصيرَ كثيفاً واحداً، والجنوب تُلْحِقُ روادفَه به وتمده، والشمال تمزّقُ السحابَ.

---

(١) «الصحاح»: (شمل).

(٢) أي: مُقابلتُها.

(٣) في (ب) و(ل): فودعت، والمثبت من (ط) و«الصحاح»: (صبو).

والثالثة: الجنوب، قال: وهي التي تقابل الشمال[١]. قال: والدَّبور الريح التي تقابل الصَّبا[٢].

فصل
فيما بين كلِّ سماء وسماء، وما ورد في ذلك من الأنباء

قد ذكرنا مذهبَ الأوائل في صور الأفلاك وما يتعلق بها، وأما على مذهب المتشرعين فهي السماوات عندهم، وقد ورد في الجهة أخبار [عن العباس وأبي ذر وأبي هريرة رضوان الله عنهم فأما حديث] العباس[٣]: فقال أحمد بن حنبل: بإسناده عن العباس بن عبدالمطلب قال: كنّا جلوساً عند النبيِّ ﷺ بالبَطْحاء، فمرت سحابة فقال: «أَتدرُون ما هذه؟» قلنا: السحاب، قال: «والمُزْن»، قلنا: والمُزْن، قال: «والعَنَان» قلنا: والعَنَان، قال وسكتنا، فقال: «هل تَدْرُون كم بينَ السَّماءِ والأرضِ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بَينَهما مَسيرةُ خَمسِ مئةِ سنةٍ، وبين كلِّ سَماء وسَماء مَسيرةُ خمسِ مئةِ سنةٍ، وكِثَفُ كلِّ سَماء خَمْسُ مئة سنةٍ، وفوقَ السَّماء السَّابعةِ بحرٌ بينَ أعلاهُ وأسفلِه كما بينَ السَّموات والأرضِ، ثم فوق ذلك ثمانية أَوْعال بين رُكَبهن وأَظْلافهن كما بين السَّماء والأرضِ[٤]، واللهُ تعالى فوقَ ذلك، وليسَ يَخفَى عليه شيءٌ مِن أعمَالِ بَنِي آدَمَ»[٥].

وأما حديث أبي ذر: فأنبأنا جدي، قال: أنبأنا زاهر بن طاهر النيسابوري بإسناده عن أبي نَضْرة، عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مابينَ الأرضِ إلى السماءِ مَسيرةُ خمسِ مئةِ عام، وغِلَظ كلِّ سماءٍ خمسُ مئة عام، والأَرَضُون مثل ذلك؛ وما بين السماء السابعةِ إلى العَرْشِ مثلُ جميع ذلك، ولو حَفرتم لصاحِبِكم ثم دَلَّيتُمُوه لوجدتم اللهَ ثمةَ»[٦].

---

(١) «الصحاح»: (جنب).
(٢) «الصحاح»: (دبر).
(٣) ما بين معكوفين من كنز الدرر ١/ ٤٣.
(٤) بعدها في «المسند»: «ثم فوق العرش، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض».
(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٧٠) وإسناده ضعيف جداً.
(٦) «العلل المتناهية» (٧) وهو منكر، وسيأتي الكلام عليه عند المصنف.

وأما حديثُ أبي هريرة: فقال أحمد بن حنبل: حدثنا سُرَيج بن يونس بإسناده عن أبي هريرة قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة فقال: «أتَدْرون ما هذه؟» قلنا: الله ورسوله أعلم[١]، قال: «الرَّقيع موجٌ مَكفوفٌ وسَقفٌ مَحفُوظٌ، أتدرونَ كم بينها وبينكم»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. ثم ذكر السماوات والأرض وعدَّ ما بين كلِّ واحدة خمس مئة عام، بمعنى حديث أبي ذرٍّ، وقال في آخره: «ولو حَفَرتُم لصَاحِبِكم ودَلَّيتُمُوه بحبلٍ إلى الأرضِ السابعةِ لَهَبطَ على اللهِ، ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾[الحديد: ٣][٢].

قلت: ليس في هذه الأخبار حديثٌ سالمٌ من الطعن، أما الحديثُ الأول وهو حديث العباس، فإن في طريقه يحيى بن العلاء كذّاب، كذَّبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما، وفيه لفظ الفوقية، وقد فسَّرها أبو سليمان الخطّابي فقال: معنى الفوقية القهر والغلبة.

وأما حديث أبي ذر فقال جدي في «الواهية» أيضاً: هذا حديث منكر، وكان الأعمش يروي عن الضعفاء ويدلِّسُ.

قال: وأما حديث أبي هريرة فلا يصحُّ عن رسول ﷺ، والحَسَنُ لم يسمعْ من أبي هريرة، وقيل للحسن: من أين تروي هذه الأحاديث؟ فقال: من كتاب عندنا سمعناه من رجل، وكان الحسن يروي عن الضعفاء. وقال أحمد بن حنبل: قد رواه أبو جعفر الرازي عن قتادة، وأبو جعفر الرازي مضطرب.

قال: ومقتضى حديث العباس أن الأرضَ تكون كذلك في الكثافة والبعد، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] فيكون مسافة الجميع أربعةَ عشر ألف سنة سوى ما في السماوات من الحجب والكرسي والعرش.

قال الخطابي: وهذا على مقدار سير بني آدم، أما المَلك فإنه يخرقُ الجميعَ في

(١) بعدها في «المسند»: «قال: العَنَان، وروايا الأرض، يسوقه الله إلى من لا يشكره من عباده ولا يدعونه، أتدرون ماهذه فوقكم؟» قلنا الله ورسوله أعلم».

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٨٢٨)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨).

ساعة[١] وفي لحظة واحدة، وكذا الشيطان في الأرض.

وروى مجاهد عن ابن عباس، أنه سئل فقيل له: كم بين كل سماء وسماء؟ فقال: الله أعلم.

وروى أبو راكة عن عليّ عليه السلام: أنه سئل كم بين السماء والأرض؟ فقال: دعوة مستجابة، قيل له: كم بين المشرقِ والمغرب؟ فقال: مسيرة يوم[٢].



(١) لفظ «ساعة» ليس في (ب).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٣٢/ ٣٩٣ضمن خبر طويل فيه سؤال ابن الكواء لسيدنا علي رضي الله عنه.

فصل
في ذكر الشمس والقمر
والنجوم السيارة والثابتة والرجوم(١)

فصل في الشمس

قال الجوهري: الشمس معروفة(٢).

ذكر خلق الشمس: روي عن كعب الأحبار قال: في التوراة، لما أراد الله أن يخلقَ الشمسَ والقمر قال للسماء: أخرجي شمسك وقمرك.

وعن عليٍّ رضي الله عنه موقوفاً عليه قال: خُلِقَتِ الشمسُ والقمر من نور العرش(٣).

وقد روي فيما يتعلقُ بالشمسِ أخبار وآثار، فأما الأخبار فلا يثبت منها إلا حديث واحد:

قال البخاري بإسناده عن أبي ذرٍّ قال: كنتُ مع النبي ﷺ في المسجد حين وجبتِ الشمس فقال: «يا أبا ذرٍّ، أتدري أينَ تذهبُ هذه الشَّمسُ»؟ قلتُ: اللهُ ورسُولُه أعلمُ، قال: «إنَّها تَذهَبُ حتَّى تَسْجدَ بينَ يَدَي ربِّها فتستأذنُ في الرُّجوعِ فيُؤْذَن لها». أخرجاه في الصحيحين(٤).

وأخرج البيهقي عن ابن عمر بمعناه، وفيه: نظر النبيُّ ﷺ إلى الشمس قد غابت فقال: «في عَينِ اللهِ الحاميَةِ، لولا ما يَزَعُها مِن أمرِ اللهِ لأَهْلَكَتْ ما على وَجْهِ الأرضِ(٥)». ومعنى يزعها: يكفّها ويردعها.

ومعنى الحديث: أنَّ النبي ﷺ أخبر عن مغيبها في النار الحامية، لا أنه دعا

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٤٤.

(٢) جاء بعدها في «كنز الدرر»: «ويقال لها: ذكاء، لأنها تذكو كما تذكو النار، ولذلك يسمى النهار: ابن ذكاء، قال: وهي ممدودة غير مصروفة لا تدخلها الألف ولا اللام» وانظر «الصحاح»: (ذكي).

(٣) لم نقف عليه عن علي، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٠٦٢) من حديث أنس مرفوعاً.

(٤) البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

(٥) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من كتب البيهقي، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٦٩٣٤) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

عليها[١].

وأما الأخبار الواهية: فمنها ما أنبأنا به جدي رحمه الله بإسناده إلى أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «قد وكَّلَ الله بالشَّمسِ سبعة أملاكٍ يَقذِفُونَها بالثَّلجِ، ولولا ذلك ما أَتَت على شيءٍ إلا أحرَقَته»[٢].

ومنها: ما أنبأنا به جدي رحمه الله بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّمسُ والقَمَر ثَوْرَان عَقيران من النَّار»[٣] وفي رواية: «يؤتى بهما يوم القيامة فيكوّران في النار». والعقير: المجروح.

ومنها ما ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه» فقال: حدثني محمد بن أبي منصور بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس، قال عكرمة: كنت جالساً عنده إذ جاءه رجلٌ فقال: يا ابنَ عباس سمعتُ كعبَ الأحبارِ يقول: إنَّ الشمس والقمر يكوّران يومَ القيامةِ وَيُلْقَيانِ في النار، وكان ابن عباس متكئاً فاحتفز ـ أي: جلس واجتمع ـ وقال: كذب كعبٌ ـ ثلاثاً ـ بل هي يهوديَّته يريدُ إدخالَها في الإسلام، الله أجَلُّ وأكرمُ من أن يعذِّبَ أحداً على طاعته، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾[إبراهيم: ٣٣] أي: طائعين[٤]، فكيف يعذِّبُ مَن أثنى عليه؟

ثم قال: ألا أحدِّثكم بما سمعتُ من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «لما أبرم خَلْقَه غَيْرَ آدم خَلَقَ شمسَيْن من نورِ عرشِه، فأمَّا ما كان في سابق علمه أن يَدعها شمساً فإنَّه خَلَقها مثلَ الدنيا ما بينَ مشارِقِها ومغارِبها، وأمَّا ما كان في سَابقِ عِلمِه أن يَطْمِسَها ويحوِّلها قمراً فإنَّه دونَ الشَّمْس في العِظَم وإنما يُرى صغيراً لشدةِ ارتفاع السماءِ وبُعدِها من الأرضِ، فلو تَرَكَ اللهُ الشَّمسَ كما كان خَلَقها لم يُعْرَفِ الليلُ من النَّهار، ولا النَّهارُ من الليل، وكان لا يَدْري الأَجيرُ إلى متى يعملُ ومتى يأخذُ أجرتَه، ولا يدري الصَّائم إلى متى يَصُومُ، ولا تَدْري المرأةُ كيف تَعتدُّ، ولا يَدْري المسلِمونَ متى وقتُ

(١) المنتظم ١/ ١٨٦.

(٢) «العلل المتناهية» (٢٩).

(٣) «العلل المتناهية»(٣٠)، و«الموضوعات» (٢٩١)، و«المنتظم» ١/ ١٨٧.

(٤) في (ب): مطيعين.

الحجِّ، ولا متى تحِلُّ دُيونهم؛ فنَظَرَ الله تعالى لعبادِه، فأرسَلَ جبريلَ فأَمَرَّ جناحَه على وَجْه القَمَر فَطَمسَ عنه الضَّوءَ وبقيَ فيه النُّورُ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ الآية[الإسراء: ١٢] فالسوادُ الذي ترونه في القمر شبهُ الخطوطِ فهو أثر المحْوِ.

قال: ثم خَلَق اللهُ للشمسِ عَجَلةً من نورِ العرشِ لها ثلاث مئة وسِتون عُرْوَة، ووكَّل بالشَّمسِ وعَجَلَتِها ثلاث مئة وستين مَلَكاً، قد تَعَلَّق كلُّ واحدٍ منهم بعُروةٍ، وخَلَق للقَمَرِ أيضاً كذلك، وخَلَق لهما مشارقَ ومغاربَ ثمانين ومئة عينٍ في المغرب طينةً سوداءَ فذلك قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[الكهف: ٨٦][وثمانين ومئة عينٍ في المشرق مثل ذلك] تفور كغَلَيان القدرِ، فكل يومٍ وليلةٍ لهما مطلعٌ جديدٌ ومغربٌ جديدٌ، فذلك قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] ثم جمع فقال: ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[المعارج: ٤٠].

قال: وخَلَق اللهُ مجرىً دونَ السماءِ، يعني: بحراً، مقدارَ ثلاثةِ فراسخَ، وهو موجٌ مكفُوفٌ قائمٌ في الهواءِ كأنَّه جبلٌ ممدودٌ، فتجري فيه الشَّمسُ والقَمَرُ والخُنَّس، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠].

والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لو بَدَتِ الشَّمسُ من ذلك البحرِ لأَحرَقَتْ كلَّ شيءٍ في الأرضِ حتى الصُّخور والحِجارة، ولو بَدا القمرُ من ذلك البحرِ لافتَتَن أهلُ الأرضِ به حتى يعبدوه من دون الله».

قال ابن عباس: وكان عليٌّ بن أبي طالبٍ ﵁ حاضراً فقال له: يا رسولَ الله ذكرتَ الخُنَّس فما هنَّ؟ فقال: «خمسة كواكبَ، البِرْجِيس وزُحل وعطارد وبهرام والزهرة، جارياتٌ طالعاتٌ كالشَّمسِ والقَمَرِ، فأمَّا سائرُ الكواكِبِ فمعلَّقاتٌ في السَّماء كالقنادِيل في المساجِدِ»(١).

قال: وقال النبي ﷺ: «خلق الله مدينتين: إحداهما بالمشرق، والأخرى بالمغرب، جابرسا وجابلقا، لكل واحدةٍ منهما عشرةُ آلافِ باب، وعلى كلِّ بابٍ عشرةُ آلاف فارس ووراءهم أُمم يقال لهم: منسك وتاريس وتاويل، ومن ورائهم يأجوج ومأجوج. وذكر ابن جرير حديثاً طويلاً مقدار كرّاسة، وفيه: طلوعُ الشمس من مغربها

---

(١) «تاريخ الطبري» ١/ ٦٢، و«العظَمة» لأبي الشيخ (٦٢٧) وما بين حاصرتين منهما.

وبابُ التوبة، فقال له عمر بن الخطاب: وما باب التوبة؟ ففسَّره، وقال: «من المصراع إلى المصراع مسيرةُ أربعين سنة للراكب المجدّ» وذكر الصور، فقال له حذيفة بن اليمان: يا رسول الله، وما الصور؟ ففسَّره، وفي آخر الحديث: فبلغ كعباً فأتى إلى ابن عباس يعتذر ويقول: إنما حدّثتُ من كتابٍ دارس تداولته الأيدي، وأنت حدثت عن رسول الله ﷺ، وذكر كلاماً طويلاً[١].

قلت: أما حديث أبي أمامة فقال جدي في «الواهية»: في إسناده مسلمة بن علي، قال: قال ابن مَعين والنسائي: ليس بشيء، وتركاه[٢].

وأمّا حديث أنس ففي إسناده درست بن زياد عن يزيد الرقاشي، وهما ضعيفان، قال ابن حبّان وابن معين: لا يحلّ الاحتجاجُ بحديثِ درست[٣].

وأما الحديث الذي رواه ابنُ جرير الطبري عن ابن عباس فالعجب من ابن جرير مع معرفته بالأحاديث كيف أورد مثل هذا عن رسول الله ﷺ؟ ولم يشغله نزوع حديثه وروايته وقصده تبسط كتابه عن ذكر مثل هذه الألفاظ التي تنفر منها العقول السليمة وتقشعرّ منها الجلود، ومَن وقفَ على الحديث من «تاريخه» فهمَ ما قلت.

ثم هذا الحديث الذي رواه يعرف بحديث حذيفة بن اليمان، وقد ذكره جدي في «الموضوعات» فقال: حدثنا محمد بن ناصر بإسناده إلى عليٍّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه وحذيفة وابن عباس: أنهم كانوا جلوساً ذاتَ يوم، فجاء رجلٌ فقال: إني سمعت العَجَبَ، فقال له حذيفة: وما ذاك؟ قال: سمعت رجالاً يقولون: يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيقذفان في جهنم، فقال عليٌّ وابن عباس وحذيفة: كذبوا، الله تعالى أجلّ وأكرم أن يعذِّب على طاعته، فقال حذيفة: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ سئل عن ذلك فقال: «إنَّ الله لما أَبرَم خَلْقه فلم يبقَ مِن خَلْقه غيرُ آدم، خَلَق شمسين من نور عرشِه، فأمَّا التي كان في سابق عِلمه أن يَطمسها ويحوِّلها قمراً فإنَّه خلقها دون الشمس في الضوء». قال جدي وذكر حديثاً طويلاً نحواً من جزء،

(١) «تاريخ الطبري» ١/ ٦٥ ـ ٧٥.
(٢) «العلل المتناهية» ١/ ٤٦.
(٣) «العلل المتناهية» ١/ ٤٧.

وفيه: «أنَّ اللَّيلة التي تَطْلُع الشَّمسُ من مَغْرِبها في صبيحتِها[١] ومعها القمر ثم يعادان».

ثم قال: وهذا حديث موضوع على رسول الله، ﷺ وفي إسناده ضعفاء ومجهولون. وعمر بن صبح كان يضع الأحاديث وذكر غيره[٢].

قلت: والمنقول مثل هذه الألفاظ عن ابن عباس فلو وقفوه عليه كان أولى، وإنَّما رفعوه إلى رسول الله ﷺ، وحوشي منصبه الكريم عن مثله، وواضعه ما قصد به إلَّا شَيْنَ الشريعة، وإلَّا فمن أين في الدنيا مدينة يقال لها: جابرسا، لها عشرةُ آلاف باب، بين كل بابين فرسخ، وفي كلّ باب عشرة آلاف حارس، وما أشبه ذلك.



وأمّا الآثار: فروى مجاهد عن ابن عباس قال: للشمس ثلاث مئة وستّون مشرقاً ومغرباً، وكذا القمر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[المعارج: ٤٠][٣] فأَمَّا قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] فإنَّما أرادَ مشرقَ كلٍّ واحدٍ منهما ومغربه.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: لا تطلع الشمس كلَّ يوم إلّا وهي كارهةٌ تقول: يا إلهي لا تُطْلعني على عباد يَعْصُونك، حتَّى إنها لتقفُ عند الطلوع فيدفعها ثلاث مئة وستّون ملكاً حتى تطلع[٤].

وذكر الثعلبي عن ابن عبّاس قال: تطلع الشمس كلَّ سنة في ثلاث مئة وستين كوّة، لا ترجع إلى تلك الكوّة إلى ذلك اليوم من العام القابل[٥].

قلت: وفي الشمس دلائل ومنافع، فمن الدلائل:

أنها واحدة، ونورها يضيء على جميع العالم، كذلك الباريء سبحانه وتعالى واحد

---

(١) جاء بعدها في «الموضوعات»: «تكون بقدر ثلاث ليال، ولا يعرف طولها سوى المتعبدين فيستغيث بعضهم إلى بعض، وإن الشمس تطلع من مغربها».

(٢) «الموضوعات» (٢٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٣/ ٢٨٣ من طريق عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٣/ ٢٨٣ من طريق عكرمة أيضاً.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٣/ ٢٨٣-٢٨٤.

وهو يُدبِّر العالم.

والثاني: أنّ ذات الشمس مِنَّا بعيدة وضوءها قريب، كذلك الله سبحانه وتعالى بعيد من الخلق بالذات قريبٌ بالإجابة.

والثالث: أنَّ ضوءَها غير ممنوع عن أحد، كذلك رزق الله تعالى لا يمتنع عن أحد.

والرابع: أنَّ كسوفَها دليلٌ على وجود القيامة، وغروبها يدلُّ على ظلمتها.

والخامس: أنَّ السَّحاب يغطِّيها، وكذا المعاصي غطاء المعرفة.

فأمَّا منافعها فكثيرة:

أحدها: أنَّها سراج العالم، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦].

والثانية: أنها طَبَّاخ لأطعمتهم من غير كلفة ومنضجٌ لثمارهم.

والثالثة: تسير من المشرق إلى المغرب لمصالحهم.

والرابعة: أنها لا تقف في مكان واحد لئلَّا تضرَّ بالخلق.

والخامسة: أنَّها تكون في الشتاء في أسفل البروج وفي الصيف في أعلاها لمنافع العالم.

والسادسة: أنها لا تجتمع مع القمر في سلطانه لئلَّا يُبْطِلَ كلُّ واحدٍ منهما ضوءَ الآخر.

فإن قيل: فهي في الفلك الرابع فلِمَ لم تحجبها السماوات ويحجبها الغيم؟ قلنا: السَّماوات جواهرُ لطيفةٌ شفّافة، والغيم كثيفٌ لأنَّه يتصاعدُ من الأرض. وقد حدَّ أفلاطون الشمس فقال: هي فلكٌ محشوٌّ ناراً يخرج منه اللَّهب.

فصل في القمر

قال علماء اللغة كالزّجاج والفراء والأصمعي وغيرهم: إنما سمي القمر: قمراً لبياضه، والأَقْمَر الأبيض، وليلة قَمْراء أي: مُضيئة، قال ابن قتيبة[1]: يقال له في الليلة

(١) جاء بعدها في «كنز الدرر» ١/ ٥٠: «والهلال أول ليلة، والثانية والثالثة، ثم هو قمر بعد ذلك إلى آخر الشهر، وتصغيره قمير، وجمعه أقمار».

الرابعة عشرة: بدر، لتمامه، ومنه البَدْرَة، وكل شيء تمَّ فهو بدرٌ مجازاً، وفي القمر حقيقة[١].

وقال الجوهري: إنما سمي بدراً لمبادرته الشمس بالطلوع، كأنه يُعْجِلها المغيب[٢].

وقال الفرّاء: هو في أول ليلة هلال ثم قمير ثم قمر ثم بدر.

حديث ضُرب المثل به: قال البخاري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال الناس: يا رسول الله، هل نَرَى ربَّنا يومَ القيامة؟ فقال: «هَلْ تُمارُون في القَمَر ليلةَ البَدْر ليسَ دونَه سَحَاب؟» قالوا: لا ، قال: «فَهَل تُمارُون في الشَّمسِ ليس دونَها سَحَاب؟» قالوا: لا ، قال: «فإنَّكم ترَونَه كذلك». أخرجاه في «الصحيحين[٣]». وهو حديث طويل. وقد رواه جماعةٌ من الصحابة بألفاظٍ مختلفة[٤].

فإن قيل: فهلا ضُرب المثل بالشمس وهي أضوأ وأتمُّ نوراً فإنَّ نور القمر منها، فالجواب من وجوه:

أحدها: أن نور الشمس يغلبُ على الأبصار فلا تتمكَّن من النظر، فيفوت المقصود، بخلاف القمر فإنَّ العيون تتمكن من النظر إليه.

والثاني: لأنَّ من انكسر لأجل الحقِّ سبحانه فعليه جبره، ولمَّا طَمَس جبريل ضوءَ القمر بجناحيه انكسر قلبه لأنه كان يضاهي ضوءَ الشمس، فجبره الله تعالى بشيئين: أحدهما: أنه جَعَل العيون تنظر إليه في الدنيا في أوّل كلِّ شهر، والثاني: أنه أمر نبيَّه ﷺ بأن يضرب به المثل في أعظم الأشياء وأعلاها.

فإنْ قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] قلنا: إننا لا ندَّعي أنَّ الأبصار تدركه بمعنى تحيط به، وإنما المدرَك

---

(١) «أدب الكاتب» ص٨٨-٨٩.

(٢) «الصحاح»: (بدر).

(٣) البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٤) منها ما أخرجه البخاري (٤٥٨١) ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وانظر للتوسع كتاب «الرؤية» للدارقطني.

نفسُ النظر، لأنّ الباري سبحانه يستحيل عليه الحدود.

وفي القمر فوائد منها: أنَّه سراج للخلق بالليل ومعجزةُ نبيِّنا ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[القمر: ١] وقدَّرهُ منازل ليُعْرَفَ بها المواقيت، ومحا من نوره تسعة وتسعين جزءاً لقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[الإسراء: ١٢] ولولا ذلك لانبسط الناس في معاشهم ليلاً ونهاراً فآذى الحريصَ كدُّه.

وقد ذكر الطبري معنى هذا عن علي رضي الله عنه فقال: حدثنا ابن حميد بإسناده عن أبي الطفيل قال: قال ابن الكوَّاء لعلي: يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك أما تقرأ ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فهذه مَحْوُهُ[1].

وفيه عيوب: منها أن النَّوم فيه منكشفاً يورث البرص، ومنها: أنه يبلي الكتَّان، إلى غير ذلك.

وقيل: إنَّ نوره من الشمس، وهو الظاهر.

فصل في منازل القمر

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾[يس: ٣٩] وقد ذكر ابن قتيبة وغيره منازلَ القمر فقالوا: هي ثمانية وعشرون منزلاً من أول الشهر إلى أن يستسرَّ، وتسميها العرب نجومَ الأخْذ، لأن القمر يأخذ كل ليلةٍ منها في منزل، وأسماؤها: الشَّرَطان، والبَطين، والثُّريَّا، والدَّبَران، والهَقْعَة، والهَنْعَة، والذِّراع، والنَّثْرَة، والطَّرْف، والجَبْهة، والزُّبْرَةُ، والصَّرْفَةُ، والسِّمَاك، والعَوَّاء، والغَفْرُ، والزُّبانَى، والإكليل، والقَلْبُ، والشَّوْلة، والنَّعائم، والبَلْدَة، وسَعْد السُّعود، وسَعد الذَّابح، وسَعد الأَخْبِيَة، وسَعد بُلَع، وفَرْغ الدَّلو المقدَّم، وفَرْغ الدَّلْو المؤخَّر، والرِّشاء، وهو الحوت[2].

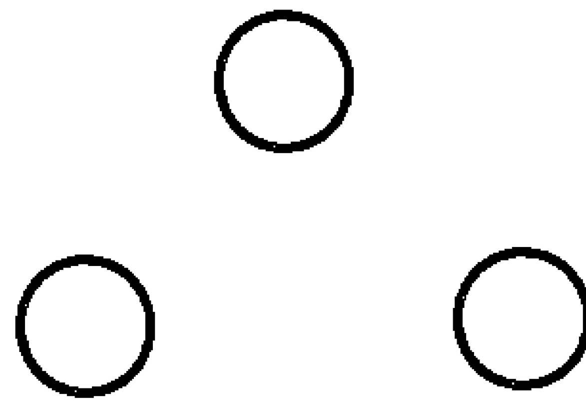
تفسير هذه المنازل

أوّلها: الشُّرطين، كذا ذكر ابن قتيبة بضم الشين، والشَّرْط العلامة، لأنها علامة

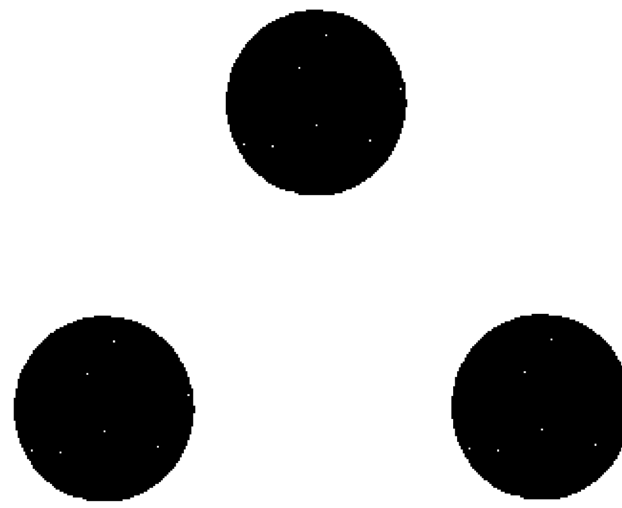
(١) الطبري ١/ ٧٥.

(٢) «أدب الكاتب» ص٨٦-٨٧.

ابتداء الأمطار. وقال أبو معشر: الشَّرَطين كوكبان مفترقان، أحدهما في ناحية الجنوب والآخر في ناحية الشمال، وهما قرنا الحَمَل، ويسمَّى أضوأهما النَّاطِح، وفي رأي العين إذا توسَّطا السَّماء كان بينهما مقدار عشرة أذرع، وقريب من السِّماك كوكب صغير يقدُمهما أحياناً وهذه صورته:



وأمَّا البَطين، فقال الجوهريّ: هو ثلاث كواكب صغار طمسٌ مستوية التثليث، وهي بطن الحَمَل، وإنما صغر لأنَّ الحمل نجومٌ كثيرة على صورة الحمل، فالبَطين بطنه، والثُّريَّا أليته، والشَّرَطين قَرناه. وصورة البَطِين:



وأما الثريا: فسبعة أنجم، ستة منها ظاهرة وواحد خفيٌّ، يمتحن به الناس أبصارهم. وقال أبو معشر: إنما سميت الثريّا من الثروة، وهي كثيرة النَّدى والبَلَل، ولها أسامي منها النجم وإن كان في العدد نجوماً.

وذكر أبو إسحاق الثعلبي أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾[النجم: ١] أنه الثريا في أحد الأقوال، وحكاه عن ابن عباس. والعرب تسمّي الثُّريَّا نجماً، وإن كان نجوماً في العدد، وسمّاها رسول الله ﷺ نجماً:

أنبأنا جدي، أنبأنا أبو القاسم الحريري بإسناده عن سَمُرة بن جُندب قال: قال

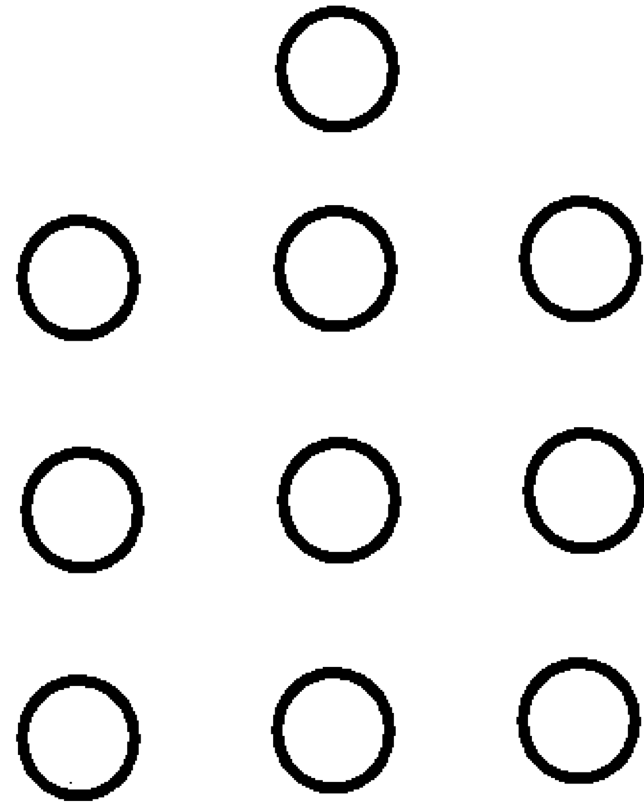
رسول الله ﷺ: «إذا طَلَع النَّجم ارتَفَعت العَاهَة يعني الثُّريَّا[1]» وأراد عن الثمار.

ومنها: العنقود والقدم، وقال امرؤ القيس[2]:

إذا ما الثُّريَّا في السماءِ تعَرضت ... يراها صغير[3] العين سبعةَ أَنجمِ

على كبدِ الجرباء وهي كأنها ... جبيرةُ دُرٍّ ركبت فوقَ معصم

وصورة الثُّريا:



قال ابن قتيبة: والكفّ الخَضِيبُ كف الثُّريّا المبسوطة، ولها كفّ أخرى يقال لها: الجَذْماءُ، وهي أسفل من الشَّرَطَين[4].

وقال الجوهري: والعَيُّوق نجم أحمرُ مضيء من طرف المجرة الأيمن يتلو الثُّريَّا لا يتقدَّمها، وأصله فيْعُول[5].

وقال ابن قتيبة: العَيُّوق نجم كبير مضيء وقَّاد وعلى أثره ثلاثة كواكب يقال لها: الأَعْلَامُ، وهي توابع العيُّوق، وأسفل العَيُّوق نجم يقال له: رِجْلُ العَيُّوق، وليس العَيُّوق من منازل القمر. وإنما ذكرناه هاهنا لقربه من الثُّريَّا.

وأما الدَّبَران: فألية الحمل، وقيل: إنما سمِّي به لأنه استدبر الثريّا.

---

(١) لم نقف عليه في أي من كتب ابن الجوزي التي بين أيدينا، ولم نجد من أخرج هذا الحديث عن سمرة بن جندب، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٨٤٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيتان في «الأزمنة والأمكنة» ٢/ ٣٠٦، و«نهاية الأرب» ١/ ٦٧، منسوبين إلى المبرد. وورد في ديوان امرئ القيس الشطر الأول من البيتين فقط ص١٤، وهو من معلقته المشهورة، وتمامه: تعرض أثناء الوشاح المفصل.

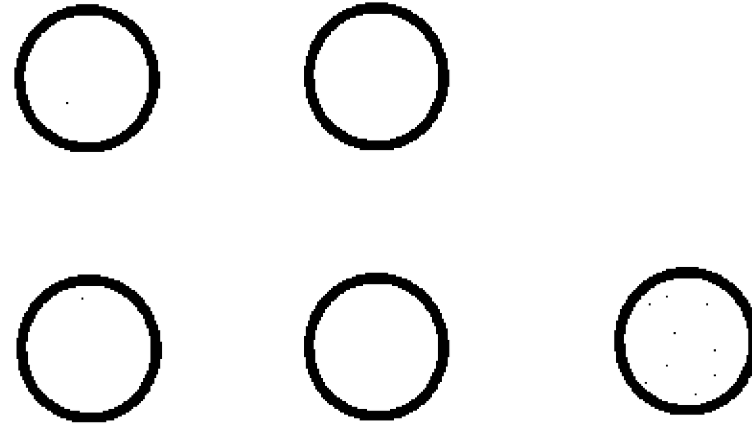
(٣) في المصادر السابقة: «الحديد».

(٤) «أدب الكاتب» ص٩٢.

(٥) «الصحاح»: (عوق).

وقال ابن قتيبة: هي خمسةُ كواكب في الثور يقال: إنها سنامه. وكذا الجوهري[١].

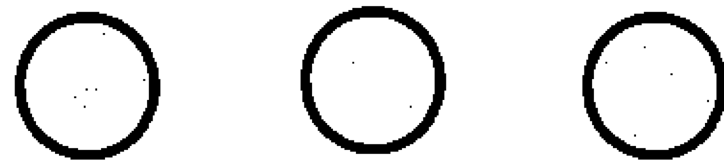
قال ابن قتيبة: وصورته:



وقال غيره: هو كوكب أحمر وصورته:

ويسمَّى الدَّبَران: الفنيق، وهو الجمل العظيم، وقدامه كواكب صغار تسمَّى القِلاص، وهي النوق الصغار، فإذا اجتمعت صارت في الصورة كأنها رأس بقرة، وهي تعقب الثُّريا.

وأمّا الهَقْعَة: فقال الجوهري: هي ثلاثة أنجم نيِّرة بعضها قريب من بعض، وهي رأس الجوزاء[٢]، كأنها ثلاثة أصابع مجتمعة، وصورته:



وقيل: هي الدائرة التي تكون في جنب الدَّابة عند رِجل الفارس. وسئل ابن عباس عن مَنْ طلَّق امرأته عدد نجوم السماء فقال: يكفيه هَقْعَة الجوزاء. وهي نور عظيم.

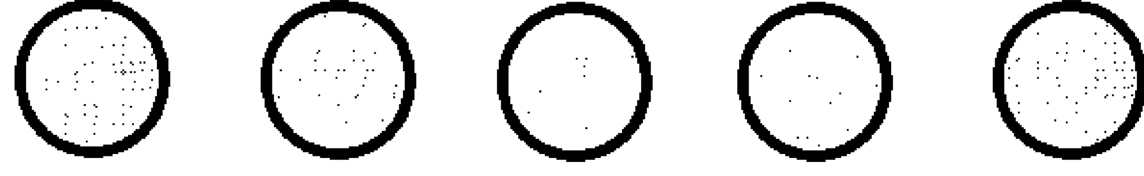
وأمَّا الهَنْعَة: فقال الجوهري: هي منكِب الجوزاء الأيسر، وهي خمسة أنجم مصطفَّة[٣]. وقيل: هي كوكبان كبيران بينهما ثلاثة صغار، والظاهر أنها خمسة وصورتها:

---

(١) «الصحاح»: (دبر).

(٢) «الصحاح»: (هقع).

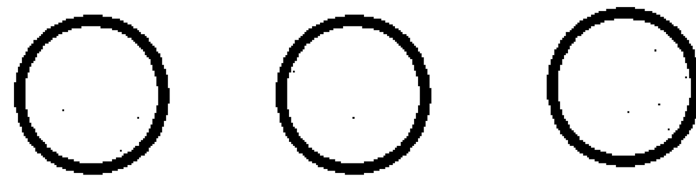
(٣) «الصحاح»: (هنع).



وإنما سميت: الهَنْعَة لأنَّ كل واحدٍ منها ينعطف على صاحبه، يُقال: هَنَعْتُ الشيءَ، أي: عطفتُه.

وأمَّا الذراع: فقال الجوهري: هو ذراع الأسد، وهما كوكبان نيِّران[١]. وقال غيره: كوكبان بينهما كواكب صغار يقال لها: الأظفار، كأنَّها مخاليب الأسد، بينهما في رأي العين قيد شَوْطٍ، وهما ذراعان إحداهما مبسوطة والأخرى مقبوضة ليست على سمت الذراع الأخرى كأنَّها منقبضة عنها، والمبسوطة أرفع في الشمال، يقال للنيِّر منها: الشِّعرى الغُمَيْصَاء لأنها لما عجزت عن عبور المجرَّة واللحاق بصاحبتها وهي الشِّعرى العَبُور بكت حتَّى غمصت، وقيل: إنما بكت لأنها لم تلحق بسهيل.

وأمَّا النَّثرة: فقال الجوهري: هما كوكبان بينهما قدر شبر، وفيهما لطخُ بياض كأنه قطعة من سحاب، وهي أنف الأسد[٢]. وقيل: هي ثلاث كواكب، وصورته:



وهي بين فم الأسد ومنخريه، ويقال له: مخطة الأسد.

وأمَّا الطَّرف: فقال الجوهري: هما كوكبان يقدمان الجبهة وهما عينا الأسد[٣].

وقيل: بينهما قدر قامة، صورتهما:

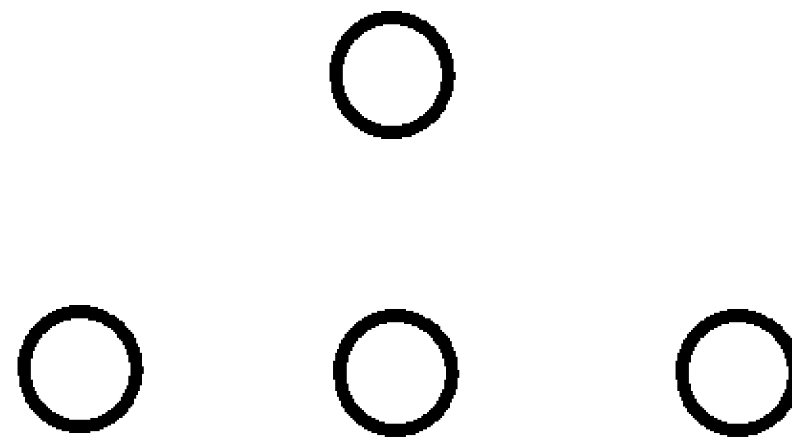
(١) «الصحاح»: (ذرع).

(٢) «الصحاح»: (نثر).

(٣) «الصحاح»: (طرف).



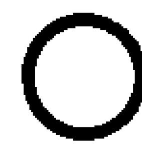
وأما الجَبْهة: قال الجوهري: هي جبهة الأسد، وهي أربعة أنجم[(١)]. وقال غيره: أحدها نجم براق، وهو اليماني، بين كل كوكبين في رأي العين قدر شوط، ويقال لها: نوء الأسد، وهي تعقب الطَّرْف، وصورتها:



وأمَّا الزُّبْرة: فقال الجوهري: هما كوكبان نيِّران، هما كاهلا الأسد[(٢)]. وقال غيره: هما موضع الشعر من أكتافه، وبينهما في رأي العين مقدار شوط، وصورتهما:



وأما الصَّرْفة: فقال الجوهري: هي نجم واحد نيِّر تلقاء الزُّبْرة[(٣)]. وقال غيره: هي قلب الأسد، وإنما سمي صرفة لانصراف البرد بها وإقبال الحرِّ، وقيل: وبطلوعها ينصرف الحرّ، وصورته:

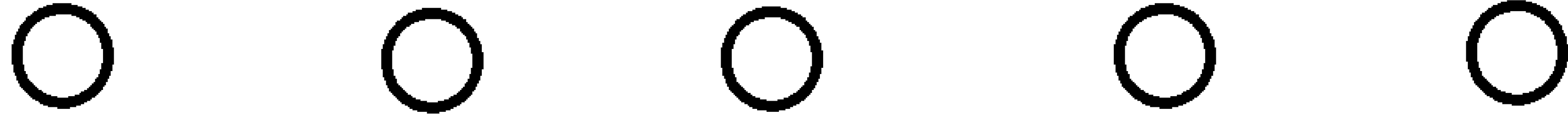


وأمَّا العَوَّاء: فقال الجوهري: هي خمسة أنجم، يقال: إنها ورك الأسد[(٤)].

---

(١) «الصحاح»: (جبه).
(٢) «الصحاح»: (زبر).
(٣) «الصحاح»: (صرف).
(٤) «الصحاح»: (عوى).

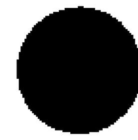
وصورته:



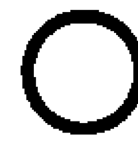
وأما السِّماك: فقال الجوهري: هما سِماكان نيِّران: سماك الأعزل، وهو من منازل القمر، وسماك الرَّامح، وليس من منازل القمر، وهما كوكبان، ويقال إنهما رِجْلا الأسد[١].

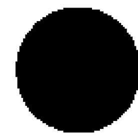
وقال أبو معشر: الرامح أحد ساقي الأسد، والآخر الساق الآخر، ومع الرامح كوكب قدامه هو رمحه، والأعزل معتزل عن الكواكب ليس يقاربه كوكب، وسمي: الأعزل، لأنه لا رمح له، وسمِّي سِماكاً، لأنه سمَك في السماء أي: ارتفع.

وصورة الأعزل:



وصورة الرامح:





قال: وخلف الرامح نجم يقال له: الفَكَّة، وهو كواكب مستديرة، ويسمَّى قصعة المساكين.

وقال ابن قتيبة: إنما الفَكَّة قدَّام الرَّامح.

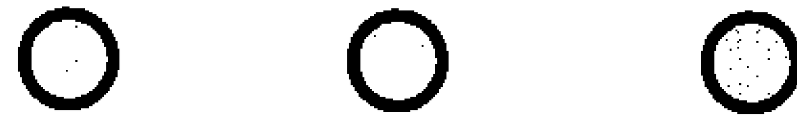
قال الجوهري: وعرش السِّماك أربعة كواكب صغار أسفل من العَوَّاء، يقال لها:

(١) «الصحاح»: (سمك).

عجز الأسد[١].

وقال ابن قتيبة: السِّماك الأعزل حدٌّ ما بين الكواكب اليمانيَّة والشَّاميَّة.

وأمَّا الغَفْر: فقال الجوهري: هو ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر، وهي من الميزان[٢]. وقال غيره: هي مأخوذة من الغفرة، وهي الشعرة التي في طرف ذنب الأسد، وصورته:



وأمَّا الزَّبَّانى: فقال الجوهري: وزبانيا العقرب قرناها[٣] وقال النوبختي: هما كوكبان نيران

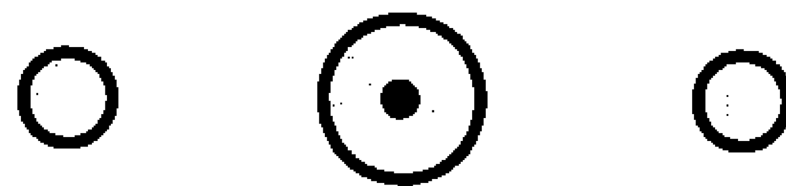


وأما الإكليل: فأربعة أنجم مصطفَّة، وهذه صورته:



كذا قال الجوهري[٤]، وقال غيره: هو ثلاثة، وهو رأس العقرب كأنَّه الإكليل على الرأس.

وأمَّا القلب: فقلب العقرب، وهو كوكب نيِّر، وإلى جانبه كوكبان، وصورته:



(١) «الصحاح»: (عرش).
(٢) «الصحاح»: (غفر).
(٣) «الصحاح»: (زبن).
(٤) «الصحاح»: (كلل).

وأمَّا الشَّولة: فقال الجوهري أيضاً: هي كوكبان نيِّران متقاربان يقال لهما: حُمَة العقرب[١]:



وقال النُّوبَختي: هما ذنب العقرب مأخوذ من الشَّول، وهو الارتفاع، كأنَّها شائلة أي: مرتفعة.

وأمَّا النَّعائم: فقال الجوهري: هي ثمانية أنجم كأنها سرير معوجّ، أربعة صادرة وأربعة واردة[٢].

وقال أبو معشر: هي خارجة عن المجرة كأنها شربت ثم صدرت.

وقال النُّوبَختي: هي شبيهة بالخشبات التي تكون معلَّقة على رأس البئر يُعَلَّقُ فيها البكرة والحبال، وتسمَّى النَّعائم.

وأمَّا البَلْدة: فقال الجوهري: هي ستَّة أنجم من القوس تنزلها الشمس في أقصر يوم من السنة[٣].

وقال النُّوبختي: البَلْدة الفرجة بين الحاجبين، وصورتها:



وأمَّا سعد الذابح: فقال الجوهري: هما كوكبان نيِّران بينهما مقدار ذراع، وفي نحر كلٍّ واحد منهما نجم صغير قريب منه، كأنه يذبحه فسمِّي ذابحاً لذلك[٤]. وصورته:

---

(١) «الصحاح»: (شول).

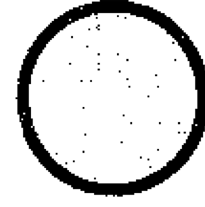
(٢) «الصحاح»: (نعم).

(٣) «الصحاح»: (بلد).

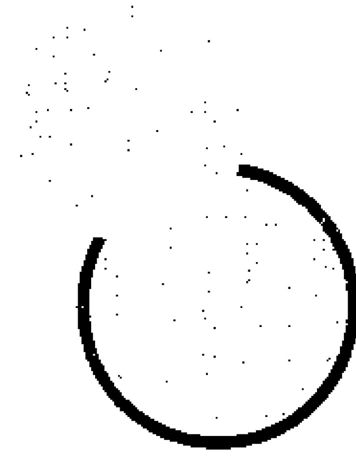
(٤) «الصحاح»: (ذبح).



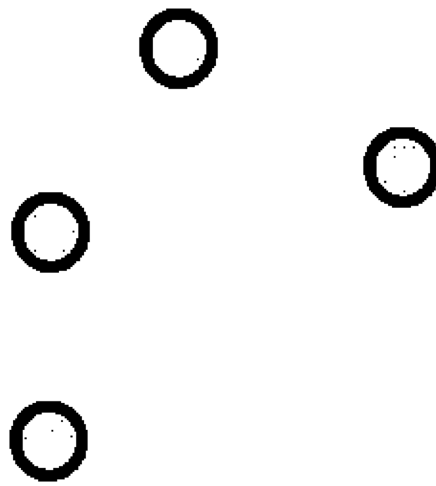
وأمّا سعد السُّعود: فكوكب واحد نيِّر مفرد يتنزَّل بالسّعادة، وصورته:



وأمّا سعد بُلَع: فكوكب واحد كأنه فم مفتوح يريد أن يبلع شيئاً، وصورته:



وأمّا سعد الأَخْبِيَة: فثلاثة أنجم كأنها أثافي، ونجم رابع تحت واحد منهنَّ وصورته:



وقيل: هما كوكبان. ومنهم من قال: أوَّل السعود، سعد السُّعود، ثم سعد الذَّابح، ثم سعد الأخبية، ثم سعد بُلَع.

وقال الجوهري: وسعود النجوم عشرة، أربعة منها في برج الجدي[1] ينزلها القمر وذكر الأربعة، قال: وأمّا السّتّة التي ليست من منازل القمر فسعد ناشِرَة، وسعد الملِك وسعد البِهام وسعد الهُمَام وسعد البَارِع وسعد مَطَر. قال: وكل سعد من هذه السّتّة كوكبان، بين كل كوكبين في رأي العين مقدار ذراع، وهي متناسقة[2].

(١) جاء بعدها في «الصحاح»: «والدلو».

(٢) «الصحاح»: (سعد).

وأمّا فَرْغ الدلو المقدَّم والمؤخَّر: فكل واحد منهما كوكبان، بين كل كوكب مقدار خمسة أذْرع في رأي العين، كأنهما يفرغان من الدّلاء. وقال الجوهري: والفرغ مخرج الماء من الدلو بين العَراقي، قال: ومنه يسمّى الفرغان(١).

وأمّا الرِّشاء: فقال الجوهري: هي كواكب كثيرة صغار على صورة السّمكة يقال لها: بطن الحوت، وفي سرّتها كوكب نيِّر، ينزله القمر(٢).

فهذه منازل القمر يقطعها في كل شهر، ويكون القمر في كل ليلة حذاء واحد منها أو قريباً منه ثمَّ ينتقل في الليلة الثانية إلى ما بعده، ويكون منها فيما بين طلوع الشمس إلى غروبها أربعة عشر، وفيما بين غروبها وطلوعها أربعة عشر(٣)، وفي وقت الفجر منزلان منها، وكلها تطلع من المشرق وتغرب في المغرب، وتكون وقت طلوعها إلى يسرة المصلي، ووقت غروبها على يمينه، بحسب اختلاف الأقاليم. والشمس أيضاً تنزل هذه المنازل.

فصل

والعرب تسمِّي هذه المنازل الأنواء: وقال ابن قتيبة: إنما سمّي النوء نوءاً لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع(٤). أي: نهض.

وقال الجوهري: والنَّوء سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كلّ ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً، وهكذا كل نجم منها إلى انقضاء السّنة، ما خلا الجبهة فإنّ لها أربعة عشر يوماً. قال: وقال أبو عبيد: لم يسمع في النوء أنه السقوط إلّا في هذا الموضع، وكانت العرب تضيف إليها الأمطار والرياح والبرد والحرّ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مطرنا بنوءِ كذا(٥).

(١) «الصحاح»: (فرغ).

(٢) «الصحاح»: (رشو).

(٣) في (ب): «أربعة وعشرون».

(٤) «أدب الكاتب» ص٨٧.

(٥) «الصحاح»: (نوأ)، و«غريب الحديث» ١/ ٣٢١. ولم يذكرا القول عن سيدنا عمر بن الخطاب، إنما ذكراه حكاية عن قول العرب.

فصل في مطالعها

قال النُّوبختي: طلوع الشَّرَطين[١] لتسع عشرة خلت من نيسان، وتنزل الشمس يومئذ الإكليل، وطلوع البُطَين لليلة إن بقيت منه. وطلوع الثُّريَّا لثلاث عشرة من أيار وتستسرُّ بعد ما سقط عند المغرب خمسين ليلة، ثم تظهر بالغداة من المشرق، فإذا توسَّطت السَّماء مع غروب الشمس اشتدَّ البرد وترتفع العاهات عن الثمار، وقد روينا أنَّ النبي ﷺ قال: «إذَا طَلَع النَّجْم ارتَفَعَت العَاهَةُ»[٢].

وطلوع الدَّبَران لستّ وعشرين من أيَّار. وطلوع الهَقْعَة لثمان خلون من حَزِيران[٣]. وطلوع الهَنْعَة لإحدى وعشرين منه[٤]. وطلوع الذِّراع لأربع خلَون من تَمُّوز. وطلوع النَّثرة لسبع عشرة ليلة خلت منه مع طلوع الشِّعرى العبور. وطلوع الطَّرف لأوَّل ليلة من آب. وطلوع الجَبْهَة لأربع عشرة ليلة خلت منه. وطلوع الزُّبرة لتسع وعشرين منه[٥]. وطلوع الصَّرْفة لثمان خلَون من أَيلول[٦]. وطلوع الغَفْر لتسع عشرة ليلة خلت منه[٧]. وطلوع الزَّبَّانى لليلتين إن بقيتا منه[٨]. وطلوع الإكليل لاثنتي عشرة من تشرين الأول[٩]. وطلوع القلب لخمس وعشرين منه[١٠]. وطلوع الشَّولة لثمان[١١] من تشرين الثاني. وطلوع النعائم لإحدى وعشرين منه[١٢]. وطلوع البلدة لثلاث خلون من كانون

---

(١) في (ب) و(ل): «البطين» والمثبت من (ط)، وانظر الأنواء ص ١٨.
(٢) تقدم تخريجه عند الكلام على الثريا ص ١٨٠.
(٣) في «الأنواء» ص٤١: لتسع ليال.
(٤) في «الأنواء» ص٤٢: لاثنتين وعشرين ليلة.
(٥) في «الأنواء» ص ٥٩: لأربع ليال يبقين من آب.
(٦) في «الأنواء» ص ٥٩: لتسع ليال تخلو من أيلول.
(٧) في «الأنواء» ص٦٧: لثماني عشرة ليلة تخلو من تشرين الأول.
(٨) في «الأنواء» ص٦٨: آخر ليلة من تشرين الأول.
(٩) في «الأنواء» ص٦٩: لثلاث عشرة ليلة تخلو من تشرين الآخر.
(١٠) في «الأنواء» ص٧٠: لست وعشرين ليلة تخلو من تشرين الآخر.
(١١) في (ب): «لثماني عشرة»، و في «الأنواء» ص٧٢: لتسع ليال تخلو من كانون الأول.
(١٢) في «الأنواء» ص٧٤: لاثنتين وعشرين ليلة تخلو من كانون الأول.

الأول[١]. وطلوع الذراع لستّ عشرة ليلة خلت منه[٢]. وطلوع سعد السعود لتسع وعشرين منه[٣]. وطلوع سعد الذابح لإحدى عشرة ليلة[٤] خلت من كانون الثاني، وقيل: لأربع وعشرين خلت منه، وطلوع سعد الأَخْبِيَة لست خلون من شباط[٥]. وطلوع سعد بُلَع لثمان عشرة خلون منه[٦]. وطلوع الفَرْغ المقدَّم لليلتين خلتا من آذار[٧]. وطلوع المؤخر لأربع عشرة ليلة خلت منه[٨]. وطلوع الرِّشاء لأربع من نيسان[٩].

فصل
في انقسام هذه المنازل على فصول السنة

قال ابن قتيبة: لفصل الربيع: الشَرَطين[١٠]، والبُطَين، والثُّريَّا، والدَّبَران، والهَقْعَة، والهَنْعَة، والذِّراع.

ولفصل الصيف: النَّثرة، والطَّرْف، والجَبْهَة، والزُّبْرَة، والصَّرْفة، والسِّماك، والعَوَّاء.

ولفصل الخريف: الغَفْر، والزُّبَّانى، والإكليل، والقلب، والشَّولة، والنَّعائم، والبَلْدة.

ولفصل الشتاء: سعد السُّعود، وسعد الذَّابح، وسعد الأَخبية، وسعد بُلَع، والفَرْغان المقدَّم والمؤخَّر، والرِّشاء[١١]. فلكلٍّ فصل سبع منازل، والله أعلم.

(١) في «الأنواء» ص٧٦: لأربع ليال تخلو من كانون الآخر.
(٢) في «الأنواء» ص٤٩: وسقوطها لأربع ليال تخلو من كانون الآخر.
(٣) في «الأنواء» ص٧٩: لاثنتي عشرة ليلة تمضي من شباط.
(٤) في «الأنواء» ص٧٦: لسبع عشرة ليلة.
(٥) في «الأنواء» ص٨٠: لخمس وعشرين ليلة تخلو من شباط.
(٦) في «الأنواء» ص٧٨: لليلة تبقى من كانون الآخر.
(٧) في «الأنواء» ص٨٢: لتسع ليال تخلو من آذار.
(٨) في «الأنواء» ص٨٣: لاثنتين وعشرين ليلة تمضي من آذار.
(٩) ويسمى الحوت كما في «الأنواء» ص٨٤-٨٥.
(١٠) كذا في النسخ والمطبوع، وصوابها: الشرطان.
(١١) «الأنواء» ص١٠٠-١٠٢، وانظر «أدب الكاتب» ص٨٦-٨٧.

فصل في أسجاع العرب
المتعلقة بهذه المنازل، وما نقل فيها عن الأوائل[١]

قرأت على شيخنا أبي اليُمن الكِندي رحمه الله، قال: قرأت على أبي منصور بن الجواليقي قال: بلغني عن أبي بكر محمد بن المنادي أنه قال: العرب تقول: إذا طلع الشرطين، استوى الزُّمَين. وأمَّا قول من يقول «الشرطان» فقال أبو حنيفة الدينوري: استوى الزمان، وخَضرت الأعطان[٢]، وعمرت الأوطان، وتهادت الجيران، وبات الفقير بكل مكان.

وإذا طلع البُطين اقتُضي الدَّين.

وإذا طلعت الثريَّا عشيًّا، بع لراعيك كسيًّا، فإن طلعت غُدَيًّا ابتغ له سقيًّا.

وإذا طلع الدَّبَران، توقَّدت الحرَّتان، ويبست الغدران.

وإذا طلعت الهَقْعَة، رجع الناس عن النُّجْعة. وإذا طلعت الهَنْعَة، انعطفوا إلى المنعة.

وإذا طلع الذراع، حسرت الشمس القناع، واشتعل في الأفق[٣] الشعاع، وترقرق السَّراب بكل قاع.

وإذا طلعت النَّثرة، جُني النخل بكثرة، ولم يترك في ذات دَرٍّ قطرة.

وإذا طلع الطَّرْف، سهل أمر الضَّيف وخف.

وإذا طلعت الجَبْهة، توجَّه المسافر في كلِّ وجهة.

وإذا طلعت الصَّرفة احتال كلُّ ذي حرفة.

وإذا طلعت العَوَّاء، ضُرب الخباء، وطاب الهواء.

وإذا طلع السِّماك، كثر على الماء اللِّكاك، يعني الزِّحام.

---

(١) أورد ابن قتيبة في «الأنواء» هذه الأسجاع مفرقة كل في موضعه، وانظر «المخصص» ٩/ ١٥-١٧، و«الأزمنة والأمكنة» ٢/ ٢٤٩-٢٥٤.

(٢) في (ب): «خضرت الأغصان».

(٣) في (ب): «الأرض».

وإذا طلع الغَفْر، عاد السَّفْر.

وإذا طلعت الزُّبانى، أخذ كلُّ ذي عيال شانا.

إذا طلع الإكليل بطلت التعاليل.

إذا طلع القلب، لان كلُّ صعب.

إذا طلعت الشَّولة، أعجلت الشيخَ البولة.

إذا طلعت النَّعائم، خلص البرد إلى كل قائم.

إذا طلعت البلدة، أكلت القِشْدَة ـ وهي ما يخرج من الزبد والسّمن في أسفل القدر ـ وفي رواية ابن فارس: أكلت الجعدة، وهي نبت معروف.

إذا طلع سعد السعود اخضرَّ العود، ولانت الجلود، وكره في الشمس القعود.

إذا طلع الذابح، حمى أهلَهُ النَّابح.

إذا طلع الأخبية، حنّ الناس إلى لبس الأقبية.

إذا طلع بُلَع، اقتحم الرُّبُع[١] ـ أي قوي على المشي ـ وصار في الأرض لُمع ـ أي بدَّر الكلأ.

إذا طلع المقدَّم، فاخدم وإلا تندم.

إذا طلع المؤخَّر، فأسرع ولا تتأخر.

إذا طلعت السمكة، أمكنت الحركة، وتعلقت[٢] الحسكة، أي: حسك السَّعدان.



(١) الرُّبُع: الناقة المعتادة بأن تنتج في الربيع. «القاموس المحيط»: (ربع).

(٢) جاء بعدها في «الأنواء» ص٨٥: «بالثوب».

فصل
في النجوم

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[الأنعام: ٩٧] وقال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل: ١٦].

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنّه قال: علم النجوم نافع عجز عنه الناس، ووددت أني علمته. أشار إلى معرفة نفس النجوم، لا إلى الأحكام.

واتفقوا على أن نور القمر من نور الشمس.

واختلفوا في نور الكواكب، هل هو من نور الشمس أم من نور آخر، على قولين:

قال الخَرَقي والنُّوبختي وأبو معشر وغيرهم: الكواكب المعروفة ألف واثنان[(١)] وعشرون كوكباً:

منها **الجَدْي**، وهو أدلُّها على القبلة. قال الجوهري: والجدي نجم إلى جنب القُطب تُعْرَفُ به القبلة[(٢)]. قال: والقُطب كوكب بين الجدي والفَرْقَدَين يدور عليه الفَلَك[(٣)].

وقال النُّوبختي: الجدي إلى جانب القطب الشمالي حوله أنجم دائرة كفراشة الرَّحى، في أحد طرفيها الفَرْقَدَان، وفي الطرف الآخر نجم مضيء يقابلها، وبين ذلك أنجم صغار، ثلاثة من فوق وثلاثة من أسفل، تدور حول الجدي والقطب دوران فراشة الرحى حول سَفُّودها، وحولها بنات نَعْش تدور والجدي والقطب لا يَبْرحان من مكانهما، وإنما يُستدل بالجدي على القطب.

وقال أبو معشر: الجدي قطب هذه الفراشة، وقيل: القطب قطبها، ويستدل عليه بالجدي إذا لم يكن قمر، فإذا قوي ضوء القمر خفي مكانه فلا يراه إلا الحديدُ النظر.

والسُّها إلى جانبه، وهو نجم خفي يَمتحن به الناس أبصارهم.

---

(١) في (ب): «ومئتان»، وانظر «عجائب المخلوقات» ص٦٠.

(٢) «الصحاح»: (جدي).

(٣) «الصحاح»: (قطب).

وقال ابن قتيبة في «أدب الكاتب»: الجدي الذي تعرف به القبلة هو جدي بنات نَعْش الصغرى، وبناتُ نَعْش الصغرى بقرب الكبرى على مثال تأليفها، أربعة منها نَعْش وثلاث بنات، فمن الأربعة الفَرْقَدَان وهما المتقدِّمان، ومن البنات الجدي وهو آخرها. قال: والسُّها الذي يمتحن الناس به أبصارهم كوكب خفيٌّ في بنات نَعْش. وفي المثل: أُريها السُّها وتُريني القمر(١).

وكيفية معرفة القبلة بالجدي: أنك إذا جعلته وراء ظهرك في أرض الشام كنت مستقبل القبلة، وفي أرض العراق تجعله مقابل ظهر أذنك اليمنى على علوِّها فتكون مستقبلاً باب البيت إلى المقام، ومتى استدبَرْتَ الفَرْقَدَين أو بنات نَعْش كنت مستقبلاً جهة الكعبة.

وأمَّا الفَرْقَدان فنجمان مضيئان قريبان من القطب وهما ندمانا جَذيمة(٢).

وقال الجوهري: وبنات نَعْش الكبرى سبعة كواكب، أربعة منها نَعْش وثلاث بنات، وكذا بنات نَعْش الصغرى(٣).

وقال أبو حنيفة الدينوري: والقطب الشمالي والجنوبي لا يبلغهما شمس ولا قمر، والقطب الجنوبي عند مطلع سُهيل، لا يظهر إلا في جزيرة العرب.

ومنها **سُهيل**، وهو إلى جانب القطب الجنوبي ومطلعه من مهبِّ الجنوب، ثم يسير نحو المغرب فيصير في قِبلة المصلي وهناك يغيب.

وقال ابن قتيبة: سهيل كوكب أحمر منفرد عن الكواكب، ولقربه من الأرض تراه أبداً كأنه يضطرب، وهو من الكواكب اليمانية(٤)، ومطلعه عن يسار القبلة(٥)، ويرى في جميع أرض العرب والعراق والشام، ولا يرى في بلاد أرمينية، وبين طلوعه

---

(١) «أدب الكاتب» ص٩١-٩٢، وانظر «جمهرة الأمثال» ١/ ١٤٢، و«مجمع الأمثال» ١/ ٢٩١.

(٢) هو جذيمة بن الأبرش، وسيذكر المصنف قصته مع الفرقدين في فصل ذكر ملوك الحيرة.

(٣) «الصحاح»: (نعش).

(٤) في (ل): «الثمانية».

(٥) في «أدب الكاتب»: «عن يسار مستقبل قبلة العراق».

بالحجاز ورؤيته بالعراق بضع عشرة ليلة[١]. وذكره الجوهري فقال: وسهيل نجم[٢]. والعرب تقول: إذا طلع سهيل لا تأمن السَّيل[٣].

وقال أبو معشر: من هذه الكواكب التي هي ألف واثنان[٤] وعشرون كوكباً: ثلاث مئة واثنا عشر كوكباً[٥] في اثنتي عشرة صورة في طريق الشمس، وهي البروج الاثنا عشر. ومنها ثلاث مئة وستون كوكباً في إحدى وعشرين صورة، وهي مائلة عن طريق الشمس إلى ناحية الشمال، منها الدبُّ الأكبر والأصغر والتنين وغيرهم. ومنها ثلاث مئة وستة عشر كوكباً في خمس عشرة صورة مائلة عن طريق الشمس إلى ناحية الجنوب، والاعتماد على الكواكب التي في طريق الشمس لأنها منتقة[٦] البروج، وما عدا الكواكب التي سمينا لم يُسمها عامة أرباب الهيئة.

وذكرها أبو محمد عبدالجبّار المعروف بالخَرَقي في كتابه المسمى بـ «التبصرة في الكواكب الثابتة»[٧] فقال: فأمَّا الكواكب التي في الصور الشمالية:

فمنها الدبُّ الأصغر: وهو على صورة دبٍّ واقف مادٍّ ذنبه، وكواكبه سبعة، وتسمّيها العرب: بنات نَعْش الصغرى، فأربعة هي النَّعْش على شكل مربع، والثلاث على طرف ذنبه، والخارج عن الصورة كوكب واحد، فالذي على طرف ذنبه يسمُّونه: الجدي، وهو الذي يُتَوخى به القبلة، إذ هو أقرب الكواكب المرصودة إلى القطب الشمالي.

قال: ومنها الدبُّ الأكبر: وكواكبه سبعة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة منها ثمانية كواكب. من جملتها سبعة تسميها العرب بنات نَعْش الكبرى، أربعة على يديه وثلاثة على ذنبه، والذي على طرف ذنبه يسمونه: القائد، ثم العَنَاق، ثم

(١) «أدب الكاتب» ص٩٢-٩٣.

(٢) «الصحاح»: (سهل).

(٣) انظر «الأنواء» ص١٥٤-١٥٥.

(٤) في (ب): «مئتان».

(٥) جاء بعدها في (ب): «في اثنتي عشر كوكباً».

(٦) كذا في المخطوطتين، وفي كنز الدرر ١/ ٥٤: متقنة.

(٧) تقدم الكلام على الكتاب ومؤلفه.

الجون[١]، وبقرب العَنَاق كوكب صغير يسمونه: السُّها.

ومنها التِّنِّين: وهو أحد وثلاثون كوكباً وصورته حيَّة كبيرة كثيرة العطفات، وابتداؤها من أربعة كواكب على شكل مربع منحرف على رأسه، تسميه العرب: العوائذ.

قال الجوهري: والتِّنِّين موضع في السماء، والتِّنين ضرب من الحيَّات[٢].

قال: ومنها الفكة: ويقال له: الإكليل الشِّمالي، ويعرف بقصعة المساكين لاستدارتها، وكواكبها ثمانية، وذكرها الجوهري فقال: والفكة كواكب مستديرة خلف السِّماك الرامح[٣].

ومنها الجاثي على ركبتيه: وصورته تسعة وعشرون[٤] كوكباً.

ومنها السلياق: ويقال له: اللوزا والصبح الرومي والسلحفاة، وكواكبه عشرة من جملتها كوكب نيِّر يسمُّونه: النَّسر الواقع، سمي بذلك لأن جناحيه مقبوضان.

قال الجوهري: وفي النجوم النَّسر الطائر والنَّسر الواقع[٥].

ومنها الدَّجاجة: سبعة عشر كوكباً، والخارج عن الصورة كوكبان، وأكثر كواكبها في المجرة قريبة من النسر الواقع.

ومنها ذات الكرسي: ثلاثة عشر كوكباً، وصورتها صورة امرأة جالسة على كرسي عليه مسند وقد دلَّتْ رجليها، وهي في نفس المجرة، ومن كواكبها الكف الخضيب على وسط المسند، يعرف بسنام الناقة.

ومنها برشاوس: ويسمى حامل رأس الغول، ستة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة ثلاثة كواكب، وصورته صورة رجل قائم على رجله اليسرى رافع رجله اليمنى،

(١) هكذا جاءت في الأصول الخطية، وصوابه: الحَوَر، كما في «القاموس المحيط»: (حور).
(٢) «الصحاح»: (تتن).
(٣) «الصحاح»: (فكك).
(٤) في (ب): «تسع وثلاثون».
(٥) «الصحاح»: (نسر).

ويده اليمنى فوق رأسه، وبيده اليسرى رأس مشوَّه الخلق مقطوع، يسمَّى: رأس الغول.

ومنها ممسك العَنان: أربعة عشر كوكباً، وصورته صورة رجل قائم بإحدى يديه سوط، ويده الأخرى قابضة على عنان خلف العَيُّوق.

ومنها الحوَّاء: وهي أربعة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة خمسة كواكب، وصورته صورة رجل قائم قد قبض بيديه جميعاً على حية.

ومنها حيَّة الحوَّاء: ثمانية عشر كوكباً قد قبضها الحوَّاء وقد رفعت رأسها وذنبها حتى عليا رأسه.

ومنها السَّهم: خمسة كواكب بين منقار الدجاجة والنسر الواقع.

ومنها العُقاب: تسعة كواكب، والخارج عن الصورة ستة، ومن كواكبه النَّسر الطائر لأن جناحيه مبسوطان.

ومنها الدُّلْفِين: عشرة كواكب مجتمعة خلف النَّسر الطائر، وصورته صورة حيوان بحري يشبه الزِّق المنفوخ، ولم يذكره الجوهري في النجوم، وإنما قال: الدلفين - بالضم - دابَّة في البحر تنجي الغريق(١).

ومنها قطعة الفرس: أربعة كواكب، ويقال لها: مقَدَّم الفرس، خلف كواكب الدُّلفين.

ومنها الفرس الأكبر: وهو ذو الجناح، عشرون كوكباً، صورة فرس له رأس ويدان وليس له رجلان ولا كِفل.

ومنها أندروميدا: ويقال لها: المرأة المسلسلة، اثنان وعشرون كوكباً، وصورتها: امرأة قائمة ممدودة اليدين، في يديها سلسلة كأنها معلَّقة بها، ويقال: السِّلسلة في رجليها.

ومنها المثلث: أربعة كواكب بين كواكب السمكة وبين النِّير الذي على رأس الغول.

قال الخَرَقي: فجملة هذه الصور الشمالية ثلاث مئة وستون كوكباً. فأما الصور

---

(١) «الصحاح»: (دلف).

الجنوبية فثلاث مئة وستة عشر كوكباً:

منها قيطس: اثنان وعشرون كوكباً، وصورته صورة حيوان بحريٍّ، ذو رجلين وذنب كذنب الحوت.

ومنها الجبَّار: ثمانية وثلاثون كوكباً، وصورته صورة رجل على كرسيٍّ بيده عصا، وفي وسطه مِنطَقة وسيف، ومن كواكبه يد الجوزاء، وهو كوكب أحمر نيِّر.

ومنها النَّهر: أربعة وثلاثون كوكباً، وشكله شكل جدول كثير العطفات.

ومنها الأرنب: اثنا عشر كوكباً مجتمعة تحت رِجل الجبَّار مشبَّهة بأرنب، ووجهه إلى المغرب ومؤخره إلى المشرق.

ومنها الكلب الأكبر: ثمانية عشر كوكباً، والخارج عن الصورة أحد عشر كوكباً خلف كواكب الجوزاء أمام السَّفينة، ومن كواكبه الشِّعرى العَبُور، كوكب نيِّر، ويسمَّى الثاني المِرْزَم.

قال الجوهري: والشِّعْرى الكوكب الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدَّة الحرِّ، وهما الشِّعريان العَبُور التي في الجوزاء، والشعرى الغُمَيْصاء التي في الذراع، وتزعم العرب أنهما أختا سهيل(١).

وقال الجوهري: والمِرْزَمان مِرْزَما الشِّعْرَيَيْن، وهما نجمان أحدهما في الشِّعرى، والآخر في الذِّراع(٢).

ومنها الكلب الأصغر: وهما كوكبان يسمَّى أحدهما الشِّعرى الشامية والغُمَيْصاء، كوكبان نيِّران.

ومنها السَّفينة: خمسة وأربعون كوكباً مجتمعة في ناحية الجنوب تطلع في أثر الكلب الأكبر، من جملتها سُهيل النَّجم الأحمر.

ومنها الشُّجاع: خمسة وعشرون كوكباً، والخارج عن الصورة كوكبان، وصورته صورة حيَّة طويلة كثيرة العطفات، ورأسه على خلقة وجه الفرس من أربعة كواكب،

---

(١) «الصحاح»: (شعر).

(٢) «الصحاح»: (رزم).

يبتدئ من زُباني السَّرطان، وهو بين الشِّعرى الشامية وقلب الأسد.

ومنها الكأس: سبعة كواكب على شكل مستدير عند ظهر الشُّجاع، ويسمَّى الباطِيَة.

ومنها الغراب: سبعة كواكب، ويسمَّى: عرش السِّماك الأعزل، ويسمَّى أيضاً: الخِباء.

ومنها قنطورس: سبعة وثلاثون كوكباً، وصورته صورة حيوان مركَّب من إنسان وفرس، مقدَّمه مقدَّم الإنسان من رأسه إلى ظهره، ومؤخَّره مؤخر فرس من منشأ ظهره إلى ذنبه، قد أخذ بيديه رجلي سبع، وتسمِّيه العرب شماريخ.

ومنها السَّبُع: تسعة عشر كوكباً مجتمعة خلف كواكب قنطورس على جنوب العقرب.

ومنها الإكليل الجنوبي: ثلاثة عشر كوكباً[١] وشكلها شكل صنوبري، وتسمّيها العرب: قبَّة.

ومنها الحوت الجنوبي: أحد عشر كوكباً، والخارج عن الصورة ستة كواكب، وصورته صورة سمكة عظيمة كواكبها على جنوب كواكب الدَّلو، ورأسها إلى المشرق، وذنبها إلى المغرب.

ومنها المجمّرة[٢]: على جنوب خرزات العقرب.

قال الخَرَقي: فهذه جملة الكواكب الشمالية والجنوبية.

قلت: وهذا الذي ذكره يختص بالكواكب التي هي غير مشهورة، وأمَّا الكواكب السبعة وما كان في معناها فنذكرها.

فصل في أجرامها

واختلفوا فيها: ذكر النُّوبختي وأبو مَعشر أن جِرم الشمس بمقدار الدنيا مئة وستة وستين[٣] مرَّة ونصفاً. وجرم القمر بمقدار الدنيا تسعاً وثلاثين مرَّة، وكذا الزُّهرة

---

(١) من قوله: مجتمعة . . . إلى هنا ليس في (ب).

(٢) في (ل): المجرة، والمثبت من (ط).

(٣) في (ب): «مئة سنة وستين».

وعُطارد والمِريخ، وجِرم المشتري بمقدار الدنيا اثنتين وثمانين[١] مرة. قال الجوهري: ويسمَّى المُشتري الأحور[٢]. وزحل أعظم من الدنيا بتسع وتسعين مرّة.

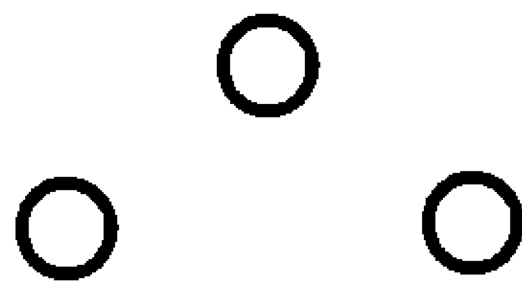
وروي عن النُّوبختي أنه قال: جِرم الشمس خمس عشرة درجة أمامها، وكذا خلفها، وجِرم القمر اثنتا عشرة درجة أمامه، وكذا خلفه، وجِرم المشتري تسع درجات أمامه، وكذا خلفه، وكذا جِرم زحل، وجِرم المِرِّيخ ثمان درجات أمامه وكذا خلفه، وجرم الزهرة سبع درجات أمامها وكذا خلفها، وكذا عطارد.

وذكر هارون بن المأمون في تاريخه المسمّى بـ «منهاج الطالبين»: أن أصغر كوكب في السماء بمقدار الدنيا مرَّات كثيرة، قال: إلا القمر، فإنه أصغر من الأرض.

قلت: أما «قوله أصغر كوكب في السماء بمقدار الدنيا» فنعم، وما ذكر في القمر فلم يوافقه عليه أحد.

قال أبو معشر: فأمَّا الكواكب العظام الثابتة كالشِّعرى العَبُور، والسِّماك، والنَّسر الواقع، والطائر، وقلب الأسد، ونحوها، وهي خمسة عشر كوكباً، فكل كوكب منها بمقدار الأرض أربعاً وتسعين مرّة ونصفاً.

وقال ابن قتيبة: النَّسر الواقع ثلاثة أنجم [كأنها أثافي، وبإزائه النسر الطائر وهو ثلاثة أنجم] مصطفَّة



[وإنما قيل للأول]: الواقع كأنَّهم جعلوا اثنين منها جناحيه قد ضمَّهما إليه كأنه طائر وقع، وكذا الطائر ثلاثة أنجم مصطفَّة يجعلون اثنين منها جناحيه كأنه طائر قد بسطهما[٣].

قال أبو معشر: ويقطع كل واحد منهما الفلك في ستّة وثلاثين ألف سنة.

---

(١) في (ب): «تسعة وثلاثين».

(٢) «الصحاح»: (حور).

(٣) «أدب الكاتب» ص٩٢، وما بين معقوفين زيادة منه.

فصل
في قطع النجوم السبعة الأفلاك

ذكر أبو حنيفة الدِّينوري: أنَّ القمر يقطع الفلك في تسعة وعشرين يوماً وأقل من ثلث يوم. وقال النُّوبختي: في تسعة وعشرين يوماً. وعُطارد يقطعه في أقل من ثمانية وعشرين يوماً، والزُّهَرة تقطعه في مئتين وأربعة وعشرين يوماً وأشف من ثلثي يوم، والشمس تقطعه في ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً وأشف من ربع يوم، والمِرِّيخ يقطعه في ست مئة وثلاثين يوماً، والمُشتري يقطعه في إحدى عشرة سنة وثلاث مئة وسبعة وعشرين يوماً، وزُحل يقطعه في تسع وعشرين سنة فارسيَّة ومئة وستَّة وسبعين يوماً.

فصل
في مقامات الكواكب في البروج

قالوا: مقام القمر في كل برج ليلتان وثلث ليلة، ومقام عطارد في كل برج خمسة عشر يوماً، ومقام الزُّهرة في كل برج خمسة وعشرون يوماً، ومقام الشمس في كل برج شهر، ومقام المِرِّيخ خمسة وأربعون يوماً، ومقام المُشتري سنة، ومقام زُحل في كل برج ثلاثون شهراً.

فصل
في شرف الكواكب

شرف القمر الثور، شرف عُطارد السُّنبلة، شرف الزُّهَرة الحوت، شرف الشمس الحَمَل، شرف المِرِّيخ الجدي، شرف المُشتري السَّرطان، شرف زُحل الميزان.

فصل
في المجرة

واختلفوا فيها، قال بعضهم: هي شرج السَّماء، كأنها مجمع النجوم، كشرج القبَّة. وقيل: هي باب السماء، وتسمِّيها العرب: أمَّ النجوم، لأنه ليس في السماء بقعة أكثر عدداً من الكواكب فيها.

وقد روى أبو بكر الخطيب حديثاً في المجرّة فقال: أخبرني علي بن محمد بن الحسن المالكي بإسناده عن معاذ بن جبل قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «إنْ هُم سَألوكَ عن المجرَّةِ فقل: إنَّها من عَرَق الأَفْعى الذي تحتَ العَرْشِ»(١).

قال جدّي في «الموضوعات»: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وفي إسناده الشَّاذَكُوني، اسمه سليمان بن داود، كان يضع الحديث ويكذب(٢).

فصل
فيما لكل كوكب من الأيام السبعة

قالوا: يوم الأحد للشمس، والإثنين للقمر، والثلاثاء للمِرِّيخ، والأربعاء لعُطارد، والخميس للمُشتري، والجمعة للزُّهرة، والسبت لزُحل.

فصل
في اقتران الكواكب

معنى القِران أن يجتمع الكوكبان في برج واحد، فيؤثران بأمر الله تعالى.

قالوا: إذا قارن زحل المشتري عمت(٣) الحروب في الأقاليم ويموت ملك، وكذا إذا قارن المِرِّيخ زُحل، وكذا إذا قارنت الشمس زحل.

وإذا قارنت الزُّهَرة زحل دلَّ على غلاء الأسعار والقحط.

وإذا قارن زحل عطارد دلَّ على صلاح حال الكتَّاب.

وإذا قارن زحل القمر دلَّ على ظهور الجَوْر.

وإذا قارن المشتري المِرِّيخ لقي العالم شدائد عظيمة.



فصل

---

(١) «تاريخ بغداد» ٩/ ٤٤.

(٢) «الموضوعات»(٢٩٦).

(٣) في (ب): «عملت».

في طبائع الكواكب

قال أبو معشر وغيره: القمر أنثى بارد رطبٌ بلغميٌّ، وفيه حرارة عرضيَّة، لأن ضوءه من ضوء الشمس، وسلطانه على الطِّحال والرئة، وهو سعد.

عطارد يتذكَّر ويتأنَّث، وهو مرَّة سعد ومرَّة نحس، ويستوي في طبيعته الحرُّ والبرد. وسلطانه النطق والكتابة.

الزُّهَرة: أنثى ممزوجة، وهي سعد، باردة رطبة لها البلغم، وسلطانها على الفرج والمفاصل، ولها الشهوة ونظم الأكاليل وتأليف الألحان والغناء، واللعب واللهو والضحك.

الشمس: ذكر حارَّة يابسة لها المِرَّة الصفراء، وهي سعد بالنظر، نحسٌ بالمقابلة، جوهرها الذهب، وسلطانها على الفؤاد، ولها الشرف والعلوُّ، والفرح والسرور والملك.

المِرِّيخ: مؤنَّث ناريٌّ حارٌّ يابس نحس، له المِرَّة الصفراء، وجوهره النحاس، ومذاقته مُرَّة، وسلطانه على الرأس والمعدة، وله الدَّاء القاتل والقتل، وفساد النساء في الحبل.

المُشتري: ذكرٌ معتدل روحاني هوائي سعد، وله الدم، وجوهره الرَّصاص، ومذاقته طيِّبة، ولونه أبيض، وسلطانه على الريح الساكنة في القلب، وله العطاء والعبادة والعلوُّ والرياسة.

زُحل: ذكرٌ بارد يابس مظلم، له المِرَّة السوداء، وجوهره الحديد، ومذاقته مُرَّة، ولونه أسود، وسلطانه على المذاكير، وله الجسارة والتؤدة والوحدة والقهر والجبريَّة.

قلت: وزعم قوم أن هذه البروجَ والأفلاك والكواكب السيَّارة تفعل في العالم التأثير، وأنَّها هي المدبِّرة للعالم، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾[النازعات: ٥] ونحو ذلك.

ونحن نقول: قد ورد أن إدريس عليه السلام لما صعد السَّماء أُخبر بالبروج والنجوم وغيرها، فما جاء عنه في هذا الباب فمقبول، وما نهى عنه الشرع فلا يُلتَفَت إليه، بل قد

قامت البراهين والأدلة على أن الباري سبحانه وتعالى اخترعها وأنشأها وابتدعها.

وأمَّا قولهم: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ فقد قال ابن عباس: هم الملائكة، بعضهم مُوكَّلٌ بالأرزاق، وبعضهم بالرِّياح لما نذكر في خلق الملائكة، ولو كانت مدبِّراتٍ فبإذن الباري سبحانه وتعالى، لأنه القادر العليم القاهر الحكيم.



فصل
في ذكر البيت المعمور
وما ورد فيه من النَّص والحديث المشهور[(١)]

قال الله تعالى ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾[الطور: ٤].

روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: [اسمه] الضُّراح.

وقد ضبطه الجوهري فقال: والضراح ـ بضمِّ الضاد المعجمة والحاء المهملة ـ بيت في السَّماء[(٢)]، وهو البيت المعمور، عن ابن عباس[(٣)].

واختلفوا في أيِّ سماء هو على أقوال:

أحدها: في السماء الدنيا، وهو قول ابن عباس ومجاهد والربيع، واحتجوا بحديث عائشة.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي الزبير عن عائشة: أن النبي ﷺ قدمَ مكَّة فأرادَتْ عائشةُ أن تدخل البيتَ ـ يعني ليلاً ـ فقال لها بنو شيبة: إنَّ أحداً لا يدخله ليلاً ولكن نُخليه لكِ نهاراً، فشكَت إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنَّه ليسَ لأحَدٍ أن يدخُلَه ليلاً إنه بحِيال البيتِ المَعْمُور الذي في السَّماء، لو وَقَع حَجرٌ منه لوَقَع على ظهرِ الكعبةِ، وإنَّه يدخله كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ لا يعودونَ فيه إلى يوم القيامةِ، ولكنِ انطَلِقي أنتِ وصواحِبك فصَلِّينَ في الحِجْرِ» ففعلت، فأصبحت وهي تقول: قد دخلت البيتَ على رغم من رغم[(٤)].

وروى عكرمة عن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ بمعناه، وقال: «حُرمتُه في السَّماءِ

---

(١) انظر كنز الدرر ١/ ٦٠.

(٢) «الصحاح»: (ضرح).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه»(٨٨٧٤) من طريق كُريب، عن ابن عباس، وانظر «عمدة القاري» ١٧/ ٢٨.

(٤) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٩/ ١٢٤ من طريق هارون بن محمد بن هارون، عن إبراهيم بن الحسين بن ديزيل، عن موسى بن إسماعيل، عن سفيان بن نشيط، عن أبي محمد، عن الزبير، به. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ١١٧-١١٨، وعزاه لابن مردويه.

كحُرمةِ الكعبةِ في الأرضِ، فهو مَعمورٌ بكثرةِ الغاشِيَة والأهلِ والعبادةِ، يُصلِّي فيه كلَّ يومٍ سبعونَ ألف مَلَكٍ، لا يعودونَ فيه، وخادِمُه يُقال له: رَزين[١].

وروي عن ابن عباس أنّه كان من الجنَّة، فلمّا أُهبط آدم إلى الأرض حمل إليه ليستأنس به ثم رفع في أيّام الطوفان.

القول الثاني: أنه في السماء السادسة عند شجرة طُوبى. وروي عن عليٍّ عليه السلام[٢].

والثالث: أنه في السماء السابعة، قاله مجاهد والضحاك[٣]. وقد روى البخاري في حديث المعراج عن النبي ﷺ أنه قال: «ورَأيتُ البَيتَ المَعْمُور في السَّماءِ السابعةِ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون فيه[٤]».

قلت: ولا تنافي بين هذه الأقوال، لأنه يحتمل أن الله تعالى رفعه ليلة المعراج إلى السماء السادسة عند سدرة المنتهى ثم إلى السماء السابعة تعظيماً للنبي ﷺ حتى يراه في أماكن، ثم أعاده إلى السماء الدنيا.

وذكر الثعلبي عن الحسن البصري أنه قال: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾ أنه الكعبة الحرام يعمره الله كلّ سنة بالناس، وهو أوَّل بيت عُمِّر للعبادة. والقول الأوَّل أظهر لما روينا عن عائشة ﵂، ولأنَّ الكعبة تعمر بالنَّاس في السنة مرة، والبيت المعمور يعمر كلَّ يوم بالملائكة.



(١) أخرجه الأزرقي في تاريخ مكة ١/ ٤٩ من طريق كريب، عن ابن عباس.
(٢) انظر «عمدة القاري» ٤/ ٤٤.
(٣) انظر «عمدة القاري» ٤/ ٤٤.
(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة.

فصل
في سدرة المنتهى
التي يسير الراكب في ظلّها مئة عام لا يقطعها[(١)]

قال الجوهري: السِّدر شجر النَّبْق، الواحدة: سِدرة[(٢)].

واختلفوا لم سمِّيت بهذا الاسم على أقوال:

أحدها: لأنّه ينتهي إليها أعمال بني آدم التي تعرج بها الكتبة إلى السماء ثم تُقبض منها، وإليها ينتهي ما يقبض من فوقها فينقبض منها، قاله كعب الأحبار، وذكر أنه في التوراة.

كذلك فإنَّ العوفي روى عن ابن عباس قال: سألت كعباً عن سدرة المنتهى، فقال: هي سدرة في أصل العرش، إليها ينتهي عمل الخلائق فترفع منها، تعرج به الملائكة إليها فتقف عندها، ثم ينزل إليها أمر الله تعالى[(٣)]. وبه قال ابن مسعود وابن عبَّاس وجماعة من الصحابة.

والثاني: أنه ينتهي إليها علم كل عالم، قاله مقاتل.

والثالث: أن كل شيء من أوامر الله تعالى يصل إليها فينتهي عندها، ولا يعدوها شيء، قاله الربيع بن أنس.

والرابع: لأنَّ الملائكة المقرَّبين تنتهي إليها، فلا يتجاسرون أن يتجاوزوها من مخافة الله تعالى، قاله الضحاك.

والخامس: لأنه ينتهي إليها ما يعرج من أرواح المؤمنين، حكاه سفيان الثوري.

واختلفوا في أيِّ سماء هي على أقوال:

أحدها: في السماء السادسة، قاله ابن مسعود[(٤)].

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٦٢.

(٢) «الصحاح»: (سدر).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٠، والطبري في تفسيره ٢٧/ ٥٢.

(٤) أخرجه مسلم (١٧٣).

والثاني: في السماء السابعة، وقد ذكرها النبي ﷺ في المتفق عليه من حديث المعراج أنها فيها[(١)].

والثالث: أنها بعد السماء السابعة، قاله أبو هريرة، قال: وقال لي النبي ﷺ: «رَأيتُها بعد السَّماءِ السابعةِ، فقيل لي: هذِه سِدرَة المُنتَهى، فإذا شَجَرة يخرجُ من أصلِها أربعةُ أنهارٍ: نهرٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، ونهرٌ من لَبَنٍ، ونهرٌ من عَسَل مُصفًّى، ونهرٌ من الكافُورِ، والورقةُ منها تُغطِّي أُمَّة مِن الأُمَمِ[(٢)]».

وقال البخاري بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنَّة شجرةً يسيرُ الرَّاكبُ في ظِلِّها مئةَ عامٍ لا يَقطَعُها، واقرَأوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[الواقعة: ٣٠] متفق عليه[(٣)]، ورواه أبو سعيد[(٤)] وأبو هريرة[(٥)].

وقال ابن عباس: ليس في الجنة قصر ولا بيت إلا وفيه غصن من أغصانها.

وسئل علي رضي الله عنه عنها فقال: هي كالشمس في الدنيا.

وسمَّاها عبد الله بن سَلام: شجرة طوبى، قال: وكذا هي في التوراة. وفي القرآن ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهما، قالت سمعت النبي ﷺ يذكر سدرة المنتهى فقال: «يسير الراكب في ظلّ الفَنَن مئة عام، ويستظلّ بالفنن منها مئة ألف راكب، فيها فراش من ذهب كأنّ ثمرها القلال». وسنذكرها في المعراج إن شاء الله تعالى.

حدَّثنا عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد المقدسيّ رحمه الله تعالى بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: سأَلَ رجلٌ رسولَ الله ﷺ عن شجرة طوبى فقال: «غَرَسَها الله

---

(١) البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٧/ ٥٤، وليس فيه: رأيتها بعد السماء السابعة.

(٣) صحيح البخاري (٣٢٥١) دون قوله: «واقرؤا إن شئتم...».. وهو من أفراد البخاري، ولم يخرجه مسلم كما في الجمع بين الصحيحين (٢٠٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦).

تعالى بيدِه، ونَفَخ فيها من رُوحِه، تُنْبِتُ حُليّ أهلِ الجنَّةِ وحُلَلَهم، وأنَّ أغصانَها لَتُرى من وراءِ سُورِ الجنَّة»[١].

وقال مقاتل: لو أنّ ورقة منها وقعت في الأرض لأضاءت لأهلها، وهي طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد.

فصل

في ذكر الكرسي والعرش ومقدار ما بينهما وبين الفرش[٢]

قال الجوهري: الكرسيُّ واحد الكراسي المعروفة[٣].

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أنه الكرسي، وقد فسّر ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] بهذا، قال: ومعنى وَسِعَ أي ملأهما وأحاط بهما.

والثاني: أنَّ الكرسيَّ علم الله، ومنه قيل للصَّحيفة فيها العلم: كرَّاسة، ويقال للعلماء: الكراسيُّ، قاله الضحَّاك وروي عن ابن عبَّاس أيضاً.

والثالث: قدرة الله وسلطانه وملكه، والعرب تسمِّي المُلك القديم: كرسيًّا، قاله مقاتل.

والرابع: سرّه، قال الشاعر:

ما لي بأمرك من سرّ أكاتمه ولا بكرسيِّ علمِ اللهِ مخلوقُ

قاله الحسن.

والخامس: أهله، قاله أبو جعفر الطبري، قال: ومعناه وسع عباده أهل السماء والأرض.

والسادس: أنَّ الكرسيَّ هو العرش، قاله الحسن[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٦٧٣)، والطبري (٢٠٣٩٥) بنحوه، وإسناده ضعيف.

(٢) انظر «كنز الدرر» ١/ ٦٣.

(٣) «الصحاح»: «كرس».

(٤) انظر الأقوال السابقة في تفسير الطبري ٥/ ٣٩٧-٤٠٣.

والسابع: أنَّه مُلك عظيم أضافه إلى نفسه تخصيصاً لينبّه به على عظمته وقدرته، قاله مقاتل بن حيَّان، قال: ومعناه أن خلقاً من خلقي يملأ السَّماوات والأرض فكيف تُقدر قدرتي وتُنال عظمتي.

قلت: والأصح أنَّه الكرسيُّ بعينه، وباقي الأقوال مجاز وعدولٌ عن الحقيقة، لأنَّ الأخبار والآثار دالَّة عليه.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي ذرٍّ، قال قلت: يا رسول الله، أيُّما أُنزل عليك أعظم؟ قال: «آيةُ الكُرسيِّ» ثم قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذرٍّ، ما السَّماواتُ السَّبعُ في الكُرسيِّ إلّا كحَلْقةٍ ملقاةٍ في أرضٍ فلاةٍ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة»[١].

وروي عن علي[٢] عليه السلام أنه قال: الكرسيُّ من لؤلؤة بيضاء، وهو فوق السماء السابعة بمسيرة خمس مئة عام، وطول كلِّ قائمة منه مثل السماوات السبع والأرضين السبع، وهو بين يدي العرش، ويحمل الكرسيَّ أربعة أملاك، أقدامهم على الصخرة التي تحت الأرض السابعة.

وأمَّا ما ذكروه من معنى العلم والقدرة ونحو ذلك، فالعرب لا تعرف الكرسيَّ بمعنى العلم والقدرة والمُلك والأهل، وما استشهدوا به فشاذٌّ لا يعرَّج عليه.

وأمَّا **العرش**، فقال الجوهري: العرش سرير الملِك[٣]. وقال الزجَّاج: سرير الملك يسمّى عرشاً، وأنشد قول أميَّة بنِ أبي الصَّلت[٤]:

مـجِّـدوا الله فَـهْـو لـلـمـجـدِ أهـلٌ ربُّـنـا فـي الـسـمـاء أمـسـى كَـبـيـرا
بـالـبـنـاء الأعـلـى الـذي سَـبَـق الـنَّـا س وسـوَّى فـوقَ الـسَّـمـاء سَـريـرا

أي: عرشاً.

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١).
(٢) في النسخ: «جبريل» والمثبت من «كنز الدرر» ١/ ٦٤، وانظر تفسير القرطبي ٣/ ٢٧٦.
(٣) «الصحاح»: (عرش).
(٤) البيتان في ديوانه ص٣٩٩-٤٠٠.

وقال الحسن البصري: العرش هو الكرسي بعينه[١].

وليس كما ذكر، لأنّ الله تعالى فرَّق بينهما فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[البقرة: ٢٥٥] ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف: ٥٣] وذكر العرش في عدَّة مواضع.

وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: العرش بعد الكرسي، والعرش من ياقوتة حمراء، وتحته بحر تنزل منه أرزاق الحيوانات، يوحي الله إليه فيقطر ما شاء، ثم يقسم بين الخلائق، وبين حملة العرش وحملة الكرسيِّ سبعون حجاباً من نور، غلظ كلِّ حجابٍ مسيرة خمس مئة سنة، ولولا ذلك لاحترق حملة الكرسي من نور [حَمَلةِ] العرش.

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: للعرش ثلاث مئة وستون ألف برج، في كل برج ثلاث مئة ألف صف من الملائكة، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، يسبِّح كل واحد منهم بلسان لا يعرفه الآخر.

فإن قيل: فما الحكمة من خلق العرش، والله أعظم من كل عظيم؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه موضعُ خدمة الملائكة، فهم حافُّون به إلى يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾[الزمر: ٧٥] فهو كبابِ الملِك.

والثاني: لأنَّ الله جعله قبلةَ الدَّاعين، وملجأ المكروبين، ومفزع الخائفين، وحرم القاصدين، وجناب اللائذين.

والثالث: لأنه سقف الجنان، وتأوي إليه أرواح الشهداء في قناديل من ذهب معلَّقةٍ فيه، على ما ورد به الحديث الصحيح[٢].

والرابع: لأنَّ الله جعله معدن الستر واللطف، فروى عطاء عن ابن عباس قال:

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٣/ ١٠.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٧) عن مسروق قال: سألنا عبدالله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً، قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يارب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

حدثني كعب الأحبار قال: قرأت في بعض الكتب: أن ما في الدنيا مؤمن إلا وله تمثال على هيئته تحت العرش، فإذا ركع المؤمن وسجد في الصلاة فعل ذلك التمثال مثل فعله، فتنظر إليه الملائكة فيستغفرون له، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾[الشورى: ٥] فإذا ارتكب المؤمنُ خطيئةً أرخى الله عز وجل على ذلك التمثال ستراً لئلا يتطلع عليه الملائكة، فذلك معنى قولهم في الدعاء[١]: يا مَنْ أظهر الجميل وستر القبيح[٢].

فصل في حَمَلته

أنبأنا جدي بإسناده عن محمّد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لي أن أُحدِّث عن مَلَك من مَلائكةِ الله من حَمَلَة العَرْشِ، ما بَين شَحْمةِ أُذنِه إلى عاتقِه مسيرةُ سبع مئة سَنة». ذكر جدي هذا الحديث في كتاب «تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي»[٣] في الوعظ.

وروى مقاتل عن عليٍّ وابن عباس: أن حملة العرش أعظم الملائكة خِلقةً، وهم اليوم أربعة: أحدهم وجهه وجه رجل يسأل الله الرزقَ لبني آدم، والثاني وجهه وجه نسر يسأل الله الرزق للطيور، والثالث: وجهه وجه ثور يسأل الله الرزق للبهائم، والرابع وجهه وجه أسد يسأل الله الرزق للوحوش. فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[الحاقة: ١٧] وقيل: ثمانية أصناف.

وذكر جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة» هذا وقال: من أعظم الملائكة خلقة حملة العرش، أحدهم على صورة البشر قد وكِّل[٤] بالدعاء للنسل الآدمي، وذكر الباقي على هذا.

---

(١) في (ب): «الدنيا».

(٢) وقوله: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح» هو قطعة من حديث أخرجه الحاكم ١/ ٥٤٤-٥٤٥ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، فإن رواته كلهم مدنيون ثقات.

(٣) «التبصرة» ٢/ ١٧٤-١٧٥، وهو عند أبي داود (٤٧٢٧).

(٤) في (ب): البشر فيسأل الله أو قد وكل، وفي (ل): البشر يسأل الله وقد وكل، وعلى لفظ الجلالة إشارة أنها نسخة، والمثبت من التبصرة ٢/ ١٧٤.

فإن قيل: فما الحكمة فيه؟ فالجواب أنه قد جاء الحديث أنه إذا نوقش الجبابرة والعصاة الحساب[1] يشتدُّ غضبُ الله عليهم فزيد في الحَمَلة لهذا المعنى. وقال بعضهم: هذا ضربُ مَثل لينزجر العصاة عن المعاصي.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما خلق الله العرش خلق له ملائكةً عظامَ الخلقِ: أحدهم من النور، والثاني من النار، والثالث من الماء، والرابع من الرحمة، وأعطاهم قوة جميع الخلائق، وأمرهم بحمل العرش فحملوه فلم يطيقوا حمله، فقال لهم الله تعالى: قولوا سبحان الله، فقالوها، فرفعوا بعضه حتى بلغ إلى ركبهم وضعفوا، فقال الله عز وجل: قولوا الحمد لله، فقالوها، فرفعوه إلى أوساطهم ووقفوا، فقال لهم: وقولوا لا إله إلا الله، فقالوها، فحملوه إلى أكتافهم ووقفوا، فقال لهم: قولوا الله أكبر، فقالوها، فرفعوه على رؤوسهم، فرؤوسهم ناشبة فيه وأقدامهم على الأرض السفلى. قلت: وقد جاءت في العرش والكرسيِّ أخبار وآثار:

فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن وكيع بن عُدَس عن عمه أبي رَزِين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربُّنا قبل أن يخلق خلقه؟ فقال: «كان في عَمَاء ما تَحتَه هَوَاءٌ، [وما فَوقَه هَواءٌ] ثم خَلَقَ عَرشَه على الماء»[2].

وقال الجوهري: عُدَسُ ـ بفتح الدال ـ اسم رجل، مثال قُثَم[3]. قال: والعَمَاء ـ بالمدِّ ـ سحاب رقيق شبه الدخان يركب رؤوس الحيطان[4]. وذِكرُ الفوقِ والتحت والهواء عائدٌ إلى السحاب لا إلى الله تعالى، لأنه لا يعلوه شيء ولا يحلُّ في شيء.

وحكى أبو جعفر الطبري في «تاريخه» عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله تعالى العرش فاستوى عليه[5]. وروى أيضاً عن ابن عباس أنه قال: أول ما خلق الله تعالى الماء قبل العرش، ثم وضع العرش عليه[6]. والله أعلم وأحكم بالغيب.

---

(١) من قوله: فما الحكمة فيه.. إلى هنا ليس في (ب).
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦١٨٨)، وما بين معقوفين زيادة منه.
(٣) «الصحاح»: (عدس).
(٤) «الصحاح»: (عمي)، وفيه: «رؤوس الجبال».
(٥) «تاريخ الطبري» ١/ ٣٩.
(٦) «تاريخ الطبري» ١/ ٣٩.

فصل
في ذكر الملائكة المقربين والرُّوحانيين والكَرُوبيِّين[١]

قال الجوهري: المَلَكُ من الملائكة واحد [وجمع][٢]. والمقرَّبون من التقريب وهو الدنوُّ[٣]. وكذا الكَرُوبيُّون من كرب الشيء، أي: دنا[٤]، والرُّوحانيون من الرُّوح[٥].

فصل
في خلق الملائكة

قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَت الملائكةُ من نُورٍ». انفرد بإخراجه مسلم[٦].

فصل
في جبريل عليه السلام

قال علماء التأويل: جَبْر اسم، وإيل من أسماء الله عز وجل، فجَبْر بمنزلة عبد، وإيل هو الله تعالى، ومعناه: عبدالله. وثبت أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ في صورة دِحيةَ الكلبي لما نذكر في سيرته.

وقال ابن عباس: جبريل صاحب الوحي والعذاب، إذا أراد الله أن يهلك قوماً سلطه عليهم، كما فعل بقوم لوط لما نذكر.

وقال ابن الكلبي: سأل النبيُّ ﷺ جبريل أن يأتيه في صورته التي خلقه الله عليها فقال له: لا تستطيع أن تثبت، فقال: بلى، فظهر له في ست مئة ألف جناح سدَّ الأفقَ

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٦٨.
(٢) «الصحاح»: (ملك).
(٣) «الصحاح»: (قرب).
(٤) «الصحاح»: (كرب).
(٥) «الصحاح»: (روح).
(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥١٩٤)، ومسلم (٢٩٩٦).

جناح منها، فشاهد رسول الله ﷺ أمراً عظيماً، فصُعق، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾[النجم: ١٣].

وقال أحمد بإسناده عن ابن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ست مئة جناح، كلُّ جناح منها قد سَدَّ الأُفقَ، يَسقط من جناحِه من التَّهاويل والدرِّ والياقوتِ ما الله به عليمٌ. أخرجه أحمد في «المسند»[1].

ولفظ الصحيحين عن ابن مسعود: رأى النبي ﷺ جبريل له ست مئة جناح لا غير[2]. والتَّهاويل: الألوان المختلفة.

وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «إنَّ اللهَ عز وجل وَصَفك بالقوَّة والطاعةِ والأمانَةِ، فأخبرني عن ذلك، فقال: أمَّا قوَّتي فإنِّي رفعتُ قُرى قَومِ لوطٍ من تُخومِ الأرض على جناحِي إلى السَّماء حتى سَمع أهلُ السَّماء نُباحَ كِلابهم ثم قَلَبتُها عليهم، وأمَّا طاعة المخلوقاتِ لي فإنَّني آمُرُ رِضوانَ خازنَ الجنَّة متى شِئتُ بفتحِها، وكذا مالكَ خازنَ النارِ، وأمَّا أمانَتي فإنَّ الله تعالى أنزَل من السَّماء مئةَ كتابٍ وأربعةَ كتبٍ لم يأتمِن عليها غيرِي[3]. وسنذكر جبريل في ليلة المعراج وغيرها.

فصل
في ميكائيل عليه السلام

وفيه أيضاً لغات، قال ابن الأنباري: لم يختلفوا أن «ميكا» مثل «جَبْر»، و«إيل» هو الله تعالى.

وقال ابن عباس: ميكائيل هو صاحب الرِّزق والرحمة.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن ثابت البُناني، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال لجبريل عليه السلام: «مَاليَ لا أَرَى مِيكائِيل ضَاحِكاً؟ فقال: ما ضَحِك منذُ خُلِقَت النَّار»[4].

---

(١) أحمد في «مسنده»(٣٧٤٨).

(٢) البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١٤/ ٦٤٠.

(٤) أحمد في «مسنده» (١٣٣٤٣).

وقال ابن عباس: أول ما امتنع من الملائكة من الضحك ميكائيل لما خلقت النار.

فصل
في إسرافيل

قال الجوهري: إسرافيلُ اسم أعجميٌّ، كأنه مضاف إلى إيل(١).

وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن زاوية من زوايا العرش على كاهله، ورأسه قد مرق في السماء السابعة(٢).

قال: ولما أمر الله الملائكة بالسجود، أول من سجد لآدم إسرافيل، فأثابه الله بأن كتب القرآن في جبهته(٣).

وقد روي موقوفاً على عمر بن عبد العزيز(٤) لما نذكر في قصة آدم.

قال: ومنذ خُلقت النار لم تجفَّ له دمعة، ومن يُخلق من الملائكة إنما يخلق من دموع إسرافيل، وهو صاحب اللوح المحفوظ والصور.

وقال ابن عباس: يَنفخ النفخة الأولى فيموت الخلائق، وتسيَّر الجبال وتكوَّر الشمس والقمر، ثم ينفخ الثانية لقيام الخلق من القبور.

وقال الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كيفَ أَنعَمُ عَيشاً وقد الْتَقَمَ صاحِبُ القَرْن القرنَ، وحَنَى جَبهتَه وأَصغَى سَمعَه يَنتَظِر أنْ يُؤمَر، فَيَنفُخ فيه»؟ فقال المسلمون: فكيف نقول؟ قال: «قُولُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ»(٥).

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث القرن، والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾[المؤمنون: ١٠١]. قال ابن قتيبة: الصور هو القَرْن في لغة أهل اليمن. وقال

(١) «الصحاح»: (سرف).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢٩٠)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٦٥ ـ ٦٦ من طريق شهر بن حوشب، عن ابن عباس، وإسناده ضعيف، وانظر المنتظم ١/ ١٩٠.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة»(١٠٤٥) من حديث ضمرة.

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٢/ ٦٢٥، وسيذكره المصنف في سجود الملائكة لآدم.

(٥) سنن الترمذي (٢٤٣١) و(٣٢٤٣)، وهو عند أحمد في «مسنده»(١١٠٣٩)، وكلمة «عيشاً» لم ترد في كتب السنة.

مجاهد: هو شبه البوق. وقال الجوهري: قال الكلبي: لا أدري ما الصُّور. وقرأ الحسن: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّوَرِ﴾[1][طه: ١٠٢].

وقد أخرج الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» لفظ الصور في حديث طويل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وفيه: «ثمَّ يُنفَخُ في الصُّورِ فلا يَسْمَعه أحَدٌ إلَّا أصغَى لِيتاً»[2]. واللِّيتُ: صفحة العنق.

فصل
في عزرائيل

وهذه الإضافة مثل جبرائيل ونحوه.

وروي عن ابن عباس عن كعب الأحبار قال: وجدت فيما أنزل الله تعالى من الكتب أن ملك الموت جالسٌ في السماء الدنيا، وبين يديه لوح فيه أسامي مَنْ يموت إلى يوم القيامة، فإذا وقع بصره على اسم إنسان مات.

وقال مجاهد: له أعوان من الملائكة، فيبعث ملائكة الرحمة إلى المؤمنين وملائكة العذاب إلى الفاجرين. وقيل: في ملك الموت خاصية، إذا رآه إنسان مات.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: هؤلاء الأربعة هم رؤساء الملائكة وهم المُقسِّمات أمراً، بأمر الله تعالى، وهم مثل ملوك الدنيا، وأقربهم إلى الله جبريل.

وقد ذكرنا حملة العرش.

فصل
في الروح

روى عبد خير عن علي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ [النبأ: ٣٨] قال: هو ملك عظيم له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يسبّح الله تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق الله من كل

(١) «الصحاح»: (صور)، وانظر «المحتسب» ٢/ ٥٩.

(٢) «الجمع بين الصحيحين»(٢٩٥٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة[١].

وذكر أبو إسحاق الثعلبي عن ابن مسعود موقوفاً عليه قال: الروح ملك عظيم، أعظم من السماوات والأرض والجبال والملائكة، وهو في السماء الرابعة، يسبّح كلَّ يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يُخلق من كل تسبيحة ملك، يجيء يوم القيامة صفاً وحده والملائكة بأسرهم يجيئون صفاً[٢].

وقال ابن عباس: وهو الذي ينزل ليلة القدر، زعيم الملائكة وبيده لواء طوله ألف عام، فيغرزه على ظهر الكعبة، ولو أذن الله له أن يلتقم السماوات والأرض لفعل[٣].

فصل
في أصناف الملائكة

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن خالد بن معدان قال: إن لله ملائكة أربعة يسبِّحون تحت العرش، فيسبِّح لتسبيحهم أهل السماوات، يقول الأول: سبحان ذي المُلك والملكوت، ويقول الثاني: سبحان ذي العزة والجبروت، ويقول الثالث: سبحان الحيِّ الذي لا يموت، ويقول الرابع: سبحان الذي يُميت الخلائق ولا يموت[٤].

وقال وهب: عبادة أهل السماء الدنيا القيامُ، والثانية الركوعُ، والثالثة السجود، والرابعة القراءة، والخامسة التسبيح، والسادسة الذكر، والسابعة الجلوس في التحيات.

وقال سهل بن عبدالله: عبادة أهل السماء الدنيا على الخوف، والثانية على الرجاء، والثالثة على الحياء، والرابعة على الإنابة، والخامسة على الاجتهاد،

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٥/ ١٥٦، وأبو الشيخ في «العظمة»(٤١٠)، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٦١ وقال: هذا أثر غريب عجيب.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٤/ ٤٦-٤٧، وأورده ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٤٦٥ وقال: هذا قول غريب جداً.

(٣) انظر «عمدة القاري» ١٩/ ٣٣.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ١٩٤-١٩٥.

والسادسة على المراقبة، والسابعة على المشاهدة.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾[الصافات: ٣]: إنهم الملائكة.

وحكى جدي في «التبصرة» عن عبدالله بن سَلَام قال: لمّا خلَق الله الملائكة رفعت رؤوسها إلى السماء، وقالت: يا ربِّ، مع من أنت؟ قال: مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقه[1].

ومنهم من يشهد معنا صلاتنا، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَعاقَبُونَ فيكُم ملائِكةُ الليلِ ومَلائِكةُ النَّهار، يجتمعونَ في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصر، ثم يَعرُجُ إلى اللهِ الذينَ باتُوا فيكم - أو فيهم - فيسألُهم الله وهو أعلمُ: كيف تَرَكتُم عبادي؟ فيقولون: أَتيناهُم وهم يصلُّون وتَرَكناهُم وهم يصلُّونَ». [متفق عليه[2].

وفي «الصحيحين» أيضاً عن أبي هريرة قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «تَفضُلُ صلاةُ الجميعِ صلاةَ أحدِكم وَحْدَه بخمسٍ وعشرينَ جُزءاً، وتجتَمعُ ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النَّهارِ في صَلاة الفجر»]. قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾[الإسراء: ٧٨] متفق عليه[3].

ومنهم صفوف في السماء كصفوف بني آدم في الصلاة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١﴾[الصافات: ١] قاله ابن عباس.

وقال الحسن: تصفُّ أجنحتها في الهواء واقفةً فيه حتى يأمرها الله تعالى بما يريد.

ومنهم كتبة على بني آدم، يكتبون أعمال النهار والليل، قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨].

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «كاتبُ

---

(١) «التبصرة» ٢/ ١٧٥، و«المنتظم» ١/ ١٩٢.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٣٠٩)، والبخاري(٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٣) البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩)(٢٤٦)، وما بين معقوفين زيادة استدركناها من الصحيحين لضرورة السياق.

الحَسَناتِ على يمينِ الرجلِ، وكاتبُ السَّيئاتِ عن يسارِهِ، وكاتبُ الحَسَناتِ أميرٌ على كاتبِ السَّيئاتِ موكَّلٌ به، فإذا عَمِل الرجلُ حَسَنةً كَتَبها صاحبُ اليمينِ عَشْراً، وإذا عَمِل سَيِّئةً قال لصاحبِ الشِّمَالِ: دَعْه سبعَ ساعاتٍ لعلَّه يستغفرُ، فيُمسِكُ عنه، فإن استغفَرَ منها لم تُكتبْ، وإن لم يَستغفرْ كُتبَتْ عليه سيئةً واحدةً»(١).

وقال الثعلبي بإسناده عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليّ بن الحسين بن علي، عن أبيه عليّ رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَقعَدُ مَلَكَيكَ منك على ثَنِيَّتيك، وقَلمُهُما لسانُكَ، ومِدادُهُما رِيقُكَ، وأنتَ تجرِي فيما لا يَعنيكَ، لا تَستَحيِي لا من اللهِ ولا من الملكينِ»(٢).

وعن ابن عباس قال: مقعدهما على الكتفين. وقال الحسن: تحت الشعر الذي على الحنك. والأول أصحّ ولأنه أقرب إلى إحصاء اللفظ.

واختلفوا فيما يكتبان، فقال مجاهد: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه. وقال عطاء: يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه، ولهذا كان طاوس اليماني يكره الأنين في مرضه.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن الحسن البصري، عن أبي هريرة وأنس قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى في أوَّل الصحيفة خيراً وفي آخرها خيراً إلَّا قال الله لملائكته: اشهدوا أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة»(٣).

وقال الثعلبي أيضاً بإسناده عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مَاتَ العبدُ قال الملكانِ الموكَّلانِ به: يا ربِّ، ماتَ فلانٌ، وهو أعلم، أفَتأذَنُ لنا أن نَصْعَدَ إلى السَّماءِ؟ فيقول الله: سمائي مملوءَةٌ من ملائكتي يسبِّحُونَني ويحمدُونَنِي، فيقولان: أفنُقيم في الأرضِ؟ فيقول: إنَّ أرضي مملوءَة من خليقتي يسبِّحونني، فيقولان: فماذا نَصنَع؟ وأين نكونُ؟ فيقولُ: قُوما على قبرِ عبدي فكبِّراني وهَلِّلاني، واكتُبا ذلك لعبدي

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٧٨٧)، (٧٩٧١).

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٥/ ٥٤٨ من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه، به.

(٣) أخرجه الترمذي (٩٨١)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح.

إلى يوم القيامة»[(١)].

وكان سهل بن عبدالله التُّسْتَري يقول: يَا ملكاي قد طالت صحبتكما لي فاشفعا لي.

ومنهم موكَّل بالشمس، وقد ذكرناه.

ومنهم موكَّل بالقطر والرِّياح والنَّبات. حدثنا أبو القاسم علي بن مسلم المَوْصِلي بإسناده عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن قَطْرةٍ تنزلُ من السَّماءِ إلَّا ومعها مَلَكٌ، وما من رِيحٍ تَهبُّ إلَّا ومَعها مَلَكٌ، وما من حبَّةٍ تَنبُتُ إلَّا ومَعها مَلَكٌ».

ومنهم موكَّل بالسَّحاب، قال الله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾[الصافات: ٢] قال ابن عباس: هي الملائكة تزجر السَّحاب، وقال علي رضي الله عنه: الرَّعد صوت مَلَك والبرق مَصْعه ـ أي ضربه ـ، يضرب السّحاب بالمخاريق[(٢)].

ومنهم موكل بصخرة بيت المقدس، قال كعب الأحبار: قد وكل الله بها ملكين.

[ومنهم ملكان] يقول أحدهما في صبيحة كل يوم: «اللَّهمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقُولُ الآخَرُ: اللَّهمَّ أعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»[(٣)].

وقال ابن عباس: يقول أحدهما: ليت الخلائق لم يخلقوا، ويقول الآخر: وليتهم إذ خلقوا لم يبعثوا.

ومنهم موكَّل بالمدينة يمنعونها من الدَّجال، قال البخاري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «على أَنقَابِ المدينةِ ملائكةٌ لا يَدخُلُها الطَّاعُونُ ولا الدَّجَّالُ». أخرجاه في الصحيحين[(٤)].

ومنهم موكَّل بتصوير النُّطَف، قال أحمد بن حنبل: بإسناده، عن حذيفة بن أَسِيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدخُلُ المَلَكُ على النُّطفَةِ بَعْدَما استَقَرَّت في الرَّحِم أربَعين ليلةً، فيقول: يا ربِّ، ماذا؟ أشَقيٌّ أم سَعيدٌ؟ أذَكَرٌ أم أُنثَى؟ فيقولُ: اكتب، فيكتبُ،

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب»(٩٩٣١).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١/ ١٥٢.

(٣) هو قطعة من حديث أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وما بين معقوفتين مستدرك من «المنتظم» ١/ ١٩٤.

(٤) البخاري (١٨٨٠)، ومسلم (١٣٧٩).

ويُكتَبُ عَمَلُه وأَثرُهُ ومُصِيبَتُه ورِزقُه، ثم تُطوى الصَّحِيفةُ فلا يُزادُ على ما فيها ولا يُنقصُ منها»[١]. وقد أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ بمعناه[٢].

ومنهم سيَّاحون في الأرض يتَّبعون مجالس الذكر، فإذا رأوا حلقةً فيها قومٌ يذكرون الله جلسوا إليهم، قال البخاري بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للهِ ملائِكةً يطوفونَ في الطُّرُقِ يَلتمِسُون أهل الذِّكرِ، فإذا وجَدُوا قَوماً يذكُرونَ الله تَنَادَوا: هَلُمُّوا إلى حاجَتِكم، فَيحفُّونَهم بأجنِحَتِهِم إلى السَّماءِ الدُّنيا، فَيَسأَلُهمُ ربُّهمُ ـ وهو أعلمُ بهم ـ ماذا يقول عِبَادي؟ قالُوا: يُسبِّحُونَكَ ويَحمَدونَك ويُكبِّرونَك ويُمجِّدونَك، قال فيقول الله تعالى: فَهَل رَأَوْني؟ فيقولون: لا، فيقولُ: فلو رَأَوْني؟ فيقولون: لو رَأَوْك لَكانُوا أشدَّ عبادَةً وأشدَّ تَمجيداً وتَسْبيحاً وتكْبيراً، قال فيقول: فما سَألوني ـ أو يَسْألوني ـ؟ فيقولون: الجنَّةَ، فيقول: وهل رَأَوْها؟ فيقولون: لا، فيقولُ: فكيفَ لو رَأَوْها؟ فيقولون: [لو رَأَوْها لكانوا أشدَّ عليها حِرْصاً، ولها طَلباً، وأعظَمَ رَغْبةً. قال فيقولُ: فمِمَّ يَتعوَّذون؟ فيقولون:] من النَّار، فيقول: وهل رَأَوْها؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيفَ لو رَأَوْها؟ فيقولون: لَكانوا أشدَّ منها فِراراً وهَرَباً، فيقول: أُشهِدُكم أنِّي قد غَفَرتُ لهم، قال فيقول بعض الملائكة: فيهم فُلان ليسَ منهم إنَّما جاءَ لحاجةٍ، فيقول الله تعالى: همُ الجُلَساءُ الذين لا يَشْقَى بهم جَليسُهم». أخرجاه في الصحيحين[٣].

ولمسلم: «همُ السُّعداء»[٤]. ولمسلم[٥] أيضاً: «إنَّ لله مَلائِكةً سَيَّارةً فُضُلاً يَتَّبعون مَجالسَ الذِّكر» وفيه: «فإذا تَفرَّقوا عَرَجُوا إلى الله فيَسأَلُهم الله تبارك وتعالى»، وذكره.

ومنهم[٦] ملائكة يبلِّغون رسول الله ﷺ السَّلام، قرأت على أبي المظفَّر يوسف بن عبدالمعطي الإسكندري ويعرف بابن المَخِيلي بالإسكندرية، في سنة إحدى وأربعين

(١) أحمد في «مسنده» (١٦١٤٢)، أخرجه أيضاً مسلم (٢٦٤٤).
(٢) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) مطولاً.
(٣) البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩)، واللفظ للبخاري.
(٤) لم نقف على هذا اللفظ عند مسلم، وأخرج هذا اللفظ أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ١١٧.
(٥) صحيح مسلم (٢٦٨٩).
(٦) من هنا بدأ خرم في (ب)، وسنعتمد مافي (ل) والمطبوع.

وست مئة، قال: حدثنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم السِّلفي بإسناده عن عاصم بن عمر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله في الأرضِ مَلائِكَةً يُبلِّغونَنِي السَّلام من أُمَّتي»(١).

ومنهم من يشهد الحروب معنا، كما جرى يوم بدر(٢).

ومنهم من يستغفر لبني آدم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[غافر: ٧].

ومنهم حفَظَة لبني آدم ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾الآية[الرعد: ١١].

ومنهم مبشِّرون عند الموت بالسَّلامة: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل٣٢]. وقال ابن مسعود: إذا احتضر المؤمن جاءه ملك الموت فقال: ربُّك يقرئك السلام.

ومنهم مسائِلون في القبور كمنكر ونكير.

ومنهم خُزَّان أبواب السماء، بدليل قول الملك ليلة المعراج لجبريل: من معك؟ فقال: معي محمد ﷺ(٣).

ومنهم خُزَّان الجنان والنيران، كمالك ورضوان.

ومنهم من يغرس شجرَ الجنَّة، روي عن الحسن أنه قال: إنَّ في الجنة قيعاناً تغرسها الملائكة حتى إنَّ أحدهم ليفتر من الغرس، فيقول له صاحبه: مالك فترت؟ فيقول: فتر صاحبي من العمل. فكان الحسن يقول: أمدّوهم بالبَذْر فهذه أيام الزرع(٤).

ومنهم من يصوغُ حُلِيَّ أهل الجنَّة، روي عن كعب الأحبار أنه قال: إن في الجنَّة ملكاً يصوغ حلي أهل الجنة منذ خُلق إلى يوم القيامة، ولو شئت أن أسميَه لسميته، ولو أن قُلْباً أُخرج منها إلى الدنيا لردَّ شعاع الشمس(٥). وفي رواية: إن لله ملائكة.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»(٣٦٦٦).

(٢) أخرج البخاري (٣٩٩٢) عن رفاعة بن رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة. وانظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٦٣٣.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

(٤) انظر «التبصرة» ٢/ ١٧٦، و«المنتظم» ١/ ١٩٤.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ١٣/ ١١٥-١١٦، وانظر «المنتظم» ١/ ١٩٤.

ومنهم من نصفه نار ونصفه ثلج، وهو في حديث المعراج[١].

ومنهم خدمُ أهل الجنَّة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣].

ومنهم خائفون ومحبُّون، وعارفون وروحانيون وكروبيُّون ومشاهدون ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم: ٦] ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٢٨]

ومنهم من يقذف الشياطين بالشهب، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٨-٩] قال ابن عباس: يسترق الشياطين السَّمع من زوايا السَّماء فتقذفهم الملائكة من كل جانب. والدُّحور: الطرد والإبعاد ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾[الصافات: ١٠] أي: مسارقة ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾[الصافات: ١٠] فيلقي الشيطان الكلمة إلى من هو دونه ويحترق هو. والحكمة في سرعة الرمي أن الشياطين كانوا يلقون أخبار السَّماوات إلى الكهنة، فمنعوا عند مبعث نبيِّنا ﷺ، لما نذكر.

فصل
في تفضيل الملائكة على البشر

اختلف أهلُ القبلة في ذلك: فروي عن الحسن البصري أنه قال: جملة الملائكة أفضل من بني آدم، وهو قول المعتزلة[٢]. وقال ابن عباس: جملة بني آدم أفضل من جملة الملائكة، وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل، وعن الشافعي ومالك كالمذهبين.

وعندنا في المسألة تفصيل نذكره: وجه قول المعتزلة: قوله تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[النساء: ١٧٢] فقد فضَّل الملائكة على عيسى لأنه نفيٌ بطريق التأكيد، والشيء إنما يؤكد بما هو أفضل منه وأقوى، ولأن الملائكة خلقوا من النور، وبنو آدم خلقوا من التراب، والنور أفضل، والملائكة لا

---

(١) وهو حديث موضوع أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ٣/ ١١-١٢، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٣٥٣)، وأورده السيوطي بتمامه في «اللآلئ» ١/ ٦٢-٧٤. قال ابن الجوزي: المتهم به ميسرة بن عبد ربه. وانظر «المنتظم» ١/ ١٩٥، و«التبصرة» ٢/ ١٧٧.

(٢) هم أتباع واصل بن عطاء لقبوا بذلك عندما اعتزل واصل مجلس الحسن البصري، فقال الحسن: اعتزلنا واصل فلقبوا بذلك، وسيذكر المصنف في ترجمة واصل سنة (١٣١) طرفاً من أخبارهم.

يعصون الله ما أمرهم، وبنو آدم يعصون.

وجه قول ابن عباس: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ وما كان سجودَ تحيَّةٍ بل لفضلِ المسجود له على الساجد.

وأنبأنا جدّي قال: أنبأنا محمّد بن ناصر بإسناده عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «قالتِ الملائكةُ: أيْ ربِّ، أعطيتَ بني آدمَ الدُّنيا فأَعطِنا الآخرةَ، فقال الله تعالى: لا أَجْعَل صَالحَ ذريَّةِ مَنْ خَلَقتُه بيَدِي كمَنْ قلتُ له: كُنْ فكانَ»[١].

ولأنهم يستغفرون لمن في الأرض، والمخدوم أفضل من الخادم.

والجواب: أمَّا الآية التي احتجت بها المعتزلة، فقد قال ابن عباس: إنَّ قوماً عبدوا عيسى والملائكة فنزلت الآية، ومعناها: لن يَستنكفَ المسيح والملائكة من العبادة فكيف يُعبَدان؟

وأمَّا سجود الملائكة لآدم فإنَّما أريد منهم الطاعة، لما نذكر في قصَّة آدم.

وأمَّا الحديث الذي احتَجَّ به ابن عباس، فقال جدي في «الواهية»: هذا الحديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، في إسناده عبد المجيد ابن أبي رَوَّاد، قال ابن حبان: كان يَقلِب الأخبار ويروي المناكير عن المشاهير، فاستحقَّ الترك. وقال الدارقطني: الموقوف أصحُّ[٢].

ولو سُلّم كان معناه: أنَّ الخواصَّ من بني آدم أفضل من خواصِّ الملائكة، فإنَّه المختار عندنا، وقد نصَّ عليه أبو حنيفة فقال: خواصُّ بني آدم كالمرسلين والنبيين أفضل [من جملة الملائكة، لأنَّ لرسل الله فضلاً على الملائكة، لأنَّ الله عصمهم بأعلى مراتب العصمة عن كل وصمة لكونهم حججَ الله على عباده، ومن عُوتب منهم على زلّة فإنما كانت فيما هو مستوي الطرفين في الإمكان والثبوت، قال: وخواصُّ الملائكة كجبريل و ميكائيل ونحوهما أفضل من عوام بني آدم لما ذكرت المعتزلة. والمؤمنون من بني آدم أفضل] من عوام الملائكة غير جبريل ونحوه من الرسل، لما ذكر ابن عباس. وقد ابتلي بنو آدم بالإيمان بالغيب، وفيهم أيضاً نوازع الشهوة وهي معدومة في الملائكة، فكان ما ذكره أبو حنيفة رحمه الله أعدل.

(١) «العلل المتناهية»(٣٢).
(٢) «العلل المتناهية» ١/ ٤٨.

فصل في ذكر الجنة
وما لله سبحانه على عباده من خلقها من المنّة[(١)]

لا خلافَ بين العلماء أنَّها في السماء لقوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٤-١٥] ولأنَّها دار نَعيم، فتكون من جهة العلوِّ، بخلاف النار فإنها سجن، والسجن يكون في السفل.

وقالت المعتزلة والجهميَّة: إنَّ الجنة لم تخلق بعد، كما قالوا في النار، واحتجُّوا في الجنَّة بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣] والجعل هو الخَلق، وإنما يخلقها يوم القيامة.

ولنا قوله تعالى ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣] والمعدُّ ما يكون موجوداً.

وما احتجوا به فليس المرادُ من الآية الخَلقَ في المستقبل بل في الماضي، أي: جَعَلَها، لئلا يقع التناقضُ بين الاثنين[(٢)].

وإذا ثبت أنها موجودة فأهلها يتنعَّمون فيها على الأبد كما في أهل النَّار، فإنهم يُعذَّبون فيها على الأبد.

وقال جهم بن صفوان: يبيدان ويفنيان لئلا يصير أهلهما شركاءَ لله تعالى.

ولنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[الكهف: ١٠٧] في آيات كثيرة. وما ذكره فلا نسلِّم أنه يؤدِّي إلى المشاركة، لأنَّ الله تعالى واجب الوجود واجب البقاء مستحيل العدم، والعبد جائز الوجود جائز البقاء، فعدمت المشاركة.

وقد جاءت في فضائل الجنَّة أخبار وآثار منها:

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جِنَانُ الفردَوْسِ أربعٌ ثِنتانِ من ذَهبٍ حِليتُهما وآنيتُهما وما فيهما، وثِنتانِ من فِضَّة حِليتُهما وآنيتُهما وما فيهما، وليسَ بين القومِ وبينَ أنْ يَنظُرُوا إلى ربِّهم إلَّا رِداءُ الكِبرياءِ على وَجهِهِ في جنَّةِ عَدْنٍ» أخرجاه في الصحيحين[(٣)].

---

(١) انظر «كنز الدرر» ١/ ٧٣.

(٢) هم أصحاب جهم بن صفوان المتوفى سنة (١٢٨) هـ وسيذكر المصنف طرفاً من أخباره فيها.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٧٣١)، والبخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠)، واللفظ لأحمد.

وفيهما حديث أبي موسى أيضاً عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّةِ لَخيمَةً مِن دُرَّةٍ مُجَوَّفةٍ عرضُها سِتُّونَ مِيلاً، وفي كُلِّ زاويةٍ منها أهلٌ ما يَرَونَ الآخرينَ، يطوفُ عليهمُ المُؤمنُ»(١).

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الله عز وجل يقولُ: أعدَدتُ لِعبادي الصَّالحينَ مالا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بشرٍ»(٢).

فإن قيل: فأعلى ما في الجنَّة النَّظر، وقد خطر على قلوبنا أننا نراه، فكيف قال: ولا خطر على قلب بشر؟ فالجواب: أنَّا في وقت النظر يحصل لنا من اللذة والاستغراق ما لم يخطر على قلب بشر.

وفي الصحيحين أيضاً: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أوَّل زُمرةٍ تَلِجُ الجنَّة صورتُهم على صورةِ القَمَر ليلةَ البَدْرِ، لا يَبْصُقون فيها ولا يَمْتَخِطون ولا يَتَغوَّطون، آنيتُهم فيها الذَّهبُ، وأَمشَاطُهم من الذَّهب والفِضَّة، ومَجامِرُهم الأُلُوَّة، ورَشحُهم المِسْكُ، ولكلِّ واحدٍ منهم زوجتان يُرى مخُّ ساقهما من وراء اللَّحم من الحُسنِ، لا اختلافَ بينهم ولا تَباغُضَ، قلوبُهم على قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، يُسبِّحونَ الله بُكرةً وعشيًّا»(٣).

وفيهما من حديث أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ قال: «أُدخِلتُ الجنَّةَ فإذا فيها جَنابِذُ اللؤلؤ، وتُرابُها المِسْك»(٤). والجنابذ: القباب.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أهلَ الجنَّةِ ليَتَراءَوْن أهلَ الغُرَفِ من فوقِهم كما يَتَراءَوْن الكَوْكَبَ الدُّرِّي العائِر في الأفُقِ من المَشرِقِ والمَغْرِب، لتفاضُل ما بينَهم»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤)، ومسلم (٢٨٣٤)، والألوَّة: العود يتبخر به.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣)، وهو قطعة من حديث معراجه ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١)، وروايتهما: «الغابر» وفي رواية للبخاري (٦٥٥٦): «الكوكب الغارب».

قلت: وقد رويت هذه اللفظة «العائر» وليست بشيء، والمشهور من حديث أبي سعيد الذي أخرجه الحميدي «الغارب في الأفق الشرقي أو الغربي»[١] وفي رواية «الكوكب الدرِّي». فأمَّا العائر: فهو السَّهم لا يدرى من رمى به.

تمام الحديث: قالوا يا رسول الله، تلك منازلُ الأنبياءِ لا يبلغها غيرهم؟ فقال: «بَلَى، والذِي نَفسِي بيدِه، رجالٌ آمَنُوا بالله وصَدَّقوا المُرسَلين».

وفيهما من حديث سهل بن سعد[٢]، وأبي سعيد[٣]، وأبي هريرة[٤]، وأنس[٥] كلهم عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ في الجنَّةِ شَجَرةً يَسيرُ الراكبُ في ظِلِّها مئةَ عامٍ لا يَقطعُها» وقد ذكرنا الحديث[٦].

وأخرج أحمد في «المسند» عن عتبة بن عبدِ السُّلَمي: «أنَّها تُشبه شَجَرة الجَوْزِ بالشَّامِ، قال: تَنبُتُ على ساقٍ واحدٍ ويَنفَرِشُ أعلاها»[٧].

وقال مسلم بإسناده عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّةِ لَسُوقاً يأتُونَها كلَّ جُمُعَة فتَهُبُّ فيها ريحُ الشَّمال، فتَحثُو في وجوهِهم وثيابِهم، فيَزْدَادوا حُسْناً وجَمَالاً، فَيَرجِعُون إلى أَهْلِيهم فيقولونَ لهم: والله لقد ازدَدْتُم بَعدَنا حُسناً وجَمَالاً، فيقولونَ: وأَنْتُم واللهِ لقد ازدَدْتُم بعدنا حُسْناً وجَمَالاً». انفرد بإخراجه مسلم[٨].

وقال الترمذي بإسناده عن حسَّان بن عطيَّة عن سعيد بن المسيِّب، أنه لقي أبا هريرة، فقال له أبو هريرة: أسألُ الله أن يجمع بيني وبينك في سوقِ الجنَّة، فقال سعيد: أفيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ﷺ «أنَّ أهلَ الجنَّةِ إذا دَخلُوها نَزَلوا فيها بفَضل أَعمالِهم، ثم يؤْذَنُ لهم في مِقدَار يومِ الجُمُعة من أيَّام دارِ الدُّنيا، فيَزُورُون ربَّهم،

(١) «الجمع بين الصحيحين» (٩٢١) و(١٧٥٥).
(٢) البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧).
(٣) البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).
(٤) البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦).
(٥) البخاري (٣٢٥١)، وهو من أفراد البخاري كما في «الجمع بين الصحيحين» (٢٠٤٨).
(٦) تقدم الحديث في فصل سدرة المنتهى.
(٧) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٦٤٢) مرفوعاً.
(٨) صحيح مسلم (٢٨٣٣).

ويُبرِز لهم عَرشَه، ويَتبَدَّى لهم في رَوضَةٍ من رِياضِ الجنَّةِ، فيُوضَع لهم مَنابرَ من نورٍ، ومَنابرَ من لؤلؤٍ، ومَنابرَ من ياقوتٍ، ومَنابرَ من زَبَرجَدٍ، ومَنابرَ من ذهبٍ ومنابرَ من فضَّةٍ، ويَجلِس أدناهُم ـ وما فيهم دنيٌّ ـ على كُثبانِ المِسْك والكافورِ، ما يَرونَ بأنَّ أصحابَ الكراسيِّ أفضَلَ منهم مجلساً» قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نَرَى ربَّنا؟ قال: «نَعم، هلْ تُمارونَ في رؤيةِ الشمسِ والقَمَر ليلةَ البدرِ»؟ قلنا: لا، قال: «كذلك لا تُمارونَ في رؤيةِ ربِّكم، ولا يَبقَى في ذلك المجلس رجلٌ إلَّا حاضَره الله محاضَرةً، حتَّى يقولَ للرجل: يا فلانُ، أتذكرُ يومَ قلتَ كذا وكذا؟ فيُذكِّره بعضَ غَدْرَاته في دارِ الدُّنيا، فيقول: يا ربِّ، ألم تَغْفِرْ لي؟ فيقولُ: بَلَى، بسَعةِ مَغفِرَتي بَلَغتَ منزلَتَك هذه. فبينما هم على ذلك غَشِيَتهم سَحابةٌ من فوقِهم، فأمطَرت عليهم طِيباً لم يَجدُوا مثلَه ـ أو مثلَ ريحِه ـ شيئاً قطُّ، ويقولُ ربُّنا: قُوموا إلى ما أعدَدْتُ لكُم من الكرامَةِ فَخُذوا ما اشْتَهيتُم، فَنَأتي سُوقاً قد حَفَّتْ به الملائكةُ، فيه ما لم تَنظُرِ العُيون إلى مثله، ولم تسمعِ الآذانُ، ولم يَخطُر على قلبِ بشرٍ، فيُحملُ إلينا ما اشتَهينا ليسَ يباعُ فيه ولا يُشتَرى، وفي ذلك السُّوقِ أهلُ الجنَّة يَلقَى بعضُهم بعضاً، فيُقبِل الرَّجلُ ذو المنزلةِ المرتفعةِ فيَلقَى من هو دُونه. وما فيهم دُونٌ فيَروعُه ما عليه من اللِّباس، فما ينقضِي حديثُه حتَّى يتخيَّل عليه ما هو أَحسَن منه، وذلك لأنه لا يَنبَغي لأحدٍ أن يَحزَن فيها. ثم نَنْصرِفُ إلى مَنَازلنا فَيلْقَانا أَزوَاجُنا فيقُلنَ: مَرحَباً وأَهْلاً لقد جِئتُم وإنَّ عَليكم من الجَمَال أَفضَل مما فارَقتُمُونا عليه، فيقولون: إنَّا جَالسنا اليومَ ربَّنا الجبَّارَ، وبحقِّنا أنْ ننقَلِبَ بمثلِ ما انقَلَبنا»(١).

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي المُدِلَّة أنه سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يارسول الله، حدِّثنا عن الجنَّة ما بناؤها؟ فقال: «لبنةٌ من ذَهبٍ ولبنةٌ من فضَّةٍ، ومِلاطُها المِسْك الأَذْفَرُ، وحَصْبَاؤها اللُّؤلؤُ والياقوتُ، وتُرابُها الزَّعفرانُ، مَن يَدخُلها ينعَمُ لا يَبْؤُسُ، ويَخلُدُ لا يموتُ، لا تَبْلَى ثيابُه ولا يَفنَى شبابُه»(٢).

وحدثنا جدي رحمه الله قال: حدثنا هبة الله بن أحمد الحريري بإسناده عن أبي سعيد

(١) سنن الترمذي (٢٥٤٩).
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٠٤٣).

الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنَّةِ مئةَ درجةٍ، مابين كلِّ دَرجَتين كما بين السَّماء والأرضِ، وإنَّ جنَّة الفِردَوسِ أوسطُها وأعلاها سماءً، وعليها يُوضعُ العرشُ يومَ القيامةِ، ومنها تتَفجَّر أنهارُ الجنَّةِ» فقال له رجل: بأبي وأُمي أنتَ يا رسول الله، هل فيها خيلٌ؟ قال: «نَعم، والذي نفسِي بيدِه، إنَّ فيها لَخيلاً من ياقوتةٍ حمراءَ، تَرُفُّ بهم بين خلالِ ورقِ الجنَّةِ يَتَزاورُون عليها» فقال له رجل: فهل فيها من إبلٍ؟ قال: «نَعم والذي نفسِي بيدِه، إنَّ فيها لإبلاً من ياقُوتةٍ حمراءَ، رحالُها الذَّهبُ والفضّةُ، عليها نمارقُ الديباجِ، تَرِفُّ بهم بين خِلال وَرقِ الجنَّةِ يَتَزاورُون عليها» فقال له رجل: هل فيها صوت؟ قال: «نَعم، إنَّ الله ليوحِي إلى شَجَرةٍ في الجنَّة: أنْ أَسْمِعي عِبادي هؤلاءِ الذين شَغَلهم ذِكري في الدُّنيا عن عَزفِ المزاهيرِ والمزَاميرِ بالتَّسبيحِ والتَّقديسِ»[١].

وحدثنا جدي قال: حدثنا ابن ناصر بإسناده عن ابن مسعود قال: أنهارُ الجنَّة تَتفجَّر من جبلِ مِسْكٍ. وفي رواية: وتجري في عين أخدود.

وقال ابن عباس: خمر الجنَّة أشدّ بياضاً من اللَّبن.

وعن ابن عباس أنه قال: الجنان سبع: دار الجلال، ودار السَّلام، وجنَّة عَدْن، وهي قصبة الجنَّة وهي مُشرفة على الجنان، وجنَّة المأوى، وجنَّة الخلد، وجنَّة الفردوس، وجنَّة النعيم.

قال: ونخل الجنَّة جذوعها زمرد أخضر وكَرَبُها ذهبٌ أحمر، وسَعَفُها كسوة أهل الجنَّة[٢].

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا عبدالرزاق بإسناده عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ في الجنَّة ثمانية أبوابٍ: فيها بابٌ يُسمَّى الرَّيانُ، لا يدخله إلَّا الصائمونَ» أخرجاه في الصحيحين[٣].

وحدثنا عبدالوهاب بن علي الصّوفي بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدخُل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ على طُولِ آدمَ ستينَ ذراعاً، وعلى حُسْنِ يُوسفَ، وعلى

(١) أخرجه ابن سمعون في أماليه (٢) من حديث أبي سعيد، وأبو نعيم في صفة الجنة (٥٤٦) من حديث أبي هريرة، وأورده ابن الجوزي في الياقوتة ١/ ٧٩ من حديث سهل بن سعد.

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٩٩)، والحاكم ٢/ ٤٧٥. والكرب: أصول السعف الغلاظ العراض.

(٣) أحمد في «مسنده» (٢٢٨١٨)، والبخاري (٣٢٥٧)، ومسلم (١١٥٢).

مِيلادِ عيسَى ثلاثاً وثلاثين سَنَةً، وعلى لسانِ مُحمد ﷺ[١]».

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن قال: قال النبي ﷺ: «إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ يَشْتاقُ الإخْوانُ بعضهم إلى بعضٍ، فيسيرُ سَريرُ هذا إلى سَريرِ هذا وسَريرُ هذا إلى سَريرِ هذا، حتى يَجتمعان، فيَبكي هذا ويَبْكي هذا، فيقول أحدهما لصاحبه: تَعْلَم متى غُفِرَ لنا؟ فيقولُ صاحِبُه: نعم، يَومَ كذا وكذا في مَوضِع كذا وكذا»[٢].

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو معاوية، حدثنا عبد الملك بن أبجر بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أدنَى أهلِ الجنَّةِ منزلةً لَيَنظُرُ في مُلكِه أَلفَي سَنةٍ، يرى أقصاهُ كما يرى أدناهُ، وإنَّ أفضَلَهم مَنزلةً مَن يَنظُرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ في كُلِّ يومٍ مرَّتين»[٣].

فإن قيل فهل في الجنَّة توالد؟ فالجواب: أنّ فيه قولين:

أحدهما: أنه لا يكون فيها توالد لأنَّ الولادة محلُّ الأقذار، والجنَّة طاهرة.

والثاني: أنه يكون فيها توالد وقد دلَّ عليه الحديث، قال أحمد: حدثنا علي بن عبدالله بإسناده عن أبي سعيد الخدري أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إذا اشْتَهى المؤمنُ الولدَ في الجنَّةِ كان حَمْلُه ووَضعُه وسِنُّه في ساعةٍ واحدةٍ»[٤].

اقتصرنا على هذه الجملة مما يتعلّق بالجنة من الأحاديث والآثار، ولو استقصينا في جمعها لخرج الكتاب عن مقصوده من الاختصار.



(١) أورده ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٢٩٣ وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.

(٢) أورده ابن القيم في «حادي الأرواح» ٣٣٤ عن ابن أبي الدنيا بإسناده عن أنس، وأخرجه البزار في كشف الأستار (٣٥٥٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٦١٢).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٦٢٣).

(٤) أحمد في «مسنده» (١١٠٦٣).

ذكر قصة آدم عليه السلام[١]

اختلفوا لِمَ سمي آدم على قولين:

أحدهما: أنه خُلِقَ من أديم الأرض وهو وجهها، قاله ابن مسعود[٢]، وزيد بن ثابت، ورواه سعيد بن جبير، عن ابن عباس[٣].

والثاني: أنه مشتقٌّ من الأُدْمة، وهي سمرة اللون، رواه مجاهد، عن ابن عباس.

وذكر أبو إسحاق الثعلبي: أنَّ التراب بلسان العبريَّة يقال له: آدام.

وقال الجوهري: آدم أبو البشر[٤]. وآدم اسم عربي، وليس بعجمي.

قرأت على شيخنا أبي اليُمن الكندي رحمه الله قال: قرأت على شيخنا أبي منصور ابن الجواليقي في كتاب «المعرب» قال: أسماء الأنبياء كلها أعجميَّة، إلا أربعة وهي: آدم، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ[٥].

والمشهور من كنيته أنه: أبو البشر، وروى الوَالِبي، عن ابن عباس أنه قال: كنيته أبو محمد، وقال قتادة: ولا يكنى في الجنة إلا آدم، يقال له: يا أبا محمد، إظهاراً لشرف نبيِّنا ﷺ[٦].

ولا ينصرف آدم. وقال سهل بن عبدالله التُّستَري: أَلِفُهُ من الآفة، وداله من الدَّاء، وميمه من الموت.

وقيل: إنَّ الله تعالى ذكرَهُ في القرآن في سبعةٍ وعشرين موضعاً.

---

(١) انظر: «تاريخ الطبري» ١/ ٨٩-١٦٤، و«البدء والتاريخ» ٢/ ٧٤، و«عرائس المجالس» ص٢٦- ٥٠ و«تاريخ دمشق» ٢/ ٦١٣-٦٥٦، و«المنتظم» ١/ ١٩٨-٢٢٨، و«الكامل» ١/ ٢٧-٥٣، و«البداية والنهاية» ١/ ٦٨-٩٩.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٢٦، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ١٩٨-١٩٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٩٠-٩١، وانظر «المنتظم» ١/ ١٩٨.

(٤) «الصحاح»: (أدم).

(٥) «المعرب» ص٦١.

(٦) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ٤/ ١٣٦٨، وهو حديث باطل فيما ذكر ابن عدي وانظر «البداية والنهاية» ١/ ٩٧.

فصل في إعلام الله تعالى الملائكة بخلقه

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠] واختلفوا في الملائكة الذين قال لهم هذا على قولين: أحدهما: أنَّهم جميع الملائكة، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثاني: أنهم الملائكة الذين كانوا مع إبليس في الأرض خاصة، قاله مجاهد. والأول أصح.

واختلف العلماء في المقصود بإعلام الملائكة بخلقه على أقوال:

أحدها: أنَّ الله أراد أن يبلو طاعة الملائكة، وهو أعلم بهم، قاله الحسن البصري.

والثاني: أنَّه أراد إظهار ما في باطن إبليس من الكبر والحسد، وكان ذلك قد خفي عن الملائكة، لما يرون من تعبُّده واجتهاده وتواضعه، رواه العَوْفي عن ابن عباس.

والثالث: أنَّ الملائكة ظنَّت أنه لا يَخلق خلقاً أكرم منهم، فأخبرهم بوجود غيرهم ليوطِّنوا نفوسهم على العزل، قاله مجاهد.

والرابع: أنَّه أراد تعظيم آدم بالخلافة قبل وجوده ليعَظِّموه إذا وجد، قاله الرَّبيع بن أنس.

والخامس: أنَّه لما خلق النَّار جزعت الملائكة وقالوا: يا ربَّنا، لمن هذه؟ قال: لمن عصاني، قالوا: أَوَيأتي علينا زمان نعصيك فيه؟ فأخبرهم أنه يخلق لها من يعصيه، فاطمأنُّوا، قاله زيد بن أسلم[١].

والسادس: لأنَّه أراد إظهار عجزهم عن ما يعلم، لأنهم قاسوا على من كان قبل آدم، قاله مقاتل.

والسابع: أنَّه أعلمهم بما يكون في المستقبل، ليعلموا علمه بالحوادث، قاله الوَالِبي.

والثامن: أنَّ الملائكة لما طردت المفسدين من الأرض، أقاموا يعبدون الله، وذلك قبل خلق آدم، فأخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة غيرهم، قاله مقاتل بن حيَّان.

(١) في «زاد المسير» ١/ ٥٩، و«التبصرة» ١/ ١٢: ابن زيد.

والتاسع: أنَّه أعلمهم أنه يسكن آدم الأرض، وإن كان ابتداء خلقه في الجنَّة، قاله السُّدي[(١)].

والعاشر: أنَّه خبرٌ أخبرهم به، وليس بمشورة. وهو أجود.

وقيل: إنَّ فيه إشارة إلى إخراج هذا الخليفة من الجنَّة بذنبه قبل أن يسكنها، فدلَّ على أنَّ الكلَّ بقضائه وقدره، قاله أهل المعاني.

وروى مجاهد عن ابن عباس بمعناه، فإنَّه قال: أخرج الله آدم من الجنَّة بذنبه قبل أن يُسكنه إيَّاها، ولو لم يرد إخراجه لما نوَّه بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

فصل في الخليفة

قال علماء اللغة: الخليفة هو القائم مقام غيره، فهو خَلَف عمَّن تقدمه.

وقال الجوهري: ويقال: خلَفَ فلان فلاناً إذا كان خليفته، يقال: خلفه في قومه خلافة، ومنه قوله: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف:١٤٢] قال: والخليفة السلطان الأعظم[(٢)].

وقيل: إنَّ الله تعالى ذكر خمسة نفر بالخلافة: آدم في هذه الآية، وداود ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾[ص:٢٦]، وهارون ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾، وصلحاء هذه الأمة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[النور:٥٥]، وصلحاء الأمم ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[النمل:٦٢].

وفي معنى خلافة آدم قولان: أحدهما: أنه خليفة عن الله في إقامة شرعه، روي عن ابن مسعود وابن عباس[(٣)].

والثاني: أنه خلفٌ عمَّن تقدَّمه في الأرض قبله، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً[(٤)]. والأوّل أظهر، لأن آدم كان بهذه المثابة.

---

(١) إلى هنا مستمد من «التبصرة» ١/ ١٢.

(٢) «الصحاح»: (خلف).

(٣) انظر «تفسير» الطبري ١/ ٢٠٠، و«زاد المسير» ١/ ٦٠، و«التبصرة» ١/ ١٣.

(٤) انظر «تفسير» الطبري ١/ ١٩٩، و«زاد المسير» ١/ ٦٠، و«التبصرة» ١/ ١٣.

قال أبو إسحاق الثعلبي: سأل عمر بن الخطاب ﷺ طلحة والزبير وسلمان الفارسي وكعب الأحبار، فقال: أخليفة أنا أو ملك؟ فقال طلحة والزبير: ما ندري، وقال سلمان: الخليفة الذي يعدل في الرّعيّة، ويَقسِمُ بينهم بالسَّوية، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله، ويقضي بينهم بكتاب الله[1]. وفي رواية: إن جَبَيتَ من أرض المسلمين درهماً ووضعته في غير حقِّه فأنت ملك ولست بخليفة، فبكى عمر، فقال كعب: ما كنت أحسب أنَّ في المجلس من يعرف الخليفةَ من الملك غيري، ولكن الله تعالى ألهم سلمان حكماً وعلماً[2].

قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[البقرة: ٣٠] الآية. فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنَّه استفهام إنكار، وتقديره: كيف تفعل هذا وهو لا يليق بالحكمة؟ وروى يحيى بن أبي كثير عن أبيه قال: الذين قالوا هذا كانوا عشرة آلاف ملك، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم.

فإن قيل: فهلَّا أحرق إبليس لما خالف؟ قلنا: لما سبق في الأزل من امتحان بني آدم وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[الأعراف: ١٥] وقال قتادة: غضب الله عليهم فطافوا بالعرش سبع سنين يقولون: لبَّيك اللهم لبَّيك، اعتذاراً إليك، فتاب الله عليهم، فذلك بدء التلبية.

والثَّاني: أنَّه استفهام إيجابٍ، تقديره: ستجعل، كقول جرير:

ألستم خيرَ من ركِب المطايا[3]

أي أنتم، قال: أبو عبيدة.

والثالث: أنه استفهام استعلام.

ثم في مرادهم بذلك أقوال:

أحدها: أنَّهم استفهموا وجه الحكمة، فكأنهم قالوا: كيف يعصونك وقد

(١) أورد الخبر السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٣٠٦، وعزاه للثعلبي.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٣/ ٣٠٦.

(٣) البيت في ديوانه ١/ ٨٩. وتمامه: «وأندى العالمين بطون راح»، وانظر «مجاز القرآن» ١/ ٣٥-٣٦.

استخلفتَهم، وإنَّما ينبغي أن يسبِّحوا كما نسبِّح نحن.

والثاني: أنهم قالوه تعجُّباً من استخلاف من يُفسد.

والثالث: أنهم استفهموا عن حال أنفسهم، وتقديره: أتجعل فيها من يفسد ونحن نسبِّح أم لا، ذكره ابن الأنباري والحسين بن الفضل[1]. ونظيره: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾[الزمر: ٩] ومعناه: كمن ليس بقانت.

فإن قيل: فكيف قطعوا على بني آدم بالفساد وما رأوهم، وذِكرُ الغائبِ غِيبةٌ، وهل علموا الغَيب حتَّى قالوا ذلك؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: ما روي عن ابن عباس أنه قال: لمّا قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: وما يكون من ذلك الخليفة؟ قال: ذريَّة يفسدون في الأرض ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً، فقالوا عند ذلك: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ﴾.

والثاني: أنهم قاسوا على من تقدَّمهم من الجنِّ الذين أفسدوا في الأرض، فقاسوا بالشاهد على الغائب.

والثالث: كان لهم علم التجربة وعلم الفراسة والظنّ فتحقّق ظنّهم.

والرابع: أنَّه لما أخبرهم بوجود هذا الخليفة وأنه مخلوق من الطَّبائع الأربع المختلفة، والهوى والغضب إنما يثوران من الحرارة، والهوى يفسد والغضب يسفك، فحكموا بذلك.

والمراد بالفساد العمل بالمعاصي. وسفك الدم صبُّه وإراقته، والتسبيح: التنزيه لله من كل سوء، والتقديس: التطهير، والمعنى: ننزّهك ونعظِّمك[2].

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠]. واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: إني أعلم أنه سيكون من ذريته أنبياء وعلماء صالحون، قاله ابن عباس.

والثاني: أعلم أنه سيكون من ذريته من يُذنب فيتوب فأغفر له، قاله مقاتل.

---

(١) انظر «التبصرة» ١/ ١٣.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ١٣-١٤.

والثالث: إنني أعلم بوجوه المصالح في استخلافي إيَّاهم، فلا تعترضوا عليَّ في حكمي وتدبيري، قاله الحسين بن الفضل.

والرابع: إني أعلم أنهم يسفكون الدِّماء ولكن من جور رئيسكم.

فصل في خلق آدم

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله خَلَق آدَمَ من قَبضَةٍ قَبَضَها مِن جميعِ الأرض فجاءَ بنُوه على قَدرِ ذلك، جاء منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسوَدُ وبينَ ذلكَ، والخبيثُ والطيبُ، والسَّهلُ والحَزْنُ وبَينَ ذلك». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[1]. ولهذا اختلفت ألوان بنيه.

وروى عكرمة، عن ابن عباس قال: خلق الله الصالحين من عَذْبها، والكافرين من ملحها. وروي عنه أنه قال: الرُّوم والعرب من الأبيض، والترك من الأحمر، والحبش من الأسود.

وقال أهل المعاني: الكافر من الأسود، والمنافق من الأحمر، والمؤمن من الأبيض. وقيل: الظالم من الأسود، والمقتصد من الأحمر، والسَّابق من الأبيض.

وقال أحمد: بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيرُ يوم طَلَعَت فيه الشَّمسُ يومُ الجمعَةِ، فيه خُلِقَ آدمُ وفيه دَخَلَ الجنَّة، وفيه أُخرِجَ منها، ولا تَقُوم الساعةُ إلَّا في يوم الجمعةِ». انفرد بإخراجه مسلم[2]. هذا قدر ما أخرج في الصحيحين.

وقد روي فيه زيادات من طريق أبي لُبابة بن عبدالمنذر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سيِّدُ الأيَّام يَومُ الجُمعةِ ـ وذكره ـ وفيه ساعةٌ لا يَسألُ اللهَ العبدُ فيها شيئاً إلَّا أعطَاهُ إيَّاه، مَا لم يَسألْ إثماً أو قَطِيعَةَ رَحِمٍ، ومَا مِن مَلَكٍ مُقرَّبٍ ولا جَبَلٍ ولا أَرَضٍ ولا سماءٍ إلَّا وهو مُشفِقٌ من يَومِ الجُمعةِ أن تقومَ فيه السَّاعةُ، وفيه تُوفِّي آدم[3]».

ولمسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «وخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ العَصرِ مِن يومِ الجُمُعةِ آخِرَ

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٥٨٢)، والترمذي (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»(٩٤٠٩)، ومسلم (٨٥٤)(١٨).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده»(١٥٥٤٨).

الخَلْقِ، ما بين العَصرِ إلى اللَّيلِ»[١].

وقال ابن سعد بإسناده عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّاسُ ولدُ آدَمَ، وآدَمُ مِن التُّرَاب»[٢].

واختلفوا فيمن جاء بالطِّين الذي خلق منه آدم على قولين:

أحدهما: إبليس، قاله ابن مسعود[٣] وابن عباس[٤]، قال: ولهذا قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[الإسراء: ٦١] ومعناه: أنا جئت به، فكيف أسجد له؟

والثاني: ملك الموت، فروى السُّدي، عن أشياخه قال: لما أراد الله أن يخلق آدم بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها يخلق منه آدم، فجاء إليها فناشدته الله وقالت: أعوذُ بالله منك أنْ تنقصني وتشينني وتكونَ سبباً لإدخال جزءٍ مني إلى النار، فرقَّ لها جبريل واستحيى ورجع إلى الله وقال: إنها قالت كذا وكذا، واستعاذت بك فأعذتها، فبعث إليها إسرافيلَ، فاستعاذت منه فأَعاذها، فبعث إليها ميكائيلَ ففعلت كذلك، فبعث إليها ملكَ الموت فقالت له كذلك، واستعاذت بالله منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولا أنفِّذ أوامر ربي، فأخذ من وجهها تربة بيضاء وحمراء وسوداء، ولم يأخذ من مكان واحد بل من عذبها وملحها، فكل شيء أخذه من عذبها صار إلى الجنة، وإن كان ابن كافر، وكل شيء أخذه من ملحها صار إلى النار، وإن كان ابن مؤمن، فلما جاء ملك الموت بالطِّين إلى بين يدي ربِّ العالمين، وأخبره بما قالت، وبما قال لها، قال الله تعالى: وعزَّتي لأسلطنَّك عليها إذْ أطعتني وخالفتها[٥].

ولا يختلفون أنه خُلق يوم الجمعة، في آخر ساعة من ساعات النهار، سادس نَيسان، وقد ذكرناه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٩).

(٢) «الطبقات» ١/ ٢٥.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ١٩٨-١٩٩.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٩٠-٩١، وانظر «المنتظم» ١/ ١٩٨.

(٥) أخرجه مختصراً الطبري في «تاريخه» ١/ ٩٠-٩١، وفي «التفسير» ١/ ٢٠٣، وهو متلقى عن الإسرائيليات. وانظر عرائس المجالس ٢٧ ـ ٢٨ و«المنتظم» ١/ ١٩٨.

واختلفوا كم أقام مصوَّراً على أقوال: أحدها: أربعين سنة، قاله ابن عباس. والثاني: أربعين ليلة، قاله الضحاك. والثالث: لم يقدَّر بشيء، قاله مقاتل.

والأول أظهر، لوجهين:

أحدهما: لأنها تمام الخلق ومنتهى الأشدِّ، ولهذا لم يبعث الله نبيًّا إلا بعد أربعين سنة، قاله السُّدي.

والثاني: لتدور عليه الأفلاك بالنجوم السبعة المدبِّرات أمراً، فتستحكم أجزاؤه ويكمل خلقه.

وقال بعضهم: أمطر عليه الحزن أربعين سنة، والسرور يوماً واحداً. وقد نصَّ ابن عباس على أربعين سنة فقال: خمَّر الله طينة آدم قبل التصوير أربعين سنة(١).

واختلفوا أين صوَّره؟ قال ابن عباس: في السماء على باب الجنة، المدة التي ذكرها.

وقال السُّدي: ألقاه بين مكة والطائف، فكان إبليس إذا مرَّ به فزع وضربه برجله فيظهر له صوت وصلصلة فيزداد فزعه.

وقال مقاتل: كان يدخل في فيه ويخرج من دبره ويقول: لأمرٍ ما خُلِقت، ولئن فُضِّلت عليَّ لأهلكنَّك.

قال مسلم بن الحجَّاج بإسناده عن أبيِّ بن كعب وأنس، عن النبي ﷺ قال: «لما صَوَّرَ آدَم تَركَهُ ما شاءَ أن يَترُكَهُ، فَجَعلَ إبليسُ يُطِيفُ به وينظُرُ إليه، فلمَّا رَآهُ أجوَفَ عَرَفَ أنَّه خَلقٌ لا يَتمالَك(٢)».

وقد روي أنه وكَّل به ملك الموت أربعين سنة، ثم أربعين سنة، ثم أربعين سنة حتَّى استحكم في مئة وعشرين سنة، فلذلك يقول الأطبَّاء: العمر الطبيعي مئة وعشرون سنة.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: في موضع: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] وفي موضع

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٩٢.

(٢) صحيح مسلم (٢٦١١) من حديث أنس، ولم نقف على حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم ولا في غيره من المصادر.

آخر: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ومن ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]. و﴿مِن تُرَابٍ﴾[آل عمران: ٥٩] فكيف الجمع بين هذه الآيات؟

فالجواب: إن الألفاظ وإن اختلفت فالمعاني قد اتَّفقت، لأنه كان أوَّلاً تراباً ثم صار حَمَأً، ثم جفَّ فصار صلصالاً، والصلصلة: الصوت، كان يُنقر فيطنُّ ويُسمع له صوت، اللَّازب: اللازق، والحمأ المسنون: المتغيِّر المنتن، والسلالة: القليل مما ينسل، وآدم استلّ من الأرضِ.

فإن قيلَ: فلمَ خصَّ التراب بخلقه؟ فالجواب: ليكمل به الاستقصَّات الأربع، فيجتمع فيه الطباع المختلفة. ولم يكن قبله خلق من التراب بل من النَّار والماء والريح. وذكر الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن سعيد بن جبير قال: خلق الله آدم من دَحْنَا ومسح ظهره بنَعْمان السحاب[1].

وأخرج ابن سعد بمعناه عن ابن جبير، فذكر أرضاً يقال لها: دحنا، لا غير[2].

وقد ذكرنا جبلي نعمان في باب الجبال.

وقال الحافظ أبو القاسم أيضاً: وفي حديث الحسن البصري أنه خلق جُؤجُؤه من نقا ضَرِيَّة[3].

ومعناه: خلق صَدرهُ من رمل ضريَّة، وهي منزل بطريق مكَّة من ناحية البصرة واليمامة.

وكذا روى ابن سعد عن الحسن[4].

والجؤجؤ: الصّدر. وقال الجوهري: ضريَّة قرية لبني كلاب على طريق البصرة، وهي إلى مكة أقرب[5].

وذكر الحافظ أبو القاسم في «تاريخه» عن عليٍّ عليه السلام قال: قال رسول الله

(١) تاريخ دمشق ٧/ ٢٨١.
(٢) «الطبقات» ١/ ٢٥-٢٦.
(٣) «تاريخ دمشق» ٧/ ٢٧٩.
(٤) «الطبقات الكبرى»١/ ٢٦
(٥) «الصحاح»(ضري).

ﷺ «أكرمُوا عمَّتَكم النخلة، فإنها خُلقَت منَ الطِّينِ الذي خُلقَ منه آدمُ، وليسَ من الشَّجرِ شيءٌ يلقح غيرها، وأطعِموا نساءَكُم الوُلَّد الرُّطبَ، فإن لم يَكن رُطبٌ فالتمرُ، وليسَ منَ الشَّجرِ أكرَمُ على اللهِ من شَجَرةٍ وُلدَت تحتَها مريمُ بنتُ عمرانَ»

قلت: وقد ذكر جدي هذا الحديث في «الموضوعات» وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ(١).

وقال مسلم بإسناده عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «خُلقَتِ الملائِكةُ منَ النُّورِ، وخُلقَ الجانُّ من مَارجٍ من نارٍ، وخُلقَ آدم مما وصفْتُ لكُم»(٢) أي من التراب.

وحدثنا جدي رحمه الله بإسناده، عن أنس، عن رسول الله ﷺ قال: «نُفخَ في آدمَ الرُّوحُ، فطَارَتْ فصَارَتْ في رأسِه فعَطَسَ، فقال: الحمدُ للهِ، فقال الله عزَّ وجلَّ: يرحمُكَ الله»(٣).

وأخرجه ابن سعد عن أبي هريرة قال: فلمّا جرى الروح في خياشيمه عطس، فلقنه الله حمده، فحمد ربه(٤).

وقد رواه ابن عباس، وفيه: يرحمك ربّك أبا محمّد. قال مقاتل: وهذا معنى قول رسول الله ﷺ: «كنتُ نبيًّا وآدمُ بين الماءِ والطِّينِ»(٥).

وقال سهل بن عبد الله: لما قال له يرحمك الله، علمَ أنَّه سيذنب، لأنَّ الرحمة إنَّما تكون بعد الذنب والزَّلَّة.

وقال السُّدي: لما وصلت الروح إلى عينيه نظر إلى الجنة وما فيها، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه، فذلك قوله تعالى ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[الأنبياء: ٣٧](٦).

---

(١) «تاريخ دمشق» ٧/ ٢٨٢، «الموضوعات»(٣٨٥).

(٢) صحيح مسلم(٢٩٩٦)

(٣) «التبصرة» ١/ ١٤، وأخرجه أيضاً ابن حبان في «صحيحه» (٦١٦٥)، والضياء في «المختارة»(١٦٦٧)

(٤) «الطبقات الكبرى»١/ ٣١.

(٥) لا أصل له بهذا اللفظ انظر «المصنوع»(٢٣٣) وقد ورد من حديث أبي هريرة عند الترمذي (٣٦٠٩) ولفظه قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب

(٦) انظر«المنتظم»١/ ٢٠١.

وقال ابن سعد بإسناده عن سلمان الفارسي، أن ابن مسعود قال: خمَّر الله طينةَ آدم أربعين ليلة وأربعين يوماً ثم ضرب بيده فيه فخرج كلُّ طيِّب في يمينه، وخرج كلُّ خبيث في يده الأخرى، ثم خلط بينهما، قال: فمن ثمَّ يُخرج الحيَّ من الميت والميت من الحيِّ[١].

وروى ابن سعد بإسناده عن عبد الصمد بن مغفل، أنه سمع وهب بن منبه يقول: خلق الله ابنَ آدم كما شاء مما شاء، فتبارك الله أحسن الخالقين، خلق من التراب والماء، فمنه لحمه ودمه وشعره وعظامه وجسده كله، فهذا بدءُ الخلق الذي خلق الله منه ابن آدم[٢].

وقال ابن عباس: أتته النفخة من قبل رأسه، فجعلت لا تجري في شيء إلّا صار لحماً ودماً[٣].

وقال ابن سعد بإسناده قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدم بيدِهِ»[٤].

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء: ٨٥] فقد رُدَّ العلم إلى الله تعالى.

فالجواب من وجهين:

أَحدهما: أن اليهود أرادوا امتحان النبي ﷺ بذلك، فكان سكوته عن الجواب من أمارات معجزاته، لأنهم قالوا: إن أجاب فليس بنبيٍّ.

والثاني: أنه لا يسعنا أن نقول: إن رسول الله ﷺ لم يعلم سرَّ الروح مع قوله عليه السلام: «فأورَثَني عِلمَ الأوَّلينَ والآخِرينَ»[٥] وكان معناه: أنني لا أخبر من ليس بأهل عن هذا السرّ كاليهود، أمّا من هو أهل فنعم.

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله

---

(١) «الطبقات الكبرى»١/ ٢٧.

(٢) «الطبقات الكبرى»١/ ٢٧.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه»١/ ٩٥.

(٤) «الطبقات الكبرى»١/ ٢٧ من حديث عبد الله بن الحارث.

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، ولكن عند أحمد (٣٤٨٤) من حديث طويل: «... فعلمت ما في السماوات وما في الأرض ...» وإسناده ضعيف

ﷺ: «إنَّ الله خَلقَ آدمَ على صُورتِه، طولُه ستُّونَ ذراعاً، وقال له: اذهَبْ فسلِّمْ على أولئك النَّفَر من الملائكةِ وهم جُلُوسٌ، واسمع ما يُحيُّونَكَ، فإنَّها تحيَّةُ ذُريَّتِكَ، فجاء فسَلَّم، فقالوا: وَعليك السَّلامُ ورحمةُ الله، فزادوه: ورحمةُ الله، فكلُّ مَن يَدخُلُ الجنَّةَ على صورةِ آدَمَ وطولِه، فلم يَزَلِ الخَلقُ ينقُصُ بعد ذلك» أخرجاه في «الصحيحين»[(١)].

وقد تكلَّموا على قوله: «خلق آدم على صورته»، قال قوم: الهاء عائدة إلى آدم، ومعناه: على صورته التي خلقه عليها، ومنهم من حمل الصورة على الصفة، وصفات الله ثابتة من السَّمع والبصر ونحوه.

فإن قيل: فقد ورد في حديث «على صورة الرحمن»[(٢)] فالجواب: أنه لا تصحُّ هذه الرواية.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: إنَّ عرض آدم كان سبعةَ أذرع، وإنَّ نَفَسه كان يؤذي أهل السماء، وكان رأسه يخطُّ السماء فأورثه ذلك الصَّلع، وإن الله حطَّه إلى ستين ذراعاً[(٣)].

قلت: هذا قول ضعيف لما ذكرنا من بعد المسافة بين السماء والأرض.

فصل في تعليمه الأسماء

قال الله تعالى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾[البقرة: ٣١] اختلفوا في الذي علَّمه على أقوال:

أحدها: أنها أسماء الملائكة، قاله الربيع بن أنس[(٤)].

والثاني: أسماء ذريَّته، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[(٥)].

والثالث: أنه علَّمه جميع الأسماء، فقال: هذا فرس، وهذه دابَّة، هذه قصعة، هذه قصبة، هذا نعل، هذا كذا، حتى أتى على آخرها، قاله ابن عباس[(٦)]، وهو الأصح

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨١٧١)، والبخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (٤١) والطبراني في «الكبير» (١٣٥٨٠) من حديث ابن عمر.

(٣) ذكره ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٢٠٢ عن مجاهد قوله، وقال عقبه: ليس هذا شيء.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٩٩.

(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٩٩.

(٦) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٩٧.

لوجهين: أحدهما لأنَّ لفظه «كل» للعموم. والثاني: ليظهر فضلُ آدم على الملائكة، وفي تعليم البعض نقص.

وقد نصَّ ابن عباس على هذا فقال: علَّمه أسماء الخلق والقرى والمدن والجبال وأسماء الطيور والأشجار وما كان ويكون وكلَّ نسمةٍ الله خالقها إلى يوم القيامة.

وقال الطّبري في «تاريخه»: علَّمه كل شيءٍ حتى الفسوة والضّرطة(١).

قلت: أما كان في مخلوقات الله ما يعبَّر عنه بعبارة تليق بالله إلا هذه العبارة؟!

وقال السُّدي: لما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالت الملائكة فيما بينهم: ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أفضل ولا أكرم عليه منا، وإن كان خيراً منا فنحن أعلم منه لأنَّا خلقنا قبله ورأينا مالم يَرَهُ. فلما أُعجبوا بعلمهم وعبادتهم فضَّل عليهم آدم بالعلم فعلَّمه الأسماء كلها. وهذا قول الحسن وقتادة وعامَّة العلماء.

وقال أبو القاسم الورّاق: علَّمه ألف حِرفَةٍ ثم قال له: قل لأولادك إن لم يصبروا فليطلبوا الدنيا بهذه الحرَف ولا يطلبوها بالدِّين، فإنَّ الدِّين خالص، وويلٌ لمن طلب الدنيا بالدِّين(٢).

فإن قيل: فلِمَ قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ ولم يقل: «عرضها»؟ فالجواب: أنه أراد الشخوصَ المسمَّيات لأنَّ الأعراض لا تعرض، فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٣١] وفيه أقوال:

أحدها: أنَّ معناه إن كنتم صادقين أني أخلق خلقاً أعلم منكم وأفضل، قاله الحسن.

والثاني: إن كنتم صادقين أنَّ بني آدم يفسدون ويسفكون، رواه السُّدي عن أشياخه.

والثالث: أنَّ المراد إبليس لأنه قال: إن فضِّلتُ عليه لأهلكنَّه، فتقديره: إن كنت صادقاً أنك تفعل ذلك، فأنبئني بأسماء هؤلاء، قاله مجاهد(٣).

وقال الزَّجاج: معناه: كيف تدَّعون علم مالم تشاهدوه من الحكم على الغيب بالفساد، وأنتم لا تعلمون ما تعاينونه وترونه؟ فحينئذ أقرَّت الملائكة بالعجز فقالوا:

---

(١) «تاريخ الطبري»١/ ٩٧.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»٥٧/ ٥ من حديث عطية بن قيس عن النبي ﷺ

(٣) انظر«التبصرة»١/ ١٥.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: نزَّهناك، والتسبيح التنزيه لله سبحانه وتعالى من كل سوء ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] فقد نزَّهناك عن الاعتراض عليك.

فصل في سجود الملائكة لآدم

ثم أمرهم الله بالسجود لآدم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] قال ابن عباس: لمّا اعترفوا بالعجز أمر الله تعالى آدم بأن يخبرهم بالأسماء، فلما أخبرهم قال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يا ملائكتي ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما كان فيها وما يكون ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ من الطاعة والخضوع لآدم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[البقرة: ٣٣] في أنفسكم له من العداوة.

وقال ابن عباس أيضاً: المراد به إبليس، فإنه كان إذا مرَّ على جسد آدم وهو ملقى بين مكة والطَّائف يقول لمن معه من الملائكة: أرأيتم إن فضِّلَ عليكم هذا ماذا تصنعون؟ فيقولون: نطيع أمر ربِّنا، فيقول في نفسه: إلا أنا، والله لئن سلِّطتُ عليه لأهلكنَّه، وإن سلِّط عليَّ لأعصينَّه.

واختلفوا في سجودهم لآدم على أقوال:

أحدها: أنه سجود تعظيم وتحية لا سجود صلاة وعبادة كقوله في قصة يوسف عليه السَّلام ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وكان ذلك تحية للناس وتعظيم بعضهم بعضاً، ولم يكن وضع الوجه على الأرض، إنما كان انحناءً وإيماءً ووضع اليد على الصدر. وأصل السجود الانحناء والميل، يقال: سجَدَت النخلة إذا مالت.

فلمَّا جاء الإسلام أبطل ما كانوا يصنعونه وعوَّضهم بالسَّلام، ولما رَجعَ معاذٌ من اليمن، سَجدَ لرسول الله ﷺ، فتغيَّرَ وَجهُه وقال: «ما هذا يا معاذُ؟» فقال: رأيتُ اليَهودَ يَسجُدونَ لأحبارِهِم، والنَّصارى لرُهبانِهم وقِسِّيسيهم، ففعلتُ مِثلَهم، وأنت أولى، فقال: «مَهْ يا معاذُ، كَذَبوا، إنما السُّجود لله تعالى»[1]. قاله ابن عباس.

---

(١) أخرجه الحاكم ٤/ ١٧٢ وفيه: «أنهم كذبوا على أنبيائهم كما حرفوا كتابهم، ولو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، من عظيم حقه عليها..»
وأخرجه قريباً منه ابن ماجه (١٨٥٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤١٧١) وعندهم أنه رأى ذلك في الشام.

والثاني: أنه كان سجوداً على الحقيقة لآدم، قاله مجاهد.

والثالث: أنه جعل آدم قبلةً لهم وسجودهم لله تعالى، كما جُعلت الكعبة قبلةً لصلاة المؤمنين، والصّلاة لله ربِّ العالمين.

وقال ابن مسعود: سجدت الملائكة لآدم، وسجد هو لله تعالى.

وقال أبيٌّ بن كعب: معنى سجودهم أنَّهم أقرُّوا لآدم أنه خير وأكرم على الله منهم.

وحدثنا يحيى بن الأَوَاني، بإسناده عن ضمرة بن ربيعة، عن قادم بن مسور قال: قال عمر بن عبد العزيز: لمّا أمر الله الملائكة بالسُّجود لآدم أوَّل من سجد له إسرافيل، فأثابه الله بأن كتب القرآن في جبهته(١).

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤] أي: امتنع وتعظَّم، و«كان» بمعنى صار في علم الله أنه من الذين وجبت عليهم الشقاوة.

وقال السُّدي: لما امتنع إبليس من السجود قال له الله: ما منعك أن تسجد له؟ قال: أنا خير منه. قال: بماذا؟ قال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[الأعراف: ١٢] ألستُ الذي استخلفتني في الأرض، وجعلتني حاكماً عليها وعلى الملائكة، وألبستني الرِّيش، ووشَّحتني بالنور، وتوجتني بالكرامة، وجعلتني خازن السماوات، وعبدتك ثمانين ألف سنة، وكنت من المقرَّبين؟ فقال الله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾[الحجر: ٣٤-٣٥-٣٦-٣٧].

وقال ابن عباس: قال الله له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥] منهم من أجراه على ظاهره، ومنهم من قال: يد القدرة. وقال أبو إسحاق الثَّعلبي: بإسناده عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدَمَ السَّجدَةَ وسَجدَ اعتزَلَ الشَّيطانُ يَبكِي ويقُولُ: يا وَيلَهُ أُمِرَ ابنُ آدَمَ بالسُّجُودِ فَسجَدَ، فله الجنَّةُ، وأمِرتُ بالسُّجُود فأبَيتُ فليَ النَّارُ»(٢).

(١) وأخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٠٣، وسلف ص٢١٦ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه مسلم (٨١).

وذكر محمد بن عبد الكريم الشّهرستاني في أول كتاب «الملل والنحل» وقال: أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس. قال: وتشعب من هذه الشبهة شبهات، منها أنه قال: قد علمت أنه إلهي وإله الخلق، وقد علم ما يصدر مني قبل خلقي، فلِمَ خَلقني وما الحكمة في خلقي؟ وكونه كلَّفني ما لا منفعة فيه له، فإنه لا تنفعه طاعتي ولا يضره معصيتي، ثم إنه سلَّطني على آدم فأخرجته من الجنّة بقضائه وإرادته فطردني ولعنني، وسألته الإنظار فأنظرني، ثم كان عاقبة أمري ما أنا فيه، ولو سجدت لآدم كان ماذا؟ وإنما له إرادة أراد أن يظهرها، قال: فقال الله تعالى للملائكة: قولوا له لو كنت صادقاً أني إلهك لما اعترضت عليَّ ولا خالفتني، لأني إله العالم، لا أُسأل عمَّا أفعل وهم يسألون[١].

فصل في خلق حوَّاء

قال ابن سعد بإسناده عن عكرمة مولى ابن عباس أنه قال: سُمِّيت حواء لأنها أمُّ كل شيء حي[٢].

وروى عطاء عن ابن عباس قال: لما أسكن الله آدم الجنَّة أقام مدةً فاستوحش، فشكا إلى الله الوحدة، فنام فرأى في منامه امرأة حسناء، ثم انتبه فوجدها جالسةً عنده فقال: مَن أنت؟فقالت: حوَّاء، خلقني الله تعالى لتسكن إليَّ وأسكن إليك[٣].

قال: وخلقت من ضلع آدم، ويقال لها: القُصَيرى. قال الجوهري: القصيرى الضلع التي تلي الشاكلة، وتسمَّى الواهنة في أسفل الأضلاع[٤].

وقال مجاهد: إنما سُمِّيت المرأة مرأة لأنها خلقت من المرء وهو آدم.

وقال مقاتل بن سليمان: نام آدم نومة في الجنة فخلقت حوَّاء من قُصَيْراه من شقِّه الأيمن من غير أن يتألَّم، ولو تألَّم لم يعطف رجل على امرأة أبداً.

---

(١) «الملل والنحل»١/ ١٦-١٨ بشيء من التصرف

(٢) «الطبقات الكبرى»١/ ٣٩-٤٠.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه»١/ ١٠٣.

(٤) «الصحاح»: (قصر).

وقال ابن عباس: لَأَمَ الله موضعَ الضلع لحماً. ولما رآها آدم قال: أثاثا، وتفسيره بالسُّريانية: امرأة[(١)].

وأخرجه ابن سعد عن مجاهد قال: ولمَّا خلقت حواء قالت له الملائكة: أتحبها؟ قال: نعم، قالوا لها: أفتحبينه؟ قالت: لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه منها، فلو صدقت امرأة في حبِّ زوجها لصدقت حوَّاء[(٢)].

وفي التوراة: فقال آدم: هذه عظام من عظامي ولحم من لحمي ودم من دمي.

قال كعب: ومن أجل ذلك يترك الرجل أُمَّه وأباه ويتبع امرأته

وقال الربيع بن أنس: إنما خلقت حوَّاء من طينة آدم. واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] ولأن الرجل لم يخلق من المرأة، فكذا المرأة لم تخلق من الرجل. والأول أصح، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] والمراد به آدم، وخلقت حواء من ضلعه، ولقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[الأنعام: ٩٨].

وذكر مقاتل بن سليمان، في «كتاب المبتدأ» له وقال: لما أراد الله أن يزوِّج حواء من آدم قال: يا آدم لابد من مهر، قال: ياربِّ وما مهرها؟ قال: أن تصلِّي على ولدك محمد ﷺ عشر مرات، فصلى عشراً[(٣)]، قال مقاتل: فذلك قوله ﷺ: «من صَلَّى عليَّ مَرةً صَلَّى الله عليه عشراً[(٤)]»

فصل في مقام آدم في الجنَّة

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥] قال الفرَّاء: أهل نجد يقولون لامرأة الرجل: زوجة، ويجمعونها: زوجات، وهي لغة بني تميم. قال: وأهل الحجاز يقولون لامرأة الرجل: زوج، ويجمعونها: الأزواج[(٥)].

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٠٤-١٠٥.
(٢) لم نقف عليه في «الطبقات»
(٣) انظر «عرائس المجالس»: ٣١.
(٤) أخرجه مسلم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) انظر «زاد المسير» ١/ ٦٥.

وقال الجوهري: زوج المرأة بعلها، وزوج الرجل امرأته. قال الله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[(١)].

والرَّغد: الرزق الواسع. ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[البقرة: ٣٥] أي: كيف ومتى وأين شئتما.

واختلفوا في الشجرة على أقوال:

أحدها: أنها شجرة البُرِّ، وهي الحنطة، قاله ابن عباس[(٢)].

والثاني: شجرة الكافور، قاله علي رضي الله عنه.

والثالث: الكَرمة، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد[(٣)]، وحكاه ابن سعد، عن جعدة بن هبيرة قال: ولذلك جعلت فتنةً لولده[(٤)].

والرّابع: التين، قاله عطاء والحسن ابن جريج[(٥)].

والخامس: النَّخلة، قاله أبو مالك[(٦)].

والسَّادس: حيُّ العلم[(٧)] ـ وقيل: إنما هي بكسر العين وفتح اللام ـ وهي الحنطة بلغة قيس. وهو الأصح، لأن الحنطة ملائمة لجميع بني آدم. وقد نصَّ على أنها الحنطة عامَّة العلماء.

وقال وهب: هي شجرة الخلد. وهو وهم لأنَّ الله سمّاها بذلك، وإنما الكلام في جنسها[(٨)].

فإن قيل: فلِمَ خصَّ الشجرة المشار إليها بالنهي؟ فالجواب: لأنَّ لها ثُفْلاً، والجنَّة

(١) «الصحاح»: (زوج).

(٢) انظر «تفسير الطبري» ١/ ٢٣٢.

(٣) انظر «تفسير» ابن أبي حاتم ١/ ١٢٦، و«تفسير» الطبري ١/ ٢٣٢

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/ ٣٤.

(٥) انظر «تفسير» ابن أبي حاتم ١/ ١٢٧، و«زاد المسير» ١/ ٠٦٦.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١/ ١٢٧، وانظر «زاد المسير» ١/ ٠٦٦.

(٧) كذا هي في (ل)، وفي «المعتمد في الأدوية المفردة» ص١١٤: حي العالم: سمي بهذا الاسم لأنه لا يطرح ورقه في وقت من الأوقات، وهو نبات له قضبان طولها نحو من ذراع وأكثر في غلظ الإبهام، فيها شيء من رطوبة تدبق باليد وهي غضة.

(٨) انظر « زاد المسير» ١/ ٦٦.

لا تحتمل الثفل.

وقال مجاهد: لما أكل منها لعبت معدته فقال له جبريل: أما تستحيي، أين تضع هذا على السُّرر أو على الفرش أو على شواطئ أنهار الجنَّة من رياض المسك والعنبر والكافور والزّعفران؟ ولكن انزلْ إلى دار يصلح أن يكون فيها هذا. قال: وهذا معنى قول علي عليه السلام: الدنيا كنيف يملأ.

وقال النَّضر بن شُميل: إنما أكل آدم من الشجرة لأنه مُنع عنها، والآدميُّ حريص على ما مُنعَ منه.

وقد ذكرها في التوراة فقال: ونصب الله تعالى شجرة الخير والشرِّ، أو شجرة الحياة، وسط الجنَّة، وقال: يا آدم كُلْ ما شئت إلّا منها، فإنك تموت يوم تأكل منها.

وقال الحسن: لم يكن له بدٌّ أن يأكل منها لأنَّه خلق للمقام في الأرض.

فصل في احتيال إبليس على دخول الجنَّة

قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾[البقرة: ٣٦] قال ابن عباس: أي: حملهما على الزَّلَّة. وقرأ الأعمش: فأزالهما[1]، أي: نحَّاهما عن الطَّاعة والجنَّة، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم.

واختلفوا في كيفية دخوله إلى الجنَّة:

قال الحسن البصري: وقف على باب الجنة وناداهما لأنه كان ممنوعاً من دخولها بقوله: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨].

وقال ابن عباس: إنما احتال بطريق الحيَّة وكانت من أحسن الدوابِّ، ولها جناحان كجناحي الطَّاووس، ولون جلدها لون السُّندس والإستبرق، وكانت من خُزَّان الجنَّة تدخل إليها وتخرج، وكانت صديقاً لإبليس، فخرجت ذات يوم فتعرَّض لها وخدعها وقال لها: قد اشتقت إلى الجنَّة، فقالت: أنت مطرود عن الجنَّة، فكيف

---

(١) وهي قراءة حمزة بألف بعد زاي ولام مخففة. انظر «الحجة» لأبي علي الفارسي ٢/ ١٤، و«إتحاف فضلاء البشر» ص١٧٦.

أُدخِلُكَ إليها؟ قال: وما يضرُّكِ فإني مطرود عنها حيث لم أسجد لآدم، فأدخِلِيني لأسجد له لعلَّ الله أن يرضى عنِّي. ففتحت فاها فوثب فقعد على نابٍ من أنيابها. ومرَّت به على الخَزَنة فأنساهم العلم السَّابق والقَدَر المحتوم أن يفتقدوا ناب الحيَّة، فدخلت به. وكان آدم لما رأى نعيم الجنة قال: لو أنَّ لنا خُلداً، فأتاه من قبل الخلد، فجاء فوقف بين يدي آدم وحواء، وهما لايعلمان أنه إبليس، فناح عليهما نياحةً أحزنتهما وبكى، وهو أوَّل من ناح، فقالا له: ما الذي بك وما يبكيك؟ فقال: أبكي عليكما، تموتان وتفارقان هذا النَّعيم. فوقع ذلك في نفوسهما واغتمَّا، ومضى عنهما، ثم جاءهما بعد ذلك فقال: يا آدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه: ١٢٠] فقال: إنَّ ربي نهاني عنها، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي: حلف لهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] فاغترَّا(١).

قال ابن عباس: ما ظنَّ آدم أنَّ أحداً يحلف بالله ويكذب. فبادرت حواء إلى الأكل من الشجرة، ثم ناولت آدم فأكل منها.

وقال مقاتل بن سليمان: قال لهما إبليس: ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا حسداً لكما، لأنه علم أنكما متى أكلتما منها علمتما الغيب، وزاحمتماه في ملكه وغيبه.

وقال مجاهد: حلف لهما سبعين يميناً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

وقال مقاتل: فأخذت حوَّاء من الشجرة خمس حبَّات، فأكلت اثنتين وأخفت ثلاثاً، قال: فلذلك صار النساء يسرقن. وفي رواية عنه: أنها أخذت سبع حبَّات، فدفعت إلى آدم حبَّتين، وقالت: إنما أخذت واحدة، فلذلك صار للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقال مقاتل أيضاً: تقدَّمت إلى الشجرة فأكلت منها ثم قالت: يا آدم، قد أكلت فلم تضرَّني، فتقدَّم فأكل منها.

---

(١) انظر «تاريخ الطبري»١/ ١١٠-١١١، و«عرائس المجالس»ص٣١.

وحكى أبو إسحاق الثعلبي في «تفسيره» عن سعيد بن المسيَّب: أنه كان يحلف بالله لا يستثني أن آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل، ولكن حوَّاء سقته الخمر حتى سكر، ثم قادته إلى الشجرة فأكل منها(١).

قلت: والعجب من حكاية الثعلبي مثل هذا عن سعيد بن المسيَّب، وهو إمام وقته في العلم والزهد والورع والتحرُّز في أقواله عن مثل هذا. ثم قد اتفق العلماء على أنَّ خمر الجنَّة لا يسكر ولا يذهب بالعقول، قال الله تعالى ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩﴾[الواقعة: ١٩] وقال الله تعالى ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾[الطور: ٢٣] وهو السكر، والمراد من الخمر إنما هو حصول اللَّذة المطربة، وذلك حاصل في الجنَّة بدون سكر، فإنه مباح لأهل الجنة مع بقاء عقولهم، وبهذا فارق خمرَ الدنيا.

وإنما اللَّائق بحال آدم أنه إنما أكل متأوِّلاً للكراهة دون التحريم، وذلك قبل النبوَّة، لأنه نهي عن شجرة فأكل من جنسها ظنًّا منه أنَّ المراد غير تلك التي نهي عنها لا التي أكل منها. على أنَّ الله تعالى قد عذره بكونه أكل ناسياً فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾[طه: ١١٥].

فإن قيل: فإن كان آدم تعمَّد، فمعصيته كبيرة، والكبائر لا تجوز على الأنبياء، وإن كان نسي فالنسيان معفوٌّ عنه، فكيف وقعت المؤاخذة؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ الأنبياء قد أمروا بتجويد التحفظ، ومثل آدم لايسامح.

والثاني: أنَّه خالف، ومخالف الأمر يعاقب وإن كان ناسياً، فإنَّ من طلَّق امرأته ناسياً أو ساهياً أو هازلاً وقع طلاقه، فالنِّسيان معفوٌّ عنه في رفع الإثم دون المؤاخذة، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «عُفيَ لأمَّتي عنِ الخطأ والنسيانِ وما استُكرِهوا عليه»(٢).

والجواب الثالث: أن بعض العلماء قال: إنه أكل متأوِّلاً للكراهية دون التحريم.

وقال قتادة: لما أكَلا منها بدَت لهما سوآتهما، وولَّى آدم هارباً يستتر بورق الجنَّة،

(١) «عرائس المجالس» ص٣٣، وانظر«تاريخ الطبري»١/ ١١١-١١٢.
(٢) أخرجه ابن ماجه(٢٠٤٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٢١٩) من حديث ابن عباس.

فناداه الله: يا آدم أفراراً مني؟ قال: لا يا ربِّ، بل حياء منك. فقال: يا آدم اخرج من جواري، فإنَّ من عصاني لا يجاورني في داري. فقال: يا ربّ، هل بعد هذا العتاب رضىً؟ قال: نعم، فقال: الحمد لله(١).

وقال الربيع بن أنس: امتنع من الخروج من الجنة، فجاءه جبريل فجذب بناصيته للإخراج، فقال: بالأمس تسجدُ لي واليوم تسحبُ بناصيتي؟ ارفق بي، فقال: لا أرفق بمن عصى الله.

وذكر في التوراة: قال الله تعالى: يا آدم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، قال: إنَّ المرأة أطعمتني، وقالت المرأة: إنَّ الحيَّة أطعمتني، يعني أن إبليس كان يخاطبها على لسان الحيَّة وهو قاعد على أنيابها. فقال الله للحيَّة: من أجل فعلك هذا أنت ملعونة، وعلى بطنك تمشين، وتأكلين التراب، وسأغري بينك وبين ولد المرأة فيطأ رأسك وتلدغين عقبه، وقال لآدم: اخرج من مشرق جنة عدن إلى الأرض التي أخذت منها. وقال الله لحوَّاء: أنت غررت الرجلَ، وعزَّتي لأعاقِبنَّك بالحيض والنفاس والولادة ونقصان الشهادة، لا تحملين إلا كرهاً، ولا تضعين إلا كرهاً، ثم مسخ الحيَّة إلى هذه الصورة.

وقال وهب: كان لباس آدم في الجنة الظفر يزداد كلَّ يوم جِدَّة وحسناً، فلما أخرجه من الجنة ألبسه الجلود والصوف. وكان آدم أمرد، فعوقب بإنبات اللحية.

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «التَقى آدم مُوسى، فقال له مُوسى: أنتَ آدمُ الذي أشقَيْتَ النَّاسَ وأخرجْتَهُم من الجنَّة؟ فقال له آدمُ: أنتَ مُوسى الذي اصطَفَاك اللهُ برسالَتِه وكلامِه وأنزلَ عليك التَّوراةَ؟ قال: نعم، قال: أتلُومُني على أمر كانَ قد كُتبَ عليَّ قبلَ أنْ أفعَلَه، أو: قَبلَ أنْ أُخلَقَ؟ قال: فَحَجَّ آدمُ موسى» مرَّتين. أخرجاه في «الصحيحين»(٢).

فإن قيل: فلم لم تعاقب حوَّاء قبل آدم عند الأكل؟ فالجواب من وجوه:

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٠٩، وانظر «تاريخ دمشق» ٥٦/ ٣١٨.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٣٨٧)، والبخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢).

أحدها: أنها لو عوقبت في حالة الأكل قبل أن يأكل آدم لتوقَّف عن الأكل، فأخطأ علم الله فيه وإرادته وسره الخفي، فلما وافقها ظهر علم الله فيه.

والثاني: لأن حوَّاء كانت ضعيفة فلم تقدر على العقوبة ولم تحتملها، بخلاف آدم بها كان قويّاً.

والثالث: أنها عوقبت في ضمن عقوبة آدم بما يليق بها من الحيض والنِّفاس والولادة وترك الصلاة ونقصان الميراث والعدَّة، وبأنها لا تكون حاكماً بين الناس، ولا تسافر إلا بوليٍّ، ولا تنعقد بها الجمعة والجماعات، وكونها عورة إلى غير ذلك.

فإن قيل: فآدم وحوَّاء اشتركا في المعصية فلمَ لم تذكر معه في التوبة؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنَّ العرب إذا كان فعل الاثنين واحداً جاز أن يذكر أحدهما ويكون المعنى لهما، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾[التوبة: ٦٢] وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾[التوبة: ٣٤] ونحو ذلك.

والثاني: فلأن النساء يدخلن في خطاب الرجال على وصف التبعيَّة، لأنهن تبع، فلهذا لم تذكر معه في التوبة، بل قال: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧]، وإن كانت هي السبب.

وقد قالت المعتزلة وجهم بن صفوان: إنَّ الجنَّة التي أُسكنها آدم إنما كانت بستاناً من بساتين الدنيا في جزيرة سَرَنديب، ولهذا يسمَّى آدم السَّرنديبي، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾[الحجر: ٤٨] فمن دخلها يستحيل عليه الخروج منها، ولأنها دار راحة فلا يكون فيها ابتلاء ومحن.

ولنا: أنَّ الله عزَّ وجلَّ وصف الجنَّة التي أُخرج منها آدم بأوصاف لا تكون لبساتين الدنيا، على ما ذكرنا فيما تقدَّم، وأمَّا الآية، فآدم ما دخلها للثواب، ومن دخلها للثواب لا يخرج منها أبداً. ألا ترى أنَّ رضوان وبقيَّة الخُزَّان يدخلونها ويخرجون منها؟ وقولهم: دار راحة، قلنا: ودار تكليف لإجماعنا على أنهم مكلَّفون بها بمعرفة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾[البقرة: ٣٦] الهبوط: هو الحُدور من

علوٍّ إلى سفل، وهذا الخطاب لآدم وحوَّاء وإبليس والحيَّة، لأنَّه ذكرهم بالواو، وهو للجمع، قاله ابن عباس[(١)].

فإن قيل: فقد كرَّر الهبوط في آخر القصَّة بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾[البقرة:٣٨] فما فائدة هذا التكرار؟ فالجواب: إنهم أُهبطوا إهباطين، أحدهما: من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض، حكاه أبو صالح عن ابن عباس.

وقال مقاتل: إنما كرَّره لتعظيم الذَّنب، كما يقال للإنسان إذا أذنب ذنباً عظيماً: اخرج، اخرج. فكان تأكيداً في الإخراج.

والمستقَر: موضع القرار، والمتاع: البُلغة، وإلى حين: أي إلى حين انقضاء آجالكم ومنتهى أعماركم.

وقال الثعلبي فيما حكاه عن إبراهيم بن أدهم أنَّه كان يقول: أورثَتْنا تلك الأكلة حزناً طويلاً[(٢)].

وعن ابن عباس قال: لما أُهبِطَ آدم إلى الأرض قال: يا ربِّ، إني كنت جارك في دارك، ليس لي رقيب ولا ربٌّ سواك، آكُلُ منها حيث شئتُ رغداً، فأهبطتني إلى دار العناء والشَّقاء والنَّصَب والتَّعب، فقال الله: يا آدم، لِشؤم معصيتك، وذكر كلاماً طويلاً[(٣)].

ولما أُهبِطَ آدم إلى الأرض كان على رأسه إكليل من الجنَّة فيبس وتناثر في الأرض، فكل طيب في الدنيا فمن ذلك الإكليل[(٤)].

فصل في المكان الذي أهبطوا إليه

قال علماء السِّير: أُهبِط آدم بالهند على جبل يقال له: واسِم، وقيل: نُوْذ، وقيل:

---

(١) انظر «تفسير» الطبري ١/ ٢٤٠.

(٢) «عرائس المجالس» ص٣٣.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٣٥-٣٦، والطبري في «تاريخه» ١/ ١٢٤.

(٤) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٥.

الرَّاهون، وقيل: انحلوس، عند وادي سَرَنْدِيب. واسم الوادي بهيل بين الدَّهنج والمندل، وهما بلدان بأرض الهند[١]. قال مقاتل: وهذا الجبل أقرب جبال الأرض إلى السماء.

وأُهبطت حوَّاء بجُدَّة من أرض مكة، والحيَّة بنَصِيبين الجزيرة، وقيل: بأَصبهان، وإبليس بميسان، وقيل: بالأُبلَّة[٢].

قال الجوهري: وميسان اسم كورة بسواد العراق[٣]. قال: والأُبُلَّة ـ بالضَّمِّ ـ مدينة إلى جانب البصرة[٤]. وقد ذكرها ابن الجواليقي قال: وهي بلدة قديمة[٥]. وقال أبو عبيد: هي آخر أعمال البصرة.

وقال ابن زيد: أهبط إبليس بالبصرة، وكذا قال الحسن البصري. وقال الحسن: ولهذا هي معدن المعتزلة والقدريَّة واليهود.

فإن قيل: فقد عَصَوا جملةً واحدة في مكان واحد، فما الحكمة في كونهم أهبطوا متفرقين؟ فالجواب: أنهم لما عصوا في ذلك المكان الشريف بدَّد الله شملهم في أقطار الأرض، وهو أبلغ في العقوبة من اجتماعهم في مكان واحد، ولهذا أُبقِيَ آدم مدَّة حتى اجتمع بحوَّاء بجَمْع، فلذلك سُمِّيت جَمْعاً على قول البعض، ثمَّ ازدُلِفت إليه بالمزدلفة، فسُمِّيت بذلك، ثم التقيا بعرفات فتعارفا، ورجعا إلى الهند، لما نذكر.

وحكى الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق»: أنَّ آدم كان يسكن بيت أبيات، قرية بسفح قاسيُون كانت، وإليه ينسب مسجدها، وأنَّ حوَّاء كانت تسكن بيت لَهيَا[٦].

قلت: ولم يوافقه على هذا القول أحد لإجماعهم على أن آدم كان بالهند ويتردَّد إلى مكة ولم يدخل الشَّام، والله أعلم.

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٢.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٢، و«التبصرة» ١/ ١٦.

(٣) «الصحاح»: (ميس).

(٤) «الصحاح»: (أبل).

(٥) «المعرب»: ص٦٤.

(٦) «تاريخ دمشق» ٦٩/ ١٠١.

فصل في مقدار لبثه في الجنَّة

اختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: ثلاث ساعات من أيام الآخرة، ربع يوم، فيكون مئتين وخمسين سنة من أعوام الدُّنيا، قاله الربيع بن أنس.

والثاني: ساعتين، قاله مجاهد، وهو موافق للحديث أنَّه خُلِقَ في آخر نهار الجمعة[١].

والثالث: ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر من سني الدنيا، رواه مجاهد عن ابن عباس.

الرابع: ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر من سني الدنيا، ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه»[٢].

والخامس: أنه أقام نصف يوم من أيام الآخرة خمس مئة عام، رواه أبو الضحى عن ابن عباس.

وقد روى قتادة: أنه دخل الجنَّة ضحوةً وأُخرجَ منها ما بين الظهر والعصر، وهو موافق لما روى أبو الضحى عن ابن عباس.

وقال ابن سعد: بإسناده عن ابن عباس قال: أُخرِجَ آدم من الجنة بين الصَّلاتين: صلاة الظهر وصلاة العصر، فأُنزِلَ إلى الأرض، وكان مكثُهُ في الجنَّة نصف يوم من أيَّام الآخرة خمس مئة سنة من يوم كان مقداره ألف سنة ممَّا تعدُّون، وهو اثنتا عشرة ساعة[٣].

وقال ابن سعد بإسناده عن خالد الحذَّاء قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، آدم خلق للسَّماء أم للأرض؟ فقال: للأرض، قلت: أرأيتَ لو اعتصم فلم يأكل من الشجرة؟ فقال: للأرض خلق، فلم يكن له بدٌّ من أن يأكلَ منها[٤].

---

(١) تقدم تخريجه في: «فصل خلق آدم».

(٢) «تاريخ الطبري» ١/ ١١٩.

(٣) «الطبقات الكبرى» ١/ ٣٤-٣٥.

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/ ٣٤.

فصل في ذِكرِ ما أُهبِطَ معه من الجنَّة

ذكر الوالِبي عن ابن عباس قال: أُهبِطَ معه الورق الذي خَصفَه من الجنة فتحاتَّ فنبَت منه أنواع الطِّيب والثمار، ففي ذلك الوادي: العود والسنبل والقرنفل والطَّاووس والمسك. وقد ذكرناه في أوَّل الكتاب.

وقال مقاتل في «المبتدأ» له: نزل مع آدم صُرَّة فيها حنطة وثلاثون قضيباً من الجنَّة، عشرة لها قشور وعشرة لها نوى، وعشرة لا قشور لها ولا نوى، فأمَّا التي لها القشور: فالجوز واللَّوز والفستق والبندق والخَشخاشُ والبلُّوط والشاه بلُّوط[1] والجوز الهندي والرُّمان والموز. وأمَّا التي لها نوى: فالخوخ والمِشمِشُ والإجَّاص والرُّطبُ والغُبَيراء والنَّبْق والزُّعرُور والعُنَّابُ والمُقْلُ والشاه لُوك[2]. وأما التي لا قشور لها ولا نوى فالتُّفَّاح والسَّفرجَل والعِنَبُ والكُمَّثْرَى والتُّوتُ والتِّين والأُتْرُجُّ والخَرُّوبُ والخِيَارُ والبِطِّيخُ[3].

وكان أبو موسى يقول: زوَّد الله آدم من ثمار الجنَّة، فثماركم هذه منها[4].

وروى عطاء عن ابن عباس قال: كان آدم حين أُخرج من الجنَّة لا يمرُّ بشيء إلا عبث به، فقال الله للملائكة: دعُوه فليتزوَّد منها ما شاء، فأخذ من أوراقها ما أراد وقَدرَ عليه، فعبَقَت أرض الهند وجبالها وشجرها بريح الجنَّة[5].

وقال قتادة: نزل معه الحجر الأسود، وكان أشدَّ بياضاً من الثلج، والركن والمقام، وهما ياقوتتان من ياقوت الجنة. ونزل معه عصا موسى، وكان من آس الجنة، طولها عشرة أذرع، ومرٌّ ولُبَان[6].

---

(١) الشاه بلوط: هو البلوط الجبلي الكبير. «المعجم الذهبي» ص ٣٦٣، وانظر «المعتمد في الأدوية المفردة» ص ٢٥٦.

(٢) الشاه لوك: هو الإجَّاص الأبيض. انظر «المعتمد في الأدوية» ص ٢٥٦.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٨، والعناب: شجر يقارب الزيتون في الارتفاع، لكنه شائك. «تذكرة ابن داود» ١/ ٢٤١.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٢٧، وانظر «المنتظم» ١/ ٢٠٩.

(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٢٦ عن مجاهد عن ابن عباس، وانظر «المنتظم» ١/ ٢٠٩.

(٦) في (ل): «ومرواله؟». وما أثبتناه من «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٧، و«المنتظم» ١/ ٢٠٩.

وروي عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً قال: لما أُهبِط آدم من الجنة حَزِنَ عليه كلُّ شيء في الجنَّة إلا الذهبَ والفضةَ، فأوحى الله إليهما: جاورَكُما عبدٌ من عبادي فحزِن عليه كلُ شيء إلا أنتما، فقالا: إلهنا، ما كنَّا لنحزنَ على من عصاك. فقال الله تعالى: وعزَّتي لأُعِزَّنكما في الدنيا فلا يُنال شيءٌ إلَّا بكما[١].

وقال الجوهري: الدِّينار أصله دِنَّار[٢] بالتشديد. قال: وأمَّا الدرهم ففارسيٌّ معرَّب[٣].

فصل في ما تجدد بعد نزوله من الحوادث

حكى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أُهبط آدم إلى الدنيا لم يكن فيها شيءٌ سوى حوتٍ ونسرٍ، فكان النسر يطير نهاراً، ثم يأوي في الليل إلى جانب البحر يستأنس بالحوت، فرأى النسرُ آدمَ فاستغربه، فقال للحوت: قد نزل إلى الأرض حيوان يمشي على قدميه ويبطُش بيديه، فقال الحوت: إن كنت صادقاً فما لي في البحر منه مهرب، ولا لك في البرِّ منه مذهب[٤].

وحكى الطبري وقال: جاع آدم فاستطعم ربَّه، فأتاه جبريل بسبع حبَّاتِ حنطة، فوضعها في يده، فقال: ما أصنع بها؟ فقال: ضعها في الأرض، فوضعها، فأنبتها الله من ساعته، ثم أمره فحصدها وفركها بيده، ثم ذرَّاها وأتاه بحجرين فطحن، وأتاه جبريل بنار، وخَبَزَهُ مَلَّةً، فآدم أول من خبز الملَّة[٥].

وروى سفيان بن عيينة بإسناده عن ابن عباس قال: لما نزل آدم إلى الأرض جاع فقال: يا ربِّ أطعمني فأوحى الله إليه دون أن تعمل عملاً يعرق منه جبينك فلا، فخبَزَ خُبْزَ الملّة.

---

(١) لم نقف عليه من حديث ابن عباس، وأخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢١٠ من حديث أنس ﷺ، وقال: هذا حديث إسناده حسن، ومتنه غريب.

(٢) «الصحاح»: (دنر).

(٣) «الصحاح»: (درهم).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٤/ ٢٧٨، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢١١.

(٥) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٨ـ١٢٩، و«المنتظم» ١/ ٢١٢، والملة: الرماد الحار.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: لما رأى الله عري آدم وحوَّاء أمره أن يذبح كبشاً من الضَّأن من الأزواج الثمانية فذبحه، ثم أخذ صوفه فغزلته حوَّاء ونسجه آدم، فعمل منه جُبَّة لنفسه، ودِرعاً وخماراً لحوَّاء(١)، وهو أول من حاك في الأرض وخاط.

ثم أنزل الله عليه الكَلْبَتَين والمِطْرَقة، وكانتا لا يقلهما أحد من الناس، فكان يكسر الأشجار بالمطرقة. وعَمِلَ التَّنور الذي وَرِثه نوح وفار الماء منه(٢).

وقال مجاهد: أتاه جبريل بالجَلَم فجزَّ الشاة وغزلت حواء صوفها، وحاكه آدم عباءتين فلبساهما، ثم جاءه جبريل بثورين فصمدهما، ثم زرع عليهما، ثم حصد ودرس، ثم ذرَّى ثم صفَّى، ثم طَحن وعَجن، ثم خَبز وأكل(٣).

وقال سعيد بن جبير: جاءه جبريل بثور أحمر، فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه، ويقول لحوَّاء: أنت عملت بي هذا. قال سعيد: فليس أحد من ولد آدم يعمل على ثور إلا ويقول: «حو»(٤). قال: فحينئذٍ قال آدم: هذا ما وعدني ربي من قوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[طه: ١١٧].

وقال قتادة: جاءه جبريل بنار فأخذها بيده فأحرقت يده فقال: يا جبريل احترقت يدي، ولم تحترق يدك، فقال: لأنَّ يدك خاطئة. قال: وجبريل جاءه بالمقدحة وغيرها.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: لما أُهبِطَ آدم من جبل سَرَنْدِيب، وفقد كلام أهل السماء وتسبيحهم، ونظر إلى سعة الأرض، استوحش فقال: يا ربِّ، املأ هذه الأرض من يسبِّحك ويقدِّسك، فأوحى الله إليه قد استجبت دعاءك، وسأفعل ذلك(٥).



(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٤.
(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٢٧-١٢٨، والكلبتان: ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى.
(٣) انظر «المنتظم» ١/ ٢١٢، وتاريخ الطبري ١/ ١٢٩ - ١٣٠.
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٧/ ٤١١-٤١٢.
(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٣١ عن وهب.

ومن الحوادث بكاؤه: حدثنا عبد الرحمن بنُ أبي حامد الحربي، بإسناده عن الحسن البصري قال: لما أُهبِطَ آدم من الجنة بكى ثلاث مئة عام لا يرفع إلى السماء رأسه حياءً من الله تعالى، ولا وضع يده على حوّاء ولا ألِفَها ولا سكن إليها، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً، قال فجاءه جبريل فقال: يا آدم ما هذا الجهد الذي بك؟ وما هذه البليَّة التي أجحفت بك؟ وما هذا البكاء؟ فقال: يا إلهي، كيف لا أجهد وأبكي وقد حوَّلتني من دار البقاء إلى دار الفناء، ومن دار النَّعيم إلى دار الشقاء، ومن دار الراحة إلى دار التعب والعناء؟

وفي رواية ابن أبي الدنيا[1] عن الحسن أيضاً قال: سجد آدم على جبل سرنديب ثلاث مئة عام يبكي حتى جرت الأنهار من دموعه، فأنبت الله منها أنواع الطِّيب بأرض سرنديب، واجتمعت الغدران من دمعه، فجاء نسر عظيم فشرب من غدير وجلس إليه، فأنِس به ولم يعلم أنها دموعه، فقال له النسر: من أين هذا الماء؟ ما أطيبه، ما ذقت ألذَّ منه. فازداد آدم بكاء وقال: أيها النسر أتسخر بي؟! قال: ولم؟ قال: هذا دمعُ مَن عصى ربَّه، فمن أين له الطِّيب؟ فقال له النَّسر: وأيُّ ماءٍ ألذُّ من دمع عاصٍ ذكر ذنبه، فوجل قلبه، فاستغفر ربه.

وحكى الثعلبي عن شهر بن حوشب: أنه أقام مئة سنة لم يقرب حوَّاء.

قرأت على شيخنا الإمام الموفَّق عبد الله بنِ أحمدَ المقدسيِّ رحمه الله تعالى بظاهر دمشق بقاسيون في سنة أربع وست مئة، قلت له: أخبركم أبو الفضل مسعود بن عبيد الله ابن النَّادر[2] فأقرَّ به، قال: حدَّثنا أبو بكر محمَّد بن الحسين بإسناده عن عمر بن ذر عن مجاهد قال: لما أكل آدم من الشجرة تساقط عنه جميع ما كان عليه من زينة الجنَّة، فقال لحوَّاء: استعدِّي للخروج من جوار الرحمن، فهذا أوَّل شؤم المعصية، فقالت: يا آدم، ما ظننت أنَّ أحداً يحلف بالله كاذباً. ثم هرب آدم في الجنة فتعلقت به شجرة، فظنَّ أنَّه قد عوجل بالعقوبة، فجعل يقول: العفو العفو، فقال الله للملائكة: أَخرِجَا آدم وحوَّاء من جواري، فنزع جبريلُ التَّاجَ عن رأسه والإكليل عن جبينه، فلما هبط من دار

---

(١) في الرقة والبكاء (٣٢٥).

(٢) هو مسعود بن علي بن عبيد الله، سيترجم له المصنف في سنة (٥٨٦هـ)، والخبر في التوابين ٤٨.

القدس إلى دار المسغبة، بكى على خطيئته مئة سنة، قد رمى برأسه على ركبتيه حتى نبت العشب من دموعه والأشجار، وامتلأت نُقَرُ الجَلاهم وأَقْعِبَتُها، ثم تاب عليه.

والنُّقَر: الحفر. والجُلاهم: جمع جُلْهُمة وهي جانب الوادي، وقوله: وأقعبتها، كذا وقعت هذه الرواية، والصواب: وقعبانها.

وقد أخرج الخطيب حديثاً في بكاء آدم فقال بإسناده عن ابن بريدة عن أبيه عن رسول الله ﷺ: «لو وُزن دُموعُ آدمَ بجميعِ دموعِ ولدِه لرَجَحَ دُموعُه على الجميعِ»[١]. قال جدي رحمه الله في «الأحاديث الواهية»: في إسناده أحمد بن بشير، قال ابن معين: وهو متروك[٢].

وحكى الوليد بن مسلم عن الأوزاعي قال: بكى آدم على الجنة سبعين عاماً، وعلى خطيئته سبعين عاماً، وعلى ابنه هابيل حين قتل أربعين عاماً، وأقام بمكّة مئة عام[٣].

وذكر مقاتل بن سليمان في كتاب «المبتدأ» له قال: جاءه جبريل بعد أن بكى مئة سنة فقال له: يا آدم هذا بكاؤك[٤] لفراق الجنان، فأين بكاؤك لفراق الرحمن؟ فبكى مئتي سنة أخرى، فجرى من إحدى عينيه مثل الفرات، ومن الأخرى مثل دجلة.



ومن الحوادث قصد السباع والهوام إيَّاه: روى وهب بن منبِّه قال: لما نزل آدم إلى الأرض كان فيها سباع وهوام، فأتاهم إبليس فقال: قد نزل إليكم حيوان يقصد هلاككم فأهلكوه، فقصدوه من كلِّ جانب، فخاف وقال: يا إلهي اكفنيهم، فأوحى الله إليه: اختر منهم واحداً يذبُّ عنك، فدعا الكلب ومسح على رأسه، فحمل عليهم فطردهم، فمن ثَمَّ يألف الكلب بني آدم ويحفظ عهدهم.



(١) «تاريخ بغداد» ٤/ ٤٧.
(٢) «العلل المتناهية» (٤٤).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٦/ ٧٧.
(٤) إلى هنا انتهى الخرم في (ب).

فصل ومن الحوادث توبته

قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[البقرة: ٣٧] قال ابن عباس: معنى «تلقَّى»: تلقن وحفظ وفهم.

واختلفوا في الكلمات على أقوال:

أحدها: أنها قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣] رواه العوفي عن ابن عباس.

والثاني: إن آدم قال: يا ربِّ ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: ألم تنفخ فيَّ من روحك؟ قال: بلى، قال: ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: فلم أخرجتني منها؟ قال: بشؤم معصيتك. قال: ياربِّ أرأيت إن تبتُ ورجعتُ أَراجعي أنت إليها؟ قال: نعم؛ فتاب عليه، قاله الحسن(١).

والثالث: أن آدم قال: يا ربِّ أرأيت ما أتيتُ به، أشيء ابتدعتُهُ أم شيء قدَّرتَهُ عليَّ ولم أبتدعه من تلقاء نفسي؟ قال: بل بتقديري عليك، فقال: يا ربِّ، فكما قدَّرتَه عليَّ فاغفر لي، فتاب عليه. قاله عبيد بن عمير(٢).

والرابع: أنه قال: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فتُبْ عليَّ إنك أنت التوَّاب الرّحيم، فغفر له. قاله محمد بن كعب القُرَظي(٣).

والخامس: أنه نظر إلى ساق العرش فرأى عليه مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله فقال: يا ربِّ، بحقِّ محمد اغفر لي فغفر له، قاله الربيع بن أنس(٤).

والسادس: أنه رأى على ساق العرش مكتوباً: محمد رسول الله، علي بن أبي طالب، الحسن والحسين، فاطمة. حكاه زيد بن أسلم عن أبيه، وفيه: فقال: يا ربِّ،

---

(١) وأخرجه الطبري في «تفسيره» ١/ ٢٤٣، وفي «تاريخه» عن ابن عباس، وانظر «زاد المسير» ١/ ٦٩.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١/ ٢٤٤.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦.

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٠٢)، والحاكم ٢/ ٦١٥، وابن عساكر ٧/ ٤٣٧ من حديث عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعاً. قال الذهبي في «تلخيص المستدرك»: موضوع.

بحرمة هذه الأشباح اغفر لي.

والسابع: أنه رأى على ساق العرش مكتوباً، لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق. حكاه الثعلبي بإسناده إلى عليّ كرّم الله وجهه.

والثامن: سبحانك لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين، قاله وهب.

وروى ابن أبي الدُّنيا[١] بإسناده عن وهب بن منبه قال: أقام آدم على حاله زماناً، فاطَّلع الله عليه فرآه حزيناً كئيباً، فأوحى إليه: ما الذي بك؟ فقال: إلهي عظمَتْ مصيبتي، وأحاطت بي خطيئتي، وأخرجت من ملكوت السماء، فأصبحتُ في دار الهوان بعد الكرامة، والشقاء بعد السعادة، والنَّصَب بعد الخفض والدعة، والظَّعْن بعد القرار والطمأنينة، ودار الذلِّ بعد العزِّ. فقال الله: ألم أصطنِعْكَ لنفسي وأُحلَّك دارَ كرامتي وأُسجدْ لك ملائكتي، ونفخت فيك من روحي، فعصيت أمري، وضيَّعت عهدي، وخالفت وصيَّتي، ولم تشكر نعمتي، وعزَّتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاً مثلك يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين. وإني قد رحمتُ ضعفك وتضرُّعك، وأقلتك عثرتك، وقبلتُ توبتك، فغفرتُ زلَّتك. فألهمه الله أن قال: سبحانك إني كنت من الظالمين. قال وهب: فذلك قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٧].

وذكر جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة» عن وهب بن منبه: أنه سجد على جبل الهند مئة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب، فأنبت الله من دموعه الدّارصيني والقَرَنْفُل. وذكر بمعنى ما تقدَّم، ثم قال: فجاءه جبريل فقال: ارفعْ رأسك فقد غفر لك، فرفع رأسه وأتى الكعبة فطاف أسبوعاً فما أتمه حتى خاض في دموعه[٢].

ولما تاب عليه أمره بالمسير إلى مكّة فأتى إلى البيت فطاف به، وصلى عند المقام ركعتين. ومعنى عند المقام، أي: موضع المقام.

فإن قيل: فلم يكن هناك بيت، فالجواب: إنَّ أهل السِّير قد اختلفوا في بنائه:

فروى عكرمة عن ابن عباس: أنَّ الملائكة لما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

(١) الرقة والبكاء (٣٢٠).

(٢) «التبصرة» ١٦ـ١٧.

خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾[البقرة: ٣٠] أرسل الله عليهم ناراً فأحرقت منهم عشرة آلاف، وبقي رؤساؤهم، فقالوا: يا ربَّنا، كيف نصنع حتى ترضى عنَّا؟ فقال: ابنوا لي في الأرض بيتاً، وطوفوا حوله كما تطوفون حول عرشي، ففعلوا فرضي عنهم. قال جعفر ابن محمد الصادق رضي الله عنه: فمن ثَمَّ أصل الطواف.

وروى سعيد بن المسيِّب عن ابن عباس: أن آدم بناه وكان موضعه ربوة حمراء، فأوحى الله إلى آدم: طُفْ بها، فطاف بها، قال: وكان آدم لما أهبط إلى الأرض استوحش فأوحى الله إليه: ابنِ هذه الربوة الحمراء بيتاً، فمنها وضعت الدنيا، وطف بها كما رأيت الملائكة تطوف بعرشي، فبناه.

وقد رواه أبو صالح أيضاً عن ابن عباس، وروى مجاهد عنه: أن الله تعالى بناه من غير بناء أحد.

والظاهر أنَّ آدم بناه، وكان ربوة حمراء، وكان قد نزل معه من الجنَّة ياقوتة، فوضعها فيه، وكان جبريل يأتيه بالحجارة من حراء، وطور سينا، وطور زيتا، والجودي وغير ذلك، وهو يبني. وسنذكره عند بناء الخليل عليه السلام البيت.

وقال عطاء: لما جاء آدم من الهند ماشياً صار ما بين قدميه مفاوز، وموضع القدمين عمائر. ثم رجع إلى الهند، واتخذ مغارة فكان يأوي إليها، وكان قد اجتمع بحوَّاء في عرفات فتعارفا فأخذها معه إلى الهند.

ومن الحوادث: مسحُ ظهر آدم وإخراج الذرِّيَّة منه

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أخَذَ الله الميثاقَ من ظهرِ آدمَ بأرضِ نَعْمَان ـ يعني أرضَ عرفة ـ فأخرَجَ من صُلبهِ كلَّ ذرِّيَّة ذَرَأها فنَثَرها بينَ يدَيْهِ كالذَّرِّ، ثم كلَّمَهم قِبَلاً، فقال: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ١٧٢]»(١) ومعنى «قِبَلاً» أي: عياناً.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٤٥٥).

«إنَّ الله خَلَقَ آدمَ ومسَحَ ظَهرَه بيَمِينِه فاستَخرَجَ منه ذُرِّيَّة، فقال: خَلَقتُ هؤلاءِ للجنَّةِ، وبعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ يَعمَلُون، واستخرج ذرِّيَّة، وقال: خَلَقتُ هؤلاءِ للنَّارِ، وبعَمَلِ أهلِ النَّارِ يَعمَلُون» فقال رجل: ففيمَ العملُ يا رسول الله؟ فقال: «إنَّ الله إذا خَلَقَ العبدَ للجنَّةِ استعمَلَه بعملِ أهلِ الجنَّة، [حتى يموتَ على عملٍ من أعمال أهلِ الجنَّة] فيُدخِلَه به الجنَّة، وإذا خَلَق العبدَ للنَّارِ استعمَلَه بعملِ أهلِ النَّارِ حتى يموتَ على ذلك، فيُدخِلَه النَّارَ»(١).

وقال أحمد بإسناده عن أبي الدَّرداء عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ الله آدمَ حينَ خَلَقَه فَضَربَ كتِفَه اليُمنى فأخرجَ ذرِّيَّةً بَيضاءَ كأنَّهم الذَّرُّ، وضَرَبَ كتِفَه اليُسرى فأخْرَجَ ذرِّيَّة سَودَاءَ كأنَّهم الحُمَمُ، فقَالَ للَّذي في يمينِهِ: إلى الجنَّةِ ولا أُبالي، وقالَ: للَّذي في كَفِّه اليُسرى إلى النَّارِ ولا أُبالِي»(٢).

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبيٍّ بن كعب بمعناه. وفيه: وأَشهَدَ عليهم السَّماواتِ والأرضَ وآدمَ(٣).

ورواه الحسن البصري عن أنس، وفيه: فأخرج من ظهره ذريّة فقال: هؤلاء في الجنّة ولا أُبالي، ثم أخرج ذريّة أخرى فقال: هؤلاء في النّار ولا أبالي، فقيل: ياأبا سعيد لا أُبالي بمن؟ فقال: لا تنفعه طاعة هؤلاء ولا تضره معصية هؤلاء.

وروى السُّدي عن أشياخه قالوا: أخرج الله من ظهره من الجانب الأيمن ذريّة بيضاء مثل اللؤلؤ، وقال لهم: ادخلوا الجنّة برحمتي، وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذريّة سوداء وقال لهم: ادخلوا النّار ولا أبالي. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾[الواقعة: ٢٧] الآية، ثم قال لهم الله: اعلموا أني إلهكم لا إله لكم غيري، فلا تشركوا بي شيئاً، وأني مرسل إليكم رسلاً يذكرونكم بعهدي وميثاقي، وأني مُنزل عليكم كُتُباً، فنطقوا وقالوا: شهدنا بأنّك ربّنا وإلهنا لا ربَّ لنا غيرك، ولا إله سواك، فأَقرُّوا كلهم طائعين غير مكرهين، فأخذ مواثيقهم، وكتب آجالهم وأرزاقهم ونوائبهم وأفراحهم وما يكون منهم، فلا تقوم الساعة حتى يولد كلُّ من أخذ ميثاقه، لا

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣١١)، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٧٤٨٨).

(٣) هو من زوائد عبد الله بن أحمد على المسند، موقوف عليه، «مسند أحمد» (٢١٢٣٢).

يزاد فيهم ولا ينقص[١].

وقال مقاتل: أقرَّت طائفة منهم على وجه التقيَّة، قال: وركَّب الله فيهم العلم فخاطبوه وخاطبهم.

وقال السُّدي: نظر إليهم آدم فرآهم متفاوتين، منهم الغني والفقير، والحسن الصورة والقبيح، فقال: يا ربِّ، هلَّا سوَّيت بينهم؟ فقال: إني أحببت أن أُشكر.

وقال مقاتل في «المبتدأ»: رأى آدم نور بعضهم كنور الشمس، وهم المرسلون، وبعضهم كنور القمر، وهم النبيُّون، وبعضهم كالنجوم، وهم الصِّدِّيقون، وبعضهم كالشمع، وهم الأولياء، وبعضهم كالسرج وهم العلماء، وبعضهم مرضى وأصحاء، فقال: يا ربِّ، لم لم تسوِّ بينهم؟ فقال: لو تركتهم على حالة واحدة لم تعرف المراتب، فقال: يا ربِّ[٢]، هلَّا خلقتهم صحاحاً؟ فقال: لو خلقتهم صحاحاً لما عرفوا قدر الصحة، ولو خلقتهم كلهم مؤمنين لما عرفوا قدر الإيمان، فقال: يا ربِّ، وأيُّ أرض تتسع لهؤلاء أو لهذه الذريَّة العظيمة؟ فقال: إني أقسمهم أربعة أقسام، قسم في الأصلاب، وقسم في الأرحام، وقسم على وجه الأرض، وقسم في بطنها، فقال: يا ربِّ، كيف يهنيهم عيش بعدما يعاين بعضهم دفن بعض؟ فقال: أركِّب فيهم الغفلة حتى لو دَفَن الواحدُ عشرة من أهل بيته وأقاربه لا يتأثَّر إلا في تلك الساعة.

وقال مقاتل أيضاً في «المبتدأ»: وخلق الله النِّساء، فجعل الجميلات في أسفل تلٍّ، والدَّميمات في أعلاه، ثم قال للرِّجال: خذوهن، فظنَّ الأقوياء أنَّ اللاتي في أعلى التلِّ هن الجميلات، فبادروا إليهنَّ، فأخذوا الدَّميمات، ووقع في قسم الضعفاء الجميلات. قال: ولهذا إنَّ كل من كان أضعف كانت امرأته في الغالب أحسن.

وقال مقاتل: جعل الله الذرَّ قسمين: قسم عن يمين العرش، وقال: هؤلاء للجنَّة، وقسم عن شماله، وقال: هؤلاء للنار.

قال الحسن البصري: كان عقل آدم في تلك الحال مثل عقل جميع أولاده[٣].

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٣٦.

(٢) من قوله: يارب لم لم تسو بينهم . . . إلى هنا ليس في (ب).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١٠٣٥)، وابن عساكر في «تاريخه» ٧/ ٤٤٤.

واختلفوا في أي مكان أخذ عليهم الميثاق على أقوال:

أحدها: بأرض نَعمَان: وادٍ إلى جانب عرفة، قاله ابن عباس[١]، قال: ولذلك سميت عرفة، إمَّا لأنهم عرفوا ربَّهم هناك، وإمَّا لأنهم عرف بعضهم بعضاً.

والثاني: بين مكة والطائف، قاله الكلبي.

والثالث: بالدَّهنَاء ـ موضع بالهند ـ وفيه أُهبِطَ آدم، وهو رواية ابن عباس.

والرابع: بدَحْنا[٢].

وحكى الطبري عن السُّديِّ: أنَّ الله أخرج ذريَّة آدم في السماء قبل أن يَهبط إلى الأرض، وبعد أن أخرجه من الجنَّة[٣].

والأوَّل أصحُّ، لأنَّ حديث ابن عباس قد نصَّ عليه[٤].

واختلفوا في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢]:

قال الفراء: هو سؤال تقرير. فإن قيل: فلو قالوا: نعم، هل يكون إقراراً؟ فالجواب: لو قالوا: «نعم» لكفروا، لأنه يكون جحداً، وذلك لأنَّ «نعم» جوابُ التصديق، وبلى جواب التحقيق، فإذا قالوا: «نعم» صار معناه: لستَ ربنا، ألا ترى أنه لو قال رجل لآخر: أليس لي عندك وديعة؟ فقال: بلى، يثبت حقه، ولو قال: نعم، لم يثبت، لأنه يكون جحداً، مثل قول: لا.

واختلفوا في قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾[الأعراف: ١٧٢]:

فقال السُّدي: هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم.

وقال مقاتل: هو خبر عن إقرار بني آدم حين أشهد الله بعضهم على بعض.

ومعنى ﴿تَقُولُواْ﴾ أي: لئلَّا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: عن الميثاق والإقرار.

---

(١) ليست في (ب)، والخبر أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٣٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٣٥ـ١٣٦ عن ابن عباس.

(٣) «تاريخ الطبري» ١/ ١٣٦.

(٤) وهو قوله ﷺ: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان» وقد تقدم تخريجه في فصل الجبال: جبلي نعمان.

وما أحسنَ ما قال ذو النون المصري، حين قيل له: أين أنت عن يوم أَلَستُ؟ فقال: كأنَّه الآن في أذني، وما أراد به سماع الصوت، وإنما أراد به تحقيقَ الإيمان والإقرار.

وسئل بعضهم عن أحوال الذرِّيَّة في يوم الميثاق، وأنهم كلهم اعترفوا، فكيف خرج بعضهم إلى الجحد؟ فقال: كلهم قالوا بلى، ولكن عمَّ بعضهم البلاء للقضاء السَّابق.

وفي هذا الوقت الذي أخرج الله ذريَّة آدم رأى نورَ داود.

قال أحمد بن حنبل بإسناده عن ابن عباس، قال: لما نزلت آية الدَّين قال النبي ﷺ: «أَوَّلُ مَن جَحدَ آدمُ، وذَلكَ لأنَّ الله لما مَسَحَ ظَهرَ آدمَ وأَخرَجَ ما هو ذَارىءٌ إلى يَوم القيَامةِ، فَجَعلَ يَعرِضُ ذرِّيَّته، فرأى رجلاً يَزهَر، فقال: يا ربِّ، مَن هذا؟ فقال: ابنُكَ داودُ، فقال: يا ربِّ، زِد في عُمرِهِ، فقال: لا إلَّا أن تَزيده من عُمرِكَ، وكان عُمرُ آدمَ ألفَ سنةٍ فزادَه أربعين سنة، فكتَبَ الله بِذلِكَ كِتَاباً وأَشهَدَ عليه الملائِكَةَ، فلمَّا احتضَرَ جاءَهُ ملكُ الموتِ فقال: قد بقِيَ لي من عُمري أربَعونَ سنةً، فقال: قد وهبتَها لداودَ، فقال: ما وَهبتُ فأَبرَزَ اللهُ الكِتابَ والشَّهادةَ». وفي رواية: «أتتهُ الملائكةُ»[(١)]. قال رسول الله ﷺ: «جَحدَ آدمُ فَجَحدَت ذُرِيَّته»[(٢)] قال ابن عباس: فمن ثَمَّ اتُّخِذَت الصِّكَاكُ[(٣)] والشهادات.

وقد أخرجه محمد بن سعد في «الطبقات»، وذكر إسناده كما ذكرنا، وزاد فيه: «فَأَكمَلَ الله لآدم ألفَ سنةٍ، ولداودَ مئةَ سنةٍ»[(٤)].

قال جدي رحمه الله في «المنتظم»: الحديث محمولٌ على أنَّ آدم نسي لطول المدَّة، لا أنَّه كان ذاكراً لذلك ثم جحد، لأنه يكون كذباً، والأنبياء منزَّهون عن الكذب[(٥)].

قلت: إلا أنَّ النبي ﷺ نصَّ على أنه جحد، والجحد يحتمل أن يكون معه نسيان ويحتمل أن لا يكون، فإن كان معه نسيان، فهو معذور، وإن لم يكن، فيحتمل أنَّ الله

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٧٠). ويزهر: يضيء وجهه حسناً.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٢٨ من حديث أبي هريرة.

(٣) الصك: الكتاب، وهو معرب.

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/ ٢٨ـ٢٩، وانظر «المنتظم» ١/ ٢١٦.

(٥) لم نقف عليه في «المنتظم»، وانظر «التبصرة» ١/ ١٧.

ألهمه أن يكمل له ألف سنة ويتم لداود مئة ولا ينقص من ملكه شيء.

فإن قيل: فلمَ رأى نور داود ولم ير نور محمد ﷺ، وكان نوره أبهى من نور داود؟ قلنا: لما قضي في السَّابق أنَّ داود يوافقه في العصيان[(١)]، لُفِّقَت بينهما مجانسة الذَّنب في ذلك المكان، أمَّا محمد ﷺ فإنَّه قد شاهد نورَهُ على ساق العرش، فسأل الله به وتوسل إليه، فرحمه وتاب عليه.

ومن الحوادث ما ذكره مقاتل في «المبتدأ» قال: لما نزل آدم إلى الأرض اسوَدَّ جلده من حرارة الشمس، ويبس من البرد، فأوحى الله إليه: هذا بشؤم معصيتك، فَصُمْ ثلاثة أيام من كلِّ شهر، وهي أيام البيض، فصامها فابيضَّ لونه.

وقال مقاتل أيضاً: لمَّا جنَّ عليه الليل استوحش، فلمَّا طلع الفجر ألهمه الله أن صلِّ ركعتين صلاة الصبح شكراً لله تعالى. فآدم أول من صلَّاها.

قال: وصلى إبراهيم الظهر أربعاً لما فدي ولده بالكبش، وكان وقت الظهر، وصلَّى يونس العصر لما خرج من بطن الحوت. ولما ادَّعت النصارى التثليث صلَّى عيسى المغربَ ثلاثاً: ركعتين عن نفسه، وركعة عمَّن آمن به. وصلى موسى العشاء أربعة ليلةَ الطُّور لما كلَّمه الله تعالى.

قلت: والأصحُّ أنَّ الصلوات الخمس إنَّما صلَّاها رسول الله ﷺ، ورتَّبها على هذا الوجه، وروايات مقاتل فيها مقال معروف.

فصل في نبوَّة آدم عليه السَّلام

قال ابن سعد عن أبي ذرٍّ قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الأنبياءِ أوَّلُ؟ قال: «آدَمُ» قُلتُ: أَوَنَبِيًّا كان؟ قال: «نعم، نَبيٌّ مُكَلَّم»[(٢)].

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: أنزل عليه إحدى وعشرين صحيفة، أملاها عليه جبريل، وكتبها آدم بخطِّه بالسُّريانيَّة، وكانت لغته في الجنة العربية، فلما عصى وأهبط إلى الأرض تكلَّم بالسُّريانيَّة[(٣)]. قال: وفرض عليه في اليوم والليلة خمسين ركعة،

(١) ينظر ما سيورده المصنف من محنته عليه السلام في ٢/ ١٦١ وما بعدها.
(٢) «الطبقات الكبرى» ١/ ٣٢، ٥٤، وهو عند أحمد في «مسنده» (٢١٥٤٦).
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٧/ ٤٠٧.

وحرَّم عليه الميتة والدَّم ولحمَ الخنزير والبغي والظلم والغدر والكذب والزنا.

وذكر أبو جعفر الطبري وقال: أول ما أنزل عليه حروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة، وهو أوَّل كتاب كان في الدنيا(١).

وذكر أبو إسحاق الثعلبي في أول سورة الرحمن عن ابن عباس قال: كان آدم يتكلَّم بسبع مئة ألف لغة، أفضلها العربيَّة، قالوا: ولو قال: بسبع مئة لغة احتمل، أمَّا بسبع مئة ألف، فهذا ممَّا لا توافقه عليه العقول السليمة.

فصل

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾[طه:١١٨] وقد جاع وعري، فالجواب: أنه ما جاع وعري في الجنَّة، وإنما كان ذلك في الدُّنيا. والظَّمأ هو العطش ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾[طه:١١٩] أي: تبرز للشمس، والجنَّة ما فيها شمس فيؤذيه حرُّها.

فإن قيل: فهما اثنان، فهلَّا قال: أن لا تجوعا، قلنا: غلب المذكَّر على المؤنَّث، لأنَّ نعت آدم كان أكثر، وكذا قوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾[طه:١١٧] كان من حقِّه أن يقول: فتشقيا.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[طه:١٢١] قلنا: معناه أخطأ وضلَّ ولم ينل مراده، لأنه خالف، والعصيان خلاف الطَّاعة ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾[طه:١٢٢] أي: هداه للتَّوبة، وفَّقه لها.

فإن قيل: فهل يجوز إخراج الضَّيف من دار المضيف؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: نعم، إذا ترك الأدب وطمع فيما لا يجوز له.

والثاني: لأنه كان في صلبه الأنبياء والعلماء والأولياء، والجنَّة ليست بدار توالد.

والثالث: لولا نزوله ما تصاعدت صعداء الأنفاس، ولا نزلت رسائل، هل من سائل؟

---

(١) «تاريخ الطبري» ١/ ١٥١.

فإن قيل: فلمَ نهاه عن شجرة بعينها؟ قلنا: لأنَّه كان لها ثُفْلٌ، فإذا أكل منها احتاج إلى البول والغائط، وليست الجنَّة موضعه، وقد ذكرناه[١].

فإن قيل: بماذا عاقب الله آدم وحوَّاء؟ قلنا: عاقب آدم بأشياء منها:

العتاب ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾[الأعراف: ٢٢].

والثانية: بإبداء السوءة ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾[طه: ١٢١].

والثالثة: بإخراجهما من جواره ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[البقرة: ٣٦].

والرابعة: بإظهار العداوة له ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

والخامسة: بإلزامه اسم العصيان ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[طه: ١٢١].

والسادسة: بتسليط الشيطان على أولاده ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[الإسراء: ٦٤].

والسابعة: بالهموم والأحزان، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[البلد: ٤] أي: في هَمٍّ ونَصَب.

والثامنة: بما لقي من المشقَّات.

والتاسعة: بطول بكائه.

والعاشرة: بحزنه على هابيل ولده.

وكذا حوَّاء عاقبها بخصال، أوَّلها: الحيض، فإنها لما تناولت من الشجرة قيل لها: تدمين في كلِّ شهر، وبالنِّفاس وبالطَّلق والولادة، وترك الصلاة، ونقصان العقل والميراث والشهادة، والعدَّة، والمنع عن الخروج والبروز، وكونها عورة، ونقصان الدِّية[٢]. وقد ذكرنا بعض هذا[٣].

ذكر أولاد آدم عليه السَّلام

روى العَوفي عن ابن عباس قال: لما طال مقام آدم في الأرض غشيَ حوَّاء، فولدت

(١) راجع فصل في مقام آدم في الجنة.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ٣٣ـ٣٥.

(٣) من قوله: وكذا حواء . . . إلى هنا ليس في (ب).

له أربعين ولداً، في عشرين بطناً، في كل بطن توأمين، ذكر وأنثى[١].

واختلفوا في أول أولاده: فروى مجاهد عن ابن عباس قال: لما حملت حوَّاء في الدنيا جاءها إبليس فقال: أنا أخرجتكما من الجنَّة ولئن لم تطيعيني لأشوِّهن ولدك، فأجعل له قرنين يشقَّان بطنك، وأُخرجه من فيك ميتاً. فلم تلتفت إليه، فخرج الولد ميتاً. ثم حملت بآخر فجاءها فقال لها مثل ذلك، فلم تطعه، فخرج الثاني والثالث ميتاً. فقالت له: ما تريد؟ قال: سمِّه عبد الحارث، وكان إبليس يدعى الحارث، فسمَّته عبد الحارث[٢].

قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حوَّاء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف: ١٨٩] أي: ليأنس بها ويأوي إليها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامعها، كَنَى عن الجماع بالغشيان ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي: لم تكترث له ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمرَّت، قامت وقعدت ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: كبر الولد في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعني آدم وحوَّاء ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: خلقاً سوياً مثلنا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأعراف: ١٨٩] وإنما سألا الله هذا لأنَّ إبليس جاءهما فقال: يا حوَّاء، وما يدريك ما في بطنك، لعلَّه أن يكون بهيمة أو مشوَّه الخلق، فأخبرت آدم فحزن. ثم أتاها إبليس فقال: إن كان آدمِيّاً أتسمِّياه عبد الحارث؟ ولم تكن تعرفه، فقالت: نعم.

وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما حملت حوَّاء جاءها إبليس في صورة شيخ فقال لها: قد حملت، قالت: ومن أين علمت؟ قال: بلى، وما يدريك لعلَّ في بطنك كلب أو خنزير أو حيوان، وما يدريك من أين يخرج: من فيك، أو من أنفك، أو من عينك، أو من دبرك، أو يشقُّ بطنك فيقتلك، فأخبرت آدم فقال لها: لا يغرَّنَّك فإنه اللَّعين. فلم يزل يخدعها حتى سمَّته عبد الحارث[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٤٥ عن ابن إسحاق، وانظر «المنتظم» ١/ ٢١٧.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٤٨ـ١٤٩، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢١٩. ولقد نص ابن كثير في «البداية والنهاية» ١/ ٩٦ على أنه من الإسرائيليات.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٤٩ـ١٥٠، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢١٩.

وفي رواية: فكانت تلِد عبد الله وعبد الرحمن فيموتون، فسمَّته عبد الحارث. فعاش[١].

وقد أخرج أحمد بن حنبل في «المسند» معنى هذا فقال: حدَّثنا عبد الصمد بإسناده عن سَمُرة بن جُندُب قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت حوَّاءُ لا يَعيشُ لها وَلَدٌ فَطافَ بها إبليسُ فقال: سمِّيهِ عبدَ الحارِثِ فإنَّه يَعيشُ، فَسمَّتهُ فعاشَ، وكَانَ ذلك وَحْياً من الشَّيطانِ ومِن أَمرِهِ»[٢].

وذكر الربيع بن أنس عن ابن عباس قال: أوَّلُ ولدٍ ولدته سمَّته عبد الله، ثم عبد الرحمن، ثم صالحاً ثم سمَّت الثالث أو الرَّابع عبد الحارث، فقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾[الأعراف: ١٩٠] أي: حظّاً ونصيباً في التَّسمية لا في العبادة، لا أنَّ الحارث ربُّهما، وإنَّما أنه سبب لنجاة الولد[٣]. وقد يسمَّى الرجل عبد فلان على وجه التواضع.

وروي عن ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً قال: «خدعها إبليس مرَّتين، مرةً في الجنَّة، ومرَّة في الأرض»[٤].

وقال الواقدي: أوَّلُ ولد ولدته قابيل وتوأمته إقليما، وآخِرُ ولد ولدته عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث.

وقال مجاهد: اسم قابيل في التوراة: قابين وقاين وقين.

وذكر ابن إسحاق، عن بعض أهل الكتاب: أنَّ حوَّاء حملت في الجنَّة بقاين وهو قابيل وبتوأمته إقليما، فلم تجد عليهما وحماً ولا وصباً. ولما وضعتهما لم تر معهما دماً لطهر الجنة، فلمَّا نزلت إلى الأرض حملت بهابيل وتوأمته ليوذا[٥]، فوجدت الوحم والدَّم.

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٤٨-١٤٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠١١٧).

(٣) انظر «المنتظم» ١/ ٢١٧.

(٤) لم نقف عليه من حديث ابن عباس ﷺ، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٦٦٤) من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مرفوعاً.

(٥) في (ب): لبوذا، وسترد كذلك، وفي عرائس المجالس ٤٥: لبودا، والمثبت من (ل)، والخبر أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٣٩، وانظر «المنتظم» ١/ ٢١٩.

قلت: ولا تصحُّ هذه لوجوه:

أحدها: لعدم صحَّة النقل، فإنَّ أحداً لم يوافقه على هذا.

والثاني: لأنَّ الجنَّة مُطهَّرة عن الحبل والولادة.

والثالث: لأنَّه لم يذكر قابيل في الهبوط معهم.

والرابع: لاتِّفاق أهل السِّير على أنها حملت به في الدنيا؛ وقد نصَّ عليه الواقدي فقال: أوَّل ولد ولدته في الدنيا قابيل.

وزعمت المجوس أنَّ آدم لم يخالف في النكاح بين البطنين، وأنَّ صلاحَ الحالِ في تزويج الرجلِ بأخته والأم بولدها، وسنذكر عقائدهم في موضعه إن شاء الله تعالى.

والأصحُّ خلاف ما زعموا، لإجماع الأمَّة على أنَّ آدم كان ينكح ولده أيَّ أخواته شاء، إلَّا التي ولدت معه فإنَّه لا تحلُّ له، احتياطاً منه في الفروج، ونظراً لذوات المحارم، ومراعاة للنسل، فإنه كان قليلاً، وما فعل ذلك إلَّا لضرورة عدمه، فلما كثروا حَرُم ذلك.

فصل ومن الحوادث
في أيام آدم عليه السَّلام قتل قابيل هابيل

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾[المائدة: ٢٧] النبأ: الخبر، وابنا آدم هما هابيل وقابيل في قول عامَّة العلماء وابن عمر وابن عباس ومجاهد وقتادة. والقربان: فُعْلان من القربة.

وسبب القصَّة ما حكاه السُّديُّ عن أشياخه، ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعطاء وغيرهم عن ابن عباس، قالوا: كانت حوَّاء تلِد لآدم توأماً، في كل بطن غلام وجارية، إلا شيث فإنها ولدته مفرداً، وكان جميع ما ولدته حوَّاء أربعين ما بين ذكر وأنثى في عشرين بطناً، ثم بارك الله في نسل آدم، فلمَّا كان بعد مئة سنة من هبوطه إلى الدنيا ولدت له قابيل وتوأمته إقليما، ثم هابيل وتوأمته، وكان آدم إذا شبَّ الغلام زوَّجه جارية البطن الآخر، وزوَّج جارية هذا البطن غُلامَ البطن الآخر، وكان الغلام يتزوَّج أيَّ أخواتِه شاء إلا توأمته التي وُلِدت معه، فإنَّها لا تحلُّ له، وذلك لأنه لم يكن لهم نساء

يومئذٍ إلَّا أخواتهم وأمُّهم حوَّاء.

فلمَّا ولدت قابيل وتوأمته وهابيل وتوأمته وبينهما سنتان ـ وقيل: خمس سنين ـ وقابيل أكبر، فلمَّا بلغا، أَمرَ الله آدمَ أن ينكح قابيل ليوذا أخت هابيل، وينكح هابيل إقليما أخت قابيل، وكانت أخت قابيل من أجمل النِّساء وأحسنهنَّ. فقال قابيل: لا أفعل وأنا أحقُّ بأختي، وُلِدت معي في بطن واحد، ونحن من أولاد الجنَّة، وهابيل وأخته من أولاد الأرض.

فقال آدم: فقرِّبا قرباناً فأيُّكما تُقبل قربانه فهو أحقُّ بها.

ومعنى قول قابيل نحن من أولاد الجنة: ما حكينا عن ابن إسحاق عن بعض أهل الكتاب الأوَّل: أنَّ آدم كان يغشى حوَّاء في الجنَّة قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت بقابيل وتوأمته، ولم تجد وحماً ولا وصباً ولا طلقاً ولا دماً لطهارة الجنَّة، فلمَّا أهبطا إلى الأرض تغشَّاها فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت الوحم والوصب والطلق والولادة. وقد أجبنا عن هذا فيما تقدَّم(١).

وكان قابيل صاحب زرع، وهابيل صاحب غنم، فقرَّب قابيل ميرة من طعام من أردأ زرعه، وأَضمر في نفسه وقال: ما أُبالي أتُقُبِّل منِّي أم لا؟ بعد أن لا يتزوَّج هابيل أختي، وقرَّب هابيل كبشاً سميناً من خيار غنمه ولبناً وزبداً، وأضمر في نفسه الرِّضى بالله تعالى، فوضعا قربانهما على الجبل، وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت نارٌ بيضاء من السَّماء فأكلتها، وإذا لم تقبل لم تنزل النار وأكلتها السِّباع والطيور.

وقام آدم يدعو، وقيل: كان غائباً بمكة، فنزلت النار فأكلت الحَمَل والزُّبد واللبن، ولم تأكل من قربان قابيل شيئاً لأنه لم يكن زكيَّ القلب وكان هابيل زكي القلب. قال ابن عباس: فلم يزل الكبش يرعى في الجنَّة حتَّى فدي به إسماعيل(٢)، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾[المائدة: ٢٧].

واختلفوا في أي موضع كان القربان: فعامَّة العلماء على أنه كان بالهند في المكان

(١) في ذكر أولاد آدم عليه السلام.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٣٧ـ١٣٨، وانظر «المنتظم» ١/ ٢٢١ـ٢٢٢.

الذي أهبط فيه آدم، وقال ابن قتيبة في «المعارف»: كان بمنى، فمن ثم صار بها مذبح الناس اليوم(١).

قلت: وهذه من أوهام ابن قتيبة، فإنه لم يوافقه على هذا أحد، وإنَّ الواقعة كانت بالهند.

فإن قيل: فلمَ رُفِعتْ هذه النَّار وهذه الأمَّة أحوج إليها من غيرها؟ فالجواب: إنَّما ارتفعت لطفاً بهذه الأمَّة لأنها كانت تُميِّز الخالص من الكدر، فرُفِعت لئلَّا يفتضح المردود منها.

وقال مجاهد: ولما تقبِّل قربان هابيل بقي في نفس قابيل، وأضمر له السُّوء، وعزم آدم على الحجِّ إلى مكَّة، فلمَّا أراد أن يتوجَّه إلى مكَّة قال للسَّماء: يا سماء، احفظي ولدي بالأمانة فأبت، فقال للأرض والجبال والشجر: احفظوا ولدي بالأمانة فأبوا فقال لقابيل: احفظ ولدي بالأمانة، فقال: نعم، وسترى في ولدك إذا رجعت ما يسرُّك، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[الأحزاب: ٧٢] ومعناه: حين حمل الأمانة ثم خان(٢).

فلمَّا غاب آدم جاء قابيل إلى هابيل وهو في غنمه فقال له: لأقتلنَّك، قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّ الله تقبَّل قربانك وردَّ قرباني، وتنكح أختي الحسناء بغير أمري، وأنكح أختك الدَّميمة، وقد تحدَّث النَّاس أنَّك أفضلُ منِّي، وأنَّ ولدك يفخرون على ولدي. فقال له هابيل: فما ذنبي؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧] الذين يتَّقون المعاصي والشرك والقتل ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾(٣)[المائدة: ٢٨].

فإن قيل: فهلَّا دفع هابيلُ عن نفسه؟ فالجواب: ما ذكره مجاهد قال: كان قد كُتِبَ

(١) «المعارف» ١٧.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٣٠، وفي التفسير (١١٧١٥) من طريق السدي، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود وناس من الصحابة.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ٤٦.

عليهم في ذلك الوقت إذا أراد الرجل قتلَ رجل أن يتركه ولا يمتنع منه[١].

وقد فسَّره ابن عباس وابن عمر فقالا: وايم الله إن كان المقتول لأشدَّ الرجلين، ولكن منعه التَّحرُّج أن يبسط يده إلى أخيه[٢]. وروي: أنه قتله غيلة.

قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾[المائدة: ٣٠] واختلفوا في معناه على أقوال:

أحدها: أنَّ معناه تابعت، قاله ابن عباس.

والثاني: شجعته، قاله مجاهد.

والثالث: زيَّنت، قاله قتادة.

والرابع: رخَّصت، قاله الحسن، واختاره الأخفش.

والخامس: فعلت من الطَّوع، والعرب تقول طاع لهذه الظبية أصولُ هذا الشجر، حكاه الزجَّاج عن المبرِّد[٣].

وقال السُّديُّ: جاءه إبليس فحرَّضه على قتله.

واختلفوا في كيفيَّة قتله على أقوال:

أحدها: أنَّه أتاه وهو نائم فلم يدر كيف يقتله، فتَمَثَّلَ له إبليس وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخ رأسه بحجر آخر، وقابيل ينظر إليه، فعلَّمه القتل، ففعل بهابيل كذلك، قاله ابن جريج.

والثاني: أنه رماه بالحجارة حتَّى قتله، قاله ابن عباس.

والثالث: أنه رضخ رأسه بصخرة، رواه مجاهد عن ابن عباس.

والرابع: أنه اغتاله فقتله، قاله الربيع[٤].

واختلفوا في موضع مصرعه على أقوال:

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٦/ ١٩٢.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٦/ ١٩١.

(٣) انظر «معاني القرآن» للزجاج ٢/ ١٦٧. وانظر هذه الأقوال في «زاد المسير» ٢/ ٣٣٧.

(٤) انظر تفسير الطبري (١١٧٤٦ ـ ١١٧٥١).

أحدها: على جبل ثور، قاله ابن عباس.

والثاني: بالبصرة مكان الجامع، روي عن جعفر الصادق[١].

والثالث: على عَقَبة حِراء، حكاه ابن جرير الطَّبري صاحب التَّاريخ[٢].

وحكى المسعودي أنه قتله بدمشق[٣]، وكذا ذكر الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» في حرف القاف فقال: كان قابيل يسكن خارج باب الجابية، وأنَّه قتل أخاه في جبل قاسيون عند مغارة الدَّم[٤].

وذكر هابيل في حرف الهاء وكرّر هذا وقال: قتله أخوه قابيل بقاسيون عند مغارة الدَّم؛ وكان هابيل يسكن سطرا.

قال: وقال كعب: الدَّم الذي على قاسيون[٥] هو دم ابن آدم[٦].

قلت: والعجب من هذه الأقوال، وقد اتفق أرباب السِّير أن الواقعة كانت بالهند، وأن قابيل اغتنم غيبة أبيه بمكَّة، فما الذي أتى به إلى جبل ثور وحراء، وهما بمكة؟ وما الذي أتى به إلى البصرة ولم تكن أُسِّست؟ وأين الهند ودمشق؟ وهل كانت دمشق وجدت أو الجابية أو سطرا؟ وهل وضعت التواريخ إلا لتميِّز بين الصحيح والسَّقيم والسَّالم والسَّليم؟ اللَّهم غفراً.

ثم قد اتفقوا على أن قابيل لما قتل أخاه بالهند هرب في جبال الهند، وقيل: إلى اليمن[٧]، وهلك هناك لما نذكر.

واختلفوا في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ على أقوال:

أحدها: من الخاسرين في الدنيا والآخرة، فخسرانه في الدنيا أنَّه أسخط والديه

---

(١) انظر «زاد المسير» ٢/ ٣٣٨.

(٢) «تاريخ الطبري» ١/ ١٤٣.

(٣) «مروج الذهب» ١/ ٦٤.

(٤) «تاريخ دمشق» ٤٩/ ٢٤.

(٥) من قوله: بقاسيون عند مغارة الدم . . . إلى هنا ليس في (ب).

(٦) «تاريخ دمشق» ٦٤/ ٢، ٧.

(٧) انظر تاريخ الطبري ١/ ١٤٣، والمنتظم ١/ ٢٢٥.

وبقي بلا أخ، وخسرانه في الآخرة أنَّه أسخط ربَّه وصار إلى النَّار، قاله ابن عباس.

والثاني: من الخاسرين للحسنات، قاله الزجَّاج.

والثالث: من الخاسرين أنفسهم لأنَّه أهلكها، والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[المائدة: ٣١] قال ابن عباس: لما قتله تركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، وهو أول قتيل قتل في الدنيا، فقصدته السِّباع، فحمله على عاتقه، فكان إذا مشى تخطُّ يداه ورجلاه في الأرض، وإذا قعد وضعه إلى جانبه. قال مجاهد: وضعه في جرابٍ وحمله على ظهره وقد أروح، والطير عاكفة عليه تنتظر متى يلقيه حتى تأكله.

واختلفوا في مدَّة حمله إيَّاه: فقال مجاهد: حمله على عاتقه مئة سنة، وقال مقاتل: ثلاثين سنة، وروي عن مقاتل ثلاثة أيام[١]، وقيل: سنة[٢]، وكل هذه الأقوال فيها مقال. والأصحُّ أنَّه حمله أياماً، لأنَّ آدم عاد من مكَّة بعد الحادثة بيسير.

فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر له بمنقاره ورجله، وقابيل ينظر إليه، ثم دفنه. فقال قابيل: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى﴾[٣] وفيه قولان: أحدهما عورته، والثاني جيفته[٤]، وهو أعم، وفيه دليل على أن الميت عورة. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[المائدة: ٣١].

فإن قيل: أليس النَّدَم توبة فلم لم تقبل منه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ النَّدم توبة لهذه الأمَّة لا لغيرها، لأنَّ الله خصَّها بخصائص لم تكن لسواها، قاله الحسين بن الفضل.

والثاني: أنه ندم على حمله لا على قتله.

والثالث: أنه ندم على فوات أخيه لا على ركوب الذَّنْب[٥].

---

(١) انظر «زاد المسير» ٢/ ٣٣٨.

(٢) انظر البداية والنهاية ١/ ٩٤.

(٣) انظر تفسير الطبري ٦/ ١٩٨.

(٤) انظر «زاد المسير» ٢/ ٣٣٨.

(٥) انظر «زاد المسير» ٢/ ٣٣٩.

وقال ابن قتيبة: حمله حتى أتى به وادياً من أودية الهند فكَمَنَ فيه. وصاح به صائح من السَّماء قتلته لعنك الله، فهرب من الصَّوت حتى اختلط بالوحش.

وحكى أبو إسحاق الثعلبي قال: لما قتل قابيل أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيَّام، ثم شربت الأرض دمه كما تشرب الماء، فناداه الله عزَّ وجلَّ: يا قابيل، أين أخوك هابيل؟ فقال: ما كنتُ عليه رقيباً. فقال: إنَّ صوت دم أخيك ليناديني من الأرض فلمَ قتلته؟ وأين دمه؟ فحرَّم الله على الأرض يومئذٍ أن تشرب دماً بعده.

وذكر الثعلبي عن ابن عباس قال: لما قتل قابيل أخاه كان آدم بمكَّة فتغيَّرت الثمار والأطعمة، وحمضت الفواكه، ويبست الشجر، وأمرَّ الماء، واغبرَّت الأرض[1].

وفي رواية: وبلغ آدم ما صنع قابيل فجاء على أثر ذلك فوجد الأرض قد نَشِفَتْ[2] دمه، فلعن الأرض، فمن أجل ذلك أن الأرض لا تَنْشِفُ دماً[3]، وأنبتت الشوك من أجل لعنته.

وفي رواية: لما يبس الشجر وتغيَّرت الدنيا قال آدم: حدث في الأرض حَدَثٌ، فأتى الهند فوجد قابيل قد قتل هابيل وهرب إلى اليمن، فأقام آدم مئة سنة لم يضحك حزناً على هابيل[4].

قال أبو إسحاق الثعلبي فأنشأ يقول وهو أول من قال الشِّعر [الوافر]:

تغيَّرتِ البلادُ ومَن عليها ... فوَجهُ الأرض مغبرٌّ قبيحُ
وبُدِّل أهلُها أثَلاً وخَمْطاً ... بجنَّاتٍ من الفِردوس فِيح
تغيَّر كلُّ ذي لونٍ وطعم ... وقلَّ بشاشةُ الوَجهِ الصبِيحِ[5]
وقابيلٌ أذاق الموت هابِلْ ... فواحزَني لقد فُقِدَ المليحُ

(١) انظر «عرائس المجالس» ٤٧.
(٢) نَشِفَت: شربت.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٦/ ١٩٩.
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٦/ ١٩٠.
(٥) في البيت إقواء، ورواه السيرافي بنصب بشاشة على التمييز مع قطع التنوين ورفع الوجه وصفته، وانظر الكلام على البيت في «أمالي ابن الشجري» ٢/ ١٦٤، و«الإفصاح» للفارقي ص ٦١.

ومـالـي لا أجـود بـسـكـب دمـعٍ وهـابـيـلٌ تـضـمّـنـه الـضـريـحُ
وجـاءت شَـهـلَـةٌ[1] ولـهـا رنـيـنٌ لـهـابِـلِـهـا وقـابِـلِـهـا تـصـيـحُ
لـقـتـل ابـن الـنَّـبـيِّ بـغـيـر جُـرمٍ فـقـلـبـيَ عـنـد قـتـلـتـه جـريـحُ
أرى طـولَ الـحـيـاةِ عـلـيَّ غـمًّـا فـهـل أنـا مِـن حـيـاتـيَ مـسـتـريـحُ
وجـاوَرْنـا عـدُوًّا لـيـس يـفـنـى لـعـيـنـاً مـا يـمـوت فـنـسـتَـريـحُ[2]

وقالت حوَّاء:

دع الـشـكـوى فـقـد هـلـكـا جـمـيـعـا بـهـلـكٍ لـيـس بـالـثَّـمـن الـرَّبـيـحِ
ومـا يُـغـنـي الـبـكـاءُ عـنِ الـبـواكـي إذا مـا الـمـرء غُـيِّـبَ فـي الـضَّـرِيـحِ
فـبَـكِّ الـنَّـفـسَ مـنـك ودَع هَـواهـا فـلـسـت مُـخـلَّـداً بـعـد الـذَّبِـيـحِ

فأجابهما إبليس شامتاً بهما:

تـنـحَّ عـن الـبـلاد وسـاكِـنِـيـهـا فـقـد فـي الـخُـلـدِ ضـاقَ بِـك الـفـسِـيحُ
وكـنـتَ بـهـا وزَوجُـكَ فـي رخـاءٍ وقـلـبُـكَ مـن أذى الـدنـيـا مـريـحُ
فـمـا زالـت مُـكـايَـدَتـي ومَـكـرِي إلـى أن فـاتـك الـخُـلـدُ الـمـرِيـحُ
فـلـولا رحـمـةُ الـجـبَّـارِ أضـحـى بـكـفِّـك مـن جِـنـانِ الـخُـلـدِ رِيـحُ

هذه صورة ما ذكر الثعلبي[3]، وهو شعر ركيك مزحوف، وقد أنكر ابن عباس هذا الشعر.

حدَّثني أبو القاسم الحَبِيبي بإسناده عن ميمون بن مهران عن ابن عباس أنَّه قال: من قال إنَّ آدم قال شعراً فقد كذب على الله ورسوله، ورمى آدم بالمأثم. إنَّ محمداً ﷺ والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] ولكن لما قَتل قابيلُ هابيلَ رثاه آدم، وهو سريانيٌّ، وإنما يقول الشعر من يتكلم بالعربيَّة.

فلما قال آدم مرثيته في ابنه هابيل ـ وهو أوَّل شهيد كان على وجه الأرض ـ قال آدم

(١) الشَّهلَةُ: العجوز.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ٤٧ـ٤٨، وتفسير الثعلبي ٢/ ٤٤٠، ومروج الذهب ١/ ٦٥-٦٦.
(٣) انظر «عرائس المجالس» ٤٨.

لشيث: يا بني، إنَّك وصيَّتي[١] فاحفظ هذا الكلام ليُتَوارث فيرق الناسُ عليه. فلم يزل ينتقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلَّم بالعربية والسُّريانية، وهو أوَّل من خطَّ بالعربيَّة، وكان يقول الشعر، فنظر في المرثية فإذا هي سجع فقال: إنَّ هذا ليقوم شعراً فردَّ المؤخَّرَ إلى المقدَّم والمقدَّم إلى المؤخَّر فوزنه شعراً، وما زاد فيه ولا نقص منه، تحرياً في ذلك فقال الأبيات.

وذكر الحسن البصري: أنَّ الرجلين اللذين قرَّبا القربان كانا من بني إسرائيل، وكانا أخوين[٢].

وهذا قول ضعيف، والعلماء على خلافه. والدَّليل عليه ما روى الأئِمَّة:

فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتَلُ نَفسٌ ظُلماً إلَّا كَانَ على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ منها، لأنَّه أوَّلُ من سنَّ القَتلَ». أخرجاه في «الصحيحين»[٣]. والكفل: الضعف. وكذا قوله تعالى: ﴿يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾ [المائدة: ٣١] دليل عليه، لأنه لو كان من بني إسرائيل لعرف الدَّفن.

وهل قتل قابيل هابيل بعد تزويج أخت قابيل أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: أنَّه قتله قبل ذلك لئلا يدخل بها.

والثاني: أنَّه قتله بعدما دخل بها غيرة وحَنَقاً وحسداً له، والله أعلم.

ذكرُ ما تجدَّد من الحوادث بعد قتل هابيل

حكى الثعلبي عن سالم بن أبي الجعد قال: أقام آدم باكياً حزيناً مئة سنة لا يضحك، ثم جاءته الملائكة فعزَّته لما نذكر[٤]. وفي التوراة: أنه كان لهابيل لما قتل عشرون سنة، ولقابيل خمسة وعشرون سنة.

وكان قتله إيَّاه في يوم الثلاثاء.

---

(١) كذا في النسختين، وفي «عرائس المجالس» ٤٧، وصيي.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٤٣.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦٣٠)، والبخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١١٧٢٠)، وانظر «عرائس المجالس» ٤٨.

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أنس بن مالك، قال: سئل رسول الله ﷺ عن يوم الثلاثاء فقال: «ذاك يومُ دمٍ، فيه حاضت حوَّاء، وفيه قَتل ابن آدم أخاه»[١]. إلَّا أنَّ الحديث غريب.

وقد روينا في صدر الكتاب في حديث أبي هريرة الذي أوَّله: «خَلقَ اللهُ التُربةَ يَومَ السَّبتِ...» وفيه: خلق المكروه يوم الثلاثاء[٢].

فصل في تعزية الملائكة لآدم عليه السَّلام

روى مجاهد عن ابن عباس قال: لما أقام آدم مدَّة لم يضحك وهو حزين جاءته الملائكة من عند الله بالتعزية، فتقدَّم جبريل فقال له: حيَّاك الله وبيَّاك، أي: أضحَكَكَ، ثم أقاموه من العزاء بأمر الله تعالى فصار ذلك سنة.

فصل في هلاك قابيل وعذابه

قال علماء السِّير: لما وصل آدم إلى الهند هرب قابيل إلى اليمن، وقيل: إلى الصين، وأفرد آدم أولاده عن أولاده، فهربوا إلى الجبال، وأمر أولاده أن لا يناكحوهم ولا يحاضروهم، فاعتزلوهم في رأس جبل لا ينزل إليهم منهم أحد ولا يصعد إليهم أحد، فقاموا على ذلك زماناً حتى مات آدم، فنزلوا من الجبل واختلطوا ببنيه، وشاع فيهم الفساد والزِّنا. وكان نسل قابيل صِباح الوجوه، وهم الذين أهلكهم الله تعالى بالطوفان[٣] لما نذكر.

وأمَّا قابيل فقد اختلفوا في صورة هلاكه على أقوال:

أحدها: أنَّه لما طرده أبوه كان لا يراه أحد من ولده إلا رماه، فأقبل ابن له أعمى ومعه ولد يقوده، فقال الابن لأبيه الأعمى: هذا أبوك قابيل، فرماه الأعمى فقتله، فقال له ابنه: ويحك قتلت أباك، فرفع الأعمى يده فلطم ابنه فمات. فقال الأعمى: ويلي قتلت أبي برميتي، وابني بلطمتي[٤]، قاله مجاهد.

---

(١) تفسير الثعلبي ٤/ ٥٣، وذكره القرطبي ٧/ ٤١٩.

(٢) راجع فصل في حد الزمان والأيام.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ٤٨، و«التبصرة» ١/ ٣٥، و«المنتظم» ١/ ٢٢٥.

والثاني: أنَّ الله رماه بحجر من السَّماء فقتله، قاله مجاهد.

والثالث: أن جماعة من أهل عدن قتلوه ولم يعرفوه.

والرابع: أنه علقت إحدى رجليه بساقها إلى فخذه ووجهه في الشمس حيث ما دار دارت، وعليه في الصَّيف حظيرة من نار، وفي الشِّتاء حظيرة من ثلج إلى يوم القيامة، رواه ابن جريج عن مجاهد[١].

والخامس: أنه معلق بين السماء والأرض يعذب بأنواع العذاب.

والسادس: أنَّه معلَّق على جبل بالهند يصيح: العطش، ولا يسقى إلى يوم القيامة، قاله الربيع بن أنس.

والسابع: أنَّه عُلِّق برجليه ثمانين سنة، ثم خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إنَّا لنجد في الكتب أنَّ ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار شطرَ عذابهم قسمة صحيحة[٢]، أشار إلى قوله ﷺ: «لا تُقتَلُ نفسٌ ظُلماً إلَّا كَانَ على ابنِ آدم كِفلٌ مِنها...» الحديث[٣].

وقال سالم بن أبي الجعد: مكتوب في التوراة: قال الله: ليذهبْ قابيل طريداً شريداً مذموماً مرعوباً. فذهب وبيده أخته إقليما، فوصل إلى عدن، فأتاه إبليس فقال: إنّما أكلت النَّار قربان أخيك لأنه كان يعبدها ويخدمها، فانصب لها بيتاً واعبدها فيه أنت وولدك، ففعل، فهو أوَّل من عبد النَّار في الأرض[٤].

ولم يبق لهما نسل، أمَّا القاتل فهلك نسله بالطوفان، وأمَّا المقتول فلم يعقب. وإنَّما الناس كلهم من شيث، فإنه ولد بعد قتل هابيل لما نذكر.

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٤٣ عن ابن عباس.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٣٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٦/ ١٩٤، وانظر «التبصرة» ١/ ٣٦.

(٤) سلف قريباً.

(٥) انظر «التبصرة» ١/ ٤٨، و«المنتظم» ١/ ٢٢٩.

فصل

واختلفوا فيمن عبد النار بعد قابيل فقال قوم: الملك جم لأنَّه قال: هي تشبه الشمس والكواكب.

وقال الشرقي بن القطامي: أوَّل من عبدها بعد قابيل أفريدون، قال: هي واسطة بين الربِّ العظيم وخلقه، وبها شرف العالم وبقاؤه، وبنى لها بيتاً بطوس وبيتاً ببخارى وبيتاً بسجستان.

وقال عمرو بن بحر الجاحظ: أوَّل من عَبَدها بَهْمَن بن اسفنديار، وبنى لها بيتاً بأرَّجَان ثمَّ تتابع الفرس على عبادتها، لما نذكره.

فصل في وصية آدم ووفاته

روى وهب بن مُنبِّه عن ابن عباس قال: لما كثُرت ذريَّة آدم اجتمع إليه من ولده وولد ولده أربعون ألفاً، فجعلوا يتحدَّثون وهو ساكت، فقالوا له: يا أبانا، ما بالنا نتكلَّم وأنت ساكت؟ فقال: يا بنيَّ، إنَّ الله لمَّا أهبطني من جواره عهد إليَّ فقال: يا آدم أقللْ من الكلام حتى ترجع إلى جواري(١).

فلما احتضر دعا شيثاً فأوصاه وعهد إليه، وكتب وصيَّته، وأمره أن يخفيها عن بني قابيل، وخصَّ شيثاً وولده بها، وعلَّمه عبادة الخالق، وساعات الليل والنَّهار، والحدود والشرائع، وقال: يا بنيَّ، إنّ الله أوحى إليَّ أني مُخرِج منك نوري الذي أريد به السُّلوك في الأرومات الشريفة، والقنوات الطاهرة، والأصلاب النقية، والأرحام الزَّكيَّة، أباهي به الأنوار، وأجعله خاتم الأنبياء، وأجعل أمَّته خير الأمم، وفيهم الخلفاء والعلماء، أقدس الأرض بوجودهم. وإني غشيت حوَّاء وانتقل ذلك النُّور إليك، فاحتَفِظ به. وذكر كلاماً في هذا المعنى(٢).

وكان آدم يحبُّ شيثاً حُبًّا شديداً، وخصوصاً منذ انتقل إليه النور، وكان شيث أَسْرى

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٧/ ٤٤٧.

(٢) انظر «مروج الذهب» ١/ ٦٧-٦٨.

ولدِ آدم وأتمَّهم وقاراً وأحسنهم صورة، متجلِّلاً بالنُّور، متوشِّحاً بالجلال، عليه الهيبة والوقار والسَّكينة[١] وكان نورُ النبيِّ ﷺ يشرق في وجه شيث، وفي وجوه ولده إلى زمان عبد الله بن عبد المطَّلب. قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩].

قال مجاهد: وكان في وصيَّته لشيث: يا بنيَّ، لا تركن إلى الدنيا، فإني ركنت إلى الجنَّة فأُخرجت منها، ولا تعمل عملاً بغير مشورة، فإني لو شاورت الملائكة قبل أن آكل من الشجرة لما أكلت منها، ولا تستشيرنَّ امرأة، فإنَّ حوَّاء أمُّك فعلت بي ما فعلت، ومتى اضطرب في قلبك أمر فلا تفعله، فإني كنت مضطرب القلب عند أكلي من الشجرة.

وقال ابن عباس: مرض آدم أحد عشر يوماً.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن الحسن قال: رأيت شيخاً يتكلم بالمدينة فسألت عنه فقالوا: هذا أبيُّ بن كعب، فقال: لما احتضر آدم، جاءته الملائكة فعرفتهم حوَّاء، فلاذت به، فقال آدم: إليك عنِّي فإنَّما أُتيت من قبلك، خلِّي بيني وبين ملائكة ربِّي، فقبضوه[٢].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده عن سعيد بن المسيَّب عن أُبيٍّ بن كعب قال: لما احتضر آدم قال لبنيه: أشتهي من ثمار الجنَّة أو قِطْفاً منها، فذهبوا يطلبون له منها، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم الأكفان والحَنوط والفؤوس والمساحي والمكاتل، فقالوا: ارجعوا فقد قضى أبوكم. وكانت حوَّاء قد لاذت به عند الموت تبكي فقال: إليك عني فإنما أتيت من قبلك خلِّي بيني وبين ملائكة ربي، فقبضوه وغسَّلوه وكفَّنوه ثم حفروا له وألحدوه، وقالوا: يا بني آدم، هذه سنَّة أبيكم.

وقال أُبيُّ بن كعب موقوفاً عليه ومرفوعاً: لما وضع آدم على سريره قال شيث لجبريل: تقدَّم فصلِّ عليه، فقال جبريل: إنما أنت أولى بالصَّلاة على أبيك، فتقدَّم

(١) انظر «مروج الذهب» ١/ ٦٨.
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في «المسند» عن الحسن عن عُتَيِّ بن ضمرة، عن أبي بن كعب (٢١٢٤٠) وإسناده ضعيف.

شيث فصلى وكبَّر ثلاثين تكبيرة، وقال: أربع للصَّلاة، وست وعشرون إظهاراً لفضل آدم، فقال له جبريل: أصبت[١].

وقيل: إنَّ جبريل تقدَّم فصلى عليه، والملائكة خلفه، وبنوه خلفهم[٢].

وقال عطاء الخراساني: بكت الخلائق على آدم سبعة أيام[٣].

واختلفوا في سنِّه على أقوال:

أحدها: أنه توفي يوم الجمعة لستٍّ خلَون من نيسان في السَّاعة التي خلقه الله فيها بعد ألف سنة[٤]. قاله مجاهد، وذكره القضاعي في «تاريخه».

والثَّاني: أنه عاش تسع مئة سنة وثلاثين سنة[٥]، حكاه كعب عن التوراة.

والثالث: ثمان مئة سنة، قاله مقاتل.

والرابع: ألف سنة إلا أربعين عاماً، حكاه الضحاك عن ابن عباس[٦].

وقال ابن عباس: ما مات آدم حتى رأى في ولده الزِّنا والفساد وشرب الخمر[٧].

واختلفوا في **المكان** الذي توفي فيه على أقوال:

أحدها: بالهند على جبل سرنديب الذي أهبط عليه، وعليه قبره، رواه أبو صالح عن ابن عباس[٨]، وهو قول الكلبي.

والثاني: أنه توفي بمكَّة وكان قد حجَّ في تلك السَّنة، ومعه ولده شيث فدفنه في أبي قبيس في غار يقال له: الكنز[٩]، قاله مقاتل.

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٦٠ـ١٦١ عن ابن عباس.
(٢) أخرجه ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٢٢٧ ـ٢٢٨.
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٧/ ٤٥٩.
(٤) انظر «مروج الذهب» ١/ ٦٩.
(٥) انظر «مروج الذهب» ١/ ٦٩، وانظر «البداية والنهاية» ١/ ٩٩.
(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١/ ٢٩.
(٧) انظر «المنتظم» ١/ ٢٢٨.
(٨) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٦١.
(٩) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٦١.

والثالث: أنه توفي بمنى، ودفن بمسجد الخيف وعفي قبره، قاله عطاء، وحكاه عن ابن عباس قال: حملته الملائكة من منى إلى الكعبة فصلَّت عليه عندها، وطافوا به، ثم ردُّوه إلى مسجد الخيف فدفن به(١).

قال: ولما ركب نوح عليه السَّلام السفينة حمله معه، فلمَّا انقضى الطوفان أعاده إلى أبي قبيس فدفنه في غار الكنز، وقيل: دفنه بالبيت المقدَّس(٢).

قال عبد الله بنُ أبي فراس: قبر آدم في مغارة فيما بين بيت المقدس وقبر الخليل عليه السَّلام، فرأسه عند مسجد إبراهيم، ورجلاه تحت صخرة بيت المقدس، وبينهما ثمانية عشر ميلاً(٣).

قلت: فأقصى ما كان طول آدم ستِّين ذراعاً، فكيف يكون طوله ثمانية عشر ميلاً؟!

وقال أبو جعفر الطَّبري: أوَّل من مات في الأرض آدم، يعني على فراشه، وإلَّا فقد قُتِلَ هابيل قبله(٤).

فصل في حجِّ آدم عليه السَّلام

روى مجاهد عن ابن عباس قال: حجَّ آدم من الهند إلى مكَّة ثمانين حجَّة.

وقال محمد بن إسحاق: بلغنا أن آدم لما أهبط إلى الأرض حزن على ما فاته مما كان فيه من نعيم الجنَّة، فبوَّأه الله تعالى البيت الحرام، وأمره أن يقيم به، فلم تزل مكَّة داره حتى قبضه الله بها(٥).

وقد روي في هذا المعنى حديث مرفوع إلى النبيِّ ﷺ: أنبأنا به غير واحد عن ميمون ابن مهران قال: قال ابن عباس: كان البيت قبل هبوط آدم ياقوتة من يواقيت الجنَّة، وكان له بابان من زمرد أخضر: باب شرقي وباب غربي، وفيه قناديل من الجنة. فلما

(١) انظر «المنتظم» ١/ ٢٢٨.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ٥٠.
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٧/ ٤٥٨.
(٤) «تاريخ الطبري» ١/ ١٤٣.
(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٧/ ٤٢٥.

أُهبِطَ آدم أنزل معه الحجر الأسود وهو يتلألأ نوراً، فأخذ آدم الميثاق من ولده وأودعه الحجر الأسود. ولما وصل إلى مكَّة تلقَّتهم الملائكة فقالوا: يا آدم، برّ حجّك، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي سنة. قال: فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فقالها آدم في الطَّواف. ثم قال آدم: يا ربِّ، اجعل لهذا البيت عُمَّاراً من ذُرِّيَتي، فقال الله: إني معمِّره بنبيّ من أمَّتك اسمه إبراهيم أتخذه خليلاً وأعلِّمه المناسك. فقال: يا ربِّ، أسألك مَنْ حجَّ هذا البيتَ من ذرِّيَّتي لا يشرك بك شيئاً أن تدخله الجنَّة، فقال: يا آدم، ومن مات في الحرم لا يشرك بي شيئاً أدخلته الجنَّة.

إلَّا أنَّ جدي رحمه الله ذكر هذا الحديث في «الواهية»[1]. والظاهر أنه موقوف على ابن عباس[2].



(١) «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» (٩٣٧) وفيه محمد بن زياد، وهو كذاب خبيث يضع الحديث.

(٢) أخرجه موقوفاً على ابن عباس الأزرقي في «أخبار مكة» ١/ ٤٥.

فصل في ذكر شيث بن آدم عليهما السَّلام

روى مجاهد عن ابن عباس قال: هو بالسُّريانيَّة شث وشاث، وبالعبرانيَّة شيث[١].

وذكر أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذُري قال: لما قتل هابيل ولدت حوَّاء لآدم شيثاً، فقال آدم: هذا هبةُ الله وخلفُ صدقٍ من هابيل، فسماه شيثاً[٢]، وشيث اسم أعجمي.

وحكى أرطاة بن المنذر قال: بلغني أنَّ حوَّاء حملت بشيث الوصيِّ حتَّى نبتت أسنانه، وكانت تنظر إلى وجهه من صفائه في بطنها، ولما وضعته أخذته الملائكة فمكث عندهم أربعين يوماً، فعلَّموه المهن ثم ردُّوه إليها[٣].

وقال مقاتل: أنزل الله على شيث سبعين صحيفة، وإليه تنتهي أنساب بني آدم لأنَّ جميع النَّسل انقرض، ولم يبق إلا نسله.

قال: وأنزل الله مئة كتاب وأربعة كتب[٤]، منها صحائف آدم وشيث. وكان شيث أفضل أولاد آدم وأشبههم بأبيه، ووليَّ عهده، وهو أبو البشر كلِّهم، وهو الذي بنى الكعبة بالطِّين والحجارة، يعني أنَّه رثَّ فجدَّده. ولما مات آدم جاء إلى مكَّة فأقام بها يحجُّ ويعتمر. وضمَّ صحفه إلى صحف أبيه، وعمل بالجميع[٥].

وقال الرَّبيع بن أنس: ولد بعد هابيل بخمس سنين.

وفي أيَّام شيث توفِّيت حوَّاء بعد آدم بسنة، فدفنها مع آدم في غار الكنز، فلما جاء الطوفان حملهما نوح في السفينة ثم ردَّهما إلى مكانهما[٦].

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٥٢.

(٢) أنساب الأشراف ١/ ٥.

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٢٣/ ٢٧٣، وفيه بقية بن الوليد، صدوق كثير التدليس، وقد عنعن.

(٤) وقد ورد فيه حديث مرفوع أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١).

(٥) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٦٢.

(٦) انظر «المنتظم» ١/ ٢٢٩.

فصل في وفاة شيث

قال علماء السِّير: أقام يُعمِّر الأرض ويقيمُ الحدود على المفسدين كما كان يفعل أبوه حتَّى توفي، وهو ابن تسع مئة سنة واثنتي عشرة سنة[١].

واختلفوا في أي مكان توفي فيه على أقوال:

أحدها: بالهند، قاله مجاهد.

والثاني: بمكَّة، لأنَّه لم يفارقها بعد وفاة أبيه، قاله مقاتل.

قال: وكان له لما مات آدم مئتان وخمسون سنة. ودفن بغار الكنز مع أبويه[٢]. وببلد بعلبك مزارٌ يقال: إنه قبره، والله أعلم.

فصل في ذكر ولده أَنُوش

قال علماء السِّير: ولد أنوش في زمن آدم، فلمَّا احتضر شيث أوصى إليه، وأخبره بالنُّور الذي انتقل إليه منه، وأمره أن ينبِّه ولده على هذا الشَّرف كابراً عن كابر وسلفاً بعد سلف[٣]. فقام ولده أَنُوش بعده بالأمر أحسن قيام، ودبَّر الرَّعايا وعمل بالشَّرائع على ما كان عليه أبوه. وهو أوَّل من غرس النَّخل وزرع الحَبَّ[٤] وعاش تسع مئة وخمسين سنة، وقيل وخمسة وستين[٥]، وفي التوراة: تسع مئة وخمس سنين[٦] وولد أَنُوش بعدما مضى من عمر والده شِيث ست مئة وخمس وستون سنة، وفي التوراة: بعد أن مضى له ست مئة وخمس سنين.

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٦٣، وانظر «مروج الذهب» ١/ ٧١.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٦٢.

(٣) انظر «مروج الذهب» ١/ ٦٩ـ٧٠.

(٤) انظر «أخبار مكة» للفاكهي ٣/ ٢٢٣، و«المنتظم» ١/ ٢٣٠.

(٥) انظر «تاريخ اليعقوبي» ١/ ٩.

(٦) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٦٣، و«المنتظم» ١/ ٢٣٠.

فصل في ولده قَيْنَان

قالوا: ولما احتضر أَنُوش أوصى إلى ولده قَينَان وأخبره بالسرِّ الذي أودعه فيه، وأم قينان نعمة أخت أبيه أَنُوش، وهي بنت شيث. وولد قينان بعد مضي سبعين سنة من عمر أنوش، ومن عمر آدم ثلاث مئة ونيِّف[١]، وانتقل النُّور إلى قَينَان، فسار بسيرة أبيه ثم مات وله تسعمائة وعشرون سنة[٢].

فصل في ولده مَهلائِيل

ولما احتضر قينان أوصى إلى ولده مَهلائِيل بن قَيْنَان، وأعلمه بالنُّور الذي انتقل إليه، فسار بالنَّاس سيرة أبيه وعاش ثمان مئة سنة[٣]. وقال جدي في «أعمار الأعيان»: عاش مَهْلائِيل ثمان مئة وخمساً وتسعين سنة[٤].

قال أبو حنيفة الدِّينَوَري: كثر ولد آدم في زمان مَهْلائِيل، وكان سيِّد ولد آدم في عصره والقائم بأمورهم، فوقع التنازع بين يدي آدم في الأوطان، ففرَّقهم في مهابِّ الرياح الأربع، وخصَّ ولد شيث بأفضل الأرض، فأسكنهم العراق وما والاه.

وفي التوراة: أن مولد مَهْلائيل بعد أن مضى من عمر آدم ثلاث مئة وخمس وتسعون سنة[٥].

فصل في ذكر يَرد

بذال معجمة وقيل: بدال مهملة، وهو ابن مَهْلائِيل، أوصى أبوه إليه، وأخبره بالسرِّ المكنون، وانتقال النور إليه وكان حسن السِّيرة، بنى المدن واستخرج المعادن، وهو الذي بنى بابل والسُّوس، وهما أولُ مدينة بنيتا على وجه الأرض من المدن، وملك الأقاليم السَّبعة، وأمر الناس ببناء المساجد، وقتل السِّباع الضَّارية، وذبح البقر والغنم.

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٦٣.
(٢) انظر «تاريخ اليعقوبي» ١/ ٩، و«مروج الذهب» ١/ ٧٢.
(٣) انظر «مروج الذهب» ١/ ٧٢.
(٤) «أعمار الأعيان» ١٢٦.
(٥) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٦٤.

وقال جدِّي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: عاش يرذ تسع مئة وتسعاً وستين سنة[١]، وقيل: ألف سنة.

قال ابن إسحاق: عاش مهلائيل بعدما ولد له يرذ ثمان مئة سنة وثلاثين سنة[٢].

وفي التوراة: أن يرذ ولد بعدما مضى من عمر آدم أربع مئة وستون سنة[٣].

واختلفوا فيه:

فقال البلاذُري: هو اليارذ بألف، وقال مقاتل: هو أوشنج، وقال ابن مسكويه في «تجارب الأمم»: هو أوشهنج بهاء[٤].

والأصحُّ أنَّ يرذ غير أوشنج، لأنَّ طائفة زعموا أنَّ أوشنج ولد آدم لصلبه، وأنه عاش أربعين سنة. أمّا يَرْذ فقد عاش زماناً طويلاً.

وفي أيام يَرْذ عُبدت الأصنام[٥].

ذكر هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: لما مات آدم جعله شيث في مغارة بالهند في الجبل الذي أهبط عليه، فكان بنو شيث يعظِّمونه ويدورون حوله، حتَّى مات شيث[٦]. وقام يَرْذ بن مَهْلائيل، فقال بنو قابيل: إنّ لبني شيث دَوَاراً يدورون حوله ويُعظِّمونه وليس لكم شيء، فتصوَّر لهم إبليس في صورة شيخ، فنحت لهم صنماً على صورة آدم، فهو أوَّل صنم عمل وعبد في الأرض[٧].

وذكر الشَّرقي بن قُطامي قال: كان وَدٌّ وسُواع ونسر ويَغوث ويَعوق قوماً صالحين، فماتوا في شهر، فجزع عليهم أهاليهم وأقاربهم، فقال لهم رجل من ولد قابيل: هل لكم أن أعمل لكم خمسة أشخاص على هيئتهم؟ قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام

(١) «أعمار الأعيان» ١٢٧.
(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٦٤.
(٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٦٤.
(٤) أنساب الأشراف ١/ ٥، و«تجارب الأمم» ١/ ٥.
(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٧٠ عن ابن عباس.
(٦) «الأصنام» ص ٥٠، ومن طريقه أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٣١-٢٣٢.
(٧) «الأصنام» ص ٥١، ومن طريقه أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٣٢، وليس فيه ذكر إبليس.

على هيئة أشخاصهم، ونصبها لهم، فعظَّموها. وذهب ذلك القرنُ وجاء آخر فعبدوها، وقالوا: ما عظَّم أوَّلونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم. فلم يزالوا على ذلك حتى بعث الله إدريس فنهاهم عن عبادتها، فلم ينتهوا، حتى بعث الله نوحاً فأهلكوا بالطُّوفان، وأحدرها الطوفان من الهند إلى الحجاز، فأرست على جُدَّة، فتقاسمها العرب بعد ذلك، فكان وَدٌّ بدُومَة الجَنْدَل لكلب، وسُواع لهُذَيل، ونَسْر لحِميَر آل ذي الكَلاع، ويَغوث لمُراد وغطفان بالجُرف، ويَعوق لهَمْدان[1].

وذكر ابن إسحاق: أن الأصنام إنما عبدت في زمن أنوش.

وذكر قوم من الأوائل: أن سبب عبادة الأصنام أن طوائف من الهند والصين كانوا يزعمون أن الباري سبحانه وتعالى جسم، وأن الملائكة أجسام، وأنهم احتجبوا بالسماء، فدعاهم ذلك إلى أنهم اتخذوا تماثيل وأصناماً على صور تخيَّلوها بالوهم في الباري سبحانه والملائكة مختلفة[2] القدود والأشكال، وصوَّروا أيضاً على صور بني آدم من مات من الفضلاء والحكماء، وأقاموا يعبدونها ويقربون لها القرابين وينذرون لها النذور، وأقاموا على ذلك مدّةً حتَّى نبَّههم بعض حكمائهم وقال لهم: هذه الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام إلى الباري، وهي حيَّة ناطقة، وما يتجدَّد في العالم إنما هو بتأثيرها، فعظِّموها فهي أولى بالتَّعظيم لتقرِّبكم إلى الباري.

فأقاموا على ذلك مدَّةً، فلما رأوا بعضها يطلع نهاراً وبعضها ليلاً ويخفى نهاراً، صنعوا لها أصناماً على هيئتها، وأشهر ما بنوا لها سبعة هياكل على عدد الكواكب السَّبعة، وجعلوا لكل كوكب هيكلاً وصنماً.

فالهيكل الأول: للقمر بنى له مِنُوشِهْر بيتاً بالنُّوبَهار، وسادنه يدعى بَرمك، وإليه ينسب يحيى بن خالد البرمكي. وكتبوا على بابه: أبواب الملوك تحتاج إلى عقل وصبر ومال. فمرَّ به بعض الحكماء فكتب تحته: الواجب على الحرِّ إذا كان معه إحدى الثلاث أن لا يقرب أبواب الملوك.

---

(١) انظر «الأصنام» ص ٥١ـ٥٨، و«المنتظم» ١/ ٢٣٢.

(٢) في (ب) و(م): مختلفي.

والهيكل الثاني: لعُطارد على جبل بأصبهان يقال له: مارس، بناه بعض الأوائل.

والهيكل الثالث: للزُّهَرة بناه الضحاك بغُمْدان، ولم يزل حتى أخرب في أيام عثمان ابن عفَّان رضي الله عنه.

والهيكل الرابع: هيكل للشمس بفَرْغانة بناه كاوس الملك، وسمَّاه كاوسان، ولم يزل حتى أخربه المعتصم.

والهيكل الخامس: للمريخ بالهند على جبل يقال له: شَرْوان، أخربه المأمون.

والهيكل السادس: للمشتري ببلاد الصين، وهو الذي ذكرناه في العجائب، وحوله المقاصير، وهو عظيم.

والهيكل السابع: لزُحَل، وهو بأقصى الصِّين، ويقال: إنه قائم إلى هلمَّ جرًّا. وزعم قوم أنه بالحجاز وهو الكعبة، ولهذا طال بقاؤها على ممر الدهور والعصور، لأنَّ زحل تولَّاها ومن شأنه البقاء والثبوت[١].



(١) انظر مروج الذهب ٤/ ٤٢-٤٤، ٤٧-٥٢.

فَصل في ذِكْر إدريس عَلَيْهِ السَّلام[١]

قال ابن إسحاق: واسمه أَخْنُوخ، وقيل: إنه أَحْنُوخ[٢]، وهو ابن يَرْد بن مَهْلائيل بن قَيْنان بن أَنُوش بن شِيْث بن آدم عليه السلام.

وقال الجوهري: إنما سمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى[٣].

وأوحي إليه وأبوه يَرْد حيٌّ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

قيل: إنَّ الله تعالى ذكره في موضعين[٤].

قال ابن سعد بإسناده عن ابن عباس قال: وهو أوَّل من أعطي النبوة، وبعثه الله بعد آدم، وهو خَنُوخ بن يَرْد[٥].

قلت: وهو وهم. أوَّل نبيٍّ بعد آدم شِيث، وقد ذكرنا أنَّ الله تعالى أنزل عليه صحائف.

والصَّابئة تسمِّي إدريس هِرمِس، ومعناه: حكيم الحكماء، وتزعم أنه يملك الدنيا وينزل من السماء، وقد أشار إلى هذا أبو العلاء المعرِّي فقال[٦] [الطويل]:

إذا دخل الهِرماسُ جِلِّقَ واليـاً ... فما كذَبَتْ فيما تَقولُ الهَرَامسُ

يعني الحكماء.

وقال ابن إسحاق: وُلد إدريس في حياة آدم، وقد مضى لآدم ست مئة واثنان وعشرون سنة، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة.

وهو أوَّل من خطَّ بالقلم وخاط الثياب، وكان الناس يلبسون الجلود.

---

(١) انظر قصته في «تاريخ اليعقوبي» ١/ ١١، و«تاريخ الطبري» ١/ ١٧٠-١٧١، ومروج الذهب ١/ ٧٣، و«عرائس المجالس» ص ٥٠، و«المنتظم» ١/ ٢٣٣، و«الكامل» ١/ ٦٢، و«البداية والنهاية» ١/ ٩٩.

(٢) في (ب): (خَنُوخ).

(٣) «الصحاح»: (درس).

(٤) الموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥﴾ [الأنبياء: ٨٥].

(٥) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٠.

(٦) البيت في «لزوم ما لا يلزم» ٢/ ٨٦١.

وهو أوَّل من سبى بني قابيل واسترقَّ منهم.

وأوَّل من طرز الطرز، وخطَّ بالرَّمل، ونظر في علم النُّجوم وسمَّاها، ووضع أسماء البروج والكواكب السيَّارة ورتَّبها في بيوتها، وأثبت لها الشَّرف والوبال والحضيض والأوج والتربيع والتثليث والتسديس والمقاربة والمقابلة والرجوع والاستقامة ونحو ذلك، لأنه صعد إلى السماء، وألهمه الله تعالى معرفة هذه الأشياء.

وهو أوَّل من جاهد في سبيل الله.

وقال ابن عباس، موقوفاً عليه ومرفوعاً: أربعة من الرُّسل سُريانيُّون: آدم وشِيث وخَنُوخ ونوح[(١)].

قال: وجَمَع بني آدم ووعظهم وأمرهم ونهاهم عن مداناة بني قابيل، فخالفه جماعة فقتل وسبى واسترقَّ[(٢)].

قال: وكان يصعد له في اليوم من العمل ما لا يصعد لبني آدم في السنة، فحسده إبليس وعصاه قومه، فرفعه الله إليه، وأدخله الجنَّة، ورُفعَ وهو ابن ثلاث مئة وخمس وستين سنة[(٣)].

قال جدي رحمه الله في «التبصرة»: وعاش أبوه بعد رفعه إلى السماء مئة وخمساً وثلاثين سنة[(٤)].

ذكر رفعه

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾[مريم: ٥٧] اختلفوا في المكان الذي رفع إليه على أقوال:

أحدها: في السماء الرابعة، وفي «الصحيحين» من حديث مالك بن صَعصَعة في

(١) ذكره ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤ من كلام ابن عباس، وأخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٧١ وابن حبان في صحيحه (٣٦١) من حديث أبي ذر ﷺ، وإسناده ضعيف جداً.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ٥٠.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٤٠، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٣٣.

(٤) «التبصرة» ١/ ٥٠.

المعراج أن النبي ﷺ رآه فيها[١].

والثاني: أنه في السماء السادسة، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أنه في السماء السابعة. حكاه أبو سليمان الدمشقي[٢].

والرابع: في الجنَّة، قاله ابن زيد. وقيل: إنَّ الجنَّة في السماء الرابعة.

وفي سبب صعوده إلى السّماء أقوال:

أحدها: أنه كان يصعد له في كل يوم من العمل مثل ما يصعد لجميع بني آدم في زمانه، فتعجَّبت منه الملائكة، واشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن ربَّه في زيارته فأذن له، فهبط إليه في صورة بني آدم وصحبَهُ، وكان إدريس يصوم الدهر، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه، فأبى أن يأكل معه، فعل ذلك ثلاث ليالٍ، فأنكره إدريس وقال له: مَن أنت؟ فقال: لا تخف، أنا ملك الموت، استأذنت ربي في زيارتك وصحبتك فأذن لي، فقال له إدريس: لي إليك حاجة، فقال: وما هي؟ قال: تقبض روحي. فأوحى الله تعالى إليه: اقبض روحه، ففعل، ثم ردَّها الله إليه بعد ساعة، فقال له ملك الموت: وما الفائدة في سؤالك؟ فقال: لأذوق الموت وكربه فأكون له أشدَّ استعداداً. ثم قال له إدريس: لي إليك حاجة أخرى، قال: وما هي؟ قال: ترفعني إلى السماء وتريني الجنَّة والنار، فأذن الله له في رفعه إلى السماء، وسأل ملك الموت أن يسأل مالكاً خازن النار أن يفتح له باباً من أبوابها، ففعل، فرآها فقال لملك الموت: كما أريتني النّار فأرني الجنة، فذهب به إلى الجنَّة فأدخله إيَّاها، فلما طاف فيها قال له ملك الموت: اخرج منها وعدْ إلى مستقرِّك، فتعلَّق بشجرة فقال: لا أخرج منها، فبعث الله ملكاً فحكم بينهما، فقال له الملك: ما لك لا تخرج؟ فقال: لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقد ذقته. وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقد وردتها، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[الحجر: ٤٨] فلست أخرج. فأوحى الله إلى ملك الموت: بإذني دخل وبأمري فعل ما فعل، فخلِّ عنه، فتركه، قاله

(١) البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) انظر الأقوال في «زاد المسير» ٥/ ٢٤١.

ابن عباس ووهب، ورواه زيد بن أسلم مرفوعاً[١].

فإن قيل: فمن أين لإدريس هذا وكيف علم ما في كتابنا، وهو لم ينزل عليه؟!

فالجواب: إنَّ الله تعالى ألهم إدريس ما فعل، وعلَّمه وجوب الورود وامتناع الخروج من الجنَّة.

وفيه أيضاً دليل على قدم القرآن، وأنهم قد كانوا يعرفون بعضه من اللَّوح المحفوظ، وإليه وقعت الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩] وإن لم يكن فيها بهذه العبارة.

والقول الثاني: أنَّ بعض الملائكة أحبّ إدريس، فنزل إليه وصادقه، فلمّا عرف إدريس أنه ملك قال له: هل بينك وبين ملك الموت معرفة؟ قال: نعم، هو أخي من الملائكة، قال: هل تستطيع أن تنفعني عنده ليرفق بي عند الموت؟ قال: نعم، اركب على جناحي، ففعل فصعد به إلى السماء فمرَّ به على ملك الموت فرآه جالساً على كرسي وبين يديه لوح فيه أسماء الخلائق، فكلَّمه في إدريس، فقال له: تكلمني في رجل قد محي اسمه من الصحيفة ولم يبق من أجَله إلا طرفة عين؟ فمات إدريس بين جناحي الملك، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثالث: إن إدريس سار يوماً في الشمس فأصابه وهجها، فقال: اللَّهمَّ خفِّف ثقلها عن من يحملها، فأصبح الملك الموكَّل بها وقد خفَّ عنه ما لم يعهده، فسأل الله عن ذلك فأخبره بدعاء إدريس له، فقال: يا ربِّ اجمع بيني وبينه واجعلْ بيننا خُلَّة، فأذن له فأتاه فقال له إدريس: اشفع لي إلى ملك الموت أن يؤخِّر أجلي، فقال: إنّ الله لا يؤخِّر نفساً إذا جاء أجلها، ولكن أكلِّمه فيك فما استطاع أن يفعل معك فعل. ثم حمله الملك على جناحه فوضعه عند مطلع عين الشمس، ثم أتى ملك الموت فقال: لي إليك حاجة، فقال: وما هي؟ قال: صديق لي من بني آدم أسألك أن تؤخِّر أجله، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل، ولكن إن أحببت أخبرتك متى يموت، فنظر في اللوح وقال: إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً. قال: وكيف؟ قال: لأني لا أراه يموت إلا

(١) انظر عرائس المجالس ٥٠-٥١، والمنتظم ١/ ٢٣٤.

عند مطلع عين الشمس. قال: فإني خلَّفته هناك، قال: انطلق فما تجده إلا ميتاً، فرجع فوجده ميتاً. رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال كعب[١].

قال: وذكر إدريس في التوراة فقال: أخنوخ أحسن خدمة الله فرفعه الله إليه.

وقال ابن عباس: أربعة من الأنبياء أحياء فيهم أرواحهم: إدريس وعيسى في السماء وإلياس والخضر في الأرض وكلهم يموتون إلَّا إدريس، فإنه إذا مات الخلق أصابته دهشة، فيبقى في عداد الموتى وهو حيٌّ.

وقيل: هو الذي يجيب الله تعالى إذا مات الخلق وقال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾[غافر: ١٦] فيقول إدريس: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[غافر: ١٦].

وقال كعب الأحبار: في التوراة: إنه استجاب لإدريس ألف إنسان ممن دعاهم إلى الله تعالى.

وقال الهيثم بن عدي: أوصى إدريس قبل رفعه إلى ابنه مُتُّوشَلْح ـ بالحاء المهملة، ويقال: مُتُّوشَلْخ بالخاء المعجمة ـ وكان صالحاً، وولد على مضي ثلاث مئة سنة من عمر والده إدريس.

ومُتُّوشَلْخ أول من ركب الجمل، وسلك طرائق الخير والصلاح. ولما عهد إليه إدريس عرفه بالنور الذي انتقل إليه منه، وعاش تسع مئة وتسعاً وستين سنة، ويقال: إنَّه ولد في حياة آدم.

وأقام إدريس في النبوة مئة وخمساً وستين سنة، ورفعه وهو ابن أربع مئة وخمسٍ وستين سنة، كذا روى الضحاك عن ابن عباس، وحكاه الخطيب.

فصل في ولد مُتُّوشَلْخ

منهم لَمْك أبو نوح عليه السلام، وبربر وروس وصقلاب، وإليه تنسب الصقالبة، وصابيء وإليه تنسب الصابئة، ولم ينتقل النور إلا إلى لَمْك ويقال لامَك، لما نذكر، وإليه أوصى مُتُّوشَلْخ.

---

(١) انظر الأقوال الثلاثة في زاد المسير ٥/ ٢٤١ ـ٢٤٣، والتبصرة ١/ ٥٠ ـ ٥٢.

ذكر الجاهلية الأولى

واختلفوا فيهم: فقال الشعبي: كانوا بين عيسى ومحمّد صلى الله عليهما وسلّم[١].

قال أبو العالية: بين داود وسليمان[٢].

وقال مجاهد: بين إبراهيم وموسى.

وقيل: في زمان نمرود، كانت المرأة تلبس قميصاً من الدّرّ فيرى باطنها فيه، ثم تمشي وسط الطريق ليس عليها غيره، تعرض نفسها على الرِّجال[٣].

وروى عطاء عن ابن عباس قال: وفي زمان متوشلخ كانت الجاهلية الأولى، وهما بطنان من بني آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صِباحاً وفي النساء دَمامة، ونساء السهل صِباحاً وفي الرجال دمامة، فجاء إبليس إلى رجل من السهل فأخذ زمارة فزمر بها فظهر له منها صوت لم يسمع مثله، فاجتمع إليه الرجال والنِّساء ونزلوا من الجبل، فاختلطوا وتبرَّج النِّساء، فكثرت الفواحش حتى أغرقهم الطوفان، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣][٤].

وإبليس أوَّل من زمر وناح[٥].



(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٢/ ٤.

(٢) انظر «تفسير البغوي» ٣/ ٥٢٨.

(٣) أورده البغوي في «تفسيره» ٣/ ٥٢٨ عن الكلبي.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٢/ ٤، وقال ابن حجر في «الفتح» ٨/ ٥٢٠: إسناده قوي.

(٥) أورده الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٢) عن علي بن أبي طالب ﷺ.

فصل في الحوادث التي كانت في زمان إدريس عليه السلام

قصَّة هاروت وماروت

وهما اسمان سُريانيَّان لا ينصرفان للعُجمة والتَّعريف، وكانت قصتهما على ما ذكره ابن مسعود وابن عباس والمفسرون: أنَّ الملائكة رأت ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة، وذلك في زمان إدريس، فعيَّروهم بذلك، ودعوا عليهم وقالوا: يا ربنا هؤلاء الذين اخترتهم وجعلتهم في الأرض خلفاء وهم يعصونك، فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض وركَّبت فيكم ما ركَّبت فيهم لارتكبتم ما ارتكبوا. فقالوا: سبحانك ما كان لنا ـ أو ما ينبغي لنا ـ أن نعصيك. فقال لهم الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أُهبطهما إلى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم.

وقال الكلبي: قال الله: اختاروا ثلاثة، فاختاروا عزائيل، ووعزا وهو هاروت، وعزايا وهو ماروت، وإنما غُيِّر اسمهما لمَّا قارفا الذنب ـ [كما غُيِّر][1] اسم إبليس وكان اسمه عزازيل ـ قال: فركّب فيهم الشهوة وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق، ونهاهم عن القتل والزِّنا، والشرك وشرب الخمر.

فأمَّا عزائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقال، وسأل الله أن يرفعه إلى السماء، فأقاله ورفعه، وسجد أربعين سنة لم يرفع رأسه إلى السماء حياءً من الله تعالى. وقيل: إنه بقي على حاله.

وأمَّا الآخران فإنهما ثبتا على ذلك، وكانا يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم، فصعدا إلى السماء.

قال قتادة: فما مرَّ عليهما شهر حتى افتتنا.

قالوا جميعاً: وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة، وكانت من أجمل النساء، قال علي كرَّم الله وجهه: كانت من أهل فارس، وكانت ملكة في بلدها، فلمّا رأياها

---

(١) في الأصول الخطية: «فركب»، وما أثبتناه من «عرائس المجالس».

أخذت بعقولهما أو بقلوبهما فراوداها عن نفسها، فأَبت ثم انصرفت. ثم عادت في اليوم الثاني، ففعلا مثل ذلك، فأبت، وقالت: لا إلَّا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر، فقالا: لا سبيل لنا إلى هذه الأشياء، فإنَّ الله تعالى نهانا عنها. فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت لهما بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر، فشربا الخمر فانتشيا، ووقعا على المرأة فزنيا، فلمَّا فرغا رآهما الشاب[١] فقتلاه.

قال الرَّبيع بن أنس: وسجدا للصنم؛ فمسخ الله الزهرة كوكباً.

قال علي بن أبي طالب والسُّدي والكلبي: إنها قالت لهما: لن تدركاني حتَّى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء، فقالا: باسم الله الأكبر، قالت: فما أنتما بمدركيَّ حتّى تعلّماني إياه، فقال أحدهما للآخر: علِّمها، قال: إني أخاف الله، قال الآخر: فأين رحمة الله؟ فعلَّماها ذلك، فتكلَّمت به، وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكباً[٢].

قال الثعلبي: فعلى قول هؤلاء هي الزهرة بعينها، وقيَّدوها فقالوا: هي الكوكبة الحمراء، واسمها بالفارسيّة أناهيد[٣]، وبالنِّبطية بيدخت. قال الثعلبي: ويدل على [صحة] هذا القول ما حدَّثنا [به] يحيى بن إسماعيل الحربي بإسناده عن عليّ ﷺ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا رأى سهيلاً قال: «لَعَنَ الله سُهَيلاً إنَّه كانَ عَشَّاراً باليمنِ، لَعَنَ الله الزُّهرَة فإنَّها فَتَنَتِ المَلَكَين»[٤].

قال: وقال مجاهد: كنت مع ابن عمر ذات ليلة فقال لي: ارمق الكوكبة، يعني

(١) في «تفسير البغوي»: (إنسان).

(٢) النقل بالحرفية من «عرائس المجالس» ص ٥١ـ٥٣، وانظر «تفسير البغوي» ١/ ١٠٠ـ١٠١.

(٣) في الأصول الخطية: (هيد)، وفي «العرائس»: (ناهيد) والمثبت من «معجم الذهبي» ص ٧٦.

(٤) أخرجه بشطره الأول الطبراني في «الكبير» (١٨١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣٩١)، وقال ابن الجوزي: وهذا الحديث لا يصح.
وأورد الشطر الآخر السيوطي في «الدر المنثور» ١/ ٩٧، وعزاه لابن مردويه. وما بين معقوفين من «عرائس المجالس».

الزهرة، فإذا طلعت فآذنّي أو فأيقظني قال: فلمَّا طلعت أيقظته، فجعل ينظر إليها ويسبُّها سبّاً شديداً، فقلت: رحمك الله، أتسبُّ نجماً سامعاً لله مطيعاً؟! فقال: إنَّ هذه كانت بغيّاً فلقي الملكان منها ما لقيا(١).

قال نافع: وكان ابن عمر إذا رأى الزهرة قال: لا مرحباً ولا أهلاً(٢).

وروى أبو عثمان النَّهدي عن ابن عباس بنحو ما روى مجاهد عن ابن عمر.

وقال الثعلبي: وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا: إنَّ الزهرة من الكواكب السبعة السَّيارة التي جعلها الله قواماً للعالم وأقسم بها فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] وإنما كانت هذه التي فتنت هاروت وماروت امرأة تسمى الزهرة من جمالها، فلما بغت جعلها الله شهاباً، فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة، ذكر هذه المرأة لموافقة الاسمين فلعنها، وكذا سهيل العشَّار كان رجلاً عشّاراً باليمن، فلما رأى رسول الله ﷺ النجم ذكره فلعنه. يدل عليه ما روى قيس بن عُباد عن ابن عباس(٣) قال: كانت الزهرة امرأة فُضِّلَتْ بالحسن على الناس كما فضلت الزهرة على سائر الكواكب(٤). ومثله قال كعب الأحبار وغيره، والله أعلم.

قلت: هذا صورة ما ذكره أبو إسحاق، ولم يبيّن ما في الأحاديث من المقال، وما رواه عن النَّبي ﷺ في الزهرة وسهيل لا يصح، وكذا ما روي عن ابن عمر. والدليل عليه أن جدي رحمه الله ذكر هذه الأخبار في «الموضوعات»:

أنبأنا جدي رحمه الله قال أنبأنا أبو منصور القزَّاز بإسناده عن معاوية بن صالح عن نافع قال: سافرت مع ابن عمر فلما كان آخر اللَّيل قال: يا نافع طلعت الحمراء؟ فقلت: لا، فلمَّا طلعت أخبرته، فقال: لا مرحباً ولا سهلاً. قلت: سبحان الله، نجم سامع مطيع تقول له هذا؟! فقال: ما قلت إلّا ما سمعته من رسول الله ﷺ، أو قال: قال رسول الله: ﷺ إنَّ الملائكة قالت: «يا ربِّ كيفَ صبرُكَ على بني آدمَ في الخطايا

(١) «عرائس المجالس» ص ٥٣.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١/ ٤٥٨.
(٣) في (ب): قيس بن عبادة عن أنس وابن عباس.
(٤) «عرائس المجالس» ص ٥٣.

والذُّنوب؟ قال: إنِّي ابتليتُهم وعافيتُكم، قالوا: لو كنَّا مكانهم ما عصيناك. قال: فاختاروا ملَكَين منكم. فلم يَألوا أن اختاروا هاروتَ وماروتَ فنزلا، فأَلقَى عليهما الشَّهوة، فجاءت امرأةٌ يقال لها: الزُّهرة، فوقعت في قلوبهما، فجعل كلُّ واحد منهما يخفي ما في نفسه عن صاحبه. ثم راوداها فقالت: لا أمكِّنكما حتى تعلِّماني الاسم الذي تعرجان به إلى السماء وتهبطان، فامتنعا، ثم أجابا ففعلا، فمسخها الله كوكباً، وقطع أجنحتهما. ثم سألا التوبة من ربِّهما فخيَّرهما بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدُّنيا، فأوحى الله إليهما: انطلقا إلى بابل، فانطلقا فهما منكوسان بين السماء والأرض يُعذَّبان إلى يوم القيامة». قال جدّي رحمه الله: هذا حديث لا يصحُّ(١).

وأمَّا حديث سُهيل وقول النبيِّ ﷺ: «لعن الله سُهيلاً كان عشَّاراً باليمن» فقال جدي في «الموضوعات» أيضاً: لا يصحّ مرفوعاً إلى رسول الله ولا موقوفاً، تفرَّد به إبراهيم ابن يزيد الخوزي، اتفقوا على تركه(٢).

وقد رُويت لنا هذه القصة وليس فيها أنَّ الزهرة مُسخت كوكباً: قرأتُ على شيخنا الموفَّق المقدسي رحمه الله قال: حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النَّقور، بإسناده عن عبد الله بن عمر، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنَّ آدمَ لمَّا أَهبَطَه الله تعالى إلى الأرض قالتِ الملائِكَةُ: يا ربِّ، أتجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها ونَحن أَطْوَع لك من بَني آدَمَ؟، فقال الله: هَلمُّوا ملَكَين منكُم حتى نُهبِطَهما إلى الأرضِ فننظر كيف يعملان، فاختاروا هارُوتَ ومارُوتَ، فأُهبِطا إلى الأرضِ(٣) ومَثُلَت لهما الزُّهرة امرأة من أحسنِ البَشَر، فسألاها نَفسَها، فقالت: لا والله حتى تَتكلَّما بهذه الكلمة من الإشراك. فقالا: لا واللهِ لا نشركُ بالله شيئاً، فذهبت عنهما. ثمَّ رجَعَتْ بصبيٍّ تحملُه، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تقتُلا هذا الصبيَّ، فقالا: لا والله لا نقتُلُه أبداً، فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحملُه، فسألاها نَفسَها فقالت: لا واللهِ حتى تَشرَبا هذا القدَحَ، فشَرِبا القدَحَ حتى سَكرا فوَقَعا عليها، وقَتلا الصبيَّ، وتكلَّما بالكلمةِ. فلمَّا أفاقا قالت

---

(١) «الموضوعات» (٣٨٩).

(٢) «الموضوعات» (٣٩٠).

(٣) من قوله: فننظر كيف يعملان . . . إلى هناليس في (ب).

لهما: واللهِ ما تَرَكتُما شيئاً مما أَبَيْتماه إلَّا فَعلْتُماه حين سَكِرتما، فخيِّرا بين عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ فاختارا عذابَ الدُّنيا»[(١)].

وحكى جدّي رحمه الله قولين آخرين:

أحدهما: عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أنهما جارا في الحكم.

والثاني: أنهما همَّا بالمعصية فقط، ولم يفعلاها[(٢)].

قلت: وهذا القول الأخير أليق بالملائكة من مباشرة الزِّنا والقتل وشرب الخمر.

قال ابن عباس: فلمَّا أمسيا همَّا بالصعود إلى السماء بعدما قارفا الذَّنب، فلم تطعهما أجنحتهما، فعلما ما حلَّ بهما، فقصدا إدريس وسألاه أن يشفع لهما إلى الله، وقالا: إنَّا رأيناك يصعد لك من العبادة[(٣)] مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا، فشفع فيهما، فخيَّرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا لعلمهما أنه ينقطع، فهما ببابل يعذَّبان[(٤)].

وروى أبو صالح عن ابن عباس، ورواه معاذ مرفوعاً والموقوف أصحّ، قال: جاءهما جبريل، فبكيا وبكى معهما، فقال لهما: ما هذه البليّة التي أجحفت بكما؟ وما هذا الشّقاء؟ فإنّ الله أرسلني إليكما يخيِّركما بين عذاب الدنيا وأن تكونا عنده في الآخرة في المشيئة إن شاء عذبكما وإن شاء رحمكما، وإن شئتما عذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا وأن يكونا عند الله في المشيئة، قال: فهما ببابل فارس معلقان بين جبلين في غار تحت الأرض، يعذّبان طرفي النّهار إلى الصّيحة. فلما رأت الملائكة ذلك خفقت بأجنحتها ثم قالت: اللهمَّ اغفر لولد آدم فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾[(٥)][الشورى: ٥].

وفي رواية: فقالت الملائكة: عجباً لبني آدم كيف يعبدون الله تعالى ويطيعونه على

(١) «كتاب التوابين» (١) وهو عند أحمد في «المسند» (٦١٧٨)، وهو حديث باطل انظر الكلام عليه في «المسند».
(٢) ذكرهما في «زاد المسير» ١/ ١٢٤.
(٣) في (ب): «العمل».
(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٥٣.
(٥) أخرجه المقدسي في «التوابين» (٢) موقوفاً.

ما فيهم من الشهوات[(١)]!؟

وقال ابن مسعود: فداروا حول العرش أربعة آلاف سنة يعتذرون من اعتراضهم.

واختلفوا في كيفية عذاب الملكين على أقوال:

أحدها: أنهما معلَّقان بشعورهما إلى قيام الساعة، قاله ابن مسعود.

والثاني: أنهما مكبَّلان بالحديد من أقدامهما إلى رؤوسهما، قاله قتادة.

والثالث: أنَّ جبّاً مليء ناراً وجعلا فيه، قاله مجاهد[(٢)].

وحكى أبو إسحاق الثعلبي: أنَّ رجلاً قصدهما ليتعلَّم السِّحر، فوجدهما معلَّقين بأرجلهما، مزرقَّة عيونهما، مسودَّة جلودهما، ليس بين ألسنتهما والماء سوى أربعة أصابع، وهما يصيحان: العطش العطش!. فلما رأى ذلك هاله مكانهما، فقال الرجل: لا إله إلا الله، وقد نهيا عن ذكر الله، فلمَّا سمعا كلامه قالا: من أنت؟ فقال: رجل من أمَّة محمد ﷺ، قالا: وقد بُعث؟ قال: نعم، فقالا: الحمد لله، واستبشرا وقالا: هو نبيُّ الساعة، وقد دنا [انقضاء عذابنا][(٣)].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي: ابتلاء واختبار، فينصحاه وينهياه ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة: ١٠٢] أي بتعليم[(٤)] السِّحر.

فصل في حكم السَّاحر والسَّاحرة

قال أبو حنيفة رضي الله عنه: يكفر السَّاحر بسحره ويقتل، أمَّا المرأة السَّاحرة فتحبس ولا تقتل، سواء كان السَّاحر من أهل الإسلام أو من أهل الكتاب.

وقال الشافعي: لا يكفر بسحره، فإن قَتَلَ بسحره قُتِلَ به.

وقال أحمد: يكفر بسحره قَتل أو لم يَقتل. وهل تقبل توبته؟ فيه روايتان.

وأمَّا ساحر أهل الكتاب فلا يقتل عند أحمد إلا أن يضرَّ بالمسلمين فيقتل، لنقض

(١) «كتاب التوابين» (٢).

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٥٣ـ٥٤، و«زاد المسير» ١/ ١٢٥.

(٣) «عرائس المجالس» ص ٥٤. وما بين معقوفين زيادة منه.

(٤) كذا في النسختين (ب) و(ل)، وصوابه: بتعلم.

العهد، وسواء في ذلك الرجل والمرأة[(١)]. وعنده وعند الشافعي[(٢)].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٌ﴾ وإنما وحَّد الفتنة وهما اثنان لأنَّ الفتنة مصدر، والمصادر لا تثنَّى ولا تجمع. وفي مصحف أبيٍّ بن كعب: «وما يعلِّمان من أحد حتَّى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر» سبع مرَّات وفي مصحف ابن مسعود «وما يعلّم الملكان من أحد».

وقال مقاتل: فإن أبى إلَّا التعليم قالا: ائت ذلك الرماد فَبُلْ عليه، فإن بال عليه خرج منه نور الإيمان والمعرفة ساطعاً في السماء، وينزل شيء أسود فيدخل في مسامعه شبيه الدُّخان، فذلك غضب الله تعالى وسخطه.

وقال مجاهد: الملكان لا يصِل إليهما أحد وإنما يختلف إليهما شيطان في السنة مرَّة واحدة.

ومعنى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾[البقرة: ١٠٢] وهو أن يبغض كلٌّ واحد منهما صاحبه ويؤخذ عنه.

قرأت على شيخنا الموفَّق المقدسي رحمه الله: بإسناده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدمت امرأةٌ من دُومة الجَنْدَل تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته ـ حداثةَ ذلك ـ تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السِّحر ولم تعلم به، قالت عائشة لعروة: يا ابن أختي فرأيتها تبكي حتى إني لأرحمها، تقول: إني أخاف أن أكون قد هَلَكت، كان لي زوج فغاب عنِّي، فدخلت إلى عجوز فشكوت إليها فقالت: إن فعلت ما آمرك به جعلته يأتيك، فلمَّا كان اللَّيل جاءتني بكلبين أسودين فركبتُ أحدهما، وركبَتِ الآخر، فلم يكن كثيراً حتى أتينا بابل، فإذا برجلين معلَّقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بك؟ قلت: أتعلَّم السِّحر. فقالا: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٌ﴾ فلا تكفري وارجعي، فأبيت، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت إليه ففزعت ولم أفعل شيئاً فرجعت إليهما، فقالا: أفعلتِ؟ قلت: نعم، قالا: فما رأيت؟ قلت: لم أر شيئاً. فقالا: كذبت لم تصنعي شيئاً. ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنَّك على رأس أمرك. قالت: فذهبت

(١) انظر «زاد المسير» ١/ ١٢٦.

(٢) لم يتضح لنا المراد من هذه العبارة، وانظر المغني لابن قدامة ١٢/ ٢٩٩ـ٣٠٦.

فبلتُ فيه، فرأيت فارساً مقنَّعاً بالحديد خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه، وجئتهما وأخبرتهما، وقلت: رأيت كذا وكذا، فقالا: صدقت، ذاك إيمانك خرج منك، اذهبي.

قالت: فقلت للمرأة، والله ما أعلم شيئاً، ولا قالا لي شيئاً، قالت: بلى، لن تريدي شيئاً إلا كان، خذي هذا القمحَ فابذري، فبذرتُ، فقلت: اطلعي فطلعت، فقلت: الحقي فلحقت، فقلت: افركي ففركت، فقلت: اطحني فطحنت، فقلت: اخبزي فخبزت، فلمَّا رأيت أني لا أريد شيئاً إلا كان، سُقط في يدي وندمت، والله يا أمَّ المؤمنين ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً، فسألَتْ أصحاب رسول الله ﷺ حداثة [وفاة رسول الله ﷺ]، وهم متوافرون، فما دروا ما يقولون لها وكلهم هاب وخاف وحذر أن يفتيها بما لا يعلم، إلا أنه قد قال لها ابن عباس أو بعضُ من كان عنده: لو كان أبواك حيَّين أو أحدهما.

قال ابن أبي الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا أهل الورع، ولو جاءنا مثلها اليوم لوجدَتْ نَوْكى أهلَ حُمْقٍ وتكلُّفٍ بغير علم(١).

واختلفوا في كيفيَّة جواز تعليم السِّحر على الملكين، على قولين:

أحدهما: أنهما كانا لا يتعمَّدان تعليم السِّحر، ولكنهما يصفانه ويذكران بطلانه، ويأمران باجتنابه. ولكنَّ الشَّقي يتعلَّم منهما في خلال صفتهما، ويترك موعظتهما ونصيحتهما. فعلى هذا التأويل لا يكون تعلُّم السِّحر كفراً، وإنما يكون العمل به كفراً، كما أنَّ من عرف الزِّنا ولم يفعله لم يأثم وإنما يأثم الفاعل له.

والثاني: أنَّ الله عزَّ وجلَّ امتحن الناس بالملكين في ذلك الوقت، وجعل المحنة في الكفر والإيمان، فيكفر بتعلُّمه، ويؤمر بترك التعلُّم، لأنَّ السِّحر كان قد كثر في تلك الأمَّة. ويزداد المعلِّمان عذاباً بتعليمه فيكون ذلك ابتلاء للمعلم والمتعلِّم. ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما ابتلى بني إسرائيل بالنَّهَر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾[البقرة:٢٤٩] ودليله قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ وهذان القولان

(١) «كتاب التوابين» (١٢٠)، وما بين معكوفين منه.

حكاهما الزَّجَّاج واعتمد عليهما[١].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾ أي: بالسِّحر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره وعلمه ومشيئته ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾[البقرة: ١٠٢] في الدَّارين ولا ينفعهم.

فصل في الملوك الذين كانوا في زمن إدريس عليه السلام

قال علماء السِّير: كان في زمانه طَهْمُورث.

وعامَّة المؤرخين على أنَّه طهمورت، بتاء منقوطة بنقطتين من فوق.

وقال أبو الحسين ابن المنادي: طهمورب، بباء منقوطة بواحدة من تحت.

واختلفوا فيه: فقال بعضهم: هو من ولد آدم لصلبه، وقال قوم: هو ابن أوشهنج أو أوشنج ابن آدم لصلبه. وقال ابن مسكويه في «تجاريب[٢] الأمم»: طهمورث أخو أوشنج. وقال قوم: هو من ولد أوشنج، بينه وبينه عدَّة آباء[٣].

فسلك طهمورت طريق الخير، وسار بسيرة من تقدّم من ولد آدم، وملك الأقاليم السبعة، ونفى الأشرار، وهو أوّل من كتب بالفارسية[٤]، واتخذ الخيل والبغال والحمير والكلاب لحفظ المواشي، واستمرَّت أحواله على الصَّلاح، وهو أوَّل من وضع التَّاج على رأسه من الملوك، وبنى المكان الذي جدَّده سابور ملك فارس، وأقام به حتى مات عن ست مئة سنة[٥].

فصل

ثم ملك بعده أخوه جَمْ شيد، وتفسيره: سيِّد الشعاع، سمي به لأنه كان وضيئاً جميلاً، وملك الأقاليم السّبعة، وسار في الناس السيرةَ الجميلة، وزاد على أخيه

(١) «معاني القرآن» ١/ ١٨٣ـ١٨٤.

(٢) كذا في (ب) و(ل)، واسمه الذي طبع به: تجارب.

(٣) انظر تجارب الأمم ١/ ٦.

(٤) في (ب): «تكلم بالسُّريانية».

(٥) «تجارب الأمم» ١/ ٦ مع تصرف وزيادة، وانظر «التبصرة» ١/ ٥٢، والمنتظم ١/ ٢٣٦

طهمورت، وعمل السّيوف والسّلاح، واستخرج الابريسم والقزَّ، ورتَّب الناس أربع طبقات: طبقة مقاتلة، وطبقة علماء، وطبقة خدماء، وطبقة كتّاباً وصناعاً وحرّاثين ونحوهم. وعمل أربع خواتيم: خاتماً للحرب والشُّرطة وكتب عليه «الأناة»، وخاتماً للخراج وجباية الأموال وكتب عليه «العمارة»، وخاتماً للبريد وكتب عليه «الوحى»، وخاتماً للمظالم وكتب عليه «العدل»[1]. قال جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة»: فبقيت هذه الرسوم في ملوك الفرس إلى أن جاء الإسلام[2].

قلت: ولو استعملت هذه الرُّسوم في ملك الإسلام أيضاً لكان أولى، لأنَّ الرَّعية من أحوج الناس إليها.

وألزم جَمْ شيد أهل الشّرّ والفساد الأعمالَ الصَّعبةَ من قطع الصخور من الجبال، وعمل الحمَّامات، واستخراج المعادن من البحار كالذهب والفضَّة والجوهر والياقوت، وأحدث النَّيروز فجعله عيداً. ولمَّا طال عمره تجبَّر وطغى وادَّعى الرُّبوبيَّة[3].

قال جدي في «أعمار الأعيان»: عاش جَمْ شيد تسع مئة سنة وستين سنة[4]. فسار إليه الضحَّاك واسمه بيوراسب بن الأهبوب.

واختلفوا في الضَّحاك: فقال قوم: هو من ولد جيومرت، وقيل: إنَّ الضحَّاك ابن أخت جَمْ شيد، كان جم قد زوَّج أخته من بعض أشراف بيته فولدت الضحَّاك، وقيل: إنما زوَّجها جَمْ من الأهبوب، فولدت الضحَّاك. فسار إليه الضحَّاك، فهرب بين يديه، فتبعه فظفر به، فقال له: مثلك يدَّعي الرُّبوبيَّة فإن كنت إلهاً فادفع عن نفسك، فنشره بمنشار ـ ذكره الجوهري بنون[5]. وغيره يقول: ميشار بالياء ـ وملَكَ الضحَّاك ألف سنة، وكان يدين بدين البراهمة[6].

---

(١) النقل من «التبصرة» ١/ ٥٢ـ٥٣، والمنتظم ١/ ٢٣٦ـ ٢٣٧، وانظر «تجارب الأمم» ١/ ٦.

(٢) «التبصرة» ١/ ٥٣، و«تجارب الأمم» ١/ ٦.

(٣) وانظر «التبصرة» ١/ ٥٣، و«تجارب الأمم» ١/ ٧.

(٤) «أعمار الأعيان» ص ١٢٧.

(٥) «الصحاح»: (نشر).

(٦) انظر «تجارب الأمم» ١/ ٧، و«التبصرة» ١/ ٥٣، والمنتظم ١/ ٢٣٧.

وذكر هارون بن المأمون: أنَّ الضحَّاك كان في زمن نوح عليه السَّلام، وأنه أرسل إليه وإلى قومه، قال: والفرس تسمِّيه بيوراسب، والعرب تسمِّيه: الضحَّاك، وهو أوَّل الفراعنة، وملَكَ الأقاليم كلها، وكان ساحراً فاجراً، وهو أوَّل من نشر بني آدم بالمنشار وصلب، ووضع العشور، وأوَّل من غُنِّي له، وأوَّل من ضرب الدَّراهم والدَّنانير، وسنذكره في الحوادث التي كانت بين نوح وإبراهيم عليهما السَّلام واختلاف الناس فيه وقتل أفريدون له إن شاء الله تعالى.



فَصلٌ في ذِكْر نُوح عليه السَّلام(١)

قال علماء السِّير: هو نوح بن لَمْكِ، وقيل: ابن لامَك بن مُتُّوشَلْخ بن أخنوخ، وهو إدريس عليه السَّلام، ابن مَهْلائيل بن يَرْد بن قَينَان بن أَنُوش بن شِيث بن آدم عليه السلام.

وهو أوَّل نبيٍّ بعد إدريس.

قال مقاتل: اسمه السَّكن، وقيل: ساكن، ونوح لقب له.

واختلفوا لِمَ سمِّي نوحاً على أقوال:

أحدها: لأنه ناح على قومه، قاله مجاهد.

والثاني: على نفسه، قال مقاتل: كان فيه غضب وحدَّة فلمَّا لم يجبه قومه دعا عليهم فجاءه إبليس فقال له: يا سكن لقد عملتَ معي عملاً لو اجتمع أهلُ الأرض وجميع جنودي لما قدروا عليه، قال: وما هو؟ قال: دعاؤك على قومك بالهلاك، ولو كنت صبرت على أذاهم لعلّه أن يؤمن واحد منهم لكان فيه كفاية، فندم نوح وقال: يا ليتني صبرت، فناح على نفسه.

والثالث: أنه نظر يوماً إلى كلب قبيح المنظر فقال: ما أقبح صورة هذا الكلب، فأنطقه الله تعالى وقال: يا سكن، على من عيَّبت؟ على النَّقش أو على النَّقَّاش؟ فإن كان على النَّقش فلو كان خلقي بيدي لحسَّنته، وإن كان على النَّقَّاش فالعتب عليه، أعتراضٌ في ملكه؟ فعلمَ أن الله أنطقهُ، فناح على نفسه وبكى أربعين سنة، قاله السُّدي عن أشياخه.

وقيل إن الله تعالى أوحى إليه ذلك(٢).

وقال ابن إسحاق: هو اسم موضوع له، ونوح بالسُّريانيَّة سكن.

---

(١) انظر قصته في «تاريخ اليعقوبي» ١/ ١٣، و«تاريخ الطبري» ١/ ١٧٩، و«البدء والتاريخ» ٣/ ١٥، و«مروج الذهب» ١/ ٧٤، و«عرائس المجالس» ص ٥٥، و«تاريخ دمشق» ٦٢/ ٢٤٠، و«المنتظم» ١/ ٢٣٩، و«الكامل» ١/ ٦٧، و«البداية والنهاية» ١/ ١٠٠.

(٢) انظر «زاد المسير» ١/ ٣٧٤، وتفسير البغوي ٢/ ١٦٨.

وقال السُّدي: إنما سمي سكناً لأنَّ الأرض سكنت به.

وقال ابن عباس: كان نجَّاراً. وقد ذكره الله في مواضع، قيل: في ثمانية وعشرين موضعاً، فقال في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾[الأعراف: ٥٩].

واختلفوا في ولادته وإرساله: فذكر جدي في كتاب «التبصرة» وقال: ولد نوح بعد وفاة آدم بمئة وست وعشرين سنة، ولما تمَّ له خمسون سنة أرسله الله تعالى(١). وكذا قال الزبير بن بكَّار.

وقال مقاتل: بينه وبين آدم ألف سنة، وبينه وبين إدريس مئة سنة، وبُعث وهو ابن خمسين وثلاث مئة سنة.

وقيل: كان ابن ثمانين وأربع مئة سنة، وكان أبوه لَمْك قد أخبره بالنُّور الذي انتقل إليه وأوصاه فقال: يا بنيّ، لا تتَّبع الأمَّة الخاطئة.

واختلفوا في مقامه على قولين: أحدهما: بالهند، قاله مجاهد. والثاني: بأرض بابل والكوفة، قاله الحسن البصري.

وقال ابن عباس: بعثه الله والكفر قد عمَّ الأرض، ولم يكن في الدنيا من يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، وكانوا يعبدون الأصنام، وهم ذريَّة قابيل وغيرهم، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ يعني: الأشراف والسَّادة، قال الفرَّاء: هم الرجال ليست فيهم امرأة ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأعراف: ٦٠] أي: في خطأ ظاهر عن الحق ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ وإنما لم يقل: ليست، لأنَّ معنى الضَّلالة الضلال ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف: ٦١].

فصل في الرُّسُل والرِّسالة

العرب تقول: أرسلت فلاناً في رسالة فهو مرسَل ورسُول. قال الجوهري: والرَّسول أيضاً الرِّسالة، قال كثيِّر: [من الطويل]

(١) «التبصرة» ١/ ٦٥.

لقَد كَذَبَ الوَاشُونَ ما بُحتُ عِندهم بِسِـرٍّ ولا راسَلْتُهم بِرَسُول[1]

ومن شرط الرَّسول أن يكون ذكراً، وقال بعض الناس: يجوز أن يكون أنثى، واحتجُّوا بأنَّ النَّبي ﷺ قال: «أربع نبيَّات بعثهنَّ الله: حوَّاء وأمُّ موسى وأمُّ عيسى وامرأةُ فرعون»[2].

ولعامَّة العلماء قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾[يوسف: ١٠٩].

ولأنَّ الرِّسالة تقتضي الاشتهار بالدَّعوة، والأنوثة توجب الستر، وبينهما تنافٍ لما عرف من نقصان المرأة.

ولا يجب قبول قول الرَّسول حتى يقيم الدَّليل على صدق دعواه.

وقالت الخوارج: يجوز قبل إظهار المعجزة ويجب قبول قوله، وذلك باطل، لأنه لا يقع الفرق بين الصَّادق والكاذب إلا بإظهار المعجزة التي هي خارجة عن قوى البشر.

فإن قيل: فلمَ أرسل الرّسل من جنسنا ولم يكونوا من الملائكة؟

فالجواب من وجوه: أحدها: لأنهم لو لم يكونوا من جنسنا لم يشفقوا علينا. والثاني: لأنَّا إذا أخطأنا شفعوا فينا. والثالث: لأنَّا إذا عرفنا نسبه وحسبه كان أبلغ في تصديقنا إيَّاه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾[التوبة: ١٢٨].

فأمَّا ما يتعلّق برسالة نبيِّنا ﷺ فسنذكره في سيرته إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى في سورة هود عليه السّلام: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾[هود: ٢٥] الآية، روى مجاهد عن ابن عباس قال: كانوا يضربونه حتَّى يغشى عليه، فيلفّ في لِبَد، فيرون أنه قد مات، ثم يقوم فيدعوهم إلى الله تعالى ويقول: اللهمَّ اهدهم وإلَّا فصَبِّرني.

وقال مقاتل: لبث يدعو قومه تسع مئة وخمسين سنة، قال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾[العنكبوت: ١٤] أي: أقام داعياً إلى الله.

---

(١) «الصحاح»: (رسل)، و«رواية الديوان» ص ٢٧٨: «بليلى ولا أرسلتهم برسيل»

(٢) لم نقف على من خرج هذا الخبر، وأورده القرطبي في «تفسيره» ٩/ ٢٧٤.

وذكر ابن سعد بإسناده عن ابن عباس قال: ولد نوح ولأبيه ثمانون سنة، فأقام يدعوهم إلى الله مئة وعشرين سنة، وركب في السَّفينة وهو ابن ست مئة سنة، ثم مكث بعد ذلك ثلاث مئة وخمسين سنة(١).

وروى الثعلبي عن مقاتل أنه قال: بُعث نوح بعد مئة سنة، وركب السفينة وهو ابن ست مئة سنة، وعاش ألفاً وخمسين سنة.

قلت: والأصحُّ أنّه أقام فيهم داعياً إلى الله تعالى ألف سنة إلّا خمسين عاماً، كما ذكر الله تعالى.

وقال مجاهد: لما طال عليه أمرهم، واشتدَّ تجبُّرهم، دعا عليهم وسأل الله إهلاكهم، فأوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وقال الرَّبيع: ما دعا عليهم إلّا بعد أن أيأسه الله من إيمانهم بهذه الآية، وهي قوله: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ والأنبياء لا يفعلون شيئاً إلّا بالوحي ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: آدميّاً ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[هود: ٢٧] أي: سفلتنا، قال ابن مسعود: قيل: إنهم الحاكة. فلمّا جادلوه وأطالوا الخطاب أخبره الله تعالى أنه مهلكهم. فقال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[هود: ٣٦] فحينئذ قال: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[هود: ٣٧] الآية. الفلك: السفينة.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ على أقوال:

أحدها: بمرأىً منَّا، قاله ابن عباس. والثاني: بمنظر منا(٢). قاله الضَّحاك. والثالث: بعلمنا، قاله مقاتل. والرابع: بحفظنا ووحينا، قاله الرّبيع(٣).

وقال ابن عباس: لم يكن يعلم كيف يصنعُ الفلك، فأوحى الله إليه أن اصنعها مثلَ

(١) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٠-٤١.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» ٨/ ٩٣، عند قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٣-١٤]

(٣) انظر «زاد المسير» ٤/ ١٠١.

جؤجؤ الطَّير[(١)].

وكان الله قد أمره بغرس السّاج فغرسه ثلاثين سنة حتى تمّ واستوى، وقيل: في أربعين سنة.

وقال الربيع: الشجرة التي عمل منها السفينة نبتت حين ولد نوح، فارتفع طولها ثلاث مئة ذراع.

واختلفوا: في كم صنعها؟

فقال عكرمة: في مئة سنة، قال: وكان جبريل يعلِّمه كيف يصنعها.

وعن ابن عباس: أنه بناها في سنتين، وقال سلمان الفارسي: في أربع مئة سنة، وهذا تفاوت بعيد. قالوا: والأظهر في سنتين، لأنه موافق لحاله. وفجَّر الله عين القار ولم تكن قبل ذلك[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[هود: ٣٧].

قال مجاهد: معناه لا تسألني العفو عن هؤلاء الذين كفروا من قومك ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بالطُّوفان. وقال ابن عباس: أُمر أن لا يشفع فيهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: وكان يصنع الفلك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: استهزؤوا به، وهو يقول: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[هود: ٣٨] إذا رأيتم العذاب.

واختلفوا في طولها وعرضها على أقوال:

أحدها: أنه كان طولها ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً، وارتفاعها في الهواء ثلاثة وثلاثون ذراعاً، رواه مجاهد عن ابن عباس[(٣)].

والثاني: أنه كان طولها ألف ذراع وعرضها ثلاث مئة وثلاثون. حكاه السُّدي عن أشياخه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٨٣٣)، والطبري في «تفسيره» ١٢/ ٣٤.

(٢) في عرائس المجالس ٥٧: وفجر الله له عين القار بجنب السفينة تغلي غلياناً حتى طلاها به.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٣٥، وفي «تاريخه» ١/ ١٨١ عن قتادة.

والرابع[1]: كان طولها ألفي ذراع، وعرضها ست مئة ذراع، ذكره جدي رحمه الله في «التبصرة»[2].

والقول الأوَّل حكاه كعب عن التَّوراة، وزاد فيه: أوحى الله إلى نوح أن اصنع الفلك وطوله ثلاث مئة ذراع، وارتفاعه ثلاثة وثلاثون ذراعاً وعرضه خمسون. وليكن بابها في عرضها، واركب أنت وامرأتك وبنوك وكنائنك، ومن كلِّ شيء من اللَّحم زوجان ذكر وأنثى، فإني مُنزل المطر على الأرض أربعين يوماً وليلة، فأُتلف كلَّ شيء على وجه الأرض، واعمل تابوتاً من عود الشمشار واجعل فيه جسد آدم، واحمل معك زاد سنة. ففعل نوح ذلك. وأرسل الله الطوفان على الأرض في سنة ست مئة من عمر نوح، في ستة عشر يوماً من الشهر الثاني، ولبث في الماء مئة وخمسين يوماً. ثم أرسل الله ريحاً فغشيت الأرض، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض وعيون القطر وميازيب السماء، واستقرّت السفينة في الشهر السّادس على جبل قردا. هذا نصُّ التوراة[3].

وذكر في التوراة: أنه جعلها ثلاث طبقات، فكان هو ومن معه من بني آدم في الطبقة العليا، وفي الوسطى الأنعام والدَّواب والطيور، وفي السفلى الوحوش والسباع والبهائم والهوام، وكانت مطبقة.

واختلفوا في عدد من ركب فيها على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا ثمانين رجلاً معهم أهلوهم، قاله ابن عباس.

والثاني: أربعين رجلاً وأربعين امرأة، قاله مقاتل.

والثالث: سبعين رجلاً ونوح وأولاده الثلاثة وكنائنه.

والرابع: كانوا ثمانين، وبنوه الثلاثة ونساؤهم، قاله ابن عباس.

والخامس: كانوا ثلاثين رجلاً، قاله ابن عباس أيضاً.

---

(١) كذا جاء في الأصول الخطية دون ذكر الثالث، وقد ذكر في طول السفينة وعرضها أقوال أخرى، انظر «البداية والنهاية» ١/ ١١٠.

(٢) «التبصرة» ١/ ٦٥، وانظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٨١-١٨٢.

(٣) النقل من «المعارف» ص ٢٢، وانظر «سفر التكوين» الإصحاح السادس والسابع.

والسادس: كانوا ثمانية، نوح وبنوه الثلاثة وامرأة نوح وكنائنه، قاله ابن جريج.

والسابع: كانوا سبعة، نوح وبنوه وكنائنه، قاله الأعمش.

والثامن: ثلاثة عشر، ذكره ابن إسحاق. وقد حكى جدي هذه الأقوال في «التبصرة»[١].

قلت: والأصح أنهم كانوا ثمانين.

واختلفوا من أي مكان ركبوا على أقوال:

أحدها: من مكان الكوفة، قاله ابن عباس، ومنه فار التَّنُّور.

والثاني: من الهند ومنه فار التَّنور، قاله ابن مسعود.

والثالث: من الشام من عين وردة، قاله مقاتل، وذكره جدي في «زاد المسير» و«التبصرة»، وقال: كانت منزلَ نوح عليه السّلام، يعني عين وردة[٢].

وذكره أيضاً أبو الحسين محمد بن عبد الله الرّازي فيما حكاه عنه الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» قال: إنَّ دمشق كانت دار نوح، ومنشأ السفينة من خشب لبنان، وأنه ركب فيها من عين الجرِّ في البقاع ببلد بعلبك، وهو وادٍ بين جبلي لبنان وسنير. قال: وإنّ الماء فار من تنّور خلف حائط الحصن الداخل من مدينة دمشق من ناحية باب جَيْرُون على طريق باب الفراديس[٣].

قلت: ولم ينقل هذا غير أبي الحسين الرّازي، فإنّ الحافظ نقل عنه أنه قال: قرأته في كتاب «أخبار الأوائل». والظاهر أن نوحاً كان مقيماً بأرض بابل، ومن ثَمَّ ركب في السَّفينة، لما نذكر.

وقال مجاهد: بنى السفينة على الجبل الذي أهبط عليه آدم بالهند، ويقال له: بوذ وواشم، ومنه ركب في السفينة، فصار قولاً رابعاً.

واختلفوا في المراد بالتَّنُّور على أقوال:

---

(١) «التبصرة» ١/ ٦٦، و«زاد المسير» ٤/ ١٠٦ـ١٠٧، وانظر «تاريخ الطبري» ١/ ١٨٧ـ١٨٩.

(٢) «زاد المسير» ٤/ ١٠٥ـ١٠٦، و«التبصرة» ١/ ٦٦.

(٣) «تاريخ دمشق» ٦٢/ ٢٤١.

أحدها: أنّه تنُّور أهله، كانت امرأته تخبز فيه وهو في منزله في زاوية مسجد الكوفة، واسم امرأته وردة، وقيل: واغلة، فنبع الماء ويدها في الخبز، قاله زرّ بن حبيش[١].

والثاني: أنّ المراد بالتَّنُّور وجه الأرض، قال ابن عباس: قيل له: إذا رأيت الماء قد علا على وجه الأرض فاركب[٢].

والثالث: أنه تنور[٣] الصبح، قاله عليٌّ عليه السّلام.

والرابع: تنور الشمس، وروي عن علي أيضاً[٤].

وقال الجوهري: التنُّور الذي يخبز فيه قال: وقوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قال علي عليه السلام: هو وجه الأرض[٥]. هذه صورة ما ذكره الجوهري.

وقال ابن عباس: لما فار التنُّور دار الماءُ حوله وامتدَّ، فصار حول الأرض كالإكليل، فأقبلت الوحوش تطلب قلل الجبال، فنادى نوح: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١].

وقال الضحاك: كان إذا أراد أن يرسو قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ فرسَت، وإذا أراد أن تجري قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ فجرت. قال الزَّجاج: والفوران: الغليان. وسمِّي طوفاناً لأنه طفا فوق كلِّ شيء، أي: علاه.

وقال الهيثم بن عدي: حمل معه تابوت آدم معترضاً بين الرجال والنساء.

وقال أبو العالية: جاءه إبليس فتعلَّق بكَوْثَلها فقال له نوح: ويحك قد غرق الناس من أجلك. قال: فما تأمرني؟ قال: تُب إلى ربِّك. فقال: اسأله هل لي من توبة؟ فسأل الله فقال: نعم، يسجد لآدم، فأخبره فقال: ما سجدت له وهو صاحب المملكة، أسجد له وهو كف من تراب؟! فقال له نوح: لا أحملك معي، اذهب. فأوحى الله إليه

---

(١) انظر «تفسير الطبري» ١٢/ ٣٩.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٣٨، والضمير عائد على نوح عليه السلام.

(٣) كذا في النسخ والتبصرة ١/ ٦٥، وفي «تفسير» الطبري ١٢/ ٣٨: تنوير.

(٤) «زاد المسير» ٤/ ١٠٥، و«التبصرة» ١/ ٦٥-٦٦.

(٥) «الصحاح»: (تنر).

دعه فإنَّه من المنظرين[١].

وقال مجاهد: آخر من دخلها الحمار، فتعلَّق بذنَبِه إبليس فمنعه نوح من الرُّكوب فيها، وقال: علِّمني خصالاً أحترس بها منك، قال: إيَّاك والكِبر فإني ما وقعتُ فيما وقعت إلا به، وإيَّاك والحسد فإني حسدتُ آدم فهلكت، وإيَّاك والطمع فإنَّه هو الذي أوقع آدم فيما أوقعه، وإيَّاك والعجلة فإنها هي التي أحوجتك إلى الدُّعاء على قومك حتى هلكوا[٢].

وقال ابن عباس: أراد بقوله: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى حفظاً للنَّسل ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي ولدك وعيالك ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[هود: ٤٠] وهم الذين ركبوا معه السفينة. ومعنى اثنين على التأكيد، ولأنه لا يستغني أحدهما عن الآخر.

قال ابن عباس: أوَّل ما حمل نوح معه الذَّرَّة[٣]، وآخر ما حمل معه الحمار، فلمَّا دخل تعلَّق إبليس بذنبه فلم تستقل رجلاه وصدره في السَّفينة، فصاح نوح: ويحك ادخل وهو لا يقدر، فقال: أدخل، ولو كان معك الشيطان ـ كلمة زلَّت عن لسانه ـ فلمَّا قالها خلَّى الشيطان سبيل الحمار فدخل، ودخل معه إبليس، فقال له نوح: اخرج يا عدوَّ الله، فقال: ألم تقل ادخل وإن كان معك الشيطان؟ لابدَّ لك من حملي معك. وكانوا يزعمون أنه في ظهر الفلك[٤].

وقال الثعلبي: وذكر مالك بن سليمان الهروي في «تفسيره» أن الحيَّة والعقرب أتيا نوحاً عليه السلام وقالتا، احملنا، فقال: أنتما سبب الضرر والبلاء والأوجاع، فلا أحملكما، قالتا: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذَكرك، فمن قرأ حين خاف مضرَّتهما ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٩﴾[الصَّافات: ٧٩] لم يضرَّاه[٥].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ٦٢/ ٢٥٩. وأخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٤١ عن أنس. الكوثل: مؤخر السفينة.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٦٦٥ (مخطوط) عن وهب بن منبه مطولاً.

(٣) الذَّر: النمل الأحمر الصغير، واحدته ذرة. «حياة الحيوان» للدميري ١/ ٣٥٦.

(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٨٤.

(٥) انظر «عرائس المجالس» ٥٨.

قال ابن عبّاس: لما ركب في السَّفينة لعشر مضين من رجب، وخرج منها يوم عاشوراء، قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾[القمر: ١١ـ١٢] ارتفع الماء على رؤوس الجبال العالية أربعين ذراعاً، فهلك من كان على وجه الأرض من ذي روح وشجر وغير ذلك، ولم يبق سوى من في السَّفينة. قال كعب: قرأت في التَّوراة أنَّه هلك جميع العالم إلا عوج ابن عناق، وعناق بنت آدم، فإنه لم يبلغ الماء إلى ركبتيه، وعاش إلى زمان موسى[(١)] وسنذكره.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ أنَّه قال: «لما فَارَ التَّنُّورُ خشيَت أمُّ الصَّبيِّ على ابنِهَا فَصعِدت به الجَبلَ، فلمَّا لحِقَها الماءُ جَعلَته على رقَبتِها، فَبلغَ الماءُ رقَبتَها، فَجعلَتهُ على رأسِها فَرفَعت يَديها بِهِ، فذَهَبَ بِهَا الماءُ. فلو رَحِمَ اللهُ أحداً لرحِمَ أُمَّ الصَّبيِّ»[(٢)].

فإن قيل: فما ذنب البهائم والطُّيور؟ فالجواب ما ذكره مقاتل قال: حضرت آجالهم فأُميتوا بالغرق[(٣)].

وقال السُّديُّ: كثرت أرواث الدَّوابِّ في السَّفينة فأوحي إلى نوح: اغمز ذنب الفيل فغمزه، فخرج منه خنزير وخنزيرة، فأكلا الأرواث. ونظر إلى فأر يقرض جوانب السَّفينة فأوحى الله إليه اضرب بين جبهتي الأسد، فضرب فخرج منه سِنَّور وسِنَّورة فأكلا الفأر[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٨٥، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٦٦: كيف يزعم بعض المفسرين أن عوج كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى . . . إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

(٢) عرائس المجالس ٥٨، أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٢/ ٣٤٢ـ٥٤٧، قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٦٦: وهذا حديث غريب وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة، وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً متلقًى عن مثل كعب الأحبار، والله أعلم.

(٣) انظر «زاد المسير» ٤/ ١١٣.

(٤) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ١٨١، وانظر «عرائس المجالس» ٦٠، وقال ابن كثير ١/ ٢٧٠: وهذا أثر غريب جداً.

وقال ابن الكلبي، قال نوح: يا ربِّ كيف أجمع بين الشاء والأسد؟ فقال الله: أنا أنزع العداوة من بين البهائم(١).

وقال ابن عباس: ما أهلك الله قوم نوح إلا بطغيانهم، أقام ينذرهم زماناً فمضت عليه قرون، فما كان يأتي عليه قرن إلا وهو أخبث من الآخر، حتى إنَّ الأخير منهم ليأتي إلى نوح بولده فيقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا مجنوناً، فإيَّاك أن تتبعه، ثم يبصق في وجهه ويضربه(٢).

وقال مالك بن أنس الفقيه: كان الرَّجل في زمان نوح ينتسب إلى خمسة عشر جدّاً كلهم أحياء(٣).

وقال مجاهد: كانوا يمرُّون عليه وهو يعمل السَّفينة فيقولون: يا سكن، صرت نجَّاراً بعد النبوَّة، وهو يدعوهم إلى الله تعالى فيضربونه فيدعو عليهم، فأعقم الله أرحام نسائهم فلم يولد لهم ولد مدَّة سنين(٤)، قال: وكان التنُّور من حجارة يُخبز فيه لآدم، فكانوا يتوارثونه، وكان في دار نوح، فأوحى الله إليه قد جعلت فورانه عَلَماً على هلاكهم(٥).

فإن قيل: فلم أهلكهم بالغرق؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنهم لما رأوه يعمل السَّفينة استهزؤوا به، وقالوا: تزعم أنك تسلمُ ونحن نغرق؟! وضربوه ضرباً مبرحاً، فأغرقهم الله.

والثاني: لأنَّ عذاب الله مختلف على ما يشاء، وذلك أبلغ في العظة من أن يهلكوا بنوع واحد، فتارة بالغرق وتارة بالرِّيح، وتارة بالخسف والزلازل، وذلك أبلغ في القدرة.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي: في مكان منقطع عن دين أبيه ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ٥٨.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٣٦ عن عبيد بن عمير الليثي.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٤٤.

(٤) في (ب): ستين سنة.

(٥) انظر «تفسير البغوي» ٦١٩، و«زاد المسير» ٤/ ١٠٥.

[هود: ٤٢] أي يمنعني ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[هود: ٤٣] الآية. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾[هود: ٤٥] وقد وعدتني نجاتي وأهلي. واختلفوا في اسمه: فقال ابن عباس: كنعان، وقال عبيد بن عمير: يام، وكان كافراً[١]، وليس له في التَّوراة ذكر، وكان ينافق بإظهار الإيمان، ولم يعلم نوح بذلك، فقال له الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٢] أي: معرفة ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[هود: ٤٦].

قرأت على شيخنا: الموفَّق الحنبلي بإسناده عن عبد الرَّزاق، عن وُهيب بن الورد قال: لما عاتب الله نوحاً في ابنه وأنزل عليه ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بكى ثلاث مئة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجداول من البكاء[٣].

واختلفوا في ابن نوح؛ فقال بعضهم: كان ولدَ خُبثَة، أي: لزنية من غيره ولم يعلم نوح بذلك، فأخبره الله تعالى أنَّه ليس من أهله، أي: ولده، وبه قال الحسن ومجاهد[٤].

وقال قتادة: سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه قط، ثم قرأ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فقلت: فإن الله حكى عنه أنَّه قال: إنَّ ابني من أهلي، وقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ وأنت تقول: لم يكن ابنه!؟ وأهل الكتابين لا يختلفون أنَّه ابنه، فقال الحسن: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب؟ إنهم يكذبون[٥].

وقال عبيد بن عمير: نرى أنَّ رسول الله ﷺ إنَّما قضى الولد للفراش من أجل ابن نوح[٦].

وقال جعفر الصَّادق[٧]: كان ابن امرأته، واحتجَّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ولم يقل

---

(١) انظر «تفسير البغوي» ٦٢٠، و«زاد المسير» ٤/ ١٠٩.

(٢) في (ب): إنه عمل عملاً غير صالح. اهـ. وهذه قراءة عكرمة، انظر «تفسير الطبري» ١٢/ ٥١.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «التبصرة» ١/ ٦٧-٦٨، وانظر «التوابين» ٣٨.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٤٩، وانظر «زاد المسير» ٤/ ١١٣.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٥٠.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٥٠.

(٧) في «تفسير البغوي» ٦٢١: قال أبو جعفر الباقر.

منِّي. وعامَّة العلماء على أنه ابنه لصلبه صيانة لنوح، وحملوا قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ إمَّا على معنى أنَّه ليس من أهل دينه، وإمَّا على معنى ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم[١].

قالوا: وما بغت امرأة نبيٍّ قط، وإنما كان خيانة امرأة نوح ولوط في الدِّين لا في الفراش، لأنَّ امرأة نوح كانت تقول للنَّاس إنَّه مجنون، وامرأة لوط تدلُّهم على الأضياف، وهذا قول ابن عباس وعكرمة وابن المسيِّب وابن جبير ومجاهد والضَّحَّاك[٢]؛ فحينئذ قال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] الآية.

وقال ابن عباس: لما انقضت ستّة أشهر قيل: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾[هود: ٤٤] ومعنى ﴿ٱبۡلَعِي﴾ أي: اشربي وانشفي، ﴿وأقلعي﴾: أمسكي ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ نقص وذهب ونضب.

وقال مقاتل: ابتلعت الأرض ما نبع منها وصار ما نزل من السَّماء هذه البحور الذين ترون في الأرض.

والأصحُّ أنَّ البحور خلقت مع خلق الأرض. وأهل الهند يقولون: ما نعرف الطُّوفان ولا وصل إلينا.

وقال كعب: وفي التوراة لما نضب الماء كشف نوح غطاء السفينة فرأى وجه الأرض قد يبس، فعلم أنَّ العذاب قد رفع، فبعث الغراب فوقع على جيفةٍ فأبطأ عليه فلعنه، فبعث الحمامة فعادت مسرعة والطِّين في رجليها، فدعا لها فطوَّقها الله الطَّوق[٣].

وقال وهب: إنَّ بعض الأرض لم تسرع إلى بلع مائها لما قيل ابلعي ماءك، وبعضها أسرع، فالتي أسرعت صار ماؤها عذباً إذا حُفر، والتي أبطأت صار ماؤها مرّاً.

---

(١) انظر «زاد المسير» ٤/ ١١٣.

(٢) أخرج هذه الأخبار الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٥١.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ١٨١-١٨٢.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: أنَّ الماء نزل من السَّماء من المجرة.

وقال ابن عباس: في «التوراة» مكتوب: يقول الله ـ أو قال الله ـ لا أعيد الطُّوفان على الأرض أبداً[١].

وأهل الرَّصد يزعمون أن الكواكب بأسرها اجتمعت في برج السرطان، فأَثَّرت الغرق وقضي الأمر بهلاك القوم.

﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾[هود: ٤٤] يعني: السفينة ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾[هود: ٤٤] أي: استقرَّت ورست، والجودي: جبل بأرض قَرْدَى بناحية الموصل. فنزلوا هناك بإجماع المفسِّرين وبنوا قريةً سمُّوها: ثمانين على عددهم، والقرية باقية إلى هلمَّ جرًّا، وتسمَّى: سوق ثمانين، نزل كل واحد في بيت منها[٢].

وقال ابن قتيبة: في التوراة: إنَّ الله قال لنوح: إنَّ آية ميثاقي الذي أواثقكم به أن لا أفسد الأرض بالطُّوفان، فإذا رأيتم قوسي الذي في الغمام فاذكروا ميثاقي[٣].

وقال مجاهد: طافت السفينة الدنيا وجاءت إلى الحرم فلم تدخله بل طافت به أسبوعاً، وكان البيت قد رفع إلى السَّماء[٤].

وقال مقاتل: لم يرفع، وإنما جاء جبريل فأخذ الركن والمقام فأودعهما في جبل أبي قبيس، وخرب البيت فبقي موضعه ربوة حمراء.

واختلفوا: هل صاموا عاشوراء في السَّفينة أم على الأرض؟ على قولين. وذكر وهب بن منبِّه وابن قتيبة في «المعارف» أنَّ نوحاً صام شهر رمضان في السَّفينة، وهو أوَّل من صامه[٥].

وقال مجاهد: بين الطُّوفان وآدم ألفا سنة ومئتان واثنتان وأربعون سنة.

---

(١) سفر التكوين الإصحاح ٩ الفقرة ١١.
(٢) انظر «المنتظم» ١/ ٢٤٢.
(٣) «المعارف» ص ٢٣.
(٤) انظر «تاريخ دمشق» ٦٢/ ٢٤٦.
(٥) «المعارف» ص ٢٤.

وفي «التوراة»: إنَّ نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاث مئة سنة[١].

وقال مقاتل: ودخل نوح الشام وبنى حرَّان ودمشق وغيرهما.

فصل في ذكر وفاته

قال وهب: ولما انقضى الطُّوفان ومضت ثلاثة قرون ودخل القرن الرَّابع، احتضر نوح، فعهد إلى ابنه سام وأوصاه بالنُّور الذي انتقل إليه.

واختلفوا في موضع وفاته على أقوال:

أحدها: أنَّه توفي بثمانين القرية التي أرست السفينة عليها في أزج في الجودي. حكاه هارون بن المأمون.

والثاني: بالهند على جبل بوذ، قاله ابن إسحاق.

والثالث: بمكَّة، قاله عبد الرحمن بن ساباط. وقبر نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والركن والمقام.

والرَّابع: ببابل. وببلد بعلبك في البقاع قرية يقال لها الكَرْك فيها قبر يقال إنَّه قبره، وقريب من الكَرْك جبل يقال له: جبل الدَّير في سفحه قرية يقال لها: بوارش، يقال: إن كنعان قال ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: ٤٣] إنه ذاك الجبل.

وذكر جدي في كتاب «أعمار الأعيان» وقال: عاش نوح ألف سنة وأربع مئة وخمسين سنة[٢].

وقيل: ألف سنة، وقيل: ألفاً وثلاث مئة سنة.

فصل في ذكر أولاده

قد ذكرنا أنه كان معه في السفينة ثلاثة: سام وحام ويافث.

وقال ابن الكلبي: كان له ابن اسمه يونان، واليونان من نسله.

وكان نوح قد نقم على حام، فحكى ابن الكلبي: أن حام بن نوح أصاب امرأته في

---

(١) سفر التكوين الإصحاح ٩ الفقرة ٢٨، وانظر «المعارف» ص ٢٤.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٢٨، وما بين معقوفين زيادة منه.

السَّفينة، فدعا عليه نوح بتغيير النطفة فجاء بالسُّودان.

وقال وهب: نام نوح فانكشفت عورته فرآه حام فلم يغطّها، ورآه سام فغطّاها، فلمّا علم نوح دعا على حام فاسودَّ لونه، ودعا عليه بأن يجعل أولاده عبيداً لأخويه(١).

وقال وهب: في «التوراة» إنَّ نوحاً لمّا خرج من السَّفينة غرس كرماً ثم اعتصر منه خمراً وشربه، فانتشى وتعرَّى في جوف قبَّة، فأبصر حام عورته، فأطلع على ذلك أخويه سام ويافث، فأخذا رداءيهما وألقياه على عورة أبيهما، فأفاق نوح من نشوته، وعلم ما فعلوا، فقال: حام وأولاده عبيد لأخويه، ومبارك سام، ويكثر الله من يافث وذريَّته، فاستجاب الله له(٢).

وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] أن قابيل غرق أولادُه، وهابيل لم يكن له نسل، وإنَّما النَّسل لهؤلاء الثَّلاثة أولاد نوح.

وقال ابن الكلبي: أقاموا بالجوديِّ وباقردى والجزيرة فتناسلوا وكثروا، فضاقت الجزيرة بهم، فنزلوا أرض بابل وامتدُّوا مقدار اثني عشر فرسخاً في مثلها، وكانت مدينة بابل عظيمة تمتدُّ إلى داوَرْدان حتى صاروا في ثلاث مئة ألف(٣).

قال ابن عباس: فسام أبو العرب كلها، ومنه الأنبياء ونبيّنا ﷺ، وحام أبو السودان والقبط والبربر، ويافث أبو الترك والرّوم ويأجوج ومأجوج والصّقالبة، وقد رواه سمرة ابن جندب مرفوعاً(٤).

وقال هشام بن الكلبي: أقاموا ببابل فبلبَل الله ألسنتهم على اثنين وسبعين لساناً، فنزل سام سرَّةَ الأرض، حرم مكة وما حوله إلى حَضْرَموت وعُمان ثم إلى عالِج ويَبْرين.

وقال ابن سعد: حدثنا هشام بن محمد عن أبيه قال: نزل بنو سام المجدل سرَّة الدنيا، وهو ما بين ساتي دَما إلى البحر، وما بين اليمن إلى الشام - يعني جزيرة العرب -

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٠٢ عن ابن إسحاق، عن أهل التوراة، وانظر «المنتظم» ١/ ٢٤٧.

(٢) سفر التكوين ٩/ ٢٠-٢٧، وانظر «المعارف» ص ٢٥.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٤٣.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٠٩٩) ولفظه: «سامُ أبو العرب، وحامُ أبو الحبش، ويافثُ أبو الروم» وإسناده ضعيف.

وجعل الله النبوّة والكتاب والجمال والبياض فيهم، ونزل بنو حام مجرى الجنوب، ويقال لتلك النَّاحية: الدَّاروم، وجعل الله فيهم الأدمة، ورفع عنهم الطّاعون، وجعل في أرضهم النَّخل والأَثْل والأراك. ونزل بنو يافث الصفون مجرى الشمال والصبا، وجعل الله فيهم الحمرة والشقرة، وليس فوقهم من النجوم السّبعة السيّارة شيء لأنهم صاروا تحت بنات نعش والجدي والفرقدين، وابتلوا بالطَّاعون[1].

وحكى الخطيب عن ابن عبّاس قال: عاش سام بن نوح ست مئة سنة منها أربع مئة في حياة أبيه، ومئتان بعده.

فصل في ولد سام

واختلفوا فيهم: فقال هشام بن محمد عن أبيه: هم عمليق وأميم ولوذ وعَوْص وإرم وجابر وأرفخشذ، وفي فارس خلاف نذكره في الفرس. قال: أَلهم الله هؤلاء العربية وأولادهم فتكلَّموا بها، فمن أولادهم طسم بن لوذ بن سام بن نوح، وعبيل وعاد ابنا عَوْص بن سام، وثمود وجديس ابنا جابر بن سام وقنطور بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام. قال: فأمّا عاد وعبيل ابنا عَوْص بن سام فنزلت الشِّحْر وفيه لغتان، وهو ساحل البحر بين عدن وعمان، وقيل: نزلت عبيل يثرب مدينة رسول الله ﷺ[2].

وقال الجوهري: نزلت العمالقة والعماليق صنعاء وما حولها قبل أن تبنى، قال: والعماليق من ولد عملاق ـ أو عمليق ـ بن لوذ بن إرم بن سام بن نوح، وهم أمم تفرَّقوا في البلاد[3].

كذا ذكر الجوهري: أنه عمليق بن لوذ، وابن الكلبي يقول: عمليق ولد سام لصلبه.

وقال الهيثم بن عدي: ونزلت طائفة من العمالقة بالبحرين وعمان، وطائفة نزلوا الشام، والذين نزلوا الشام يقال لهم الكنعانيون، وكانوا يعبدون الأصنام، وفرعون موسى من الذين نزلوا مصر، وكان سيّدهم بكر بن معاوية الذي نزل عليه، وقَيْل عاد بمكَّة. ونزلت طائفة منهم بالمدينة يقال لهم: بنو مطر وبنو الأزرق، وملكهم يقال له

(١) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٤.

(٢) انظر مروج الذهب ١/ ٧٧ـ٧٨.

(٣) «الصحاح»: (عملق).

الأرقم، وكان يسكن حصن تَيماء إلى نواحي فَدَك ويثرب والبحر. قال هشام: ونزلت ثمود الحجر، واختلفوا في ثمود، قال هشام: ثمود هو جابر بن سام.

وقال غيره: هو ابن جابر بن سام.

وقال غيره: ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح.

قال هشام: ثم تحولت طائفة من العمالقة إلى مكان يثرب، وبعضهم إلى مكّة، ويثرب اسم رجل منهم. وأقامت عاد بالشِّحْر فهلكت بالريح العقيم، لما نذكر، وجاءت طائفة منهم إلى الجُحفة، وقيل: نزلت طائفة منهم يثرب، فأَخرجوا من كان بها فأنزلوهم الجحفة، فجاء سيل وذهب بهم فاجتحفهم، فسميت الجُحْفَة.

قال: ولحقت طَسْم وجَدِيس باليمامة، وتيامنت بنو قنطور بن عابر إلى اليمن، فسمِّيت اليمن، وقيل: بنو يقطن. ولحق قوم من بني أَميم بأرض أُبار، وهي بين الشِّحْر واليمامة، فأهلكتهم الجن وسنذكرهم. وأُبَار هو ابن أميم.

وقال ابن الكلبي: يقطن هو قحطان بن غابر بن شالخ بن أَرْفَخشَذ بن سام بن نوح.

وحكى البلاذُري عن ابن الكلبي قال: إن العرب العاربة هم عاد وعَبيل ابنا عَوْص ابن إِرم بن سام بن نوح، وثمود وجَدِيس ابنا غاثار بن إرم بن سام بن نوح، وطَسْم وعِمليق وجاسم وأميم بنو يلمع بن غابر بن اشليخا بن لوذ بن سام بن نوح، وحَضْرَموت وشالاف ـ وهو السلف ـ والمرداذ بنو يقطن أبو يقطان بن غابر بن شالخ ابن أَرْفَخْشذ بن سام بن نوح. والسَّلف بن حمير بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعرب بن قحطان.

وقال البلاذُري عن ابن الكلبي أنه قال: وفي حديث مالك بن يخامر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العربُ كلُّها من بني إسماعيلَ إلَّا أربعة قبائل: السَّلفُ والأرواحُ وثقيف وحَضْرَمَوت».

وقال البلاذُري: قد اختلف الناس في قحطان، فقال قوم: هو يقطان المذكور في «التوراة»، وإنما العرب عرَّبته فقالت: قحطان ـ بالحاء ـ، ويقال: هو قحطان بن هود، وقيل: ابن السَّمَيْفَع[1].

(١) أنساب الأشراف ١/ ٥ـ٦.

وقال أبو حنيفة الدِّينوَري: هو قحطان بن عابر، وإنما سمِّي قحطان لقحطه[١]، وسنذكره في موضعه.

قلت: ولاختلاف النسَّابة في هذه الأسامي وما يشاكلها مما سيأتي ذكره، قال النبي ﷺ: «لا تُجاوِزُوا عَدنَانَ، كذَبَ النَّسَّابونَ»[٢].

وقال الشعبي: إرم وأَرْفَخْشَذ من ولد سام بن نوح، ومن نسل سام الأنبياء والرُّسل والعرب كلها. قال: وفي زمان نمرود بَلبَلَ الله الألسن ببابل، فجعل في ولد سام تسعة عشر لساناً، وفي ولد حام سبعة عشر لساناً، وفي ولد يافث ستة وثلاثين لساناً، قال: ونمرود اسمه كوش بن إرم بن سام بن نوح، نزل أرض بابل لما نذكر.

فصل في حام وولده

قال الكلبي: وهو أوسط ولد نوح، نزل مجرى الجنوب فاسودَّت ألوان بنيه لكثرة الحرِّ بها، كما نزل بنو يافث مجرى الشمال فابيضَّت ألوانهم واشتدَّت لكثرة البرد بها.

وقال وهب: كان حام من أحسن الناس، أبيض اللَّون، فلمَّا دعا عليه أبوه غيَّر الله لونه وألوان بنيه.

وقال جالينوس: نزلوا ساحل البحر فكان طعامهم السَّمك، فحدَّدوا أسنانهم حتى تركوها مثل الإبر لأنَّ السَّمك كان يلتصق بها.

قال وهب: ثم تفرَّقوا في البلاد، وولد حام: كوش بن حام، وكنعان بن حام، وقوط بن حام، فنزل قوط الهند والسِّند فولد هناك.

وقال أبو حنيفة الدِّينوَري: كان أولاد حام سبعة إخوة كأولاد سام: السِّند والهند والزِّنج والقبط والحبش والنوبة وكنعان، فأخذوا ما بين الجنوب والدَّبور والصَّبا[٣].

وذكر جالينوس في كتاب «عجائب أولاد حام» فقال: اجتمعت في الأَسْود عشر خصال: تفلفل الشَّعر، وخفَّة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحدُّد الأسنان، ونتن الجلد، وتشقق اليدين والرجلين، وطول الذكر، وكثرة الطرب.

---

(١) الأخبار الطوال ص٥.

(٢) تقدم تخريجه في الفصل الأول في معرفة التاريخ.

(٣) «الأخبار الطوال» ص ٢، وانظر المعارف ٢٦.

قال: وإنما غَلب عليهم الطرب لفساد أدمغتهم وضعفها، ولهم من الكواكب زحل.

وكان طاووس اليماني لا يأكل ذبيحة الزِّنجي ويقول: هو عبد مشوَّه الخلق.

قلت: وهذا محمول على أنه كان مجوسياً، أمَّا إذا كان مسلماً فإنَّه لا يضرّه سواده.

وقال الهيثم بن عدي: تفرَّق بنو حام في الأرض، فصار ولد كوش بن كنعان بن حام إلى المغرب، فقطعوا نيل مصر، ثم افترقوا يمنة ويسرة، وهم أنواع كثيرة: النوبة والبُجاة والزَّغاوة والكانم ومركة وغانة وكوكو والدمادم والأحابيش والبربر والزيلع[1].

وفي أرضهم الزرافة، قال قوم: نتجت بين الجمل والنمر، وقال قوم: بل هي نوع من الحيوان قائم بذاته، واحتجوا بأنها توجد في أرض لا جمل بها، وذكر الجوهري ما يدلُّ على أنها مولَّدة فقال: الزّرافة ـ بالفتح والضمّ مخففة الفاء ـ دابة، يقال لها بالفارسيّة: «اشتُرُكاو يَلَنْك»[2] وأشتر: هو الجمل.

وذكر الشرقي بن قطامي: أن ملك الزنج يركب في ثلاث مئة ألف فارس، وكذا ملك النُّوبة، وليس عندهم ثلج ولا برد، قال: وفيهم ناس يأكل بعضهم بعضاً، ومساكنهم في أعلى الخليج الذي يتشعَّب من نيل مصر قريباً من البحر الحبشي إلى بلد الواقواق وسُفالَة، ومقدار مسافة بلادهم سبع مئة فرسخ طولاً وعرضاً، وعندهم الفيلة، كثيرة إلا أنَّ الزنج لا يستعملونها في الحرب ولا في غيرها، ويقتلونها ليأخذوا أنيابها، ومقدار كل ناب فيل خمسون ومئة منٍّ، ويعمِّر الفيل بأرض الزنج أربع مئة سنة، ويحملها التجار إلى عُمان والبحرين.

قال: وفي بلادهم الحيوان المعروف بالزبرق أصغر من الفهد، وهو أحمر، له زغب وعينان برّاقتان، يثب خمسين ذراعاً، ويبول على الفيلة وبني آدم فيحرقهم، وإذا رآه آدمي هرب منه فصعد شجرة فيثب حتَّى يصير عنده، وإن لم يصل إليه وضع رأسه في الأرض وصاح صياحاً عجيباً، فيخرج من فِيْه قطعة دم ويموت من ساعته، وإن وصل بوله إلى شجرة أحرقها. وهذا الحيوان مشهور عند الزنج والهند، وهو في مشارق الهند أكثر من الزنج.

---

(١) في (ل) و(ب): والزغاوة والعافور ومترك وعانة وكركر والدمادم والأحباش والبربر والزيلع. والمثبت من (ط).

(٢) «الصحاح»: (زرف)، وانظر «المعجم الذهبي» ص ٦٩ وص ١٦١.

وحكى من شاهد من وصل بوله إلى وجهه وفيه آثار الحريق كأنه جدري، فسئل عنه فقال: قصدني فصعدت شجرة ارتفاعها خمسون ذراعاً، فبال من الأرض فأصاب بوله بعض وجهي، فهذا أثره.

وهذا الحيوان يهرب من الكَرْكدن كما يهرب منه الفيل، والفيل يهرب من السِّنور.

وقال الجاحظ: وملك الزنج يسمَّى: فليمين[1]، ومعناه ابن الرَّبِّ الأكبر. وقيل: إنما يسمُّون الرَّبَّ الأكبر مكلنجو، وهو الأعظم عندهم. ومتى ظلم ملكهم أو تعدَّى حدّاً قتلوه وأقاموا غيره، لأنهم يقولون: ما أقامه الربُّ الأكبر إلا ليقيم العدل، فإذا جار لم يكن ابنَ الرَّب، ويحرمون أولاده المُلْك.

وقال الهيثم بن عدي: ومن أولاد حام النُّوبة ومنازلهم على نيل مصر متَّصلة بديار القبط من أرض الصَّعيد ومدينتهم يقال لها: دُنْقُلَة، هي دار الملك. والبَجَاة منازلهم بين القُلْزُم وأعلى الصَّعيد، وعندهم معادن الذهب والفضَّة وغيرها، ويغيرون على النجائب فيسبون ويقتلون.

ومن أولاد حام الحبشة وملكهم النجاشي، ومدينته يقال لها: كعبر، وهي مملكة واسعة متصلة ببلاد المشرق في مقابلة اليمن، وجزيرة الدَّهْلَك مجاورتهم، وفيها جماعة من المسلمين تحت الذِّمة. وبين ساحل الحبشة وساحل زَبِيْد ثلاثة أيام، ومن هذا المكان عبرت الحبشة إلى اليمن في المراكب حين ملكوا اليمن أيام أصحاب الأخدود، وهو أضيق مكان في البحر، ومنه عبر جعفر بن أبي طالب والمسلمون، وقيل: إنما ركب المسلمون من جدَّة إلى الحبشة. وفي ساحل بحر الحبشة عند المعبر مدينة كبيرة للحبشة يقال لها: غلافقة[2] منها تقع التعدية إلى اليمن.

فصل في يافث وأولاده

وكان يافث أصغر ولد نوح، وذكر أبو حنيفة الدِّينوري في «الأخبار الطّوال» وقال: كان أولاد يافث سبعة إخوة مثل أولاد سام وحام، وهم: ترك وخزر وصقلاب وتاريس ومنسك وكماري والصِّين، فأخذوا ما بين المشرق والشمال[3].

---

(١) في (ب): «فيلمن»، وانظر مروج الذهب ٣/ ٥ـ٦، ١١ـ١٣، ٢٩ـ٣١.

(٢) في (ب) و(ل): أولاقفة، والمثبت من مروج الذهب ٣/ ٣٤.

(٣) «الأخبار الطوال» ص ٢.

وقال وهب: ومن ولده الروم والفرنج واللّان والجلالقة والإسبان ويأجوج ومأجوج. وكل من كان بناحية الشمال.

وقال: والجلالقة أشدُّ هذه الأجناس بأساً، وأمنعهم جانباً، وأوسعهم ملكاً، وسنذكرهم.

فصل في أعمار أولاد نوح

ذكر جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان» وقال: عاش سام خمس مئة وثمانياً وتسعين سنة[١]. وغيره يقول ست مئة ونيفاً. وعاش حام سبع مئة سنة. وعاش يافث تسع مئة سنة.

وقال أبو حنيفة الدِّينَوَري: كان سام متولي أمر ولد نوح من بعده وكان يشتي بأرض العراق بمكان يقال له: جُوخى، ويصيف بأرض الجزيرة والمَوصل، وكان طريقه على الموضع الذي فيه سامُرَّاء في شرقي دجلة، فكان ينزله ويعجبه، فقيل: سام رأى، أي: رأى هذا المكان فأعجبه. وسام هو الذي تسمِّيه الفرس إيران شهر[٢].

فصل في ذكر أَرْفَخْشَذ

ولما احتضر سام بن نوح أوصى إلى ولده أَرْفَخْشَذ، وأخبره بالنور الذي أودعه فيه فسار بسيرة أبيه.

قال جدي في «أعمار الأعيان»: وعاش أربع مئة وخمساً وستين سنة[٣].

فصل في شالِخ

ولما احتضر أَرْفَخْشَذ أوصى إلى شالخ، وأخبره بالنور فأقام أربع مئة سنة وثلاثين ثم توفي.

فصل

وقام بعده ابنه عابر، يسمَّى: عامر الأرض، لأنه قسمها بين ولد نوح، وانتقل النور

(١) «أعمار الأعيان» ص ١٢٤.
(٢) «الأخبار الطوال» ص ٢.
(٣) «أعمار الأعيان» ص ١٢٣.

إليه، ولم تطل أيامه، عاش مئتي سنة وخمسين سنة؛ ذكره جدي رحمه الله، وقيل ثلاث مئة وأربعين سنة.

فصل

وقام بعده ابنه فالِغ، وانتقل النور إليه. وقال جدي: عاش مئتي سنة وتسعاً وثلاثين سنة[١].

فصل

ثم قام من بعده ابنه أرغو، وانتقل النور إليه، وعاش مئتي سنة وثلاثين سنة[٢].

فصل

ثم قام من بعده ابنه ساروع، وانتقل إليه النور، وعاش مثل عمر أرغو.

فصل

ثم قام من بعده ولده ناحور. قال جدي: وعاش مئتي سنة وخمسين سنة[٣].

فصل

ثم قام من بعده ولده تارح وقيل: تيرح، وقيل: هو آزر والد الخليل عليه السلام[٤].
قال السُّدي: وكان النور المحمَّدي ينتقل في أصلاب هؤلاء.



(١) «أعمار الأعيان» ص ١١١.
(٢) «أعمار الأعيان» ص ١١١.
(٣) «أعمار الأعيان» ص ١٠٩.
(٤) انظر مروج الذهب ١/ ٨٠-٨٢.

فَصلٌ فِي الحوادِث
التي كَانَت بَينَ نُوح والخَليل عَلَيهمَا السَّلام

منها : قصَّة الضحَّاك[(١)]

واختلفوا في نسبه، فقال قوم: هو ابن الأهبوب. وقال الآخرون: ابن علوان، وقيل: ابن عبيد بن عويج، وهو الذي قتل الملك جم شيد، ويقال: إن نُوحاً بعث إليه وإلى قومه فخالفوه، فأهلكهم الله تعالى بالطُّوفان.

والأصحّ أنه كان بعد نوح، واسمه بيوراسب.

واليمن تزعم أنه منها، وأنّه ولَّى أخاه سناناً مصر، وهو أول الفراعنة.

وأمَّا الفرس فينسبون الضحَّاك إلى جيومرت. وكان مقام الضحاك ببابل، وكان فاجراً ساحراً، ذكره جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان» وقال: عاش ألف سنة[(٢)].

وقال وهب: ملك الدنيا. وهو بيوراسب ـ بتقديم الراء على الألف ـ وهو أوَّل من وضع العشور وضرب الدراهم والدنانير على غير سكَّة آدم وغير شريعته. وقد ذكره أبو تمَّام الطائي فقال[(٣)]: [من الكامل]

بَلْ كان كالضَّحَّاك في سَطَواتِه ... بالعالَمينَ وأنتَ إفريدُونُ

يعني: أن أفريدون قتل الضحَّاك.

وكان أفريدون من ولد الملك جَم شيد الذي نشره الضحَّاك بالمنشار. والعرب تزعم أنَّ الضحَّاك لم يكن من ولد الملوك وإنما المُلْك في ولد أوشهنج وجَم شيد وطَهمورث. وكان الضحَّاك غاصباً، وكرهه الناس لسوء سيرته، وكان أفريدون الملك من ولد جَم قد ترعرع فاستعدَّ لقتال الضحَّاك.

وقال ابن مسكويه: كان على كتفيِّ الضحَّاك سلعتان يحرِّكهما إذا شاء، وادَّعى أنهما

---

(١) انظر في قصته: «تاريخ الطبري» ١/ ١٩٤، و«تجارب الأمم» ١/ ٨، و«المنتظم» ١/ ٢٤٤، و«الكامل» ١/ ٥٨.

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٢٨.

(٣) البيت في «ديوانه» ٣/ ٣٢١.

حيَّتان يهوِّل بذلك على الضُّعفاء[1]. وكانا يضربان عليه فلا يسكنان حتى يطليهما بدماغ آدميَّين، فكان يقتل كل يوم رجلين فيطلي سلعتيه بدماغهما.

قال أبو حنيفة الدِّينَوَري: وكان له وزير صالح، وكان الضحَّاك يذبح كل يوم أربعة رجال، فكان الوزير يستحيي اثنين، ويذبح مكانهما كبشين، فيأخذ مخّهما ويقول للرجلين: اذهبا في رؤوس الجبال ولا تقربا الأمصار ولا القرى، قال أبو حنيفة الدينوري: فيقال إنهم أصل الأكراد[2].

ذكر مقتل الضحّاك

ذكر علماء السِّير أنه لما كثر فساده وقتْلُهُ الناس اجتمعوا إلى أفريدون، وكان بأصبهان رجل حدَّاد يقال له: كابي، وكان الضحَّاك قد قتل له ولدين، وكان صالحاً، فاجتمع إليه الناس وسألوه قتال الضحَّاك، لأن أفريدون كان مستخفياً من الضحَّاك، وكان لكابي قطعة جلد يتّقي بها حرَّ النار، فرفعها على رمح وجعلها علماً، وسار إلى الضحَّاك والناس معه، فخرج إليه الضحَّاك، فلمَّا رأى ذلك العلم ألقى الله الرعب في قلبه فانهزم وخلَّى خزائنه وملكه.

واجتمع الناس على كابي وأرادوا أن يملِّكوه فأبى وقال: لست من بيت الملك، ولكن ملِّكوا أفريدون فهو من ولد جَم شيد، فملَّكوه، وكان كابي عوناً له على أمره.

ثم إن أفريدون ومن جاء بعده كانوا يعظِّمون عَلَم كابي ورصَّعوه بالدُّرِّ والياقوت، وكانوا يقدِّمونه أمام الجيوش فينصرون، وكانوا يرون ذلك ببركة كابي، وكان عندهم كالتابوت في بني إسرائيل، ويُعرف هذا العَلَم بدرفش كابيان، ولم يزل في خزائن الفرس يتوارثونه، كلَّما ملك واحد زاده جواهر إلى أيام يَزدَجِرد بن شَهْريار، فأخذه المسلمون في وقعة القادسيَّة، وحمل إلى عمر رضي الله عنه، فقسَّم جواهره بين الناس، وسنذكره.

وقال بعضهم: إن أفريدون وكابي اتفقا على الضحَّاك فهزماه، ثم ظفر به إفريدون

---

(١) «تجارب الأمم» ١/ ٨.

(٢) «الأخبار الطوال» ص ٥.

فقيَّده وحبسه بجبل دُنْباوَنْد، ثم قتله أفريدون بعد ذلك.

والفرس تزعم أنَّه مقيَّد إلى الآن بذلك الجبل. وكان مُلك الضحَّاك ست مئة سنة.

وقال ابن الكلبي: لما ظفر أفريدون بالضحَّاك قال له: أتريد أن تقتلني بجدِّك جَم شِيد؟ فقال له أفريدون: لقد سَمَت بك نفسك إلى مقام عظيم حيث نسبتها إلى جدِّي، إنما أريد أن أقتلك بثورٍ كان في دار جدِّي جَم شِيد.

وفي رواية: أن أفريدون لما جلس على سرير الضحَّاك سمَّى ذلك اليوم مهرجاناً.

ولم ينقل من سيرة الضحَّاك ما يستطرف غير واقعة واحدة، وهي أنَّه لما اشتدَّت وطأته وطالت أيامه، تراسل وجوه الناس في أمره، واجتمع الأكابر والعظماء إلى بابه، وكان فيهم كابي، فقدَّموه بين أيديهم لأنه كان جريئاً في الكلام، واستأذنوا عليه فأذن لهم، فدخلوا عليه، فلم يسلِّم عليه كابي بل قال له: أسلِّم عليك سلام من يملك الأقاليم كلها أم سلام من يملك هذا الإقليم؟ فقال: بل سلام من يملك الأقاليم كلها، فقال له: فإذا كنت تملك الأقاليم كلها فلمَ خصصت هذا الإقليم بنوائبك ومؤونتك؟ وهلَّا ساويت بينه وبين الأقاليم؟ ثم عدَّد أشياء، وصدَّقه الضحاك ووعد الناس بما يحبُّون وانصرفوا. وكانت له أمٌّ جبَّارة، وكانت تسمع ما يجري، فلمَّا خرجوا أنكرت عليه وقالت: لقد جرَّأتهم عليك، هلَّا قتلتهم؟! فقال لها ـ مع عتوِّه وتجبُّره ـ: إنَّ القوم بدهوني بالحقِّ، فلمَّا هممت بالسَّطوة بهم وقف الحقُّ بيني وبينهم كالجبل فحال بيني وبين ما أردت منهم[١].

فصل في أَفريدون[٢]

واختلفوا فيه، والأصح أنه التاسع من ولد جَم شِيد. وكان شجاعاً جواداً سائساً للملك، شديد القوى، حسن الصورة، وهو أوَّل من أظهر علم الطِّب، وقرَّر أحكام النجوم، وذلَّل الفيلة للحرب وقاتل عليها، وأوَّل من وضع الحمام للأخبار[٣]، وأوَّل

(١) «تاريخ الطبري» ١/ ٢١٤.

(٢) انظر في قصته: «تاريخ الطبري» ١/ ٢١٢، و«تجارب الأمم» ١/ ١٠، و«المنتظم» ١/ ٢٤٥، و«الكامل» ١/ ٦٤.

(٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢١٢، و«الكامل» ١/ ٦٤.

من جمع الدرياق، وأوّل من تسمى بـ «كي» فكان يقال له: كي أفريدون، ومعناه أنه متصل بالله تعالى أو بالرُّوحانيَّات[١].

وردَّ على الناس ما غصبه الضحّاك، وسار بالناس أحسن سيرة، وما لم يجد له من الغصوب أصحاباً ولا أهلاً وقفه على مصالح العامَّة والمساكين، وكان محباً للعلماء والعلم صاحب فلسفةٍ وفضل.

فصل وفاته

ذكر ابن مسكويه: أنه كان له ثلاثة أولاد: سرم وإيرج وطوج، فخشي أن لا يتفقوا بعده، فقسم الأرض بينهم أثلاثاً في حياته فجعل الروم وناحية العراق لسرم، والترك والصين لطوج، والهند وما والاها لإيرج، وهو صاحب التاج والسّرير.

فلما مات أفريدون وثب طوج وسرم على ايرج فقتلاه واقتسما الأرض بينهما، فملكاها ثلاث مئة سنة.

ويقال: إنَّ أفريدون ملَّك عليهما ايرج، وأنّ ملوك الرّوم من نسل سرم، لأنَّ أفريدون ملكه الرُّوم وملك ولده طوج على المشرق، فملوك الترك والصين من نسله، وملك ولده ايرج على العراق ويسمَّى إيران، فالأكاسرة وهي الفرس الأولى والثانية من نسله.

وقال أفريدون لمَّا قسم الأرض هذه الأبيات[٢]: [من الرمل]

وَقَسَمنا مُلكنا في دهرنا ... قسمة اللحم على ظهر الوَضَمْ
فجعَلْنا الشام والرُّومَ إلى ... مغْرِبِ الشَّمسِ لغطريفَ سَرَمْ
ولطوجٍ مشرق الشمس لهُ ... وبلاد الشرق يحويها برغمْ
ولإيرانَ جعلنا عنوةً ... فارسَ الملكِ ففازوا بالنِّعمْ

ويقال: إنّ حكم هذه الأبيات حكم الأبيات المنسوبة إلى آدم وهي قوله:

تغيَّرت البلاد ومن عليها.

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢١٣، و«المنتظم» ١/ ٢٤٦.

(٢) انظر الأبيات في «البدء والتاريخ» ٣/ ١٤٥ـ١٤٦، و«معجم البلدان» ١/ ٢٨٩.

وملك أفريدون خمس مئة سنة.

وقال ابن مسكويه: وكان إبراهيم عليه السَّلام في زمان الضحَّاك، فلهذا قال قوم: إنه نمرود.

قلت: وهو وهمٌ، بين الضحَّاك وإبراهيم عليه السَّلام زمان طويل.

ثم نشأ لإيرج ولد يقال له: منُّوشَهر فغلب عمَّيْه على الملك، ثم نشأ لطوج ولد تركي، فنفى منُّوشَهر عن بلاده واستولى عليها، وسنذكر القصَّة في سيرة الفرس الأولى بعد أبواب الأنبياء عليهم السَّلام.

ومن الحوادث بين نوح وإبراهيم عليهما السلام قصة عاد وثمود فنذكرهما.



فَصلٌ في ذِكْر هُود وَقَوْم عَاد[1]

قالوا: ذكر الله هوداً في ستة مواضع، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾[الأحقاف: ٢١] الأخ في القرآن العزيز على وجوه:

أحدها: الأخ من الأم والأب أو من أحدهما، ومنه قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾[المائدة: ٣٠].

والثاني: الأخ من القبيلة ومنه ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾[الأحقاف: ٢١] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [الأعراف: ٧٣] ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والثالث: الأخ في المتابعة: ﴿كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾[الإسراء: ٢٧].

والرابع: الصَّاحب ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾[ص: ٢٣].

والخامس: الأخ في الدين ﴿فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾[آل عمران: ١٠٣].

والسادس: الإخاء في المودَّة ﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

وأخو عاد: هو هود عليه السَّلام.

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عَوْص بن إرم بْن سام بن نوح عليه السلام، قاله قتادة.

وحكاه جدي رحمه الله في «التبصرة»[2]، ولم يحقق القول في الخلود، واختلفوا فيه على ثلاثة أقوال:

أحدها: إنه الخلود بخاء معجمة مع تشديد اللام.

والثاني: بالحاء المهملة.

---

(١) انظر قصته: في «تاريخ الطبري» ١/ ٢١٦، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٣١، ومروج الذهب ٣/ ٧٨، و«عرائس المجالس» ص ٦٢، و«المنتظم» ١/ ٢٥٢، و«التبصرة» ١/ ٧٧، و«الكامل» ١/ ٨٥، و«البداية والنهاية» ١/ ١٢٠.

(٢) «التبصرة» ١/ ٧٨.

والثالث: بالجيم المكسورة واللام المفتوحة.

القول الثاني: أنه هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قاله مجاهد، وحكاه جدي أيضاً في «التبصرة»(١).

والثالث: أنه هود بن عبد الله بن رياح بن حارث بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، حكاه ابن قتيبة(٢).

وقوم عاد هؤلاء هم أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام.

وقال ابن الكلبي: لم يكن بين نوح وإبراهيم من الأنبياء إلَّا هود وصالح.

وقال هشام بن محمد: كان هود أشبه ولد آدم بآدم ما خلا يوسف عليه السلام، وكان آدم حسن الوجه.

وقال مقاتل: بين هود ونوح ست مئة سنة، وقيل: ثمان مئة سنة، وهود من العرب، وكذا صالح وشعيب ومحمد ﷺ.

وقال ابن عباس: بُعث هود إلى عاد الأولى، فلمَّا هلكوا جاءت عاد الأخرى، ورؤساؤهم شدَّاد وشديد.

وقال قتادة: بعث الله إليهم نبيّاً قبل هود، فوصف لهم الجنَّة، فقالوا: نحن نعمل جنَّة، فعملوا الجنّة المعروفة بشدّاد بن عاد فأهلكهم الله قبل أن يصلوا إليها، وسنذكر القصَّة.

قال مقاتل: في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف: ٦٥] قال: أخوهم في النسب لا في الدين.

والأحقاف: الرِّمال، واحدها حِقْف.

واختلفوا في أي موضع هي؟ على أقوال:

أحدها: أنها بالشِّحر باليمن على ساحل البحر، قاله مجاهد.

---

(١) لم نقف عليه في «التبصرة» وذكره في «المنتظم» ١/ ٢٥٢.

(٢) «المعارف» ٢٨.

والثاني: بين عُمان ومَهرة وصَحار.

الثالث: بالدَّهْناء والدَّو وعالج ويَبرين، قاله ابن عبّاس. وقال: والأحقاف وادٍ بين عمان ومهرة، وإليه ينسب المهاري، يقال: إبل مهرية ومهاري قال: وكانوا من قبيلة إرم.

وقال الضحَّاك: الأحقاف جبل بالشام.

وقال مجاهد(١): هي جبال حِسْمَى وأرضها، والأوّل أصح.

وقال مقاتل: وكان ملكهم عاد يعبد القمر، وطال عمره فرأى من صلبه أربعة آلاف ولد، وتزوج ألف امرأة، وهو أوّل من ملك الأرض بعد نوح.

وكان عاد محسناً إلى الناس يقري الأضياف، ويحفظ السبل، ويرحم المساكين ورأى العاشر من ولده، وعاش ألفاً ومئتي سنة، ثم مات، فانتقل الملك إلى أكبر ولده وهو شديد بن عاد، فأقام خمس مئة وثمانين سنة ثم مات، فانتقل الملك إلى أخيه شدَّاد بن عاد وهو بنى إرم ذات العماد وملك تسع مئة سنة(٢)، وسنذكره.

وقال ابن قتيبة: كانت عاد ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الأحقاف وبلادها، وكانت ديارهم بالدَّوِّ والدَّهْناء وعالج ويَبرين ووَبَار إلى حَضْرَمَوت، وكانت أخصبَ البلاد، فلمّا سخط الله عليهم جعلها مفاوز وقفاراً(٣).

وكانوا قد ملكوا الأرض لقوَّتهم، وافتخروا، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وكان الرجل منهم لا يحتلم حتى يبلغ مئتي سنة. فلمَّا كثر طغيانهم بعث الله إليهم هوداً فقال: يا قوم اعبدوا الله ووحِّدوه، يا قوم لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، أي: جُعْلاً.

وقال مجاهد: سبب هذا أن الأمم كانت تقول للرُّسل: ما تريدون إلا أن تحكموا في أموالنا، فتقول لهم الرّسل كما قال هو. ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[هود: ٤٠].

(١) من هنا بدأ خرم في (ب).
(٢) انظر «مروج الذهب» ٣/ ٨٠، ٨١.
(٣) «المعارف» ص ٢٨.

وكان طول الرجل منهم خمس مئة ذراع وإلى عشرة أذرع[١].

فلمَّا عصوا منعهم الله القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم حتى هلكوا من الجدب، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى مكة من يستسقي لنا، وكان لهم ثلاثة أصنام يعبدونها يقال لها: صمود وصداء والهباء ـ قال قتادة: وكان يقال لملكهم الخلجان، وكانوا مع هذا يعظِّمون الكعبة ويستسقون عندها ـ فبعثوا سبعين رجلاً فيهم جماعة من أعيانهم: قيل، ولقيم، وجلهمة، ولقمان بن عاد، ومرثد بن سعد، وكان يكتم إيمانه، فنزلوا على بكر بن معاوية، وكان خارج الحرم فأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، وبكر بن معاوية من العمالقة من أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وقيل: ابن عمليق بن سام ـ وقد ذكرنا الخلاف فيما تقدَّم في ولد سام ـ فأقاموا عنده شهراً يأكلون ويشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ مغنيتان كانتا لبكر ـ فلمَّا طال مقامهم عنده قال: هلك أخوالي وأصهاري ـ يعني الذين بعثوا هؤلاء ـ وهؤلاء أضيافي وما أدري ما أصنع، واستحيى أن يأمرهم بدخول الحرم ليستسقوا، فشكا ذلك إلى قينتيه فقالتا: قل شعراً نغنِّيهم به، فقال: [الوافر]

ألا يا قَيْلُ ويحكَ قُمْ فهينِمْ ... لعلَّ الله يمنحُنا غَماما
فيسقي أرضَ عادٍ إنَّ عاداً ... قد امسَوا ما يُبينون الكَلاما
من العطشِ الشَّديد فليسَ يرجُو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ ... فقد أمسَت نساؤهمُ أيامى
وأنَّ الوحش تأتيهمْ جهاراً ... ولا تخشى لعاديٍّ سِهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتُم ... نهاركمُ وليلكمُ التَّماما
فَقُبِّح وفدكم من وفد قومٍ ... ولا لقُّوا التحيةَ والسَّلاما

فغنتهم الجرادتان به، فلمّا سمعوه قالوا: ويحكم، ادخلوا الحرم فاستسقوا لقومكم فقد هلكوا، فقال مرثد: إنكم والله ما تسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيَّكم

---

(١) كذا هو في (ل)، ولم نقف على من ذكر هذا القول، اللهم إلا ما ذكره السمعاني في «تفسيره» ٥/ ٣١٢ فقال: وفي القصة أن طول الواحد منهم كان ستمائة ذراع وخمسمائة والأقصر ثلاثمائة ذراع.
وذكر طولهم ابن الجوزي في «التبصرة» ١/ ٧٨ وقال: كان طول الرجل منهم اثني عشر ذراعاً.

سقيتم، فقال جلهمة: احبسوا عنَّا هذا فلا يقدم معنا مكة، فإنه قد اتَّبع دين هود، فحبسوه، فأفلتَ وسبقهم إلى مكَّة قبل أن يدعوا بشيء.

وكان الناس مؤمنهم وكافرهم يستسقون عند البيت، وأظهر إسلامه حينئذ، فقال بكر ابن معاوية يخاطبه: [الوافر]

أبا سعد فإنَّك[1] من قبيل ذوي كَرَمٍ وأمُّك من ثمودِ
فإنَّا لن نُطيعَك ما بَقينا ولَسنا فاعِلينَ لدى الوُفود
أتأمرنا لنترك دين رفدٍ ورملَ وآل صدٍّ والعبود
ونترك دين آباءٍ كرامٍ ذوي رأيٍ ونَتْبَع دينَ هُود

رفد ورمل وآل صدّ والعبود كلها قبائل من قوم عاد.

ثم وقفوا عند البيت يستسقون، فقال واحد منهم: اللهمَّ إنَّا لم نجئك لأسير نفاديه، ولا لمريض تشفيه، فإن كنت مسقياً فاسق عاداً ما كنت مسقيه، فنشأت سحابةٌ ونودوا منها: اختاروا لأنفسكم، فقال مرثد: يا ربِّ أعطني صدقاً وبرّاً، فأعطي، وقال لقمان ابن عاد: يا رب أعطني عمراً فاختار عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة، ويأخذ الذكر لقوَّته، حتّى إذا مات أخذ غيره إلى أن مات سبعة أنسر، وسنذكره.

وقال ابن الكلبي: ثم نشأت ثلاث سحائب بيضاء وحمراء وسوداء، ثم نودي منها: يا قيل اختر لقومك، فقال: أختار السوداء لأنها أكثر ماءً، فقيل لها: اذهبي إلى عاد خليها رماداً رمدداً، لا تدع منهم أحداً. وساقها الله إليهم فخرجت من وادٍ لهم يقال له مغيث، فلمَّا رأوها استبشروا بها وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقال هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأحقاف: ٢٤]. وكان أول من رأى ما فيها امرأة منهم، فصاحت وصعقت، فقيل لها: ما رأيت؟ قالت: ريحاً فيها كشهب النَّار، أمامها رجالٌ يقودونها[2].

---

(١) في (ل): «ألا يا سعد إنك» وما أثبتناه من «تاريخ الطبري» ١/ ٢٢١، وعرائس المجالس ٦٤.

(٢) انظر الأبيات والقصة في «تاريخ الطبري» ١/ ٢١٩ـ٢٢١، وانظر «البدء والتاريخ» ٣/ ٣٢ـ٣٣، و«المنتظم» ١/ ٢٥٣، وقد رد ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٩٨ هذه القصة.

وقال ابن الكلبي[١]: أوّل ما رأى العذابَ الخَلَجان ملك القوم، فقال: يا هود ما هؤلاء الذين أراهم في السّحاب مثل البخت؟ فقال: ملائكة العذاب، فقال: أرأيت [إن أسلمت] أيعيذني [ربّك] منهم؟ قال: نعم، هؤلاء جندي، ولو فعلَ ما رضيتُ.

وفي رواية: أنه لما خرجت الريح من الوادي قال الخلجان لرهط معه: تعالوا نردَّها، فجاؤوا، فجعلت الرِّيح تدخل تحت الواحد فترميه فتدق عنقه، فمال الخلجان إلى جبلٍ فهزَّه فاهتزَّ في يده، فقال له هود: أسلم، فلم يفعل، فهلك فيمن هلك، فسخَّرها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًاۖ﴾ أي متتابعة ابتدأت غدوة الأربعاء وسكنت في آخر اليوم الثامن.

واعتزل[٢] هود ومن معه من المؤمنين فلا يصيبهم منها إلا ما يلين الجلود ويلذُّ النُّفوس.

وقال مجاهد: وكان قد آمن معه أربعة آلاف وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾[هود: ٥٨] وكانت الريح تقلع الشجر وتهدم البيوت، ومن لم يكن في بيته منهم أهلكته في البراري والجبال، وكانت ترفع الظعينة بين السّماء والأرض حتى ترى كأنّها جرادة، وترميهم بالحجارة فتدق أعناقهم.

وقال ابن عباس: دخلوا البيوت وأغلقوا أبوابها فجاءت الريح ففتحت الأبواب، وسَفَت عليهم الرَّمل، فبقوا تحته سبع ليالٍ وثمانية أيام، فكان يسمع أنينهم في الرمل، وماتوا[٣].

وقيل: معنى ﴿حُسُومًاۖ﴾ حسمت كل شيء، أي: قطعته وأتلفته.

وقال مقاتل: دخلت عجوز سرباً، فدخلت الريح خلفها فقتلتها، قال: فذلك معنى تسمية العرب هذه الأيام: بأيَّام العجوز.

وقال مجاهد: إنما سميت أيام العجوز لأنها في آخر الشتاء، وقد ذكرناه.

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٢٤، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٢) هنا ينتهي الخرم في (ب) المشار إليه قريباً.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «التبصرة» ١/ ٨٠.

وقال ابن مسعود: لم تخرج الريح قط إلَّا بمكيال، إلا في قصة عاد فإنَّها عصت على الخُزان فغلبتهم فلم يعلموا مقدار مكيالها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[الحاقة: ٦] والصرصر: ذات الصوت الشديد ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[الحاقة: ٧] ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[القمر: ٢٠] أي: من أصله.

فإن قيل: فما معنى إهلاكهم بالريح؟ فالجواب: إنَّما أهلك ذلك الخلق العظيم بالريح التي هي ألطف الأشياء لتظهر آثار القدرة، كما أمات الخلق بنفخةٍ ويحييهم بنفخة.

وذكر جدّي رحمه الله قصتهم بألفاظ مسجوعة، ثم قال: غلبهم الهوى فامتدَّ المقصور.

فإن قيل: فما معنى ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩] ولم يبعث إليهم سوى هود.

فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه بُعث إليهم نبيٌّ كما ذكرنا، والثاني: لما كذَّبوا بما جاء به هود فكأنَّهم كذبوا بما جاء من قبله، لأنَّ الأنبياء أولادُ عَلَّات أمهاتهم شتى، والأب واحد[1].

قال مجاهد: لما هلكوا أرسل عليهم طيوراً سوداً فنقلتهم، فألقتهم في البحر.

وقال ابن الكلبي: ولمّا بلغ مرثد بن سعد هلاكهم قال[2]: [من الوافر]

عصَت عادٌ رسولَهمُ فأضحَوا ... عطاماً ما تبكهم السَّماء[3]
وسُيِّر وفدُهُمْ شَهْراً ليُسْقَوا ... فأردَفَهمْ معَ العطشِ العَمَاءُ
بكفرهمُ بربهمُ جِهاراً ... على آثار عادِهمُ العَفَاءُ
لهم صنمٌ يقالُ له صُمودا ... يُقابِلُه صُداءٌ والهَبَاءُ
ألا قبح الإلهُ حُلومَ عادٍ ... وإنَّ ديارَهمْ قفرٌ هواءُ

(١) أخرج البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد».

(٢) الأبيات عند الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٢٣، والثعلبي في «عرائس المجالس» ص ٦٧.

(٣) جاء في «تاريخ الطبري» و«عرائس المجالس»: «عطاشاً ما تبلهم السماء»، وهو الصواب.

قصة شدَّاد بن عاد وبنائه الجنَّة

اختلفوا: هل كان قبل هود أو في أيام هود؟ على قولين.

وهو شدَّاد بن عاد بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح، وفيه يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٦ـ٨] الآية.

واختلفوا في إرم على أقوال:

أحدها: أنها قبيلة من قوم عاد كان فيهم الملك، قاله مقاتل.

والثاني: إنها اسم الجنَّة التي بناها شدَّاد بن عاد، قاله مجاهد.

والثالث: دمشق، قاله عكرمة.

والرابع: الإسكندريَّة، قاله القرظي.

والخامس: أنَّها آمِد، قاله مقاتل. والقول الأوَّل أظهر[(١)].

قال سعيد بن المسيَّب: كانت منازلهم باليمن ومَهَرَة، وكانوا أصحاب عُمُد وخيام، وكانوا جبابرة قد خصُّوا بالطُّول ـ ويقال للطويل مُعَمدٌ ـ وكان الرجل منهم يحمل الصخرة على رأسه فيقتل بها جماعة، وكانوا يطلبون المرعى فينتقلون من مكان إلى مكان.

وقال ابن الكلبي: إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل السّواد والجزيرة، وكان مسكنهم بوادي القرى.

وقال الجوهري: وقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝﴾ من لم يُضف[(٢)] جعل إرم اسمه ولم يصرفه لأنه جعل عاداً اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة، وجعله بدلاً منه. ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفْ جعله اسم أمهم أو اسم بلد[(٣)].

وحكى أبو إسحاق الثعلبي عن الضحاك أنه قرأ ﴿أرم ذات العماد﴾ بفتح الألف

(١) انظر الأقوال مفصلة في «زاد المسير» ٩/ ١٠٩ـ١١٠، و«التبصرة» ٢/ ١٣٤.

(٢) في النسخ: «يصرف» والمثبت من «الصحاح».

(٣) «الصحاح»: (أرم).

والراء، والأَرم: الهلاك يقال: أَرَم بنو فلان أي: هلكوا، وهي رواية العَوفي عن ابن عباس.

قال: والصَّواب أنّها اسم قبيلة أو بلدة فلذلك لم تصرف، ولو كان بمعنى أهلكهم وجعلهم رميماً لصرف.

قلت: ولعامَّة القراء على الوقف على إرم(١)، فمن أراد القبيلة وصف قَوْمَها بالطول والبطش والقوّة والشدَّة.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن المقدام بن معدي كَرِب عن النبي ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال: «كان الرجل منهم يأتي الصخرة فيحملها على الحيِّ فيهلكهم»(٢).

قال الكلبي: كان طول الرجل منهم أربع مئة ذراع.

وروي عن ابن عباس أنه قال: كانوا أهل عمد وخيام ينتجعون الكلأ والعشب، وينتقلون إلى الخصب حيث كان في أيّام الرَّبيع، ثم يرجعون إلى منازلهم إذا هاج العود، ومن أراد المدينة.

قال جدي رحمه الله في كتاب «التبصرة»: حدّثنا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف بإسناده عن وهب بن منبّه عن عبد الله بن قلابة، وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن وهب بن منبّه عن عبد الله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبل له شردت، فبينا هو في صحاري عدن أَبْيَن في تلك الفلوات إذ وقع على مدينة عليها حصن، وحول الحصن قصور كثيرة، فلما دنا منها ظنَّ أنَّ فيها أحداً يسأله عن إبله، فلم يرَ خارجاً ولا داخلاً، فنزل عن ناقته وعقلها وسلَّ سيفه، ودخل باب الحصن، فإذا هو ببابين عظيمين من ذهب مرصَّعين بالجواهر واليواقيت ـ أو بالياقوت الأحمر ـ فلمَّا رأى ذلك دُهش وتحيَّر وفتح أحد البابين فإذا هو بمدينة لم يُر في الدنيا مثلها، وفيها قصور شواهق، عليها

---

(١) بل الوقف هنا ليس بجيد، قال الداني في «المكتفى» ص ٦١٨: وقال نافع: «بعادٍ إرَمَ» تام، وقال الكسائي: هو وقف جيد، وليس بتام ولا كاف لأن «إرم» بدل من «عاد» و«ذات العماد» نعت له، وانظر «منار الهدى» ص ٣٠٤.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (كما في تفسير ابن كثير ٤/ ٥٠٧)، وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» (١٩٢٥٤).

قِباب الذهب والفضة مرصعة بالجواهر واليواقيت، مفروشة كلها باللؤلؤ وبنادق المسك، وترابها الزعفران، ونظر إلى الأزقَّة وإذا فيها الشجر مثمر، وتحته أنهار مطردة تجري في قنوات من فضة، فقال الرجل: إنَّ هذه هي الجنَّة، فحمل من لؤلؤها وياقوتها ومسكها ما قدر عليه وخرج، فركب راحلته وعاد إلى اليمن، فأَظهر ما كان أخذه، وبلغ معاوية بن أبي سفيان ذلك فأرسل إليه، فلمَّا دخل عليه قصَّ عليه القصَّة، فأنكر معاوية ابن أبي سفيان ذلك وأرسل إلى كعب الأحبار، فلما حضر قال له: يا أبا إسحاق، هل تعرف في الدُّنيا مدينة من ذهب وفضَّة ـ وذكرها على الوصف ـ فقال: نعم أنا أخبرك بها وبمن بناها، إنما بناها شدَّاد بن عاد، واسمها إرم ذات العماد التي وصفها الله عزَّ وجلَّ في كتابه، فقال معاوية(١): فحدِّثني حديثها، فقال: إن عاداً الأول كان له ابنان: شديد وشدَّاد، وهلك عاد وملك شديد، فبقي زماناً ثم مات، وملك شدَّاد ودانت له الأمم وملك الدنيا، وكان مولعاً بقراءة الكتب، كلما مرَّ بذكر الجنَّة دعته نفسه إلى بناء مثلها، عتوَّاً على الله، فأمر ببناء إرم ذات العماد، وأَمَّر على بنائها مئة قهرمان، مع كل قهرمان ألف من الأعوان، ثم قال: انطلقوا إلى أطيب فلاة في الأرض وأوسعها فاعملوا لي مدينة من ذهب وفضة وزبرجد ولؤلؤ، تحتها أعمدة من زبرجد، وفوق القصور غرف، ومن فوق الغرف غرف، واغرسوا تحت القصور وفي أزقَّتها فنون الثمار، وأَجروا تحتها الأنهار، فإني أسمع في الكتب صفة الجنَّة، وأريد أن يكون لي مثلها، قالوا: ومن أين لنا الذهب والفضَّة والجواهر؟ فكتب إلى ملوك الدنيا ـ وكان تحت يده مائتان وستون ملكاً ـ فأمر أن يحملوا إليه من الجواهر واليواقيت والذهب والفضة ما يقدرون عليه، ففعلوا فخرج القهارمة وتبدَّدوا في الأرض ليتخيَّروا أطيبَ مكان، فإذا هم بأرض طيبة الهواء، خاليةٍ عن الجبال والتلال، وفيها أنهار مطَّردة، وتربتها صحيحة، فقالوا: هذه صفة الأرض التي أمر الملك ببناء المدينة فيها، فوضعوا أساسها من الجزع اليماني، وبنوها بالذهب والفضة، وأجروا مياهها في قنوات الذهب والفضة، وأقاموا في بنائها ثلاث مئة سنة. وعاش شدَّاد تسع مئة سنة، فلمَّا كمل بناؤها كتبوا إليه: قد كملت فما ترى؟ فكتب إليهم: ابنوا عليها حصناً، وابنوا حول الحصن ألف قصر يكون

(١) في (ب): «بعضهم».

في كلِّ قصر وزير من وزرائي، وكان له ألف وزير، وأقام يتجهَّز للنقلة إليها في عشر سنين، وسار إليها بأهله ووزرائه، فلمَّا كان على مسيرة يوم وليلة منها بعث الله تعالى عليه وعلى من كان معه صيحةً من السماء فأهلكتهم جميعاً، ولم يدخل إرم ولا أحد ممن كان معه، ولم يُقْدَر على أحد منهم حتى الساعة. هذه صورة ما حكى جدّي رحمه الله في «التبصرة»[١].

وأما الثعلبي فإنه زاد بعد هذا، وقال: وقال كعب وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال، يخرج في طلب إبل له في تلك الصحاري ـ والرجل عند معاوية جالس ـ فالتفت إليه كعب فقال: هذا والله ذلك الرجل[٢].

وحكى الشعبي عن دَغْفَل الشيباني قال: ثم ملك بعده ولده مَرْثَد بن شدَّاد، وكان أبوه قد خلفه بحَضْرَموت على سلطانه، فأمر بحمل أبيه من تلك المفازة، فحمل إلى حَضْرَموت مطليَّاً بالصَّبِر والكافور، وأمر فحفرت له حفيرة في الجبل مثل المغارة، وجعله على سرير من ذهب، وألقى عليه سبعين حلَّة منسوجة بقضبان الذهب، ووضع عند رأسه لوحاً من ذهب، وكتب عليه بالقلم المسند: [مجزوء الرمل]

اعتبر بي أيُّها المغـ ... ـرور بالعمرِ المديدِ
أنا شدَّاد بن عادٍ ... صاحب الحصن العميدِ
وأخو القوَّة والبأ ... ساء والملك الحَشيدِ
دان أهل الأرض لي ... من خوف وَعْدِي ووعيدي
وملكت الشرق والغر ... ب بسلطانٍ شديدِ
وبفضل الملك والعد ... دة فيه والعديدِ
فأتى هودٌ وكنَّا ... في ضلالٍ قبل هودِ
فدعانا لو أجبنا ... ه إلى الأمر الرَّشيدِ
فعصيناه ونادينـ ... ـا ألا هل من مَحيدِ

(١) «التبصرة» ٢/ ١٣٥ـ١٣٦، و«عرائس المجالس» ص ١٤٥ـ١٤٩.
(٢) «عرائس المجالس» ص ١٤٨ـ١٤٩.

فـــأتـــتـــنـــا صـــيـــحـــة تـــهـــوي مـــن الأفْـــق الـــبـــعـــيـــدِ
فـــتـــوافـــيـــنـــا كـــزرع وسْـــط بـــيـــداءٍ حـــصـــيـــدِ

قلت: والعجب من جدي رحمه الله كيف حكى مثل هذه الحكاية ولم يتبيَّن ما فيها[١]، فإنَّ في إسنادها عبد الله بن لهيعة، وقد ضعَّفه في «الواهية» وقال: كان مدلساً، وتكلَّم فيه الدَّارقطني وغيره.

ثم ذكر فيها معاوية، وأين كعب الأحبار من زمن معاوية؟ وليَ الأمر في سنة إحدى وأربعين وكعب مات في سنة اثنتين وثلاثين. ثم العقول السليمة تأبى مثل هذا، لأنَّ شدَّاد ابن عاد له ألوف السنين، وما كان في العالم من يقف على هذه المدينة إلا ابن قلابة، وكان رجلاً بدويّاً، وكم قد مرَّ بتلك الأرض من ملوك اليمن مثل التَّبابعة وغيرهم.

فصل في وفاة هود

واختلفوا في أي مكان توفي على أقوال:

أحدها: بأرض الشِّحْر من بلاد حضرموت، وقبره ظاهر هناك ينزل عليه النّدى والطلّ في شدّة الحرّ، وموضعه أحرّ الأماكن، وقد ذكره ابن سعد في «الطبقات»[٢].

والثاني: بمكة، لمّا أهلك الله قومه أمره أن ينزل بمكّة بمن معه من المؤمنين، قاله مجاهد.

والثالث: بجامع دمشق بالحائط القبلي[٣]. والأوَّل أظهر.

وعاش هود مئة وخمسين سنة، وحكى الخطيب عن ابن عباس أنه عاش أربع مئة وستين سنة، وكان بينه وبين نوح عليهما السّلام ثمان مئة سنة.

قصة لقمان بن عاد صاحب النسور

قد ذكرنا أنه كان في الوفد[٤]، وسأل الله طول العمر، فأعطاه عمر سبعة أنسر، كان

(١) التبصرة ٢/ ١٣٧، وعرائس المجالس ١٤٩-١٥٠.
(٢) في(ل): في حائط القبلة، والمثبت من (ب) و(ط).
(٣) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥٢.
(٤) يعني الوفد الذي خرج من قوم عاد إلى مكة ليستَسقوا لقومهم. انظر الصفحة ٣٤٥ .

يأخذ الفرخ من البيضة حين يخرج، فإذا مات أخذ غيره، فلم يبق غير واحد. قال له ابن أخيه: يا عم، لم يبق من عمرك إلّا عمر هذا النَّسر. فقال لقمان: هذا لُبَد، واللبد بلسانهم الدَّهر. فلمَّا انقضى عمر النسر مات.

وذكر جدي في كتاب «أعمار الأعيان» وقال: لقمان هذا هو الأكبر، وهو ابن عاد ابن عاديا من بقيَّة عاد الأولى، وهو صاحب النسور، بعثته عاد مع الوفد إلى الحرم يستسقون فدعوا وسأل هو البقاء، واختار عمر سبعة أنسر كلما هلك نسر أخذ مكانه آخر، يأخذ النسر وهو فرخ فيربيه إلى أن يموت، فعاش ألفين وأربع مئة ونيفاً وخمسين سنة[١].

قلت: وقد اختلف الناس في عمر النسر، وعامتهم على أنه يعيش خمس مئة سنة، فعلى هذا قد عاش لقمان ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة، ولم يبلغ هذا العمر أحد من بني آدم.

وقيل: إنه عاش ثلاثة آلاف وثمان مئة سنة، لأنه كان له قبل أن يأخذ النسور ثلاث مئة سنة. ولمّا وقع لبد قال له لقمان: انهض فلم يقدر ومات، فمات لقمان. وقد ذكره الجوهري في حرف الدال، فقال: ولبد آخر نسور لقمان. قال: وتزعم العرب أنّ لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها، فلمّا أهلكوا خُيِّر لقمان بين بقاء سبع بعرات سُمر، من أظبٍ عُفْر، في جبل وَعْر، لا يمسها القطر، أو بقاء سبعة أنسر، كلما هلك نسر خلف بعده نسر، فاختار النسور، وكان آخر نسوره يسمى لُبَداً، وقد ذكرته الشعراء قال النابغة: [من البسيط]

أضحَتْ خلاءً وأضحى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

هذه صورة كلام الجوهري[٢].

قصة جرت للقمان

ذكر هشام بن الكلبي عن أبيه قال: كان لقمان مغرىً بحبِّ النِّساء، وكان يتزوَّج

(١) «أعمار الأعيان» ص ١٢٩ .

(٢) «الصحاح»: (لبد)، والنابغة هو الذبياني زياد بن معاوية، والبيت في ديوانه ص ٣١.

المرأة فتخونه، فتزوَّج صغيرة لم تعرف الرجال، فنقر لها مغاراً في جبل، وجعل له سلاسل يصعد إليها فيها، فإذا نزل أزالها، فمرَّ بها رجل من العمالقة فرآها فوقعت في قلبه، فأخبر قومه وقال لأهله: لابدَّ لي منها، فقالوا: ويحك وكيف تصنع؟ فقال: اجمعوا سيوفكم ثم اجعلوني في وسطها وشدُّوها حزمةً ثم أودعوها عنده، ففعلوا وجاؤوا إلى لقمان فقالوا: نريد أن نسافر، ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع. فأطلعَ السيوف إلى المغارة وكانوا قد واعدوه يوماً بعينه يرجعون إليه، فكان لقمان إذا نزل خرج الرَّجل وأتى الجارية، وإذا جاء لقمان عاد إلى مكانه. وجاء الميعاد فجاء القوم وأخذوا السيوف، فلمَّا كان في بعض الأيام نام لقمان على ظهره فرأى في سقف المغارة نخامة، فقال للجارية: من تنخَّم هذه؟ قالت: أنا، قال: فتنخمي، فتنخمت فلم تصلْ إلى السقف، ففطن وقال: من السيوف دُهيت، ثم رمى بالجارية من ذروة الجبل فتقطعت قطعاً، وانحدر مغضباً يطلب القوم، فلقيته ابنةٌ له يقال لها: صحر، فقالت: ما لي أراك يا أبة مغضباً؟ فقال: وأنت أيضاً من النساء، فضربها فقتلها فقالت العرب: ما أذنبت إلا ذنب صحر، فذهبت مثلاً[1].



(١) انظر «الأمثال» لأبي عبيد ص ٢٧٢.

فَصلٌ
في ذِكر صالِح عَلَيه السَّلام وقَومِه[١]

ذكره الله في خمسة مواضع، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ [الأعراف: ٧٣] الآية. قال الزجاج: الثمد الماء القليل الذي لا مادَّة له، وإنما قال أخاهم لأنه من قبيلتهم، وقد ذكرناه.

واختلفوا في ثمود، فقال الجوهري: ثمود قبيلة من العرب الأولى، وهم قوم صالح[٢]. وكذا قال الفرَّاء: [سمُّوا][٣] ثمود لقلَّة مائهم، وقيل: هو اسم رجل، قال عكرمة: هو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقال جدي في «التبصرة»: هو ثمود ابن جابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: ثمود بن جابر بن سام بن نوح.

قال الكلبي: وكانت هذه القبيلة تنزل وادي القرى إلى البحر والسَّواحل وأطراف الشام، وكانت أعمارهم طويلة، فكانوا يبنون المساكن فتنهدم، فلمَّا طال ذلك عليهم اتخذوا من الجبال بيوتاً فنحتوها وعملوها على هيئة الدور، وكانوا قد عتوا وتجبَّروا.

وأمَّا صالح فاختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه صالح بن عبيد بن جابر بن إرم بن سام بن نوح، قاله مجاهد.

والثاني: صالح بن عبيد بن أنيف بن ماسخ بن خادر بن جابر بن ثمود. وقيل: جاثر بالجيم والثاء. قاله مقاتل.

والثالث: صالح بن كاثوا، قاله الربيع.

والرابع: صالح بن عبيد بن يوسف بن سانح بن عَبيل بن حاذر بن ثمود، قاله مجاهد. قال: وكان بينه وبين هود مئة سنة.

---

(١) انظر قصته في «تاريخ الطبري» ١/ ٢٢٦، وتفسيره ١٢/ ٥٢٥، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٣١، ومروج الذهب ٣/ ٨٣، و«عرائس المجالس» ص ٦٨، و«المنتظم» ١/ ٢٥٥، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٥، و«الكامل» ١/ ٨٩، و«البداية والنهاية» ١/ ١٣٠.

(٢) «الصحاح»: (ثمد).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في (ب)، وبدله في (ل) كلمة: إسحاق، والمثبت من (ط).

وقال مقاتل: وكان في قومه بقايا من قوم عاد على طولهم وهيئتهم، وكان لهم صنم من حديد يدخل فيه الشيطان في السنة مرَّة واحدة ويكلمهم، وكان أبو صالح سادنه، فغار لله وهمَّ بكسره، فناداهم الصنم: اقتلوا كاثوا، فقتلوه ورموه في مغار، فبكت عليه امرأته مدَّة فجاءها ملك فقال: إن زوجك في المغار الفلاني، فجاءت إليه وهو ميِّت، فأحياه الله تعالى، فقام إليها فوطئها في الحال، فعلقت بصالح من ساعتها وعاد كاثوا ميِّتاً. وشبَّ صالح فبعثه الله إلى قومه، ذكره مقاتل بن سليمان في «المبتدأ» له.

واختلفوا متى بعث على قولين:

أحدهما: حين راهق الحلم، قاله وهب. والثاني: لما تمَّ له أربعون سنة، قاله ابن عباس.

قال علماء السِّير: فلمَّا تجبَّروا وطغوا وكفروا بعث الله إليهم صالحاً فدعاهم إلى الله تعالى فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم﴾ أي: ابتدأ خلقكم ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنَّ آدم خلق منها وهم منه ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾[هود: ٦١] أطال أعماركم.

وقال ابن قتيبة: وكان صالح تاجراً[1].

قصة الناقة

روى الوالِبِيُّ عن ابن عباس قال: لما دعاهم صالح إلى الله تعالى اقترحوا عليه ناقة لأنهم كانوا أصحاب إبل، وكانت النوق عندهم عزيزة، فطلبوا منه الدَّلالة من حيث ما هم عليه ثمَّ تنطعوا، فقالوا: لتكن سوداء حالكة، عُشَراء ذات عرف وناصية ووبر. فسأل الله فأوحى الله إليه: اخرج بهم إلى فضاءٍ من الأرض، فخرجوا، فقال: من أين تريدونها؟ فأشاروا إلى صخرة وقالوا: من هذه. فأشار إليها صالح وقال: اخرجي بإذن الله، فتمخَّضت تمخض الحامل وانفجرت عن ناقة كما طلبوا، ثم تلاها من الصخرة فصيلٌ لها، فآمن خلق ممَّن حضر، منهم ملكهم جَندع بن عمرو. ثم قال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾[الأعراف: ٧٣] من الكلأ، ليس عليكم مؤونتها ولا علفها ـ وتأكلْ مجزوم بجواب الشرط المقدَّر، والمعنى: إن

(١) «المعارف» ص ٣٠، ومن هنا وقع خرم في (ب) ينتهي في أسماء إبراهيم.

تذروها تأكلْ ـ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾[الأعراف: ٧٣] بعقر.

والسُّوء في القرآن على وجوه: أحدها: العقر كما ذكرنا. والثاني: الشدَّة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩] والثَّالث: الزنا ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١] والرابع: البرص ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢]. والخامس: العذاب ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الزمر: ٦١]. والسادس: الشرك ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨] والسابع: السَّبُّ ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢] والثامن: الضرُّ ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] والتاسع: الذنب ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

ثم قال لهم صالح: لها شِرْب يوم ولكم شِرْب يوم؛ لأنَّ مياههم كانت قليلة، فكانت تشرب ماء الوادي في يوم، ويحلبونها في يوم، فيشربون لبنها عوض ما شربت. ولما ألحَّ عليهم صالح بالموعظة لم يلتفتوا إليه، وعزموا على قتله، وكان يبيت ناحيةً عنهم في مسجد له، فكمنوا له ليلةً تحت صخرةٍ يرصدونه وذلك قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾[النمل: ٤٩] فدعا عليهم فوقعت عليهم الصخرة فقتلتهم، فأصبحوا يقولون: قتلهم صالح. فأجمعوا على عقر النّاقة وقالوا: قد ضايقتنا في الماء والكلأ.

قال مقاتل: أوحى الله إليه: إنَّ قومك سيعقرون ناقتك، فقال لهم صالح: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾[الشمس: ١٣] أي: احذروا قتلها ولا تمنعوها شربها، فقالوا: ما كنا لنفعل، فقال: ما تعقرونها أنتم، بل يوشك أن يولد فيكم مولود يعقرها، قالوا: وما علامته فوالله ما نجده إلَّا قتلناه، فقال: غلامٌ أشقر أزرق أحمر قصير أصهب سناط، وهو أحمر ثمود.

وكان في المدينة شيخان عزيزان لأحدهما ابن يُرغَبُ له عن المناكح، وللآخر ابنة لا يجد لها كفؤاً، فتناكحا، فولد بينهما ذلك المولود، وكان قوم صالح قد وضعوا الشُّرَط مع القوابل يطوفون على النساء، يقتلون كل مولود ولد بهذا الوصف، فلما ولد هذا المولود نظر إليه النساء فصرخن وقلن: هذا والله عاقر الناقة، وأرادوا قتله، فمنعه جدَّاه من القتل، وكانا منيعين.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: حدثنا محمد بن حمدون بإسناده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن زمعة قال: ذكر رسول الله ﷺ عاقرَ النَّاقة، فقال: «انتدب لها رجلٌ

عارمٌ ذو عزٍّ ومَنَعة في قومه كأبي زَمْعَة» وذكر الحديث[١].

وقال الثعلبي: كان أشقر أزرق قصيراً، واسمه قديرة[٢].

وقال الجوهري: قُدار بن سالف[٣]، بالدَّال المهملة. وهو الأصح.

وقال وهب: وكان في المدينة ثمانية رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فانضافوا إلى المولود فصاروا تسعة.

وذكر وهب أسماءهم فقال: مصدع بن دهر، وأسلم، ورهمي، ورهيم، ودعمي، ودعيم، وقبال، وصداق، وقدار بن سالف، قال وهب: وكان الثمانية حاكة، وكان في المدينة امرأتان لهما جمال فرآهما قدار ومهجع[٤]، قال مقاتل: إحداهما اسمها عنيزة بنت غنم، والأخرى صدوف بنت المحيَّا، فقالت صدوف: من يكفينا أمر الناقة؟ فقال قدار: أنا فما لي عندك؟ فقالت: نفسي، وقالت عنيزة للآخر كذلك، فقالا: ميلا علينا بالخمر، فشربا حتى سكرا وطلبا منهما الزنا فقالتا حتى تفرغا من أمر الناقة. وكان قد استغويا النفر الذين سمَّيناهم فخرجوا إلى النَّاقة وهي على الحوض قائمة فضربها قُدار على عرقوبها فوقعت. وقال مجاهد: رماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، ثم شدَّ عليها بالسيف فكسر عرقوبها. ثم نحرها، وقالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[الأعراف: ٧٧]من العذاب.

وجاء الخبر إلى صالح فأقبل فرآها كذلك، فوقف يبكي، فجاء قومه يعتذرون إليه ويقولون: إنما عقرها فلان وفلان.

ولما عقرت صعد فصيلها إلى الجبل، فقال لهم صالح: انظروا فإن أدركتموه فعسى أن يُرفَعَ عنكم العذاب. فمضوا خلفه فلم يقدروا عليه. ولما علا على الجبل رغا ثلاثة أصوات، وهذا الجبل يقال له: القارة، وكان قصيراً، فلمَّا قصدوا الفصيل طال إلى عنان السماء. وصعد صالح ورآه، فلمَّا رآه سالت دموع الفصيل على خدَّيه، فقال لهم صالح: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[هود: ٦٥] لكل رغوة يوم، وآية العذاب أن

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٢٣)، والبخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥).

(٢) «عرائس المجالس» ص ٧٠، وفيه: اسم أمه قديرة.

(٣) «الصحاح»: (قدر).

(٤) كذا في (ل)، ولعله «مصدع»، انظر «عرائس المجالس» ص ٧٠.

تصبح وجوهكم في اليوم الأول محمرَّة، وآية العذاب أن تصبح في اليوم الثاني مصفرَّة، والثالث مسودَّة، وذلك في يوم الخميس والجمعة والسبت. وكانوا في ذلك الوقت يسمُّون الأيام بأسمائها القديمة: فيوم الخميس مؤنس، والجمعة عَروبة، والسَّبت شيار.

فأصبحت وجوههم في اليوم الأوَّل كأنما طليت بدم، وفي اليوم الثاني كأنما طليت بالخَلوق، وفي اليوم الثالث كأنما طليت بالقار. ونودوا ألا إن العذاب قد حضر، فتحنَّطوا وتكفَّنوا بالأنطاع، وحفروا قبورهم ونزلوا فيها، ظنّاً منهم أن الله يرحمهم. فإذا بجبريل عليه السَّلام قد ظهر من المشرق، فسدَّ عين الشمس وصاح بهم صيحةً ارتجَّت لها الدنيا وقال: موتوا لعنكم الله. فتقطَّعت قلوبهم في صدورهم وماتوا جميعاً.

وكان رجل منهم يقال له: أبو رغال في حرم مكة، فمنعه الحرم من العذاب، وسنذكره في قصَّة أصحاب الفيل.

قال ابن عباس فذلك معنى قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] ومعنى تمتعوا: عيشوا ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾[هود: ٦٧] أي: هالكين صرعى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ﴾ [هود: ٦٨] أي يقيموا.

قال قتادة: كان مُلْكُ ثمود إلى أن هلكوا مئتين وثمانين سنة، وكان ملكهم جندع بن عمرو، وقد أسلم فنجَّاه الله تعالى، واعتزلهم هو وأخوه، وقال: [من البسيط]

كانَت ثمودُ ذوِي عَزمٍ[1] ومكرُمةٍ ... ما إنْ يضامُ لهمْ في النَّاس من جارِ
فأهلكوا ناقةً كانت لربهمُ ... قَد أنذَرُوها وكانوا غيرَ أبرارِ

قال مقاتل: واسم العذاب الذي عذِّبوا به الطغوى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١﴾[الشمس: ١١] ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ الدمدمة: الهلاك بعنف، وهي صيحة جبريل ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾[الشمس: ١٤] أي: قلب بيوتهم فسوَّاها بالأرض ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾[الشمس: ١٥] أي: العاقر، لأنه لو خاف لما عقرها.

---

(١) في مروج الذهب ٣/ ٩٠: عزٍّ، ونسب فيه البيتان إلى حباب بن عمرو.

قرأت على شيخنا أبي اليمن الكندي رحمه الله في معنى «فدمدم» حكايةً قرأها على شيخه أبي منصور ابن الجواليقي عن مشايخه، عن الأصمعي قال: أشكل عليَّ في القرآن مواضع، فسألت عنها رجالاً من أهل العلم فلم أجد عندهم علماً منها، فدخلت البادية أطلب العرب الخُلَّص، فنزلتُ على عجوز، قال: والذي أشكل عليَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾[الانشقاق: ١٤] ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾[ق: ١٠] ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾[الرحمن: ٣٥] ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾[الشمس: ١٤] ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[يس: ٣٩].

قال: فأقمت عند العجوز ذلك اليوم فقالت لابنتها: أين العصفور الذي كان ها هنا؟ فقالت: ذهب، فقالت: قومي فانظري ما حاله، فقامت وذهبت، وعادت وبيدها عصفور فأخذته العجوز وقالت: ويحك، ظننتُ أن لن تحورَ. أي: ترجع إلينا، فقلت: هذه واحدة.

ثم قالت: أين أبوك؟ فقالت: عند تلك الباسقة. وأشارت إلى نخلة عالية، فقلت: هذه الثانية.

فقالت: اذهبي إليه ليحضر إلى الضيف، فذهبت وعادت ثم قالت: مضى إلى ذلك النُّحاس. وأشارت إلى دخان بعيدٍ. فقلت هذه الثالثة.

ثم جاءت بقصعة فيها ثريد فأكلت منها ثم قالت: يا بنيَّة اغسلي القصعة ودمدميها، فغسلتها وكبَّتها، قال: فقلت: وهذه الرابعة.

ونمت عندهم فلمَّا كان آخر الليل قالت: يا بنية، اجلبي للضيف، فقالت: إنه ليل، فلما طلع الفجر قالت: يا أمَّاه، قد طلع الفجر، فقالت: ومن أين علمت؟ قالت: قد برد عرجوني، يعني خلخالها، قال: فانصرفت وقد استفدت من العجوز جميعَ ذلك.

وقال ابن عباس: كان صالح ينزل الحِجر وبينه وبين وادي القرى ثمانية عشر ميلاً. ولما سار النبي ﷺ إلى تبوك لم ينزل الحجر، وسنذكره في سيرته.

قال مقاتل: وضربت بهم العرب المثل في الشؤم فقالوا: أحمر ثمود، وقالوا في الفصيل: رغا فوقهم سقب السَّماء، فصار مثلاً لكل من يهلكه الله تعالى.

وقال علماء السِّير: لما هلكوا قال صالح لمن آمن معه: إنَّ هذه دار سخط فاظعنوا بنا عنها. واختلفوا أي مكان نزل؟

فقال الحسن: نزل بلاد فلسطين وأقام بالرَّملة.

وقال السُّدي: أهلَّ من ساعته بالحج هو ومن آمن معه في العباء القطواني، وركبوا قلائص مخطمة بحبالٍ من ليف، ثم لبُّوا وأتوا مكة، فأقاموا يتعبَّدون حتى ماتوا، فقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة والحجر.

وكذا قال ابن قتيبة(١).

قال: وأقام في قومه عشرين سنة، وتوفي وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وقيل: ابن ثلاث مئة وست وثلاثين سنة، وقد حكاه الخطيب عن ابن عباس، وهو الأظهر(٢).

وأهل التوراة يقولون: لا ذكر لعاد وثمود فيها، وقد كذبوا الله أصدق القائلين.

وقال ابن قتيبة: كان صالح زاهداً يمشي حافياً ولا يتخذ حذاء، ولا مأوى له إلا المسجد، وكان مع الناقة أينما توجَّهت(٣). وعيسى بن مريم سلك طريقه في الزُّهد.

ويقال: إن دانيال الأكبر الذي حفر دجلة والفرات كان بين نوح وإبراهيم، وقيل: في أيام صالح، وقيل: بينه وبين هود، وقيل: بعد الطوفان.

وذكروا أنَّ أنفه كان طوله ذراعاً، وهو الذي وجد المسلمون قبره بالعراق في زمان الفتوح، وسنذكره.

وأمَّا دانيال الأصغر فإنَّه كان في زمان بُخْتَنَصَّر، وسنذكره إن شاء الله تعالى في أيام بُخْتَنَصَّر.

ويقال: إنه كان بين هود وصالح مئة سنة، وبين صالح وإبراهيم ست مئة وثلاثون سنة



(١) «المعارف» ص ٢٩_٣٠.

(٢) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٣٢، والمنتظم ١/ ٢٥٦.

(٣) «المعارف» ص ٢٩.

فَصلٌ
في ذِكْر الخَليل عَلَيهِ السَّلام(١)

اختلفوا في نسبه على قولين:

أحدهما: أنه إبراهيم بن تارَح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن عابر بن شالخ بن قينان بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح، حكاه السّدي عن أشياخه.

والثاني: إبراهيم بن تارَح بن أشرغ بن أرغو بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح، قاله وهب وابن قتيبة. قال ابن قتيبة: قابلت هذا النسب بما في التوراة فوجدته موافقاً لما فيها إلّا أني وجدت مكان أشرغ: شاروغ(٢).

واتفقوا على أن تارَح هو آزر، وبعضهم يقول: إنّ آزر اسم صنم، وليس بصحيح، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[الأنعام: ٧٤].

وفي «إبراهيم» لغات ذكر بعضها الجوهري وبعضها ابن الجواليقي في «المعرب».

فأمَّا الجوهري فقال: وإبراهيم اسم أعجمي وفيه لغات: إبراهَامُ وإبراهَمُ [وإبراهِمُ](٣).

وقال ابن الجواليقي: وأمَّا إبراهيم ففيه لغات، قرأت على أبي زكريًّا عن أبي العلاء قال: إبراهيم اسم قديم وليس بعربيّ وقد تكلَّمت به العرب على وجوه فقالوا: إبراهيم وهو المشهور وإبراهَام [وقد قرىء به، وإبْراهِمُ على حذف الياء، وإبرَهَم](٤).

وقال الجوهري: وآزر اسم أعجمي(٥).

وقال البلاذُري عن الشرقي بن قطامي أن معنى آزر: السيّد المعين.

---

(١) انظر قصته في «تاريخ اليعقوبي» ١/ ٢٤، و«تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٣، ومروج الذهب ١/ ٨٣، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٤٥، و«عرائس المجالس» ص ٧٤، و«تاريخ دمشق» ٦/ ١٦٤، و«المنتظم» ١/ ٢٥٨، و«الكامل» ١/ ٧٢، و«البداية والنهاية» ١/ ١٣٩.

(٢) «المعارف» ص ٣٠.

(٣) «الصحاح»: (برهم)، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٤) «المعرب» ص ٦١، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٥) «الصحاح»: (أزر).

وقال سلمان التيمي: معنى آزر شين وعيب، وقيل: معناه في لغتهم المعوج.

وقال وهب: اسم أم إبراهيم نوتا بنت كرنبا من بني سام بن نوح، وكرنبا هو الذي حفر نهر كوثا بالعراق، نسب إلى أبيه أو إلى كوثا. وكوثا مدينة بابل، وكوثا قرية من سواد الكوفة، ومحلَّة بالكوفة، وبمكة أيضاً، وكان أهلها يؤذون النبيّ ﷺ[(١)]، وفيهم يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه[(٢)]: [من الخفيف]

لعن الله أهل كوثاء داراً ... ورماها بالذلّ والاحتقار

لست أعني كوثا العراق ولكن ... ربّة الدار دار عبد الدار

وأراد عليّ رضي الله عنه بكوثا الثانية محلة بالكوفة كان ينزلها، قال: وهو معنى قوله: نحن من أهل كوثا. فأمّا كوثا العراق فهي مدينة بابل، ولم يذكرها الجوهري ولا في «المعرَّب».

وقال ابن سعد في «الطبقات»: وكنية إبراهيم أبو الأضياف[(٣)].

فصل في أسمائه

قد سمَّاه الله تعالى بأسماء كثيرة:

منها: الأوَّاه، لقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٤] وكان يكثر التأوُّه في الصلاة خوفاً من الله تعالى.

ومنها: الحليم والمنيب ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾[هود: ٧٥].

ومنها: الحنيف ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾[البقرة: ١٣٥] والحنيف: المائل إلى الدِّين.

ومنها: القانت والشاكر إلى غير ذلك. وقيل: إنَّ هذه أوصافٌ له.

وقال مقاتل: قد ذكر الله إبراهيم في القرآن في أحدٍ[(٤)] وسبعين موضعاً.

(١) إلى هنا ينتهي الخرم في (ب).

(٢) البيتان لحسان بن ثابت رضي الله عنه وهما في ديوانه ص ١٠٩، وتاريخ بغداد ١/ ٢٨٧، ورواية الديوان:

لعن الله منزلاً بطن كوثى ... ورماها بالفقر والإمعار

لست أعني كوثى العراق ولكن ... شرة الدور دار عبد الدار

(٣) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٧.

(٤) في (ب) و(ل): إحدى، والمثبت من (ط).

وكان النبي ﷺ يثني عليه، قال أحمد بن حنبل بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رجلٌ لرسول الله ﷺ: يا خير البريَّة، فقال: «ذاك إبراهيمُ عليه السَّلام». انفرد بإخراجه مسلم[١].

وقال هشام: لم يكن بين نوح وإبراهيم إلّا هود وصالح، وكان بين إبراهيم وهود ست مئة سنة وثلاثون سنة، وبين نوح وإبراهيم ألف ومئة وثلاث وأربعون سنة، وسنذكر ما بين النبيين من السنين فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأكثرهم على أنه ولد بأرض بابل، إلا في قول[٢].

رجعنا إلى الحديث: قوله ﷺ عن إبراهيم: إنه خير البريَّة، قال أبو سليمان الخطابي: إلَّا أنَّ هذا الحديث منسوخ بقوله ﷺ: «أنا سيِّد ولدِ آدم»[٣].

ولمسلم أيضاً عن جابر عن النبي ﷺ قال: «عُرض عليَّ الأنبياءُ فرأيتُ إبراهيمَ فإذا أقرَبُ من رَأيتُ شبيهاً صَاحِبُكم» يعني نفسه، وذكر موسى وعيسى[٤]. وسنذكره في موضعه.

وقال ابن عباس: سمَّى الله الخليل شجرة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[النور: ٣٥] وإنما سمَّاه شجرة لأنَّ أكثر الأنبياء من صلبه، وقد ذكرنا أنه ولد بأرض بابل إلا في قول.

ذكر مولده عليه السَّلام

قال علماء السِّير: ولد الخليل في زمان نمرود الجبَّار، رأى المنجِّمون والكهَّان سيرته في علومهم، فقالوا لنمرود بن كنعان: إنَّا لنجد في علومنا أنَّ غلاماً يولد في قريتك هذه يفارق دينكم ويكسر أوثانكم، يقال له: إبراهيم، يولد في شهر كذا وكذا في سنة كذا وكذا.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٨٢٦)، ومسلم (٢٣٦٩).
(٢) انظر الاختلاف في مكان ولادته ﷺ في «تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٣.
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) أخرجه مسلم (١٦٧)، ولفظه: فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم.

فلمَّا دخلت السنة المذكورة بعث نمرود إلى كلِّ حامل فحبسهنَّ عنده ولم يعلم بحبل أم إبراهيم، فجعل لا يولد غلام في ذلك الشهر إلّا ذبحه[١].

قلت: وهذا من سفه نمرود، لأنه إن كان قد جرى القدر بإزالة ملكه ودينه فلا بدَّ من ذلك، ولا ينفع الاحتراز، وإن لم يكن جرى القدر بذلك فأين الغلام المطلوب حتى يذبح الغلمان كلهم؟! وعلى هذا قصة فرعون لما أمر بذبح الأطفال احترازاً من موسى عليه السَّلام.

وقال وهب: إنما وجد مولد إبراهيم وسيرته في علوم إدريس، ومن هناك أخذ المنجمون.

وقال الضحَّاك: رأى نمرود في منامه كأنَّ كوكباً طلع فذهب بضوء الشمس والقمر، فارتاع ودعا بالسَّحرة والكهَّان والقافة فأخبرهم بما رأى، فقالوا: يولد مولود من صفته كذا وكذا.

وقال ابن إسحاق: لم تعلم أم إبراهيم بحبلها لأنَّها كانت جارية حديثة السنِّ[٢].

وقال السُّدي: كان آزر من خواصِّ نمرود، لما قال له الكهَّان ما قالوا خرج من المدينة فنزل ظاهرها، فعرض له أمر مهم إلى قصره، فقال لآزر: أنت أميني وصاحبي، اذهب إلى الحاجة الفلانية ولا تلمَّ بأهلك، فقال آزر: أنا أشَحُّ على أمانتي من ذلك. فلمَّا دخل المدينة وقضى الحاجة قال: ما يضرني لو نظرتُ إلى أهلي من غير مباشرة؟ فجاء إلى منزله فواقع امرأته، فحملت بإبراهيم وأخبرت الكهنةُ نمرودَ بأنَّ أمَّ الغلام قد حملت به في هذه الليلة، فلم يذهب فكره إلى آزر ثقةً به، وأقامت أمُّ إبراهيم تخفي حملها إلى زمان ولادتها، وضربها الطلق فخرجت إلى مغارة فوضعته هناك، ثمَّ سدَّت بابها، وكانت تتعاهده فتراه يمصُّ إبهامه واللَّبن يدرُّ منه[٣].

وقال مقاتل وابن إسحاق: كان يمصّ من إصبع لبناً، ومن إصبع عسلاً ومن أخرى

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٤، و«المنتظم» ١/ ٢٥٩.
(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٣٤.
(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٧٥.

ماء. وسألها آزر عن حملها فقالت: ولدت جاريةً ميتة، فسكت عنها.

وذكر الثعلبي: أن أمَّه أخبرت أباه به فحفر له سَرَباً وسدَّ عليه الباب بصخرة مخافة السّباع.

واختلفوا في أيّ مكان ولد على أقوال:

أحدها: ببابل من أرض السَّواد، مدينة نمرود، قاله ابن عباس.

والثاني: بكُوثا، مكان محلّة بالكوفة، قاله مجاهد.

والثالث: بالسُّوس من أرض الأهواز، قال عكرمة.

والرابع: بين الكوفة والبصرة، قاله السُّدي.

والخامس: بكَسكر ثم نقله أبوه إلى كوثا، قاله الرَّبيع بن أنس.

والسادس: بحرَّان ثم نقله أبوه إلى بابل، قاله وهب. والأول أصح.

وقال السُّدي: لمّا تبيّن حملها، حَمَلها آزر إلى أرضٍ بين الكوفة والبصرة يقال لها: أورى، فأنزلها في سَرَب، وجعل عندها ما يصلحها، فولدت هناك، ثم ردَّها إلى بابل.

وقال الحافظ أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن ابن عباس: أنَّ أمَّه كانت تَخْبَؤُه في كهف في جبل قاسيون، بقريةٍ يقال لها: برزة، في الموضع الذي يعرف اليوم بمقام إبراهيم، وأنه ولد في هذا المكان ويسمّى برزة قاسيون.

ثم اعترف أبو القاسم بالحقِّ ووافق أرباب السِّير فقال: والصحيح أنه ولد بكوثا من إقليم بابل من أرض العراق، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه لمّا هاجر إلى الشام صلى فيه[1]. وهذا أشهر.

فصل في النماردة

قال علماء السِّير: النماردة ستة:

أحدهم: نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن كوش بن حام بن نوح وقيل: نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش وملك الأقاليم كلها، وهو أول من لبس التاج

(١) تاريخ دمشق ٦/ ١٦٤.

في قول السُّدي، وادَّعى الربوبيَّة، وعمل بأحكام النجوم وكان أجبرَ النماردة.

قال السُّدي: وهو أحد الأربعة الذين ملكوا الدنيا في قوله عليه السّلام: «ملك الدنيا مؤمنان وكافران» وقد ذكرنا الحديث(١)، وهو أحد الكافرين.

وقال هارون بن المأمون: كان نمرود هذا غلاماً للضحَّاك بن الأهبوب، وهذا هو صاحب النسور.

والثاني: نمرود بن كوش بن حام جدّ هذا، قاله مقاتل.

والثالث: نمرود بن شاش بن كنعان بن حام بن نوح.

والرابع: نمرود بن سنحاريب بن كوش بن كنعان.

والخامس: نمرود بن ساروغ بن أرغو بن فالغ من ولد سام بن نوح.

والسادس: نمرود بن كنعان بن المضّاض بن يقطن، أو يقطان، من ولد سام بن نوح.

قال مقاتل: فأربعة منهم من ولد حام بن نوح، واثنان من ولد سام بن نوح.

فصل فيما جرى للخليل عليه السّلام في السَّرَب ورؤيته الكواكب

قال السُّدي فيما رواه عن أشياخه: كان إبراهيم يشبّ في كل يوم مثل ما يشبّ غيره في شهر، وفي شهر مثل غيره في سنة، وفي سنة مثل غيره في سنتين.

وقال مقاتل: لما أتى عليه سنة تكلَّم، وهو أول كلامه، فقال: يا أمَّاه من ربي؟ قالت: أنا، قال: ومن ربّك؟ قالت: أبوك، قال: ومن ربُّ أبي؟ قالت: نمرود، قال: ومن ربُّ نمرود؟ فلطمته وقالت: اسكت. ثم رجعت إلى أبيه وقالت: أرأيت الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغيّر دينَ أهل الأرض؟ قال: لا، قالت: إنه ابنك. ثم أخبرته بما قال، فجاء إليه أبوه فقال له مثل ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الأنعام: ٧٥] الآية. قال مجاهد: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ﴾ الضمير يعود على قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ

(١) سلف في فصل من ملك الأرض وسلكها وقطع سبلها.

مِن قَبْلُ﴾[الأنبياء: ٥١] وهو قوله لأمه: من ربُّكِ، فإنَّ الله ألهمه التوحيد والإيمان. وكذا أريناه ملكوت السَّماوات والأرض. و«الملكوت»: الملك زيدت فيه الواو والتاء كما زيدت في الجبروت.

وقال مقاتل: والمراد بملكوت السماوات: الشمس والقمر والنجوم والأفلاك والأملاك ونحوها، وبملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار والأنهار والمعادن والحيوانات والنبات.

قال مجاهد: وهذا كله رآه في النهار عياناً، كشف عن السَّماوات فرأى العرش، وعن الأرض فرأى الأرض السابعة.

وقال مقاتل: إنما رأى ملكوت السماء في الليل، وملكوت الأرض في النهار.

وقال ابن عباس: أري خلق السَّماوات والأرض.

وقال سعيد بن جبير: آيات السماوات والأرض، أقيم على صخرة وكشف له عن ذلك حتى نظر إلى مكانه في الجنَّة.

وحكى الثّعلبي عن قتادة قال: إنَّ إبراهيم عليه السَّلام حدَّث نفسه أنّه أرحم الخلق، فرفعه الله حتى أشرف على أهل الأرض، ورأى أعمالهم، فلمّا رآهم يعملون بالمعاصي قال: اللهمَّ دمّر عليهم، والعنهم، فقال له ربُّه: أنا أرحمُ بعبادي منك، اهبط، لعلَّهم يتوبون.

وقال الثعلبي بإسناده عن قيس بن أبي حازم، عن عليّ كرّم الله وجهه، عن النبي ﷺ قال: «لمّا أرى الله إبراهيم ملكوت السّماوات والأرض أشرف على رجل يَعْصي الله فدعا عليه فهلك، ثم أشرف على آخر فدعا عليه فهلك، وعلى آخر، فلمّا أراد أن يدعو عليه أوحى الله إليه أن يا إبراهيم، إنَّك رجلٌ مُجابُ الدَّعوة فلا تدعونَّ على عبادي، فإني منهم على ثلاث خصال: إمّا أن يتوبوا فأتوبَ عليهم، وإمّا أن أُخْرِجَ منهم نسمةً تسبّح، وإمّا أن يبعثوا إليّ فإن شئتُ عفوتُ عنهم وإن شئتُ عاقبتهم»[(١)].

قلت: وينبغي أن تكون هذه الآية مؤخّرة في التلاوة لأنه إنما أري ملكوت

---

(١) انظر هذه الآثار في تفسير الطبري ٨/ ٣٤٧ـ٣٥١.

السماوات والأرض - على قولهم - وهو في السّرب، ابن سنة أو سنتين أو ثلاث، فكيف يقال له: أنت رجل مجاب الدّعوة؟!

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾[الأنعام: ٧٦] إلى آخر القصَّة.

قال علماء السِّير: لما قال لأبويه: مَن ربي؟ وأنكرا عليه قال: أخرجوني من السَّرَب، فأخرجاه. و«جنَّ الليل»: أظلم وغطَّى كل شيء، ومنه سمِّيت الجنُّ لاجتنانها فلا ترى. وقال أبو عبيدة: جنون الليل سواده[(١)].

واختلفوا في الكوكب الذي رآه:

فقال مجاهد: المشتري. وقال مقاتل: الزهرة. وقال ابن عباس: رأى أنورَهما وأشرَقهما، أو أنورَها وأشرَقها، وإنما رأى الكوكب قبل القمر، لأنها كانت آخر ليلة في الشهر والقمر لا يطلع فيها في أوَّل الليل[(٢)].

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾[الأنعام: ٧٦] قال الرَّبيع: معناه لا أحبُّ ربّاً لا يدوم ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعاً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ قال ابن عباس: عَبَد الكوكب حتى غاب، ثم عبَدَ القمر حتَّى غاب. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[الأنعام: ٧٧] أي: عن الهدى ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾[الأنعام: ٧٨] فعبَدَها حتى غابت؛ وقد نصَّ ابن عباس على هذا.

فإن قيل: فلمَ لَمْ يقل في الشمس: هذه ربي، وقال: هذا ربي؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه رأى ضوء الشمس وهو الشعاع، ولم ير عين الشمس فردَّ النظر إلى الشعاع، ذكره محمد بن مقاتل الرَّازي.

والثاني: أنه أراد الطالع، أي: هذا الطَّالع ربي، فإنه أضوأ وأعظم، حكاه الأخفش.

والثالث: أنَّ على رأي المنجمين أنَّ الشمس ذكر والقمر أنثى[(٣)]، وهذا جواب لم أُسبق إليه.

---

(١) انظر مجاز القرآن ١/ ١٩٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ٩/ ٣٥٦، وزاد المسير ٣/ ٧٣.

(٣) انظر زاد المسير ٣/ ٧٥-٧٦.

فصل في الكلام على الآية

واختلفت العلماء في هذا فأجراه بعضهم على ظاهره وقالوا: إنما كان إبراهيم مسترشداً طالباً للتوحيد حتى وفَّقه الله تعالى وآتاه رشده. ومثله قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[الشورى: ٥٢] ومعناه: فلمّا آتاك علمت.

قالوا: وهذا كان في زمان الطفولة، فإنه كان ابن سنة أو ثلاث، والدليل عليه قول ابن عباس: فلمَّا رأى الكوكب عبده، فلما رأى القمر عبدَهُ. وأنكر الآخرون هذا ـ وهؤلاء القائلون بتنزيه الأنبياء عليهم السّلام ـ وقالوا: هذا التأويل غير مستقيم لأنّ الأنبياء منزَّهون عن هذا، وغير جائز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلَّا وهو لله مُوحِّد وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، وخصوصاً الخليل، فإنّ الله آتاه رشده من قبل، وقال: ﴿أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٩] فكيف يُتوهم هذا على من عصمه الله وطهَّره وجعله أصل الأنبياء، وقال في حقِّه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾[الأنعام: ٧٥] أفتراه أراه الملكوت ليوقن، فلمّا أيقن كان ثمرة إيقانه أنّه لمّا رأى الكوكب قال: هذا ربي؟! هذا غير جائز.

قالوا: وفيه أربعة أوجه من التأويل:

أحدها: أن إبراهيم أراد أن يستدرجهم بهذا القول، ويعرّفهم خطأهم وجهلهم، ويقيم الحجة عليهم، فأراهم تعظيم ما عظَّموا وملتمس الهدى من حيث ما التمسوا، فلمّا أفل أراهم النَّقص الداخل على النجوم، ليتيقَّنوا خطأ ما كانوا يدَّعون من تعظيم النجوم وعبادتها. قالوا: ونظير هذا الحواري الذي ورد على قوم يعبدون صنماً لهم، فأظهر تعظيمه وأراهم الاجتهاد في دينهم فأكرموه وعظَّموه، وصدروا في كثير من الأمور عن رأيه إلى أن دهمهم عدوّ لهم خافه الملك على مملكته، فشاوروا الحواريَّ في أمره فقال: الرَّأي أن ندعو إلهنا ـ يعني الصنم ـ حتى يكشف ما بنا فإنَّا لمثل هذا اليوم كنا نرجوه. فاجتمعوا حوله يجأرون ويتضرَّعون، وأمرُ عدوّهم يستفحل. فلمّا تبيَّن لهم أن صنمهم لا ينفع ولا يدفع ولا يسمع قال الحواريّ: ها هنا إله تدعونه فيسمع ويجيب وينفع، فهلمّوا ندعوه، فدعوا الله تعالى وتضرَّعوا إليه، فصرف عنهم ما كانوا

يخافون من عدوّهم، فأسلموا.

والوجه الثاني: أنَّ إبراهيم رآهم يعبدون الشمس والقمر والنجوم، فقال لهم ـ على سبيل الاستفهام والتوبيخ، مُنكِراً لفعلهم ـ: هذا ربي؟! أي أهذا ربي أم لا؟.

والثالث: أنَّ معناه: ليس هذا ربّاً لي، ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والرّابع: أن في الآية تقديماً وتأخيراً وإضماراً، وتقديره: ويقولون هذا ربي، حكاية عنهم[١].

قلت: وقد بسط أبو إسحاق الثعلبي الكلام في هذا الوجه وبالغ، والعجب منه ـ وقد اتفق العلماء ـ أنه إنما قال ذلك عند خروجه من السَّرَب، وهو ابن ثلاث سنين، فيا ليت شعري: أين كان قومه في ذلك الوقت؟ وهل كانت أمه وأبوه يخبران بحاله مخافة عليه؟ فقوله في الوجه الأول إنه أراد أن يستدرجهم باطل، وأمَّا عن الوجه الثاني وما بعده فإنَّ حروف الاستفهام لا تضمر إذا كان الاستفهام فارقاً بين الإخبار والاستخبار، فلا يقال هذا زيد في الإخبار، ومعناه: أهذا زيد، وكذا قولهم معناه: هذا ربّاً لي، لا يجوز أن يحمل الاستفهام على ليس ولا الإخبار، وكذا قولهم إنه حكاية عنهم، لأنه يكون حينئذ عدولاً عن الحقيقة إلى المجاز، وأنه قلب الموضوع.

والصَّواب: حمل الكلام على ظاهره، وأن ذلك وقع من الخليل وهو في زمان الطفولية، والأنبياء غير معصومين في تلك الحالة، فَحَمْلُ الكلامِ على ظاهره مع إقامة عذر الخليل أولى من حَمله على هذه التأويلات الضعيفة.

والدَّليل على صحَّة هذا قوله عقيب ذلك: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام: ٧٩] الآية.

فصل في كسره الأصنام

قال وهب بن منبه: يقال: إنَّه أقام في السَّرَب ثلاث سنين، وقيل: سبع سنين. فلمَّا

(١) انظر تفسير الطبري ٩/ ٣٥٦ـ٣٦٠، وزاد المسير ٣/ ٧٣ـ٧٥.

أظهر آزر أنه ابنه وأنه كان غائباً عنه رقَّ عليه أبوه، وكان أبوه يعمل الأصنام فيعطيه الصنم ليبيعه، فيخرج به إلى السوق فيقول: من يشتري مني ما لا ينفعه ويضرُّه، كذا روى وهب(١).

وذكر جدي في «التبصرة»: أنه كان يقول: من يشتري من يضره ولا ينفعه(٢).

ثم يأتي بها إلى النهر فيضرب رؤوسها ويقول: اشربي، استهزاء بها وبقومه، لما هم عليه من الضَّلال، حتى فشا عيبه إيَّاها في أهل البلد، وجعل يقول لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[الأنبياء: ٥٢] أي: مقيمون على عبادتها، ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝﴾[الأنبياء: ٥٣] فنحن نقتدي بهم ونقلِّدهم.

قال ابن عباس: وكان لهم يوم عيد يجتمعون فيه، فخرج معهم ثم ألقى نفسه في الطريق، وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[الصافات: ٨٩].

فإن قيل: فكيف نظر نظرة في النجوم؟ قلنا: إنما قصد موافقتهم، لأنهم كانوا ينظرون في النجوم، ليتمكن من كسر الأصنام، فلا ينكرون عليه. ومعنى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: سأسقم، لأن الإنسان لا يخلو من السقم. وقيل معناه: إني سقيم عن عبادتها، فكان من المعاريض.

فلمَّا مضوا وتركوه قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾[الأنبياء: ٥٧] والكيد احتيال الكائد في ضرِّ المكيد. وكان لهم اثنان وسبعون صنماً من ذهب وفضة وغير ذلك من الرَّصاص والصُّفر والنُّحاس والخشب وغيرها، وكان كبيرهم من ذهب، وعيناه ياقوتتان. وكانوا في ذلك العيد يذبحون الذبائح ويقربون القرابين، ويضعون الطعام بين يدي الأصنام قبل خروجهم إلى عيدهم، يزعمون للتبرك عليه، فإذا انصرفوا من عيدهم دخلوا عليها فأكلوه.

﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: ٩٠] أي: إلى عيدهم. فدخل إبراهيم دار الأصنام، فكسر الجميع، وعلَّق الفأس في رأس الصنم الكبير، فلمَّا فرغوا من عيدهم دخلوا عليها فرأوها على تلك الحال.

---

(١) انظر عرائس المجالس ٧٦.

(٢) «التبصرة» ١/١٠٦.

قال مقاتل: فذلك قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾[الصافات: ٩١] يعني من الطعام الذي بين أيديهم، يستهزىء بهم. ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾[الصافات: ٩٣] لأنها أقوى عملاً من اليسار[١]. وكان قد أقسم بقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾[الأنبياء: ٥٧] ففعل ما حلف عليه. واليمين: القوَّة.

﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾[الصافات: ٩٤] وهو حال بين الإسراع والرويد، ومنه زفيف النعام بين المشي والطيران ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٥٩] يا إبراهيم، فنمَّ عليه رجل كان قد سمعه يقول: والله لأكسرنَّها، فقال ذلك النمَّام: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[الأنبياء: ٦٠] أي: يعيبهم ويسبهم ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] ومعنى: أعين الناس أي: بمرأىً منهم وفي ﴿يَشْهَدُونَ﴾ قولان، أحدهما: عذابه. والثاني: يشهدون عليه أنه فعل ذلك.

قال ابن عباس: كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة. فلما حضر ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣] غضب أن يعبد معه الضعفاء فكسرها.

وكان الكسائي يقف على قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ ثم يبتدىء فيقول: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣، ٦٤][٢] حيث عبدتم من لا يتكلم.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾[الأنبياء: ٦٥] أي: أدركتهم حيرة وقالوا: قد ظلمناه وما نرى الأمر إلا كما قال ولكن أرادوا أن ينصروا آلهتهم.

قال مقاتل لما جادلوه قال لهم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] أي: وعملكم.

قلت: وفي هذه الآية دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وعلى أنها مكتسبة للعباد حيث أثبتت لهم عملاً، فأبطل مذهب القدريَّة والجبريَّة.

---

(١) من قوله ولا الإيمان ومعناه فلما آتاك . . . إلى هنا ليس في (ب).

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ١٠٧، و«زاد المسير» ٥/ ٧٦٠.

فصل في مناظرته لنمرود

قال علماء السير: لما ألزمهم إبراهيم الحجَّة حملوه إلى نمرود، وقالوا: هذا فعل بآلهتنا، وقال لنا كذا وكذا.

وأصل حاجَّ من الحجة، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾[البقرة:٢٥٨] وهل كانت هذه المناظرة بعد أن ألقي في النار أم عقيب كسر الأصنام؟ فيه قولان.

وقال مقاتل: لما كسر الأصنام حبسه نمرود سبع سنين ثم أخرجه فناظره، فقال: من ربك؟

وقال أحمد بإسناده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: كان الناس يخرجون فيمتارون الطعام من نمرود، وكان كلُّ من مرَّ بنمرود يقول له: من ربك؟ فإن قال: أنتَ مَارَهُ، وإن لم يعترف لم يعطه شيئاً، فمرَّ به إبراهيم فقال: من ربُّك؟ فقال: ﴿ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[البقرة:٢٥٨] فردَّه، فرجع وأجماله فارغة، فمرَّ على كثيب رمل أعفر فقال: آخذ منه لئلا أرجع إلى أهلي بغير شيء، فأخذ منه، فلمَّا دخل البيت نام، وكان ليلاً، فقامت امرأته إلى جوالق ففتحته فإذا دقيق حُوَّارى، فخبزت منه، فلمَّا استيقظ رأى الطعام، فحمد الله وفطن، ثم ناظر نمرود بعد ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[البقرة:٢٥٨] هذا جواب نمرود لما قال له: مَن ربُّك؟ فكان جواب سؤال سابق غير مذكور، فقال نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾[البقرة:٢٥٨] قال ابن عباس: دعا برجلين قد استوجبا القتل، فقتل أحدهما واستبقى الآخر، فسمَّى تركَ القتل إحياءً، وهذا من جهله لأنَّ ترك القتل لا يسمّى إحياءً، بل الإحياء يكون بعد الموت. قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي: دهش وتحيَّر وانقطعت حجَّته ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[البقرة:٢٥٨] بترك الحجَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٥/ ٤٣٣ (شاكر)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢/ ٣٢٠ (مخطوط)، ولم أقف عليه عند أحمد.

فإن قيل: فانتقال الخليل من حجَّة إلى أخرى مؤذن بالعجز، فالجواب: إنه ما انتقل عجزاً، وقد كان له أن يقول لنمرود: فأحيي من أَمتَّ إن كنت صادقاً، وهذا له نظير في العالم، أمَّا إتيان الشمس من المغرب فليس له نظير في العالم، لأنه لا يقدر عليه إلّا الله تعالى، حتى لو قال نمرود: أنا أفعل ذلك لم يلتفت إليه، لعدم النظير، فأفحمه وبهته وقطعه وحيَّره، فعدل حينئذ نمرود إلى إحراقه بالنار.

فإن قيل: فقد قال مقاتل: لو قال نمرود: فأنا آتي بها من المشرق فقل لإلهك يأتي بها من المغرب، لكان متوجِّهاً في عناده، قلنا: لم يكن متوجهاً لما ذكرنا من عدم النظير، ولو توجَّه فقد نطقت الأخبار بأنَّ الله تعالى يأتي بها في آخر الزمان من المغرب فيكون ردّاً على نمرود.

فصل في إلقائه في النار

قال أرباب السِّير: لما أُفحم نمرود استشار أصحابه فيه، فكل واحد أشار بشيء، فقال رجل منهم: حرِّقه بالنار، فهو أشدُّ لعذابه. قال ابن عباس: فخسف بذلك الرجل فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة. فبنى له نمرود بنياناً إلى سفح جبل طول جداره ستون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، ونادى مناديه: أيّها الناس احطبوا لنار إبراهيم الذي كسر أصنامكم وعابها، فلم يتخلَّف صغير ولا كبير، فأقاموا أربعين يوماً يحتطبون، حتّى إن المرأة كانت تقول: إن ظفرت بكذا وكذا لأحتطبنَّ لنار إبراهيم.

وحكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن عليٍّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه أنه قال: كانت البغال تتناسل وكانت أسرعَ الدوابّ في نقل الحطب لنار إبراهيم، فدعا عليها فقطع الله نسلها وأعقم أرحامها. قال: وكانت الضفادع تسكن النّار، فقال: فجعلت تطفىء النار عنه، فدعا لها فأنزلها الله الماء، وكانت الأوزاغ تنفخ على النار وهو فيها، وكانت أحسنَ الدوابّ، فلعنها وأمر بقتلها[1].

وأسند أبو القاسم حديثاً عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «لمّا ألقي إبراهيم في النّار جعلت الدواب كلّها تطفىء النار عنه إلّا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه» قال: وكان عند

(١) «تاريخ دمشق» ٦/ ١٨٥.

عائشة رضي الله عنها رمح تقتل به الوزغ، وقالت: أمر رسول الله ﷺ بقتل الوزغ، قال: وقد رواه ابن عبّاس وابن عمر(١).

قلت: ولا يصحُّ هذا عن رسول الله ﷺ، وإنما هو موقوف على علي كرم الله وجهه وعائشة رضي الله عنها.

وقال مقاتل: ارتفع لهب النار حتى كان الطَّير يمرُّ بها فيحترق من لهبها، فلمَّا ساوى الحطب رأس الجدار لم يدروا كيف يلقونه، فتمثل لهم إبليس في صورة نجار، فصنع لهم المنجنيق، فهو أوَّل من صنعه، ولم يكن يُعْرَفُ قبل ذلك، فنصبوا المنجنيق على رأس الجبل ووضعوه فيه، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء وقال: اللهمَّ أنت الواحد في السّماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، وليس في السماء إله يُعبَد سِواك، أنت حسبي ونِعم الوكيل(٢).

وروى البخاري عن ابن عباس أنَّ هذه آخر كلمة قالها إبراهيم.

فلمَّا ألقوه عارضه جبريل في الهواء وناداه: يا إبراهيم أَلَكَ حاجة؟ قال: أمّا إليكَ فلا، فقال: سَل من إليه الحوائج، فقال: علمه بحالي يغني عن سؤالي(٣). وفي رواية: أحبُّ الأمرين إليه أحبهما إليَّ.

وقال أهل المعاني: لسان حال الخليل يقول: حاجتي إلى الجليل لا إلى جبريل.

وقال عبد الله بن أحمد بإسناده عن بكر بن عبد الله المزني قال: لما أُلقي إبراهيم في النار جأرت الخليقة إلى ربها وقالت: يا ربّ خليلك يُلقى في النار، فأْذَنْ لنا أن نطفئ عنه، فقال الله تعالى: هو خليلي ليس لي في الأرض خليل سواه، وأنا ربّه ليس في السّماء ربّ غيري، فإن استغاث بكم فأغيثوه، وإلَّا فدعوه. فجاء ملك القطر فقال: يا ربِّ، خليلك يلقى في النّار، فقال: إن استغاث بك فأغثْه، وإلّا فدعه. وفي رواية: وإن لم يدعُ غيري فأنا وليُّهُ، [فلما ألقي في النار دعا ربه] قال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الأنبياء:٦٩] فبردت محل كل نار يومئذ على أهل المشرق

(١) «تاريخ دمشق» ٦/ ١٨٥ـ١٨٦.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٤١ـ٢٤٢، و«المنتظم» ١/ ٢٦١.

(٣) انظر «التبصرة» ١/ ١١٥.

والمغرب فلم ينضج بها كراع[١].

وقال ابن عباس: لم يبق يومئذ في الأرض نارٌ إلّا طفئت ظنّت أنها هي التي تعنى، قال: ولو لم يقل ﴿سَلَٰمًا﴾ لمات إبراهيم من البرد[٢].

وقال مجاهد: لو لم يقل: سلاماً، لم ينتفع بها أحد إلى يوم القيامة.

وحكى أبو القاسم في «تاريخ دمشق» عن سفيان الثوري أنه قال: أوحى الله إلى النّار لئن نلت من إبراهيم أكثر من حلِّ وثاقه لأعذِّبنّك عذاباً لا أعذِّبه أحداً من خلقي، وفي رواية: عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين[٣].

وقال السُّدي: لما وصل إلى النّار تلقَّته الملائكة بأيديها وأخذت بضَبْعَيْه، وجاءه جبريل بقميص من الجنَّة، وطنفسةٍ من الجنَّة، فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة، وصار المكان روضةً، وأنبع الله له عيناً من الماء العذب، وأنبت حوله الورد والرياحين والياسمين، وقعد جبريل يتحدَّث معه.

وحكى المنهال بن عمرو قال: أقام إبراهيم في النار أربعين يوماً، وكان يقول بعدما خرج منها: ما طاب لي عيش غير تلك الأيام، وددتُ أني كنت فيها أبداً[٤].

وحكى الحافظ في «تاريخ دمشق» عن عكرمة قال: قالت أم إبراهيم لما ألقي في النار: قد كان ابني يقول: إنّ له ربّاً يمنعه، ثم صعدت على سُلَّم فاطَّلعت عليه، فإذا هو جالس وسط النار فقالت: يا إبراهيم، ادعُ إلهك أن يجعل لي طريقاً إليك، فسأل الله تعالى، فنزلت إليه فضمَّته وقبَّلته[٥].

وحكى الحافظ أيضاً عن عكرمة قال: لما أخرج الله إبراهيم من النَّار زاده في حسنه وجماله سبعين ضعفاً[٦].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ١٩ من طريق عبد الله بن أحمد، وما بين معقوفين زيادة منه.

(٢) انظر «التبصرة»١/ ١١٥.

(٣) «تاريخ دمشق»٦/ ١٨٢ـ١٨٣.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٧٩.

(٥) «تاريخ دمشق» ٦/ ١٨٤.

(٦) «تاريخ دمشق» ٦/ ١٨٤.

وقال مقاتل: قال آزر لنمرود: ائذن لي في جمع عظام إبراهيم، فقال: أنا أجيء معك، فنادى في الناس فاجتمعوا وجاء ومعه الخلائق فنقب الحَيْر[١]، وإذا بإبراهيم جالس وجبريل إلى جانبه وهما يتحدثان، فتحيَّر نمرود وناداه: يا إبراهيم، إن إلهك لعظيم، إن إلهك الذي بلغت قدرته هذا لكبير، فقام إبراهيم يمشي حتى خرج من الحَيْر، فقال له: مَن ذلك الشابُّ الذي كان معك؟ فقال: جبريل ـ وفي رواية: ملك القطر، وملك الظلِّ ـ جاؤوا يؤنسونني فقال: يا إبراهيم أريد أن أقرِّب لإلهك قرباناً لما رأيتُ من قدرته، قال: إنّه لا يقبل منك ما دمت على كفرك، فقال: لا أقدر أن أترك ملكي، ثم ذبح أربعة آلاف بقرة وكفَّ عن إبراهيم[٢].

واختلفوا في عمره لما ألقي في النار على قولين:

أحدهما: أنَّه كان له ستّ عشرة سنة، قاله مجاهد، والثاني: ثلاثون سنة، قاله ابن إسحاق، والأول أصح.

فصل في ذكر إيمان لوط وسارة

قال علماء السِّير: لما ظهرت الآية العظيمة في نار إبراهيم اتَّبعه رجال من قومه على وجل من نمرود، منهم لوط، وكان ابن أخيه.

وقال ابن قتيبة: وجدت في «التَّوراة»: أنه ولد لتارَخ ـ وهو آزر أبو إبراهيم ـ ولدان: ناحور وهاران، وولد لهاران لوط وسارة وملكا، فمات هاران في حياة أبيه تارخ في أرضه التي ولد بها، [فنكح إبراهيم سارة ابنة هاران] ونكح ناحور ملكا بنت هاران. وكانت سارة عاقراً لم تلِد، فخرج تارخ بابنه إبراهيم وابن ابنه لوط إلى حرَّان وخرج معهم، فمات تارخ أبو إبراهيم بحرَّان[٣].

قلت: وقول ابن قتيبة: أنَّ ناحور بن تارخ نكح ملكا غير صحيح، لأنها أخت ناحور

---

(١) في (ب): «الجدار» ولعل ما أثبتناه هو الصواب، فقد ذكر ابن عساكر في «تاريخه» ٦/ ١٧١ أن نمرود وضع إبراهيم في السجن بضع سنين، بنى له الحير بجصى، وأوقده بالحطب الجزل، وألقى إبراهيم فيه.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٤٢ـ٢٤٣.

(٣) «المعارف» ص ٣١، ومابين معقوفين زيادة منه.

وكلاهما ابنا هاران، فكيف ينكح أخته؟

وحكى ابن قتيبة عن وهب: أنَّ أوَّل من بنى حرَّان أخوان لإبراهيم يقال لأحدهما: هاران، وبه سمِّيت حرَّان، جعلوا الهاءَ حاءً، وبعضهم قال: يقال له «ناهر» وهو أبو رفقا امرأة إسحاق(١).

قال ابن قتيبة: ويقال له هرن بغير ألف، وبعضهم يقول هارن.

وقال ابن الجواليقي في «المعرب»: وحرّان اسم البلدة معربة، وهي مسماة بهاران بن آزر أخي إبراهيم(٢).

وذكرها الجوهري، وقد حكيناه في باب البلدان.

وقال قتادة: كانت سارَة ابنة عمِّ إبراهيم، هذا هو المشهور، وقيل: إنها كانت ابنة ملك حرَّان، وكان قد بلغها خبر الخليل عليه السَّلام، فآمنت به وعابت على قومها عبادة الأوثان، فلمَّا قدم الخليل حرَّان تزوَّجته على أن لا يغيرها(٣).

وقد نسبها هشام بن الكلبي عن أبيه فيما أخرجه عنه ابن سعد في «الطبقات» فقال: هي سارَة بنت بثويل بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالِغ - أو فالخ - بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام(٤).

فصل في عرض إبراهيم على أبيه آزر الإسلام

قال علماء السِّير: قال لأبيه: قد شاهدت الآية العظمى والمعجزة الكبرى ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[مريم: ٤٢] الآيات. فأجابه أبوه بجواب من غلب عليه الشقاء ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[مريم: ٤٦] وليس هذا بجواب شافٍ، لأنه قد علم رغبته عن آلهته، وتيقَّن أنه يغير الملَّة، فقوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ تحصيل الحاصل، وأنه محال.

(١) «المعارف» ص ٣١.

(٢) «المعرب» ص ١٧١.

(٣) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٢٤٤ عن السدي.

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٧.

فإن قيل: فقد علم الخليل أنَّ أباه لا يسلم وقد قال لإبراهيم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لأشتمنَّك ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[مريم: ٤٦] أي: حيناً، ومنه الملوان الليل والنهار.

فالجواب من وجهين: أحدهما: أنَّ أباه كان قد وعد أن يؤمن، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] الآية.

والثاني: أنه أراد تركيب الحجَّة عليه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ثم قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧] ومعنى «سلام»: أي: أقول لك ما أسلم فيه، وسوف أستغفر، أي: ما أيأس من إسلامك، وهذا من باب الشفقة والحنوِّ عليه.

وقال البخاري بإسناده عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَلْقَى إبراهيمُ أَبَاه آزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وَجهِ آزَرَ قَتَرةٌ وغَبَرةٌ، فيقول له إبراهيمُ: أَلَم أَقُل لكَ لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليومَ لا أعصيكَ، فيقول إبراهيم: يا ربِّ، إنك وَعَدتَني أنْ لا تُخزيني يومَ يُبعَثون، وأيُّ خِزيٍ أَخزى مِن أبي الأبعدِ؟! فيقولُ الله: إنِّي حرَّمتُ الجنَّة على الكافِرينَ. ثم يقال: يا إبراهيمُ، ما تَحْتَ رجلَيْكَ؟ فينظرُ فإذا هو بِذِيخٍ عظيمٍ، فيُؤخذُ بقَوائِمه فيُلقَى في النَّارِ» انفرد بإخراجه البخاري(١)، والذيخ: ذكر الضباع الكثير الشعر.

فصل في هجرته إلى الشام

قال هشام: لما اعتزل إبراهيم أباه وقومه قطع الفرات، ودخل إلى الشام، ووصل دمشق ومعه سارَة ولوطٌ ابن أخيه وجماعة ممَّن آمن به، وكان له على ما ذكر ابن الكلبي أربع مئة عبد يجاهدون بالعصيِّ(٢)، وكان بدمشق جبَّار فخرج إليه، فحاربه فقتله إبراهيم.

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٥٠).

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٧.

وقال مقاتل: لم يحارب[١] من الأنبياء إلا خمسة أولهم إبراهيم، وهو أوَّل من حارب بالعصيِّ، ثم موسى وداود وسليمان ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

فصل في ذكر قدومه مصر، والجبَّار وسارَة

قال علماء السِّير: أقام إبراهيم عليه السَّلام بالشَّام مدَّة، فقُحط الشام، فسار إلى مصر ومعه سارَة ولوط، وكان بها فرعون، وهو أوَّل الفراعنة ـ عاش دهراً طويلاً ـ.

واختلفوا فيه: قال قوم: هو سنان بن علوان، وقيل: سنان بن الأهبوب أخو الضحَّاك، وهو الذي بعثه إلى مصر، فأقاموا بها.

وكانت سارة من أجمل النساء، فوصفت لفرعون فأرسل يطلبها.

قال أحمد بإسناده عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم يَكْذِبْ إبراهيمُ قطُّ إلا ثلاث كذباتٍ: ثِنتَينِ في ذاتِ اللهِ، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وواحدةً في شأنِ سارَة، فإنَّه قدِم أرضَ جبَّار، فقيل له: دَخَل إبراهيمُ اللَّيلة بامرأةٍ من أحسن النساءِ، فأرسل إليه الجبَّار: من هذه معك؟ فقال: أختي، قال: فأرسِلْ بها إليَّ، فأرسلها إليه، وقال لها: لا تُكذِّبيني، فإنِّي قد قُلتُ إنَّك أختي، فما على وجهِ الأرض مؤمن غيري وغيرُك. فلمَّا دَخلتْ إليه قامَ إليها فأقبلَت تصلِّي وتقولُ: اللهمَّ إن كنت تعلم أنِّي آمنتُ بكَ وبرسولِك وأحصَنتُ فرجِي، إلّا على زَوجِي، فلا تُسلِّط عليَّ الكافر، قال فَغُطَّ حتى رَكَضَ برِجلَيْه، فقالت: اللهمَّ إن يَمُت فيقولوا: هي قتَلتْه، قال: فأُرْسِل، فقام إليها، فقالت مثلَ قولها، فَغُطَّ فدعَتْ فَأَفاقَ، فعلَ ذلك أربعاً، فلمَّا أفاقَ في الرَّابعةِ قال: ما بَعثْتُم إليَّ إلَّا شَيطَانةً، رُدُّوها إلى إبراهيمَ وأَعطُوها خادِماً، فأَخدَمُوها هاجرَ. فلمَّا جاءَت إلى إبراهيمَ قالت: أشعَرْتَ أنَّ اللهَ ردَّ كيدَ الفاجِر وأخدَمَ وليدةً». أخرجاه في «الصحيحين»[٢]، وهو حديث طويل، وقد روي بروايات كثيرة.

---

(١) في (ل): يقاتل.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٢٤١)، والبخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١).

وقد أخرجه الحميدي، وقال فيه: «وكانَت سارَةُ من أحسنِ الناسِ[١]، وقال إبراهيمُ: إن يَعلمْ هذا الجبَّارُ أنَّك امرأَتي يغلبْني عليكِ. وقامَ إبراهيم إلى الصَّلاةِ، فلمَّا دخَلَت عليهِ لم يَتَمالَك أن بَسَطَ يَدَه إليها، فقُبِضَت يدُه قَبضاً شديداً، فقالَ لها: ادْعِي الله أن يُطلِقَ يدِي ولا أضرُّكِ، ففعلت، فعادَ حتى فعلَتْ ذلك مِراراً، فدَعَا الذي جاءَ بها وقَالَ: إنَّما جئتَني بشيطانٍ، فأخرجْها من أرْضِي... وفيه: فلمَّا عادَتْ قال لها إبراهيمُ: مَهْيَمْ؟ قالت: خير، كفَّ الله يَدَ الفاجِر وأخدَمَ خادِماً» فقال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماءِ السَّماء[٢].

الكلام على الحديث

وقد أنكر جماعة من العلماء الكذب على إبراهيم وقالوا: الكذب قبيحٌ على غير الأنبياء، فكيف على أصل الأنبياء؟

والجواب: إن هذا من المعاريض المندوب إلى مثلها، ولو بحث عمَّا قال إبراهيم لكان صدقاً.

فإن قيل: فما معنى امتناع الجبَّار عنها بقوله: هي أختي، ولو قال: زوجتي كان أمنع لها؟

فالجواب: إن من شرع ذلك الجبار أن من كان له أخت هي زوجته، وهو أحق بها من غيره، ولا تؤخذ منه قهراً، فقال ذلك إبراهيم خوفاً على نفسه وظنّاً منه أن ينجيه ذلك.

وقوله: «مَهْيَمْ» قال الجوهري: مَهْيَم ـ بفتح الميم الأولى وإسكان الثانية ـ كلمة يستفهم بها، ومعناها: ما حالك وما شأنك[٣]؟

وقول أبي هريرة: هي أمُّكم يا بني ماء السماء، يشير إلى العرب، لأنَّ أمَّهم هاجر، وهم يسكنون البوادي، ويعيشون بماء المطر.

---

(١) في (ب): «النساء».

(٢) «الجمع بين الصحيحين» (٢٤١٥)، وهذه رواية مسلم (٢٣٧١).

(٣) «الصحاح»: (مهيم).

وقال ابن إسحاق: كانت هاجر وصيفة فوهبتها سارَة لإبراهيم وقالت: خذها، لعلَّ الله أن يرزقك منها ولداً. وكانت سارَة عاقراً.

واختلفوا في هاجر: فقال مقاتل: كانت من ولد هود عليه السلام، وقال الضَّحاك: كانت بنت ملك مصر، وكان الملك ساكناً بمَنْف فغلبه ملك آخر، وقيل: إنما غلبه فرعون فقتله وسبى ابنته فاسترقّها ووهبها لسارة.

وقال مسلم بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَتُفتَحُ أرضٌ يُذكَرُ فيها القِيرَاطُ فاستَوصُوا بأهلها خَيراً، فإنَّ لهُم ذمَّةً ورحِماً». انفرد بإخراجه مسلم[١]. وفي رواية: «سَتُفتَحُ مِصْر[٢]».

وعامَّة العلماء على أنّه ﷺ أراد هاجر أمّ إسماعيل لأنها أمّ العرب، وكانت من مصر[٣].

وقال الشعبي: أراد مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وعامَّة الرواة على الأوَّل.

قلت: ويمكن الجمع بين القولين لأنَّ الأصل في ذلك أمّ إسماعيل، ثم أكدت الرحم أمّ إبراهيم عليه السلام.

فصل في عوده إلى الشام ونزوله، وذكر ما سنَّ من السّنن

قال وهب: لما خرج الخليل من مصر نزل فلسطين بمكان يقال له السبع ـ بإسكان الباء ـ واتخذ به مسجداً، ونزل لوط بالمؤتفكة، وهي من السبع على يوم وليلة، فبعث الله لوطاً نبيّاً.

وأقام إبراهيم بالسبع، واحتفر بئراً فكانت غنمه تردها، ثم إنَّ أهلها آذوه فخرجَ منها، فنزل بناحية فلسطين، فغار ماءُ تلك البئر، فندم أهل ذلك المكان على ما فعلوا به وقالوا: أخرجنا الشيخ الصالح من بين أظهرنا. ثم مضوا إليه واسترضوه وسألوه

(١) صحيح مسلم (٢٥٤٣) (٢٢٦) من حديث أبي ذر ﷺ.
(٢) صحيح مسلم (٢٥٤٣) (٢٢٧).
(٣) انظر «شرح مسلم» ١٦/ ٩٧.

الرُّجوع فقال: ما أنا براجع إلى مكان أخرجت منه، فقالوا: قد نضب ماء البئر، فأَعطاهم سبعة أعنز من غنمه وقال: أوردوها البئر ولا تغرف منها حائض ولا جنب، فأوردوها فظهر الماء، فيقال: إنما سمِّي ذلك المكان سبع لهذا.

وقال مقاتل: لما خرج إبراهيم من مصر نزل جبل لبنان وأقامَ به مدَّة، فاشتاق إلى الأرض المقدَّسَة، فأوحى الله إليه: اصعد على رأس لبنان وانظر أي مكان اخترتَ من الأرض فهو مقدَّس، فنظر فانتهى بصره إلى دمشق والشام والأردن وفلسطين، فقال الله تعالى: هذه الأماكن كلّها مقدَّسة.

والأصحُّ أنَّ الأرض المقدَّسة أرض فلسطين من الأردن إلى البحر.

وقال مجاهد: اختار فلسطين فنزل بها، وبسط الله له في الرزق، فكان يسمى الشيخ الصالح، وهو أوّل من أضاف الضيف وثَرَد الثريد وأطعم المساكين، وقصَّ شاربه واستحدَّ، واختتن، وقلَّم أظفاره، واستاك، وفرق شعره، وتمضمض، واستنشق، واستنثر، واستنجى بالماء.

وهو أوَّل من شاب وهو ابن خمسين ومئة سنة، وأوَّل من رأى الشيب في الدنيا.

قال مجاهد: رأى في وجهه طاقة بيضاء فقال: يا رب ما هذا؟ فقال: نذير ونور ووقار، فقال: يا ربِّ زدني وقاراً، فشاب رأسه في الحال.

وهو أوَّل من خطب على المنبر، ولبس السَّراويل، واختتن.

قال أحمد بإسناده عن الزُّهري عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «اختَتَنَ إبراهيمُ بالقدُومِ». أخرجاه في «الصحيحين»(١).

قال أبو الزناد: القدوم بالتخفيف اسم موضع بالشّام، وكذا قال الجوهري(٢).

وقال ابن السكيت: ولا تقل قدّوم بالتشديد(٣)، والعامَّة تقوله.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٢٨١)، والبخاري (٦٢٩٨)، ومسلم (٢٣٧٠) من طرق متعددة، ولم يذكر فيها الزهري، أما رواية الزهري فقد أوردها الدارقطني في «العلل» ٧/ ٢٨١ وقال: رواه أبو قرة موسى بن طارق عن ابن جريج عن يحيى بن سعيد، عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة.

(٢) «الصحاح»: (قدم).

(٣) «إصلاح المنطق» ص٢٠٥.

وقال ابن عباس: اختتن وهو ابن عشرين ومئة سنة، وقيل: ابن ثمانين.

فصل في حمل إبراهيم إسماعيل وأمَّه إلى مكة على البراق

قال ابن إسحاق: إسماعيل أكبر ولد إبراهيم، ولما دفعت سارَة هاجر إلى الخليل أولدها إسماعيل، فغارت سارَة وحلفت أن لا تساكنها، ولتقطعنَّ بَضْعة منها، فقال لها الخليل: اخفضيها، فخفضتها، أي: ختنتها.

وقال السُّدي: لما حلفت سارَة أن لا تساكنها في بلد حملها إبراهيم وابنها إلى مكة على البراق[1]، وقد ذكر البخاري القصَّة فقال: حدثنا عبد الله بن محمد عن أيُّوب السَّختياني وكثير بن المطلب ابن أبي وَدَاعة ـ يزيد أحدهما على الآخر ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أوَّل ما اتخذ النساء المِنْطَقَ من قِبَلِ أمِّ إسماعيل، اتخذته لتعفِّي أثَرها على سارَة، فجاء بها إبراهيم وبابنه إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وَضعَها عند البيتِ عند دوحةٍ فوقَ زمزمَ في أعلى المسجدِ، وليس بمكَّة يومئذٍ أحدٌ ولا ماء، وَوَضع عندهما جِرَاباً فيه تمرٌ، وسِقاء فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته هاجر فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتدعنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وهو لا يلتفتُ إليها، فقالت: آللهُ أمَرَك بهذا؟ قال: نَعَم، قالت: إذاً لا يُضَيِّعنا.

ثم رجعت وانطَلَق إبراهيم نحو الشَّام، حتى إذا كانَ عند الثَّنية حيثُ لا تراه ولا يَراها استَقبَلَ البيتَ بوجهِهِ، ثم دعا بهؤلاءِ الدَّعواتِ، ورفع يده وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وجعلت أمُّ إسماعيل تُرضع ابنها وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السِّقاء عطِشَت وعطِشَ ابنُها، وجعلت تنظرُ إليه يتلبَّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفا أقربَ جبل في الأرض يَليها، فقامَت عليه ثم استقبلت الواديَ تنظرُ هل تَرى أحداً، فلم تَرَ أحداً، فهبَطَت من الصَّفا، حتى إذا بَلَغت الوادي رَفَعت طَرَف دِرْعِها ثم سعتْ سعي الإنسان المجهود حتى جاوَزَت الواديَ، ثم أتَت المَرْوَة

---

(١) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٥٣ـ٢٥٤، والمنتظم ١/ ٢٦٥.

فقامت عليها، ونظرت فلم تَرَ أحداً ـ فعلت ذلك سبع مرَّات.

قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «فلِذلِكَ سَعَى النَّاسُ بينَهما؛ فلمَّا أَشْرَفَت على المَرْوَةِ سمِعَت صَوْتاً فقالَت: صَهٍ ـ تُريدُ نَفْسَها ـ ثم تَسَمَّعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أَسْمَعْتَ لو كان عندك غُوَاثٌ، فإذا هي بالملك عند موضعِ زَمزَمَ، فبَحَث بجناحِه ـ أو بعقِبِه ـ حتى ظهرَ الماءُ، فجعلت تُحَوِّضُهُ، وجعلت تقول بيدها كذا، وجعلت تغرفُ من الماء في سِقائها وهو يَفُورُ بعدما تَغْرِفُ».

قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «يَرحَمُ الله أمَّ إسماعيلَ لو تَركَتْ زَمزَمَ لكانَتْ عَيْناً مَعِيناً». وفي رواية: «لو لم تَغْرِفْ مِنَ الماءِ». قال: فشربَتْ وأرْضَعَت ولَدَها فقال لها المَلَك: لا تَخافُوا الضَّيعَةَ فإنَّ لله ها هُنا بيتاً يَبْنِيه هذا الغُلامُ وأبُوه، وإنَّ الله لا يُضيِّع أهلَه. وكان البيتُ مُرتَفِعاً من الأرضِ كالرَّابيَة، وتأتيه السُّيول فتأخُذُ عنه يميناً وشِمالاً، فكانت كذلك حتى مرَّت بهم رُفقة من جُرْهُم مُقبِلين من طريق كَدَاء، فنزلوا أسفَلَ مكَّة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إنَّ هذا طائرٌ ليَدُورُ على ماءٍ، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيهِ ماء. فأرسلوا جَرِيّاً أو جَرِيَّيْن فإذا هم بالماءِ، فرَجَعوا وأخبَرُوهم، فأقبلُوا، وأمُّ إسماعيلَ عند الماءِ، فقالوا: أتَأذَنينَ لنا أن ننزِلَ عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكُم في الماءِ. قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «فألْفَى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحبُّ الأُنْسَ» فنزلُوا وأرسَلُوا إلى أهالِيهم فجَاؤوا، فنزلُوا معهم، حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم وشبَّ الغلامُ وتعلَّم منهم العربيَّة وأنْفَسَهم وأعجَبَهم حين شبَّ، فلمَّا أدرك زوَّجوه امرأة منهم.

وماتت أمُّ إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوَّج إسماعيل يطالعُ تركَتَه، فلم يجد إسماعيلَ، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يَبتغي لنا ـ أو يصيد لنا ـ ثمَّ سألها عن عيشِهم وهيئَتهم فقالت: نحن بشرٍّ، في ضيقٍ وشدَّة، وشَكَت إليه. فقال: إذا جاء زوجُك فاقْرَئي عليه السَّلام وقولي له يُغيِّرْ عتبةَ بابه. فلمَّا رجع إسماعيلُ كأنَّه آنَسَ شيئاً فقال: هل جاءكم من أَحَد؟ قالت: نَعَم شيخٌ من صفَتِه كذا وكذا، فسألني عنك فأخبرتُه، وسألني كيف عيشُنا، فأخبرته أنَّا في جَهْد وشدَّة، قال: فهل أوصاكِ بشيءٍ؟ قالت:

نعم، أمرني أنْ أقرأ عليك السَّلام ويقول لك: غيِّر عتبةَ بابكَ، فقال: ذاك أبي وقد أمرَني أن أُفارقَكِ، فالْحقِي بأهلِكِ، فطلَّقها، وتزوَّج منهم أخرى. فلبِثَ عنه إبراهيم ما شاء الله، ثمَّ أَتاهُم فلم يجدْه، فسأل عنه امرأتَه فقالت: خرج يَبتغي لنا، فسألَها عن عيشِهم وهيئَتِهم فقالت: نحن بخير وسَعَة، وأثنَتْ على الله، فقال: ما طعامُكم؟ قالت: اللَّحمُ والماءُ ـ وفي رواية: ما طعامُكُم قالت: اللَّحم، قال: وما شَرَابُكم؟ قالت: الماءُ، فقال اللهمَّ باركْ لهم في اللَّحم والماءِ.

قال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «ولم يَكُن لهم يومئِذٍ حَبٌّ، ولو كان لَدَعا لهمْ فيهِ بالبَرَكَةِ». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكَّة إلَّا لم يوافقاه ـ وفي رواية: فقال لها: إذا جَاء زوجُكِ فاقْرَئي عليه السَّلام ومُريه أن يُثبِتَ عَتَبَةَ بابهِ ـ فلمَّا جاء إسماعيل قال: هل جاءَكُم من أحدٍ؟ قالت: نَعَم، شيخٌ حسنُ الهيئةِ، وأَثْنَتْ عليه، وأخبرَتْه الخَبرَ، فقال: هل أوصاكِ بشيءٍ؟ قالت: نَعَم، يَقرَأ عليك السَّلام ويأمُرُك أن تُثبِتَ عتبةَ بابك، فقال: ذاك أبي، وأنتِ العتبةُ، أمرني أن أمسِكَكِ.

ثمَّ لبثَ عنهم ما شاءَ اللهُ، ثم أتاهم وإسماعيلُ يَبري نبلاً تحتَ دوحةٍ قريباً من زَمزَم، فلمَّا رآهُ قام إليه وصنَعا كما يَصنَعُ الوالدُ بالولدِ والولدُ بالوالدِ. ثم قال: يا إسماعيلُ إن الله قد أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: أوتعينني؟ قال: نعم، قال: فإن الله أمرني أن أَبْنيَ ها هُنا بيتاً، وأشار إلى أَكَمَةٍ مرتفعةٍ على ما حَوْلها. فعندَ ذلكَ رفَعَا القواعِدَ من البيتِ، فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارَةِ وإبراهيمُ يَبْنِي حتى إذا ارتفَعَ البناءُ جاء بهذا الحَجَرِ فوضَعَه، وقام عليه يَبْني، وإسماعيلُ يُناوله الحجارةَ وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧] الآية. وجَعَلا يَبنِيَان حتى يَدُورا حولَ البيتِ. وهما يقولان الآية[١].

وفي رواية: أن إبراهيم لمّا مضى إلى الشّام رجعت إلى الصبيِّ فإذا هو كأنَّه يَنْشَغُ للموتِ، فلم تُقِرَّها نفسُها، فإذا هي بصوتٍ فقالت: أغثْ إن كان عندك غَوْثٌ أو خير، فإذا جبريلُ، فقالَ بعقِبِه على الأرضِ كذا، فانبثَقَ الماءُ، فدَهَشَتْ فجَعَلَت تحفِنُ أو تَحفِزُ[٢].

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤)، ومعنى: «يتلبط»: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض. «أنفسهم» كثرت رغبتهم فيه.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٥) «ينشغ»: يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع.

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ أَمَّ إسماعيلَ لولا أنَّها عَجِلَت لكانَتْ زَمْزَمُ عيناً معيناً»(١).

وفي رواية أن زوجة إسماعيل الثانية قالت لإبراهيم: انزل حتى أغسل رأسك فقد شعث، فلم تزل به حتى جاءته بالمقام فوضعته عند شقِّه الأيمن، فوضع قدمه عليه، فبقي أثر القدم فيه، فغسلت شق رأسه الأيمن، ثمَّ حوَّلت المقام إلى شقِّه الأيسر فغسلته.

وفي رواية: فقال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، فجاءته باللبن واللحم، فدعا فيهما بالبركة، وقال لها: إذا جاء زوجك فقولي له: قد استقامت عتبة بابك، ودعا لها. قال ابن عباس: ولو كان هناك برٌّ أو شعيرٌ لدعا لهم، فكانوا أكثر الناس خبزاً وتمراً.

وفي رواية: أن هاجر عملت عريشاً موضع البيت.

انفرد بإخراج هذا الحديث البخاري، ورواه بروايات كثيرة مختلفة قد أتينا على معظمها، وعامَّة ألفاظه موقوفة على ابن عباس، والمرفوع منه ما حكيناه عن رسول الله ﷺ، وقد أخرجه الحميدي برواياته(٢).

تفسير غريبه: «الدَّوحة»: الشجرة العظيمة أيُّ شجرة كانت. و«الدِّرع»: القميص. و«المجهود»: الذي نالته مشقَّة. و«صه»: اسكت. وقال الجوهري: صه: كلمة بنيت على السكون، وهي اسم سمِّي به الفعل، ومعناه: اسكت(٣). و«الغواث» ـ بضم الغين ـ الغياث. و«جرهم»: اسم قبيلة من العرب العاربة. وقال الجوهري: جرهم حيّ من اليمن، وهم أصهار إسماعيل عليه السلام(٤).

وفي مكة ثلاثة أماكن يقال لها: كداء، فالأولى كَدَاء ـ بالفتح والمدِّ ـ بأعلى مكة على طريق العمرة. وكدى ـ مقصور ـ مكان بأسفلها، وكُديّ مصغّر موضع على طريق اليمن. ولم يذكر الجوهري منها شيئاً، بل قال: الكدية الأرض الصلبة وجمعها كدى(٥). و«الأكمة»: المكان المرتفع. انتهى تفسير غريب الحديث.

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٢).
(٢) «الجمع بين الصحيحين» (١١١١).
(٣) «الصحاح»: (صه).
(٤) «الصحاح»: (جرهم).
(٥) «الصحاح»: (كدي).

وذكر ابن إسحاق والسُّدي والكلبي وغيرهم: أنَّ الله تعالى لما أهلك قومَ عاد ـ وهم من العمالقة ـ خرج من بقي من العرب ومنهم من أرض اليمن، وفيهم جرهم وعليهم السميدع بن هوبر بن لاوي بن قنطورا بن كركر بن حَيدان[١] بن عمليق، فنزلوا تهامة، وبعثوا روَّادهم يطلبون الماء، فأشرفوا على وادي مكة فنظروا إلى الطير ترتفع وتنخفض فاستبطنوا الوادي، فنظروا إلى عريش أمِّ إسماعيل على الربوة الحمراء، وفيه هاجر وإسماعيل، وقد زمَّت حول الماء بأحجار، ومنعته من الجريان. فسلَّم الرُّوَّاد عليها، واستأذنوها في النزول عندها، ويشربون من الماء، فأذنت لهم ورحَّبت بهم، وحصل لها الأنس، فعادوا إلى من وراءهم فأخبروهم، فجاؤوا ونزلوا، فأضاء لهم نور النبوَّة من العريش. فلمَّا ترعرع إسماعيل ألهمه الله الكلامَ بالعربية على خلاف لغة أبيه، ووافق القومَ في لغتهم، وتزوَّج منهم امرأةً يقال لها: الجذاء ابنة سعد العملاقي، وهذه الجذاء هي التي سألها إبراهيم عن عيشهم.

وقال وهب: ولما جاءها سلَّم عليها فلم تردَّ عليه السَّلام، وسألها منزلاً فقالت: لاها الله ذا ـ وسنذكر هذه اللفظة فيما بعد ـ وهي التي أمره إبراهيم بطلاقها، وقال لها إسماعيل: الحقي بأهلك.

قال وهب: وكانت هاجر باقيةً لما جاء الخليل يطلب ولده، وهذا قول من سمينا.

وقال مقاتل وابن الكلبي: كان على جرهم الحارث بن مضاض بن عمرو بن سعيد ابن الرقيب بن ظالم، فاستوطنوا مكة، وتزوَّج إسماعيل المرأة الثانية منهم، واسمها سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف. واستأذن إبراهيم سارَة في زيارة إسماعيل فأَذِنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فسار على البراق وقيل: على أتان، وكانت هاجر[٢] قد ماتت ولها تسعون سنة، فدفنها إسماعيل في الحجر. ولما أثَّرت قدما إبراهيم في المقام قال لها: احتفظي به فسيكون له شأن بعد حين فذلك المقام.

(١) في (ب): «جندب».
(٢) في (ب): «سارة».

فصل في بناء البيت

واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أن الله تعالى بناه قبل خلق الدنيا لا ببناء أحد. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان العرش على الماء قبل خلق الأرض بألفي عام، فأرسل الله ريحاً فصفقت الماء فأبرزت عن خشفة كالقبَّة، وهي موضع البيت، فدحيت الأرض من تحتها.

وقال مجاهد: خلق الله موضع هذا البيت قبل خلق السماوات والأرض بألفي عام، وإنَّ قواعده لفي الأرض السابعة، وكان فيه قناديل من الياقوت، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسُّدي وغيرهم.

قال مقاتل: ولما حجَّ آدم تلقته الملائكة فقالت: يا آدم بَرَّ حجُّك، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، فقال: اللهم اجعل له عماراً من ذرِّيتي، فقال الله: إني سآمُر نبيّاً من ذريّتك اسمه إبراهيم يعمره.

والثاني: أن الملائكة بنته لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[البقرة: ٣٠] فقال لهم الله تعالى: ابنوا لي في الأرض بيتاً وطوفوا حوله كما تطوفون حول عرشي، وقد ذكرناه، ثم بقي على حاله.

وقيل: إنه تشعّث فجدَّده آدم، وزاده شيث، وبقي إلى أيام الطوفان، فنسفه الغرق وبقي مكانه ربوة حمراء تأتيه السيول من كل مكان، ويأتيه المظلوم فيدعو عنده، حتى جدَّده إبراهيم.

وحكى ابن سعد عن الواقدي قال: كان لإبراهيم يوم بناه مئة سنة ولإسماعيل ثلاثون سنة(١).

وروي عن عليٍّ كرم الله وجهه أنه قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت لم يدر كيف يصنع، وضاق به ذرعاً، فأرسل الله الريح الخَجُوج، وهي السكينة، ولها رأسان

(١) «الطبقات الكبرى»: ١/ ٥٢، وفي (ب): «ثمانون سنة».

فتطوَّقت موضع البيت كطي الجحفة، وهي على مثال الحية.

وعن علي أيضاً قال: جاءت غمامة وناداه منها مثل رأس الإنسان: يا إبراهيم، علِّم على ظلِّي ولا تزد ولا تنقص.

وقال مقاتل: أيدهما الله بسبعة أملاك حنفاء يعينونهما على بنائه.

وقال ابن عباس: فبناه من خمسة أجبل: طور سيناء وطور زِيتا ـ جبل بيت المقدس ـ وحِراء وأبي قُبيس والجوديِّ، وقيل: ولبنان. وجعل طولَه ثلاثين ذراعاً، وأدخل الحِجر فيه سبعة أذرع. ولما كمل ولم يبق إلا موضع الحجَر قال لإسماعيل: اذهب فأتني بحجر، فذهب ليأتيه فناداه أبو قُبيس: يا إبراهيم إن لك عندي وديعة. يعني الحَجَر الأسود كان قد نزل مع آدم من الجنة، فلمَّا كان الطوفان أودعه جبريل فيه، فلمَّا ذهب إسماعيل ليأتيه بحَجَر جاءه جبريل بالحَجَر من أبي قُبيس فوضعه مكانه، وجاء إسماعيل فقال: يا أبةِ، مَن جاءك بهذا الحَجَر؟ فقال: من لم يَكِلْني[(١)] على بنائك، أتاني به جبريل من أبي قبيس.

وقال الترمذي: بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نَزَل الحَجَرُ الأسودُ من الجنَّةِ وهو أشدُّ بياضاً من اللَّبنِ، فسَوَّدتْهُ خَطايا بَني آدَمَ»[(٢)].

فإن قيل: فما الفائدة في بناء البيت من هذه الأجبل البعيدة، وجبال مكة أقرب، مثل أبي قُبيس وحِراء وغيرهما كعرفاتٍ وجبال مِنى؟

فالجواب من وجوه: أحدها: لتشرف هذه الجبال على غيرها. والثاني: ليظهر فضلها. والثالث: أنَّ معناه أن من حجَّ هذا البيت وطاف به وصلى عنده كُتبَ له من الثواب ما لو وزنت معه هذه الجبال لرجح عليها. والرابع: لتشهد لمن حَجَّه كما يشهد الحجر الأسود لمن استلمه.

وقال وهب: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] الآيات.

---

(١) في تفسير الطبري ٣/ ٧٠، وتاريخه ١/ ٢٥١، والمنتظم ١/ ٢٧٠: من لم يتكل.

(٢) أخرجه الترمذي (٨٧٧)، وهو عند أحمد في «مسنده» (٢٧٩٥).

فإن قيل: فقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ولم يكن هناك بيت.

فالجواب من وجهين، أحدهما: أن معناه عند بيتك الذي كان هاهنا وهذه آثاره. والثاني: عند بيتك الذي قضي في سابق علمك أنني أجدِّده هاهنا.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾[آل عمران: ٩٦].

فالجواب: إنَّ معناه أوَّل بيت وضع للعبادة، ولم يكن قبله بيت يُعبد الله فيه. قال أحمد بإسناده عن أنس وأبي ذرٍّ. قال أبو ذرٍّ: سألت النبي ﷺ عن أوَّل مسجدٍ وُضع في الأرض فقال: «المسجِدُ الحَرَامُ» قلت: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «المسجِدُ الأقْصَى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربَعُونَ عَاماً»، انفرد بإخراجه مسلم(١).



واشتقاق مكَّة من ملكَّ الفصيل ضرع أمِّه، إذا امتصَّ كلَّ ما فيه، وأشاروا إلى شدَّة الحرِّ بها وقلَّة مائها.

وأمَّا بكَّة فقد اختلفوا فيها، فقال ابن عباس: لأنها تبكُّ رقاب الجبابرة، وقال مجاهد: لازدحام الناس بها. وقال الضحَّاك: لأن الناس يتباكون فيها. وروي عنه أيضاً أنه قال: اسم البلد مكة، وبكة موضع البيت(٢).

وقيل: مكة وبكة واحد، لأن الباء تبدل من الميم، كقوله: ضربة لازب ولازم، ونحوه.

والآيات البيّنات: مقام إبراهيم والحَجَر الأسود والركن وزمزم ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[آل عمران: ٩٧] قال ابن خالويه: معناه أي: من دخله فأمِّنوه. وقال ابن عباس: أوَّل من عاذ بالحرم الحيتان الصغار من الكبار في أيام الطوفان.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٣٣٣)، ومسلم (٥٢٠) من حديث أبي ذر، ولم نقف عليه من حديث أنس.
(٢) انظر تفسير الطبري ٧/ ٢٤، وزاد المسير ١/ ٤٢٥.

واتفق العلماء على أن من جنى في الحرم أنه يقتصُّ منه لأنه هَتك حرمته، فيقام الحدُّ عليه عقوبة على الجناية.

واختلفوا فيمن جنى خارجاً منه ثم التجأ إليه:

قال ابن عمر وابن عباس والعبادلة: لا يقام عليه الحدُّ فيه، ولكن لا يبايع ولا يشارى حتى يخرج منه فيقام الحدُّ عليه، وبه أخذ أبو حنيفة.

وقال الشافعي ومالك: يقام عليه الحدُّ فيه قياساً على موارد الإجماع. وقد قتل النبيُّ ﷺ ابن خطل وهو متعلّق بأستار الكعبة[١].

ولنا قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾[آل عمران: ٩٧] وقياسه على موارد الإجماع لا يصحُّ، لأنه هناك هتك حرمة الحرم بخلاف مانحن فيه. وأمَّا ابن خطل فإنه قتل لكفره، وكان النبيُّ ﷺ قد أهدر دمه.

فصل في فضائل مكة

قال أحمد بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ هذا البَلَد حرامٌ حرَّمَه الله يومَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، فهو حرامٌ بحُرمةِ الله إلى يوم القيامةِ، وأنَّه لا يَحِلُّ القِتَالُ فيه لأحدٍ قَبلِي، ولم يَحِلَّ لي إلَّا ساعةً مِن نَهارٍ، لا يُعضَدُ شوكهُ، ولا يُنفَّر صيدُهُ، ولا تُلتَقَطُ لُقَطَتُه إلَّا من عرَّفها، ولا يُختَلَى خَلاه». فقال العباس: يا رسول الله، إلَّا الإذْخِرَ، فإنَّه لقينهم وبيوتهم، فقال: «إلَّا الإذْخِر».

وفي رواية: «لا يُعْضَدُ عِضَاهُها، ولا تَحلُّ لُقَطَتُها إلَّا لمنشِدٍ» فقال العباس: إلَّا الإذْخِرَ، فإنَّه لصَاغتِنا وسُقُوفِ بيوتِنا. أخرجاه في «الصحيحين[٢]».

وعضد[٣] الشجرة أي: قطعها، ذكره الجوهري، والعِضاه شجر له شوك كالطَّلح

(١) أخرجه البخاري (١٨٤٦)، ومسلم (١٣٥٧) من حديث أنس ﵁، وانظر المغني لابن قدامة ١٢/ ٤٠٩-٤١٣.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٥٣)، والبخاري (١٣٤٩)، ومسلم (١٣٥٣)، أما الرواية الثانية فهي روايتان جمع بينهما المصنف وهما عند البخاري (١٣٤٩)، و(٢٤٣٣) وانظر «الجمع بين الصحيحين» (٩٩٧).

(٣) في (ب): وأعضد، وفي (ل): واعتضدت، والمثبت من (ط) و«الصحاح»: (عضد).

وغيره.

وقال العباس: قال ذلك في يوم الفتح، وقيل: في حجَّة الوداع.

وقال أحمد بإسناده عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ أن يحمل السّلاح بمكّة. انفرد بإخراجه مسلم(١).

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيُحَجَّنَّ هذا البيتُ وليُعتَمَرنَّ بعد خُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ»(٢).

حدَّثنا أبو طاهر الحَرِيمي بإسناده عن الزهري عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الرُّكنُ والمقامُ ياقوتتانِ من يواقيتِ الجنَّةِ طُمِس نُورُهما، ولولا ذلكَ لأضاءَتا ما بينَ المشرقِ والمغربِ»(٣).

وحدَّثنا غير واحد عن يحيى بن علي المدير بإسناده إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للهِ في كلِّ يومٍ وليلةٍ عشرينَ ومئةَ رحمة تَنزلُ على هذا البيتِ، فستُّونَ للطائفينَ، وأربعونَ للمصلِّينَ، وعشرونَ للنَّاظرينَ»(٤).

وروى ثابت عن أنس قال: رأيت في المقام أثر أصابع إبراهيم وعقبيه وأخمص قدميه، غير أنَّ مسح الناس بأيديهم أذهب ذلك(٥).

فصل في حدود الحرم

ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنَّ أوَّل من وضع أنصاب الحرم الملائكة، لما نذكر، ودثرت بالطوفان فجدَّدها إبراهيم عليه السَّلام، ثم قصيُّ بن كلاب، وبقيت على حالها إلى زمان المبعث، فقلعتها قريش.

قال أنس: فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ حيث هي آثار آبائه، فجاءه جبريل فقال:

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٢٣٣)، ومسلم (١٣٥٦).

(٢) صحيح البخاري (١٥٩٣).

(٣) وأخرجه أحمد في «مسنده» (٧٠٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو، ولم نقف عليه من حديث ابن عمر.

(٤) وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٩٤٠)، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٥) ذكر ابن حجر في فتح الباري ٨/ ١٦٩ أنه في موطأ ابن وهب عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس.

لا يشقَّ عليك فإنهم سيعيدونها. فرأى رجالٌ منهم في المنام قائلاً يقول: حرم الله أعزَّكم الله به، عمدتم إلى أنصابه فقلعتموها، الآن يتخطفكم الناس أو العرب، فأَعادوها، فجاءه جبريل فقال له رسول الله ﷺ: «هل أصابوا في وضعِها؟» قال: نعم، ما وضعوا منها نصباً إلَّا بيد ملك. قال أنس: فلمّا كان عام الفتح بعث رسول الله ﷺ تميم بن أسد فجدَّدها.

قال علماء السِّير: ثم جدَّدها عمر وعثمان، وبنو أميَّة: معاوية وعبد الملك بن مروان، وأوَّل من جدَّدها من بني العباس هارون، ثم ابنه المأمون. ثم الخلفاء[١].

وذكر الأزرقي في «كتاب مكة» عن جماعة من العلماء عن ابن عبّاس قال: هذا الحرم سابع سبعة إلى السّماء، وفي كل سماء حرم وبيت، وله طائفون يطوفون به، وسكّان من الملائكة، وكذا إلى الأرض السّابعة[٢].

وقال الأزرقي: حدّ الحرم من طَرَفُ المدينة دون التنعيم عند بيوت تعار على ثلاثة أميال من مكة، ومن طريق اليمن طَرَفُ أضاة على سبعة أميال من مكة، ومن طريق الطَّائف إلى بطن نَمِرة على أحد عشر ميلاً، ومن طَرَفِ العِرَاق إلى ثنيَّة خَلٍّ عشرة أميال، ومن طريق الجِعرَّانة في شعب آل عبد الله بن خالد بن أسيد على خمسة أميال، ومن طريق جُدَّة منقطع الأعشاش على عشرة أميال؛ فصارت الجملة ستة وأربعين ميلاً[٣].

وحكى صاحب «المحيط» عن الهندُواني[٤] أنه قال: حدُّه من قبل المشرق ستة أميال، ومن الجانب الثاني اثنا عشر ميلاً، ومن الجانب الثالث ثمانية عشر ميلاً، ومن الجانب الرَّابع أربعة وعشرون ميلاً. فصارت الجملة ستين ميلاً.

وهو وهمٌ من الهندُواني؛ وما ذكر الأزرقي أصحُّ، لأنه ذكر الحدود على ما شاهد

---

(١) انظر «المنتظم» ١/ ٢٧٠ـ٢٧١، وأخبار مكة للأزرقي ٢/ ١٢٧ـ١٢٨.

(٢) «أخبار مكة» ٢/ ١٢٥.

(٣) الذي في «أخبار مكة» ٢/ ١٣٠ـ١٣١ : بيوت غفار . . . ومن طريق الطائف على طريق عرفة من بطن نمرة على أحد عشر ميلاً، ومن طريق العراق على ثنية خل بالمقطع على سبعة أميال. وهو الصواب. وانظر شفاء الغرام ١/ ٥٥ـ٥٩.

(٤) هو محمد بن عبد الله، أبو جعفر الهندواني الحنفي، توفي سنة ٣٦٢هـ، العبر ١/ ١٥٢، وذكر قوله السرخسي في المبسوط ١٢/ ٤٥١.

وعاين، وما ذكره الهندُواني يدلُّ على أن الحرم يكون مربَّعاً، وليس كما ذكر، بل هو مختلف الحدود كما ذكرنا.

فإن قيل: فلمَ لم تكن حدود الحرم متساوية إلى مكة؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: رواه عطاء عن ابن عباس قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض أقام باكياً مستوحشاً فأهبط الله إليه البيت المعمور، وكان ياقوتة من يواقيت الجنَّة، فأضاءت منه الدُّنيا، فقال إبليس: حدث أمر، فأرسل الشياطين ليكشفوا له الخبر، فجاؤوا فوقفوا موضع الأعلام لم يتجاسروا أن يتعدَّونها، لأن نور البيت انتهى إلى موضع الأعلام، فلم يقدر أحد منهم أن يدنو منها، فنصبت الملائكة الأعلام، فلمَّا احتضر آدم أوصى شيثاً بتجديد الأعلام ونصبها.

والثاني: لأنَّ الخليل لما وضع الحجر الأسود في الركن أضاء منه نور وصل إلى أماكن الحدود، فجاءت الشياطين فوقفت عند الأعلام فبناها الخليل حاجزاً، رواه مجاهد عن ابن عباس.

والثالث: لأنَّ الملائكة لما بنت البيت في أوَّل الأمر نزل من السماء ملائكة ملؤوا مكان الحرم اليوم، فأمرهم الله أن ينصبوا الحدود حيث انتهوا إليه تعظيماً للحرم، قاله مقاتل[١].

فصل في قبلة كلِّ بلد

القبلة: الوجهة التي يتوجَّه إليها، يقال: من أين قِبلَتك؟ أي: من أين جهتك ووجهتك؟.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: الحرم قبلة أهل الأرض، والمسجد قبلة أهل مكة، والبيت قبلة أهل المسجد، وباب الكعبة قبلة البيت[٢].

وقال أرباب الهيئة: قِبلة أهل العِرَاق وخُراسَان والصِّين يسار الركن العراقي الذي

(١) نقل هذه الأقوال الصالحي في سبل الهدى والرشاد ١/ ٢٣٣ـ٢٣٤ عن المحب الطبري، وانظر المنتظم ١/ ٢٧١.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه ٢/ ٩ مرفوعاً وضعفه، وانظر التلخيص الحبير ١/ ٢١٣، والدر المنثور ١/ ١٤٧.

فيه الحجر إلى قريب من باب البيت.

وقبلة أهل البَصرَة والأهوَاز وكَرمَان وسِجستَان وما والاها باب الكعبة والملتزم.

وقبلة أهل اليمن وإلى تخوم عدن ما بين الحجر الأسود إلى الركن اليماني.

وقبلة أهل مصر والمغرب من الركن اليماني إلى قريب من نصف البيت.

وقبلة أهل الشَّام والأردن وفلسطين وأهل الثُّغور من نصف البيت إلى الركن الشامي، وهو مسقط سهيل.

وقبلة أهل إِرمِينيَة وأَذرَبِيجَان والجزيرة والرُّوم من الركن الشامي إلى الميزاب.

وقبلة أهل المدينة الميزاب إلى آخر البيت.

قلت: وهذا على وجه التقريب لا على وجه التحقيق.

فصل في دلائل القبلة التي يتوصَّل بها المجتهد إلى جهتها

فمنها: الشمس، فإنها تطلع من المشرق عن يسار المصلي، وتارة عن يمينه، وتارة أمامه، وتارة خلفه، بحسب اختلاف الأقاليم والمطالع والمغارب والمنازل.

ومنها: القمر فإنَّه يبدو أوَّل ليلة من الشهر هلالاً عن يمين المصلي في المغرب، ثم يتأخَّر كل ليلة نحو المشرق منزلاً منزلاً، حتى يكون ليلة السابع وقت المغرب في القبلة مائلاً قليلاً إلى المغرب، وفي ليلة أربعة عشر يطلع من المشرق قبل غروب الشمس بدراً تامّاً، ويكون ليلة إحدى وعشرين في قبلة المصلي أو قريباً منها وقت الفجر، وليلة ثمان وعشرين يبدو عند الفجر من المشرق كالهلال، وتختلف مطالعه بحسب اختلاف منازله، وقد ذكرناها في صدر الكتاب[١].

ومنها: الجدْي، وهو من أوثق الأدلَّة على القبلة، وقد ذكرناه[٢]، وكذا سهيل.

ومنها: الرياح وهي كثيرة يستدل منها بأربع، تهبُّ من زوايا السَّماء: الجَنوب وتهبُّ من الزاوية التي بين المشرق والقبلة إلى مطلع سهيل، والشَّمال: وهي مقابلة

(١) انظر فصل في القمر.

(٢) انظر فصل في الكواكب.

الجنوب، وتهبُّ من بنات نعش إلى مشرق الشمس، والدَّبُور: وتهبُّ ما بين المغرب وسهيل[١]. وبين كلِّ ريحين ريح تسمَّى النَّكْباء لتنكبها عن طريق الرياح المعروفة.

وقال الجوهري: والنُّكْبُ في الرياح أربع: فَنكْباء الصَّبا والجنوب يسمَّى: الأرنب، ونَكْباء الصَّبا والشمال وتسمَّى: الصَّابية والنُّكَيباء، وإنما صغَّروها وهم يريدون تكبيرها لأنهم يستدبرونها جداً، ونَكْباء الشمال والدَّبُور وتسمَّى: الجربياء؛ ونَكْباء الجنوب والدَّبُور وتسمَّى: الهَيف[٢]. وأصل النكب: العدول والميل.

ومنها: المياه والأنهار العظام كدجلة والفرات وجيحون وسيحون والأردن ونحو ذلك، وكل هذا يجري إلى القبلة. وكذا الجبال والبحار يستدلُّ بها على القبلة.

إذا ثبت هذا قلنا: متى عرف الإنسان هذه الأدلَّة كان مجتهداً في أمر القبلة إذا خفيت عليه ولم يجد مخبراً فيصلي إلى جهة يؤديه اجتهاده إليها، وإن خفيت عليه الأدلَّة لغيم أو ظلمة ونحوها، فإنَّه يتحرَّى ويصلي إلى أيِّ جهة يغلب على ظنِّه أنَّها جهة القبلة، وصلاته تامَّة عندنا، وعند الشافعي لا تجزئه إلَّا إصابة العين لقوله تعالى: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[البقرة: ١٤٤] ولنا أنه أتى بما في وسعه، وهو التوجُّه إلى جهة القبلة، وتكليف ما ليس في الوسع حرجٌ عظيم، وقد اجتهد فصار كالحاكم إذا خفي عليه نصٌّ. وأمَّا الآية فالمراد بها إذا كان حاضراً بمكَّة، أمَّا إذا كان غائباً فقبلته جهة الاجتهاد والتحري، وقد ذكرنا مسائل استقبال القبلة في كتب الفقه.

فصل في حجِّ إبراهيم وتعليم جبريل إيَّاه المناسك

روى مجاهد عن ابن عباس قال: لما تكامل بناء البيت أوحى الله إلى إبراهيم: أن أذِّن في الناس بالحجِّ، فقال: يا ربِّ، ومن يبلِّغ صوتي؟ فقال الله: منك الأذان وعليَّ البلاغ. فقام على أبي قبيس فاستقبل اليمن ثمَّ المشرق ثم الشام ثم المغرب، ونادى: أيها النَّاس، إنَّ ربَّكم قد بنى بيتاً فحجُّوه[٣].

(١) انظر «الأزمنة والأمكنة» ٢/ ١٣٧.

(٢) انظر «الصحاح» (نكب).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/ ١٤٤. وانظر «زاد المسير» ٥/ ٢٤٣.

قال المفسرون: فأسمع مَنْ بين السماء والأرض ومَنْ في أصلاب الرِّجال وأرحام النِّساء؛ قال الضحَّاك: فأجابوه جميعاً: لبيك اللهمَّ لبيك، فمنهم من لبَّى مرَّة ومنهم من لبَّى مرتين وثلاثاً وأقل وأكثر، فحجُّوا على قدر ذلك، ومن لم يلبِّ لم يحج.

قال ابن عباس: فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مشاة ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾[الحج:٢٧] أي: ركباناً قد ضمرهن السَّفر، والفجُّ العميق: البعيد(١).

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن الزهري عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جَاءَ جبريلُ عليه السَّلام إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام فأراهم الطَّواف، ثم خرج بهما إلى منى، فقال: صلِّيا ها هنا، وأقامَ بهما إلى اليومِ الثاني، فغدا بهما إلى عرفاتٍ فأنزَلَهُما حيثُ ينزلُ الناسُ اليومَ، وجمَعَ بهما بين الظهرِ والعصرِ، ثم وَقَف بهما وعلَّمهما المناسِكَ، فجعلَ إبراهيمُ يقول: عَرفتُ عَرفتُ فلذلك سُميت عرفاتٍ».

وقال مجاهد: قال إبراهيم: يا ربِّ، كيف أقول؟ فقيل له: اصعد على الجبل وناد: أيها النَّاس، أجيبوا ربَّكم لبيك اللهم لبيك، فقال ذلك في جميع الجهات، فهذا أصل التلبية(٢).

فإن قيل: فالنفس أبداً تتوق إلى مكة مع علمها بتحمُّل المشاق فما سببه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: قول الخليل: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[إبراهيم:٣٧] أي: تشتاق وتحنُّ، ولو لم يقل ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لحجَّه اليهود والنصارى.

والثاني: لأنَّ الله تعالى أخرج ذرِّيَّة آدم بأرض نَعمان، وهي أرض عرفة، وقد ذكرناه(٣)، فصار ذلك المكان وطناً، والنفس أبداً تنازع إلى حبِّ الوطن.

والثالث: لأنَّ الله سبحانه ينظر في ليلة النصف من شعبان إلى الكعبة فتحنُّ إليها

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/ ١٤٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/ ١٤٥.

(٣) انظر فصل: ومن الحوادث توبته.

قلوب الحاجِّ.

وقال مقاتل: حجَّ إبراهيم وإسماعيل ماشيين[(١)].

وقال ابن مسعود في تأويل قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف: ١٦] قال: هو طريق مكة، أمنعهم من الحج[(٢)].

حدَّثنا غير واحد عن أبي منصور القزَّاز بإسناده عن إسماعيل بن أبي خالد عن زاذان قال: مرض ابن عباس مرضاً شديداً فدعا ولده فجمعهم وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن حجَّ من مكة ماشياً حتى يَرجِعَ إلى مَكةَ كَتبَ اللهُ لهُ بكُلِّ خُطوَةٍ سَبع مئة حسنةٍ مِن حسناتِ الحَرَمِ. قيل لهُ: وما حسناتُ الحَرمِ؟ قال: بِكُلِّ حَسَنةٍ مئةُ ألفِ حسنةٍ»[(٣)].

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحَجُّ المبرُورُ ليسَ لَهُ جَزاءٌ إلَّا الجنَّةُ، والعُمرَةُ إلى العُمرَةِ تُكفِّرُ مَا بَينَهما»[(٤)].

وقال أحمد بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حَجَّ هَذا البَيتَ فلَم يَرفُثْ ولَم يَفسُق رَجَعَ كما وَلَدَته أُمُّه»[(٥)]. الحديثان في الصحيحين

فصل في صحف إبراهيم عليه السلام

حدثنا غير واحد عن أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزَّاز بإسناده عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزل الله؟ فقال: «مئة كتاب وأربعة كتب، أنزلَ الله على آدم عشرين أو عشر صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٧/ ١٤٦ عن مجاهد.

(٢) انظر «زاد المسير» ٣/ ١٧٦.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٦٩٢).

(٤) أخرجه أحمد (٧٣٥٤) والبخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩).

(٥) أخرجه أحمد (١٠٢٧٤) والبخاري (١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠).

وقد رواه ابن قتيبة فقال: أنزل الله على آدم عشر صحائف، وعلى إبراهيم عشرين[١].

قال أبو ذر: فقلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المسلَّط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنِّي بعثتك لتردَّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردُّها وإن كانت من كافر. وكان فيها: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات يناجي ربَّه، ساعةٌ يفكِّر فيها وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعةٌ يخلو فيها لحاجته من الحلال. وعلى العاقل أن لا يكون طاغياً إلَّا في ثلاث: تزوُّد لمعاد، ومرمَّة لمعاش، ولذَّة في غير مُحرَّم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن حسب كلامه من عمله قلَّ كلامه إلَّا فيما يعنيه. وسلام على من أكرم الضيف، ومن أهانه فهو في الدرك الأسفل من النار». قال أبو ذر: فلهذا كان إبراهيم لا يأكل إلَّا مع الضيف[٢].

وقال مقاتل: أنزل الله على إبراهيم الصحف وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقيل: ابن ثمانين.

فصل في اتخاذ الله إياه خليلاً

قال أهل اللغة: الخليل الصديق، والخُلَّة الصداقة. قال الجوهري: الخُلَّةُ: الخليل، يستوي فيه المذكر والمؤنث، لأنه في الأصل مصدر[٣].

فإن قيل: فإذا كانت الخُلَّة عبارة عن الصداقة فهذا المعنى معدوم في حقِّ الله تعالى، قلنا: معنى الخُلَّة من إبراهيم المودَّة والطَّاعة لله والتقرُّب إليه بما يكون سبباً للزلفى، ومن الله تعالى بمعنى الإقبال عليه والإحسان إليه.

واختلفوا في سبب اتخاذ الله إيَّاهُ على أقوال:

---

(١) انظر «المعارف» ص ٣٢.

(٢) أخرجه ابن حبان مطولاً (٣٦١)، وابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٧٢-٢٧٣، وإسناده ضعيف جداً.

(٣) انظر «الصحاح»: (خلل).

أحدها: لإطعامه الطعام ولم يكن يأكل إلَّا مع الضيف، رواه عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ. حدَّثنا جدِّي حدّثنا أبو القاسم الحريري بإسناده عن عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: «سَألتُ جِبرِيلَ لمَ اتخَذَ اللهُ إِبراهيمَ خَلِيلاً؟ فَقالَ: لإطعامِهِ الطَّعَامَ[١]».

الثاني: لأنه أصاب أهل ناحيته جدب[٢]، روى أبو صالح عن ابن عباس قال: أصابت الناسَ سنةٌ جهدوا فيها، فجاؤوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكان له صديق بمصر، وكان يبعث إليه غلمانه بالإبل فيمتارون[٣]، فذهبوا إلى صديقه فلم يعطهم شيئاً، وقال: لو كان إبراهيم إنما يمتار لنفسه احتملنا ذلك، فقد دخل علينا من الشدَّة ما دخل على الناس، فرجعوا من عنده، فمرُّوا على كثيب رمل، فقال بعضهم: خذوا منه لئلا يقول الناس لم يأتوا بشيء، فملؤوا تلك الغرائر وجاؤوا فأخبروا إبراهيم بأن صديقه لم يعطهم شيئاً، وأنَّهم ملؤوا الغرائر رملاً، فنام مهموماً. وجاءت سارَة ـ وكانت غائبة ـ ففتحت بعض الغرائر تظنُّ أنَّ في الغرائر دقيقاً، فإذا دقيق حُوَّارى[٤]، فعجنت وخبزت، فانتبه إبراهيم فرأى الخبز فقال: من أين هذا؟ قالت: من عند خليلك المصري. فقال: بل من عند خليلي الله، ففرَّقه على النَّاس فاتخذه الله خليلاً[٥].

والثالث: لأنه لما كسر الأصنام غَيرةً لله اتخذه اللهُ خليلاً، قاله مقاتل[٦].

والرَّابع: لأنه لم يخير بين شيئين إلَّا اختار ما لله فيه رضىً. قاله الربيع بن أنس.

وقال ابن سعد بإسناده عن ابن عباس قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً كان له يومئذ ثلاث مئة عبد فأعتقهم، فكانوا يجاهدون بين يديه[٧]. وإبراهيم أوَّل من عمل القسيَّ العربية، وأما القسيُّ الأعجميَّة فأوَّل من عملها نمرود[٨].

---

(١) انظر «زاد المسير» ٢/ ٢١٢. و«المنتظم» ١/ ٢٧٣. وأخرجه البيهقي في «شعبه» (٩٦١٦).
(٢) قوله: الثاني . . . إلى هنا ليس في (ل) و(ب)، والمثبت من (ط).
(٣) يمتارون: يجلبون الطعام.
(٤) الحوارى الدقيق الأبيض وهو لباب الدقيق.
(٥) انظر «المنتظم» ١/ ٢٧٣-٢٧٤، و«التبصرة» ١/ ١٠٩.
(٦) انظر «التبصرة» ١/ ١٠٩، و«المنتظم» ١/ ٢٧٤.
(٧) انظر «الطبقات» ١/ ٤٧.
(٨) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» ١/ ٢٧٤.

فصل في سؤال الخليل ربَّه أن يريه كيف يحيي الموتى

فإن قيل: فهل كان شاكّاً حتى قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: ٢٦٠]؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أراد أن يجمع بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، كما أنَّ الإنسان يعلم الشيء ويتيقَّنه ولكن يحبُّ أن يراه عياناً، كما أنَّ المؤمنين يحبُّون الله ويختارون رؤيته في الجنان مع الإيمان وزوال الشك، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه رأى دابَّة ميِّتة على جانب البحر تأكلها دوابُّ البحر وتمزِّقها دواب البرِّ، فجاءه الخبيث فقال له: يا إبراهيم، متى يجمع الله هذه من بطون السِّباع والحيتان؟ فقال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ لتذهب عني وسوسة الشيطان، قاله ابن زيد ومقاتل.

والثالث: أنه لما بُشِّر بالخلَّة سأل ذلك ليتيقَّن بالإجابة صحَّة ما بشّر به، قاله ابن مسعود والسُّدي.

والرَّابع: لأنه لما ناظر نمرود وقال له: أنا أحيي وأميت قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[البقرة:٢٥٨] قال له نمرود: أنت عاينت ذلك؟ فلم يقل: نعم لأنه ما شاهده، فلمَّا قال: أرني كيف تحيي الموتى قال له الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فلعلَّ نمرود يناظرني مرَّة ثانية فأقول: نعم، فلا أحتاج إلى الانتقال إلى حجَّة أخرى(١).

فإن قيل: فكل هذه الأجوبة مجاز لا حقيقة، وقد ثبت أنه كان شاكّاً مثل قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[الأنعام: ٧٦ـ٧٨] والدليل عليه ما رواه الأئمة، فقال أحمد بإسناده عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحنُ أحقُّ بالشَّكِ من أبينا إبراهيمَ حيثُ قالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] ثم قرأ الآية حتى أنجزها، أخرجاه في الصحيحين(٢)، وفيه: «يَرحمُ اللهُ لوطاً لقد كانَ

(١) انظر تفسير الطبري ٥/ ٤٨٥، والبغوي ١/ ٢٤٧، وزاد المسير ١/ ٣١٣، والمنتظم ١/ ٢٧٥.
(٢) أخرجه أحمد (٨٣٢٨)، والبخاري (٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١).

يَأوِي إلى رُكنٍ شَديدٍ ولو لَبِثْتُ ما لَبِثَ يُوسفُ في السِّجنِ لأَجَبتُ الدَّاعِي»[(١)].

والجواب: قالوا: ما شهد له الرَّسول بالشكِّ، وإنما مدحه لأنَّ معناه نحن أحق بالشكِّ منه وما شككنا، وكيف يشكُّ هو، وإنما شكَّ هل يجيبه إلى سؤاله أم لا؟ وكذا باقي الحديث مدح للوط ويوسف.

وقال ابن إسحاق: هذه الواقعة جرت لإبراهيم قبل النبوَّة، وقبل إنزال الصحف، وقبل أن يولد له، وقبل بناء البيت، لأنه مرَّ على بحيرة طبريَّة لما دخل الشَّام فرأى الميتة على جانبها فيكون هذا من جنس قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾.

وقال محمد بن مقاتل الرَّازي: ما كان شاكّاً في القدرة بدليل قوله: ﴿أَرِنِي﴾ ولو كان شاكّاً لقال: هل تحيي الموتى؟ فكان معنى قوله: ﴿أَرِنِي﴾ أي ما أنا موقن به، ولكن ليطمئنَّ قلبي بزيادة اليقين والحجَّة وحقيقة الخُلَّة وإجابة الدعوة. فقال له الله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾.

واختلفوا في الذي أخذ، والمشهور أنَّه أخذ طاووساً ونسراً وغراباً وحماماً، رواه مجاهد عن ابن عباس[(٢)]، وفيه إشارة إلى أحوال الدنيا فالطَّاووس من الزينة، والنسر من امتداد الأمل، والغُراب من الغربة، والحمام من النِّياحة، وقيل: وديكاً عوض النسر.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ومعناه: اجمعهُن وضمَّهنَّ، ومعناه أيضاً: قطِّعهنَّ ومزِّقهنَّ، وأنشدوا في اللغز: [من الخفيف]

وغــلامٍ رأيـتُـه صَــارَ كَــلْــبـاً ... ثُـمَّ فـي سـاعـتـيـنِ صـارَ غَـزالا[(٣)]

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي بعضاً.

فإن قيل: فلم قال: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ﴾[البقرة: ٢٦٠] ولم يقل: طيراناً، قلنا: لو طارت لتوهم متوهِّم أنها غيرُ تلك، وأنَّ أرجلَها غيرُ سليمة، فكان أبلغ في الحُجَّة وأبعد من الشُّبهة.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٣٢٩)، والبخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

(٢) انظر «زاد المسير» ١/ ٣١٤.

(٣) البيت في «العقد الفريد» ٦/ ٤٧٢، قوله: صار كلباً؛ ضم كلباً، من صار يصور.

وقال مقاتل: هذا مَثَلٌ ضربه الله فكأنَّه يقول: كما قدرتُ أن أبعث هذه الأطيار من هذه الأجبل الأربعة، فكذا أبعث الناس يوم القيامة من أرباع الأرض ونواحيها، وهي الجنوب والشمال والدَّبُور والصَّبا.

فإن قيل: فلمَ خصَّ أربعة أطيار؟ قلنا: لأجل الاستقصَّات الأربع التي بها قوامُ العالم.

والجبال من جبال الشام، وقيل: على جبل لُبنَان، وسَنِير، وجبل القُدس، وطُور سَيناء.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: سمعت أبا القاسم ابن حبيب يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا الحسن الأقطع وكان حكيماً يقول: صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لكل آيةٍ ظهرٌ وبطنٌ، ولكلِ حرفٍ حدٌّ ومَطلعٌ». وظاهر الآية ما ذكره أهل التفسير، وباطنها أنَّ إبراهيم أُمِرَ بذبح أربعة أشياء في نفسه بسكين الإياس، كما ذبح الأَطيارَ الأَربعةَ بسكين الحديد، فالنسر مَثلٌ لطول العمر والأمل، والطَّاووس زينةُ الدنيا وبهجتُها، والغراب الحرص، والدِّيك الشهوة.

قلت: الخليل عليه السَّلام منزَّهٌ عن مثل هذا، لأنَّ الله تعالى عصمه من كل ما ذُكِرَ من الأمثال، فتحصيل الحاصل محال.

فصل في ابتلائه بالكلمات

قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾[البقرة: ١٢٤] الآية. والابتلاء: هو الامتحان والاختبار.

واختلفوا في الكلمات: قال ابن عباس: هي خمسٌ في الرَّأس: قصُّ الشارب، والمضمضة والاستنشاق، والسِّواك، وفرق الرَّأس، وخمس في الجسد: وهي تقليم الأظفار، وحلق العانة، ونتف الإبط والختان، وغسل موضع الاستنجاء والبول بالماء(١).

---

(١) انظر «المنتظم» ١/ ٢٧٥ـ٢٧٦.

وقال الحسن البصري: ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر[١].

وقال مجاهد: بالنَّار.

وقال الرَّبيع: بالجبَّار الذي أخذ سارَة.

وقال مقاتل: بنمرود.

وقال مقاتل بن حيَّان: بذبح الولد.

وروي عن ابن عباس أنَّها المناسك: الطَّواف بالبيت والسَّعي ورمي الجمار والإفاضة، والغسل من الجنابة والغسل يوم الجمعة. وقال مقاتل بن سليمان: هي كل مسألة في القرآن مثل قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] ونحو ذلك.[٢]

قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤] الذريَّة: من ذرأ الله، أي: أخرج، وقال الزجاج: هي فعلية من الذرِّ الذي أخرج من ظهر آدم. قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: لا ينال ميثاقي العصاة[٣].

فصل في ابتلائه بذبح ولده[٤]

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ﴾[الصافات: ١٠٢] الآية. قال علماء السِّير: كان السبب في الأمر بذبح ولده أنه لما فارق قومه مهاجراً إلى الشام فارًّاً بدينه كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾[الصافات: ٩٩] دعا أن يرزقه ولداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[الصافات: ١٠٠] فلمَّا أقام بفِلَسطِين ونزل به أضيافه من الملائكة المرسلين إلى المؤتفكات ـ وهي قرى قوم لوط ـ وبشَّروه بغلام حليم، قال: هو لله ذبيح، فلمَّا ولد له الغلام من سارَة وصلح أن يسعى معه أتاه آتٍ في منامه فقال له: أوفِ بنذرك. وقال ابن عباس: وكان عمره يومئذٍ ثلاث عشرة سنة،

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٨٥.

(٢) انظر «زاد المسير» ١/ ١٤٠.

(٣) من قوله: مقاتل بن سليمان . . . إلى هنا ليست في (ب).

(٤) جاء هذا الفصل في «ب» بعد فصل هلاك نمرود لاختلاط في الأوراق. وانظر في هذا الفصل تاريخ الطبري ١/ ٢٧٢، وتفسيره ١٩/ ٥٨١، وتفسير البغوي ٤/ ٣٣، وعرائس المجالس ٩٥، وزاد المسير ٧/ ٧٣، والمنتظم ١/ ٢٧٩، والتبصرة ١/ ١٣٧، والبداية والنهاية ١/ ٣٦٣.

وهذا الزَّمان أحبُّ ما يكون الولد إلى والده، لأنَّه قد استغنى عن الحضانة وكلفة التربية، ولم يبلغ إلى حالة العقوق، فكانت البلوى به أشدَّ. فقال له: يا بنيَّ، انطلق بنا نقرِّب قرباناً، فأخذ سكيناً وحبلاً وانطلق معه، حتى إذا كان بين الجبال قال له الغلام: يا أبتِ، أين قربانك؟ فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ﴾[الصافات: ١٠٢] الآية.

فإن قيل: فهل يجوز ذبح مثل ذاك الغلام بمنام، وقد كان جبريل يأتيه بالوحي شفاهاً لا في الأحلام؟ فالجواب: إنَّ الإنسان يكره أن يواجه بذبح ولده، فترك مخاطبة جبريل بذلك من باب الاحترام والإجلال والإعظام، وأمَّا منامات الأنبياء عليهم السَّلام فحقٌّ لأنها وحي على لسان ملك الرؤيا، وتارة يخاطبهم الله تعالى بما فيه مصالح الأنام.

وقال علماء السِّير ممن سمَّينا: لمّا رأى إبليس ذلك قال: لئن لم أفتنْ إبراهيم اليوم وولده وسارَة، وإلا لم أظفر منهم بشيء أبداً، فأتى أمَّ الغلام فقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب يحتطب لنا من هذا الشعب، قال: والله ما ذهب به إلا ليذبحه، فقالت: كلَّا هو أرحم به وأشدُّ حبّاً له، قال: يزعم أنَّ الله أمره بذلك، فقالت: إن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربَّه، سلَّمنا لأمر الله وقضائه. فلمَّا يئس منها أتى الغلام وهو يمشي وراء أبيه فقال له: يا غلام، هل تدري أين يَذْهَبُ بك أبوك؟ قال: نعم يحتطب لأهلنا من هذا الشعب، فقال: لا والله، ما يريد إلّا أن يذبحك، قال: ولم؟ قال: يزعم أنَّ ربَّه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره ربُّه به، سمعاً وطاعةً. فلمَّا يئس من الغلام أتى إبراهيم فقال: أيها الشيخ، أين تريد بهذا الغلام؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لنا فيه، فقال: والله إني لأرى أن الشيطان جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك، فعرفه إبراهيم فقال له: إليك يا خبيث عني، فو الله لأُمضينَّ أمر ربي. فرجع عدوُّ الله خاسئاً خاسراً لم يبلغ من سارَة والغلام وإبراهيم ما أراد(١).

وقال ابن عباس: فلمَّا علم الغلام أنه ذابحه قال له: يا أبة، اشدد رباطي لئلا أضطرب، واكفف ثيابك عن دمي لئلا يصيب ثوبك فتراه أمي فتحزن، وأسرعْ مرَّ

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٩٧.

السكين على حلقي ليكونَ أهونَ للموت عليَّ، وإذا أتيت أمِّي فأقرئها السَّلام عني، واذكرْ لها ثواب الصابرين. فأقبل إبراهيم يقبِّله ويبكي ويقول: نعم العونُ أنت يا بُنيَّ على أمري، والغلام يبكي، وضجَّتْ ملائكة السماء بالبكاء، فقال الله: يا ملائكتي، انظروا إلى عبدي استحقَّ الخُلَّة أم لا؟ فقالوا: إلهنا، لو كنَّا مكانه لم نصبر.

وإنما قال له: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] ليختبر ما عنده من الرَّأي في أمر الله فإن أجاب حزن عليه، وإن امتنع لم يحزن عليه. فلمَّا قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ازداد بلوىً بفراقه. ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: استسلما لأمر الله ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] أي: صرعه على جنبه فصار أحد جَبينَيهِ على الأرض ـ وهما جبينان والجبهة بينهما، والعوام تسمِّي الجبهة جبيناً ـ فأمرَّ السِّكين على حلقه فلم تعمل شيئاً، وضرب الله على حلقه صفيحة نحاس فانقلبت السكين، فناداه الغلام: يا أبت، اقلبني على وجهي فلعلك تستحي أو تدرك رقة فتحول بينك وبين أمر الله. وضجَّت السَّماوات والأرض ومن فيهما لما رأوا من صبر الغلام. فبينما هو كذلك قلب الله الشفرة ونودي الخليل ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٥] فالتفت فإذا بكبش أملح من الجنَّة قد رعى فيها أربعين خريفاً. وقال مقاتل: هو الكبش الذي قرَّبه هابيل، جاء به جبريل.

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس: أنَّ إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أعينين أقرنين حكاه جدِّي رحمه الله في «التبصرة»[١].

فخلى عن الغلام وجعل يقبِّله ويبكي ويقول: اليومَ وُهبت لي يا بنيَّ، واشتغل بذبح الكبش عنه، فحلَّ جبريل كتافه فالتفت إبراهيم فرآه فقال: من حلَّ كِتافك؟ فقال: الذي جاءك بالكبش.

وقال أهل المعاني: هذا جواب إبراهيم لما ذهب إسماعيل ليأتيه بالحجر الأسود وجاءه جبريل به، وجاء إسماعيل فقال: يا أبت، من أين لك هذا؟ قال: جاءني به من لم يكلني على بنائك[٢].

---

(١) انظر «التبصرة» ١/ ١٣٨، وعرائس المجالس ٩٦.

(٢) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٧٣ـ٢٧٦، و«عرائس المجالس» ص ٩٠.

فإن قيل: فكيف لم تقطع السكين حَلْقَ الغلام، وقطعت حلق الحسين عليه السَّلام؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأنَّ النبي ﷺ كان في ظهر الذبيح على قول من يقول إنه إسماعيل، فلم تعمل السكين فيه احتراماً لرسول الله ﷺ.

والثاني: لأنها لو قطعت عنق الذبيح لاحتاج النَّاس في كل سنة إلى ذبح أولادهم أسوةً به، ففداه الله بالكبش لطفاً منه ورحمة، فكان الكبش فداء للنَّاس كلهم إلى يوم القيامة.

والثالث: لأنَّ الذابح للغلام كان شفيقاً، والذابح للحسين كان عدوّاً، العدوُّ ما في قلبه رحمة بخلاف الوالد.

والرَّابع: أنَّ الحسين وافق أولاد الأنبياء كيحيى بن زكريا، ولهذا عدد حروف اسم الحسين على عدد حروف يحيى، فجعلت الموافقة في الاسم والرَّسم والشَّهادة، وحظي قاتل الحسين باللعنة إلى يوم القيامة من عالم الغيب والشهادة.

قال علماء السِّير: فلمَّا رجع الغلام إلى أمِّه رأته ممتقعَ اللون، فسألته فأخبرها فقالت: أردتَ يا إبراهيم أن تذبح ولدي ولا تخبرني؟! فيقال: إنَّها انفطرت مرارتها فماتت بعد ثلاثة أيَّام[(١)].

وقال مقاتل: إنما رأى مقدِّمات الذَّبح من المعالجة ولم ير الإراقة، فلمَّا فعل في اليقظة ما رآه في المنام قيل له: ﴿صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما ذكرنا من العفو عن ذبح ولده ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الصافات: ١٠٥] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾[الصافات: ١٠٦] أي الاختبار الخالص.

وقال الزهري: وفي ذلك يقول أميَّة بن أبي الصَّلت[(٢)]: [من الخفيف]

ولإبراهيمَ المُوَفِّي بالنَّذ ... رِ احتساباً وحاملِ الأثقالِ

(١) انظر «التبصرة» ١/ ١٣٧.

(٢) «ديوان أمية» ص٤٤٠ـ٤٤٤، وتاريخ الطبري ١/ ٢٧٧ـ٢٧٨.

يـا بُـنـيَّ إنـي نَـذرتُـك لِـلَّـ ـهِ ذبيحاً فاصبرْ على الأهوالِ
بينما يَنزعُ السرابيلَ عنهُ فكَّهُ ربُّهُ بكبشٍ جُلالِ
رُبَّما تَجزَعُ النُّفوسُ مِنَ الأمـ ـرِ لـهُ فَرْجَةٌ كحَلِّ العِقَالِ

من أبيات.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[الصافات: ١٠٧] أراد الاسم، وهو ما هُيِّئ للذبحِ من الحيوانات، وهو ما يذبح إلى يوم القيامة، وهذا أبلغ. وقيل: إنما وصفه بالعِظَم، لأنه رعَى في الجنَّة مدَّة، وقيل: لأنَّه متقبَّل(١).

ذكر اختلاف العلماء في الذبيح هل هو إسحاق أم إسماعيل؟

ذهب عامَّة الصحابة والتَّابعين ومن بعدهم إلى أنه: إسحاق، وهو قول العباس بن عبد المطلب، وعليٍّ، وعمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأنس، وأبي هريرة، وابن عباس في رواية، وكعب الأحبار، والحسنِ البصري، ومسروق، وقتادة، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والقاسم بن أبي بَزة، وعطاء، ومقاتل، وعبد الرحمن بن سابِاط، والزهري، والسُّدي، وعبيد بن عمير، ووهب، وأبي ميسرة، وقول أهل الكتابين التوراة والإنجيل، ومذهب أبي حنيفة وأحمد، وعن ابن المسيِّب روايتان(٢).

وقالت طائفة: هو إسماعيل، وبه قال عبد الله بن عمر، وأبو الطفيل واثلة بن الأسقع، ومعاوية، وعبد الله بن سلَام، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، والشعبي، وإحدى الروايتين عن ابن عباس وابن المسيِّب ومالك والشافعي، والحسن البصري في رواية(٣).

وجه قول القائلين إنه إسماعيل

قال أبو إسحاق الثعلبي: روى عمر بن عبد الرحمن الخطَّابي [بإسناده عن الصُّنابحي] قال: كنَّا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟

(١) انظر «التبصرة» ١/ ١٣٨.
(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٦٣، و«المنتظم» ١/ ٢٧٧.
(٣) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٢٦٧، و«زاد المسير» ٧/ ٧٢.

فقال معاوية: على الخبير سقطتم، كنت عند النبيِّ ﷺ فجاءه رجل فقال: عُدْ عليَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا رسول الله، وما الذبيحان؟ فقال: «أبي عبد الله وجدِّي إسماعيل»[1] مختصر.

وروى أبو جمرة[2] ـ واسمه نصر بن عمران الضُّبَعيُّ ـ عن ابن عباس أنه قال: المفديُّ إسماعيل، وزعمتْ اليهود أنه إسحاق وكذَبت[3].

وقال محمد بن كعب القرظي: إنَّا لنجد في كتاب الله أنَّ الذَّبيح إسماعيل، وذلك لأنَّ الله تعالى لما فرغ من قصَّة الذَّبيح قال: وبشَّرناه بإسحاق، فدلَّ على أنَّ قصَّة الذبيح كانت متقدِّمة على البشارة بإسحاق[4].

وقال مقاتل: سأل عمر بن عبد العزيز [أحد] أحبار اليهود ـ وكان قد أسلم ـ عن الذبيح فقال: هو إسماعيل، قال: فما بال اليهود يقولون إنه إسحاق؟ قال: يعلمون أنه إسماعيل ولكنهم يحسدونكم فيقولون: هو أبونا إسحاق[5]. ولأن الأمم توارثت النحر بمنىً من زمان الخليل عليه السلام إلى هلمَّ جرًّا، وموضع النَّحر بمنىً مشهور، وهو من شعائر الحجِّ، فإنَّ النَّحر هناك واجب حتى لو تركه لزمه دم.

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: والذي نفسي بيده لقد كان أوَّل الإسلام، وإنَّ رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد وحش، أي يبس[6].

وقال الشعبيُّ: أنا رأيت قرنيه وكان يتوارثهما بنو إسماعيل كابراً عن كابر إلى أن احترق البيت في أيام الحجَّاج فاحترق القرنان.

وروي عن عليٍّ كرَّم الله وجهه أنَّه قال: الكبش الذي فُدِيَ به إسماعيل نزل من ثَبِير فنحره إبراهيم بمنىً.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٩٥. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٤٤٨، وقال الذهبي: إسناده واهٍ.
(٢) في «ل»: أبو الجوزاء، وفي (ب): أبو الجور، والمثبت من تهذيب الكمال (ترجمة نصر).
(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٦٨ عن عطاء بن أبي رباح.
(٤) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٦٩، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٤.
(٥) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٧٠، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٤.
(٦) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٧٥ـ٢٧٦، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٦.

وقال الأصمعيُّ: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح أكان إسحاق أم إسماعيل؟ قال: أين ذهب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكَّة؟ وإنما كان بها إسماعيل، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والنحر بمنىً لا شك فيه.

وقال أبو إسحاق الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحَبِيبي يقول: سمعت أبا بكر محمد ابن المنذر الضرير يقول: سمعت أبا محمد الزنجاني المؤذن يقول: سئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فقال:

إنَّ الذَّبِيح ـ هديت ـ إسماعيلُ ... نطق الكتابُ بذاك والتَّنزيلُ
شرفٌ به خصَّ الإله نبيَّنا ... وأبانَهُ التفسيرُ والتأويلُ

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: لما أُمِرَ إبراهيم بذبح ولده عرض له الشَّيطان عند المشعر [الحرام] فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات فذهب، ثم عرض له عند الجمرة الثانية والثالثة وهو يرميه بسبع حصيات حتى مضى إبراهيم لأمر الله تعالى(١).

وجه قول القائلين بأنه إسحاق

قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن الأحنف بن قيس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الذي أرَادَ إبراهيمُ ذبحه إسحَاق»(٢).

وقال أبو إسحاق بإسناده أيضاً عن عمر بن حفص عن أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يَشفَعُ إسحاقُ بعدي فيقُولُ: يا ربِّ، صدَّقتُ نبيَّكَ وَجُدتُ بنفسي للذَّبح فلا تُدخِلِ النَّارَ من لا يُشرِكُ بِكَ شَيئاً، فيقولُ اللهُ: لا أُدخِلُ النَّارَ من لا يُشرِكُ بِي شَيئاً»(٣).

وروى العباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الذَّبيحُ إسحَاق». وأسنده جدي في «التبصرة»

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» ١/ ٢٧٦، وفي تفسيره ١٩/ ٦٠٣، وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٧، ومابين معكوفتين من المصادر.
(٢) «عرائس المجالس» ص ٩٤.
(٣) «عرائس المجالس» ص ٩٤.

ولم يتكلم عليه ولا بيَّن ما فيه، وذكر في إسناده المبارك بن فَضَالة عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس[١]، وفيه نظر لما نذكره ولأنَّ الله أخبر عن خليله حين فارق قومه مهاجراً إلى الشام مع لوط وسارة فقال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات: ٩٩ـ١٠١]

وروى الثعلبي عن ابن مسعود قال: افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان ابن الأشياخ الكرام، فقال ابن مسعود: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن[٢].

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن موسى مولى أبي بكر الصديق عن سعيد بن جبير قال: أُري إبراهيم ذَبْح ولده إسحاق في المنام فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة حتى أتى به المنحر بمنىً، فلمَّا صرف الله عنه الذَّبح وأمره بذبح الكبش فذبحه سار به في روحة واحدة مسيرة شهر طويت له الأودية والجبال.

وقال أبو إسحاق: وروى عبيد بن عُمير عن أبيه قال: قال موسى: يا ربِّ، يقولون: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم ذلك؟ فقال الله: لأنَّ إبراهيم لم يعدل بي شيئاً قط إلَّا اختارني عليه، وإنَّ إسحاق جاد لي بالذبح، وهو بغير ذلك أجود، وإنَّ يعقوب كلَّما زدته بلاءً زاد بي حسن ظن[٣].

وذكر جدي في «التبصرة» هذا الحديث على غير هذا الوجه، عن العباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «قال داود: إلهي، أسمع الناس يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني رابعاً. قال الله: لست هناك، إنَّ إبراهيم لم يعدل بي شيئاً إلا اختارني عليه، وإنَّ إسحاق جاد لي بنفسه، وإنَّ يعقوب في طول ما كان لم ييأس من يوسف»[٤].

قال: وروى حمزة الزيَّات عن ابن إسحاق عن أبي ميسرة قال: قال يوسف للملك: تستنكف أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبيُّ الله، ابن إسحاق ذبيحُ الله، ابن

---

(١) «التبصرة» ١/ ١٣٥ـ١٣٦.

(٢) «عرائس المجالس» ص ٩٣.

(٣) «عرائس المجالس» ص ٩٣.

(٤) «التبصرة» ١/ ١٣٦.

إبراهيم خليلُ الله(١).

وقد روي أن المذبح كان بالقدس. وقال كعب الأحبار: نصُّ التوراة أنَّ الله قال لإبراهيم: خذ وحيدك الذي أحببته وامض إلى أرض الموريا ـ يعني صخرة القدس ـ وأصعدْهُ على الصخرة صعيدة، أي قربه، فخرج وصاح بغلمانه: ابعدوا، مخافة أن يستغيث الولد بواحد منهم فيمنعه ممَّا يريد، فيبطل ثمرة قبول الأمر ـ وهو الثَّواب الدَّائم ـ فقال له: يا بنيَّ، انطلق بنا نقرِّب قرباناً، فأخذ السكين والحطب والنَّار، فقال الولد: وأين الصعيدة؟ قال: هي أنت، فقال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين فصعد على الصخرة وبنى عليها مذبحاً، وكتَّف الولد وجعله فوق الحطب، وأخذ المدية ليذبح الولد، فناداه الربُّ من السماء: يا إبراهيم، لا تمدَّ يدك إلى ولدك بسوء، فإني قد علمتُ وجميع ملائكتي وإنسي وجني أنك لم تمنع وحيدك عني، وإني قد باركت عليكما وفيكما. ثم التفت إبراهيم فأبصر كبشاً مربوطاً بقرنيه فأخذه وذبحه صعيدةً عوض الغلام، ورجع الغلام إلى أمِّه سارة(٢).

وقال وهب: كان المذبح بإيلياء من أرض فلسطين.

قلت: والواجب التوقُّف في هذا، فإنَّ الأدلة متعارضة من الجانبين: أمَّا على قول من قال إنه إسماعيل:

أمَّا الصُّنابحي فضعيف، وضَحِكُه ﷺ ـ إن ثبت الحديث ـ كان تعجُّباً من قول الرجل، ولو كان ابن الذبيحين لما ضحك.

وأمَّا رواية أبي جمرة(٣) عن ابن عباس أنَّه قال: الذبيح إسماعيل، فقد روى عنه الوالبي أن الذبيح إسحاق.

وأمَّا قول محمد بن كعب القرظي: إن الله قال بعد قصَّة الذبيح: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾[الصافات: ١١٢] فقد قال: نبياً وهذا لا ينفي أن يكون ذبيحاً.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ٢٣/ ٣٨. وانظر «عرائس المجالس» ص ٩٣ـ٩٤.

(٢) «سفر التكوين» ٢٢/ ١ـ٩.

(٣) في «ل» و«ب» ابن الجوزاء وقد تقدم أنه أبو جمرة والله أعلم.

وقولهم: إنَّ الأمَّة توارثت النحر بمنًى فلا يدلُّ على أن الذَّبيح لم يكن إسحاق لوجهين:

أحدهما: لأنه يحتمل أنَّ اللهَ تعالى أمر الخليل بنحر كبش[1] بمنًى، وجعل ذلك من شعائر الإسلام ومناسك الحج.

ويحتمل أنَّ إبراهيم سار بإسحاق إلى منًى وعاد كما ذكر سعيد بن جبير[2]، وأخرجه أحمد في «المسند» أنه إسحاق[3].

وأمَّا قول ابن عباس: لقد كان رأس الكبش معلَّقاً بقرنيه في أوَّل الإسلام. فبعيد لأنَّ بين إبراهيم ونبيِّنا محمد ﷺ ثلاثة آلاف سنة، لما نذكر فيما بين الأنبياء من السنين، فكيف يبقى رأس الكبش هذه المدَّة؟ ويحتمل أنه رأس كبش آخر.

وما روي عن عليٍّ كرَّم الله وجهه فقد روي عنه أنَّ الذَّبيح إسحاق. وقول ابن عباس عرض له الشيطان عند العقبة لا ينفي أن يكون إسحاق.

وأمَّا على قول القائلين بأنه إسحاق، فالأخبار التي ذكرها الثعلبي غريبة جداً. وأمَّا حديث العباس فلا يصحُّ مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، قال محمد بن إسحاق: رواه المبارك بن فضالة عن الحسن فوقفه على العباس، وكذا رواه عكرمة عن ابن عباس عن أبيه، وعكرمة ضعيف.

وقولهم: ليس في القرآن أنه بُشِّر بولد إلا بإسحاق، فقد ثبت في الصحيح: أنَّ إسماعيل وُلِدَ له أوَّلاً على ما رواه البخاري، فنزل منزلة المتواتر، ولا يختلفون فيه. وأمَّا الآثار فمعارضة بمثلها.

قلت: وإذا وقع التعارض وجب التوقف، أو نطلب الترجيح، فنقول: مذهب من قال بأنه إسحاق مذهب الجمِّ الغفير من الصحابة وغيرهم، ومن خالفهم مثل عليٍّ وابن عبّاس فقد روينا عنهما مثل قول الجميع.

---

(١) في «ب» كبشين.

(٢) انظر «الزهد» لأحمد بن حنبل ص ١٠٢.

(٣) مسند أحمد (٢٧٩٤) من حديث ابن عباس مرفوعاً، وإسناده ضعيف.

ونطلبه أيضاً من التاريخ فإنَّ علماء السِّير لا يختلفون أنَّ أوَّل ولد إبراهيم إسماعيل وأنه حمله صغيراً مع أمِّه إلى مكَّة، وأنه غاب عنه مدة بحيث تزوَّج امرأتين، وأنَّ إبراهيم جاءه وهو ابن ثلاثين سنة ولإبراهيم مئة سنة؛ واتفقوا أيضاً على أنَّ هاجر ماتت بمكة ولها تسعون سنة، واتفقوا أيضاً على أن الملائكة بشَّرت سارة بالولد وقد أتى عليها تسعون سنة، وأتت على إبراهيم مئة وعشرون سنة، وأنَّ إبراهيم لما بشَّروه بالولد قال: هو لله ذبيح. واتفقوا على أنَّ سارة لم تدخل الحجاز، وأنَّ إسماعيل لم يدخل الشام؛ وقال جدِّي في «التبصرة»: والأصحُّ أنَّ الذَّبيح إسحاق[1]. فبان بما ذكرنا من الترجيح أن الذبيح إسحاق.

واختلف العلماء في مَنْ نذر أن يذبح ولده أو ينحره؛

فقال أبو حنيفة وأحمد ومحمد: يصحُّ نذره ويلزمه ذبح شاة ويخرج عن العهدة استحساناً. والقياس أن لا يصح، وبه قال أبو يوسف وزفر ومالك والشافعي، وجه قولهم أنَّ النذر بهذه الأشياء ليس بقربة ولا طاعة، وصار كما لو قال: لله عليَّ أن أقتلَ ولدي أو أذبحَ والدي أو جدِّي أو عمِّي أو خالي أو عبدي. ولنا قصَّة الخليل عليه السلام، فإنَّه نذر أن يذبح ولده ففدي بكبش ولنا به أسوة.

وقولهم ليس بقربة، قلنا: نفس النذر ليس بقربة، لكنَّ النذر يوجب ذبح شاة، والذبح قربة بخلاف ما ذكروا من الأحكام، فإنَّ النَّذر بها لا قربة فيه، على أنَّ لأصحابنا فيه منعاً. وأمَّا العبد فيصحُّ عند محمد لأنه مال، والمال محبوب، وعند أبي حنيفة إنما لا يصحُّ لأنَّ النصَّ ورد في الولد، والعبد ليس في معناه.

قصة[2] الخليل عليه السلام مع العابد

روى وهب بن منبِّه قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً قال: يا ربِّ، أرني وليّاً من أوليائك، فأوحى الله تعالى إليه: اطلبه على ساحل البحر، فنزل يمشي على السَّاحل وإذا بكهلٍ قائم يصلي، فلمَّا رآه أوجز في صلاته، فسلَّم عليه إبراهيم وقال: سلامٌ

---

(١) «التبصرة» ١/ ١٣٦.

(٢) من هنا وقع سقط في «ب» ينتهي في التالية.

عليكَ يا وليَّ الله، فردَّ عليه السَّلام وقال: وعليك السَّلام يا خليل الله، فقال: من أين علمتَ أني خليل الله؟ فقال: أخبرني الذي أخبرك أني وليُّ الله، وهناك شجرة خضراء شديدة الخضرة، والسَّاحل يشرق من نور وجه الوليِّ، فأخذا يتذاكران، فمرَّت بينهما غزالة فوقعت مشويَّةً بين أيديهما، فقال الخليل: بسم الله، فقال الوليُّ: والذي دلَّك عليَّ ما أفطرتُ نهاراً منذ أربعين سنة، ولولا كرامتك لما أفطرت، فأكلا منها، فلمَّا فرغا قال الوليُّ: عودي كما كنت بإذن الله، فقامت الغزالة تمشي. ثم قام الوليُّ وودَّع الخليل ودخل البحر يمشي على الماء، فعجب الخليل وقال: يا ربِّ، ما كنت أقول إنَّ في عبادك من يشبهني فبمَ أعطيتَ هذا العبدَ ما أعطيته؟ فقال الله: بحسنِ يقينه، ولو ازداد يقيناً لطار في الهواء.

قصة إبراهيم عليه السَّلام مع العبد الحبشي

روى السُّدي عن أشياخه قال: خرج إبراهيم عليه السلام في السياحة فوقع في مفازة، فعطش ولم يقدر على الماء، فإذا بعبدٍ حبشي يرعى غنماً، فقال: أنا عطشان، فقال: يا خليل، أيما أحبُّ إليك اللبن أم الماء؟ فعجب الخليل لما ذَكر اسمه وقال: الماء، فضرب الأرض بقدمه، فنبع ماءٌ أحلى من العسل، وأبرد من الثلج فشرب إبراهيم وبكى، وقال: إلهي، عبدٌ حبشيٌّ له عندك هذه المنزلة، وأنا خليلك أعطش ولا أقدر على الماء. فأوحى الله إليه: وعزَّتي وجلالي لو سألني هذا العبد الحبشي أن أزيلَ السماوات والأرض لفعلت، إنه لا يريد من الدنيا والآخرة سواي.

قصة الخليل عليه السَّلام مع المجوسي

حكى وهب بن منبِّه عن مجاهد قال: كان إبراهيم عليه السلام لا يُضيف من يكفر بالله، فنزل به مرَّة مجوسيٌّ فأضافه ولم يعلم أنه مجوسي. فلمَّا جاء وقت الصلاة قام إبراهيم يصلي، والمجوسي جالس، فقال له: يا شيخ، لم لا تصلي؟ فقال: هو مجوسيٌّ، فطرده وقال: لا أضيف من يكفر بالله، فقام وخرج وهو منكسر القلب. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، أنا منذ سبعين سنة أرزقه على كفره وأنت بخلتَ عليه بلقمة؟! فقام إبراهيم وخرج يعدو خلفه، ارجع[1]، فقال: لا حاجة لي في ضيافتك بعد

(١) يعني ويقول له: ارجع.

أن طردتَني، فقال: إنَّ ربي عاتبني فيك فقال لي: كذا وكذا، فبكى المجوسي وقال: نِعم الرَّب ربٌّ يعاتب وليَّه[١] في عدوِّه، ثم أسلم.

قصة الخليل عليه السلام مع المَلَك

روى وهب بن منبِّه عن أشياخه قالوا: أقام الخليل بالشَّام، فكثرت أمواله[٢] ومواشيه وعبيدُه، فجلس يوماً على تلٍّ عالٍ وبين يديه ألف قطيع من الغنم، في كل قطيع عبد وكلبٌ في عنقه طوق من ذهب، وما شاء الله من الخيل والإبل. فقال بعض الملائكة: أيتَّخذ ربُّنا من نطفة آزر خليلاً ويؤتيه هذا الملك العظيم؟! - وفي رواية: فقالت الملائكة ذلك - فأوحى الله إليهم: اعتمدوا على من شئتم ينزل إلى الأرض يختبره، فاختاروا بعض الملائكة، وقيل: اختاروا جبريل وميكائيل، فنزلا في صورة فقيرين، فقال لهما الله: اذهبا فاذكراني عنده، فجاء جبريل فوقف عن يمينه وميكائيل عن شماله، فقال جبريل بصوت رخيم: قدوس قدوس، وقال ميكائيل: ربُّ الملائكة والرُّوح، فانتفض إبراهيم انتفاضةً وقال: ما تريدان؟ فقالا: قطيعاً من الغنم، فقال: خذا مهما شئتما أن تأخذا. ثم لم يزالا حتى أخذا الجميع فقال: أعيدا ما قلتما وخذا جميع أهلي وأولادي وما أملك، ففعلا. فضجَّت الملائكة والسماوات والأرض والجبال والشجر والدَّواب وقالوا: هذا والله الكرم، وقال قائل: الخليل موافق لخليله. ثم ارتفعا إلى السماء وهما يقولان: حق لك يا ربَّنا، أن تتخذ هذا خليلاً، فقال الله: رُدَّا عليه ما أخذتما وأضعفا له ذلك.

فصل في وفاة سارة وأولاد إبراهيم عليه السلام

قد حكينا أنها توفيت بعد قصَّة الذبح بثلاثة أيام[٣]، ودفنت في المغارة التي اشتراها الخليل عليه السلام. قال جدِّي رحمه الله في «أعمار الأعيان»: وعاشت مئة وسبعاً وعشرين سنة[٤].

---

(١) في (م): نبيه.

(٢) هنا ينتهي السقط في «ب».

(٣) انظر فصل ابتلائه بذبح ولده.

(٤) «أعمار الأعيان» ص ٩٨.

قال وهب: فتزوَّج إبراهيم بعدها امرأة من الكنعانيين من العرب العاربة، فولدت له ستة نفر، منهم مدين الذي أرسل شعيب إلى أولاده، واسم هذه المرأة: قنطوراء بنت يقطان، وقيل: بنت منطور. قال ابن الجواليقي: وقال حذيفة: يوشك بنو قنطوراء بالمذار أن يُخرِجوا أهل البصرة منها كأني بهم خُزْرَ العيون عِراضَ الوجوه. قال ابن الجواليقي: ويقال: إن قنطوراء كانت جارية إبراهيم فولدت له أولاداً والترك من نسلها(١).

وقال أبو السائب المخزومي: تزوَّج إبراهيم امرأة أخرى يقال لها: حجون أو حجورا، فولدت له خمسة بنين، وقال ابن قتيبة: فجميع أولاد إبراهيم ثلاثة عشر رجلاً(٢).

قلت: وقد حكى ابن سعد عن هشام ابن الكلبي عن أبيه عن أولاد إبراهيم(٣) فقال: إسماعيل أكبر ولده وأمُّه هاجر قبطيَّة، وإسحاق وأمُّه سارة. وقد ذكرناه(٤).

وقال ابن عباس: فرَّق إبراهيم أولاده فبعث إسماعيل إلى جرهم، وإسحاق إلى الشام، ولوطاً ابن أخيه إلى سدوم. وفي أيَّام الخليل أهلك اللهُ قوم لوط لما نذكر.

فصل في وفاة الخليل عليه السلام(٥)

روى الضحَّاك عن ابن عباس قال: لما أراد الله عز وجل قبض روح إبراهيم أوحى إلى الأرض إني دافن فيكِ خليلي، فاضطربت الدنيا وتشامخت الجبال، وتواضعت منها بقعة يقال لها: حِبْرَى، فأوحى الله إليها: يا حِبْرَى، أنت شعشوعي، وأنت قدسي، وفيك خزانة علمي، وعليك أُنزلُ رحمتي، وأسوق إليك خيار عبادي، فطوبى لمن وضع جبهته فيك، فيك أدفن خليلي وصفيِّ، فمن صلى فيك أمنته يوم الفزع الأكبر.

---

(١) «المعرب» ص ٣١٠.

(٢) «المعارف» ص ٣٣.

(٣) كذا، ولعله ضمّن حكى معنى الحديث والكلام، وانظر «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٧.

(٤) انظر آخر فصل الذبيح إسحاق.

(٥) انظر المعارف ٣٣، وتاريخ الطبري ١/ ٣١٢، وعرائس المجالس ١٠٠، والمنتظم ١/ ٣٠٣، وتاريخ دمشق ٢/ ٣٥١ و٣٥٧ (مخطوط)، والبداية والنهاية ١/ ٤٠٢.

وقال الربيع بن أنس: كانت حَبْرون لجبَّار يقال له: عَفْرون، ومسكنه جِبْرَى، فاشتراها منه إبراهيم بأربع مئة درهم، واشترط عليه عَفرون كل درهم وزن خمسة دراهم، كل مئة منها ضرب ملك، فلم يقدر عليها، فجاءه جبريل بها، فقال عفرون: من أين لك هذه؟ فقال: بعث بها إليَّ خليلي رب العالمين مع أمينه على وحيه جبريل، فأسلم عفرون على يده. وجعلها إبراهيم لمن مات من أهله، فماتت سارَة فدفنها بها.

وروى مقاتل عن أبي إدريس الخولاني قال: لما أراد الله سبحانه أن يقبض روح إبراهيم أمر ملَك الموت أن يتلطَّف به، فجاءه في صورة شيخ ضعيف يرتعش، فقدَّم له طعاماً، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة ليدخلها في فيه فيدخلها في عينه أو أذنه أو أنفه. وكان إبراهيم قد سأل ربَّه ألا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأل ربَّه الموت، فقال للشيخ: ما الذي بك؟ فقال: الهرم، قال: كم أتى عليك من السنين، فذكر مثل سني إبراهيم إلا سنة[1]، فقال إبراهيم: قد بقي لي سنة وأصير مثل هذا، اللهم اقبضني إليك، فقام الشيخ فقبضه.

وذكر عبد الله بن أحمد عن أبيه قال: حدثنا الصَّلت بن مسعود بإسناده عن كعب الأحبار، وذكر بمعناه، وأن إبراهيم كان في كرم وقدَّم للشيخ عنباً، وذكره.

وبهذا الإسناد عن كعب قال: كان إبراهيم يقري الأضياف، فأبطؤوا عليه حتى إنه استراب بذلك، فخرج إلى الطريق فطلب ضيفاً، فمرَّ به ملَك الموت في صورة مسكين، فانطلق به إلى البيت فرآه إسحاق فعرفه فبكى، وبكى إبراهيم، وبكى ملَك الموت لبكائهما. ومضى ملك الموت، فقال له إسحاق: يا أبةِ أوصِ فما أرى أجلك إلَّا قد حضر، وهذا ملك الموت.

وحكى السّدي عن أشياخه قال: كان لإبراهيم بيت يتعبَّد فيه ولا يدخله غيره، فجاءه ملك الموت فدخله، فجاء إبراهيم فقال: كيف دخلت بيتي بغير إذني؟ فقال: ما دخلت إلَّا بإذنٍ، فعرفه، فقال: أرني الصورة التي تقبض فيها أرواح المؤمنين، فأراه إياها، فقال له: اقبض، فقبضه، وصعد بروحه إلى السماء فقال: يا إلهي قد جئت بروح من ليس في الأرض بعده خير.

قال وهب: فقال الله تعالى لإبراهيم، كيف وجدت الموت؟ فقال: كأن روحي تنزع

(١) انظر تاريخ الطبري ١/ ٣١٢.

بالسُّلَّاء[١]. فقال الله: قد هوَّنَّا عليك.

وحكى الحافظ في «تاريخ دمشق» عن ابن عمر قال: قال الله تعالى: يا جبريل، خذ ريحانةً من رياحين الجنَّة وانطلق بها مع ملك الموت إلى خليلي وحيِّه بها، وقل له: الخليل إذا طال به العهد أما يشتاق إلى خليله؟ ففعل، فقال الخليل: بلى قد اشتقت إلى لقائه. ثم شمَّ الريحانة فمات[٢].

وقال ابن سعد بإسناده عن هشام بن محمد عن أبيه قال: خرج إبراهيم إلى مكة ثلاث مرات، ودعا الناس إلى الحج في آخرهن، فأجابه كلّ شيء سمعه، فأوَّل من أجابه جرهم قبل العماليق ثم أسلموا ورجع إبراهيم إلى الشام فمات به وهو ابن مئتي سنة[٣].

وقال مجاهد: مات جماعة من الأنبياء فجأة، منهم الخليل وداود وسليمان والصالحون، وهو تخفيف على المؤمن وتشديد على الفاجر.

وقال وهب: دفن إبراهيم في مغارة حِبْرَى بإزاء سارَة، ثم دفن أولاده وأولاد أولاده وأهله في المغارة، وبينها وبين القدس عشرة أميال. ولما طال الزمان عفت آثارها. فلما بعث سليمان أوحى الله إليه بعد ما بنى البيت المقدس أنْ ابنِ على خليلي حَيْراً عالياً يعرف به قبره، فخرج سليمان فأتى القرية التي شمالي حِبْرَى، ويقال لها: بيت الرَّامة، فبنى هناك بنياناً وآثاره فيه، فأوحى الله إليه: ليس هو ها هنا ولكن انظر إلى النور المتدلي من السماء فاتْبَعْهُ، فنظر فإذا هو بالنور على حِبْرَى، فبنى عليه البنيان القائم اليوم، أمر الشياطين فبنته.

وفي حديث المعراج عن النبي ﷺ أنه قال: «مَرَرتُ بقبرِ أبي إبراهيمَ فقال لي جبريلُ: انزلْ فصلِّ هنا ركعتين»[٤].

---

(١) في النسخ: «بالسل» والمثبت من تاريخ دمشق ٦/ ٢٥٦. والسُّلَّاء: شوك النخل، واحدته: سُلَّاءَة. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ١٥٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) «تاريخ دمشق» ٦/ ٢٥٥ـ٢٥٦.

(٣) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٨.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في فضائل بيت المقدس ١٢٠، وفيه بكر بن زياد الباهلي، قال ابن حبان: دجال يضع الحديث، ثم ساق له هذا الحديث، ثم قال: وهذا شيء لايشك عوام أصحاب الحديث أنه موضوع. انظر ميزان الاعتدال (١٢٢٢).

وقال كعب الأحبار: في بعض الكتب يقول الله تعالى: مَنْ حِيل بينه وبين زيارة قبر محمد ﷺ فعليه بزيارة قبر إبراهيم.

وقال عبد الله بن سلام: زيارة قبر إبراهيم والصلاةُ عنده حجُّ الفقراء ودرجات الأنبياء.

فأمَّا ما يروى عن النبيِّ ﷺ: «من زارني وزار قبر أبي إبراهيم في عام واحد ضمنتُ له على الله الجنَّة»[١]، ففيه للمحدثين نظر.

فصل في مبلغ سنّه

واختلفوا فيه على ثلاثة أقوال:

أحدها: مئة وخمس وسبعون سنة، قاله الكلبي.

والثاني: مئة وتسعون سنة، قاله مقاتل.

والثالث: مئتا سنة، وهو الأصحُّ، وحكاه الخطيب عن ابن عباس، وذكره جدي رحمه الله في «أعمار الأعيان» وذكر جماعة عاشوا مائتي سنة منهم النابغة الجعدي وأدرك الإسلام وأسلم، وكذا الجعشم[٢] بن عوف بن جَذِيمة، ومحصن بن عبسان[٣] ابن ظالم، وسيف بن وهب بن جَذِيمة، وعامر بن جُوَين، والنَّمر بن تَوْلَب، وجَناب بن مَصاد بن مُرارة، وثُوَب بن تُلْدة ووفد على معاوية، وأمية بن الأسْكر[٤]، والقُدار العَنَزي، وسويد بن خَذَّاق بن عبد قيس، وامرؤ القيس بن حُمام، وأبو الطَّمَحان القَيني من بني القَيْن واسمه حنظلة، وهو القائل: [من الوافر]

حنتني حانياتُ الدَّهر حتَّى ... كأنِّي خاتلٌ يَدْنُو لصَيْدِ
قصيرُ الخطوِ يحسبُ من يَراني ... ولستُ مقَيَّداً أنِّي بقَيْدِ[٥]

انتهت سيرة الخليل عليه الصلاة والسلام.

---

(١) قال النووي في «المجموع» ٨/ ٢٢٠: وهذا حديث باطل ليس هو مروياً عن النبي ﷺ، ولا يعرف في كتاب صحيح ولا ضعيف، بل وضعه بعض الفجرة، وزيارة الخليل ﷺ فضيلة لا تنكر، وإنما المنكر ما رووه واعتقدوه.

(٢) في (ب): «الجعيثم».

(٣) في «أعمار الأعيان»: «عتبان».

(٤) في (ل) و(ب): «يشكر»، والمثبت من «أعمار الأعيان»، وانظر «الإصابة» ١/ ٦٤.

(٥) «أعمار الأعيان» ص ١٠٧-١٠٩.

فصل في هلاك نمرود وبنائه للصرح وحديث النسور

قال علماء السِّير: وفي أيَّام الخليل عليه السَّلام احتال نمرود في صعوده إلى السَّماء لما شاهد نجاة إبراهيم، فازداد عتوّاً، وحلف ليطلبنَّ إله إبراهيم.

فحكى جدي رحمه الله في «التبصرة» عن السدي قال: فأخذ أربعة أفراخ من النُّسور، فربَّاهم باللحم والخمر حتى كبروا واستفحلوا، فجوعهم أيَّاماً وقرنهم بتابوت، ونصب أربعة رماح في جوانب التابوت، وربطها في التابوت بسلاسل، وجعل على رأس كلِّ رمح فخذاً من اللحم، وربط أعينها، وقعد في التابوت، ثم أمر بإزالة العصائب عن عيونها جملةً. فلمَّا رأت اللحمَ طارت بالتَّابوت فعلَت به حتّى نظر إلى الأرض كأنّها فلكة في ماء. وصعدت النسور فغابت عنه الأرض حتى وقع في ظلمة وريح ونار، فلم يرَ ما فوقه ولا ما تحته، فخاف ونودي أيها الطاغية: إلى أين تريد؟ فنكّس الرماح باللَّحم فأهوت النسور منقضَّات، فلمَّا رأت الجبال ذلك كادت أن تزول[1]. قال ابن عباس: فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقد حكى القصة أبو إسحاق الثعلبي عن علي عليه السلام قال: قال علي وغيره: إنَّ نمرود الجبَّار قال: إن كان ما يقوله إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أعلم ما في السماء، فأعدَّ النسور وقعد في التابوت وجعل معه رجلاً آخر، وجعل له باباً من فوق وباباً من أسفل. فلمَّا طارت النسور طمعاً في اللحم وأبعدت في الهواء قال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها؟ ففتح وقال: إن السماء كهيئتها، فقال: افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض، ففتح وقال: أراها مثل اللُّجَّة والجبال مثل الدخان. قال: وقال عكرمة: وكان معه في التابوت غلام معه قوس ونشَّاب، فرمى سهماً فعاد إليه السهم ملطخاً بالدم فقال: كفيت شغل إله السماء.

قال: واختلفوا في ذلك السهم من أي شيء تلطخ؟ فقال عكرمة: سمكة من السمك فدت نفسها لله تعالى من بحرٍ في الهواء معلَّق.

(١) «التبصرة» ١/ ١١٠ـ١١١، وانظر تفسير الطبري ١٣/ ٧١٨ و١٤/ ٢٠٢، وتاريخه ١/ ٢٨٩، والمنتظم ١/ ٢٨٠، وزاد المسير ٤/ ٣٧٣.

وقال بعضهم: من دم طائر أصابه السهم[١].

قلت: وقول الثعلبي: إنَّ السمكة فدت نفسها لله تعالى، كلام ساقط وأين سبع سماوات والعرش والكرسي وسبعون ألف حجاب حتى يصل إليها سهم نمرود، وإنما يقال في هذا: إمَّا أن يكون استدراجاً لنمرود، أو اتفق أنَّ السهم أصاب طائراً.

وقال الثعلبي أيضاً: ولما هبطت النسور بالتابوت سمعت الجبالُ حفيفَ النسور ففزعت، وظنَّت أنه قد حدث بها حدث من السماء، أو أنَّ السَّاعة قد قامت فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[٢].

وقال الربيع بن أنس: لما رأى أنه لا يطيق شيئاً أخذ في بناء الصرح، قال الجوهري: الصرح كلُّ بناء عال[٣]. ويقال للقصر: الصرح.

وقال مقاتل: بناه في ارتفاع ثلاثة أميال. فبينما الناس ذات يوم في ما هم إذ سقط الصرح، ففزعوا وتبلبلت ألسنتهم، وكان الصرح من الطين والآجر.

قلت: والعجب من سفه نمرود فإنه صعد إلى السماء حتى غابت عنه الأرض، ووقع في الظلمة ولم يظفر بطائل، فما قدر ارتفاع الصرح وهو مقدار فرسخ حتى يظفر بمطلوبه؟

وقوله: تبلبلت الألسن، وهمٌ، لأنها إنما تبلبلت في زمان أولاد نوح كما ذكرنا.

وذكر جدّي في «التبصرة» وقال: وأمَّا نمرود فإنه بقي بعد إلقاء الخليل في النار أربع مئة عام لا يزداد إلَّا عتوّاً، ثم حلف ليطلبنَّ إله إبراهيم وذكر حديث النسور والصَّرح. قال: وقال زيد بن أسلم: بعث الله إلى نمرود ملكاً فقال له: آمنْ بي وأترك عليك ملكك، فقال: وهل ربٌّ غيري؟ فأتاه ثانياً وثالثاً، ففتح عليه باباً من البعوض فأكلَت لحوم قومه وشربت دماءهم، وبعث الله بعوضة فدخلت في دماغه فمكث أربع مئة عام يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، فعذّب

(١) «عرائس المجالس» ص ٩٨-٩٩.
(٢) «عرائس المجالس» ص ٩٩.
(٣) «الصحاح»: (صرح).

بذلك إلى أن مات، هذا صورة ما حكى جدي رحمه الله[١].

وذكر وهب بن منبِّه القصَّة وقال: قال نمرود للملَك: ألربِّكَ جنود؟ قال: ولم؟ قال: ليقاتلني، فإني ملك الملوك، وإنَّ الملوك يقاتل بعضهم بعضاً، فقال: اجمع جنودك إلى ثلاثة أيَّام، فجمع وحشد، وأمر الله خَزَنَةَ البعوض أن يفتحوا منها باباً، ففتحوا، فلمَّا كان في صبيحة اليوم الثالث نظر نمرود إلى الشمس وقال: ما لها لا تطلع؟ ظنّاً منه أنَّها أبطأت، فقال الملك: حالت دونها جنود ربي. فأحاطت بهم البعوض فأكلت اللحوم وشربت الدماء، فلم يبق من الناس والدواب إلا العظام، ونمرود بحاله لم يصبه شيء فقال له الملك: أتؤمن؟ قال: لا، فأمر الله بعوضةً فقرضت شفته العليا أو السُّفلى فحكّها فشريت وعظمت، ثم دخلت منخريه ووصلت إلى دماغه فأكلت منه حتى صارت كالفأرة فأقام أربعين سنة يُضرب رأسُه بالمطارق.

وقال مقاتل: أربعين يوماً، وقيل: ست مئة سنة، قال السُّدي: والأصحُّ أربعين سنة، حتى هلك[٢].

وقال السُّدي: نمرود أوّل ملوك بابل، وهم النبط الذين شقُّوا الأنهار، وأن الفرس الأول إنما انتقل الملك إليهم منهم، كما أخذت الروم الملك من اليونان. وقال ابن الكلبي: من زعم أن نمرود كان عاملاً للضحَّاك فقد وهم، لأنَّ نمرود أوَّل ملوك النبط، والضحَّاك ينسب إلى الفرس، والله أعلم[٣].



(١) «التبصرة» ١/ ١١٠_١١١.

(٢) عرائس المجالس ٩٩.

(٣) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٩٠_٢٩٢، والمنتظم ١/ ٢٨٢.

فصلٌ

في ذِكْر إسماعيل عليه السَّلام[(١)]

إسماعيل عليه السلام اسم أعجمي، وفيه لغتان: إسماعيل باللام، وإسماعين بالنون.

وحكى ابن سعد عن هشام والواقدي: أن اسمه كان اشمويل فأعرب[(٢)].

وقد أثنى الله سبحانه على إسماعيل فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤] قال ابن عباس: كان إذا وعد أنجز وعده، وعد رجلاً أن يلتقيه بمكان فأقام سنة ينتظره ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥] وفي مصحف ابن مسعود: وكان يأمر قومه[(٣)].

ونبَّأه الله في حياة أبيه وكان بكر إبراهيم، ولد ولإبراهيم تسعون سنة في قول السُّدي، وولد إسحاق بعده بثلاثين سنة، وحمله إبراهيم على البُراق مع أمِّه وله سنتان، حكاه ابن سعد عن الواقدي[(٤)].

وقال وهب: لما توفي إبراهيم قام إسماعيل مقامه، وبعث إلى العماليق وجرهم وقبائل اليمن، وكانوا يعبدون الأوثان، فآمن بعضهم.

وقال ابن سعد: حدَّثنا الواقديّ عن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما بلغ إسماعيل عشرين سنة توفيت هاجر بمكة وهي بنت تسعين سنة فدفنها في الحِجر[(٥)].

وشكا إلى الله حرَّ مكة فأوحى الله إليه إني أفتح لك باباً في الحِجر تجري عليك منه الروح إلى يوم القيامة فيقال: إنه قريب من هاجر.

وقال عبد الملك ابن هشام في «السيرة»: العرب تقول: هاجر وآجر، فيبدلون

---

(١) انظر قصته في المعارف ٣٤، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٦٠، و«عرائس المجالس» ص ١٠٣، و«المنتظم» ١/ ٣٠٤، و«البداية والنهاية» ١/ ٤٤٢.

(٢) «الطبقات الكبرى» ١/ ٤٩.

(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٦/ ١٩٩.

(٤) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥٠.

(٥) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥٢.

الألف من الهاء، كما قالوا: أهْرَاق الماء وأراق الماء[١].

وحكى ابن سعد عن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام: أوَّل من تكلَّم بالعربية إسماعيل، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، قيل له: فما كان كلام الناس يومئذ؟ قال: العبراني، وكذا الكلام الذي أنزله الله على أنبيائه إبراهيم وغيره[٢]. وكان كلام الناس السُّرياني والعبراني.

وقال السدي: إنما نطق بلغة جرهم. وقال مقاتل: لما نزلت جرهم تكلَّم كما يتكلَّمون به، واختتن وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وختن معه جماعة من أولاد العرب. ووهب له مُضاض بن عمرو الجرهمي سبعة أعنز.

وذكر محمد بن عبدوس الجَهْشَياري في «كتاب الوزراء» عن كعب أنه قال: أوَّل من وضع الكتاب العربي والسُّرياني آدم قبل موته بثلاث مئة سنة، كتبها في الطين. فلما انقضى الطوفان أصاب كلٌّ قوم كتابهم، فكان الذي وجد كتاب العربية إسماعيل. قال: وقال ابن عباس: أوَّل من وضع العربية إسماعيل، ثم تكلَّم بها الناس[٣].

ذكر أولاده

ذكر جَدي رحمه الله في «التبصرة» وقال: وولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً، ولم يسمِّ منهم أحداً[٤]. وذكر الواقدي فقال: منهم نبت وقيل: نابت وقيذار، وقيل: إن نبت ابن قيذار، وهو أبو العرب كلهم.

وكان لإسماعيل أذبل وأميم وتيم ومسمع ودوما ودوام ومنشا وجداد وقيم ونطور ونافس وميسم، وكل هؤلاء لهم نسل[٥].

وذكر عبد الملك بن هشام في «السيرة» أولاد إسماعيل فقال: نبت أو نابت وقيذر[٦]

---

(١) «السيرة» ١/ ٦.

(٢) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥٠.

(٣) انظر القصد والأمم ١٩، والوزراء والكتاب ص١.

(٤) «التبصرة» ١/ ١٢٥.

(٥) انظر طبقات ابن سعد ١/ ٣٤ (الخانجي)، وتاريخ الطبري ١/ ٣١٤.

(٦) في (ب) و(ل): وفضل؟! والمثبت من السيرة.

وماشي وكدما[١] وأذر وطيما[٢] وقنطور[٣] ونبش وقيذما، وأمهم بنت مُضاض بن عمرو الجُرهمي. وفي مضاض لغتان: كسر الميم وضمها، قال: وجرهم من قحطان، وقحطان أبو اليمن كلهم، وإليه تنتهي أنسابها[٤].

وذكر ابن سعد عن هشام بن محمد الكلبي قال: ولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً وهم نياوذ وهو نبت وهو نابت وهو أكبر ولده، وقيذر، وأذبل، ومنشى، ومسمع، وهو مشماعة، ودما ـ وهو دوما ـ وبه سميت دومة الجندل، وماشي، وأذر ـ وهو أذور ـ وطيما، ويطور، ونبش، وقيذما، وأمهم في رواية محمد بن إسحاق رعلة بنت مُضاض ابن عمرو الجُرهمي، وفي رواية الكلبي: رعلة بنت يشجب بن يعرب. قال: وقال الكلبي: وكانت لإسماعيل امرأة من العماليق ابنة صدى[٥] قبل الجرهميَّة، وهي التي جاء إبراهيم لزيارة ابنه فجَفَتْه في القول، وأمره إبراهيم بفراقها ففارقها ولم تلد له شيئاً.

وقال ابن سعد بإسناده عن بكر بن سويد عن علي بن رباح اللخمي قال قال رسول الله ﷺ: «كلُّ العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام»[٦].

فصل في وفاة إسماعيل عليه السلام

قال هشام بن محمد: لما احتضر أوصى إلى أخيه إسحاق، وزوَّج ابنته من العيص ابن إسحاق.

وقال جدي: عاش إسماعيل مئة وسبعاً وثلاثين سنة، ودفن في الحِجر عند أمِّه، فقبره ما بين الميزاب إلى الحِجر[٧].

وقال خالد المخزومي: ولما حفر ابن الزبير أساس الكعبة وجد سفطاً من مرمر

(١) في «السيرة»: «دمًا».
(٢) في (ل) و(ب): «طينا»، والمثبت من «السيرة»
(٣) في «السيرة»: «يطور»
(٤) «السيرة» ١/ ٤ـ٥، وزاد فيها: «أذبل، ومبشا، ومسمعا».
(٥) في «الطبقات الكبرى» ١/ ٥١ـ٥٢: صبدى.
(٦) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥١.
(٧) «المنتظم» ١/ ٣٠٥، وانظر «أعمار الأعيان» ص ٩٩، والتبصرة ١/ ١٢٥، والطبري ١/ ٣١٤.

أخضر، فسأل العلماء بالأخبار فقالوا: هذا قبر إسماعيل وأمّه، قالوا: والمحدودب مما يلي الركن الشامي فيه قبور العذارى من بنات إسماعيل وكلّما سوّي مع أرض المسجد عاد محدودباً كما كان[١].

وذكر محمد بن سعد في «الطبقات» عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة قال: ما يعلم موضع قبر نبي من الأنبياء إلا ثلاثة: قبر إسماعيل فإنه تحت ميزاب الكعبة بين الركن والمقام، وقبر هود فإنه في حقف من الرمل تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة خضراء تندَى دائماً، وموضعه أشدّ الأرض حرّاً، وقد ذكرناه، وقبر رسول الله ﷺ[٢].

قلت: كذا ذكر ابن سعد ولم يذكر الخليل وهو ثابت أيضاً بالتواتر أكثر من قبر إسماعيل وهود.

فصل في قيذار ونبت، وجرهم وأمر الكعبة

واختلفوا فيهما على قولين: أحدهما: أنَّ نَبْت بن إسماعيل وقيذار أخوه. والثاني: أن قيذار بن إسماعيل ونبت بن قيذار.

ولما ماتا غلبت جُرهم على البيت، وكانت أم نبت جُرهميَّة، وأبوها مُضاض بن عمرو الجرهميّ، وولده الحارث بن مُضاض، تولى البيت والحارث أوَّل مَن وليه من جرهم، وقيل مُضاض، وكان ينزل بقُعَيقعان، وكل من دخل مكة يعشِّره. وملَّكتِ العماليق السَّمَيْدَعَ بن هوبر فنزل أجياد أسفل مكة، فكان كل من خرج منها يعشِّره، وجرت بينهم حروب كثيرة. وإنما سمي قُعَيقِعان لأنه لما خرج الحارث بن مُضاض لحرب العمالقة تقعقعت هناك الدَّرَق والسيوف والرِّماح، وخرج السَّمَيْدَع ملِك العمالقة فنزل بالجياد من الخيل هناك فقيل أجياد، وإلى هلمَّ جرّاً، ثم بعد ذلك اصطلحوا ونحروا الجزر هناك فسمي ذلك الموضع طابخ[٣].

وكانت ولاية جرهم البيت ثلاث مئة سنة وآخر ملوكهم الحارث بن مُضاض الأصغر

---

(١) المنتظم ١/ ٣٠٥.

(٢) «الطبقات الكبرى» ١/ ٥٢، والمنتظم ١/ ٣٠٦.

(٣) في (ب): «كانح».

وهو الحارث بن عمرو بن عوف بن الحارث بن مُضاض الأكبر، وزاد في البيت ورفعه، ثم طغت جرهم وبغت حتى فسق رجلٌ منهم في الكعبة بامرأة، وقد ذكرهما الجوهري فقال: وإساف ونائلة صنمان كانا لقريش وضعهما عمرو بن لُحَيٍّ على الصفا والمروة، فكان يذبح عليهما تُجاه الكعبة، قال الجوهري: وزعم بعضهم أنهما من جرهم، إساف ابن عمرو ونائلة بنت سهل، ففجرا في الكعبة فمسخا حجرين فعبدتهما قريش(١).

وقال ابن الكلبي(٢): لما طال العهد عليهما عُبِدا، قال: وسلَّط الله على جرهم الرعاف فهلكوا، وبقيت منهم بقيَّة.

وقال ابن إسحاق: ثم غلب بنو إسماعيل ـ لما كثروا وصاروا ذوي قوّة ومنعة ـ على أخوالهم جرهم فأخرجوهم من الحرم، فلحقوا ببلاد جهينة فأتاهم سيلٌ في الليل فاجتاحهم بمكان يُدعَى بإضم وفيهم يقول القائل: [من الطويل]

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصَّفا   أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر

من أبيات، قلت: وقد اختلفوا في قائل هذه الأبيات، فقال قوم: هي لمضاض الأكبر، وقال عبد الملك بن هشام: هي لعمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر وليست لمضاض الأكبر، وذكرها، وقال بعد البيت الذي قاله(٣):

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا

ولم يتربع واسطاً فجنوبه   إلى المنحنى من ذي الأراكة حاضرُ
بلى نحن كنَّا أهلها فأبادنا   صُروف الليالي والجدود العواثرُ
وكنا لإسماعيل صهراً وجيرة   ولما تَدُرْ فيها علينا الدّوائرُ
وكنا ولاةَ البيت من بعد نابت   نطوفُ ببيت الله والأمرُ ظاهرُ
ملكنا فعزَّزنا فأعظم بمُلكِنا   فليس لحيٍّ غيرنا ثَمَّ فاخرُ
ألم تنكحوا من خير شخص علمتم   فأبناؤه منا ونحن الأصاهرُ

(١) «الصحاح»: (أسف).
(٢) في (ب): «الكعبي».
(٣) الأبيات في «السيرة» ١/ ١١٥. أما البيت الثاني: ولم يتربع واسطاً، فليس في «السيرة»، وإنما هو في «الأغاني» ١٥/ ١٨، والبيت الرابع لم نقف عليه لا في «السيرة» ولا في غيرها.

فإن تَنثنِ الدنيا علينا بحالها | فإن لها حالاً وفيها التَّشاجُرُ
فأخرَجَنا منها المليكُ بقدرة | كذلك بالأحوال تجري المقادرُ
أقول إذا نام الخليُّ ولم أنم | أذا العرشِ لا يبعدْ سهيلٌ وعامرُ
وبُدِّلت منها أوجهاً لا أحبها | قبائل منها حميرٌ ويَحابرُ[(١)]
وصرنا أحاديثاً وكنَّا بغبطة | إلى أن أذلَّتنا السنونَ الغوابرُ
فسحّت دموعُ العين تبكي لبلدةٍ | بها حرمٌ أَمْنٌ وفيها المشاعرُ

قلت: وقول ابن هشام إنّها ليست لمضاض الأكبر فصحيح، لأنّ الملك الأول يقال له: الحارث بن مُضاض الأكبر في قول ابن إسحاق، والبلاذُري يقول: مضاض، لما نذكر. وهذه الأبيات لآخر ولده هو عمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر، وفي أيَّامه زال ملك جرهم فرثاهم بها.

وحكى ابن هشام في «السيرة» أيضاً قال: وجدت مكتوبة باليمن في حجر ولا يعرف قائلها، وهي أوّل شعر قيل في العرب.

وقال البلاذُري: نزلت جرهم بمكة وما والاها، وسمَّوها صلاح مثل قطام، ثم إنهم استخفُّوا بحرمة الحرم وأضاعوا حقَّ الكعبة فوقع فيهم طاعون يعرف بداء العدسة، وقويت عليهم خزاعة فأخرجوهم من الحرم، فنزلوا بين مكة والمدينة فهلكوا بذلك الداء[(٢)].

وقال البلاذري[(٣)]: وكان أوَّل ملوك جرهم مِضاض - بكسر الميم - بن عمرو بن سعد بن الرفيت بن هي[(٤)] بن نبت بن جرهم بن قحطان، ملك مئة سنة، ثم ملك بعده ولده عمرو بن مضاض مئة وعشرين سنة، ثم ملك بعده الحارث بن عمرو مئتي سنة، ثم ملك مضاض بن عمرو الأصغر أربعين سنة. وانقضت العرب العاربة من عاد وعبيل وطَسْم وجَدِيس وثمود والعماليق، وانمحت آثارهم وانقطعت أنسابهم، ولم يبق إلا من كان من عدنان وقحطان. ثم صارت ولاية البيت في ولد نزار، وكانت بينهم وبين مضر حروب وبين إياد، فكانت لمضر على إياد فأجلوهم إلى العراق، لما نذكر.

---

(١) في (ب) و(ل): ويخامر، والمثبت من «السيرة» ١/ ١١٥.
(٢) أنساب الأشراف ١/ ٩-١٠.
(٣) القول للمسعودي في مروج الذهب ٣/ ١٠٣.
(٤) في مروج الذهب: بن الرقيب بن هيني.

فصلٌ في ذكر إسحَاق عليه السَّلام(١)

قال الجوهري: إسحاق اسم رجل(٢).

وقال ابن الجواليقي: إسحاق اسم أعجمي(٣).

وذكر في «التوراة» أن إسحاق تزوج رفقا بنت ناحور بن تارَح، وهي ابنة عمه فولدت له عيصو ويعقوب توأمين في بطن واحد، خرج عيصو أوَّلاً ويعقوب بعده ويده عالقة بعقبه فسمِّي يعقوب. وكان لإسحاق عند مولدهما سبعون سنة(٤).

وقال السُّدي: أراد يعقوب أن يخرج قبل عيصو، فقال له عيصو: والله إن خرجت قبلي لأعترضنَّ في جوف أمي فأقتلها، فسمِّي عيصو لأنه عصى أخاه.

قلت: والعجب من ولدين يقتتلان في ظلمة الأحشاء. وإنما عيصو ويعقوب اسمان أعجميان.

وتزوَّج عيصو ابنة عمه إسماعيل بن إبراهيم فولدت له الروم بن عيصو، فكان أصفر في بياض، فهو أبو الروم كلِّهم، فكل مَا كان مِن بني الأصفر فهو من ولده. وكثُر أولاده حتى غلبوا الكنعانيين بالشام على وادي كنعان، وسكنوا على الساحل على جانب البحر الرومي إلى الإسكندرية، وصار المُلك(٥) في ولده وهم اليونان.

وقال وهب: ذهب بصر إسحاق قبل موته، فدعا ليعقوب بالرياسة على إخوته والنبوة، ودعا لعيصو بالملك.

وكان إسحاق يميل إلى العيص ويحبه، فقال إسحاق للعيص: أطعمني لحم صيدٍ حتى أدعو لك، فسمعه يعقوب فجاءه بصيد، فقال: اقترب مني حتى أدعو لك بدعاء دعا لي به أبي، وكان عيصو أحمر أشعر الجلد ويعقوب أجرد، فقالت أمُّ يعقوب: اذبح

---

(١) انظر قصته في: «تاريخ اليعقوبي» ١/ ٢٨، و«تاريخ الطبري» ١/ ٣١٦، و«عرائس المجالس» ص ١٠٣، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٦٣، والمنتظم ١/ ٣٠٧، و«الكامل» ١/ ١٢٦، و«البداية والنهاية» ١/ ٣٧١و٤٤٧.

(٢) «الصحاح»: (سحق).

(٣) «المعرب» ص ٦٢.

(٤) سفر التكوين الإصحاح ٢٥/ ٢٠ـ٢٦، وانظر «المعارف» ص ٣٨.

(٥) في (ل): «الملوك».

شاةً والبس جلدها، وتقدَّم إلى أبيك وقل: أنا عيصو، ففعل، فمسَّه إسحاق وقال: المسُّ مس عيصو والريح ريح يعقوب، فأكل ثم دعا له أن يجعل في ذريته الأنبياءَ والملوكَ. وذهب يعقوب وجاء عيصو بالصَّيد فقدَّمه وقال: هذا الذي طلبت فقال إسحاق: يا بنيَّ، قد بقيتْ لك دعوة، فدعا له أن يجعل الله ذريته عدد التراب وأن لا يملكهم أحد غيرهم. فقالت أم يعقوب ليعقوب: الْحق بخالك لايان[1]، فكان يكمن نهاراً ويَسري ليلاً مخافةً من عيصو، فسمي إسرائيل لأنه كان يَسري ليلاً، وهذا أحد الأقوال، لما نذكر.

ذِكر وفاة إسحاق عليه السَّلام

قال محمد بن إسحاق: وكانت وفاة إسحاق بفلسطين، ودفن بحِبْرى عند أبيه بالمغارة.

واختلفوا في سنِّه على قولين: أحدهما: أنه عاش خمساً وثمانين سنة، قاله وَهْب ابن منبه. والثاني: مئة وستين سنة ذكره جدي في «أعمار الأعيان»[2]. وقيل: مئة وثمانين سنة.

وقال ابن الكلبي: عاش عيصو مئة وسبعاً وعشرين سنة، ودفن في المغارة عند أبيه وجده. ويقال: إن الأسبان من ولد عيصو.



(١) بعدها عند الطبري ١/ ٣٢٠، فكن عنده خشية أن يقتلك عيص، فانطلق إلى خاله، فكان. . .
(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٠٢.

فصلٌ في ذِكْر يَعقوب عليه السَّلام[١]

يعقوب: اسم أعجمي. وفي «التوراة» إسرائيل رجل رزين، ويعقوب أبو الأسباط كلِّهم.

واختلفوا في تسميته إسرائيل على أقوال:

أحدها: أنه «إسرا» بمعنى عبد و«إيل» هو الله، مثل جبريل وميكائيل، قاله ابن عباس[٢].

والثاني: أنَّ معناه صفوة الله، قاله مجاهد.

والثالث: أنه كان يخدم بيت المقدس ويوقد قناديله فيظهر جنيٌّ فيطفئها، وكان اسم الجني إيل، فكمن له يعقوب ليلة فأسره وشدَّه بسلسلة، وأصبح الناس يقولون يعقوب أسر إيل، ثم قالوا: إسرائيل.

وفيه لغات تكلَّمت بها العرب ذكرها في «المعرَّب» فقال: إسرائيل وإسرال وإسرائين بالنون، كما قالوا: جبرين وإسماعين[٣].

وقال الجوهري: إسرائيل اسم، يقال: هو مضاف إلى إيل[٤].

واتفقوا على أن يعقوب ولد في زمان الخليل عليه السلام، وأنه أرسله إلى الشام، وكان إسحاق قد أوصاه أن لا يتزوَّج امرأة من الكنعانيين، وأمره أن يتزوَّج إلى خاله لابان بن ناهر بن آزر، وكان يسكن الفَدَّان من أرض حرَّان.

وقد ذكرنا أنَّ يعقوب هرب من عيصو إلى حرَّان، فبينا هو في بعض المنازل نائم على حَجَر رأى سلماً منصوباً من السماء إلى الأرض، والملائكة تنزل منه وتعرُج فيه، وقال له الله تعالى: يا يعقوب، قد أورثتك الأرض المقدَّسة وذريَّتك من بعدك،

---

(١) انظر قصته في: «تاريخ اليعقوبي» ١/ ٢٩، والمعارف ٣٩، و«تاريخ الطبري» ١/ ٣١٧، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٦٥، وعرائس المجالس ١٠٣، و«المنتظم» ١/ ٣٠٩، و«الكامل» ١/ ١٢٧، والبداية والنهاية ١/ ٤٤٨.

(٢) انظر تفسير الطبري (٧٩٨)، والدر المنثور ١/ ٦٣.

(٣) «المعرب» ص ٦٢.

(٤) «الصحاح»: (سرا).

وباركتُ فيك وفيهم، وجعلت فيكم الكتاب والحُكمَ والنبوَّة، ثم أنا معك حتى أردَّك إلى ذلك المكان، فانتبه وكان قد قرب من خاله، فلما جاء إليه زوّجه ابنتيه راحيل وليا، وكانت ليا هي الكبرى وراحيل هي الصغرى، وكانوا يجمعون بين الأختين إلى أن بعث موسى ونزلت التوراة بتحريم ذلك.

ويقال: إنه لم يكن له مال، فزوَّجه ليا على خدمة سبع سنين، فرعى له الغنم ثم زوَّجه راحيل بعد ذلك، وكانت أحسن من ليا ـ وقيل: لايا ـ فلمَّا رآها لم تعجبه وقال: زوِّجني راحيل الحسناء فزوَّجه إيَّاها.

وقال السُّدي: لما قال له: زوِّجني إحدى ابنتيك على رَعْيِ سَبْع سنين قال: قد زوَّجتك، فلمَّا دخل بها لم تعجبه لأنها كانت دميمةً، فقال: وأين الحسناء؟ يعني راحيل فقال له: هل رأيت أحداً يزوِّج ابنته الصغرى قبل الكبرى؟ فاستخدمه سبع سنين، ثم دفع إليه راحيل.

وقال السُّدي: كانت راحيل غنية جميلة، ولايا ـ وقيل: رامين ـ فقيرة قبيحة، فاختار رامين لفقرها، فجمع الله له بين الأختين، ثم حُرِّم ذلك على لسان موسى، وقيل على لسان نبينا ﷺ.

ذكر أولاد يعقوب عليه السلام

قال وهب: ولَدت راحيل من يعقوب يوسف وبنيامين، ومعناه: ابن الوجعة، لأنها ماتت في نفاسها. وقال ابن جرير الطبري: معناه بالعربية شدَّاد[1]، والأول أصح.

وولد من لايا أو من رامين ليعقوب أربعة من الأسباط: روبيل ويهوذا وشمعون ولاوي. قال وهب: ولد ليعقوب من غير هاتين ستة أولاد منهم زبالون ويسجر. وقيل: إن زبالون ويسجر من لايا. وقيل: لايان، وأن لايا وهبت ليعقوب أمَتين إحداهما يقال لها: زلفى، والثانية: بلهة، فولدتا ستة من الأسباط كل واحدة ثلاثة، فأولاد يعقوب الذكور اثنا عشر ولداً. وكانت له ابنة يقال لها: رحمة، وقيل: دينا، وهي زوجة أيوب عليه السلام.

(١) «تاريخ الطبري» ١/ ٣١٧.

وقال علماء السير وابن عباس: وهؤلاء الأسباط في بني يعقوب كالقبائل في بني إسماعيل.

وقال السُّدي: أهل الكتاب يذكرون أن أولاد يعقوب كانوا أنبياء، وأن روبيل أكبرهم ثم شمعون ثم يهوذا، وكان رئيسهم لاوي. وأن داود وعيسى من ولد يهوذا، وأن موسى وهارون من ولد لاوي بن يعقوب.

وقال السُّدي: ولما عاد يعقوب من عند خاله لابان خاف من أخيه عيصو فأعطاه من غنمه خمس مئة وخمسين، قاسمه ماله دفعاً لشره. وكان الله تعالى قد أوحى إلى يعقوب: لا تخف من عيصو فإني أحفظك منه كما حفظت أباك، فلما صانعه أوحى الله إليه: صانعت بالغنم ولم تطمئنَّ إلى قولي، وعزَّتي لأملِّكن ولد العيص ولدَكَ عدد ما صانعت، فملكت الروم ـ وهم من ولد عيصو ـ هذا المقدار، فأوَّل مُلْكهم إياهم خراب القدس، أخربوه واستعبدوا بني إسرائيل إلى زمان عمر بن الخطاب فكان خمس مئة وخمسين سنة[1]، وسنذكر وفاة يعقوب في أيَّام يوسف عليهما السَّلام.



(١) انظر مروج الذهب ١/ ٨٩.

فصلٌ
في ذِكر لُوط عليه السَّلام(١)

قال مقاتل: ذُكِر لُوط في سبعة عشر موضعاً من القرآن العزيز.

ولوط اسم أعجمي وكذلك نوح، وقد ذكرناه.

ولوط هو ابن هاران بن آزر، وقد ذكرنا أنه ابن أخي إبراهيم، وكانت الروم قد أسرت لوطاً فغزاهم إبراهيم حتى استنقذه منهم.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾[هود: ٦٩] وكان هلاك قومه في أيام الخليل عليه السلام، وكان ينبغي أن يذكر في سيرة إبراهيم، وإنما جعلنا له باباً مفرداً.

قال علماء التأويل: «البشرى»: هي البشارة، وكانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا تسعة مع هؤلاء المذكورين، وكانت البشارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وبإهلاك قوم لوط لما نذكر.

وذكر ابن إسحاق القصة فقال: كان لوط قد هاجر مع الخليل إلى الشام، واختتن لوط مع إبراهيم وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فنزل إبراهيم فلسطين، ونزل لوط الأُردُنَّ. فأرسل الله لوطاً إلى أهل سَدُوم، وكانت عدة قرى: سَدُوم، وعَامُورا، وصبرانة، وصَفراء، ودوما، وصابورا، وداذُوما وصبواس(٢) وصبعة وصعرة(٣).

وقال مقاتل: وبلادهم ما بين الشام والحجاز بناحية زُغَر(٤). قال: وكانت اثنتي عشرة قرية، وتسمَّى المُؤْتَفِكات، من الإفْك، وكان في كلِّ قرية مئة ألف، وكانوا

---

(١) انظر قصته في: «تاريخ الطبري» ١/ ٢٩٢، وتفسيره ١٢/ ٥٤٧، و«البدء والتاريخ» ٣/ ٥٦، و«عرائس المجالس» ص ١٠٥، وتاريخ دمشق ٦٠/ ٢٦، و«المنتظم» ١/ ٢٨٢، وزاد المسير ٣/ ٢٢٧ و٤/ ١٣٥، والتبصرة ١/ ١٥٠، و«الكامل» ١/ ١١٨، و«البداية والنهاية» ١/ ٤٠٨.

(٢) كذا هي في النسخ الخطية، وجاء في «معجم البلدان» ٣/ ٣٩٢: «صبوائيم» وهي إحدى قرى قوم لوط.

(٣) جاء في النسخ الخطية: «ضبعة وضعوة»، وما أثبتناه من «الروض المعطار» ص ٣٠٨، وانظر تاريخ الطبري ١/ ٣٠٧، وتاريخ دمشق ٦٠/ ٢٩.

(٤) انظر تفسير البغوي ٣/ ٧٠ (بهامش الخازن).

يعبدون الأوثان، ويأتون الفواحش، ويسافد بعضهم بعضاً على الطرق والمجامع، وكانوا أهل كروم وبساتين، قال: وسبب إتيانهم الفاحشة أن إبليس تصوَّر لهم في صورة غلامٍ أمرد من أحسن الغلمان، فجاء إليهم وكانت بلادهم أخصبَ البلاد، وكان الأُردُنُّ ـ وهو النهر الخارج من بحيرة طبرية ـ يقطع الغَوْر ويصل إليهم، وكانت منازلهم زُغَر قبل أن تكون البحيرة المنتنة، وكانت الكروم موضع البحيرة، والنخل محدقٌ بها، ولم يكن لهم حيطان وكان بعضهم يأكل فاكهة بعض، فزجر بعضهم بعضاً فما انزجروا، فقال لهم إبليس: ألا تمنعون كرومَكم من السُّراق؟ قالوا: قد اجتهدنا فلم نقدرْ على ذلك، فقال: أنا أعرِّفكم طريقاً ينزجرون بها، ثم أمْكَنهم من نفسه وقال: كل من أكل من كرومِكُم فاصنعوا به كذا. وإبليس أوَّل من فُعِل به هذا الفعل في الدنيا(١).

وقال ابن عباس: وكان الله تعالى قد أمر الملائكة الذين أرسلهم لعذاب قوم لوط أن يجعلوا طريقهم على إبراهيم عليه السلام، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ فلما دخلوا عليه ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ﴾ أي: سلموا عليه سلاماً ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[هود: ٦٩] وهو المشوي بالحجارة المحماة ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ أي: أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ﴾ أي: أضمر وظنهم لصوصاً، لأنه كان إذا نزل به ضيف ولم يأكل من طعامه ظن أنه قد جاء بشرّ فلهذا قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ فنحن ملائكة ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود: ٧٠] بالعذاب ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾[هود: ٧١] قال قتادة: كانت واقفةً من وراء الستر تخدم الأضياف وتسمع ما يجري بينهم وبين إبراهيم.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قال مجاهد: إنما ضحكت تعجباً من الملائكة، قالت: ما رأيت مثل هؤلاء نخدمهم بنفوسنا ولا يأكلون طعامنا.

وقال ابن عباس: معناه حاضت، وفي الآية تقديم وتأخير، ومعناه: وامرأته قائمة فبشَّرناها بإسحاق فحاضت، والعرب تقول: ضحكت الأرنب إذا حاضت، قال الشاعر: [من المتقارب]

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥.

وضِحْكُ الأرانبِ فوقَ الصَّفا كمثلِ دم الجوفِ يومَ اللِّقا

وهذا أصحُّ، لأنه أمارة على وجود الولد، والذي بشَّرها جبريل، قال: أيتها الضاحكة أبشري.

وقال الحسن: لما قدَّم إليهم الطعام امتنعوا فقال: ألا تأكلون قالوا: لا نأكل طعاماً إلا بثمنه قال: إنَّ له ثمناً، قالوا: وما هو؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره. فنظر جبريل إلى من معه وقال: حُق لهذا أن يتخذه الله خليلاً.

فلمَّا بشَّروها: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ قال ابن إسحاق: كانت بنت تسعين سنة، وقال مجاهد: بنت تسع وتسعين ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾[هود: ٧٢] لأنه كان ابن عشرين ومائة سنة، فقالت لها الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من صنعه ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[هود: ٧٣] ويدخل في هذا رسول الله ﷺ وأهل بيته. ثمَّ قالت سارَة: وما آية ذلك؟ فأخذ جبريل بيده عوداً يابساً فاهتزَّ في الحال أخضر.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي: الخوف ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بإسحاق ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود: ٧٤] أي: يجادل رسلنا، قال ابن عباس: قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] فقال لهم إبراهيم: أرأيتم إن كان فيها أربع مئة من المسلمين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فمئتان، قالوا: لا، قال: وإن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: إنَّ فيها لوطاً، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[العنكبوت: ٣٢] أي: الهالكين، فسكن واطمأنت نفسه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ أي: حزن لمجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ هذا مثل لمن لم يجد من المكروه مخلصاً ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[هود: ٧٧] أي: شديد، ومنه عصابة الرَّأس، وإنما حزن لوط لأنه لم يعلم أنهم رسل الله، وخاف عليهم من قومه إتيان الفاحشة، ولم يخف على قومه لأنه كان قد سأل الله هلاكهم.

وقال السُّدي: خرجت الملائكة فأتوا لوطاً وقت القائلة وهو في أرض له يعمل، وقد أمرهم الله أن لا يهلكوا قومه حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فاستضافوه فانطلق معهم يمشي إلى بيته.

واختلفوا في قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود:٧٨] والظاهر أنها الفاحشة المشهورة. الثاني: أنه الرمي بالبندق. والثالث: مضغ العلك.

وقال ابن عباس: الفواحش التي كانوا يعملونها: اللواط، والوشم، والرمي بالبندق، ومضغ العلك، والبصاق في الماء، وفي وجوه بعضهم لبعض، والضُّراط بالفم، واللعب بالحمام، والنرد، والشطرنج، والتنابز بالألقاب، واستغناء النساء بالنساء.

وقال السُّدي: فقال لوط للأضياف وهو يمشي معهم إلى بيته: أما بلغكم أمر أهل هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرُّ قريةٍ في الأرض عملاً، قال ذلك أربع مرَّات، فدخلوا معه منزله، ولم يعلم بهم إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته ـ واسمها واغلة ـ فأخبرت قومها وقالت: إن عند لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط، وقيل: إنها كانت تدخِّن، وهي العلامة بينها وبينهم ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويهرولون ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود:٧٨] أي: من قبل مجيء الرسل إلى لوط.

وقال الربيع: أوَّل من رأى الملائكة ابنتا لوط، واسم الكبرى ريثا وقيل: رية، واسم الصغرى: زعورا، وقيل: عروبة. فقال جبريل للكبرى: يا جارية هل من منزل؟ قالت: نعم مكانكُم حتى آتيكم، لا تدخلوا القرية فإني أخاف عليكم أهلها. ثم جاءت أباها فقالت: أَدْرِكْ فتياناً على باب القرية ما رأيت أحسن وجوهاً منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحونهم. فخرج إليهم فأتى بهم منزله، وعلم قومه فجاؤوا مسرعين، فأخذ يتلطفهم ويقول: اتقوا الله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[هود:٧٨] يعني بالنكاح، وهنَّ محل الحرث لا الفرث.

واختلفوا في بناته على قولين: أحدهما: أنه أراد بنات نفسه. والثاني: بنات القبيلة.

فإن قيل: فكيف قال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ وكن كفاراً؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه أراد بنات صلبه، فيسقط السؤال. والثاني: بناتي على شرط الإسلام. والثالث: أنه كان فيهم سيّدان معظَّمان، فأراد أن يزوِّجهما ابنتيه ويجوز تزويجه بنات الأنبياء من الكفار، فقد زوَّج النبيُّ ﷺ ابنتيه: زينب من أبي العاص ابن الربيع، ورقيَّة من عتبة بن أبي لهب، وكانا كافرين.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ أي: تهينوني وتذلُّوني ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾[هود: ٧٨] أي: صالح سديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ أي: منعة وعشيرة يمنعوني ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾[هود: ٨٠] أي: وثيق. وقد ذكرنا أنَّ النبي ﷺ قال: يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، أي: الله تعالى. ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ أي: رغبة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[هود: ٧٩] من إتيان الرجال. وأخذوا يعالجون الباب ليكسروه، ولوط يناشدهم الله تعالى. فقالت الملائكة حينئذٍ: يا لوط، إنَّ ركنك لشديد ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾[هود: ٧٦] و﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾[هود: ٨١] فافتح الباب ودعنا وإيَّاهم، ففتح ودخلوا. ثم استأذن جبريل ربَّه في عقوبتهم فأذن له الله فقام في صورته التي خلقه الله عز وجل عليها، ونشر جناحه، وعليه وشاح من درٍّ منظوم، وهو برَّاق الثنايا مشرق الجبين، [ورأسه] حُبك حُبك ـ الحبك: الطرائق ـ [مثل] المرجان كأنَّه الثلج وقدماه إلى الخضرة، فضرب بجناحيه وجوههم فطمسها وأعمى عيونهم فصاروا لا يهتدون إلى بيوتهم، فهربوا وهم يقولون: النجاءَ النجاءَ، فإنَّ في بيت لوط أسحر قوم في الأرض، وجعلوا يتواعدونه ويقولون: كما أنت يا لوط حتى نصبح.

ثم قال لوط للملائكة: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبحُ، قال: أريد أسرع من ذلك لو أهلكتموهم الآن، قالوا: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾[هود: ٨١] ثم قالت الملائكة: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: بطائفة منه ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ فإنها تلتفت فتهلك. فخرج لوط ومعه أهله وامرأته ونهاهم أن يلتفتوا، إلَّا امرأته فإنه ما نهاها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾[هود: ٨٢]، قال ابن عباس: أدخل جبريل جناحه تحت قراهم ورفعها حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قلبها، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾[النجم: ٥].

وقال جدي في «التبصرة»: كانت خمس قرى، أعظمها سَدُوم، في كل قرية مئة ألف، وكان الطير لا يدري أين يذهب، ثم أمطر الله على مسافريهم ومن غاب منهم ﴿حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾[1] وسجين ـ لغتان ـ وهي التي بعضها طين وبعضها حجر، ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: على كل حجر اسم صاحبه ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾[هود: ٨٣]

(١) «التبصرة» ١/ ١٥٢ـ١٥٣.

وقال ابن عباس: ما من ظالم إلا وهو يخاف أن يسقط عليه حجر من ساعة إلى ساعة. وقال مجاهد: لم ينكسرْ عند رفعهم إناء، ولم يُرَقْ عند ذلك ماء. ثم تبع جبريل رعاتهم فقتلهم. وقال مقاتل: كانت الحجارة التي رُموا بها سوداً منقَّطة ببياض مثل رؤوس الإبل[1] على كل واحد اسم صاحبه.

وقال ابن عباس: سمعتْ امرأته الهدَّة فالتفتت، فرأت العذاب، فقالت: واقوماه! فأصابها حجر فقتلها.

وروى السُّدي عن أشياخه قال: لما أهلك الله قوم لوط لحق لوط بإبراهيم، فلم يزل معه حتى توفي[2].

وحكى أبو القاسم ابن عساكر عن علي بن الجارود قال: مررت أنا وصاحب لي بمدائن قوم لوط عشيَّة عرفة، وإذا برجل كوسج أشعث أغبر على جمل أحمر، فسألَنا عن حالنا، فأخبرناه وقلنا: من أنت؟ فتغافل، فقلنا: لعلك إبليس، قال: نعم، قلنا: يا ملعون من أين جئت؟ قال: من عرفة رأيت من أذنب خمسين سنة، فقلت: اليوم أشفي صدري منه، فنزلت عليه الرحمة، فشققت ثيابي ووضعت التراب على رأسي، وجئت إلى ها هنا أنظر إلى قوم لوط لعلَّ يسكن ما بي[3].

وقلب الله حبوبهم[4] حجارة وأثرها عند سَدُوم إلى الآن، وصيَّر بساتينهم بحيرة زُغَر، فجعلها منتنة لا يعيش فيها حيوان، لا من السمك ولا من غيره.

ويقال: إن في وسطها مكاناً مثل البالوعة يذهب فيه الماء لا يُدْرَى أين يذهب.

ويقال: إنه يذهب إلى اليمن. ويظهر من هذه البحيرة حجر مثل البطيخة ذو شكلين يعرف بالحجر اليهودي ينفع لمن به وجع الحصى في المثانة، وهو نوعان: ذكر وأنثى، فالذكر للذكر والأنثى للأنثى، ويخرج منها أيضاً شيء على هيئة الحيوان يقال له:

---

(١) في (ب): «الإبر»

(٢) انظر في تفصيل هذه القصة بطولها: تفسير الطبري ١٥/ ٣٨١ فما بعدها، وزاد المسير ٤/ ١٢٧ فما بعدها، وغيرهما من كتب التفسير ومن المصادر التي أحلنا عليها أول القصة.

(٣) تاريخ دمشق ٦٠/ ٤٨.

(٤) في (ب): «وجوههم».

الحمر تُطْلَى به الكروم فتخصب وتحمل.

فصل في وفاة لوط عليه السلام

قال علماء السير: مات لوط قبل الخليل بمدة سنين، وعاش ثمانين سنة(١)، ولم يكن إبراهيم اشترى المغارة فدفن على جانب البحيرة في قرية من أعمال الخليل يقال لها: بريكوت، وقبره ظاهر بها.

وقال مقاتل: أقام لوط في سَدوم بضعاً وعشرين سنة.

وقال أحمد بن حنبل بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَلعونٌ من عَمِلَ عَمَلَ قَومِ لُوطٍ»(٢).

وحدثنا عمر بن محمد بن معمر الدَّارَقَزِّي بإسناده عن ابن المسيَّب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَمِلَ من أُمتي عمَلَ قومِ لوطٍ أو ماتَ وهو يَعمَلُ عَمَلَهم نَقَله الله حتى يُحشَر معَهم»(٣).



---

(١) انظر «أعمار الأعيان» ص ٥٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٧٥).

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ٤٨٤، وفيه عيسى بن مسلم الصفار وابنه منكرا الحديث.

فصل
في ذِكر ذِي القَرنَين وردمه بينَ السَّدَّين ونحوه(١)

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[الكهف: ٨٣] قال ابن مسعود: الذين سألوا رسول الله ﷺ هم اليهود.

واختلفوا في اسمه على أقوال:

أحدها: عبد الله بن الضحَّاك بن معَدّ، قاله علي كرم الله وجهه.

والثاني: الإسكندر، قاله وهب.

والثالث: عباس بن قيصر، وأبوه أوَّل القياصرة، قاله محمد بن علي بن الحسين زين العابدين.

والرَّابع: صعب بن جابر بن القلمس، ذكره ابن أبي خيثمة.

واختلفوا في علَّة تسميته بذي القرنين على أقوال:

أحدها: لأنه دعا قومه إلى الله تعالى فضربوه على قرنه فهلك، وغبر زمان ثم بعثه الله فدعاهم إليه، فضربوه على قرنه الآخر فهلك، قال علي عليه السلام: فذلك قرناه؛ وهذا القول يدلُّ على أنه كان نبيّاً.

والثاني: لأنه سار إلى مطلع الشمس وإلى مغربها، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: لأنَّ صفحتَي رأسه كانتا من نحاس، قاله مجاهد.

والرابع: لأنه رأى في المنام كأنه امتدَّ من الأرض إلى السَّماء فأخذ بقرني الشمس، فقصَّ ذلك على قومه، فسمِّي بذي القرنين، قاله عكرمة، وكان تأويل رؤياه أنه طاف الدنيا ما بين المشرق والمغرب.

والخامس: لأنه ملك الروم وفارس، قاله مقاتل، قال: وهما عاليان على الأرض من الجانبين فهما قرنان.

---

(١) انظر قصته في تفسير الطبري ١٥/ ٣٦٨ (هجر)، و«البدء والتاريخ» ١/ ٧٨، و«عرائس المجالس» ص ٣٦٢، وتاريخ دمشق ٦/ ١٠٨، وزاد المسير ٥/ ١٨٣، والتبصرة ١/ ١٦٥، والمنتظم ١/ ٢٨٦، و«البداية والنهاية» ٢/ ٥٣٦.

والسَّادس: كان في رأسه شبه القرنين، وقد رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب أيضاً.

والسَّابع: لأنه كان له غديرتان من شعر، قاله الحسن وابن الأنباري، قال: والعرب تسمِّي الضفيرتين من الشعر غديرتين.

قلت: وقد أشار الجوهري إلى هذا فقال: «والقرن الخصلة من الشعر» ومنه قول أبي سفيان في الرُّوم: ذات القُرُون[(١)].

قال الأصمعي: أراد قرون شعورهم وكانوا يطوِّلون ذلك، يعرفون به، وللرَّجل قرنان أي ضفيرتان. وذو القرنين لقب اسكندر الرُّومي، وكان يقال للمنذر بن ماء السَّماء ذو القرنين لضفيرتين كان يضفرهما في قرني رأسه فيرسلهما. هذا صورة كلام الجوهري[(٢)].

والثامن: لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف من قبل أبويه، قاله الشعبي.

والتاسع: لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس وهو حيٌّ، قاله ابن المسيَّب.

والعاشر: لأنه سلك الظلمة والضوء، قاله الرَّبيع.

والحادي عشر: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيده وركائبه جميعاً.

والثاني عشر: لأنه أُعطي علم الظاهر والباطن جميعاً، حكاهما الثعلبي[(٣)].

واختلفوا في زمان كونه على أقوال:

أحدها: في القرن الأول من ولد يافث بن نوح، قاله علي عليه السلام، وأنه ولد بأرض الروم.

والثاني: أنه بعد ثمود، قاله الحسن.

---

(١) قال أبو سفيان للعباس عندما رأى طاعة المسلمين للنبي ﷺ: يا أبا الفضل، ما رأيتُ كاليوم طاعةَ قومٍ، لا فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون. انظر «الروض الأنف» ١/ ٣٨٠.

(٢) «الصحاح» (قرن).

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦٢-٣٦٣.

والثالث: أنه كان من ولد إسحاق من ذريَّة العيص، قاله مقاتل.

والرَّابع: أنه كان في الفترة بين موسى وعيسى عليهما السلام.

والخامس: بين عيسى ومحمد ﷺ.

والسادس: أنَّه كان من ذرِّيَّة يونان بن نوح في أيَّام الخليل عليه السلام، وهو الأصحُّ، ذكره أبو الحسين ابن المنادي.

وروى عطاء عن ابن عباس فقال: لقي ذو القرنين الخليل عليه السلام بمكَّة، وكان ذو القرنين قد حجَّ ماشياً، فسلَّم عليه واعتنقه وتصافحا.

وأخرجه ابن عساكر عن عبيد بن عُمير قال: أوَّل من حجَّ ماشياً ذو القرنين، وكان الخليل عليه السلام بمكَّة، فسمع به فخرج فتلقَّاه[١].

وروي أنه اجتمع به بالشَّام. قال مقاتل: كان إبراهيم جالساً بفلسطين، فسمع أصواتاً وجلبة فقال: ما هذا؟ قالوا: ذو القرنين وجنوده. فأرسل إليه الخليل رجلاً وقال: أقره مني السلام، فأتاه فقال: إبراهيم خليل الله يقرأ عليك السَّلام، فقال: وخليل الله هاهنا؟ قال: نعم، فنزل عن فرسه ومشى، فقيل له: بينك وبينه مسافة، فقال: ما كنت لأركب في بلد فيه خليل الله تعالى. فقام الخليل فالتقاه وسلَّم عليه ورحَّب به، وأوصاه وأهدى له بقراً وغنماً وحمل إليه ضيافة[٢].

قلت: وهذا خلاف قول من قال: إن نمرود عاش أربع مئة سنة بعد إبراهيم، لأنَّ ذا القرنين ما كان في أيَّام نمرود بل بعده، لأنَّ ذا القرنين ملك الأرض أيضاً فتكون وفاة نمرود في أيَّام الخليل عليه السَّلام كما ذكر مقاتل.

وقال مقاتل: كان ذو القرنين من حمير، وفد أبوه إلى الرُّوم فتزوَّج امرأة من غسَّان فولدت له ذا القرنين، وقد ذكرناه.

واختلفوا: هل كان نبيّاً أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنه كان نبيّاً، قاله عبد الله بن عمرو والضحَّاك.

(١) «تاريخ دمشق» ١٧/ ٣٤٠.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١٧/ ٣٤٠_٣٤١.

والقول الثاني: أنه كان عبداً صالحاً ولم يكن نبيًّا ولا ملكاً، حكاه جدي رحمه الله في «التبصرة» عن عليٍّ عليه السلام[١].

وحدَّثنا عبد الرحمن بن أبي حامد الحربي بإسناده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أدري أكان ذو القرنين نبيّاً أم لا»[٢].

قلت: وقد روي عن علي وابن عباس أنَّه كان ملكاً صالحاً فاضلاً على دين إبراهيم عليه السَّلام، يأمر الناس بالتوحيد والتقوى.

وحكى جدي رحمه الله في «التبصرة» عن وهب أنَّه كان ملكاً[٣]. وحكى أيضاً عن علي رضي الله عنه أنه قال: أطاع الله فسخَّر له السحابَ فحُمل عليه، ومدَّ له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء[٤]. وحكى هذه الأقوال أبو القاسم ابن عساكر[٥].

وقال أبو الحسين ابن المنادي: كان ذو القرنين أحدَ عظماء الملوك، إلَّا أنَّ الله تعالى أعطاه التوحيد والطَّاعة واصطناع الخير والمعونةَ على الأعداء، ففتح الحصون والمدائن وغلب الرجال، وعمَّر عُمُراً طويلاً، فبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السدَّ، وحصر يأجوج ومأجوج وراءه، وكان رحمة للمؤمنين ونقمة على الكافرين[٦].

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: كان أوَّل أمر ذي القرنين أنه كان غلاماً من الروم أعطي مُلكاً، فسار حتى أتى مصر فابتنى بها مدينة يقال لها: الإسكندرية، فلمَّا فرغ من بنائها أتاه مَلَكٌ فعرج به، فقال: انظر ما تحتك؟ فقال: أرى مدينتي وأرى معها مدائن، ثم عرج به فقال: انظر، فنظر وقال: أرى مدينتي وحدها ولا مدائن معها، فقال له

---

(١) «التبصرة» ١/ ١٦٦.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢١٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٧، قال ابن كثير في البداية ٢/ ٥٣٧: وهذا غريب من هذا الوجه.

(٣) «التبصرة» ١/ ١٦٦.

(٤) «التبصرة» ١/ ١٦٦.

(٥) «تاريخ دمشق» ١٧/ ٣٣٣.

(٦) انظر «المنتظم» ١/ ٢٨٨.

المَلَكُ: إنما تلك الأرض كلها، وهذا السَّواد الذي ترى محيطاً بها هو البحر، وإنما أراد الله أن يريَكَ الأرض، وقد جعلك سلطاناً فيها، فَسِرْ فيها شرقاً وغرباً فعلِّم الجاهل وثبتِ العالم(١).

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قطع الإسكندر الأرض من مشرقها إلى مغربها في اثنتي عشرة سنة.

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كان ذو القرنين إذا سار يكون أمامه على مقدمته ست مئة ألف، وهو في الوسط في ألف ألف، وفي ساقته مئة ألف لا ينقص هذا العدد، كلما هرم واحد جعل مكانه غيره.

فصل في سَيره في الأرض وبنائه السَّدّ وغير ذلك

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، أي: وطَّأْنا له في الأرض وهديناه طرقها ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه ويستعين به الملوك على فتح الحصون والمدن ومحاربة العدوِّ.

وقوله: ﴿سَبَبًا﴾[الكهف: ٨٤] قال ابن عباس: أي علماً يتسبَّب به إلى ما يريد من بلوغ المقاصد، كما فعل سليمان عليه السلام، وقيل: هو العلم بالطرق والمسالك(٢) ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٥] السبب الطريق، ومعنى «أَتْبَعَ» أي: سلك وسار يقفو الآثار، ومنه ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٧] أي: طرقها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[الكهف: ٨٦] قال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر، قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذرٍّ، هل تدري أين تغربُ هذه الشَّمسُ»؟ قلت: الله ورَسُولُه أعلم، فقال: «إنَّها تَغربُ في عَينٍ حَامِيةٍ»(٣).

وقد رواه عبد الله بن عمرو فقال: نَظَرَ رسولُ الله ﷺ إلى الشمس وقد غربت فقال:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٦٨ من حديث عقبة بن عامر.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ١٦٦-١٦٧. و«زاد المسير» ٥/ ١٨٥.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٤٥٩).

«في نارِ اللهِ الحامِيةِ لولا ما يَزَعُها من أمر اللهِ لأحرَقت ما على وَجهِ الأرضِ»[١]، وقد ذكرناه في فصل الشمس.

وقال الحسن البصري: وجدها تغرب في ماء يغلي غليان القدور؛ ويفيض الماء من تلك العين الحارَّة حولها ثلاثة أيام، لا يأتي على شيء إلا احترق[٢].

والجمهور على القراءة الأولى وهي ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ مهموز، أي: ذات حمأة، وهي الطينة السوداء. وقال كعب: أجدها في التوراة تغرب في عين سوداء، فوافق ابن عباس.

وذكر الثعلبي أيضاً بإسناده عن عمرو بن ميمون قال: سمعت أبا حاضر، أو ابن حاضر رجل من الأزد، يقول: سمعت ابن عباس قال: إني لجالس عند معاوية إذ قرأ: «تغرب في عين حامية» قال ابن عباس: فقلت ما نقرأها إلا ﴿حَمِئَةٍ﴾، فقال معاوية لعبد الله بن عمر: وكيف تقرأها؟ فقال: كما قرأتها يا أمير المؤمنين يعني: حامية، قال ابن عباس، فقلت: في بيتي نزل القرآن، فأرسل معاوية إلى كعب فجاءه فقال: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال كعب: أمَّا العربية فأنتم أعلم منَّا بها، وأمَّا الشَّمس فإني أجدها في التوراة تغرب في ماء وطين، قال أبو حاضر الأزدي: لو كنت عندكما حاضراً لأنشدتك ما تزداد به بصراً في قولك: حمئة، فقال ابن عباس: وما هو؟ فقلت: قول تُبَّع: [الكامل]

قد كان ذو القرنين قبليَ مُسلماً ... ملكاً تدينُ له الملوك وتسجدُ
بلغَ المشارق والمغاربَ يبتغي ... أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرشد
فرأى مغار الشمس عند غروبها ... في عين ذي خُلُب وثَأْط حرمد

قال: فقال ابن عباس: ما الخُلبُ؟ قلت: الطين في كلامهم، يعني أهل اليمن، قال: فما الثأط؟ قلت: الحمأة، قال: وما الحرمد؟ قلت: الأسود. فدعا رجلاً أو

---

(١) أخرجه أحمد (٦٩٣٤). وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٥٤٦: فيه غرابة، وفيه رجل مبهم لم يسمّ، ورفعه فيه نظر، وقد يكون موقوفاً من كلام عبد الله بن عمرو.

(٢) انظر «التبصرة» ١/ ١٦٧.

غلاماً فقال له: اكتب ما يقول(١).

قلت: ذكر الثعلبي هذه الأبيات مرفوعة، وهي لحن فاحش. قلت: وفيها علّة أخرى، وذلك لأن كعباً مات في سنة اثنتين وثلاثين، ومعاوية ولي الأمر بعد الأربعين. فبينهما تسع سنين.

وقال أبو العالية: بلغني أن الشمس تغرب في عين، والعين تقذفها إلى المشرق.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ يعني: أناساً، لباسهم جلود السباع، ليس لهم طعام إلّا ما أحرقت الشَّمس من الدَّواب عند غروبها، وما لفظت العين من الحيتان، ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[الكهف: ٨٦] من قال إنه كان نبياً يقول: ﴿قُلْنَا﴾ وحيٌ من الله تعالى، ومن قال: إنه لم يكن نبياً يقول: هو إلهام ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ أي: تقتلهم إن لم يدخلوا في الإسلام ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾[الكهف: ٨٦] يعني الصفح والعفو، وقيل: إمَّا أن تأسرهم فتعلمهم طريق الهدى وتبصرهم طريق الرشاد ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: أشرك بالله ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾[الكهف: ٨٧] أي: منكراً وهو عذاب النَّار ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: جزاء الأعمال الصالحة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[الكهف: ٨٨] أي: نلين له القول ونهوِّن عليه الأمر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾[الكهف: ٨٩] أي: طرقاً ومنازل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾[الكهف: ٩٠] قال قتادة: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، وذلك لأنهم كانوا في مكان لا يستقرُّ عليه البنيان، وكانوا يكونون في أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا إلى معايشهم وحروثهم. وقال الحسن: كانت أرضهم أرضاً لا تحتمل النَّبات، فكانوا إذا طلعت عليهم الشمس تهوروا في الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كما ترعى البهائم. وقال ابن جريج: جاءهم جيش مرَّة فقال لهم أهلها: لا تطلع عليكم الشمس وأنتم هاهنا، فقالوا: ما نبرح حتى تطلع الشمس، ثم رأوا عظاماً فقالوا: ما هذه؟ قالوا: عظام قوم طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا، فذهبوا هاربين في الأرض(٢).

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦٦.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦٧.

وقال قوم(١): هم الزنج.

وقال الكلبي: هم تاريس ومنسك وتاويل، عراة حفاة عماة عن الحق(٢).

وحكى الثعلبي عن عمرو بن مالك بن أمية قال: وجدت رجلاً بسمرقند يحدِّث عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس قال: خرجت حتى جاوزت الصين، ثم سألت عنهم فقيل لي: إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلاً وسرت بقيَّة عشيَّتي وليلتي حتى صبحتهم، فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى، أو يلبس الأخرى، وكان صاحبي يحسن لسانهم فسألهم، قالوا: وما أنتم؟ قالوا: جئنا حتى ننظر إلى الشمس كيف تطلع، قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة، فغشي عليَّ فوقعت، ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن. فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي كهيئة الزيت، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط، فلما ارتفعتْ أدخلوني سَرَباً لهم أنا وصاحبي، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصيدون السمك فيطرحونه في الشمس ويأكلونه(٣).

وقال مجاهد: مضى يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل من لم يؤمن حتى بلغ مطلع الشمس، وذكر بمعنى ما ذكرناه.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على أقوال:

أحدها: كما بلغ مغرب الشمس كذا بلغ مطلعها.

والثاني: أن معناه: كما أتبع سبباً أتبع سبباً آخر وحكم بحكم أولئك، ثم استأنف فقال: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾[الكهف: ٩١] يعني: بما عنده ومعه من الملك والجيوش والآلات والأمم ﴿خُبْرًا﴾ أي: علماً.

حديث السدِّ ويأجوج ومأجوج

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[الكهف: ٩٢] أي: سلك طريقاً إلى المشرق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) في (ل): وقال قتادة، والمثبت من (ب)، وانظر تفسير الطبري ١٥/ ٣٨٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦٧.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٣٦٧، وتفسير الثعلبي ٦/ ١٩٢.

بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ قال وهب: وهما جبلان مَنِيعان رأسهما في السماء، ومن ورائهما البحر(١).

قوله تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾[الكهف: ٩٣] أي: لا يفهمونه إلا بعد إبطاء ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ فإن قيل: فقد أخبر عنهم أنهم لا يفقهون، أي: لا يفهمون قولاً، ثم قال: ﴿قَالُوا۟﴾، قلنا: كلَّمهُ عنهم ترجمان يفهم ما يقول، وذلك جائز. وهؤلاء القائلون هم دون سدِّ يأجوج ومأجوج ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الكهف: ٩٤] أصل يأجوج ومأجوج من أجيج النار، وهو ضوؤها ولهبها، شُبِّهوا به لكثرتهم وشدَّتهم.

واختلفوا فيهم على أقوال:

أحدها: أنهم من ولد يافث بن نوح، قاله مجاهد.

والثاني: أنهم من غير حوَّاء، وذلك لأن آدم نام ذات يوم فاحتلم، فامتزجت نطفته بالتراب، فلما انتبه أسف على ذلك الماء الذي خرج منه، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج، فهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم، حكاه الثعلبي عن كعب الأحبار(٢).

والثالث: أنهم جيل من الترك، قاله الضحاك(٣). وذكرهم الجوهري فقال: الأجيج: تلهب النار(٤).

وقال علي عليه السلام: منهم من طوله شبر، ومنهم مفرط الطول، ولهم شعور تواريهم، ومنهم من وجهه وجه كلب ووجه أسد ودبٍّ ونحو ذلك(٥).

---

(١) انظر «التبصرة» ١/ ١٦٨.

(٢) تفسير الثعلبي ٦/ ١٩٣، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٥٥٣، والتفسير ٣/ ١٠٤: ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم . . . فهذا قول غريب جداً، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل، بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح بنص القرآن.

(٣) انظر «زاد المسير» ٥/ ١٩٠.

(٤) «الصحاح»: (أجج).

(٥) قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٥٥٣: فكل هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان.

وقال ابن عباس: السَّدُّ بين أرمينية وأذربيجان.

ومعنى فسادهم في الأرض: أنهم كانوا يأكلون النَّاس. وقال الكلبي: كانوا يخرجون في أيَّام الرَّبيع في السهل فلا يدعون شيئاً إلّا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه. وقيل: معناه في المستقبل، أي: سيفسدون في الأرض، وقد دلَّ الحديث عليه لما نذكر في آخر الفصل.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قرأه العامَّة بغير ألف، وقرأه حمزة والكسائي وأهل الكوفة «خراجاً» بألف. ومعناه: نجعل لك أجراً وجُعلاً ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾[الكهف: ٩٤] أي: حاجزاً فلا يصلون إلينا. قال لهم ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ وقرأ أهل مكة «مكنني» بنونين على الإظهار، وقرأ الباقون «مكَّنِّي» بنون واحدة على الإدغام. ومعنى ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ﴾ أي: خير من خرجكم، ولكن أعينوني ﴿بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[الكهف: ٩٥] أي: حائطاً أو حاجزاً. قالوا: وما تلك القوَّة؟ قال: صُنَّاع وفَعَلة يحسنون هذا، قالوا: وما تلك الآلة؟ قال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: قِطَع الحديد فأتوه بها فبناه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ وهما جانبا الجبل، فجعل بينهما الحطب ونسج عليه الحديد وألقى عليه القِطْر، وهو النُّحاس المذاب، فأكلت النار الحطبَ، وصار النُّحاس موضعَ الحطب، فاختلط الحديد بالنحاس وهو يقول: ﴿ٱنفُخُواْ﴾[الكهف: ٩٦] حتى كمل واستوى ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلون فوقه ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾[الكهف: ٩٧] من أسفله. فقال ذو القرنين: ﴿هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ يعني السدَّ، فلهذا لم يقل: هذه ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾[الكهف: ٩٨] أي: مستوياً بالأرض.

وقال مقاتل: وصل إلى مدن معطلة قد بقي فيها بقايا من النَّاس، فسألوه أن يسدَّ ما بينهم وبين يأجوج ومأجوج. وقال مقاتل: لما سار إلى المشرق جعل طريقه على الهند والتُّبَّت، فتلقته الملوك بالهدايا والطاعة، إلى أن وصل إلى الأرض السوداء المنتنة، فقطعها سيراً حثيثاً في شهر، ووصل إلى المدائن المجاورة ليأجوج ومأجوج، فنزل بجيوشه فيها ومعه العلماء وأرباب الصنائع. فلمَّا عزم على بناء السدِّ اتخذ القدورَ الكبار من النحاس والحديد والمغارف، وأمر بأن يجعل دَوْرَ كلِّ قِدْرٍ خمسين ذراعاً، فبناه،

وجعل في وسطه باباً ارتفاعه خمس مئة ذراع وعرضه مائة ذراع بالذراع الأعظم، وهو الباع، وعمل عليه مصراعين وقفلاً كبيراً، وكل ذلك أملس كملاسة الجبل.

وذكر ابن خرداذبه في كتاب «المسالك والممالك» قال: حدَّثني سلام الترجمان قال: رأى هارون الواثق بالله في منامه كأنَّ السدَّ قد فتح فانزعج، وقال: تجهز إلى السدِّ، وضمَّ إليَّ عسكراً، ووصلني بخمسة آلاف دينار، وأعطاني ديتي عشرة آلاف درهم، وأعطى كلَّ فارس معي ألف درهم ورزق ستة أشهر. قال: فَشَخَصنا من سُرَّ مَن رَأى بكتاب الواثق إلى نائبه بأرمينية وهو إسحاق بن إسماعيل، فوافيناه بتَفلِيس، فكتب لنا كتاباً إلى صاحب مملكة السَّرير واللَّان، فكتبوا لنا كتاباً إلى ملك الخَزَرِ، فبعث معنا الأدلَّاء وسرنا من عند ملك الخَزَر خمسةً وعشرين يوماً ثم وقعنا في أرض سوداء منتنة الريح، فسرنا فيها عشرة أيام، ثم صرنا إلى مدن خراب، فسرنا فيها تسعة وعشرين يوماً، فسألنا الأدلَّاء عنها فقالوا: هذه مدن كان يأجوج ومأجوج يطرقونها فأخربوها. ثم سرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي فيه السدُّ، وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية، مسلمون يقرؤون القرآن، وعندهم مساجد ولهم زروع وعيون، فقالوا: من أين جئتم؟ قلنا: من العراق، ونحن رسل أمير المؤمنين الواثق، فعجبوا وقالوا: ما سمعنا بهذا قط. ثم صرنا إلى جبل أملس مقطوع بوادٍ عرضه خمس مئة ذراع وأكثر، وفيه السدُّ، وإذا عضادتان كل واحدة مما يلي الجبل، وعليها باب بمصراعين عرض كل واحد خمسون ذراعاً في ارتفاع خمسين ذراعاً في ثخن خمسة أذرع، وقائمتهما في دَرْوَنْد من حديد، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعاً، وفوقه غَلَقٌ أطول من القفل وقفيز، وعليه مفتاح عظيم بسلسلة طولها ثمانية أذرع في استدارة ذراع، والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق، وعتبة الباب عشرة أذرع في بسط مئة ذراع، ورئيس تلك الحصون يركب في كل جمعة في عشرة فوارس مع كل فارس مرزبَّة من حديد وزنها خمسون ومئة منٍّ، فيضربون الباب بتلك المرزبَّات مراراً ليسمع من خلف الباب، فيعلمون أنَّ هناك حفظةً وهناك آلة البناء والقدور والمغارف وبقيَّة اللبن والقدور، ويصعد إليها بسلالم، فسألناهم: هل رأيتم أحداً من يأجوج ومأجوج؟ قالوا: رأينا مرة

عدداً فوق الشرافات[١]، فهبت ريح سوداء فألقتهم وراء الجبل، ومقدار الرجل شبر.

قال سلام: ثم عدنا فخرجت بنا الأدلَّاء من خلف سمرقند بسبعة أيام وسبعة فراسخ، ورجعنا إلى سُرَّ مَن رأى بعد خروجنا بثمانية وعشرين شهراً.

وقد ذكر جدي رحمه الله هذه الحكاية في كتاب «التبصرة» في سيرة ذي القرنين واختصرها[٢].

وقد روي: أن يأجوج ومأجوج يحفرون السدَّ كل يوم، فقال أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي رافع عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ يَأجُوجَ ومَأجُوج ليَحفِرُون السَّدَّ كُلَّ يومٍ حتى إذا كادُوا يَرَون شُعاع الشَّمسِ قال الذي عليهم: ارجعُوا فسَتَحفِرُونَه غداً، فيعُودُونَ إليهِ فَيَرونَه كما كان أو أشدَّ، حتى إذا بلغت مُدَّتُهم وأراد اللهُ أن يَبعثَهم على النَّاس حَفَروا، حتى إذا كادوا يَرَونَ شُعاعَ الشَّمسِ قال الذي عليهم: ارجعوا فستَحفِرُونه غداً إن شاء الله تعالى فيعودُونَ إليه فَيَرونَهُ على هَيئتِهِ التي تَركُوهُ عليها، فَيحفِرُونَه وَيخرُجُونَ على النَّاس، فيَنشُفُونَ المياهَ ويَتحصَّنُ النَّاسُ منهم بحصُونِهم، فَيَرمُونَ بِسهامِهِم نحو السَّماءِ، فَترجِعُ وعليها أثر الدَّمِ أو كَهيئَةِ الدَّمِ، فيقولون: قَهَرنا أهلَ الأرض وعَلَونا أهلَ السَّماءِ، فَيبعَثُ الله عليهم نَغَفاً في أقفائِهم فيقتُلُهم بها، فوالذي نَفسِي بِيَدِه إنَّ دوابَّ الأرضِ لتشكَر من لُحُومِهم أو دِمَائِهم»[٣].

قال الجوهري: النغف الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم[٤]، وتَشْكَر: أي تمتلىء، من قولهم: شكر الضرع إذا امتلأ[٥].

وقد روى أبو إسحاق الثعلبي حديثاً في هذا المعنى فقال: حدَّثنا عبد الله بن حامد بإسناده عن أبي سعيد الخُدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يفتحُ يأجوجُ ومأجُوجُ

---

(١) وكذا هي في عرائس المجالس ٣٦٩، وفي «المسالك والممالك» ص ١٤١: فوق الجبل، وفي المنتظم ١/ ٢٩٦: فوق الشُّرف.

(٢) «التبصرة» ١/ ١٦٨ـ١٦٩.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٦٣٢).

(٤) «الصحاح»: (نغف).

(٥) «الصحاح»: (شكر).

فيخرجُون كما قال الله عز وجل: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[الأنبياء: ٩٦] فَيَغْشَوْنَ الأرض، وينحازُ المسلمون إلى حصونهم ومدائِنهم، حتى إنَّ أولهم يمرُّون بالنَّهر من أنهار الأرض ـ وقال أبو الهيثم: دجلة ـ فيشرَبُون حتى تصير يابسة، فيمرُّ به الذين من بعدهم فيقولون: لقد كان بهذا المكان ماءٌ مرةً. حتى إذا ظهروا على أهل الأرض قالوا: هؤلاء أهلُ الأرض قد فرغنا منهم، وبقي أهل السماءِ فيهزُّ أحدُهُم حَربَتَه، ثم يقذِفُ بها إلى السماء فترجع إليه مُخضَبَةً دماً للفتنة، فبينما هم كذلك إذ بعثَ اللهُ عليهم دُوداً في أعناقهم كنَغَفِ الجَرادِ، فيمُوتُون موتَ الجَرادِ، فيُصبحُ المسلِمونَ ما يسمَعُونَ لهم حِسّاً، فيقولون: هل من رجل يشترِي لنا نَفسَهُ فينظُرُ ما فَعلَ هؤلاء القوم؟ فينزِلُ رجلٌ منهم قد أيقَنَ أنَّه مقتُولٌ، فيَجدُهم موتَى بعضُهُم على بَعضٍ، فينادي: أبشِروا فقد كَفاكُم اللهُ أمرَ عدوكُم، فيخرجُ المسلِمونَ فيُرسِلُون مواشِيَهم فيهم، فما يَكونُ لهم رَعيٌ غير لُحومِهم، فتَشْكَرُ عليه كأحسَنِ ما شكَرت على شيءٍ من النَّباتِ أصابَتهُ قطّ»[(١)].

وقال الثعلبي بإسناده عن عبد الله، قال: سألت النبي ﷺ عن يأجوج ومأجوج فقال: «يأجوجُ أُمَّةٌ ومأجوجُ أُمَّةٌ، كلُّ أُمَّةٍ أربع مئة ألف، لا يموتُ أحدُهم حتى ينظُرَ إلى ألفِ ذَكرٍ من صُلبِه كُلُّهم قد سَلَّ السِّلاحَ» فقال: يا رسول الله، صِفهُم لنا، فقال: «هم ثلاثةُ أصنَافٍ: صِنفٌ منهم أمثال الأَرْزِ» قيل: يا رسول الله، وما الأَرزُ؟ قال: «شجرٌ بالشَّامِ طولُ الشَّجرةِ عشرُون ومئة ذِراع، وصِنفٌ منهم عرضُهُ وطُولُه سواء، وصِنفٌ منهم يَفرُشُ أُذُنَه ويلتَحِفُ بالأخرى، لا يمرُّونَ بِفيلٍ ولا وَحشٍ ولا خِنزِيرٍ إلا أكلُوهُ، ومَن مَاتَ منهم أكلُوهُ، مقدِمتُهم بالشَّامِ وساقتهم بخُراسَان، يَشربُونَ أنهارَ المشرقِ وبُحيرةَ طبرية».

قلت: وقد أخرج جدِّي هذا الحديث في «الموضوعات» وقال: قال ابن عدي: هذا حديث منكر موضوع[(٢)].

وذكر مقاتل أنَّ السدَّ عرضه فرسخ وطوله فرسخ. وذكر صاحب «المسالك»: أنَّ

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧٣١).

(٢) «الموضوعات» (٤١٦) والكامل لابن عدي ٦/ ١٦٩ عن حذيفة.

ارتفاعه في الهواء فرسخين، وكذا عرضه، وينتهي إلى البحر الأعظم[١]. ودونهم قوم لا يعرفون آدم، ودونهم إلى ناحية يأجوج ومأجوج أمَّة من الحيَّات تَبلَعُ منهم الحيَّة الصخرة العظيمة.

وقال قتادة: الجبل الذي فيه السدُّ يقال له: جبل الرَّدم، وجميعه على بحر الخَزَرِ، وينتهي إلى البحر المظلم، وطوله ألف فرسخ، وليس له طريق إلى البر إلَّا من ناحية السد، وفيه يأجوج ومأجوج، وطعامهم أفاعي البحر، يبعث الله السحب فتغترف الأفاعي من البحر ثم تمطر عليهم فيأكلونها، ولكل واحد منهم فرجان وينكح نفسه، ولا يموت حتى يرى من نسله ألف إنسان، ثم يموت فيرمى في البحر فتأكله أفاعي البحر[٢].

فصل في سلوكه الظلمة وطلبه لعين الحياة

قال جدِّي رحمه الله في تاريخه المسمَّى بـ «المنتظم»: حدَّثنا أبو بكر محمَّد بن عبد الباقي البزاز بإسناده عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي عن أبيه عن جدِّه عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان لذي القرنين خليل من الملائكة يقال له: ربائيل يتردَّد إليه، فقال له يوماً: يا ربائيل، أخبرني عن عبادة الملائكة في السماء، فقال: منهم سجود لا يرفعون رؤوسهم، وقيام لا يركعون، وركوع لا يرفعون، ومع هذا فإنهم يقولون: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك. فبكى ذو القرنين وقال: إني أحب أن أعيش حتى أبلغ من عبادة ربي حقَّ طاعته، فقال له الملك: أتحب ذلك؟ قال: نعم، قال: فإن في الأرض عيناً يقال لها: عين الحياة، من شرب منها لا يموت حتى يكون هو الذي يسأل ربَّه الموت. قال: فهل فيكم من يعلم مكانها؟ قال له الملك: إنها في ظلمة لا يصلُ إليها إنسيٌّ ولا جنِّيٌّ. فجمع ذو القرنين حكماء أهل زمانه والعارفين بأخبار العالم وقال: هل وجدتم فيما قرأتم من الكتب أنَّ لله في الأرض عيناً يقال لها عين الحياة؟ قالوا: لا، فقال عالم من العلماء يقال له أفشنجير: نعم، إني وجدت في وصيَّة آدم أنها في ظلمة على قرن الشمس عند طلوعها. فسار ذو القرنين يطلبها إلى أن

(١) «المسالك والممالك» ص ١٤٢.

(٢) سلف قريباً قول ابن كثير إن هذه أقوال بلا دليل ورجم بالغيب بغير برهان.

بلغ طرف الظلمة، وذلك في اثنتي عشرة سنة، فوقع في ظلمة لا تشبه ظلمة الليل بل تفور مثل الدخان، فعسكر هناك، وعزم على دخولها، فنهاه الحكماء فلم ينته، وقال لأهل الخبرة: أيُّ الدواب أبصر بالليل؟ قالوا: إناث الخيل البكارة، فجمع من عسكره ستة آلاف فرس من ذلك الجنس، وانتخب من عقلاء عسكره ستة آلاف، ودفع لكلِّ واحدٍ فرساً. وكان معه الخضر، وهو ابن خالته ومشيره ووزيره، فقدَّمه في ألفين، وبقي هو في أربعة آلاف، وأمره بالمسير في مقدمته، فقال له الخضر: إنما نسير في ظلمة، فكيف يصنع من ضلَّ منا عن صاحبه؟ فدفع إليه ذو القرنين خرزةً حمراء وقال: إذا ضللت فألقِ هذه الخرزةَ في الأرض، فإذا صاحت فليرجع إليها الضُّلَّالُ. فسار الخضر بين يديه يرتحل الخضر وينزل الإسكندر، وقد علم الخضر ما يطلب الإسكندر. فبينا الخضر يسير إذ عارضه وادٍ، فغلب على ظنِّه أن العين فيه فرمى بالخرزة، فأضاءت الظلمة، وصاحت الخرزة، فإذا هي على حافة العين، فنزل الخضر فإذا ماء أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وقال لأصحابه: امكثوا. واغتسل وتوضأ وشرب منها ورمى بالخرزة نحو أصحابه فصاحت، فتراجعوا إليه وساروا، ومرَّ ذو القرنين فأخطأ العين، وساروا أربعين يوماً في الظلمة، ثم خرجوا إلى ضوء ليس بضوء شمس ولا قمر، وأرض حمراء رملة، وإذا بقصر مبني فرسخ في فرسخ، فنزل ذو القرنين ودخل القصر، وإذا بحديدة طرفاها على حافتي القصر، وإذا بطائر أسود كأنَّه الخطَّاف مزموم أنفه إلى الحديدة معلَّق بين السماء والأرض، فلمَّا سمع الطائر حسَّ الإسكندر قال له: ما جاء بك إلى ها هنا؟ أما كفاك ما وراءك يا ذا القرنين؟ ثم قال: هل كثر البناء بالجص والآجر؟ قال: نعم، فانتفض الطائر وانتفخ حتى بلغ ثلث الحديدة، ثم قال: هل كثرت شهادات الزور؟ قال: نعم، فانتفض حتى ملأ الحديدة وسدَّ بين جداري القصر، ففزع ذو القرنين، فقال الطائر: هل ترك الناس شهادة أن لا إله إلا الله؟ قال: لا، فانضم الطائر، قال: فهل تركوا الصلاة المفروضة وغسل الجنابة؟ قال: لا. فعاد الطائر كما كان. قال: ورأى في سطح القصر رجلاً قائماً، قال: من أنت؟ قال: صاحب الصور، وقد اقتربت الساعة، وأنا أنتظر أمر ربي فأنفخ. ثم ناول ذا القرنين حجراً وقال: خذه فإن شبع شبعت، وإن جاع جعت. وعاد ذو القرنين إلى أصحابه

وأخبرهم بما رأى، وأراهم الحجر فوضعوه في كفة، وتركوا في قبالته حجراً آخر، فرجح عليه، فعلوا ذلك مراراً، ففهم الإسكندر وقال: لو وضعتم في قبالته أحجار الدنيا لرجح عليها، ثم ترك الحجر في كفَّة، ووضع معه كفاً من تراب، وبمقابلته حجراً آخر، فاستويا في الميزان، فقال الخضر: هذا مثلٌ ضربه اللهُ لابن آدم لا يشبع أبداً حتى يحثى عليه التراب. فقال الإسكندر: هو ما يقول، لا جرم لأرجعنَّ إلى وطني، ولا أطلب أثراً في البلاد. ثم ارتحل راجعاً، فبينما هو في وسط الظلمة وطيء الوادي الذي فيه الزبرجد، فقال: خذوا منه، فمن أخذ منه ندم، ومن ترك ندم. فأخذ منه قوم وترك آخرون، فلما خرجوا من الظلمة نظروا فإذا هو زبرجد، فندم الآخذ حيث لم يزدد والتارك حيث لم يأخذ. ورجع ذو القرنين إلى دومة الجندل فلم تزل منزله حتى مات[١].

قلت: ومن العجائب أنَّ جدِّي رحمه الله ما ذكر في «الموضوعات» هذه الحكاية، فإنه قد ذكر في «الموضوعات» و«الواهية» أسماءَ جماعة فيها مثل: إبراهيم بن سعيد الجَوزَقي وإسماعيل بن مسعدة وإسحاق الفَرْوي، وفي متنها ألفاظ ركيكة جداً، منها الخرزة، وقد كان الإسكندر أحوج إلى الخضر منها. وكذا كون الخضر وقع على عين الحياة ولم يخبر بها الإسكندر وقد علم مقصوده فكان الخضر خائناً له، وكذا الطائر فإنه الدَّجَّال وهو في جزائر الهند، وكذا سؤاله عن الصلوات الخمس وغسل الجنابة ونحوها، فإنَّ هذه الأشياء لم تكن مشروعة في ذلك الوقت، وقد انطلى هذا المعنى على خلق كثير حتى قالوا فيه الأشعار، أنشدنا عمر بن صافي بالموصل في سنة أربع وست مئة لغيره: [من الكامل]

سلع المطامعِ لا تفوت وإنَّ مَن ... ترك المطامعَ كان أربحَ متجرا
نال الذي ترك المطامع خلفه ... عينَ الحياةِ وفاتت الإسكندرا
لا تطلبنَّ سوى السَّعادةِ للعُلى ... شيئاً فكلُّ الصَّيدِ في جوف الفرا

وذكر أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» من هذا الجنس العجائب[٢].

والمنقول عن الحسن البصري أنه قال: حدَّثني أبو أمامة الباهلي: أنَّ ذا القرنين سار

(١) «المنتظم» ١/ ٢٨٩، وعرائس المجالس ٣٧٠.
(٢) «تاريخ دمشق» ١٧/ ٣٥٠.

في الظلمة وحده ثمانية عشر يوماً حتى انتهى إلى جبل قاف في طلب عين الحياة[١].

قلت: وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي في «تفسيره» عجائب من هذا الجنس، فقال: قال وهب بن منبِّه: كان ذو القرنين رجلاً من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الإسكندر، فلما بلغ ـ وكان عبداً صالحاً ـ قال الله: يا ذا القرنين، إني باعثك إلى الأمم، وهم مختلفة ألسنتهم، وهم أمم جميع الأرض، وفيهم أمَّتان بينهما عرض الأرض كله، وأمَّتان بينهما طول الأرض كله، وأمم في وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج، فأمَّا الأمَّتان اللتان بينهما عرض الأرض فأمَّة في قطر الأرض الأيمن يقال لها: هاويل، والأخرى في قطر الأرض الأيسر يقال لها: تاويل. وأمَّا اللتان بينهما طول الأرض فأمَّة عند مغرب الشمس يقال لها: ناسك، وأمَّا التي في المشرق يقال لها: منسك. فلمَّا قال الله له ذلك قال ذو القرنين: إلهي، إنك قد ندبتني لأمر عظيم لا يقدر عليه إلَّا أنت، فأخبرني عن هذه الأمم التي تبعثني إليها: بأي قوَّة [أكابرهم]؟ وبأي جمعٍ وبأيِّ حيلة [أكاثرهم]؟ وبأيِّ صبرٍ أقاسيهم به؟ وبأي لسان أناطقهم به؟ وكيف لي أن أفقه لغاتهم؟ وبأي سمع أسمع أقوالهم؟ وبأي حجة أخاصمهم؟ وبأي عقل أعقل عنهم؟ وبأي قلب وحكمة أدبرهم؟ وبأي قسط أعدل بينهم؟ وبأيِّ جندٍ أقاتلهم؟ وليس عندي مما ذكرتُ ما يقوم بهم، وأنت الرحيم الذي لا تكلِّف نفساً إلا وسعها، ولا تحمِّلها إلا طاقتها. فقال الله: إني سأشرح صدرك فتسمع كل شيء، وأفتح فهمك فتفقه كل شيء، وأبسط لسانك فتنطق بكل شيء، وأمدُّ لك بصرك فتبصر كل شيء، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء، وأسخِّر لك النور والظلمة وأجعلهما جنداً من جنودك، يهديك النور من أمامك، وتحوطك الظلمة من ورائك ـ وذكر ألفاظاً من هذا الجنس ـ قال: فلما قيل له ذلك انطلقَ يؤمُّ الأمم نحو المغرب، فوجد جمعاً لا يحصيه إلا الله تعالى، وألسنةً مختلفة، وأهواء متشتِّتة، فلمَّا رأى ذلك كاثرهم بالظلمة، فضرب حولهم ثلاثة عساكر منها، فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم في مكان واحد، ثم أخذ عليهم النور فدعاهم إلى الله

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» ١٧/ ٣٤٢.

وعبادته، فمنهم من آمن ومنهم من صدَّ عنه، فعمد إلى الذين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة، فدخلت في أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم، فماجوا وتحيَّروا، فلمَّا أشفقوا أن يهلكوا بها عجُّوا إليه بصوت واحد فكشفها عنهم، فدخلوا في دعوته، فجنَّد منهم أمماً عظيمة، ثم انطلق بهم يقودهم والنور بين أيديهم والظلمة تسوقهم من خلفهم، وسار يريد الأمَّة التي في قطر الأرض الأيمن التي يقال لها: تاويل، والأمم تتبعه، فإذا انتهى إلى بحر بنى سُفناً من ألواحٍ صغارٍ ونظمها، ثم حمل فيها مَن معه، فإذا قطعها دفع إلى كلٍّ واحد منهم لوحاً فلا يكترثن بحمله، حتى انتهى إلى ناسك فأطاعوه، وإلى هاويل ففعل كذلك، ثم سار إلى مطلع الشمس إلى منسك، وحكم على جميع الأمم، ووصل إلى سد يأجوج ومأجوج، وذكر شكاوى أهل تلك البلاد منهم، وقالوا: اجعل ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾[الكهف: ٩٤] فإنهم يتسافدون كالبهائم، ويأكلون الناس والحشرات، فقاس الإسكندر السدَّ فوجد مكانه مئة فرسخ، فحفر أساسه، وجعل عرضه خمسين فرسخاً ثم بناه وشرَّفه. وذكر الثعلبي كلاماً اختصرته[1].

فصل في ذكر الأمَّة الصالحة التي مر بها الإسكندر

ذكر وهب بن منبه عن صفوان بن عمرو الخزاعي قال: أتى ذو القرنين على أمة صالحة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[الأعراف: ١٥٩] فوجد حالتهم في العدل والتراحم سواء، أخلاقهم حسنة، وطريقهم مستقيمة، وقلوبهم طاهرة، وليس في أيديهم شيء مما يتعامل به الناس، قد احتفروا قبورهم على أبواب بيوتهم، فإذا أصبحوا جاؤوا إليها فتعاهدوها وصلُّوا فيها، فإذا تعالى النهار خرجوا إلى البرِّيَّة فَرَعَوْا بقلها كما ترعى الدوابُّ الحشيش، وليس على بيوتهم أبواب، ولا عليهم ولاة ولا بينهم قضاة، ولا يتنازعون ولا يتباغضون ولا يتحاسدون ولا يقتتلون، وليس فيهم فقير ولا مسكين، فعجب الإسكندر منهم وقال: أما لكم ملك؟ قالوا: بلى رجل جالس على رأس هذا الجبل، فأرسل إليه فقال: ما لي إليك من حاجة. فركب الإسكندر وصعد إليه، فسلَّم عليه، وإذا رجل من أعقل الناس وأزهدهم، وبين يديه جماجم يقلِّبها بيده،

(١) انظر تفسير الثعلبي ٦/ ١٩٤، و«عرائس المجالس» ص ٣٦٤-٣٦٦، وما بين معكوفين منه.

ولم يكترث بالإسكندر ولم ينزعجْ له. فقال له الإسكندر: أخبرني عن هذه الحال التي أنتم عليها، فإني لم أجد في الأمم أحداً على مثلها، فقال: سلْ عما بدا لك، قال: ما أرى في أيديكم شيئاً من الدنيا، فهلَّا استمتعتم بالذهب والفضة وتعاملتم بهما؟ فقال: لأنا ما رأينا أحداً نال منهما شيئاً إلا وتاقت نفسه إلى ما هو أعظم منه، فقال: فما بالكم حفرتم قبوركم على أبواب بيوتكم؟ قال: لأنّا إذا نظرنا إليها قصرت آمالنا فنذكر الموت، قال: فما بال بيوتكم ليس لها أبواب؟ قال: ليس بيننا متهم ولا خائن، قال: فما بالكم ليس عليكم حاكم؟ قال: لأنَّا لا نتنازع في شيء، قال: فما بالكم ترعون البقل وتدعون الحيوانات؟ قال: نكره أن نجعل بطوننا قبوراً لها، وفي البقل كفاية ومقنع. قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قال: لأنا لا نتكاثر ولا نتفاخر. قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تتباغضون ولا تتحاسدون؟ قال: قد ألَّف الله بين قلوبنا. قال: فما بالكم ليس فيكم فظٌّ ولا غليظ؟ قال: تواضعنا لله فنزع الحسد والفظاظةَ منا. قال: فما بالكم أطول الناس أعماراً؟ قال: لأنا نعطي الحق ونحكم بالعدل. قال: فما بالكم لا تضحكون؟ قال: لا نغفل عمن لا يغفل عنا. قال: فما هذه الجماجم التي بين يديك؟ فبكى وقال: جماجم ملوك ملكوا هذه الأرض، أمَّا هذه الجمجمة فجمجمة ملكٍ مَلَكَ هذه الأرض مئة عام فعتا وبغى وتجبَّر وتكبَّر وظلم، فلمَّا رأى الله منه ذلك حسمه بالموت، فصار كالحجر الملقى قد أحصى عليه عمله حتى يجازيه به في معاده. ثم أشار إلى جمجمة أخرى وقال: هذه جمجمة مَلكٍ مَلكَ هذه الأرض مئة عام فعدل وأحسن وتواضع، ثم جاءه الموت فصيَّره إلى ما ترى. ثم مدَّ يده إلى جمجمة ذي القرنين وقال: وهذه الجمجمة تصير إلى ما صارت إليه هذه الجماجم، فانظر يا عبد الله، ما أنت صانع. فبكى ذو القرنين وقال: يا أخي، هل لك أن تصحبني فأتخذك وزيراً وأشركك في ملكي؟ قال: هيهات هيهات، فقال: ولم؟ قال: لأنَّ الناس كلهم لي صديق، وهم لك عدوٌّ. قال: ولم؟ قال: لرفضي الدنيا وليس في يدي منها ما أُعادَى عليه، وهي في يدك فيعادونك لأجلها. فقال: إن رأيت أن تمنَّ عليَّ بصحبتك فافعل، فقال: على شريطة، قال: وما هي؟ قال: تضمن لي شباباً لا هرم فيه، وصحة لا سقم فيها، وحياة لا موت معها. قال: لا أستطيع ذلك، قال: فاذهب عني ودعني

بين يدي مَن يقدر على ذلك. فانصرف عنه ذو القرنين باكياً[١].

ذكر واقعة جرت له مع أمِّه

حكى السدِّي عن أشياخه قال: كانت أمُّ الإسكندر عاقلة فاضلة حازمة، واسمها روفية ـ وقيل: روقية بالقاف ـ فلما فتح ولدها الدنيا ودانت له الملوك كتبت إليه: من روفية أمِّ الإسكندر الضعيف الذي بقوَّة ربِّه الأعظم قوي، وبقدرته قهر، وبعزَّته استعلى، يا بنيَّ، لا تدع للعجب فيك مساغاً، فإن ذلك يؤذيك، ولا للعظمة والكبرياء فيك مطمعاً فإن ذلك يضعك، وذلِّل نفسك للذي رفعك، واعلم أنك عن قليل محوَّل عمَّا أنت فيه كما تَحَوَّلَ من غيرك إليك، وإيَّاك والشُّحَّ فإنه يرديك، وعليك بنور العدل فإنه يهديك، وانظر ما جمعت من الأموال وكنزت من الكنوز فعجِّلْ حمله كله إليَّ على فرس مع رجل، وإيَّاك والعقوق المحرمة عليك، والسَّلام.

فلمَّا قرأ كتابها جمع أرباب دولته وعظماء مملكته وحكماء حضرته، وقرأ عليهم كتابها وقال: سمعاً وطاعة، فإنَّ طاعة الوالدة مفترضة، والسَّمع والطَّاعة للربِّ الأعظم ولها، ثم قال: كيف أحمل إليها أموالي وكنوزي على فرس؟ فاستعظموا ذلك فقال: إنَّما طلبت أسماء الكنوز وعددها، فكتب أساميها وبعث بها إليها مع رجل على فرس، فلمَّا قرأت كتابه فرحت حيث فهم قصدها[٢]. قال وهب: فإنَّ ذلك الكتاب عندهم مكتوب في خزائن الروم، فيه أسامي كنوزه وأمواله.

فصل في ذكر ما بنى من المدائن

قد ذكرنا أنه بنى الإسكندرية وهَرَاة وسمرقند ومرو وهَمَذَان وبرج الحجارة والدَّبُوسِيَة. وقد روي في مرو حديث، قال أحمد بن حنبل: حدَّثنا الحسن بن يحيى من أهل مرو بإسناده عن سهل بن عبد الله بن بُريدةَ عن أبيه عن جدِّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكونُ بَعدِي بعوثٌ كثيرةٌ، فكونُوا في بَعثِ خُراسانَ، ثم انزِلُوا مدينةَ

(١) انظر «المنتظم» ١/ ٢٩٨ـ٢٩٩.
(٢) انظر «المنتظم» ١/ ٢٩٣.

مَرو، فإنَّه بناها ذو القَرنَين ودَعا لها بالبَركةِ وأن لا يَضُرَّ أهلَها سُوءٌ»[١].

وقال الكلبي: أوَّلَ من عمِل جسراً على جَيحون الإسكندر، لأنه لما عاد من الظلمات قصد خراسان فوصل إلى نهر بَلخ، فلم يقدر على العبور عليه، فأمر بشق الخشب الغلاظ وترقيقها، وأمر الحدادين فضربوا المسامير، وعمل السفن الكبار، وقيل: كانت خمس مئة سفينة، ثم أمر الحبالين ففتلوا الغلاظ من الليف والقنب، وعمل الجسر في أضيق مكان، ووضع عليه السلاسل وألقى على السفن التراب والحشيش، وأقام أياماً حتى عبر عسكره من الجانب الشرقي إلى الغربي، ودخل خراسان، ولم يخرج من المشرق حتى هدم بيوت النيران ودعا إلى التوحيد والإيمان، وجاهد الكفار وجمع الأموال ليقوي بها الجيوش على الجهاد، لا حرصاً على الدنيا. قال ابن عباس: ولو لم يكن له إلا بناء السد الذي حفظ به المسلمين، وحماهم به من يأجوج ومأجوج.

وقال السدِّيُّ: لما رجع من المشرق قصد بلاد الروم، فدفن بها الأموال وكنز الكنوز، وكان يكتب على كل كنز طلسماً ويذكر عدد ما فيه.

فصل في وفاته

قال علماء السير: لما علم ذو القرنين أنَّ عين الحياة قد فاتته وحظي بها الخضر اغتم غمّاً شديداً فقال له الحسَّاب: لابأس عليك، فإنك تعمِّر طويلاً ثم تموت على أرض من حديد، وفوقك سماء من خشب. فلمَّا عاد من الروم قصد أرض بابل، فبينما هو يسير على دابته إذ رعف فسقط عن فرسه، فبسط له درع من حديد، وكانت صفائح صفائح فنام على الدرع، فآذته الشمس فجاؤوا بترس فأظلوه به، فنظر فإذا تحته حديد وفوقه خشب، فأيقن بالموت فأمر أن يُكتَبَ إلى أمِّه كتاب تعزية عن نفسه[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٠١٨)، وهو حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ كما قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» ١/ ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) انظر «المنتظم» ١/ ٣٠٠.

ذكر الكتاب

أنبأنا أبو اليُمن زيد بن الحسن الكندي رحمه الله بإسناده عن عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدُّنيا القرشي من كتاب «الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان»، قال: حدَّثني أبو يوسف يعقوب بن عبيد بإسناده إلى عبد الله بن زياد المدني عن بعض من قرأ الكتب: أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض ومغاربها بلغ أرض بابل، فمرض بها مرضاً شديداً أشفق من مرضه أن يموت، بعدما دَوَّخَ البلاد وحواها، واستعبد الرجال وجمع الأموال، فدعا كاتبه وقال له: خفِّفْ عليَّ المؤنة بكتاب تكتبه إلى أمي تعزِّيها بي، واستعنْ ببعض علماء فارس، ثم اقرأه عليَّ، فكتب الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من الإسكندر بن قيصر رفيق أهل الأرض بجسده قليلاً، ورفيق أهل السماء بروحه طويلاً، إلى أمه روفية ذات الصفا التي لم تتمتع بثمرتها في دار القرب، وهي مجاورته في دار البُعد عما قليل، يا أمتاه، يا ذات الحلم، أسألك برحمي ووِدِّي وولادتك إيَّاي هل وجدت لشيء قراراً ثابتاً أو خيالاً دائماً؟ ألم تَرَيْ إلى الشجرة كيف تنضر أغصانها ويَخرج ثمرها وتلتف أوراقها، ثم لا يلبث الغصن أن يتهشَّم والثمرة أن تساقط والورق أن يتناثر؟! ألم تَرَيْ إلى النبت الأزهر يصبح نضيراً ويمسي هشيماً؟ ألم تَريْ إلى النهار المضيء كيف يخلفه الليل المظلم؟ ألم تريْ إلى القمر الباهر ليلةَ بدره كيف يغشاه الكسوف؟ ألم تري إلى شهب النَّار الموقدة ما أسرع ما تخمد؟ ألم تري إلى عذب المياه الصافية ما أسرعها إلى البحور المغيرة؟ ألم تري إلى هذا الخلق قد امتلأت بهم الآفاق واستقلَّت به الأشياء وولهت به الأبصار والقلوب؟ إنَّما هما شيئان: إمَّا مولود وإمَّا ميِّت، وكلاهما مقرون به الفناء. ألم تري أنه قيل لهذه الدار: روحي بأهلك فإنك لستِ لهم بدار، يا والدةَ الموت، ويا مورثَةَ الأحزان، ويا مفرِّقة بين الأحباب، ويا مخربة العمران؟ ألم تري أنَّ كل مخلوق يجري على ما لا يدري؟ وأنَّ كلَّ واحد مستيقن منهم غير راض بما هو فيه، وذلك لأنه منزل لغير قرار؟يا أمَّاه، هل رأيت معطياً لا يأخذ، ومقرضاً لا يتقاضى، ومستودعاً لا يستردُّ وديعته؟ يا أمَّاه، إن كان أحد حقيقاً بالبكاء فلتبكِ السماوات على نجومها، والحيتان على بحورها، أو البحور على مائها، وليبك الجوُّ على طائره، والأرض على أولادها، والنبت الذي يخرج منها،

وليبك الإنسان على نفسه التي تموت في كل ساعة وعند كل طرفة عين. يا أمَّاه، إن الموت لا يدعني من أجل أني كنت عارفاً أنه نازل بي، فلا يتعبْكِ الحزنُ فإنك لم تكوني جاهلة بأني من الذين يموتون. يا أمتاه، إني كتبت كتابي هذا وأنا أرجو أن تعزَّي به ويحسن موقعه منك، ولا تخلفي ظني يا أمتاه، إني قد علمتُ يقيناً أن الذي أذهبُ إليه خير من مكاني الذي أنا فيه، أطهر من الهموم والأحزان والسقم والنصب والأمراض فاغتبطي بمذهبي واستعدِّي في إجمال الثناء عني. إن ذكري من الدنيا قد انقطع بما كنت أُذْكَرُ به من الملك والرأي فاجعلي لي من بعدي ذكراً أذكَرُ به في حلمك وصبرك وطاعة الله والرضى بما يقول الحكماء. يا أمتاه، إنَّ الناس سينظرون إلى هذا منك، وهم بين راض وكاره ومستمع وقائل، فأحسني إليَّ وإلى نفسك في ذلك. يا أمتاه، السلام في هذه الدار قليل زائل فليكن عليك وعليَّ في دار الأبد السلام الدائم. وذكر ألفاظاً اختصرتها[1].

وفي رواية ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن لهيعة قال: لما حضرت الإسكندرَ الوفاة كتب إلى أمِّه: يا أمَّاه، اصنعي طعاماً واجمعي من قدرتِ عليه من نساء المملكة، ولا تأكل منه امرأة أصيبت بمصيبة. فلمَّا قرأت كتابه صنعت طعاماً عظيماً، وجمعت نساء المملكة، وقالت: لا يأكلْ من طعامي من أصيبت بمصيبة، فامتنعن من الأكل، فقالت: أكلكن ثكالى؟ قلن: نعم، والله ما فينا إلَّا من مات أبوها أو أخوها أو ابنها، ففطنت وقالت: إنا لله، هلك والله ولدي، وما كتب إلي بهذا إلا تعزيةً لي[2].

واختلفوا في أي مكان توفي على أقوال:

أحدها: بدومة الجندل.

والثاني: بشهرزور لما عاد من المشرق.

والثالث: بأرض بابل.

وكان قد تزهد وترك الدنيا وهو الأصح، والذي مات بشهرزور الإسكندر الثاني لما نذكر.

---

(١) «الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان» (٦٦)، وأخرجه ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٣٠٠.

(٢) «الاعتبار» (٦٨)، وذكره ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٣٠٢.

ولما مات ببابل جعل في تابوت وطُلِيَ بالصبر والكافور، وحُمِلَ إلى الإسكندرية، قال ابن أبي الدنيا بإسناده عن محمد بن سليمان الكلبي قال: لما مات الإسكندر خرجت أمُّه في أحسن زيٍّ نساء أهل الإسكندرية حتى وقفت على تابوته[1] فقالت: واعجباً ممن بلغت السماء حكمته، وأقطارَ الأرض سلطانه، ودانت الملوك عنوة له، أصبح اليوم نائماً لا يستيقظ وصامتاً لا يتكلَّم، محمولاً على يدي من لا يناله بِضُرِّهِ، ألا هل مبلِّغ عني الإسكندر بأنه وعظني فاتعظت، وعزَّاني فتعزَّيت، وصبَّرني فصبرت، ولولا أني لاحقة به ما فعلت، فعليك السَّلام يا بنيَّ، حيّاً وهالكاً، فنعم البُنَي كنت، ونعم الهالك أنت.

وفي رواية: ولولا علمي بأني لاحقتك لما صبرتُ، يا إسكندر، عليك السلام.

ثم أمرت به فدفن.

واختلفوا في سنِّه: فذكر جدِّي رحمه الله في كتاب «أعمار الأعيان» أنه عاش ألفاً وست مئة سنة قال: وأهل الكتاب يقولون: عاش ثلاثة آلاف سنة[2].

قلت: ولا يستبعد ذلك، فقد عاش عُوج بن عناق ثلاثة آلاف وست مئة سنة ، حكاه جدي في «أعمار الأعيان» عن محمد بن إسحاق[3]، وسنذكره في سيرة موسى عليه السلام.

قال ابن إسحاق: ولد في دار آدم عليه السلام.

وقال مجاهد: عاش الإسكندر ألف سنة مثل آدم، والله أعلم.

فصل في ذكر كلام الحكماء على تابوته

قال ابن أبي الدنيا بالإسناد الماضي عن المبارك بن فضَالة عن الحسن، قال: كان الإسكندر أول من خَزَّن الأموال تحت الأرض، فلمَّا حضرته الوفاة دعا ابنه الأكبر، وكان ولي عهده، فقال له: يا بني، إني أراني لما بي، فإذا أنا مت فابعث إلى حُذَّاق

---

(١) في (ل): «ناموسه». والمثبت من (ب)، وانظر «الاعتبار» (٦٧).

(٢) «أعمار الأعيان» ص ١٢٨.

(٣) «أعمار الأعيان» ص ١٣٠.

الصاغة فأدخلهم الخزائن فلينتقوا جيِّد هذا الذهب على أعينهم، ثم ليصوغوا تابوتاً، ثم أدخلني فيه، ثم ضعني في وسط قصري، وابعث إلى أهل مملكتك وإلى العلماء منهم فليتكلم كلُّ واحد منهم بما يعلم.

فلمَّا هلك الإسكندر فعل ابنه ما أمره به أبوه، وبعث إلى العلماء، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، فأقبلوا حتى أطافوا بالتابوت، كأنهم علموا ما يُراد منهم. فقال لهم ابنه: قوموا فتكلَّموا بما تعلمون. فقام الأول فقال وقد وضع يده على التابوت: سلك الإسكندر طريق مَن قُبِر، وفي موته عبرة لمن بقي. ثم قام الثاني فقال: هلك الإسكندر ومن يملك من بعده يهلك كما هلك. ثم قام الثالث وقال: خلَّفَ الإسكندر ملكه لغيره يحكم فيه بغير حكمه. ثم قام الرابع فقال: تفرَّقنا لموتك وقد فارق الإسكندر من كان به يغتبط. ثم قام الخامس فقال: أصبح الإسكندر مشتغلاً بما عاين وهو بالأعمال يوم الجزاء أشغل. ثم قام السادس وقال: إسكندر كان يُخزِّنُ الذهب في الخزائن فأصبح مخزوناً في الذهب. ثم قام السابع فقال: من كان يرجو روح الآخرة فليعمل عملاً يُقبلُ منه ويُرفع. ثم قام الثامن فقال: إسكندر صرت حديثاً وأنا مثلك وشيكاً. ثم قام التاسع فقال: إسكندر وردتَ يوم وردت ناطقاً وصدرتَ يوم صدرت صامتاً. وقام العاشر فقال: خَضَعَتِ الآفاق لموتك وفيك عبرةٌ لمن أبصر. ثم قام الحادي عشر فقال: أرى مصيبتك بعد نعمة وكلُّنا ينزل به ما نزل بك. ثم قام الثاني عشر فقال: هذا آخر عهدنا بك، مُنِعتَ جواب من يخاطبك. ثم قام الثالث عشر فقال: السَّلام على من رضي دار السلام وأُدخِلَ في دار السلام[1].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني عون بن إبراهيم بإسناده إلى زهير بن عبَّاد أنه قال: لما حضرتْ ذا القرنين الوفاةُ كفَّنوه ثم وضعوه في تابوت من ذهب، فقالت الحكماء: تعالَوا حتى نتكلمَ عليه ونعتبر، فقال أولهم: إن هذا الشَّخص كان لكم واعظاً ولم يعظكم بأبلغ من مصرعه هذا. وقال الثاني: إنَّ الإسكندر لما فارق الأنجاس صارت روحه إلى روح الطاهرين فيا طوبى له. وقال الثالث: من كانت حياته لله فإنَّ وفاتَه لله،

(١) «الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان» (٦٩).

وعلى الله تمام كرامته. وقال الرابع: هذا الذي سار إلى مشارق الأرض ومغاربها يقتل الرِّجال مخافة الموت ولو تركهم لماتوا. وقال الخامس: هذا الذي كان يخبأ الذهب فالذهب اليوم يخبأه. وقال السادس: ويل لأهل العافية في هذه الدَّار إن كان حظهم منها إلى غير العافية. وقال السابع: لا تكثروا التلاوُمَ بينكم واستمسكوا بالتوبة فكلكم خاطيء. وقال الثامن: من كان يعمل اليوم بالخطيئة فإنه غداً عبد الخطيئة. وقال التاسع: لا تعجبوا مما تفعلون ولكن اعجبوا مما يُفعل بكم[١].

قال ابن أبي الدنيا: وزاد غير زهير بن عباد: وقال آخر: عجبت من سالِك هذا السبيل كيف تَشرَهُ نفسه إلى جمع الحطام الهامد والهشيم البائد، الخاذل مُقتنيه عند الحاجة إليه. وقال آخر: اقبلوا هذه المواعظ وأكثروا ذِكرَ هذا السبيل الذي أنتم سالكوه. وقال آخر: هذا ذو الأسارى قد أصبح أسيراً. وقال آخر: كان الإسكندر كحُلم نائمٍ انقضى أو كظِلٍّ غَمامةٍ انجلى. وقال آخر: لئن كنت أمس لا يأمنك أحد لقد أصبحت اليوم لا يخافُكَ أحد. وقال آخر: هذه الدنيا الطويلة العريضة طويت في ذراعين. وقال آخر: لئن كنت وردتَ علينا قويًّا ناطقاً لقد صَدَرتَ عنَّا ضعيفاً صامتاً. وقال آخر: ما سافر الإسكندر قبل هذه السفرة بلا زاد ولا أعوان. وقال آخر: كلنا غافل عما غفل عنه الإسكندر حتى نلاقي مثل ما لاقى. وقال آخر: إن من العجب أنَّ القوي قد غُلِبَ، وأنَّ الضعفاء لاهون مغترون. وقال آخر: إن بارق هذا الموتِ لبارقٌ ما يخلف، وإن مخيلته لا تخلف. وقال آخر: انطوت عن الإسكندر آماله التي كانت تغرُّهُ ونزل به أجله الحائل بينه وبين أمله. وقال آخر: يا ويحَ الموت الذي لا يُشتهى ما أقهَرَهُ للحياة التي لا تُمَلُّ، ويا ويحَ الحياة التي لا تُمَلُّ ما أذلَّها للموت الذي لا يُحَب. وقال آخر: قد كان صوتك مرهوباً وملكك عالياً، فأصبح الصوتُ قد خَفَتَ وانقطعَ، والمُلك قد اتضع. وقال آخر: لقد انتقصك في وجهك من لم يتجاسرْ أنه يغتابك من خلفك.

قلت: وقد جاء عن الإسكندر الثاني من هذا الجنس، وسنذكره في سيرته، إن شاء الله تعالى.

---

(١) «الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان» (٧٠).

قِصَّة يُوسُف عليه السَّلام[1]

قال مقاتل: ذكر الله تعالى يوسف في سبعةٍ وعشرين موضعاً. وقد ذكرنا أنَّ أسماء الأنبياء كلها أعجمية ولهذا لم تنصرف[2].

وذكر الثعلبي وقال: اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو اسم عبري. وقال بعضهم: هو اسم عربي. قال: وسمعت أبا القاسم الحَبيبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا الحسن الأقطع ـ وكان حكيماً ـ يقول وقد سئل عن يوسف: إنه من الأسف وهو الحزن، والأسيف العبد، وقد اجتمعا في يوسف، فلذلك سمي يوسف[3].

قلت: لو كان حكيماً ما فسَّر أسامي الأنبياء بهذا. وقوله: هو من الأسف والعبد فليس كذلك، لأن أهل اللغة قد اتفقوا على أنه اسم أعجمي، ذكره ابن الجواليقي في «المعرب» وغيره[4]، وأن يعقوب سماه به من صغره.

وقد جاءت أخبار في فضل يوسف، قال البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بإسناده عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «الكَرِيمُ بنُ الكَرِيمِ بنِ الكَرِيمِ بن الكريم، يُوسفُ بنُ يَعقُوبَ بنِ إسحاق بنِ إبراهيمَ»، انفرد بإخراجه البخاري[5].

وقال أحمد بإسناده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطِيَ يُوسفُ شَطرَ الحُسنِ»[6].

ذكر قصته

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[يوسف: ٣] الآيات. وقال سعد بن

(١) انظر قصته في: المعارف ٤١، و«تاريخ الطبري» ١/ ٣٣٠، وتفسيره ١٥/ ٥٤٩ و١٦/ ١ فما بعدها، و«البدء والتاريخ» ١/ ٦٦، و«عرائس المجالس» ص ١٠٩، و«المنتظم» ١/ ٣١٠، والتبصرة ١/ ١٧٨، وزاد المسير ٤/ ١٨٠، وتفسير ابن كثير، و«البداية والنهاية» ١/ ٤٥٦.

(٢) انظر ذكر قصة آدم عليه السلام.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٠.

(٤) «المعرب» ص ٤٠٣.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٨٢).

(٦) أخرجه أحمد (١٤٠٥٠).

أبي وقاص: أنزل القرآن على عهد رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فكأنهم ملُّوا، فقالوا: يا رسول الله، لو حدَّثتنا، فأنزل الله ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[الزمر: ٢٣] فقالوا: لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ فقالوا: لو وعظتنا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الحديد: ١٦][١].

واختلف العلماء لم سُميت سورةُ يوسفَ أحسنَ القصص على أقوال:

أحدها: لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن ما تتضمن، لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة، والجن والإنس، والأنعام والطيور، وسيرَ الممالك والملوك، والعلماء والرجال، والنساء وحِيَلِهنَّ ومكرِهنَّ، وذكر التوحيد والفقه، والبكاء والفرح، والسجن والمسجونين، وتعبير الرؤيا وتدبير المعاش، وذكر المحب والمحبوب، والبعد واللقاء، والسياسة والمعاشرة وحسن المحاورة، والصبر على الأذى والعفو والكرم ونحو ذلك، فكانت أحسن القصص لما فيها من المعاني الجزيلة، والفوائد الجليلة، التي تصلح لمكارم الأخلاق، وذكر التلاقي بعد الفراق، قاله ابن عباس، وابن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم.

والثاني: لامتداد الأوقات فيما بين مبتداها إلى منتهاها، واختلفوا فيه، قال ابن عباس: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه وأبيه سبعون سنة جرى فيها الغرائب.

وقال الحسن البصري: ثمانون سنة.

وقال مجاهد: أربعون سنة، وهو رواية عن ابن عباس وعليه أكثر المفسرين.

والثالث: لأن يوسف كان أحسن البشر، ونسبه أعرق الأنساب، ورؤياه أحسن الرؤيا، وعبارته أحسن التعبير، وبشارته أحسن البشرى، وحاله أحسن الأحوال، وبرهانه أحسن البراهين، وشاهده أحسن الشواهد، ومُلكه أحسن المُلك، ودعاؤه أحسن الأدعية، وتزويجه أحسن التزويج، وعصمته أحسن العِصَم، وعاقبته أحسن العواقب، قاله الربيع بن أنس.

وأحسن القصص بمعنى أعجب[٢].

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ٥٥٣، وانظر الدر المنثور ٤/ ٣.

(٢) انظر تفسير الثعلبي ٥/ ١٩٦ـ١٩٧، وعرائس المجالس ١١٠، وزاد المسير ٤/ ١٧٨.

وقد ذكرنا تزويج يعقوب براحيل أم يوسف(١).

وقال جدِّي في «التبصرة»: خرج يعقوب من الشام هارباً من أخيه عيصو إلى خاله لابان، فزوجه ابنته ليّا فولدت له روبيل ثم شمعون ولاوي ويشجب ويهوذا وزبالون، ثم توفيت فزوجه أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، ومعناه: ابن الوجع لأنها ماتت في نفاسها منه، ووُلد له من غيرها أربعة أولاد، فجميع أولاد يعقوب اثنا عشر ولداً، وهم الأسباط(٢). وقد ذكرناه في ترجمة يعقوب عليه السلام(٣).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾[يوسف: ٤] فإن قيل: فلم قال: رأيتهم لي ساجدين ولم يقل: رأيتها، وهي مؤنثة؟ فالجواب: أن الهاء والميم والياء والنون من كنايات ما يعقل، والسجود مما يعقل، فعبر عنها بكنايتها كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾[النمل: ١٨](٤).

ذكر رؤيته الكواكب

واختلفوا فيها على أقوال:

أحدها: أنها الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ وعطارد والزهرة والفرقدان وسهيل والنسران، ذكره مقاتل في كتاب «المبتدأ» له.

وحكى أبو إسحاق الثعلبي عن السُّدِّي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال: أتى النبيَّ ﷺ رَجلٌ من اليهودِ يُقالُ له: بُستَان، فقال: يا محمد، أخبرني عن الكَواكبِ التي رَآها يُوسفُ سَاجدة له، ما أسماؤُهَا؟ فَسكتَ رسولُ اللهِ ﷺ ولم يُجبهُ بشيءٍ، فَنزلَ جِبريلُ عليه السَّلامُ فأخبَرهُ بِها وبِأسمَائِهَا، فقالَ له رسولُ اللهِ ﷺ: «هَل أنتَ مُؤمِنٌ إن أخبرتُكَ بأسمائِها»؟ قال: نعم، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «هي حُرثان والطَّارقُ والذيَّالُ

(١) انظر فصل في ذكر يعقوب عليه السلام.
(٢) «التبصرة» ١/ ١٧٨.
(٣) انظر فصل في ذكر أولاد يعقوب عليه السلام.
(٤) انظر تفسير الطبري ١٥/ ٥٥٦، وتفسير الثعلبي ٥/ ١٩٧، وزاد المسير ٤/ ١٨٠.

وذو الكتفين وقَابسُ ووثَّابُ وعمودانِ والمصبحُ والقيلو[١] والضَّرُوحُ والفَرْغُ والشَّمسُ والقَمرُ، نزلت من السَّماءِ فسَجَدتْ له، جاءني جبريلُ فأخبرَني بأسمائِها، فقال اليهودي: إي واللهِ إنَّها لأسماؤُها».

قلت: ولم يذكر أبو إسحاق الثعلبي ما في هذا الحديث، وقد ذكره جدِّي رحمه الله في «الموضوعات»، ثم قال جدِّي: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، في إسناده الحكم بن ظهير، قال ابن معين: الحَكم ليس بشيء، وقال النسائي: متروك، وقال أبو حاتم بن حِبَّان: يروي الموضوعات عن الثقات، وقال البخاري: لا يُكتب حديثه البتة، وقال محمد بن طاهر: كان الحكم كذَّاباً، وقال جدي: إنما قصد واضعه شينَ الإسلام بمثل هذا[٢]. قلت: وليس في السماوات ما يُعرف من هذه النجوم إلا الطَّارق.

والثاني: أنه رأى كواكب مجهولة، قاله مجاهد، بدليل قوله: «أحد عشر كوكباً» منكَّرة.

والثالث: بنات نعش والجَدِي والسُّها والشّعريين، قاله الربيع.

وقال ابن عباس: الشمس أبوه والقمر خالته، لأن أمَّه قد ماتت، والكواكب إخوته لأنهم كانوا أحد عشر كوكباً.

واختلفوا متى رأى هذه الكواكب على قولين:

أحدهما: أنَّه كان ابن اثنتي عشرة سنة، قاله مقاتل.

والثاني: سبع عشرة سنة، قاله مجاهد.

وحكى الثعلبي عن وهب بن منبه قال: كان يوسف قد رأى وهو ابن سبع سنين أنَّ إحدى عشرة عصاً طوالاً مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصا صغيرة وثَبت عليها فابتلعتها، فذكر ذلك لأبيه فقال له: إيَّاك أن تذكر هذا لإخوتك. ثم رأى الكواكب بعد اثنتي عشرة سنة فقصَّها على أبيه، فقال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ

(١) كذا في النسختين (ب) و(ل)، والذي في المصادر: والفيلق، انظر تفسير الطبري ١٥/ ٥٥٥، والثعلبي ٥/ ١٩٧ـ١٩٨، وعرائس المجالس ١١٣، وتفسير ابن كثير ٤/ ٤٦٨، والبداية ١/ ٤٦١، وهو حديث ضعيف.

(٢) «الموضوعات» (٣٠٢).

كَيْدًا﴾[يوسف: ٥] أي: يبغونك الغوائل ويحتالون لهلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يوسف: ٥] ثم قال له يعقوب: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: تعبير الرؤيا، وسمي تأويلاً، لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يعني الأسباط ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بالخُلَّة وغيرها، وإسحاق بالنجاة من الذبح[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٦].

قال السُّدِّي: وبلغ إخوتَه حديث الرؤيا فقالوا: ما رضي أن يسجد له إخوته حتى سجد له أبوه؟! فحسدوه.

وقال مقاتل: لو حفظ وصية أبيه في قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ لما جرى عليه ما جرى، ولكن الإنسان حريص على ما مُنِعَ منه وخصوصاً الصبيان والنساء.

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾[يوسف: ٧] أي: في خبره وخبر إخوته، وقد ذكرنا أسماءهم على وجه التفصيل، فنذكرها ها هنا على وجه الإجمال. قال مقاتل: أسماؤهم روبيل وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، ويسَّخر، وأمهم ليَّا بنت لابان، ولابان خال يعقوب. ووُلِد له من سُرِّيتين وهبتهما له ليَّا، اسم إحداهما زلفى، والأخرى بلهة أربعة نفر: دان ونفثالي وجاد[2] وأشر. ثم توفيت ليَّا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين.

و«الآيات»: العلامات، والمراد بالسائلين: اليهود، سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فأخبرهم بها كما في التوراة، فعجبوا وقالوا: من أخبرك بهذا؟ قال: «أخبرني به ربي».

وقال مقاتل: وكانوا أنبياء.

قلت: وقد وَهِمَ مقاتل لأنهم ارتكبوا الكبائر، وإنما قيل إنهم نُبِّؤوا بعدما دخلوا مصر وتابوا.

---

(١) تفسير الثعلبي / ١٩٨، والمصنف ينقل عنه تفسير الآيات فليرجع إليه، ولن أحيل عليه بعد هذا.
(٢) في (ل) و(ب): وباد.

واختلفوا في العُصبَة: فقال الزجاج: هي ما بين الواحد إلى العشرة، وقال غيره: ما بين الواحد إلى خمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[يوسف:٨] بإيثار يوسف وبنيامين علينا ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قال وهب: القائل لهذا شمعون، وقيل: روبيل، وقيل: دان ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: في أرضٍ أخرى ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ عن شغله بيوسف وأخيه ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾[يوسف:٩] أي: صلح لكم ما بينكم وبين أبيكم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهو يهوذا، وكان ابن خالة يوسف وأحسنهم فيه رأياً ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن قتله عظيم ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ الْجُبِّ﴾ أي: في قعره وظلمته بحيث يغيب خبره و«الغيابة»: كل شيء غيَّب. و«الجُب»: البئر. وقال مقاتل: هذا الجب على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب بأرض الأردن. وبعضهم قال: بين مدين ومصر. وبعضهم قال: ببيت المقدس.

قوله: ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ أي: يأخذه، والسيَّارَة: من يمرُّ في الطريق، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[يوسف:١٠] لتستريحوا منه، وقيل معناه: إن كنتم فاعلين ما أُشير به. وقيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك عن إخوة يوسف، وقيل أولاد يعقوب.

ثم اتفقوا على التفرقة بينه وبين ولده بضربٍ من الحيلة حسداً منهم فقالوا: ﴿يَٰأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰصِحُونَ﴾[يوسف:١١] بالحفظ والحياطة حتى نردَّه إليك ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:١٢].

فإن قيل: فكيف قالوا يلعب وهم أنبياء؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنهم لم يكونوا أنبياء حينئذٍ.

والثاني: أن اللعب بمعنى النزهة، وذلك جائز. على أنهم قد ارتكبوا من يوسف ما هو أعظم من اللعب، لما نذكر.

وقيل معنى (يرتع): يرعى غنمه. وقال مجاهد: قالوا ليوسف: أمَا تخرج معنا فنلعب ونتصيد؟ قال: بلى، قالوا: فاسأل أباك، فسأل فمَنَعه، فقال: يا أبة، قد أرى من إخوتي اللطفَ واللين، فأذِنَ له على كُرهٍ. ثم إنهم ألحُّوا على أبيهم فقال: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾[يوسف:١٣] أي:

لا تشعرون.

فإن قيل: فلم خصَّ يعقوبُ الذئبَ دون سائر الوحوش؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن تلك الأرض كانت كثيرة الذئاب.

والثاني: لأن يعقوب رأى في منامه كأن الذئب شدَّ على يوسف وكان يحذره. وقال مقاتل: كان ذلك من باب معجزات يعقوب، فكأنه يقول: كأني بكم قد جئتم غداً وقلتم أكله الذئب. فإن قيل: فذكْره الذئب تلقينٌ لهم، وكانوا لا يدرون، فقد عرَّفهم العلَّة، قلنا: بل هو تنبيه على ما في نفوسهم وإعلام لهم بما قد عزموا عليه.

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ عشرة رجال ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] أي: ضَعَفَةٌ عَجَزة مغبونون. وقال أبو عبيد: في الكلام محذوف وتقديره: لئن أكله الذئب الذي رأيته في منامك إنَّا إذن لخاسرون، فأرسله معهم.

ذكر خروجه معهم

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟﴾ أي: عزموا على ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ، وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: ناديناه. فإن قيل: ما بعث الله نبياً إلا بعد الأربعين، فكيف قال: وأوحينا إليه؟ فالجواب: أنَّ الوحي عبارة عن الإلهام ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[النحل: ٦٨] فألهمه الله لتصدُقنَّ رؤياك ولتخبرنَّ إخوتك بصنيعهم إذا دخلوا عليك وأنت ملك مصر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف: ١٥] ومعنى «لتنبِّئنَّهم» أي: لتخبرنهم في المستقبل، وهذا معنى قول ابن عباس. وقال مقاتل: معناه وهم لا يشعرون أنك يوسف، لما نذكر في آخر القصة.

وحكى السُّديُّ عن ابن عباس قال: لما خرج معهم يوسف أظهروا له الكرامة أولاً، فلما أصحروا أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة، وجعلوا يضربونه، وكلما لجأ إلى واحدٍ ضربه، فكادوا يقتلونه، وجعل يصيح: يا أبتاه، لو ترى ما يَصنَعُ بابنكَ بنو الإماء لعزَّ عليك. ومعنى قوله: بنو الإماء لأن بعضهم كان من الأَمَتين اللتين وهبتهما ليَّا ليعقوب. فأخذه روبيل فضرب به إلى الأرض، ويوسف يبكي ويقول: يا أبة، ما أسرع ما نسوا عهدك وضيَّعوا وصيتك. فجثم روبيل على صدره ليذبحه فزجره يهوذا وقال:

أين المواثيق والعهود؟ فتركه وهو يصيح: يا أبة، لو رأيت ما أنا فيه لأحزنك وساءك. ثم أجْمعوا على أن يُلقوه في غيابة الجب، فلمَّا دلُّوه جعل يتعلق بجوانب البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه، رُدُّوا عليَّ قميصي أُواري به عورتي، فقال له روبيل، وكان عليه أشدَّ من الباقين: يا ابنَ راحيل، يا صاحب الأحلام، ادعُ الشمسَ والقمر والكواكبَ تخلصك. ثم دلُّوه في البئر، فلما بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، وكان في البئر ماءٌ فوقع فيه، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها، وجعل يبكي، فنادوه فظنَّ أنها رحمة له، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فمنعهم يهوذا، وكان أحنَّ عليه منهم لأنه كان ابن خالته، وكان يأتيه بطعام ويتفقد أحواله. قال ابن عباس: وأمر الله الصخرة فارتفعت من الأرض ووقف عليها وهو عريان، وكان إبراهيم لما ألقي في النار جرَّدوه من ثيابه فجاءه جبريل بقميص من حرير الجنَّة فألبسه إيَّاه، فلمَّا توفي إبراهيم ورَّثه إسحاق، فلما مات إسحاق ورَّثه يعقوب، فلما شبَّ يوسف جعل يعقوبُ القميصَ في تعويذٍ وجعله في عنقه، فلما أُلقي في الجبِّ جاءه جبريل فأخرج القميص من التعويذ فألبسه إيَّاه. وأضاءَ له الجبُّ وعَذُبَ ماؤه، وأَنِسَ بجبريل، فلما أراد جبريل أن ينصرف قال له يوسف: إني أستوحش، فقال: إذا استوحشت فقل: يا صريخَ المستصرخين، ويا غوث المستغيثين، ويا مفرِّج كرب المحزونين، قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري، فاجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً. ـ وفي رواية: يا قريباً غير بعيد، ويا شاهداً غير غائب ـ فلما قالها حفَّتِ الملائكة بالجبِّ، واستأنس. وقيل: إنه ما بات فيه بعدما دعا بهذا الدعاء[1]. وقال ابن عباس: أقام في الجب ثلاثة أيام وإخوته حول الجب يرعون أغنامهم، ويهوذا يحرسه منهم لئلا يقتلوه.

واختلفوا في مبلغ سنِّه حين ألقي في الجب على أقوال:

أحدها: أنه كان له اثنتا عشرة سنة، قاله مقاتل.

والثاني: سبع عشرة سنة، قاله مجاهد.

والثالث: ثمان عشرة سنة، قاله الربيع. والأول أظهر.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٥ـ١١٦.

وقال السُّدِّي: ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءً يَبۡكُونَ ١٦﴾[يوسف:١٦] وكان وقت العتمة، وإنما جاؤوا في الليل ليكونوا أجرأ على الكذب في الظلمة بخلاف الضوء ـ ولهذا قيل: لا تطلب الحاجةَ في الليل فإن الحياءَ في العين، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار فلا تقدر على إتمام العذر ـ فلما سمع يعقوب أصواتهم فزع وقال: ما الذي بهم؟ وأين يوسف؟ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي: يسابق بعضنا بعضاً ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: عند ثيابنا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أي: بمصدق ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[يوسف:١٧] لسوء ظنك بنا وتهمتك إيَّانا في يوسف، وهذا قميصه ملطَّخ بالدم، وأخرجوا القميص، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ أي: هو كذب، وقيل: مكذوب لأنه لم يكن دم يوسف وإنما كان دمَ سخلةٍ. وقرأت عائشة: «بدم كَدِب» ـ بدال مهملة ـ أي: طري. فلما رأى يعقوب القميصَ صحيحاً قال: تالله ما رأيت ذئباً أحلم ولا أشفق من هذا، أكل ابني ولم يخرقْ قميصه، فعلم كذبهم، فقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:١٨] أي: زيَّنَتْ وحسنت ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ أي: فصبري صبر جميل(١). وقال الحسن: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه ولا شكوى ولا تعبيس وجهٍ ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨] من الكذب والبُهت.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ أي: رفقة مارة من قِبل مديَن يريدون مصر فأخطؤوا الطريق فنزلوا قريباً من الجب، وكان بعيداً من العمران، وكان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقي فيه يوسف، فأرسلوا رجلاً من العرب من أهل مدين يقال له: مالك بن دُعْر ليطلب لهم الماء، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ والوارد الذي يتقدم الرفقة إلى الماء ليهيء لهم الأرشِيَة والدلاء للبئر.

واختلفوا في اسم الوارد على أقوال:

أحدها: أنه مالك بن دُعْر من العرب. وقال الثعلبي: هو من ولد إبراهيم عليه السلام.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٧.

والثاني: أن اسمه عنقود، قاله مقاتل.

والثالث: مخلب بن رعويل، قاله وهب بن منبه.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾[يوسف: ١٩] أي: أرسلها، فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام من أحسن الغلمان. قال الثعلبي: قال النبيُّ ﷺ: «أُعطيَ يُوسُف عليه السلام شَطْرَ الحُسْنِ، والنِّصفُ الآخرُ لسائرِ النَّاسِ»[١].

قال: وقال كعب الأحبار: كان يوسف حسنَ الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مُستوي الخَلق، أبيض اللون، غليظ الساقين والساعدين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، وكان إذا تبسم رأيت النور في ضواحكه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع النور من ثناياه، وكان جبينه كضوء النهار، وكان يشبه آدم يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيبَ المعصية، وقيل: إنه ورث الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سُدس الحسن[٢].

قلت: وقد روي في حُسنه حديث: أنبأنا جدِّي رحمه الله قال: حدثنا محمد بن ناصر بإسناده عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كَانتِ الحُبلى لَترى يُوسُفَ فَتَضعُ حَملَها». إلا أنه حديث لا يصحُّ، ذكره جدِّي في «الموضوعات» وقال: هذا حديث موضوع، وقد اجتمعت فيه آفات منها: القاسم وهو ابن عبد الرحمن وجعفر بن الزبير وأبو الفضل الأنصاري واسمه عباس، واتفق أحمد بن حنبل وشُعبة وابن معين والنسائي وغيرهم على أنهم كانوا كذابين وضَّاعين للأخبار[٣].

قال السُّدي: فلمَّا رآه الوارد دهش وتحيَّر وقال: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ ومعناه: أن المستقي نادى رجلاً من أصحابه اسمه بشرى، كما تقول: يا زيد، وهو في موضع رفعٍ على النداء، قاله السُّدي ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾[يوسف: ١٩] أي: أخفوه.

وقال مجاهد: أسره مالك بن دُعر وأصحابه التجار الذين هم معه من أهل المياه وقالوا: هو بضاعة استبضعناها، خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه. وجاء يهوذا بالطعام

(١) «عرائس المجالس» ص ١١١، وأخرج شطره الأول أحمد في «مسنده» (١٤٠٥٠).
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١١١.
(٣) «الموضوعات» (٣٩٨).

على عادته إلى الجبِّ فلم يجده، فأخبر إخوته فجاؤوا فرأوه عند مالك بن دعر فقالوا: هذا عبد لنا أَبَق. وكتم يوسف شأنه خوفاً من إخوته أن يقتلوه، فاعترف بأنه عبدهم، وكانوا أهل شرٍّ ومنعة[١].

فإن قيل: فالعبودية هوانٌ عظيم، ويوسف «الكريم بن الكريم بن الكريم...» الحديث[٢]، فالجواب من وجوهٍ:

أحدها: لأنه خرج ليلعب واللعب لا يليق بمثله. وقال أبو حنيفة عبد الوهاب بن النوبي: لم يضحكْ يوسف في مدة البلاء إلا ثلاث مرات، حين وقع في البئر قال: من لعب في خدمة مولاه فغيابة الجب مأواه، وحين قُيِّد قال: من لم يخدم مولاه عظُمت بلواه، وحين نودي عليه بالبيع قال: من لم يرض بمولاه تملكه مولًى سواه. وهذا الضحك منه على وجه التعجب لا على وجه الفرح.

قال: والوجه الثاني: فلأنه نظر يوماً في المرآة فأعجبته نفسه، فقال: لو كنت عبداً لكان ثمني عظيماً فبيعَ بأَوكس ثمن.

والثالث: ليرحم العبيد إذا ملك، وكذا ابتلاه بالسجن ليرحم المسجونين.

والرابع: لأنه جرى في السابق أنه يصير ملكاً فراضَه الله بالعبودية.

وقال أبو حنيفة ابن النُّوبي: إن الله ابتلى يوسف بعشرة أشياء وعوَّضه بعشرة: ابتلاه بفراق أبيه وعوَّضه بلقائه، وابتلاه بجفاء إخوته ثم عوَّضه سجودهم له، وابتلاه بالجبِّ وأكرمه بمؤانسة جبريل، وابتلاه بالعبودية وعوضه عبودية أهل مصر، وابتلاه بزليخا وعوَّضه بالشاهد، وابتلاه بالنسوة وعوَّضه بتصديقهن ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف: ٥١] وابتلاه بالهَمَّةِ وعوضه بالعصمة، وابتلاه بالسجن وعوَّضه المُلْك، وابتلاه بالكذب عليه وعوَّضه بالاعتراف ﴿ٱلْـَٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[يوسف: ٥١] وابتلاه بفرعون ثم أطاعه له حتى صار على خزائن الأرض.

قال السُّدي: فلما اعترف يوسف لإخوته بالرِّق قال مالك بن دُعر: أنا أشتريه

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٨ـ١١٩.
(٢) تقدم تخريجه في أول قصة يوسف.

منكم، فباعوه منه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: باعوه. واختلفوا فيه، قال قتادة: ظُلْم. وقال الضحاك ومقاتل والسدي: حرام لأن ثمن الحرِّ حرام، وقال الشعبي: قليل. وقال مقاتل بن حيان: زيفُ دراهم.

فإن قيل: فَلِم قال: ﴿مَعْدُودَةٍ﴾[يوسف: ٢٠] ونحن نعلم قطعاً أن الدراهم معدودة؟ فالجواب: أنه على وجه المبالغة في التحقير، لأن القليل يُعَدُّ، والكثير يوزَن، وما كانوا يَزِنون أقل من أربعين درهماً، وإنما كانوا يَعدونها عَدّاً، فإذا بلغ أربعين وزنوه، لأن ذلك عندهم أوقية. وقيل معناه: باعوه بدراهم ناقصة غير وافية لزهدهم فيه.

واختلفوا في مبلغ عدد الدراهم التي باعوه بها على أقوال:

أحدها: عشرون درهماً، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي، اقتسموها درهمين درهمين.

والثاني: بتسعة عشر درهماً، ونعلين، اقتسموها درهمين درهمين، وأخذ واحد منهم درهماً مع النعلين، قاله عكرمة.

والثالث: اثنان وعشرون درهماً، قاله مجاهد.

والرابع: ثلاثون درهماً، قاله عكرمة.

والخامس: أربعون درهماً. والأول أصحُّ، ولم يذكر الثعلبي النعلين(١).

فإن قيل: فما معنى النعلين؟ قلنا: فيه إشارة إلى التواضع، لأن من كان في ثمنه نعلان فهو حقير الثمن، فإذا مَلَكَ مِصرَ لا ينبغي له أن يتكبر بل يتواضع.

قلت: ما جرى على يوسف من أصحاب هذه التأويلات قليلٌ، فإنه لو ملك الدنيا من المشرق إلى المغرب بالنسبة إلى ما جرى عليه لكان ذلك حقيراً لا يساوي نعلين.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[يوسف: ٢٠] يعني إخوته، لأنهم لم يعلموا كرامته على الله تعالى، ولا منزلته عنده، ولا ما يؤول أمره إليه.

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١١٩.

ذكر قدومه إلى مصر

قال علماء السير: ثم انطلق مالك بن دُعر وأصحابه بيوسف إلى مصر وتبعهم إخوته يقولون لهم: استوثقوا منه فإنه آبق. فلمَّا قدموا مصر اشتراه العزيز واسمه قطفير بن روبخت، وكان على خزائن مصر. قال ابن عباس: وكان الملك على مصر ونواحيها يومئذ الريان بن الوليد بن ثروان بن راشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام ابن نوح عليه السلام، وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتَّبع يوسف على دينه، ومات ويوسف حيٌّ، فملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن البيلوان بن واران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان جباراً كافراً، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يقبل، وقيل: إنه أسلم(١).

واختلفوا في مبلغ ثمن يوسف لما بيع بمصر على أقوال:

أحدها: أنه بيع بعشرين ديناراً ونعلين وثوبين أبيضين، حكاه الثعلبي عن ابن عباس(٢).

والثاني: بوزنه مسكاً وورقاً، قاله وهب(٣).

والثالث: بوزنه ذهباً وفضة، قاله مقاتل.

والرابع: بوزنه ذهباً مراراً، قاله الحسن.

فإن قيل: فكيف أثبت الله الشرى في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ ولم ينعقد عليه بيع؟ فالجواب: أن الشرى هو المماثلة، فلما وقعت المماثلة بالمال جاز أن يقال: اشتراه على وجه المجاز، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾[التوبة: ١١١] الآية.

وذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل في «كتاب الزهد» عن أبيه عن عبد الرزاق عن معمر عن مجاهد عن ابن عباس قال: يُجاءُ يوم القيامة بالعبد فيقال له: ما منعك أن تكون

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.
(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

عبدتني؟ فيقول: يا رب، أبليتني وجعلت عليَّ أرباباً يشغلونني عن خدمتك، فيُجاء بيوسف في عبوديته فيقول: أنت أشدُّ عبودية أم هذا؟ فيقول: بل هذا، فيقول: إن هذا لم تمنعه عبوديته أن عبدني[1].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ واختلفوا في اسمها على أقوال:

أحدها: راعيل بنت عابيل، قاله محمد بن إسحاق[2].

والثاني: زليخا، قاله قتادة.

والثالث: نبوس، قاله أبو هشام الرفاعي[3].

ومعنى ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي: منزلته ومقامه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ إذا بلغ وفهم الأمور ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[يوسف: ٢١] فنتبنَّاه، وقال ابن إسحاق: كان قطفير لا يأتي النساء وكانت امرأته حسناء ناعمة طاعمة في ملكه ودنياه[4].

وحكى الثعلبي عن عبد الله أنه قال: أفرسُ الناس ثلاثة: العزيز حين قال: «أكرمي مثواه»، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: «يا أبتِ استأجره»، وأبو بكر حين استخلف عمر[5].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كما خلَّصناه من الجبِّ وكيد إخوته وكانوا قد همُّوا بقتله، مكّنّاه من أرض مصر وصيَّرناه إلى أعلى المنازل عند عزيز مصر وجعلناه على خزائنها. وقال أهل الكتاب: لما تمت ليوسف ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[6] أي تعبير الرؤيا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾

---

(١) لم نقف عليه في كتاب «الزهد»، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٨٨، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٥٢٧) من كلام مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ١٧٥.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ١٧٥.

(٥) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

(٦) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٠.

[يوسف: ٢١] فقد قالت العلماء: حيث أمر يعقوب يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قصَّها، ثم أراد يعقوبُ أن لا يكيدوه فغلب أمر الله حتى كادوا، ثم أراد إخوة يوسف قتله فغلب أمر الله فلم يقدروا عليه، ثم أرادوا أن يلقوه في الجبِّ ليلتقطه بعض السيَّارة فيندرس اسمه، فغلب أمر الله حتى اشتهر ذكره ونفذ أمره، ثم باعوه ليصير مملوكاً فغلب أمرُ الله حتى صار مالكاً وسجد إخوته له، ثم أرادوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم، ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين تائبين ناسين لذنوبهم، فغلب أمر الله حتى اعترفوا بعد أربعين سنة ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[يوسف: ٩٧]، ثم أرادوا أن يَغُرُّوا أباهم بالقميص والدم والبكاء فغلب أمر الله حتى لم يخدع، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[يوسف: ١٨، ٨٣] ثم احتالوا حتى تذهب محبته من قلب أبيه، فغلب أمر الله حتى ازداد محبة وشوقاً إليه، ثم احتال يوسف على الخلاص من السجن بقوله للساقي: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[يوسف: ٤٢] فغلب أمر الله حتى نسي الساقي، فلبث في السجن بضع سنين، ثم احتالت امرأة العزيز على أن تزيل المراودة عن نفسها حين قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥] فغلب أمر الله حتى شهد الشاهد من أهلها. وكل هذا دليل على القول الأول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٤٠] ما الله صانع بيوسف ولا ما يؤول إليه أمره.

فإن قيل: فما سبب ميل يعقوب إلى يوسف دون إخوته؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: للسرِّ الذي كان فيه.

والثاني: لحسنه وجماله.

والثالث: لأنه لم يكن له أم.

والرابع: لعقله وتأنِّيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: منتهى شبابه وقوَّته، واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: أربعون سنة، قاله مقاتل.

والثاني: ثلاث وثلاثون سنة، قاله مجاهد[1].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ١٧٧.

والثالث: عشرون سنة، قاله الضحاك[١].

والرابع: ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، قاله ابن عباس[٢].

والخامس: ستون سنة، حكاه الثعلبي. والأول أصح. وقيل: منتهى الأشد ثلاث وثلاثون سنة، والاستواء عند الأربعين.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ واختلفوا فيه على أقوال:

أحدها: العقل والعلم والنبوة، قاله مجاهد.

والثاني: الإصابة في القول، قاله أهل المعاني.

والثالث: علم الرؤيا.

والرابع: مصادر الأمور ومواردها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٢٢] أي: الصابرين على نوائب الدنيا كما صبر يوسف، عليه السلام.

فصل في ما جرى له مع امرأة العزيز

قال[٣] الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الآية [يوسف: ٢٣]، أي: أرادته وطلبت منه أن يواقعها ويوافقها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وكانت سبعة ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: زينت وحسنت.

قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾[يوسف: ٢٤] الآية، معنى الهمِّ بالشيء: حديث المرء به نفسه ولم يفعله، قال الشاعر[٤]: [من الطويل]

هممتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائلُهْ

واختلفوا في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ على أقوال كثيرة، منهم من قال: حلَّ

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ١٧٧.

(٢) انظر «تفسير الطبري» ١٢/ ١٧٧.

(٣) من هنا يبدأ السقط في (ب) إلى تفسير قوله: ﴿وقال الذي نجا منهما﴾.

(٤) هو ضابىء بن الحارث البُرجمي، والبيت في «الشعر والشعراء» ١/ ٣٥٠.

الهِمْيان وجلس منها مجلس الخاتن، قاله ابن عباس[(١)]، وفي رواية عنه: جلس منها مجلسَ الرجل من أهله. وقال السُّدي: جعلت تذكر له محاسن نفسها حتى همَّ بها، وكان شاباً يجد شبق الشباب[(٢)].

وأنكر جماعة من المتأخرين هذا وقالوا: لا يليق هذا بالأنبياء وأوَّلوا الآية. فقال بعضهم: همَّ بالفرار منها. وقيل: همَّ بضربها. وقال آخرون: تم الكلام عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ ثم ابتدأ الخبر عن يوسف ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ على التقديم والتأخير، وتقديره: لولا أن رأى برهان ربّه لهمَّ بها ولكنه رأى البرهان فلم يَهم. ورُوي عن ابن عباس أنه قال: ولقد همَّت به أن يفترشها وهمَّ بها أن تكون له زوجة.

وهذه التأويلات كلها غير مرضية، أما قول من قال: همَّ بالفرار منها فلا يصحُّ لأن الفرار غير مذكور في الآية، وأما تقدير «لولا» فالعرب لا تقدِّم جواب لولا قبلها، لا تقول: لقد قمت لولا زيد لقمت، وكذا أقوال مَنْ تأوَّلَ غير ذلك. والدليل عليه أنه[(٣)] لما أقرَّت المرأة وقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾[يوسف: ٥٢] قال له جبريل: ولا حين هممتَ بها يا يوسف، فقال عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

والمختار في هذا أنَّ الهمَّ همَّان: همٌّ مقيمٌ يضاف إليه عزمٌ ونية ورضًى، مثل همِّ امرأة العزيز، والعبدُ مأخوذ به.

والثاني: عارضٌ وهو الخطرةُ والفكرة وحديث النفس من غير اعتبارٍ ولا عزم، مثل همِّ يوسف عليه السلام، والعبد غير مأخوذ به ما لم يلفظ به أو يفعله. والدليل عليه حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عزَّ وجل: إذا همَّ عَبدِي بحَسنةٍ فَلم يَعمَلها كُتِبَتْ له حَسنةً، وإن عمِلَها كُتِبَت له عَشرُ حَسناتٍ إلى سبع مئةِ ضِعفٍ، وإذا همَّ عَبدِي بِسيئةٍ فإن تَركَهَا من أَجلِي كَتبتُها لَهُ حَسَنةً»[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ١٨٣.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢١.
(٣) في (ل): «أن الملك».
(٤) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨).

وأمّا من نزَّه الأنبياء عن الصغائر فغير جائز لوجوه:

أحدها: ليكونوا على وجلٍ من الله إذا ذكروها فيجدون في الطَّاعة إشفاقاً منهم ولا يتكلمون على حالهم.

والثاني: ليعرِّفهم مواقعَ نعمهِ عليهم بالعفو عنهم.

والثالث: ليجعلهم قادة لأهل الذنوب في رجاء رحمة الله تعالى وترك الإياس من عفوه وفضله، بخلاف الكبائر فإنهم مُنَزَّهون عنها، إذ لا عذر لهم في ارتكابها لأنها تكون على وجه العناد.

واختلفوا في البرهان الذي رآه يوسف على أقوال:

أحدها: أن يعقوب مَثَلَ له فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، رواه سعيد عن ابن عباس. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وابن سيرين وغيرهم: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضّاً على إصبعه، قال ابن جبير: فكل ولد يعقوب وُلد له اثنا عشر ولداً، إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر من أجل ما نقص من شهوته حين رأى صورة أبيه واستحيى منه. وقال قتادة: قال له يعقوب: يا يوسف، تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟! وقال ابن أبي مليكة عن ابن عباس: قال له يعقوب: يا يوسف، تزني فتكون كالطير وقع ريشه، فيذهب ليطير ولا ريش(١).

والثاني: أنه رأى كتاباً في حائط البيت فيه مكتوب: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] الآية، قاله محمد بن كعب القرظي.

والثالث: أنه لما قعد منها مقعد الرجل من أهله بدت له كفٌّ ليس فيها عضد ولا معصم عليها مكتوب: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] فقام هارباً عنها وقامت، فلما ذهب الرعبُ منهما عادا، فلما قعد منها مقعد الرجل من أهله بدت الكفُّ وفيها مكتوب: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] الآية، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عاد وعادت، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته قال الله لجبريل أدركْ عبدي قبل أن يصيبَ

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٢.

الخطيئة، فانحطَّ جبريل عاضّاً على إصبعه وهو يقول: يا يوسف، أتعمل عملَ السفهاء وأنت مكتوبٌ عند الله في ديوان الأنبياء؟! فذلك قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾[يوسف: ٢٤] قاله ابن عباس(١).

والرابع: أنه لما همَّ بها خرجت بينهما كفٌّ بلا جسد مكتوب عليها بالعبرانية: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد: ٣٣] ثم انصرف الكف وقاما مقامهما ثم رجعت الكف وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ـ١٢] وانصرف الكف وقاما مقامهما ثم عادت الكف ثالثة وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ الآية، وانصرف الكف وقاما مقامهما؛ ثم عادت الكف رابعة، وعليها مكتوب بالعبرانية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢٨١] فولى يوسف هارباً، قاله وهب بن منبه.

قلت: ذكر هذه الأقوال الثعلبي وهي ضعيفة لوجوه:

أحدها: لأن الأنبياء قد نُزِّهوا عن مثل هذا.

والثاني: لأنَّ يوسف قد كان يعلم أنَّ الزنا حرام وكذا مقدماته، وأنَّ ارتكاب الفاحشة قبيح، فكان البرهان الذي رآه العصمةَ عن مثل ذلك الفعل. وقد قال مقاتل: صارت زليخا في عينه سوداءَ مشوَّهة.

وروى علي بن الحسين عن أبيه عن جدِّه عليه السلام أنه قال في تفسير البرهان: إنه كان عندها صنم تعبده فغطت وجهه بثوب، فقال لها يوسف: ما هذا؟ فقالت: أستحيي أن يرانا، فقال: ويحك أنت تستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر، أفلا أستحيي أنا ممن يسمع ويبصر(٢)؟

والثالث: أن القرآن لم يكن نزل على يوسف، فمن أين هذه الآيات التي ذكرها ابن عباس ووهب وغيرهما؟!

وقال جعفر بن سليمان: لقيتُ امرأة في بعض الطرق وهي ترفثُ، فقلت: إنكنَّ

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٢.
(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ١٢٣.

صواحبُ يوسف، فقالت: واعجباه نحن دعوناه إلى لذة وأنتم أردتم قتله، وقتل النفس أعظم مما أردناه، فَمَنْ أصحابه نحن أو أنتم؟

وقال الفراء: جواب ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ لَواقَعَ الفعل ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: الزنا والإثم ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤] أراد المختارين للنبوَّة. ومن قرأها بكسر اللام كأهل مكة والبصرة أراد المخلصين لله في التوحيد والعبادة.

وقيل: إن البرهانَ قطفير، رآه عند الباب.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ الآية، قال علماء السير: لما رأى يوسف البرهان قام مبادراً هارباً مما أرادته منه، واتبعته المرأة لتقضيَ حاجتها، فأدركته فتعلقت بقميصه فجذبته إليها وقدَّته من دُبرٍ لأنها كانت طالبةً ويوسفُ مطلوبٌ، فلما خرجا ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي: وجدا زوجها قطفير عند الباب جالساً مع ابن عم لراعيل، وقيل: إن قطفير كان البرهان، فلما رأته هابته فسبقت بالقول إليه ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ كَنَتْ عن الزنا ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[يوسف: ٢٥] يعني بالضرب بالسياط فقال يوسف: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾[يوسف: ٢٦] فهربتُ منها فأدركتني فشقت قميصي.

فإن قيل: فالفتى لا يكون غمازاً، فالجواب: ما ذكره نوف الشامي، فإنه قال: ما كان يوسف يريد أن يذكره، فلما قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ غضب وقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[يوسف: ٢٦] واختلفوا في الشاهد على أقوال:

أحدها: أنه كان صبيّاً في المهد أنطقه الله تعالى، رواه العوفي عن ابن عباس وأبي هريرة. وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلَّم في المهد أربعة: ابن ماشطة فرعون، وصاحب يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم»(١). وكان الصبي

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» عن ابن عباس موقوفاً (٢٨٢١).

ابن خالتها، فلهذا قال من أهلها.

والثاني: أن الشاهد ابن عم راعيل الذي كان قاعداً على الباب مع زوجها، حكم برأيه فيما أخبر الله عنه في قدِّ القميص، قاله الحسن وعكرمة ومجاهد والضحاك، وهو رواية عن ابن عباس. وكان من خاصة الملك.

والثالث: أنَّ الشَّاهد القميصُ المقدودُ قاله ابن أبي نجيح[1]. وقال ابن عباس: حكَّموا القميصَ فقال ابن عم راعيل: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] فجعل بيان هذا الأمر في القميص.

ولما رأى قطفير القميص قُدَّ من دبر عرف خيانة زوجته وبراءة ساحة يوسف فقال لامرأته: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي هذا الصنيع ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ وقيل: هو من قول الشاهد ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] ثم أقبل قطفير على يوسف وقال: ﴿يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٢٩] أي: يا يوسف، نداء مفرد ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الأمر واصرف عنه، ولا تكثرن هذا الحديث ولا تذكره لأحد فقد بان عذرك وبراءتك. ثم قال لامرأته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ وقيل: إنما هذا من قول الشاهد، يقول: سلي زوجك أن يصفحَ عنك ولا يعاقبك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩] أي: المذنبين حيث راودت شاباً عن نفسه وخنتِ زوجك، فلما استعصم كذبت عليه، وهذا قول ابن عباس. وخطئَ الرجلُ يخطىء خطأً إذا أذنب، والاسم الخطيئة، وإنما لم يقل من الخاطئات لأنه لم يرد الخبر عن النساء، وإنما قصد الخبر عن من يفعل ذلك من القوم الخاطئين، ومثله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

فصل في حديث النسوة

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية. والعزيز: نائب الملك؛ وقال ابن عباس: لما شاع حديث راعيل في المدينة ـ وهي مصر ـ أنها راودت فتاها عن نفسه عِبْنَ عليها وقلن: عبدها الكنعاني ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[يوسف: ٣٠] أي: وصل حبُّه إلى شغافها، وهي جِلْدةٌ رقيقة تُسمى لسان القلب إذا وصل الحبُّ إليها عسر خروجه،

(١) انظر «زاد المسير» ٤/ ٢١٢.

وقيل: إنما هي جلدة رقيقة في باطن القلب، وقيل: برَّح بها، وقال مقاتل: إنما قلن ذلك مكراً منهن ليرين يوسف لأنها كانت قد حجبته عنهن ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ تعني حديثهن ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ وكنَّ أربعين امرأةً منهن امرأة الساقي والخباز والحاجب وصاحب السجن ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي: أعدَّتْ ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾[يوسف: ٣١] وهو مجلس الطعام وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد. قال ابن قتيبة: أصل هذا أنَّ من دعوتَهُ ليطْعَم عندك أعددتَ له وسادةً يتكيء عليها، فسمي الطعام متكأً على الاستعارة، قال عدي بن زيد:

فظَلِلْنَا بنَعمةٍ واتَّكأنا وشَرِبنا الحلالَ من قُلَلِه[1]

واختلفوا فيه: قال ابن عباس: هو الأُترُجُّ[2]. وقال الضحاك: البزماورد[3]. وقيل: الموز والبِطِّيخ، والأصح أنَّه الأترُجُّ وكل ما يقطع بالسكين، دليله قوله تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وزيَّنته بأنواع الجواهر، وكان نور وجهه يشرق على الحيطان كنور الشمس والقمر ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: عظمنه وأجللنه وهبنه، وقرأ ابن عباس: «أكبرن» بغير هاء، ومعناه: حِضْنَ عند رؤيته ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[يوسف: ٣١] أي: حززنها بالسكاكين وجرى الدم، ولم يشعرن بذلك لشغل قلوبهن بيوسف، وهنَّ يحسبن أنهنَّ يقطعن الأُترُجَّ.

وحكى الثعلبي عن وهب بن منبه أنه قال: بلغني أن تسعاً من الأربعين متن في المجلس وَجْداً بيوسف[4].

فإن قيل: فلمَ لم تقطع زليخا يدها؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن رؤية يوسف وقعت لهنَّ مفاجأة، والمرأة كانت قد اعتادت النظر إليه، وكلُّ أمرٍ يقعُ بغتةً يؤثر، ألا ترى أن موسى خاف من العصا لما انقلبت حية لأنه ما أَلِفها كذلك، ولم يخف من النار لأنه ألفها من يوم التنور.

---

(١) البيت لجميل بن معمر، انظر «الأغاني» ٨/ ٩٤.
(٢) انظر «زاد المسير» ٤/ ٢١٦.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢/ ٢٠٢.
(٤) «عرائس المجالس» ١٢٤.

والثاني: لأنهن بغين عليها، والبغي مصرع، فعوقبن بقطع الأيدي.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾[يوسف: ٣١] أي: ببشر ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: في حبي له. ثم أخبرتهن بما هو أحسن من الصورة الظاهرة، وهو العفاف الباطن، وأقرَّت فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع واستعصى عليَّ، فقلن له: أطع مولاتك، فقالت راعيل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي: يطاوعني فيما دعوته إليه ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[يوسف: ٣٢] أي: الأذلاء.

وقال مجاهد: ولما راودته ثانياً اختار السجن على مباشرة المعصية، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أميل وأتابعهن ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[يوسف: ٣٣] أي: العاصين.

فإن قيل: إنما راودته راعيل، وهي واحدة، فكيف قال: ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ فالجواب: إنهن أشرن عليه، فانصرف الكلام إليها وإليهن ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ بمكرهنَّ.

فصل في سجنه

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: للعزيز وأصحابه ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ وهي شهادة الطفل، وقدُّ القميص من دُبر، وقطعُ النسوة أيديهن ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾[يوسف: ٣٥] وهذه لام اليمين. والحين: الوقت، والمراد به هاهنا: سبع سنين، وقال الكلبي: خمس سنين، والأول أصح.

وقال السُّدي: قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني بين الناس، يقول: راودتني عن نفسي، فإما أن تأذن لي أن أخرج فأعتذر، وإما أن تحبسه كما حبستني، فحبسه بعد علمه ببراءته، فجعل الله الحبس تطهيراً ليوسف من همِّه بالمرأة وتكفيراً لزلَّته[1].

وقال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات: حين همَّ بها فسجن، وحين قال للساقي: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[يوسف: ٤٣] فلبث في السجن بضع سنين وأنساه

(١) «عرائس المجالس» ١٢٤.

الشيطان ذكر ربه، وحين قال: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠] فقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[يوسف: ٧٧].

قلت: أمَّا قوله: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ فإنه صادق في قوله، وأيُّ سرقة أعظم من يوسف؟

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف: ٣٦]، وهما غلامان كانا للوليد بن الريان صاحب مصر، أحدهما خبازه صاحب طعامه، واسمه: مجلث، والآخر ساقيه صاحب شرابه، واسمه: نبو. وكان الملك قد غضب عليهما فحبسهما، لأنه بلغه أنّ خبازه يريد أن يسمَّه، وأن ساقيه مالأه على ذلك، وكان أهل مصر قد سئموا الملك فدسوا إليهما مالاً، فأما الساقي فرجع عن الرشوة، وأما الخباز فقبلها فسمَّ الطعام، فلما أحضره بين يدي الملك قال له الساقي: أيها الملك لا تأكلْ فإنه مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب فشرب منه فلم يضرَّه، وقال للخباز: كُلْ فلم يأكل، فجرَّب الطعام في دابةٍ فانفسخت وهلكت، فأمر بحبسهما.

وكان يوسف في السجن يعبِّر الأحلام، فقال الخبَّاز والساقي: نريد أن نجرِّب هذا العبد العبراني بمنام.

واختلفوا هل رأيا شيئاً؟ على قولين: أحدهما: أنهما ما رأيا شيئاً وإنما أرادا أن يجرِّباه، وهذا قول ابن مسعود. والثاني: أنهما رأيا رؤيا، قاله مقاتل.

وقال مجاهد: ولما رأى الفتيان يوسف قالا له: والله لقد أحببناك حين رأيناك، فقال لهما: أنشد كما الله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليَّ من حبِّه بلاءٌ شديد، لقد أحبتني عمتي فدخل عليَّ من محبتها بلاء، يشير إلى المنطقة، لما نذكر، ثم أحبني أبي فدخل عليَّ من حبه بلاء، ثم أحبتني زوجة العزيز فدخل عليَّ من حبها بلاء، يشير إلى الحبس، فلا تحبَّاني بارك الله فيكما. قال: فأبيا إلا حبَّه وأَلِفَاه وجعلا يعجبهما ما يريان من فَهمه وعقله، وقد كانا رأيا حين أدخلا السجن، فقال الساقي ليوسف: رأيتُ كأني في بستانٍ فإذا نُخَيْلَة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها، وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه، وقال الخباز: رأيتُ كأنَّ فوق رأسي ثلاثَ سلالٍ من خبزٍ وألوان الأطعمة وإذا بسباع الطير تنهشُ منه، فذلك

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: عنباً، واسم هذا القائل نبو، وقال الآخر، وهو مجلث: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أي: أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٣٦] إلى أهل السجن، كان إذا مرض أحد منهم عاده، وإذا ضاق وسَّع عليه، وإذا احتاج جمع له، وكان يداوي مرضاهم ويعزي حزينهم.

وقال قتادة: كره أن يعبر لهما رؤياهما لما علم ما فيها من المكروه، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره، فقال: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ وتطعمانه وتأكلانه ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: بتفسيره وألوانه، أي طعام أكلتم وكم أكلتم، فقالا له: هذا من فعل العرَّافين والكُهَّان، فقال: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك العلم ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٣٧] لأنهم كانوا يعبدون الأصنام وإنما كرر على التأكيد ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ أي: ما يجوز لنا ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾[يوسف: ٣٨]، ثم أقبل يوسف عليهما وعلى أهل السجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ لكونهما فيه ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ آلهة لا تضر ولا تنفع ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[يوسف: ٣٩] الواحد: الذي لا ثاني له، القهار: الذي يقهر كل شيء، ثم بين ضعفها وعجزها فقال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ وإنما قال: «ما تعبدون» وإن كان الخطاب قد بدأ لاثنين لأنه قصد جميع مَنْ هو بمثلِ حالهما من الكفر. والأسماء: للآلهة والأديان والأرباب، من غير أن يكون للتسمية حقيقة ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي: حجة وبرهان ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾أي: ما القضاء والأمر والنهي ﴿ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ﴾ الذي دعوتكم إليه من التوحيد ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[يوسف: ٤٠] ثم فسَّر المنامين لما ألحَّا عليه فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقي ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ﴾ أي: سيده يعني الملك ﴿خَمۡرٗاۖ﴾ وأما العناقيد الثلاثة التي رآها فإنها ثلاثة أيام يبقى في السجن ويخرج بأمر الملك ويعود إلى ما كان عليه ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ﴾ والسلال الثلاث التي رآها فإنها

ثلاثة أيام يبقى في السجن، ثم يخرجه الملك ويُصلب ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فقالا: ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب، فقال يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[يوسف: ٤١] أي فُرِغ من الأمر الذي سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد بإسناده عن سعيد بن جبير عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْرَى الفِرى أن يُرِيَ الرجلُ عينَيه ما لم تَرَيا» انفرد بإخراجه البخاري(١).

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من تحلَّم بحلمٍ لم يره كُلِّفَ أن يعقِدَ بين شعرَتَين، ولن يَفْعلَ»(٢).

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن أبي رَزين العقيلي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ الرُّؤيا على رجلٍ طائرٍ ما لم تُعبَّر، فإذا عُبِّرت وقعت، وإنَّ الرُّؤيا جُزءٌ من ستةٍ وأربعينَ جُزءاً من النُّبوةِ»(٣).

قال أبو سليمان الخطَّابي: ومعناه: أن النبي ﷺ أقام في النبوّة ثلاثاً وعشرين سنة، منها بمكة ثلاثة عشر وبالمدينة عشراً، وكان يوحى إليه في منامه في أول الأمر ستة أشهر، وهي نصف سنة، فصارت هذه المدة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوَّة(٤).

﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ يعني الساقي، والظن هنا بمعنى اليقين ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ إذا خرجت ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: عند الملك، وقل له: إنَّ في السجن غلاماً مظلوماً ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف: ٤٢].

واختلفوا في قوله: «فأنساه»: ظاهر الكلام أن الشيطان أنسى الساقي ذِكْرَ يوسف للملك عقوبةً له حيث استغاث بمخلوق مثله، وقد نصَّ عليه محمد بن إسحاق.

قال ابن عباس: وتلك غفلةٌ من يوسف حيث استغاث بمخلوق، ولو استغاث بربه لأسرع خلاصه، ولكنه زلَّ فطال حبسه. والواجب تنزيه الأنبياء على كل حال.

(١) صحيح «البخاري» (٧٠٤٣).
(٢) صحيح «البخاري» (٧٠٤٢) وهو من أفراده، انظر «الجمع بين الصحيحين» (١١٦٢).
(٣) «عرائس المجالس» ١٢٦، وهو في «مسند» أحمد (١٦١٨٢).
(٤) «معالم السنن» ٤/ ١٣٩.

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف: ٤٢] واختلفوا فيه، فقال أبو عبيدة: البضع ما بين الثلاثة إلى الخمسة، وقال مجاهد: ما بين الثلاث إلى السبع، وقال قتادة: ما بين الثلاث إلى التسع، وقال ابن عباس: ما دون العشرة.

وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين. وقال وهب: أصاب أيوبَ البلاءُ سبع سنين، وترك يوسف في السجن سبع سنين(١).

وحكى الثعلبي عن الفراء: أن البضع لا يذكَّر إلا مع عشرة وعشرين إلى تسعين، قال: وكذلك رأيت العرب تفعل، ولا يقولون: بضع ومئة ولا بضع وألف.

وقال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي: اذكرني عند ربك، قيل له: يا يوسف اتخذتَ من دوني وكيلاً، لأُطيلنَّ حبسك، فبكى وقال: يا رب أنْسى قلبي كثرةُ البلوى فقلتُ كلمةً، فويلٌ لإخوتي(٢).

وروى الوالبي عن ابن عباس قال: دخل جبريل الحبس على يوسف، فلما رآه عرفه فقال يوسف: يا أخا المنذِرين، ما لي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر ابن الطاهرين، يقرأ عليك السلام ربُّ العالمين ويقول لك: ما استحييت مني حيث استشفعتَ بالمخلوقين؟ فوعزتي وجلالي لألبثنك في السجن بضعَ سنين، قال يوسف: وهو في ذلك عني راضٍ؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي(٣).

قال الكلبي: وهذه السبع غير الخمس الأول التي كانت قبل ذلك. وقال مقاتل: أجرى الله على لسان يوسف ما كان سبباً لحبسه اثنتي عشرة سنة، خمسة متقدمة وسبعة متأخرة، وهي قوله: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ اثنا عشر حرفاً(٤).

فصل ذكر خروجه من السجن

قال علماء السِّير: ولما دنا فرَجُهُ، رأى ملك مصر الريانُ بنُ الوليد رؤيا هالته، رأى

(١) «عرائس المجالس» ١٢٧.
(٢) «عرائس المجالس» ١٢٧.
(٣) «عرائس المجالس» ١٢٧.
(٤) «عرائس المجالس» ١٢٧.

سبع بقرات سمانٍ يخرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف مهازيل، فابتلعت العجافُ السمانَ فدخلن في بطونهن، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعاً أُخَر يابساتٍ قد استحصدت وأفركت، فالتَوت اليابسات على الخضر حتى علين عليها، فجمع السحرةَ والكهنة والقافة وقصَّها عليهم وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ أي: الأشراف ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ فاعبروها ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾[يوسف: ٤٣] أي: تفسرون، والرؤيا: الحلم ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾[يوسف: ٤٤] أي: مختلطة مشتبهة وأباطيل، واحدها ضِغْثٌ، وهو الحزمة من أنواع الحشيش، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾[ص: ٤٤] والأحلام: جمع الحلم، وهي الرؤيا(١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾ أي: من القتل وهو الساقي ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أي: ذكر حاجة يوسف وقوله: «اذكرني» ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد حين، وقيل: بعد نسيان ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾[يوسف: ٤٥] أي: فأطلقوني لأمضي إلى السجن، فإن فيه من يعرف تأويلها فأرسلوه. وقال ابن عباس: لم يكن السجن في المدينةِ بل بعيداً عنها: فقال: ﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ فيما عبَّرتَ لنا من الرؤيا، والصديق: الكثير الصدق ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ﴾ الآية فإن الملك قد رأى هذه الرؤيا ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى مصر ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[يوسف: ٤٦] فضلك، فقد عجزوا عنها، فقال يوسف: أمَّا البقرات السمان والسنبلات الخضر، فسبع سنين مخاصب، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة، فذلك قوله: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ أي: كعادتهم في الزراعة سائر السنين ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾[يوسف: ٤٧] وإنما أشار عليه بذلك لتبقى الغلة ولا تفسد ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾ يعني سبع سنين مُجدبة قحطة ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ يعني يأكلن أو يؤكل فيهنَّ ما أعددتم لهن، وهذا مجاز من الكلام ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾[يوسف: ٤٨] أي: تحرزون وتدخرون ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] قال وهب: وهذا من علم الغيب الذي علَّمه الله ليوسف، لأنه لم يكن في رؤيا الملك هذه الزيادة. وقال قتادة: زاده الله علم سنة لم يسألوه عنها. ويغاث الناس: من الغَيث، ويعصرونَ العنبَ خمراً، والزيتون زيتاً، والسمسم دهناً.

---

(١) إلى هنا انتهى السقط في (ب).

وقال الملك: ائتوني به ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾، قال علماء السِّير: لما رجع الساقي إلى الملك، وأخبره بتأويل يوسف لرؤياه قال ذلك، لأنه علم صدقَ تعبيره، فقال: ائتوني بهذا الذي عبَّر رؤياي فقد وقع في قلبي صدقه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ قال له: أجب الملك، فقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: سيدك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ والمرأة التي حُبست بسببها ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٠] أي: بصنيعهن.

فإن قيل: فهذا الجواب غير مطابق للسؤال، لأن طلب الملك له لا تعلق له بالنسوة. فالجواب: إنما قصد براءَة ساحته عند الملك وإظهارَ عذرِهِ للناس، لأن حديثه وصل إلى الملك، فأراد أن يزولَ ما في باطن الملك مما نُقِلَ إليه عنه لينتفع به ويحسن ظنُّه ولا يبقى في قلبه أثر.

وقد روينا في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ولو لبثتُ في السِّجنِ ما لبِثَ يُوسفُ لأجَبتُ الدَّاعي»[1]. وقد ذكرنا الحديث في سيرة الخليل عليه السلام.

وذكر الثعلبي حديثاً فقال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجِبتُ من يُوسفَ وكرمِه وصبرِه، واللهُ يَغفرُ له، حينَ سُئل عن البقراتِ السِّمانِ والعِجافِ، ولو كنتُ مكانَه ما أخبرتُهم بشيءٍ حتى يُخرجُوني، أو أشترط عليهم أن يُخرجُوني، ولقد عجِبتُ من يُوسفَ وصبرِه وكرمِه، واللهُ يغفرُ له، حين أتاهُ الرَّسولُ فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[يوسف: ٥٠] الآية، ولو كنتُ مكانَه ولبثتُ في السِّجنِ ما لبثَ لأسرعتُ الإجابةَ وبادرتُهم إلى البابِ وما ابتغيتُ العُذرَ إنَّه كان لحليماً ذا أناة»[2]. وكل هذا مدح ليوسف عليه السلام.

وقال ابن عباس: لو خرج يوسف قبل أن يعلم الملك شأنه، مازالت في نفس العزيز منه حاجةٌ، يقول: هذا الذي راود امرأتي.

---

(١) صحيح «البخاري» (٣٣٧٢)، وصحيح «مسلم» (٢٣٨).

(٢) «عرائس المجالس» ١٢٨، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٢٨ـ٢٢٩، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٣٦، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٦ مرسلاً عن عكرمة.

ولما عاد الرسول إلى الملك وأخبره بما قال يوسف، دعا الملك النسوةَ وامرأة العزيز وقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ أي: ما شأنكن وما قصتكن ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ﴾ أي: زنا، وإنما امرأة العزيز أخبرتنا بأنها راودته.

فإن قيل: إنما راودته امرأة العزيز، فكيف قال: «إذ راودتنَّ»؟ فالجواب: لما وافقْنَها في قولهن ليوسف: أَطِعْ سيدتك، صار كأنهنَّ راودنه جميعاً.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر وتبين وبان الصحيح من الكذب ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[يوسف: ٥١] في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾[يوسف: ٢٦]. فقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ﴾[يوسف: ٥٢] الذي فعلتُ من ردِّي الرسول إليه في شأن النسوة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز قطفير ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ في زوجته في حال غيبته عني وخلوتي بها، قال ابن عباس: فقال له جبريل: ولا حينَ هممتَ بها؟ فقال يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال مقاتل: اتصل قول يوسف ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ بقول المرأة ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[يوسف: ٥٢] الذين يخونون مواليهم في نسائهم.

ومعنى ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بالفاحشة ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[يوسف: ٥٣] فلما ظهر للملك عذر يوسف وعرف أمانته وفضله قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ﴾[يوسف: ٥٤] لأنه كان قد بلغه حديث زليخا. فلما ظهر برهانه زال ما كان في نفسه، وهذا من معجزات يوسف عليه السلام.

قال مقاتل: ولما جاءه الرسول قال له: أجب الملك، قال: سمعاً وطاعة، أما الآن فنعم. ثم دعا لأهل السجن وبكى وبكوا لفراقه لأنه كان محسناً إليهم، ووقف على باب السجن ودعا لهم فقال: اللهم اعطفْ عليهم قلوبَ الأخيار ولا تعمِّ عليهم الأخبار. قال وهب: فهم أعلم الناس بأخبار الدنيا، ثم كتب على باب السجن: هذا قبر الأحياء، وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء(١). ثم دخل على الملك

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٢٨.

فسلَّم عليه بالعربية فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ فقال: لسان عمِّي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية، فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي.

قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما كلّم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملكَ ما رأى منه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة وازداد به عجباً، ورأى حسنه وجماله فدهش، وقربه وأكرمه، وقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[يوسف: ٥٤] ثم قال له: أحبُّ أن أسمع رؤياي منك شفاهاً، قال: نعم أيها الملك، رأيتَ سبع بقرات سمان شهب غرٍّ حسان كشف لك عنهن النيلُ، فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبناً ويعجبك حسنهن، إذ نضب النيل وغار ماؤُهُ، فخرج من حمأته ووحله سبعُ بقراتٍ عجاف شُعْث غُبر مقلَّصات البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وخراطيم كالكلاب والسباع، فافترسن السمانَ فأكلنهن ومزَّقن جلودهن، فبينما أنت تعجبُ إذا بسبع سنابلَ خضرٍ وسبع أُخر سود، فعجبتَ وقلت: المنبَتُ واحد، فبينما أنت تقول في نفسك ذلك إذ هبتْ ريحٌ فذرتِ اليابسات على الخُضْرِ اليانعات وأشعلتْ فيهن ناراً فأحرقتهن، قال: صدقت فما تعبير هذه الرؤيا؟ قال: أرى أن تجمع الطعام وتزرعَ مهما قدرت عليه في هذه السنين المخصبات، وتجعلَ الطعام في الأهراء[1] بحاله في سنبله وقصبه، ليكون علفاً للدواب ويحفظَ الطعام من التغيّر، وإن الناس يشترون منك في الأعوام المجدبة بمالٍ لا تسعه خزائنك، فقال: ومن لي بهذا ومن يكفيني أمره فقال يوسف: أنا، فحينئذ قال: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٥] أي: كاتب حاسب حافظ لأمانتي[2].

فإن قيل: قد وصف نفسه بالأمانة والحفظ، وكان ينبغي أن يصفه غيره، فالجواب: إنه عَلِمَ بسنيِّ المجاعة والقحط، فخاف أن يتولّى أمرَ الناس من يضيعهم، فسأل ذلك لأنه مؤيدٌ بالوحي، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[الضحى: ١١].

فتوقف الملك سنةً، ويوسف عنده في قصره.

---

(١) بيوت معدّة لحفظ الطعام.

(٢) «عرائس المجالس» ١٢٩، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٢٥ـ٢٢٦.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله أخِي يُوسفَ لو لم يقُلْ ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ لاستَعمَلَه من ساعتِه، ولكنَّه أخَّره سنة»(١).

وحكى الثعلبي عن [ابن] أبي الهذيل قال: أقام يوسف عند الملك، فقال له الملك: أريد أن تخالطني في كل شيء سوى أني آنف أن تأكل معي. فقال يوسف: إني أحق أن آنف، أنا ابن يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله، فكان يأكل بعد ذلك معه(٢).

وروى مقاتل: أن عمر بن الخطاب عرض على أبي هريرة الإمارة فامتنع، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ طَلَبَ الإمارَةَ لم يَعدِلْ فيها» فقال له عمر: قد طلب الإمارة من هو خيرٌ منك يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[يوسف: ٥٥](٣).

فإن قيل: فلمَ لمْ يستثن يوسف وقال: إني حفيظ عليم إن شاء الله؟ قلنا: خصَّ الله هذه الأمة بالاستثناء دون سائر الأمم، ولأن يوسف على ثقة من أمانته بخلاف الغير.

ودلت الآية على أن الوالي ينبغي أنْ يكون جامعاً بين العلم والأمانة؛ لأنه متى كان علمٌ بغير أمانة ضاع ما يلزم حفظه، ومتى كانت أمانة بغير علم لم يحسنْ بالوالي أن يتصرف.

وقال ابن عباس: لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارةَ دعاه الملك فتوَّجه وردَّاه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكلَّلٍ بالدُّر والياقوت، وضرب عليه كِلَّةً(٤) من استبرق، وطول السرير ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع، وعليه ثلاثون فراشاً وستون

(١) تفسير الثعلبي ٥/ ٢٣١، وعرائس المجالس ١٢٩-١٣٠.

(٢) تفسير الثعلبي ٥/ ٢٣٢، وعرائس المجالس ١٣٠، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٤٧، ١٤٨، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٩، وما بين معكوفين من المصادر.

(٣) تفسير الثعلبي ٥/ ٢٣٢، وأخرج أبو نعيم في «الحلية» ١٠/ ٢٥، والذهبي في «السير» ١٢/ ٩٤ من حديث عمر بن الخطاب قال: «من حرص على الإمارة لم يعدل فيها».

(٤) الكِلَّةُ: الستر الرقيق.

مِقْرَمَة[١]، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوَّجاً ووجهه كالقمر يرى فيه الناظر وجهه من صفائه، ودخل قطفيرُ بيته، وفوَّض إليه الملك وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه، ثم لم يلبث قطفير أن مات، فزوج الملك يوسفَ راعيلَ امرأةَ قطفير فلما دخل بها قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ فقالت: أيها الصدِّيق لا تلمني، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في دنيا واسعة، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعلك الله في حسنك وجمالك، فغلبتني نفسي.

ولما دخل بها وجدها بكراً، فولدت له رجلين أفرائيم وميشا، وولد لأفرائيم نون وولد لنون يوشَع، وولد لميشا موسى نبي آخر قبل موسى بن عمران.

قال ابن قتيبة: ويزعم أهلُ التوراة أنه هو الذي رأى الخضرَ عليه السلام[٢].

وقد روي أن يوسف تزوج امرأة العزيز بعد مدة من ملكه وسنذكره.

وقال ابن الكلبي: واستوسق ليوسفَ ملك مصر، وأقام فيهم العدل وأحبه الرجال والنساء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكناه ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦] أي: الصابرين على مثل ما أصاب يوسف وصبر عليه في الجب والسجن والرق وغيره.

وقد أكثر الشعراء في قصته فقال البحتري[٣]:

أَمَا في رسولِ اللهِ يوسفَ أُسوةٌ ... لِمِثْلِكَ مَحْبُوساً على الظُّلْمِ والإفْكِ
أقامَ جميلَ الصبر في الحبْسِ بُرْهَةً ... فآل به الصَّبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

ويوسف أوَّل من عمل الكاغد[٤].

وأمر الناس فزرعوا، وترك الزرع في سنبله في السنين المخصبة، ودخلت السنون المجدبة وكان يوسف قد دعا الملك إلى الإسلام فأسلم هو وأهل بيته، فهذا في الدنيا

(١) في تفسير الثعلبي ٥/ ٢٣٢: مرفقة، وفي «عرائس المجالس» ١٣٠-١٣١: نمرقة، وكلها بمعنى مُحْشيِّ الفراش وما يوضع عليه من ثياب ملونة فيها رقم ونقوش.
(٢) «المعارف» ص ٤١.
(٣) «ديوان البحتري» ٣/ ١٥٦٤، وعرائس المجالس ١٣٠.
(٤) الكاغد: القرطاس.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾[يوسف: ٥٧] أي: ثواب الآخرة.

وقال ابن الكلبي: جاع الناس واشتدَّ الأمر، وجاء هولٌ لم يُعْهَدْ مثله، ولما كان ابتداء القحط، بينما الملك ذات ليلةٍ نائم استيقظ وقد أصابه جوعٌ شديد فصاح: يا يوسف الجوع، فقال يوسف: هذا أوان القحط. ودخلت السنة الأولى، باعهم يوسف الطعام بالنقود حتى لم يبقَ عندهم درهم ولا دينار حتى قبضه، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء، ثم باعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى على الجميع، ثم باعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء بأسرهم، ثم باعهم في السنة الخامسة بالعقار والضياع والدور حتى احتوى على الجميع، ثم باعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، ثم باعهم في السنة السابعة برقابهم حتى صار جميع من بمصر عبيداً له. فقال الناس: تالله ما رأينا كاليوم ملكاً أجلَّ ولا أعظم من هذا(١).

وقال وهب: مدَّ السيل بمصْرَ فحسر عن غارٍ في أصل جبل المُقَطَّم، فأبدى عن بيتٍ عليه مصراعان، ففتحوهما فإذا ببَهْو فيه سرير من ذهبٍ، وعليه امرأةٌ عليها سبع عقود وسبع أساور، وعند رأسها لوحٌ من ذهب فيه مكتوب: أنا شادةُ الملكة بنتُ الملكِ الفلاني أصابتنا مجاعةٌ في زمن يوسف فبذلت صاعاً من درٍّ في صاع من برّ فلم يوجد، فطحنت الدرَّ وأكلته فمتُّ جوعاً.

ثم قال يوسف للملك: كيف رأيت الله خوَّلني، أو كيف رأيت صُنْعَ الله فيما خولني؟ فماذا ترى؟ فقال: نحن لك تبع، قال: فإني أُشهد الله وأُشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددتُ عليهم أموالهم وأملاكهم.

وروي: أن يوسف كان لا يشبعُ في تلك الأيام من طعام، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن مصر؟ فقال: أخاف إن شبعت نسيت الجياع. وأمرَ خبازَ الملكِ وطباخَه وساقيه أن يجعلوا طعامَهُ نصفَ النهار، فلذلك جعل الملوكُ طعامهم نصف النهار، وما فعل ذلك إلا لئلا ينسى المَلِكُ الجياع.

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٠ـ١٣١.

وقال ابن الكلبي: واشتغل يوسف عن زليخا فانحنت وعميت وغيَّرها الزمان.

ذكر دخول إخوة يوسف مصر لطلب الميرة وما جرى لهم معه

قال علماء السير: ولما وقع القحط بمصر عمَّ ذلك الشام وغيره، فقصد الناسُ مصرَ من كل ناحية يمتارون، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس، وكان يوسف لا يمكِّن أحداً من حمله الطعام إلى الشام سوى حمل بعير واحدٍ، تقسيطاً بين الناس وتوسعةً عليهم، فأرسل يعقوب بنيه العشرة، وكان منزلهم بالعَرَبات من أرض فلسطين بغَور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاء، وأمسك بنيامينَ عنده، فلما دخلوا عليه عرفهم يوسف وهم له منكرون[١].

فإن قيل: فلمَ أنكروه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: ما ذكره ابن عباس قال: كان بين أن ألقوه في الجب وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه.

والثاني: لأنه كان متزيياً بزيّ فرعون مصر، عليه ثياب الحرير، جالساً على سرير من ذهب، وفي عنقه طوق من ذهب، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالجواهر، فلذلك أنكروه، قاله مقاتل.

والثالث: أنه كان بينه وبينهم ستر، قاله مجاهد.

والرابع: كان على وجهه برقع من اللؤلؤ، قاله الضحاك.

والخامس: لأنهم جنوا عليه، والجناية تورث النُّكْرة، والوفاء يورث المعرفة، ولما أرادَ الله من إنفاذ قضائه وقدره[٢].

فلما نظر إليهم يوسف كلَّموه بالعبرية فقال: من أنتم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: نحن قوم رعاة من الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: لعلكم عيونٌ جئتم تنظرون عورةَ بلادي، قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس، وإنما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ١٣١، وتفسيره ٥/ ٢٣٣، وزاد المسير ٤/ ٢٤٧.

صدِّيق يقال له: يعقوب، نبيٌّ من أنبياء الله، قال: فكم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، فذهبَ أخٌ لنا مَعَنا إلى البرية فهلك فيها، وكان أحبَّنا إلى أبينا، قال: فكم أنتم هاهنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الآخر قالوا: عند أبينا لأنه أخو الذي هلك من أُمِّه، فأبونا يتسلَّى به، قال: فمن يعلم أنَّ الذي تقولون حق؟ قالوا: أيها الملك إنا ببلاد لا نعرفُ بها أحداً ولا يعرفنا أحدٌ. قال يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، فأنا أرضى بذلك. قالوا: إن أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه وإنا لفاعلون. فقال: دعوا بعضكم عندي رهينةً حتى تأتوني بأخيكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون[1]، وكان أبرَّهم بيوسف وأحسنهم رأياً فيه، فخلَّفوه عنده فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يعني حمل لكل واحد بعيراً بعددهم ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾ يعني بنيامين ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أي: لا أبخسُ الناس شيئاً وأتمُّ لهم كيلهم وأزيدهم حملَ بعير يعني آخر لأخيكم، وأحسن إليكم ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩] ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠] أي: لا تقربوا بلادي ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: نخدعه حتى يرسله معنا ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾[يوسف: ٦١] ما أمرتنا به.

وروي عن ابن عباس أنه قال: لم يأخذ منهم رهينة في المرة الأولى، بل ترك بضاعتهم في رحالهم. ثم قال يوسف «لفتيته[2]»، أي: لغلمانه: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ وفِتْيَته هم الذين يكيلون الطعام، والبضاعةُ هنا ثمن طعامهم.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: كانت بضاعتهم النعال والأدم والرحال والأوعية. وقيل: كانت دراهم فوضعوا كل صُرَّةٍ في حِمْلٍ ولم يعلم بها صاحبها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[يوسف: ٦٢] إليَّ.

فإن قيل: فلم فعل ذلك؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به إليه مرةً أخرى، قاله

---

(١) لعل الصواب: «يهوذا» فهو كان أبرّهم بيوسف كما تقدم في الصفحة ٤٧٨، وسيرد في الصفحة ٥١٤ أنه هو الذي كان محتبساً بمصر.

(٢) كذا في النسختين (ب) و(ل). وهذه قراءة أبي عمرو وابن كثير وابن عامر ونافع وأبي جعفر المدني ويعقوب. وقرأ حفص وخلف والكسائي وحمزة: لفتيانه، بنون بعد الألف، انظر التيسير ١٢٩، والنشر ٢/ ٢٩٥.

ابن الكلبي.

والثاني: خشي أن يضرَّ أخذه منهم ذلك بأبيهم إذ كانت السنةُ سنةَ جدب وقحط فأحبَّ أن ترجع إليه، وإنما قصد أن يتسع بها أبوه.

والثالث: لأنه رأى [لؤماً](١) أَخْذَ ثمن الطعام من إخوته وأبيه مع حاجتهم إليه، فردَّه عليهم من حيثُ لا يعلمون تكرّماً وتفضُّلاً.

والرابع: لأنه علم أَن أمانتهم تحملهم على ردِّ البضاعة، وأنهم لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وطمعاً في كرمه.

والخامس: أنه قصد أنهم إذا رأوها لم يروا أخذها مع الطعام لاحتمال أن كيَّال الطعام نسيها فيرجعون إليه، لا لأنهم أَدَّوْا الأمانة، لأن خيانتهم قد ظهرت في حق يوسف، وإنما يرجعون بها لئلا يراهم الملك بعين الخيانة، فلا يمكِّنهم من دخول مصر، فيموتون جوعاً.

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامةً لو كان رجلاً من ولد يعقوب لما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فأقرئوه مني السلام وقولوا له: إن أبانا يصلِّي عليك ويدعو لك بما أوليتنا. ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: أخذه الملك رهينةً، وقصوا عليه القصة، قال: ولِمَ أخبرتموه؟ قالوا: لأنَّا كلَّمناه بالعبرية فقال: أنتم جواسيس.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنْيامِين ﴿نَكۡتَلۡ ، وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[يوسف: ٦٣] فقال يعقوب: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبۡلُ ، فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٦٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ ومعناه: وأي شيء نطلب وراء هذا؟ أَوْفى لنا الكيل وردَّ علينا الثمن، وأرادوا بذلك أن يطيِّبوا نفسَ أبيهم كأنهم قالوا: ما نريد منك دراهم ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ أي: نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم، يقال:

(١) ما بين معقوفين من عرائس المجالس ٣٢، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٥، و«زاد المسير» ٤/ ٢٤٩ـ٢٥٠.

مَارَ أهلَه يميرُهم مَيْراً ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: من أجله ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[يوسف: ٦٥] لا كلفةَ فيه ولا مشقة.

وحكى الثعلبي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: حمل حمار، قال: وهي لغة، يقال للحمار: بعير، ولم يكن بأرض كنعان جمال وإنما كانت الحمير.

فقال: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: ميثاقاً وعهداً ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: حتى تحلفوا لي أن لا تغدروا بأخيكم ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ فتهلكوا جميعاً، وقال قتادة: إلا أن تُغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أي: أعطوه عهودهم ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[يوسف: ٦٦] أي: شاهد وحافظ بالوفاء، وقيل: كفيل، ولما خرجوا من عنده قال لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ مصر ﴿مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

فإن قيل: فالدخول من باب واحد أكثر في الهيبة، فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوي جمالٍ وهيبة وصورٍ حسان وقاماتٍ ممتدة، وكانوا ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا عند دخولها لئلا تصيبهم العين.

والثاني: أن معناه: لا تسألوا الملك حاجةً واحدة بأجمعكم، بل كل واحد يسأله حاجة.

والثالث: تفرقوا لعلكم تظفرون بيوسف، ثم قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ومعناه: أن المقدور كائن، وأن الحذر لا ينفع من القدر ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف: ٦٧] أي: المفوِّضون.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ وكان لمصر أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها كلِّها ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: من قَدَره ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ والحاجة: هي شفقتُه عليهم من العين ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ يعني يعقوب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٦٨].

فإن قيل: فكيف جاز ليوسف أن يفرِّقَ بين يعقوب وبين بنيامين، مع علمه بما في قلب أبيه من الحزن عليه وأنه يتسلَّى به.

فالجواب من وجوه: أحدها: أنه قصد تنبيه يعقوب بذلك على حياة يوسف. والثاني: أنه قصد سرور يعقوب بردِّ يوسف وأخيه عليه جملة. والثالث: أن هذه التفرقة تكون سبباً للوصلة.

ولما دخلوا على يوسف ومعهم بنيامين قال لهم: أهلاً وسهلاً بكم، وأكرم مثواهم وقال: سوف أفعل معكم ما ترون. وقال ابن الكلبي: لما دخلوا عليه قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فأجلس كل اثنين منهم على مائدة، وبقي بنيامين وحده يبكي ويقول: لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه. فقال يوسف: قد بقي أخوكم هذا وحيداً، فأَجْلَسه معه على مائدته وأكل معه، ثم فرش لكلِّ اثنين فراشاً، وفرش لبنيامين فراشاً فبكى فقال: نم معي على الفراش، فنام فجعل يضمه إليه ويشم ريحه ويبكي، فلما أصبح أنزلهم منزلاً وأحسن ضيافتهم، وقال: أرى هذا الرَّجُل الذي أتيتم به ليس معه ثانٍ، فسأضمُّه إليَّ فيكون منزله عندي. وخلا بأخيه فقال: ما اسمك؟ فقال: بنيامين، وقال: وأمك؟ فقال: راحيل، قال: فهل لك أخ؟ قال: كان وهَلَك، فقال يوسف: أتحبُّ أن أكون أخاك؟ فقال: من لي بذلك، ولكن لم يلدك يعقوب وراحيل، فبكى يوسف وقال: إني أنا أخوك وقام واعتنقه[1]. فذلك معنى قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ ثم قال له: اكتم هذا عن القوم ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[يوسف: ٦٩] بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا.

وقال عبد الصمد بن مَعْقِل، سمعت وهب بن منبه، وقد سئل عن قول يوسف لأخيه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ فكيف أخافه حين أُخِذَ بالصُّواع، وقد زعمتم أن يوسف لم يزل متنكراً لهم إلى آخر الأمر؟ فقال وهب: لم يعترف له بالنسبة، ولكنه قال: أنا أخوك مكانَ أخيك الهالك، ولم يقل له: أنا يوسف على الفور.

ثم طلب إخوة يوسف منه الكيل فأمر بذلك، ثم أمر بالسقاية أنْ تُجعلَ في رَحلِ بَنْيامِين.

والسقاية: المشربة التي يشرب بها الملك، وكانت من ذهب مرصعة بالجواهر،

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٣.

وقيل: كانت من فضة، جعلها يوسف مكيالاً لئلا يُكالَ بغيرها. وقال ابن عباس: كان لأبي في الجاهلية مثلها وهي والصواع واحدٌ.

وقال السُّدي: جُعلت في رحْل بنيامين ولم يشعر.

وقال كعب: لما قال له ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ قال بنيامين: فأنا لا أفارقك، قال يوسف: قد علمتَ اغتمام والدي بي، ومتى حبستك ازداد غمه فلا يمكنِّي هذا إلا بعد أن أنسبك إلى أمر فظيع لا يليق[1] بك، فقال: افعل ما بدا لك فإني لا أفارقك. قال: فإني أَدُسُّ صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بالسرقة، قال: افعل، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: هيَّأ لهم أسباب الميرة ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين ثم ارتحلوا مرحلة، وأرسل يوسف مَن رَدَّهم وحبسهم ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ وهي القافلة التي فيها الجمال، قال الفراء: لا يقال: عير إلا لأصحاب الإبل، وقال مجاهد: كانت العير حميراً ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠] ثم قالوا لهم: أَلَم نكرمْ مثواكم ونوفِّكم الكيلَ ونحسنْ إليكم؟ قالوا: فما الذي بكم؟ ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ أي: عطفوا على المؤذِّن وأصحابه وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وقرأ أبو هريرة: «صاع الملك» ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢] أي: كفيل .﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومعناه: والله ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]، ولما دخلنا بلادكم كَعَمْنا[2] أفواهَ الإبل لئلَّا ترعى ما ليس لها، فكيف نسرق وقد رددنا عليكم الدراهم؟ فلو كنا سارقين ما رددناها.

فإن قيل: فكيف سمَّاهم يوسف سارقين وما سرقوا؟ فالجواب: إنه من قول المنادي، ولو كان من قول يوسف فقد سرقوه.

﴿قَالُوا۟﴾ يعني المنادي وأصحابه ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾[يوسف: ٧٤] ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾[يوسف: ٧٥] وهو أن يسلَّم إلى المسروق منه فيسترقَّه سنةً، وكان ذلك سنَّةَ آلِ يعقوب في حكم السارق. فقال المنادي: لابد من

(١) من هنا بدأ خرم في (ب) ينتهي بعد ثلاث صفحات.

(٢) كعم البعير: شدَّ فاه لئلا يعض أو يأكل.

تفتيش رحالكم. وانصرف بهم إلى يوسف ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ دفعاً للتهمة، وكان يفتش أمتعتهم واحداً واحداً[1]. قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتش ولا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تأثماً مما قذفهم به[2]. حتى إذا لم يبقَ إلا بنيامين قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً، فقال إخوته: والله لا يُتْرَكُ حتى يُنْظَر في رحله، فإنه أطيبُ لنفسك ولنفوسنا، ففتحوا متاعه واستخرجوه منه، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وإنما قال: «استخرجها»، لأن الصاعَ يذكَّر ويُؤَنَّث، وقيل: ردَّه إلى السقاية، وقيل: إلى السرقة.

واختلفوا في معنى قوله ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ قال مجاهد: يعني كما فعلوا به في الابتداء فعلنا بهم في الانتهاء، لأن الله تعالى أخبر عن يعقوب أنه قال: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ والكيد جزاء الكيد.

وقال ابن عباس: معناه «كذلك كِدْنا ليوسف» أي: ألهمناه وصنعنا له حتى ضمَّ أخاه إلى نفسه وحال بينه وبين إخوته بعلَّة كادها الله له، فاعتلَّ بها يوسف ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ ويضمَّه إلى نفسه ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: في حكمه وقضائه، وبه قال قتادة.

وقال الضحاك: إن يوسف لم يتمكن من أخذ أخيه بَنْيامين وحبسه عنده في دين الملك، أي: في حكمه، لولا ما تلطفنا له حتى وجد السبيل إلى ذلك، وهو ما أجري على لسان إخوة يوسف أنَّ جزاءَ السارق الاسترقاق فأقرُّوا به وسلَّموا أخاهم، وكان ذلك مرادَ يوسف به.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على درجة إخوته ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦] قال الحسن: ما على ظهر الأرض عالم إلا وفوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى.

وقال وهب: ولما أخرج الصُّواع من رحل أخيه نكَّسَ إخوتُه رؤوسهم من الحياءِ وأقبلوا على بنيامين وقالوا: يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذتَ هذا

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٤.

(٢) «عرائس المجالس» ١٣٥.

الصُّواع؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل لا يزال بهم منكم البلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، وضَعَ الصُّواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحلكم.

ثم قالوا ليوسف: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[يوسف: ٧٧] واختلفوا في ذلك على أقوال:

أحدها: أن يوسف أخذ صنماً كان لجده أبي أمه فكسره وألقاه في الطريق، قاله سعيد بن جبير وقتادة.

والثاني: إن أمَّه أمَرته أن يسرق صنماً لخاله كان يعبده، وكانت مسلمة، قاله ابن جريج.

والثالث: أنه جلس يوماً مع إخوته على طعام فأخذ يوسف عرقاً فخبَّأه فعيَّروه، قاله الربيع.

والرابع: أن سائلاً جاءه فسرق بيضةً من البيت فدفعها إليه فعيَّروه بها.

والخامس: إنما كانت دجاجة دفعها إلى السائل، قاله سفيان بن عيينة.

والسادس: أنه سرق عَنَاقاً فدفعها إلى السائل، قاله كعب.

والسابع: أنه كان يخبأ من المائدة طعاماً للفقراء، قاله وهب.

والثامن: أنه كان مع أبيه عند خاله لابان فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب، قاله زيد بن أسلم.

والتاسع: أن أول ما دخل من البلاء على يوسف أن أمه لما وضعته رفعه يعقوب إلى أخته بنت إسحاق فأقام عندها حتى ترعرع وأحبته حباً شديداً، فطلبه يعقوب منها فقالت: لا صبر لي عنه فَدَعْهُ عندي أياماً، وعمدت إلى منطقة كانت لإسحاق يتوارثونها بالكبر، وكانت أكبر ولد إسحاق، فشدَّتها على وسطه تحت ثيابه، وكان من سنَّتهم أنَّ السارقَ يُسْتَرقُّ بسرقته، فلما جاء يعقوب يطلبه قالت: فقدتُ المنطقةَ، ثم وضعت مَنْ كَشَفَ ثيابَ يوسف فظهرت المنطقة، فأخذته، فلم يقدرْ عليه يعقوبُ حتى ماتت أخته، قاله ابن عباس وابن أبي نجيح والضحاك ومجاهد[1]. وهذا المثل السائر:

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٥.

عُذْرُه شرٌّ من جُرمه، كذا قولُ إخوة يوسف: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

وقال مقاتل: أقبلوا يلطمون وجه بنيامين وهو يقول: وشيبةِ إبراهيم ما سرقتُ، ويبكي، وإنما قال ذلك ليقصروا عن ضربه ومعيرته ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ أي: أضمرها ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ومعنى أسرَّها إشارة إلى المقالة فأنَّث للكناية و﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: شر منزلاً عند الله ممن رميتموه بالسرقة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ٧٧] أي: تكذبون.

قال مقاتل: ثم إن يوسف أخذ الصواع بيده فنقره[(١)] ثم أدناه إلى أذنه وقال: هذا الصُّواع يخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً وأنكم انطلقتم بأخٍ لكم صغير فألقيتموه في جبٍّ ثم بعتموه، فقام بنيامين وسجد له وقال: أيها الملك سَلْ صواعك هل أخي حيٌّ أم لا؟ فنقره فقال: هو حيٌّ وسوف تراه[(٢)].

فإن قيل: فالصواع لا ينطق، قلنا: هذا على سبيل المجاز والتوسعة، فقال بنيامين: أيها الملك سَلْ صُواعك فيخبرك بالحق مَن الذي سرقه وجعله في رحلي؟ فنقره وقال: إن صواعي غضبان يقول: كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيتَ مع مَنْ كنتُ؟ وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، فغضب روبيل وقال: والله أيها الملك لتَتْرُكَنَّا أو لأصيحنَّ صيحة لا يبقى بمِصْر امرأةٌ حاملٌ إلا وألقتْ ما في بطنها، وقامت كلُّ شعرةٍ في جسده فخرجتْ من ثيابه، وكان بنو يعقوب إذا غضب منهم واحد فمسَّه آخر من ولد يعقوب ذهب غضبه فقال يوسف لابنه: قم إليه فَمُسَّهُ، ففعل، فذهب غضبه، فقال روبيل: إن في هذا البلد لبذراً من بذر يعقوب.

فلما أصرَّ يوسف على أنه لا يسلِّم إليهم أخاهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٧٨] في أفعالك وقبولك لنا.

فإن قيل: فما معنى هذا الإحسان وقد فعل بهم ما فعل؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أن معناه من المحسنين إن أطلقتَ أخانا. والثاني: بإنزالك إيَّانا وإكرامنا وعدم المؤاخذة بما قلنا.

---

(١) هنا ينتهي الخرم في (ب) الذي أشير إليه قريباً.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ١٣٥.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل: مَنْ سرق احترازاً من الكذب ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾[يوسف: ٧٩] إنْ أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ﴾ أي: يئسوا أن يجيبهم إلى ما سألوا ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أي: خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ واختلفوا فيه، قال ابن عباس: رُوبيل، وقال مجاهد: شمعون، وقال مقاتل: يَهُوذا، وكان أسنهم وأعقلهم، وقال ابن إسحاق: لاوِي ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ أي: عهداً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي: قصَّرتم ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بأرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالخروج منها ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالخروج منها وترك أخي فيها ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[يوسف: ٨٠] الفاصلين بين الناس.

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ هذا قولُ أخيهم يَهوذا الذي كان محتبساً بمصر ﴿فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ صُواع الملك ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وليست هذه شهادة، وإنما هي إخبار عن ما نُسب إلى بنيامين من السرقة ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾[يوسف: ٨١] أي: ما كنا نعلم أنَّ ابنك سيسرق، ولو علمنا ما أخذناه معنا. وقال الضحاك: الغيب بلغة حمير هو الليلُ، يعنون أنه سرق ليلاً وهم نيام.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ وهي مصر ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: القافلة، ومن صحبناه من جيراننا، وكل هذا قالوه ليزيلوا التهمة عنهم.

فلما وصلوا إلى أبيهم وأخبروه ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: حَسَّنَتْ وزيَّنت، ومعناه فصبري جميلٌ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني يُوسف وبنْيامين وأخاهما المقيم بمصر ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحزني على فقدهم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾[يوسف: ٨٣] فيما حكم علي ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ والأسف أشد الحزن ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ قال مقاتل: أقام ست سنين لم يبصر بهما ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف: ٨٤] والكظيم: المكظوم الممسك على الحزن الذي لا ينتهي عنه، ومنه كظم الغيظ.

وقال أبو إسحاق الثعلبي بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لَم يُعْطِ الله أمَّةً مِنَ الأممِ» ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦] عند المُصيبةِ

إلَّا هذِه الأمةَ، ألَم تَسمَعْ إلى قولِ يعقوبَ حينَ أصابَه ما أصابَه، فإنَّه لم يَسترجِعْ، وإنَّما قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤][(١)]. وقال الفرّاء: معناه يا ربِّ ارحمْ شدةَ أسفي على يوسف.

وقال الحسن البصري: بين خروج يوسف من حجر أبيه وبين أن التقيا ثمانون عاماً لم تجفَّ فيها عينا يعقوب، وما كان على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب. وفي رواية: مات أخو الحسن البصري فأقام سنة لا ينام الليل، فقيل له في ذلك فقال: الحمد لله الذي لم يجعل حزن يعقوبَ على ولده عاراً.

فإن قيل: فقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لا يوافق فصبرٌ جميل، قلنا: قد ذكرنا أن معناه يا ربِّ ارحم شدَّة أسفي على يوسف فلا يكون شكاية.

وقال أبو حنيفة ابن النُّوبي: لما قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ نودي: أتشكونا وقد أخذنا منك واحداً وأبقينا أحد عشر؟

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: دَنفاً، وقيل: هالكاً فاسداً ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[يوسف: ٨٥] أي: الموتى.

فلما أغلظوا له ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إليكم، والبث: أشدُّ الحزن، وقيل: إنما سمِّيَ البثُّ أشدَّ الحزن لأن صاحبه لا يصبرُ عليه حتى يَبُثَّهُ، أي: يظهره.

وحكى الثعلبي قال: دخل على يعقوب جار له فقال له: ما لي أراكَ قد انهشمت وفنيت، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ فقال: همُّ يوسفَ فعل بي هكذا، فأوحى الله إليه، يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا ربِّ خطيئةٌ أخطأتها فاغفرها لي، قال: قد غفرتها لك، وكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وفي رواية: أن يعقوب كبر حتى سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بخرقة، فقال له رجل: ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله

(١) «عرائس المجالس» ١٣٧ ، وتفسير الثعلبي ٥/ ٢٤٧، وأخرجه الطبري ٣/ ٢٢٤، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢٤٢) من قول سعيد بن جبير، قال البيهقي: رفعه بعض الضعفاء إلى ابن عباس ثم منه إلى النبي ﷺ.

إليه، وذكره.

وفي رواية: وعزَّتي لو كانا ميتين لأخرجتهما لك حتى تنظر إليهما، وإنما وجدت عليك لأنك ذبحت شاةً فقام ببابك مسكين فلم تطعمه منها شيئاً، وإن أحبَّ خلقي إليَّ الأيتام ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادعُ إليه المساكين، فصنع طعاماً وقال: من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب.

وذكر الثعلبي عن وهب قال: أوحى الله إلى يعقوب: أتدري لم عاقبتك وحبست يوسف عنك ثمانين سنة؟ قال: لا يا إلهي، قال: لأنك شويتَ عَنَاقاً وقتَّرتَ على جارك فلم تطعمه. وفي رواية: وقف على بابك سائلٌ اسمه دانيال فرددته خائباً، فانصرف حزيناً.

قال: وقال وهب والسُّدي وغيرهما[1]: جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف وهو في السِّجن فقال: هل تعرفني أيها الصدِّيق؟ قال: أرى صورةً طاهرةً وريحاً طيبة، قال: أنا الروح الأمين، رسولُ ربِّ العالمين، قال: فما الذي أدخلك مدخل المذنبين، وأنت أطيب الطيبين، ورأس المقربين، قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله يطهر البيوت والأرضين بالنبيين وقد طهَّر بك السجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين، قال: وكيف لي باسم الصدِّيقين، وأنا في عداد المذنبين، وقد دخلت مدخل العاصين؟ قال: لأنك لم تعصِ ربّك ولم تطع امرأة العزيز فلذلك ألحقك الله بآبائك الصالحين، قال: هل لك علمٌ بيعقوب؟ قال: نعم وهَب الله له الصبر الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم، قال: فما قدْر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، قال: فما له من الأجر؟ قال: أجرُ مائةِ شهيد، قال: أفتراني لاقيه؟ قال: نعم؛ فطابت نفس يوسف وقال: ما أبالي ما لقيتُ إن رأيته.

وقال مقاتل: أوحى الله إلى يعقوب أتدري لم عاقبتك؟ قال: لا، قال: لأنك ذبحتَ شاةً وهي تنظر إلى سخلتها، فعاقبتك بفراق ولدك لتذوقَ ألم الفراق.

وقال أبو حنيفة النُّوبي: فأراه دماً بدم، وفرقةً بفرقة، وحرقة بحرقة، فقال: يا إلهي

---

(١) تفسير الثعلبي ٥/ ٢٤٩ـ٢٥٠، و«عرائس المجالس» ١٣٧.

فولدي حيّ؟ قال: نعم وسوف تراه. فما ذبح بعدها شاة ولا أكل إلا مع مسكين أو يتيم. وقيل إنه مال إليه بقلبه فابتلي بفراقه.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٨٦] قال ابن عباس: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأنكم ستسجدون له.

وقال مجاهد: دخل ملك الموت على يعقوب فقال له: هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا، فطمع في لقائه.

وقال مجاهد: خرج يعقوب إلى البرية فرأى ذئباً فسلَّم عليه وكلَّمه فقال له يعقوب: أكلتم ولدي وقرةَ عيني، قال: لا والله يا يعقوب، إنَّ الله حرَّم علينا لحومَ أولاد الأنبياء، فحينئذ قال لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا﴾ أي: تقنطوا ﴿مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أي: من فَرَجه ورحمته ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧] وقال ابن عباس: التحسس ـ بالحاء المهملة ـ في الخير، وبالجيم في الشرّ.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وفي الآية إضمار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أي: يا أيها الملك بلغة حمير ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ الجوع والقحط ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أي: قليلة كاسدة غير نافقة.

واختلفوا في هذه البضاعة ما كانت، على أقوال:

أحدها: كانت دراهم زيوفاً لا تَنْفُقُ إلا بوضيعة(١)، قاله ابن عباس. والثاني: أنها متاع الأعراب الصوف، قاله باذان.

والثالث: السمن. والرابع: حبّ الصنوبر وحبة الخضراء، قاله مقاتل.

والخامس: كانت فلوساً، قاله ابن جبير.

والسادس: كانت أَقِطاً، قاله الحسن.

والسابع: سَويق المُقْل(٢).

---

(١) يعني بنقصان.

(٢) طعام يتخذ من دقيق الشعير أو الحنطة.

والثامن: النعال والأدم، قاله الضحاك.

﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافي ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي: تفضَّل ولا تُنْقِصْنا من السعر، هذا قول أكثر المفسرين، وقال ابن جريج: معناه وتصدَّقْ علينا بردِّ أخينا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾[يوسف: ٨٨].

فإن قيل: فلمَ لمْ يقولوا: إن الله يجزيك؟ قلنا: لأنهم ما عرفوا أنه على الإسلام وظنوه كافراً. وفي الآية دليلٌ على أن الصدقة كانت على الأنبياء وأولادهم حلالاً، قال سفيان الثوري[(١)]: ودلَّ على ذلك هذه الآية، وإنما حرمت على نبيِّنا ﷺ. وسمع الحسن رجلاً يقول: اللهم تصدَّقْ عليَّ فقال: يا هذا إنّ الله لا يتصدَّق، وإنما يتصدَّق من يبغي الثواب، وإنما قُلِ: اللهمَّ أعطني وتفضَّلْ عليَّ.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، على أقوال:

أحدها: أنهم لما كلَّموه بهذا القول رقَّ لهم وغلبه دمعه فباح بما كان يكتم، قاله ابن إسحاق.

والثاني: أنه حكى لهم عن مالك بن دُعر أنه قال: وجدت غلاماً في بئر فاشتريته بكذا وكذا درهماً، فقالوا: أيها الملك نحن بعنا ذلك الغلام منه، فغاظ ذلك يوسف وأمر بقتلهم، فذهبوا بهم ليقتلوهم، فقال يهوذا: كان يعقوب يحزن ويبكي لفقد واحدٍ منَّا حتى كفَّ بصره، فكيف إذا بلغه قتل بنيه كلِّهم؟ ثم قال له يَهُوذا: إذا كان ولابدَّ من قتلنا فابعثْ بأمتعتنا إلى أبينا فهو بمكان كذا، فبكى حينئذ ورقَّ لهم، قاله الكلبي.

والثالث: لأن يعقوب كتب إليه كتاباً يقولُ له فيه: مِن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله، أما بعد: فإنَّا أهل بيت موكّل بنا البلاء، أما جدي فشدَّت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشدَّت يداه ورجلاه ووضعت السكين على حلقه، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن

(١) القول في تفسير الطبري ١٦/ ٢٤٢، والثعلبي ٥/ ٢٥٢، وعرائس المجالس ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٢٧٩ وغيرها من كتب التفسير: عن ابن عيينة لا الثوري.

وكان أحبَّ أولادي إليَّ، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا: أكله الذئب، فذهبت عيناي من البكاء عليه، وكان له أخ من أمه كنتُ أتسلَّى به، فذهبوا به وعادوا وقالوا إنه سرق وإنك حبسته. وإنّا أهل بيت لا نسرق ولا نلدُ سارقاً، فإن رددته وإلّا دعَوتُ عليك دعوةً تبلغُ السابعَ من ولدك. فلما قرأ يوسف كتابه لم يملك عينيه أن فاضتا، ثم قال لهم ذلك. قاله سعيد بن جبير.

وروي أن يوسف كتب إلى أبيه: أما بعد فإنك ذكرتَ ما ابتلي به آباؤك، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا، والسلام.

والرابع: أن يوسف سأل بنيامين فقال: ألك ولد؟ قال: نعم ثلاثة بنين، قال: فما سميتهم؟ قال: سميت الأكبر يوسف، قال: ولـمَ؟ قال: محبة لك، قال: فما سميت الثاني؟ قال: ذئباً؟ قال: لم فعلت ذلك وهو سبع عقور؟ قال: لأَذْكُرَكَ به، قال: فما سَمَّيْتَ الثالث؟ قال: دماً، قال: ولم؟ قال: لأنهم جاؤوا على قميصك بالدَّم. فلما سمع يوسف هذه المقالة خنقته العبرة وقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾[يوسف: ٨٩]، بما يؤول إليه أمره ونصره عليهم[1]. وقيل: جاهلون مذنبون، لأن المذنب جاهل في وقت ذنبه، وقال الحسن: إذ أنتم شباب، لأن مظنة الجهل الشباب، وهذا أجود.

فإن قيل: إنما أساؤوا إلى يوسف فلم قال: «وأخيه» ولم يسعوا في حبسه؟

فالجواب: إنهم لما فرَّقوا بينهما وهما من أمّ واحدة فقد أساؤوا إليهما.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ كشف الحجاب عن وجهه فعرفوه، وقال ابن عباس: لما قال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ تبسَّم، وكان إذا تبسَّم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم، فلما أبصروا ثناياه شبهوه بيوسف. وعن ابن عباس قال: لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له في قرنه علامة، وليعقوب ولإسحاق ولسارة مثلها، وهي شبيهة الشامة، فقالوا ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ بنيامين ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بأن جمع بيننا بعدما فرقتم أنتم ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ الله بأداء فرائضه واجتناب

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٣٩.

محارمه ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ على الوقوع في الجبِّ والبيع والحبس ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسف: ٩٠] فقالوا مقرِّين معتذرين: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: اختارك وفضلك بالعقل والعلم، والفضل والحلم، والحسن والملك ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾[يوسف: ٩١] في صنعنا بك[1]. وسئل ابن عباس فقيل له: كيف قالوا: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ وقد كانوا تعمدوا ذلك؟ [فقال:] معناه أخطؤوا الحق وإن تعمدوا، وكلٌّ من أتى ذنباً فقد أخطأ المنهاج.

﴿قَالَ﴾ يوسف وكان حليماً موفقاً: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ أي: لا تعيير ولا تأنيب عليكم، ولا أذكر لكم ذنباً بعد اليوم، ثم دعا لهم فقال: اليوم ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٩٢] قال ابن عباس: ولما فتح رسول الله ﷺ مكة أخذ بعضادتي باب الكعبة، وقد لاذ الناس بالبيت فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم»؟ قالوا: نظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرتَ، قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف لإخوته ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ الآية».

ثم قال: ما فعل الشيخ أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه وقال: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ أي: مبصراً ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[يوسف: ٩٣] فإن قيل: فمن أين علم يوسف ذلك؟ فالجواب: إن ذلك القميص كان من الجنة، وقيل: كان القميص الذي كساه الله الخليلَ يوم النار، وقد ذكرناه. وقال مقاتل: قال له جبريل: ابعثْ به فإنه لا يقع على مبتلى إلا وعوفي.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ يعني من مصر إلى أرض كنعان ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ روى مجاهد أن الريح استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، فأذن لها فأتته به، قال مجاهد: وجد ريحَ يوسفَ من مسيرة ثلاثة أيام فوصل إلى يعقوب ذلك لأنها صفقت [القميص] فاحتملت ريح يوسف فوجد يعقوب ريح الجنة، فعلم أنه ليس في الأرض من ريح الجنَّة إلا ما كان من ذلك القميص[2]. وقال ابن عباس: وجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. وقال الحسن: كان

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٤٠.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ١٤٠ وما بين معقوفين زيادة منه.

بينهما ثمانون فرسخاً. وعن ابن عباس: مثلُ ما بين البصرة والكوفة.

فإن قيل: فلم قال: ﴿رِيحَ يُوسُفَ﴾ ولم يقل: ريح القميص؟

فالجواب: أن غرضه كان يوسف ولهذا لم يجد ريح القميص من كان عند يعقوب ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[يوسف: ٩٤] أي: تُجهّلون وتسفّهون رأيي وتكذبون ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾[يوسف: ٩٥] أي: خطأك في حبِّ يوسف لا تنساه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ أي: المبشر، قال ابن عباس: وهو يهوذا بن يعقوب.

قال السُّدي: قال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى أبي فأخبرته أنه أكله الذئب، وأنا أذهب بالقميص فأبشره أنه حي فأفرحه كما أحزنته.

وقال السُّدي عن ابن عباس: حمله يهوذا دونهم، وخرج حاسراً حافياً يعدو حتى أتاه، مَشَى ثمانين فرسخاً في سبعة أيام، ومعه سبعة أرغفة لم يستوفِ أكلها حتى وصلَ إليه فـ ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ بعدما كان أعمى، وعاد قوياً بعد أن كان ضعيفاً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٩٦] من حياة يوسف وأنَّ الله يجمع بيننا؟ فقالوا عند ذلك: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[يوسف: ٩٧] أي: مذنبين ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾.

فإن قيل: فلم أخَّر يعقوب الاستغفار بقوله: ﴿سَوْفَ﴾؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه أخَّره إلى وقت السحر لأن الدعاءَ بالأسحار لا يُحْجَبُ عن الله تعالى، قال وهب: وأقام يستغفر لهم كلَّ ليلةِ جمعةٍ وقتَ السحر نيفاً وعشرين سنة.

والثاني: أن طلب الحوائج من الشباب أسهل من الشيوخ، قاله عطاء الخراساني، قال: ألا ترى إلى قول يوسف لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ وقول يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾.

والثالث: لأن ذلك الحقَّ كان متعلقاً بالغير، وهو يوسف، فقال: سوف أسأل يوسف، فإن عفا استغفرتُ، قاله الشعبي.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يوسف: ٩٨] ثم قال يعقوب ليهوذا: كيف خلفت

يوسف؟ قال: ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك، على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة(١).

وقال علماء السير: كان يوسف قد بعث إلى أبيه بمئتي راحلة وجهاز، وسأله أن يأتيه بأهله وولده أجمعين، فتهيأ يعقوب وسار، فلما دنا يعقوب من مصر كلَّم يوسفُ الملكَ الذي فوقه في خروجه، فخرج يوسف والملك في أربع مئة ألف من الجند، وركب معهما أهل مصر يتلقون يعقوب، وأقبل يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال يعقوب: يا يهوذا هذا فرعون مصر؟ قال: هذا ابنك، فلما دنا كلُّ واحدٍ منهما من صاحبه ترجَّلَ يوسف وذهب ليبدأه بالسلام، فمنعه يعقوب من ذلك لأنَّ القادم يسلِّم، فقال يعقوب: السلام عليك يا مُذْهِبَ الأحزان.

وقال سفيان الثوري: لما التقيا عانق كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، وبكى يعقوب ويوسف، فقال يوسف: يا أبتِ بكيتَ عليَّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى، ولكنْ خفتُ أن يُسْلَبَ دينك فيُحال بيني وبينك [يوم القيامة].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾[يوسف: ٩٩] فإن قيل: فأمه كانت قد ماتت، فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الله أحيا أمه راحيل وأقامها من قبرها حتى سجدت له تحقيقاً لرؤياه، قاله الحسن.

والثاني: أن المراد خالته، لأنها أمه من حيث المعنى، قاله ابن عباس.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على السرير، أجلسهما معه ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ بأجمعهم، وليس المراد به وضعَ الجبهةِ لأنه حرام في جميع الشرائع لغير الله، وإنما أراد الانحناء والتواضع على طريق التحيّة والتسليم لا على وجه العبادة والتعظيم، فقال يوسف عند ذلك واقشعر جلده: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

فإن قيل: فلمَ لم يسجد له إخوته حين عرفوه؟ فالجواب: لأنه رأى الشمس والقمر والكواكب قد سجدوا له جملةً، فتأويل رؤياه يكون كذلك.

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ١٤١.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ فإن قيل: فلمَ لم يقل: من الجبِّ وهو أوّل ما ابتلي به؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه استعمل الكرم لئلا يذكِّر إخوته ما فعلوا به فيكون تأنيباً لهم وقد قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾.

والثاني: لأن نعم الله عليه في نجاته من السجن كانت أكثر عليه من نعمته في إنقاذه من الجب؛ لأن وقوعه في الجب كان من حسد إخوته، ووقوعه في السجن مكافأة من الله تعالى لزلَّته.

والثالث: أن السجن جبٌّ أيضاً، فحسَّنَ العبارة.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ لأن يعقوب وبنيه كانوا أهل بادية ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: أفسد ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ﴾ أي: ذو لطف وصنع ﴿لِّمَا يَشَآءُ﴾ عليم عالم بدقائق الأمور وحقائقها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[يوسف: ١٠٠].

وقال علماء السير: ولما جمع الله شمل يوسف، وأقرَّ عينه وأتمَّ له رؤياه، وكان موسعاً عليه في دنياه، علم أن ذلك لا يدوم ولابدَّ من فراقه، فأراد نعيماً هو أفضل منه، فتاقت نفسه إلى الجنة، فتمنى الموت فدعا، ولم يتمنَّ نبيٌّ قبله ولا بعده الموت، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ يعني مُلْك مِصْر ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يعني تعبير الرؤيا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يا خالقهما وبارئهما ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾ معيني ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ أي: اقبضني إليك ﴿وَأَلْحِقْنِى﴾[يوسف: ١٠١] بآبائي الصالحين أي الأنبياء. وإنما تمنَّى الموت لأنه خاف من تغير الحال، فتوفاه الله طيباً طاهراً.

وحكى الثعلبي عن يزيد الرَّقاشي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «لما جَمَع اللهُ ليعقوبَ شَمْلَه، خَلا وَلَدُهُ نجيّاً فقال بعضُهم لبعضٍ: أليسَ قد عَلِمتُم ما صَنَعتُم وما لقيَ منكُم الشَّيخُ يعقوبُ ويوسفُ؟ قالوا: بلَى، قالوا: فإن عَفَوَا عنكُم فكيفَ لكُم بربِّكم؟ فاستَقَام أمرُهُم على أَنْ يأتُوا الشَّيخَ يعقوبَ، فأَتَوه فجلَسُوا بينَ يدَيْهِ ويوسفُ إلى جانبِهِ فقالوا له: يا أَبانا أَتيْنَاك في أمرٍ لم نأتِكَ في مثلهِ قطُّ، ونزل بنا أمرٌ لم يَنزِلْ بنا مثلَه قطُّ، حتى حرَّكوهُ؛ لأنَّ الأنبياءَ أرحَمُ البريَّة، فقال: ما لكُم يا بَنِيَّ؟ قالوا: أَلَستَ قد عَلِمتَ ما كان منَّا إليكَ وإلى أخِينا؟ قال: بلى، قالوا: أَفَلَستُما قد عَفَوْتُما؟ قالا:

بلى، قالوا: فإنَّ عَفْوَكُما لا يُغنِي عنا شيئاً إنْ كانَ الله لم يَعفُ عنَّا، قال: فما تُريدُون؟ قالوا: نُريدُ أن تَدعُوَا الله [لنا]، فإذا جَاءَك الوحْيُ مِنَ اللهِ أَنَّه قد عَفَا عنَّا، طابَتْ قلُوبُنا وقَرَّت عُيونُنا، وإلَّا فلا قرَّتْ لنا عينٌ في الدُّنيا أبَدَاً، فقامَ الشَّيخ فاستقبَلَ القبلةَ، وقَامَ يوسُفُ خَلْفَه، وقامُوا خَلفَهُما أذلَّةً خاشِعينَ ودَعَا يعقوبُ ويوسفُ يؤمِّن، فلم يَزَلْ فيهم عشرينَ سنةً» قال صالح المرِّي: فلما كان رأس العشرين نزل جبريل على يعقوبَ فقال: إن الله قد أجاب دعاءَكَ فيهم، وقد عفا عمَّا صنعوا، وإنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوَّة[١].

وقال مجاهد: إنَّما تأخرت الإجابةُ عشرين سنة لأنه كلَّما تفاقم الذنب تعاظمت العقوبة.

وقال مقاتل: ركب يوسف يوماً في ثمان مئة ألف، وعلى رأسه ألفا لواء يتفقد أمورَ الرعية، وكان قد هجر زَلِيخا وعميت وانحنت فلبستْ جُبَّةَ صوفٍ وشدَّتْ وسطها بحبلٍ من ليف، ووقفت على قارعةِ الطريق فلما حاذاها نادته يا يوسف بالذي جعل العبيد ملوكاً بالطاعة، والملوكَ عبيداً بالمعصية كلِّمني، فوقف وبكى بكاءً شديداً لما سمع هذه الكلمات، ثم قال: من أنتِ؟ فقالت: زَلِيخا، قال: وأين شبابُكِ؟ قالت: ذهب به الذي أَذهَبَ ذُلَّكَ ومسكنتك، وأعطاك هذا المُلك، قال: فما تريدين؟ قالت: ثلاث حوائج، قال: سلي، قالت: أما الأولى فَيُردُّ عليَّ بصري وشبابي وأن تتزوَّجني، فسأل الله فردَّ عليها بصرها وشبابها وتزوَّجها، وإذا هي عذراء كما كانت بعد أن أتت عليها مئة وعشرون سنة، وأولدها أولاداً.

وذكر جدي في «التبصرة» بمعنى هذا فقال: كان يوسف يركب في كل شهر ركبة في ثمان مئة ألف ومعه ألف لواء وألفا سيف فيدور في عمله، وينصف المظلوم من الظالم، وكانت زليخا تلبس جبةَ صوف وتشدُّ وسطها بحبل من ليف وتناديه فلا يسمع، فنادته يوماً: يا أيها العزيز، سبحان مَنْ جعل العبيدَ ملوكاً بالطاعة، وذكَّرته، فسمعها

(١) الخبر في تفسير الثعلبي ٥/ ٢٦١، وعرائس المجالس ١٤٢-١٤٣، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٨١ موقوف على أنس، قال ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤٩٣: هذا الأثر موقوف عن أنس، ويزيد الرقاشي وصالح المري [الواردان في إسناد هذا الخبر] ضعيفان جداً.

فبكى وقال لفتاه: انطلق بهذه العجوز إلى الدار واقضِ لها كلَّ حاجة، فجاء إليها الغلام وقال: ما حاجتك يا عجوز؟ قالت: إنَّ حاجتي مُحَرَّمةٌ أنْ يقضيَها غير يوسف، فجاء يوسف فوقف عليها فقال: ما حاجتك؟ فذكرت الثلاث حوائج، فقضاها، وأولدها اثني عشر ولداً، ذكر هذا أبو الحسين ابن المنادي وغيره، وقد ذكره الثعلبي(١).

ذكر وفاة يعقوب

ذكر جدي أيضاً في «التبصرة» وقال: أقام يعقوب عند يوسف أربعة وعشرين سنة في أهنأ عيش، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمله إلى الشام، فيدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل(٢).

وقال مقاتل: لما مات يعقوب حمله يوسف في تابوت من مصر إلى الشام، ومضى معه بنفسه، ووافق ذلك يوم مات عيص فدفنا في مكانٍ واحدٍ كما ولدا من بطن واحد، وكان عمرهما جميعاً سواء مئة وستاً وأربعين سنة.

وقد ذكره الثعلبي بإسناده إلى وهب بن منبه وقال: دخل يعقوب إلى مصر وولده وهم اثنان وسبعون إنساناً من رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى وهم ست مئة ألف وخمس مئة وبضع وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمَى والزَّمْنَى، وكانت الذرية ألف ألف ومئتي ألف سوى المقاتلة. وذكر أن يوسف حمل أباه يعقوب إلى الشام فدفنه عند آبائه، وعاد إلى مصر، وذكر موت عيصو قال: ودفن هو ويعقوب في قبرٍ واحد، وحكى ما حكينا(٣).

ذكر وفاة يوسف

قال علماء السير: توفي يوسف بعد أبيه بمدَّة، فدفن في النيل في الليل في صندوق من مرمر، ولما مات تشاحَّ الناسُ فيه كلٌّ يريدُ يدفنه في محلَّته لما يرجو من بركته، وهموا بالقتال، ثم أجمعوا على أن يدفنوه في النيل حيث يفترقُ الماءُ عليه ثم تصل

(١) «التبصرة» ١/ ١٨١، والمنتظم ١/ ٣١٥.
(٢) «التبصرة» ١/ ١٨٢، والمنتظم ١/ ٣١٩.
(٣) تفسير الثعلبي ٥/ ٢٦٠.

بركته إلى الجميع، ففعلوا، وبقي هناك إلى زمان موسى عليه السلام لما نذكر.

وقال مقاتل: ولما احتضر يوسف أوصى إلى أخيه يهوذا فقام بالأمور بعده.

واختلفوا في مدة غيبة يوسف عن أبيه على أقوال: أحدها: غاب ثمانين سنة، قاله الحسن البصري. والثاني: أربعين سنة، قاله ابن عباس. والثالث: اثنتين وعشرين سنة، وهو قول الكلبي. والرابع: سبعين. والخامس: سبعاً وسبعين، قاله عبد الله بن شَوذب.

وقال الحسن البصري: ألقي في الجبّ وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزل العزيز ثلاث عشرة سنة وفي السجن، ثم استوزر بعد ثلاثين سنة، وعاش بعد لقاء أبيه اثنتين وعشرين سنة، ومات ابن مئة وعشرين سنة. وفي «التوراة» أنه عاش مئةً وعشر سنين[١].

وذكر جدي في «أعمار الأعيان»: أنه عاش مئة وعشرين سنة، قال: وكذا عاش موسى بن عمران عليه السلام، وحكيم بن حزام، وحُويطِب بن عبد العزى، وعديٌّ بن حاتم الطائي، والنابغة الجعدي والحُطيئة الشاعران، وعبد خير صاحب علي ﷺ، وحسان بن ثابت وأبوه وجدُّه، لما نذكر، وأبو عمرو سعد بن إياس الشيباني والمعْرور ابن سُوَيْد، وأبو عبد الله المغرِبيُّ الصُّوفي، وأستاذه علي بن رزين وخيرُ النَّساج وغيرهم، عاش كلُّ واحدٍ مئة وعشرين سنة[٢].

انتهت ترجمة يوسف عليه السلام



(١) «سفر التكوين» (٥٠ : ٢٢).

(٢) أعمار الأعيان ٩٥ـ٩٧.

فهرس الموضوعات